تفسير البالِيساني
المعروف
في حسن البيان
تأليف
المرحوم العلامة الشيخ محمد ابن الشيخ
ملا البالِيساني (رحمة الله عليه)
١٣٣٦هـ/١٩١٨م - ١٤١٥هـ/١٩٩٥م
الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م
دار إحياء التراث العربي

حسن البیان
فی
تفسیر القرآن

تأليف

المرحوم العلامة الشيخ محمد بن الشيخ طه آل باليساني
(رحمة الله عليه)

المجلد السادس

(هذا التفسير)

قام بجمعه وإدخاله الحاسوب على حسابه الخاص والإشراف عليه
والتصحيح الأولي الأستاذ المساعد الدكتور حسين الباليساني

وقام بالمراجعة والتصحيح النهائي وبعض الأحاديث وبعض التعليقات في
الهامش الأستاذ الدكتور أحمد الباليساني، وكلاهما نجلا الشيخ المفسر.
نسأل الله لهما العفو والعافية والأجر والثواب.

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان
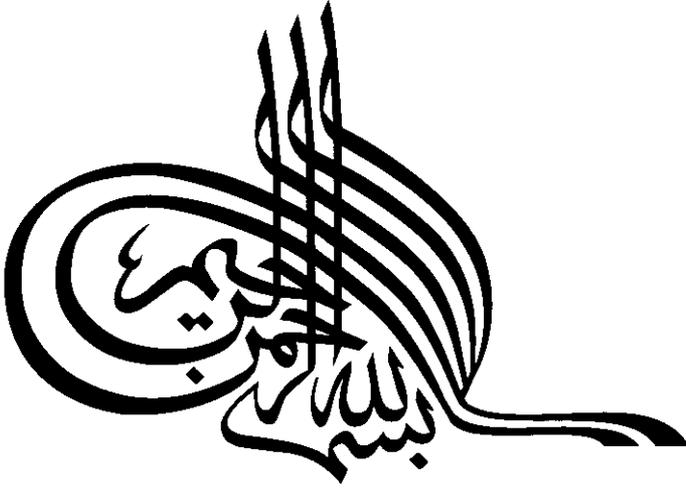
سورة الحديد

(مدنيّة، نزلت بعد سورة الزّلزلة، وآياتها تسع وعشرون، سمّيت بالحديد لما فيها من قوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد﴾ ... الخ).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

إنّ هذه السّورة الشّريفة تأمر بالإيمان بالله تعالى والتّضحية والفداء بالمال والأنفس في سبيل إعلاء كلمته ونشر دينه وبأنّه يثيب المجاهدين والّذين اتّبعوا دينه ونشروا شريعته ويعاقب الّذين ينافقون والّذين يكفرون بدينه ورسوله، ولذلك صدرت السّورة بالتّسبيح وذكر ما تدلّ على عظمة الله تعالى من أنّ له ما في السّموات والأرض وبيده الإحياء والإماتة وأنّه الّذي خلق السّموات والأرض واستوى على العرش، ويعلم كلّ شيء، وأنّ كلّ شيء يرجع إليه وأنّه يولج اللّيل في النّهار ويولج النّهار في اللّيل ليعلم أنّه الحقيق بالإيمان به وعدم الإشراك في عبادته، والتّضحية في سبيل إعلاء كلمته فقال: **(سبّح لله)** قال بعض المفسّرين: معناه دلّ على عظمة الله تعالى ونزاهته من كلّ عيب ونقص وعجز كلّ **(ما في السّموات والأرض)** وذلك لأنّ من خلق هذه السّموات العظام وما فيها من عجائب الأجرام وخلق هذه الأرض وفرشها للأنام، وأجرى فيها العيون والأنهار وخلق فيها الحيوان والمعادن والنّبات وغير ذلك ممّا لا يحيط به إلّا علم الله تعالى، يجب أن يكون منزّهاً عن جميع ما يوهم النّقص والعجز، وأن يكون له الكمال المطلق والقدرة الشّاملة والّتي تقهر كلّ القدرات. وقال بعضهم: إنّ معناه على حقيقته، فكلّ ما في السّموات والأرض يسبّح الله ويحمده ويمجّده بالنّطق والكلام مثل الإنسان وحقيقةً لا مجازاً، والقول الثّاني أصحّ بالقبول، لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ

يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٧٩، فإنّ قوله مع داود معلن بأنّ التّسبيح كان بالنّطق لا بالدّلالة وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾ أي علّمه الله ﴿صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ سورة النور الآية/ ٤٢. فذكر التّسبيح مع الصّلاة تدلّ على أنّ التّسبيح بالنّطق وجاء في الأثر: أخرج مسلم في صحيحه عن جابر ابن سمرة قال: قال رسول الله (ﷺ) إنّ بمكّة حجراً كان يسلّم عليّ ليالي بعثت وإنّي لأعرفه الآن[١]. وقد روى التّرمذي بإسناده عن عليّ ابن أبي طالب (رضي الله عنه) قال: كنت مع رسول الله (ﷺ) بمكّة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل ألا وهو يقول: السّلام عليك يا رسول الله[٢]. وروى البخاري في صحيحه بإسناده عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله (ﷺ) إلى جذع، فلمّا صنعوا له المنبر فخطب عليه حنّ الجذع حنين النّاقة فنزل الرّسول (ﷺ) فمسحه فسكن[٣]، هذا، والآيات الّتي تصرّح بهذه الحقيقة كثيرة، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بدون قرينة، فكلّ ما في السّموات والأرض له نطق ولكن لا نسمعه نحن، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ سورة الأسراء الآية/ ٤٤. فالمعجزة في سماع السّلام من الحجر والشّجر أو تسبيح الحصى في يد رسول الله (ﷺ) وحنين الجذع إنّما هي في سماع نطق هذه الأشياء لا في نطقها، فإنّ النّطق موجود، وقد أثبت العلم أنّ الأشجار لها لغات، ونطق يتكلّم بعضها مع بعض. فما أحسن هذا الخلق، فتبارك الله أحسن الخالقين **(وهو العزيز)** أي الغالب على كلّ أمر أراده **(الحكيم)** لا يعمل شيئاً إلّا وفيه حكمة، فحينما فرض عليكم التّضحية والجهاد بالمال والأنفس فليس لحاجته إلى ذلكم في تذليل الكفر والكافرين، فإنّه غالب على أمره ويقتدر أن يذلّهم بأمر كن فيكون، بل إنّما فرض ذلك عليكم لحكمة هو يعلمها ومصلحة كبيرة ربطها بالجهاد والتّضحية والفداء.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٥٩٢ الحديث رقم ٣٦٢٤.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٥٩٣الحديث رقم ٣٦٢٦.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٥٩٤ الحديث رقم ٣٦٢٧.

(له) لـه لا لغيره وبيده لا بيد من سواه **(ملك السّماوات)** تصرّف وتسلّط السّماوات والأرض، فهو الملك القادر القاهر والمالك حقيقة، وإنّما هو يجعل الملك بيد من يشاء امتحاناً واختياراً ليبلوه أيشكره ويطيع أمره فيجزيه في الدّنيا والآخرة أو يكفر فيعرض عن حكمه فيخزيه في الدّارين كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ سورة آل عمران الآية/ ٢٦. فهو الملك وهو المالك لكلّ شيء حقيقةً، وغيره إنّما يكون ملكاً مؤقتاً ومجازاً ومالكاً مجازياً **(يحيي ويميت)** ومن علامة ملكيّته ومالكيّته أنّه يحي الملوك والمالكين إلى أجل مسمّى، ويميت الملوك والمالكين حينما شاء، فيزول عنهما الملك **(وهو على كلّ شيء)** أراده **(قدير)** لا يعجزه عن فعله أيّة قوّة وأيّ سلطان في الكون.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾

قال القرطبيّ (رحمه الله): اختلف العلماء في معاني هذه الاسماء، وقد شرحها رسول الله (ﷺ) شرحاً يغني عن كل قول؛ فقال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: اللّهم أنت **(الأوّل)** فليس قبلك شيء، وأنت **(الآخر)** فليس بعدك شيء، وأنت **(الظّاهر)** أي الغالب فليس فوقك شيء، وأنت **(الباطن)** أي العالم فليس دونك شيء، إقض عنّا الدّين وأغننا عن الفقر[1]. وقال البعض في معنى **(الظّاهر)** المعلوم بالدّلائل والبراهين، وفي **(الباطن)** أي الخفيّ عن إدراك الحواس والعيون **(وهو بكلّ شيء)** ممّا كان ويكون **(عليم)** لا يخفى عليه شيء فيحيي النّاس ليعلموا ويميتهم ليحاسبهم وهو بكلّ شيء ممّا عملوا أو لم يعملوا عليم؛ فيجازيهم وفق علمه هذا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾

أراد الله تعالى أن يثبت أنّه ملِك السّماوات والأرض ومالكهما، وأنّه الأوّل والآخر

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٨٤ الحديث رقم ٢٧١٣.

والظّاهر والباطن، فقال جلّ وعلا: **(هو الّذي خلق السّموات والأرض في ستّة أيامٍ)** ولهذا يثبت أنّه ملك ومالك السّماوات والأرض؛ لأنّ خالق الشّيء يكون مِلكه ومالكه حقيقة لا غيره، وثبت أيضاً أنّه الأوّل لأنّ الخالق لكلّ شيء لا بد وأن يكون قبل كلّ شيء وإلّا فكيف يخلق كلّ شيء، وما كان وجوده لذاته فهو قديم، والقديم يمتنع عدمه، فيكون هو الآخر أي يبقى بعد فناء كلّ شيء، وثبت أيضاً إنّه الظّاهر بالدّليل والبرهان، فإنّ هذه السّماوات وما فيها من الأجرام والأرض وما فيها من جبال وحيوان ونبات وأشجار ومعادن لا يمكن أن يوجد بنفسه، ولا أن يوجده الإنسان لأنّ الإنسان باتّفاق العقلاء وجد بعد وجود السّموات والأرض، ولا يمكن أن يوجد هذا النّظام الطّبيعة أيضاً، فإنّ الموجد يجب أن يكون حيّاً قديراً عالماً مريداً، والطّبيعة جماد لا يتّصف بهذه الصّفات، فكيف يوجد الشّيء، ألا يرى أنّ الطّبيعة لا تصنع إبرة، بل إنّما يصنعها من هو حيّ وله علم وقدرة على ذلك وهو الإنسان، فثبت أنّ موجد هذا الكون ذات حيّ عليم قدير ذو إرادة وسمع وبصر وهو الله، فكان الله تعالى ظاهراً بظهور مصنوعاته، وثبت بقوله: **(ثمّ استوى على العرش)** أنّه الباطن لأنّ من كان على العرش لا تصله الحواس ولا إدراك الحواس، بل إنّما يدرك بالعقول والقلوب والبصائر، وثبت بكونه خالقاً للسّموات والأرض أنّه بكلّ شيء عليم، وأنّه على كلّ شيء قدير، لأنّ هذا النّظام البديع يدلّ على أنّ صانعه له العلم المحيط بكلّ شيء والقدرة الشاملة لكلّ شيء، ومعنى **(استوى على العرش)** أنّه استوى عليه استواء يليق بذاته. سئل الإمام مالك عن معنى استوى على العرش؟ فقال: الاستواء معلوم وكيفيّته مجهولة والسّؤال عنه بدعة. هذا وحينما ثبت أنّ الله بكلّ شيء عليم، ثبت أنّه **(يعلم ما يلج)** يدخل في الأرض **(وما يخرج منها وما ينزل من السّماء وما يعرج)** أي يصعد **(فيها)** أي في السّماء وهو معكم، أي إنّ حاله في العلم بكم وبأعمالكم كعلم من يكون معكم، ولا ينفصل عنكم أيّة لحظة، فيكون معكم دائماً **(أين ما كنتم)** وكيفما كنتم **(والله بما تعملون بصير)** يبصر ليس كبصركم، بل كلّ صفاته ليست مثل صفاتكم، لأنّ صفاته شاملة وصفاتكم ناقصة وصفاته قديمة وصفاتكم حادثة، وصفاته لا تحتاج إلى آلة وحدّ وأسباب، وصفاتكم لا تكون بدون آلة، وهي محدودة وداخلة تحت إطار أسباب خلقها الله تعالى لكم. قال القرطبيّ: قد جمع الله في هذه الآية بين (استوى على العرش) وبين (وهو معكم) والأخذ بالظّاهرين تناقض فيدلّ على أنّه لا بدّ من التّأويل أو الاعتراف بالتّناقض في القرآن. فللّه در القرطبيّ حيث أصاب.

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾

أعاد الله تعالى قوله: **(له ملك السّموات والأرض)** لأنّ قوله أوّلاً كان دعوى، فلمّا أثبته بقوله: (هو الّذي خلق....الخ) أصبحت نتيجة والنّتيجة تذكر بعد الدّليل، وهي عين الدّعوى، فأعاده لذلك، وليرتّب عليه قوله: **(وإلى الله)** إليه لا إلى غيره **(ترجع الأمور)** كلّها في الآخرة، فلا يبقى في يد أحد كان في يده شيء في الدّنيا مؤقتاً وامتحاناً، ففي الآخرة تنقطع الأسباب وكلّ شيء بيد مسبّب الأسباب، وبأمر كن فيكون، وترجع إليه الأمور كلّها في الدّنيا أيضاً، فإنّ كلّ شيء حينما حلّلته وتفحّصته ونظرت إلى أسباب وجوده وحدوثه لينتهي إلى انتهاء الأسباب وإلى الاعتراف بمسبّب الأسباب، وهو الله تعالى. يقول الإمام الغزالي في مثل ذلك للإيضاح: قيل للقرطاس لماذا اسودّ وجهك؟ فقال: اسأل الحبر، فسئل الحبر؟ فقال: إسأل القلم، فسئل القلم؟ فقال: اسأل اليد، فسئلت اليد؟ فقالت: اسأل الكاتب، فسئل الكاتب؟ فقال: اسأل الإرادة، فسئلت الإرادة؟ فقالت: لا أدري جاءني محرك من خارج قدرتي فحرّكني ولم استطع التّخلف. وهكذا كلّ شيء يرجع إلى إرادة الله تعالى وخلقه، وإنّي أضرب لك أيّها الأخ مثالاً واقعيّاً لتقيس عليه كلّ شيء والمثل هو: أنّ الإنسان حينما يتفكّر ليعلم أنّه كيف يرى الإنسان الأشياء؟ فأوّل ما يرى أنّ الرّؤية هي من الفتحتين الواقعتين تحت الحاجبين وفوق الخدّين واللّتين تسمّيان بالعينين، ثمّ إذا فكّر يرى أنّ الرّؤية من الشّكل المعيّن الدّاخل في العينين، والمركّب من السّواد والبياض، والّذي يسمّى بالحدقة، ثمّ إذا فكّر يرى أنّ البياض ليس له علاقة بالرّؤية وإنّما الرّؤية من السّواد فقط، ثمّ إذا فكّر يرى أنّ الرّؤية إنّما هي من جزء لا يتجزّأ صغير جدّاً داخل السّواد، ويسمّى بعين إنسان العين، فمنه الرّؤية، ثمّ إذا فكّر يرى أنّ الرّؤية من عصبتين تأتيان من الدّماغ إلى النّاحية تلتقيان هنالك، كسالب وموجب ثمّ تفترقان فتأتي إحداهما إلى العين اليمنى والأخرى إلى اليسرى، ثمّ إذا فكّر يرى أنّ قوّة الرّؤية في الدّماغ، ثمّ إذا فكّر يرى أنّ الرّؤية تعود إلى أمر غير مادّي يسمّى الإدراك، وهو مربوط بأمر غيبيّ هو إرادة الله تعالى، وبهذا يرجع أمر الرّؤية إلى الله تعالى. ونذكر لك مثالاً آخر وهو أنّ بدويّاً لم ير المدينة لو أتى إليها ودخل غرفة مظلمة وفتح له المصباح الكهربائي (كلوب) يعتقد بأنّ هذه الإنارة من الزّجاج، ثمّ بعدما يتعلّم قليلاً يدري أنّ الإنارة من التّيار الكهربائي الّذي هو داخل الزّجاج، ثمّ بعد ذلك يعرف أنّ الإنارة من القوّة الّتي داخل التّيار، ثمّ يدري أنّ القوّة

من المولّدة (الدّاينمو)، ثمّ يدرك أنّ القوّة موجودة في الخارج وإنّما المولّدة (الدّاينمو) تجمعها وتبثّها، ثمّ يتيقّن أنّ القوّة شيء غيبي لا يدري ماهو وما سببه، فيعترف بأنّ ذلك مربوط بإرادة الله تعالى الّتي خصّصت كلّ شيء لما تريده، وهكذا يرجع كلّ شيء إلى الله تعالى، وهذا معنى قوله: (**وإليه ترجع الأمور**)، ومعنى قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة النور الآية/ ٣٥. والمراد بالشّجرة المباركة هي شجرة إرادة الله تعالى المتعلّقة بتخصيص ما يشاء بما يشاء والله تعالى أعلم.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾

(**يولج**) يدخل (**اللّيل في النّهار ويولج النّهار في اللّيل**) في معنى هاتين الجملتين أقوال كثيرة، أقواها ما روي عن ابن عبّاس ومجاهد والحسن وقتادة والسّدي أنّهم قالوا: أي يدخل ما نقص من أحدهما في الآخر حتّى يصير النّهار خمس عشرة ساعة، وهو أطول ما يكون النّهار، واللّيل تسع ساعات، وهو أقصر ما يكون اللّيل، وكذا يقال في يولج النّهار في اللّيل، ولكنّ هذا القول غير معقول ولا يليق بأمثال من نقل عنهم، فإنّ هذا المعنى لا ينطبق على سكان خطّ الاستواء وما جاورها فإنّ اللّيل والنّهار عندهم متساويان دائماً وكذا لا ينطبق على ما تحت القطبين أيضاً إذ هما فيه متساويان أيضاً، والقرآن يجب أن يطبّق في كلّ مكان. ثمّ قولهم: وهذا أطول ما يكون النّهار غير مستقيم في كلّ البلاد، فإنّ في بعض البلاد يقصر اللّيل إلى أن يتّصل آخر الشّفق بأوّل الفجر، فالبلاد مختلفة في قصر اللّيل وطوله وفي قصر النّهار وطوله حسب البعد من خطّ الاستواء. فالمعنى الصّحيح أنّه حينما تطّلع الشّمس، فضوء الشّمس يستر ظلام اللّيل، وحينما غربت يستر ظلام اللّيل ضوء النّهار ويوافق هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ سورة يس الآية/ ٣٧. شبّه النّهار بالجلد في سترة اللّيل والعكس بالعكس، وهذا في ظاهر العيون وإلّا في الحقيقة لا يستر أحد الآخر، بل يستر ويستولي أحدهما على المكان الّذي كان يستولي عليه الآخر، وهذا هو الّذي يجب أن يفسّر به الآية، والله تعالى أعلم (**وهو عليم بذات الصّدور**) عليم بما في الصّدور من القلوب والضّمائر والأفئدة وما فيها من النّوايا والقصائد والآمال هذا.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى صفاته السّلبية في ضمن قوله: (سبّح لله ما في السّماوات والأرض) وصفاته الإيجابيّة في الآيات السّابقة. وصفات كماله وجلاله وجماله، وأصبح معلوماً بهذه الصّفات وبما خلق من هذه المخلوقات، ولم يبق خافياً على أحد من ذوي العقول والألباب، أمر النّاس كلّهم بالإيمان به وبرسوله والتّضحية والفداء في سبيل إعلاء كلمته، فقال جلّ وعلا:

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾﴾

(آمنوا) أي آمنوا بالله إيماناً صحيحاً خالصاً عن الإشراك به **(ورسوله)** الّذي تبيّن لكم من معجزاته وأخبار الكتب السّماوية السّابقة به **(وأنفقوا)** في سبيل الله تعالى وفيما أمركم به **(ممّا)** من المال الّذي **(جعلكم مستخلفين فيه)**، **(وممّا)** أصله (من ما) قلبت النّون ميماً و **(من)** إن كان للتّبعيض فالمفهوم منه أنفقوا بعض ما... الخ، وهو المال. وإن كان للإبتداء فمعناه من المال، وعلى كلا التّقديرين لم يبيّن في هذه الآية مقدار ما ينفقونه، وكذلك وردت كلّ آيات الأمر بالإنفاق مجملاً غير مبيّن فيها قدر الإنفاق، فإن كان المراد الزّكاة فمقدارها مبيّن بالأحاديث الصّحيحة، وعمل الأمّة الإسلاميّة إلى الآن، وإن كان المراد الإنفاق غير الزّكاة، فالمراد وجوب الإنفاق على الأبناء، وأصحاب الأموال، إذا احتيج إليه، لإسعاف الفقراء أو لإنشاء مصلحة عامّة أو للمحافظة على كيان المسلمين بقدر ما يتطلّب الأمر لذلك، فإن أبوا عصوا ويؤخذ منهم جبراً إن كانت هناك سلطة إسلاميّة. لأنّ الإنفاق معلّل بعلّة الحاجة، فيجب إلى أن تنتهي الحاجة وتقضى. قال القرطبيّ [رحمه الله تعالى وإيّانا] وقوله: **(ممّا جعلكم مستخلفين فيه)** دليل على أنّ أصل الملك لله سبحانه وتعالى، وأنّ العبد ليس له فيه إلّا التّصرف الّذي يرضي الله تعالى. فيثيبه على ذلك بالجنّة، فمن أنفق منها في حقوق الله وهان عليه الإنفاق منها كما يهون على الرّجل النّفقة من مال غيره إذا أذن له غيره، كان له الأجر الجزيل والثّواب العظيم. أقول: وعلى العكس إذا لم ينفق فيما أمر الله تعالى به فيكون عليه العذاب الأليم والعقاب الوبيل. وقال الحسن: وهذا يدلّ على أنّها ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيه إلّا بمنزلة النّواب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحقّ قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم **(فالّذين آمنوا منكم)** أيّها النّاس **(وأنفقوا)** في سبيل الله **(لهم أجر كبير)** وهو الجنّة ورضوان الله تعالى.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

(وما لكم) وأيّ عذر لكم **(لا تؤمنون بالله)**؟ والاستفهام للإنكار، أي ليس لكم أيّ عذر حيث اتّضح الحقّ وظهر الصّواب **(والرّسول يدعوكم لتؤمنوا بربّكم)** إلى الإيمان، وهذا دليل على أنّ المرء ليس مكلّفاً بالإيمان والإسلام قبل البعثة أو قبل التّبليغ، كما قال تعالى: ﴿وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولا﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥. **(وقد أخذ)** منكم **(ميثاقكم)** عهدكم أن تؤمنوا حينما جاءكم الرّسول ودعاكم إلى الإيمان، وهذا الميثاق قيل: هو أنّ الله تعالى خلق أرواح أولاد آدم كلّها وأشهدهم على أنفسهم، فقال لهم: ألست بربّكم؟ قالوا: بلى، فعهد إليهم أن لا ينسوا هذا العهد حينما جاؤوا إلى الدّنيا ودخلوا في الأبدان ويؤمنوا بالله تعالى ورسله. وقيل: إنّ العهد هو أنّ الله تعالى وهب الإنسان العقل والتّفكير ونصب له الأدلّة على وجوده ووحدانيّته وحقيّة الإسلام، بحيث لو تفكّر لآمن، فهذا هو الميثاق، وقد رددت هذين القولين في تفسير قوله تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم...الخ﴾ سورة يس الآية/ ٦٠. وذكرت هناك أنّ الحقّ هو أنّ العهد هو أنّه حينما أخرج آدم وحواء من الجنّة قال الله تعالى لهما: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٣٨. وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ سورة طه الآيتان/ ١٢٣، ١٢٤. وتناقل الرّسل تترى وذكّروا النّاس بعهدهم هذا إلى يومنا هذا. ولكنّ الّذي يليق بالقول في هذه الآية أن يقال: إنّ هذا الخطاب خطاب مع أهل الكتاب، وعهدهم هو عهدهم الّذي أخذ منهم في الكتب السّابقة بأن يؤمنوا بالإسلام ورسوله، وذلك العهد أخبر عنه القرآن في آيات كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٨١، ومنها قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٨٧. وإنّ هذا الميثاق هو المراد هنا بقرينة قوله: **(إن كنتم**

مؤمنين) أي إن كنتم مؤمنين بالتّوراة والإنجيل والكتب الأخرى فآمنوا بمحمّد لأنّ تلك الكتب كلّها تأمركم بالإيمان به.

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى بالإيمان بالله ورسوله ووبّخهم على عدم الإيمان، أشار إلى أنّ الإيمان لا ينفع الله ورسوله شيئاً، وعدمه لا يضرّهما بل إنّما النّفع والضرّ يلحقان بالمؤمن والكافر، فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٩﴾

(هو الّذي ينزّل على عبده) محمّد **(آيات)** دلائل واضحات وأحكاماً ناصعات **(ليخرجكم)** بهذه الآيات والأحكام **(من الظّلمات)** ظلمات الجهل والجور **(إلى النّور)** نور العلم والعدل. وإنّ نفع الإيمان بما نزل يعود عليكم أنتم فحسب، حيث تفوزون بالعمل وفق ما نزل بسعادة الدّنيا والآخرة **(وإنّ الله بكم لرؤوف رحيم)** ولرأفته هذه ورحمته بعث إليكم هذا الرّسول وأنزل إليكم هذه الآيات والأحكام.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه لا عذر للنّاس في عدم الإيمان أراد أن يبيّن أنّه لا عذر لهم أيضاً في عدم الإنفاق في سبيل الله فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِى مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١٠﴾

(وما لكم) وأي عذر لكم؟ والاستفهام للإنكار، أي ولا عذر لكم في **(ألّا تنفقوا في سبيل الله)** وهو أمركم بالإنفاق فيه **(ولله ميراث السّماوات والأرض)** أي لله ملك السّماوات والأرض وأنتم لستم إلّا كالوكلاء والدّليل على ذلك أنّكم كلّكم تنقرضون ويبقى الملك لله ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ سورة غافر الآية /١٦، ثمّ بيّن الله تعالى أنّ الإنفاق في وقت الشدّة وحاجة الإسلام أفضل درجة من الإنفاق بعد الشدّة وقلّة الحاجة فقال: **(لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل)** أي من قبل فتح مكّة، أي مع من أنفق من بعد الفتح وقاتل، فإنّه قبل الفتح كان الإسلام محتاجاً

إلى الإعانة ولكن بعد الفتح أصبح النّاس هم محتاجين إلى الإسلام لعزّته وغلبته، وصرّح الله تعالى بما حذف فقال: **(أولئك)** الّذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا **(أعظم درجة من الّذين أنفقوا من بعد وقاتلوا)** ثمّ نبّه الله تعالى على أنّ الّذين ينفقون من بعد الفتح ويقاتلون يمدحون أيضاً فقال: **(وكلّاً)** من الّذين أنفقوا وقاتلوا من قبل أو من بعد **(وعد الله الحسنى)** أي الدّرجة الحسنى وهي الجنّة لهم، وإن كان ما للّذين أنفقوا من قبل أكثر وأحسن.

ثمّ أراد الله تعالى أن يحثّهم على الإنفاق. ممّا أعدّ لهم من الجزاء الجزيل والثّواب الجميل، فقال جل وعلا:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

(من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً) بالإنفاق في سبيل الله جعل الله تعالى الإنفاق في سبيله قرضاً معه، ووعد أنّ من أقرض الله يردّ له زائداً **(فيضاعفه له وله أجر كريم)** أي أجر ذو قدر ومنزلة. ويجزي هذا الأجر وهذه المضاعفة، أي يعطي ويضاعف له **(يوم ترى)** أيّها الرّائي **(المؤمنين والمؤمنات)** في ساحة الحشر وحين السّوق إلى الحساب **(نورهم يسعى)** أي يمشي **(بين أيديهم)** أي أمامهم **(وبأيمانهم)** وفي إيمانهم ليهتدوا به إلى الطّريق ويقول الملائكة لهم **(بشراكم اليوم)** والّتي نبشّركم بها هي **(جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم)** الّذي لا فوز أعظم منه، في حين أنّ الكافرين والمنافقين يمشون في ظلام دامس ينادون المؤمنين ويلتمسون منهم إثارتهم من نورهم، إلّا أنّه لا يجابون في ذلك إلّا تهكّماً لهم.

ثمّ ذكر الله تعالى أحوال الكافرين والمنافقين في ذلك اليوم قال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾

(يوم يقول المنافقون والمنافقات) وهم الّذين أظهروا الإيمان عند المؤمنين وبطنوا الكفر؛ وذلك خداعاً للمؤمنين حفظاً لأموالهم وأولادهم، وجلباً للمنافع من المؤمنين فيقعون في ذلك اليوم في الظّلام ويقولون: **(للّذين آمنوا انظرونا)** أي انتظرونا لنمشي معكم و **(نقتبس من نوركم)** هذا **(قيل)** لهم من قبل المؤمنين **(ارجعوا وراءكم)** ارجعوا إلى الدّنيا **(فالتمسوا نوراً)** لأنّ هذا النّور كان يكتسب في الدّنيا بالإيمان والعمل الصّالح ولا يكتسب هنا، فإنّ الدّنيا دار عمل وإيمان والآخرة دار جزاء وإحسان **(فضرب بينهم بسور)** أي وضع بينهم وبين المؤمنين بحاجز **(له باب باطنه)** أي جانب المؤمنين **(فيه الرّحمة)** وهو النّور والرّاحة والفرح والسّرور بالعاقبة الحسنى **(وظاهره)** جانب المنافقين **(من قبله)** من جهته **(العذاب)** فيصيح المنافقون وينادون المؤمنين ويقولون ما ذكر تعالى في قوله جلّ وعلا:

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

(ينادونهم) ينادي المنافقون المؤمنين ويقولون لهم **(ألم نكن معكم)** في الدّنيا فكنّا نصلي معكم ونجاهد معكم، فلم لا تنتظروننا لنقتبس من نوركم **(قالوا)** أي المؤمنون **(بلى)** كنتم معنا فيما قلتم **(ولكنّكم فتنتم)** أهلكتم وأضللتم **(أنفسكم)** بالنّفاق والمعاصي **(وتربّصتم)** بالنّبي وأتباعه الدّوائر فكنتم تتمنّون هلاكهم وهزيمتهم **(وارتبتم)** وشككتم في إيمانكم **(وغرّتكم الأمانيّ)** من طول الأمل والطّمع وتمنّي زوال شوكة المؤمنين، فبقيتم في هذه الحالة السّيئة **(حتّى جاء أمر الله)** وهو الموت وبقيتم على هذا النّفاق **(وغرّكم بالله)** بمغفرة الله وعفوه **(الغرور)** الشّيطان فكان يأمركم بالمعاصي اتّكالاً على عفو الله ومغفرته، ولذلك حرّمتم من هذا النّور **(فاليوم لا يؤخذ منكم)** أيّها المنافقون **(فدية)** وهي ما يخلص وينجّي المرء به من العذاب من مال أو توبة لأنّ يوم القيامة لا يوجد المال لأحد ولا يقبل التّوبة بعد الموت وإنّما الفدية كانت تؤخذ في الدّنيا بالإيمان الصّادق. فما فعلتموها **(مأواكم)** مرجعكم الّذي تأوون إليه **(النّار)** نار جهنّم **(هي مولاكم)** هي المتسلّطة عليكم **(وبئس المصير)** مصيركم هذا.

بعد أن أمر الله تعالى بالإنفاق في سبيل الله استبطأ بعض المؤمنين فعاتبهم الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

(ألم يأن) ألم يحن ويأت **(للّذين آمنوا)** وقت **(أن)** لأن **(تخشع قلوبهم)** أي تتضرّع قلوبهم **(بذكر الله)** للإتّعاظ بأمر الله تعالى والإنفاق في سبيله **(وما نزل من الحقّ)** من الأمر بالجهاد والتّضحية والفداء **(ولا يكونوا)** وأن لا يكونوا **(كالّذين أوتوا الكتاب من قبل)** أي من قبلهم وهم اليهود والنّصارى **(فطال عليهم الأمد)** فمضى عليهم زمان بعد نزول الكتاب **(فقست)** فقست **(قلوبهم)** وضعف إيمانهم **(وكثير منهم فاسقون)** خارجون عن أوامر التّوراة والإنجيل، نهى الله تعالى المؤمنين من أن يكونوا كمن قبلهم فيبتعدوا عن كتابهم وهو القرآن وعن اتّباعه مثل اليهود والنّصارى لكي لا يضلّوا كما ضلّ هؤلاء.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

(اعلموا) أي اعتقدوا **(أنّ الله يحيي الأرض)** فيحرّك قواها الإنباتيّة بنزول المطر عليها **(بعد موتها)** بعد أن يبست ويبس ما عليها من النّباتات ووقفت الأشجار من الإيراق والإثمار. فالله هو الّذي يفعل ذلك لا غيره من الطّبيعة أو غيرها من الآلهة الّتي يعبدها بعض النّاس. فإنّ هذا النّظام نظام الأمطار وإنبات النّباتات والأشجار لا يقدر أن يوجد إلّا من عالم بلغ علمه النّهاية، وقادر بلغت قدرته الحدّ الأعلى والأشمل. وذلك هو الله، فكما أنّ الله تعالى يقدر على إحياء الأرض بعد موتها لقادر على إحيائكم بعد موتكم **(قد بيّنا لكم الآيات)** أي العلامات الدّالة على إحيائنا لكم **(لعلّكم تعقلون)** لكي تعقلوا فتؤمنوا بقدرة الله وبالحياة بعد الموت والحساب والجزاء وفق الأعمال، ولذلك فلتخشع القلوب وليجتنب المؤمن أن يقسو قلبه وسوء عمله.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن ثواب المنفقين في سبيل الله ومالهم في الآخرة، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

(إنّ المصّدّقين) أصله المتصدّقين قلبت التّاء صاداً بما أدغمت فيه مصدّقاً أي المنفقين في سبيل الله على الفقراء والمساكين، وفي الأمور العامّة وما ينبغي أن ينفق فيه، وفي سبيل نشر دعوة الإسلام في الأرض **(والمصّدّقات وأقرضوا الله)** عطف على المصدّقين لأنّ مآله أنّ الّذين يتصدّقون والّذين **(أقرضوا الله)** بهذه الصدقة **(قرضاً حسناً)** هو ما لا يرجى وراءه منفعة سوى ابتغاء وجه الله تعالى **(يضاعف لهم)** ثوابهم يوم القيامة، الحسنة بعشر أمثالها أقلاً، ويزاد إلى سبعمائة وإلى أزيد حسب ما يشاء الله والله واسع عليم **(ولهم أجر)** جزاء **(كريم)** ذو قدر ومنزلة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن منزلة المؤمنين والكافرين يوم القيامة، فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾

(والّذين آمنوا بالله ورسوله) إيماناً صادقاً **(أولئك هم الصّدّيقون والشّهداء)** على النّاس **(عند ربّهم)** يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ سورة البقرة الآية/ ١٤٣. ثمّ بيّن فضلهم فقال **(لهم)** للّذين آمنوا وهم الصّدّيقون والشّهداء على النّاس **(أجرهم)** عند الله **(ونورهم)** الّذين يمشون به في ظلام المحشر **(والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم)** أي أهل الجحيم وهي جهنّم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن صفة الدّنيا من زوالها وعدم استقرارها ليهون أمرها على المؤمنين، فلا تكون هي أهمّ أمرهم لا ينشغلوا بسببها عن تحصيل الآخرة فإنّها أهمّ وأعلى وأحسن وأبقى فقال جلّ وعلا:

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

(إعلموا) فكّروا لتتيقّنوا **(أنّما الحياة الدّنيا)** الدّنيا مؤنّث الأدنى صفة الحياة،

ومعناها الأقرب وصفت بالدّنيا لأنّها أقرب من حياة الآخرة **(لعب)** وهو في حال الصّبا فإنّ الصّبا لا يهمّه إلّا اللّعب **(ولهو)** وهو في حال الشّباب لأنّ الشّباب يحبّ اللّهو، والفرق بين اللّعب واللّهو أنّ اللّعب لا يريد صاحبه منه شيئاً، وهو حال الصّبيان، واللّهو ما يريد صاحبه أن يغفل به عن بعض همومه أو غمومه أو مشاغله أو صرف وقته وهو حال الشّباب **(وزينة)** وهي للشّباب أيضاً، فإنّ الشّباب يحبّ الزّينة **(وتفاخر)** وهو الكهول فإنّهم يحبّون التّفاخر **(وتكاثر في الأموال والأولاد)** وهو حال الشّيوخ لأنّ الإنسان حينما يشيب يحبّ المال والأولاد قال الرّسول (ﷺ) (يشيب ابن آدم وتشبّ فيه خصلتان الحرص وطول الأمل)[1] وإنّ هذه الأمور من اللّهو واللّعب والزّينة والتّفاخر والتّكاثر كلّها تاتي وتزول ولا تبقى، فمثل الدّنيا وما فيها **(كمثل غيث)** كمثل مطر **(أعجب الكفّار)** الزّرّاع **(نباته)** النّبات النّابت بسببه ثمّ يتحرّك ذلك النّبات من الضّعف إلى القوّة ثمّ من القوّة إلى الضّعف ومن الخضرة إلى الصفرة **(فتراه)** بعد مدّة **(مصفراً)** أصفر اللّون دلالة الضّعف **(ثمّ يكون)** يصير **(حطاماً)** حشيشاً متحطّماً. هذا ما في الدّنيا وبيان حاله وأمّا في الآخرة فهو ما قال تعالى بقوله: **(وفي الآخرة)** يوجد **(عذاب شديد)** لا يزول **(ومغفرة من الله ورضوان)** يورث نعيماً لا تزول **(وما الحياة الدّنيا إلّا متاع الغرور)** متاع سبب للغرور والغفلة يغترّ به الإنسان، ويغفل إلّا من رحمه الله تعالى، وهو الّذي يعلم حقيقتها فيتّخذها وسيلة للآخرة وذخيرة للقيامة، ويشتري بها الجنّة كما قال الشّاعر:

إنّ لله عباداً فطناً تركوا الدّنيا وخافوا الفتنا
حسبوها لجّة فاتّخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

ثمّ بعد أن بيّن الله تعالى مهانة الدّنيا وحقارتها، وذكر عظمة الآخرة وفخامتها، أمر تعالى بالمسابقة إلى ما في الآخرة من مغفرة الله تعالى ونعيم الجنّة، فقال جلّ وعلا:

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

(١) لسان الميزان ٦/٦٨ الحديث رقم ٢٦٥.

(سابقوا إلى مغفرة من ربّكم) بالتّوبة عن الذّنوب والاستقامة على العمل الصّالح **(وجنّة)** وسابقوا بالسّبق إلى الخير والأعمال الصّالحة إلى جنّةٍ **(عرضها كعرض السّماء والأرض)** حيث ورد في الحديث أنّ الرّسول ﷺ قال: سقفها العرش، أي سقف الجنّة العرش، فإذن تكون الجنّة فوق الكرسي ومحيط بالسّموات كلّها والأرض كلّها فيكون عرض السّماوات والأرض أعدّت هذه الجنّة **(للّذين آمنوا بالله ورسله)** في هذه الفقرة إشارتان:

الأولى: إنّه من شرط دخول الجنّة الإيمان بكلّ الرّسل، فالكافرون برسالة محمّد (ﷺ) لا يدخلها أبداً.

الثّانية: إنّ الإيمان كاف لدخول الجنّة وأمّا الأعمال فلزيادة درجات الجنّة، وفي الحديث: (إنّ الله أعطاكم الجنّة بإيمانكم فقسّموها بينكم بأعمالكم)[1] أو كما قال. فالمؤمن إمّا يدخل الجنّة فوراً أو بعد التّطهر من الذّنوب إن لم يغفر له.

(ذلك) دخول الجنّة **(فضل الله يؤتيه من يشاء)** وليس لاستحقاق المؤمن، فإنّ كلّ أعمال المرء لا يكافئ نعم الله تعالى الّتي أنعم بها عليه، ثمّ إنّ العمل إنّما يكون بتوفيق الله وخلقه، فعمل العبد ملك الله، فمن أين له عمل يستحقّ به الجنّة، ولذلك يقول الرّسول (لا يدخل الجنّة أحدكم بعمله إلّا أن يخصّه الله برحمته فقالوا: وأنت يا رسول الله فقال: وأنا)[2] (والله ذو الفضل العظيم) فلا فضل أعظم من فضله بل كلّ فضل هو من فضله.

تنبيه: ليس المراد بحقارة الدّنيا إنّها حقيرة لحدّ ذاتها بل إنّها حقيرة بالنّسبة لحياة الآخرة، فإنّها فانية وزائلة وتلك باقية وخالدة، وهذه ملؤها التّعب والنّصب ولا تحصل إلّا بمشقّة ولا يتمتّع بها إلّا بغصص، وتلك خالية عن كلّ ذلك، وكذلك الدّنيا حقيرة بالنّسبة لمن انهمك فيها، ولا يتذكّر الآخرة ويحصلها حيث أمكن ومن أيّ طريق كان ولا يهتمّ بأنّ هذا حرام أو حلال، وأمّا بالنّسبة للمؤمن الّذي يعمل في الدّنيا بالطّرق المشروعة ويؤدّي منها حقّ الله والعباد، وينفق منها على أهله وذويه والمحتاجين وتكون

---

(١) لم أجد له تخريجا.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/٢٥٦ الحديث رقم ٧٤٧٣. ونصه: عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ﷺ) لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا ان يتغمدني الله منه برحمة وفضل ووضع يده على رأسه.

نيّته صالحة في جمعها ويده أمينة في أخذها وصرفها، فإنّها ليست حقيرة بل إنّها مزرعة الآخرة وأنّ العمل فيها عبادة ويؤجر عليها، فإنّ كلّ عمل أو حرفة فرض كفاية، وأمر تعالى عباده بالكسب الحلال والعمل فقال: ﴿هو الّذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النّشور﴾ سورة الملك الآية/ ١٥، وقد ذكر الله تعالى العاملين للرّزق وفي سبيل تحصيله مع المجاهدين وأعذرهم، كما أعذر المجاهدين فقال جلّ جلاله: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ سورة المزمل الآية/ ٢٠. فالمراد من الآية تحقير الدّنيا الّتي لا دين معها والّتي تكسب بطرق غير مشروعة فإنّها حقيرة، أو المراد إنّها بالنّسبة لحياة الآخرة حقيرة فيجب أن تشتري بهذه تلك، ولا تعكس الأمر فتخسر الباقي لأجل الفاني، فإنّ في ذلك خسراناً عظيماً. هذا وقد قال الشّاعر:

ما أحسن الدّين والدّنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرّجل

* * *

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

بعد أن ذكر الله حقارة الدّنيا ومهانتها، وكان يعلم أنّ النّاس كانوا يهتمّون بالدّنيا خوف المصائب والبلايا والنّوائب، فقال تعالى: **(ما أصاب من مصيبة)** أحداً ولا شيئاً **(في الأرض)** من القحط والجدب **(ولا في أنفسكم)** من الأمراض والآفات **(إلّا)** وهو مقرّر **(في كتاب من قبل أن نبرأها)** من قبل أن تخلق الأنفس **(إنّ ذلك)** التّقدير **(على الله يسير)** سهل لا صعوبة فيه، فلا يردّ ما قدّر الله كلّ ما تملكون من الدّنيا ولو كان كلّها، ولا يجلب ما لم يقدّر الله ولو بذلتم كلّ الجهود والمساعي والتّشبّث بالأسباب. وقد ذكرنا لكم هذه الحقيقة **(لكيلا تأسوا)** لا تحزنوا **(على ما فاتكم)** ولم تحصلوا عليها **(ولا تفرحوا)** فرح بطر وخيلاء **(بما آتاكم)** الله **(إنّ الله لا يحبّ كلّ مختال فخور)** ولا واحداً، فمن اختار الدّنيا ونعيمها وافتخر بالمال أو المنصب والجاه فإنّ كلّ

تلك الأمور بيد الله، ولا يدري متى يسلبها منه أو كيف يعذّبه عليها، بل عليه أن يشكر إذا أنعم عليه ويصبر إذا أصيب ببلاء، وفي ذلك له الأجر والثّواب **(الّذين يبخلون)** خوفاً من الفقر **(ويأمرون النّاس بالبخل)** لكي لا يخجلوا بين النّاس فإنّه إذا جاد النّاس ولم يجودوا هو يعابون فيخجلون. ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّه أمر بهذه الأمور من الإيمان والإنفاق وعدم الإهتمام بالدّنيا وترك البخل لأنّها ممّا تنفع النّاس وهم يستفيدون من صفاتهم هذه، وليس الله محتاجاً إلى صفاتهم هذه، فقال تعالى: **(ومن يتولّ)** عن هذه المواعظ والأوامر فلم يتّعظ ولم يمتثل **(فإنّ الله هو الغنيّ)** عن أعمالهم هذه **(الحميد)** في ذاته حمده النّاس أوّلاً ولا يضرّ تولّيهم وإعراضهم عن ذلك شيئاً.

بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الدّنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر ومتاع الغرور فكأنّ سائلاً يسأل ويقول: فماذا نفعل في الدّنيا وابتلينا بها لننجو من الاغترار؟ فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

(لقد أرسلنا رسلنا) تترى واحداً بعد الآخر وكانوا مؤيّدين من قبلنا **(بالبيّنات)** بالمعجزات الباهرة الدّالة على رسالتهم وحقية دعوتهم **(وأنزلنا معهم الكتاب والميزان)** المقياس لكلّ عمل ولكلّ خلق ولكلّ حكم ولكلّ صفة إجتماعيّة أو فرديّة، وذلك الميزان هو شريعة الله تعالى وهو الإسلام المعبّر عنه بالصّراط المستقيم، وهو دين الأنبياء والرّسل كلّهم وشريعتهم إلّا بعض الفروع الّتي اعترى عليها التّبديل حسب المصلحة والظّروف، وأنزلنا هذا المقياس **(ليقوم النّاس بالقسط)** بما هو عدل وحقّ حسب ذلك الميزان في الأعمال والأخلاق والصّفات والأحكام وجميع الأمور الفرديّة والإجتماعيّة، وبذلك ينجون من الغرور والاغترار بالدّنيا، فمن قاس نفسه واتّزن بهذا الميزان فقد نجا واستقام ومن لا فلا. ويجب على النّاس أن يقيموا هذا الميزان ويعملوا به وإذا أراد شياطين الإنس وهم الفسقة والكفّار أن يتركوا هذا الميزان ويصدّوا النّاس عن العمل به وتطبيقه وطمس نور الله تعالى **(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد)** فاتّخذوا منه السّلاح لمحافظة ذلك والدّفاع عن سلطان الشّريعة في الأرض، وفي الحديد سوى البأس خير **(ومنافع للنّاس)** في ما يصنع منه من أدوات ووسائط ومراكب، وما نرى ممّا

صنع من الحديد ممّا نفع وينفع النّاس في السّفر والحضر، وفي كلّ نواحي الحياة. وكان من الحقّ أن يصنع هذه الصّنائع المسلمون، لأنّ القرآن الّذي هو دستورهم يأمرهم بذلك، وقد صنعوا ذلك وسبقوا النّاس في العمل وهم علّموا النّاس العمل والحضارة، إلّا أنّه حينما تنازع كبراؤهم على الكرسي والحكم وتفرّقوا واختلفوا فيما بينهم ضيّعوا حضارتهم وكلّ ما يعزّهم من الصّناعات والمخترعات، فلعلّ أهل اليوم ينتبهون لهذه الخسارة، وليستيقظوا من نومهم هذا فيعملوا ليعيدوا عزّهم ويتركوا الخلاف والشّقاق ويتوحّدوا ويعملوا ويخترعوا ليلحقوا بتلامذتهم في الحضارة بعدما تأخّروا عنهم، وكانوا سابقين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وأنزل الميزان والحديد لما ذكرنا. **(وليعلم الله من ينصره)** أي ينصر دينه **(ورسله)** القائمين بهذا الدّين والنّاشرين له **(بالغيب)** بسبب الإيمان والإخلاص المستور في قلوبهم. ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ الله تعالى ليس محتاجاً إليهم في نصرة دينه حيث **(إنّ الله قويّ)** قوّة لا قوّة تقهرها **(عزيز)** غالب على أمره؛ فلا يمنع تنفيذ إرادته مانع، إلّا أنّه فرض الجهاد على المؤمنين لينالوا هم أجرهم وثوابهم وحياتهم بالعزّ في الدّنيا وبالسّعادة والفوز في الآخرة.

ثمّ أراد تعالى أن يبيّن بعض الرّسل الّذين أرسلهم والّذين كانوا معروفين عند الّذين جاء الرّسول (ﷺ) بالكتاب إليهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما) في نفسهما **(النّبوة)** فكان منهم أنبياء **(والكتاب)** الّذي جاء به الأنبياء **(فـ)** فانقسم ذريّتهم قسمين **(منهم مهتد)** فاتّبع الكتاب والنّبيّ الّذي جاء به **(وكثير منهم فاسقون)** خارجون عن اتّباع الكتاب والنّبيّ.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

(ثمّ قفينا) أتينا (على آثارهم) آثار إبراهيم وغيره وبعدهم (برسلنا) كثيرين (وقفّينا) وأتينا بعدهم (بعيسى ابن مريم) ذكر سيّدنا عيسى خاصّة لأمرين:

الأوّل: لأنّه الرّسول الّذي يأتي بعده الرّسول محمّد (ﷺ).

الثّاني: وليصرّح بأنّ عيسى كان رسولاً ولم يكن إلهاً ولا إبناً لله تعالى.

(وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الّذين اتّبعوه رأفة) بالنّاس (ورحمة) وليناً في القول والعمل والإخلاص والصّدق في الحياة (ورهبانيةً) وفرضنا عليهم رهبانية وهي التخلّي لعبادة الله تعالى (ابتدعوها) أي هم اخترعوها وأحبّوها فكتبناها عليهم، والحال أنّه (ما كتبناها عليهم) لشيء (إلّا ابتغاء) إلّا ليبتغوا به (رضوان الله) تعالى وبعد ما كتبناها عليهم (فما رعوها) كلّهم (حقّ رعايتها) بل بدلّوها وغيّروها وجعلوها مجرّد شعائر يبتغون بها الدّنيا (فآتينا الّذين آمنوا منهم) واستمروا على الحقّ ولم يغيّروا (أجرهم) ثوابهم كاملاً وكما يليق بهم (وكثير منهم فاسقون) خارجون عن الحقّ فلم يستحقّوا ثواباً، بل عذاباً وعقاباً يلقونه يوم الدّين، وما أشبه حالهم بحال التصّوف الإسلامي الّذي أنشأه رجال سابقون من الصّلحاء مخلصون لله ودينه ثمّ اتّخذ بعد ذلك شبكة تصيد البسطاء والعوام من النّاس، ولجلب المال وحطام الدّنيا فدخلوا في قوله تعالى: (وكثير منهم فاسقون).

ثمّ بعد أن لام الله تعالى أهل الإنجيل وأتّباع سيّدنا عيسى (عليه السلام) بعدم رعايتهم لما كتبت عليهم، أمر المؤمنين أن لا يصبحوا مثلهم، بل ليستقيموا ولا ينحرفوا عن ما أنزل إليهم، ولا يتركوا ما كتب عليهم ولا يغيّروه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) بمحمّد (ﷺ) واعتنقوا دين الإسلام (اتّقوا الله) بالإجتناب عن ما نهي عنه وأداء ما أمر به (وآمنوا برسوله) واستقيموا واثبتوا على الإيمان برسوله واعملوا حسبما يأمركم به، فإنّ تفعلوا ذلك (يؤتكم) الله تعالى (كفلين من رحمته) أجرين أجر في الدّنيا بالنّصر والعزّة والسّيادة على الأرض، وأجر في الآخرة بالإنعام والدّخول في الجنّة (ويجعل لكم نوراً) يوم القيامة (تمشون به) في ظلام طريق المحشر

(ويغفر لكم) ما صدر منكم من الذّنوب جهلاً ونسياناً **(والله غفور)** كثير المغفرة **(رحيم)** ولرحمته يغفر فقط لا لشيء آخر من حاجته إلى المغفرة إو إلى المغفور له أو لوجوب المغفرة عليه كما زعم البعض، تعالى الله عن كلّ ذلك علوّاً كبيراً. روي عن قتادة: أنّ أهل الكتاب حسدوا أن يكون رسول من غيرهم فكرهوا أن يتّبع النّاس الرّسول (ﷺ) فيسودوا ويعزّوا، وأرادوا أن تبقى الرّسالة والسّيادة منهم وأن لا يتفضّل الله تعالى على غيرهم، فقال جلّ وعلا:

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

(لئلا) أصله، لأنّ لا، أدغم النّون في لا، فصار لئلّا، ولا زائدة فالتّقدير **(ليعلم)** أي يؤتكم الله أجرين ... إلخ، ليعلم **(أهل الكتاب)** وهم اليهود والنّصارى **(ألّا)** أن **(لا يقدرون على شيء)** من الفضل والرّسالة والنّبوة والرّياسة على أنفسهم **(وأنّ الفضل بيد الله)** وليعلموا أنّ الفضل كلّه **(بيد الله)** تعالى وليس في أيديهم شيء فالله تعالى **(يؤتيه)** يؤتي فضله ورسالته وعزّته **(من يشاء)** فأعطى الفضل لمحمّد (ﷺ) ووهب الهداية لمن اتّبعه والعزّة والسّيادة لمن آمن به **(والله ذو الفضل العظيم)** فلا فضل أعظم من فضله، بل كلّ فضل هو من فضله. فتفضّل اللّهم علينا وثبّتنا على ديننا، وأسعدنا في الدّنيا والآخرة آمين، وما ذلك على الله بعزيز، فإنّه على كلّ شيء قدير، وصلّى الله على المولى محمّد وآله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

جزء

﴿قد سمع الله﴾

سورة المجادلة

(مدنيّة، نزلت بعد "المنافقون"، وآياتها إثنتان وعشرون آية، سمّيت بالمجادلة لما فيها من مجادلة خولة لرسول الله (ﷺ)).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾

سبب نزول الآية: ذكر المفسّرون في سبب نزول هذه الآية روايات، وخلاصة الجميع ما ذكره الخازن في تفسيره فقال: نزلت في خولة بنت ثعلبة، وقيل: اسمها جميلة، وزوجها أوس بن الصّامت أخو عبادة بن الصّامت، وكان به لمٌّ أي قلةٌ في العقل، وكانت هي حسنة الجسم، فأرادها فأبت عليه فقال لها: أنت عليّ كظهر أمّي، ثمّ ندم على ما قال، وكان الظّهار والإيلاء من الطّلاق في الجاهليّة، فقال: ما أظنّك إلّا قد حرمت عليّ، فقالت: والله ما ذاك طلاق. فأتت رسول الله (ﷺ) وعائشة تغسل شقّ رأسه فقالت: يارسول الله إنّ زوجي أوس بن الصّامت تزوّجني وأنا شابّة غنيّة ذات أهل ومال، حتّى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرّق أهلي وكبر سنّي ظاهرني وقد ندم، فهل من شيء تجمعني وإيّاه وتنعشني به؟ فقال رسول الله (ﷺ): حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله والّذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر الطّلاق وإنّه أبو ولدي وأحبّ النّاس إليّ، فقال رسول الله (ﷺ): حرمت عليه، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، قد طالت له صحبتي ونثرت له بطني، فقال رسول الله (ﷺ): ما أراك إلّا قد حرمت عليه، ولم أُؤمر في شأنك بشيء. فجعلت تراجع رسول الله (ﷺ) وكلّما قال رسول الله (ﷺ) حرمت عليه، هتفت وقالت:

أشكو إلى الله وحدتي وفاقتي وشدّة حالي، وإنّ لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السّماء وتقول: أللهم أشكو إليك، أللّهم أشكو إليك، فأنزل على لسان نبيّك فرجي. فكان هذا أوّل ظهار في الإسلام، فمالت عائشة تغسل شقّ رأسه الآخر فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداك يا نبيّ الله، فقالت عائشة: أقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله (ﷺ)؟ وكان إذا نزل عليه الوحي أخذه السّبات، فلمّا قضى الوحي قال: ادعي لي زوجك، فتلا عليه رسول الله (ﷺ): (**قد سمع الله قول الّتي تجادلك في زوجها**) الآية و (**وتشتكي إلى الله**) وحدتها وفاقتها وشدّة حالها (**والله يسمع تحاوركما**) مشتقّ من الحور، وهو الرّجوع والتّحاور لا يكون إلّا بين إثنين أو أكثر، فيقال: تحاور القوم: أي تراجعوا، وتحاور زيد وعمرو أي تراجعا، وهنا معناه مراجعتكما الكلام، فهي تقول والرّسول (ﷺ) يردّ عليها، فالله سمع هذه المحاورة وعلّل ذلك بقوله: (**إنّ الله سميع**) إي بكلّ قول وصوت فسمع تحاوركما (**بصير**) بكلّ شيء فيبصر حال خولة بنت ثعلبة وفاقتها، ولذلك أنزل حكم الظّهار. فإنّ أحكام القرآن ما كانت تنزل إلّا إذا دعت الحاجة إليها، أي إذا حدثت حادثة فيحتاج الرّسول (ﷺ) إلى بيان حكم الله تعالى فيها، والرّسول حينما يقول لخولة: ما أراك إلّا قد حرمت عليه، كان حكماً وفق ما جرى عرف القوم عليه، فإنّه كان لا يبطل عرفاً حتّى يؤمر من الله تعالى بإبطاله، ولذا قال العلماء إنّ إبطال هذا العرف لا يعدّ نسخاً، فإنّ النّسخ إنّما يقال في مقابلة الشّرائع، ويمكن أن يقال إن كان هذا العرف من بقايا أحكام سيّدنا إبراهيم واسماعيل (عليهما السلام) فيعدّ نسخاً وإلّا فلا. حيث كانت فيهم أمور من بقايا دين إبراهيم واسماعيل (عليهما السلام) إلّا أنّ قوله تعالى فيما بعد (**وإنّهم ليقولون منكراً من القول**) أي ما لا حقيقة له (**وزوراً**) أي كذباً يدلّ على أنّ الظّهار لم يكن من أحكام الله تعالى في الشّرائع السّابقة كلّها وإلّا لما سمّي منكراً. ثمّ إنّ من عادة الله تعالى في القرآن الكريم أنّه حينما يريد أن يبطل عرفًا ترسّخ في نفوس القوم يمهّد قبل إبطاله بذكر حجّة تقنع أصحاب العقول، بأنّه باطل وذلك مثل ما فعل حينما أبطل نظام التّبني، فإنّه مهّد تمهيداً لذلك فقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ سورة الأحزاب الآية/ ٤-٥. ثمّ بعد آيات كثيرة في نفس السّورة يقول تعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧)﴾ سورة الأحزاب الآية/ ٣٧. وفي هذه السّورة حيث أراد الله تعالى أن يبطل نظاماً ترسّخ في القلوب وهو حرمة الزّوج الّتي ظاهر منها زوجها حرمة مؤبّدة مهّد لذلك بذكر برهان يدلّ على بطلان هذا العرف وهذا النّظام فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢)﴾

(**الّذين يظاهرون**) أي الّذين يعاملون معاملة الظّهار (**منكم**) أيّها المسلمون. والظّهار هو أن يقول الرّجل لامرأته: أنت عليّ كظهر أمّي، وهنا شيء محذوف، أي ظهرك كظهر أمّي. بمعنى: ركوبك كركوب أمّي، والمراد بالرّكوب الجماع، فمعناه: جماعك عليَّ حرّام كجماع أمّي (**من نسائهم**) إن فسّرت من نسائهم بالفعل، فيختصّ بالظّهار بمن كانت زوجاً للمظاهر بالفعل. فلو قال لامرأة أجنبيّة: أنت منّي كظهر أمّي، ثمّ تزوّجها فليس بظهار، وهذا رأي بعض العلماء. وإن فسّرت النّساء على العموم سواء كانت زوجاً للمظاهر بالفعل أم لا، لو قال هذا القول لأجنبيّة ثمّ تزوّجها كان ظهاراً أيضاً، وهذا رأي آخر والأوّل أصحّ (**ما هنّ**) أي ليست أزواجهم (**أمّهاتهم**) أي كأمّهاتهم في الحرمة عليهم (**إن أمّهاتهم**) أي ليست أمهاتهم المحرّمة عليهم (**إلّا اللّائي ولدنهم**) كالوالدة ووالدة من ولدك إلى حواء وآدم (**وإنّهم**) أي الّذين يجعلون أزواجهم محرّمة بالظّهار (**ليقولون منكراً من القول**) أي قولاً منكراً أي لا حقيقة له في الشّرائع (**وزوراً**) أي كذباً، لأنّ أزواجهم لا تصير كأمّهم في الحرمة عليهم (**وإنّ الله لعفوٌّ**) أي كثير العفو، فعفا عنكم، فلم يحرّم أزواجكم عليكم بقولكم هذا (**غفور**) كثير المغفرة فغفر عن كذبهم هذا. وأوجب عليكم كفارة مقابل ذلك الكذب، لأنّه بمنزلة اليمين، واليمين توجب الكفارة عند الحنث، وذكر الله تعالى مقدار الكفارة فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣)﴾.

(والّذين يظاهرون) أي يوقعون الظّهار **(من نسائهم ثمّ يعودون لما قالوا)** في معنى هذه الفقرة أقوال كثيرة عند الفقهاء، والأصحّ منها هو أنّ الظّهار كالايلاء، فالإيلاء هو حلف الرّجل على عدم مواقعة امرأته مدّة أكثر من أربعة أشهر، فبعد مضي أربعة أشهر يجب على المولي إمّا مواقعتها وإعطاء الكفارة عن حلفه أو أن يطلّقها، فإن لم يطلّقها طلّق عليه القاضي. والظّهار هو تحريم الرّجل مواقعة امرأته إلى الأبد، فيجب عليه أحد الأمرين: إمّا أن يطلّقها لتستريح المرأة، أو أن يكفّر عن تحريمه هذا قبل أن يجامعها، فمعنى الآية: **(ثمّ يعودون)** أي ثمّ يريدون العودة **(لما قالوا)** أي لما قالوا فيه بالتّحريم وهو الجماع، فبعد إرادتهم هذه يجب عليه أحد الأشياء الآتية على التّرتيب، أي لا يجوز له العدول عن السّابق إلى اللّاحق إلّا بعد العجز عن السّابق، وهذه الأشياء هي ما قال تعالى **(فتحرير رقبة)** أي جعل عبدٍ حرّاً إن كان له عبد، وإلّا يجب أن يشتري عبداً فيعتقه **(من قبل أن يتماسّا)** أي من قبل الوقاع **(ذلكم)** أي ذلكم الحكم ما **(توعظون به)** أي تؤمرون به **(والله بما تعملون خبير)** فينتقم منكم إذا خالفتم ذلك الحكم.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

(فمن لم يجد) أي فمن لم يجد العبد ليعتقه وذلك بأن لا يوجد العبد كما في زماننا هذا، أو وجد ولا يجد قيمته، أو وجد قيمته ولكن لا يباع بقيمة المثل **(فصيام شهرين)** أي يجب عليه حينئذ صيام شهرين **(متتابعين)** لا يفصل بين أيام الشّهرين بالفطر إلى أن يكمّل الشّهرين، فإن فصل بدون عذر استأنف وبطل ما صامه قبل، وإن كان بعذر يبني على ما مضى عند مالك، وقال أبو حنيفة: يستأنف، وعند الشّافعي القولان **(من قبل أن يتماسّا)** أي يجب أن يكمّل شهرين قبل الجماع **(فمن لم يستطع)** أن يصوم **(فإطعام ستّين مسكيناً)** أي يجب عليه حينئذٍ أن يطعم ستّين مسكيناً، فلو أطعم مسكيناً واحداً ستّين يوماً أو وزّع قيمته عليه في ستّين يوماً لم يجز عند الشّافعي ومالك، وعند أبي حنيفة جائز، كما وأنّ القيمة لا تجوز إلّا عند أبي حنيفة.

تنبيه: لم يذكر بعد الإطعام قوله: (من قبل أن يتماسّا) فهل يجوز الجماع قبل

الإطعام، إذا كان واجبه الإطعام أم لا ؟ فعند أبي حنيفة يجوز حيث لم يقيّد بقبل المسّ في الإطعام، ولا يجوز عند مالك لأنّ القيد موجود بدلالة السّابقين، ووافق الشّافعي مالكاً، ويجوز التّمتّعات الأخرى غير الجماع قبل التّكفير عند الجمهور.

* * *

(ذلك) أي فرضت الكفارة عليكم **(لتؤمنوا بالله)** أي ليظهر إيمانكم بالله بإطاعة أوامره والإجتناب عمّا نهى عنه **(وتلك)** أي وما ذكر من الأحكام **(حدود الله)** أي حدود حدّها الله تعالى ولا يجوز تجاوزها ومخالفتهم **(وللكافرين)** بهذه الأحكام والتّاركين لها **(عذاب أليم)** أي عذاب مؤلم جدّاً.

سؤال: لماذا قلت والتّاركين لها؟ وهل يكفر الإنسان بترك الواجبات أم لا ؟

الجـواب: عند البعض يكفّر المسلم بترك الواجب مطلقاً، فعندهم معنى هذه الآية (وللكافرين) أي التّاركين لهذه الأحكام عذاب مؤلم، وعند الجمهور لا يكفر إلّا إذا كان تركه للواجب لعدم الإعتقاد به فحينئذٍ يكفر، فمعني الآية (وللكافرين) أي التّاركين لهذه الأحكام لعدم إيمانهم بها (عذاب أليم). **وعندي:** أنّ الكفر جاء مقابل الإيمان وجاء مقابل الإسلام، **فالأوّل:** بمعنى عدم الإعتقاد فيكون كافراً، **والثّاني:** بمعنى ترك العمل فيكون مؤمناً لا مسلماً لأنّ الإسلام بمعنى الانقياد والعمل، ويسمّى هذا الكفر الكفر في الأعمال، والأوّل الكفر في الإعتقاد. والكفر بمعنى ترك الأعمال. إن كان تركاً للأعمال كلّها فذلك التّارك لا يكون مسلماً، وإن كان في البعض فلا يكون مسلماً كاملاً بل ناقصاً ولا يسلب منه الإسلام بالكلّيّة.

* * *

خاتمة: لا ينعقد الظّهار إلّا من بالغ عاقل، وأركانه زوج وزوجة وصيغة، وصيغته كما سبق وهو: أن يقول الرّجل لامرأته: أنتِ عليّ كظهر أمّي، وهذه الصّيغة مجمع عليه بأنّه ظهار، وأمّا إذا بدّلت هذه الصّيغة كأن يقول كرأس أمّي أو بطنها أو فخذها أو غير ذلك. ففي كونه ظهاراً خلاف. وكذا إن بدّل الأمّ كأن يقول: كظهر بنتي أو أختي أو خالتي أو عمتي أو غيرهما ممّا حرم نكاحها حرمة مؤبّدة فمختلف فيه، وليس ظهاراً عند الكلّ. هذا. وإنّ الكلام في الظّهار ومسائله والاختلاف فيها طويل جدّاً لا يمكن تفصيله هنا، ومن أراد المزيد فعليه مراجعة كتب الفقه المؤلّفة لذلك، وليأخذ رأي كلّ مذهب من كتب ذلك المذهب.

* * *

تمهيد: قد قيل قديماً إنّ للعادة سلطاناً، فالعادات والأعراف والتّقاليد لها سلطانها على قلوب الأمم والشّعوب، سيّما إذا أصبحت تلك الأعراف قديمة وعريقة، ولا يستطيع أن يزيلها إلّا الأنبياء والمرسلون، والدّعاة الّذين يتحمّلون كلّ الأذى في سبيل نشر دعوة الله وبسط سلطان الشّريعة، فحينما نزلت آيات الظّهار وغيّرت حكمه السّائد بين القوم هاج الّذين في قلوبهم مرض والمنافقون الّذين كانوا لا يضيّعون أيّ فرصة لمعارضة هذا الدّين وتشكيك النّاس فيه، والمدينة كان فيها اليهود والمنافقون فجعلوا هذا الحكم وسيلة لمعارضتهم ودعايتهم ضدّ الرّسول (ﷺ) ومعاداتهم له فأنزل الله تعالى وقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥﴾﴾

(إنّ الّذين يحادّون الله) أي يعادون الله تعالى، وفسّر معاداة الله بقوله: **(ورسوله)** فإنّ معاداة الله هي عبارة عن معاداة رسوله، فإنّه هو الّذي يبلّغ أحكامه وينشر شريعته، فمعاداة الرّسول هي معاداة الله لا غيرها **(كبتوا)** أي أذلّوا **(كما كبت الّذين من قبلهم)** وهم الأمم السّابقة، والّذين خالفوا رسلهم وكذّبوهم **(وقد أنزلنا)** على رسول الله **(آيات بيّنات)** أي أحكاماً واضحات توافق العقل والمنطق والمصلحة والحكمة **(وللكافرين)** بهذه الأحكام وغير المطبّقين لها **(عذاب مهين)** أي عذاب يهينهم ويخزيهم في الدّنيا والآخرة، وقد فعل الله تعالى باليهود والمنافقين الّذين حادّوا الرّسول (ﷺ) فأجلوا عن ديارهم وقتلوا ولم يبق لهم أي كيان، وهكذا يفعل الله تعالى بكلّ من انحرف عن دين محمّد (ﷺ) وابتعد عن شريعته فيذلّهم ويخزيهم.

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾

(يوم) أي يعذّبون هذا العذاب المهين **(يوم يبعثهم الله)** أي يوم يحييهم الله **(جميعاً)** أي كلّهم مجتمعين **(فينبّئهم)** أي يخبرهم **(بما عملوا)** أي بكلّ ما عملوا في الدّنيا **(أحصاه الله)** أي حفظ الله عملهم كلّه **(ونسوه والله على كلّ شيء)** من أعمالهم **(شهيد)** أي مطلع لا يغيب عنه شيء منها، ويجزيهم على وفاق علمه بها.

سؤال: هنا يقول الله تعالى نسوه، أي نسوا أعمالهم، وقال الله تعالى في سورة

القيامة ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤)﴾ أي شاهدة على أعمالهم فكيف التّوفيق؟

الجـواب: إنّهم نسوا أعمالهم إلى أن أخبرهم الله تعالى بأعمالهم وسلّم إليهم سجلّ أعمالهن فحينئذ يتذكّرون أعمالهم ويطّلعون عليها.

* * *

ثمّ أكّد الله تعالى على أنّه عالم بكلّ شيء وشهيد عليه، فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾.

(ألم تر) أي ألم تعلم، وهذا الاستفهام للإنكار؟، وإنكار النّفي إثبات، أي إنّك تعلم يقيناً **(أنّ الله يعلم ما في السّماوات)** كلّها **(وما في الأرض)** وإنّ علمه محيط بكلّ شيء إلى حدّ أنّه **(ما يكون)** أي ما يوجد ويحدث **(من نجوى ثلاثة)** أي من تسارّهم أي المكالمة الخفيّة بينهم **(إلّا هو رابعهم)** في العلم بما يتسارّون فيه **(ولا خمسة)** أي ولا نجوى خمسة أشخاص **(إلّا هو سادسهم)** في العلم بما يقولون **(ولا أدنى)** أي ولا أقلّ من ذلك كمناجاة اثنين فهو ثالثهم **(ولا أكثر)** أي من ذلك إلى أن يتناهى العدد **(إلّا هو معهم)** في العلم بما يقولون أو يمكرون ويدبّرون **(ثمّ)** أي بعد العلم بما يقولون **(ينبّئهم بما عملوا)** من النّجوى أو غير ذلك من الأعمال، ويجزيهم عليها إن خيراً بخير وإن شرّاً فشرّ، وذلك الجزاء **(يوم القيامة)** يأتي **(إن الله بكلّ شيء عليم)** لا يخفى عليه شيء.

ثمّ أثبت الله تعالى أنّه يعلم نجوى النّاس وما يقولونه فيما بينهم خفية دون أن يطّلع عليهم أحد، وأنّه بكلّ شيء عليم، أثبت ذلك حيث أخبر عن نجوى اليهود وما كانوا يقولون فيما بينهم سرّاً، وأخبر عن تحيّتهم الّتي كانوا يحيّون بها رسول الله (ﷺ) وما يقولون بعد ذلك، فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨)﴾

(ألم تر إلى الّذين نهوا عن النّجوى) نزلت في اليهود والمنافقين فإنّهم كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون حينما كانوا يرون المؤمنين، وكانوا يقولون في نجواهم ويشيرون بغمزاتهم إلى أنّ غزاتهم غلبوا، وأنّ أقاربهم قتلوا، فنهاهم رسول الله (ﷺ) عن ذلك فلم ينتهوا، بل عادوا لمثل ذلك كما قال تعالى **(ثمّ يعودون لما نهوا عنه)** من النّجوى والتّغامز ضدّ المؤمنين فيفعلونها **(ويتناجون)** فيما بينهم **(بالإثم)** أي بفعل المعاصي **(والعدوان)** وبالعداء للمؤمنين **(ومعصية الرّسول)** ومخالفته في المعاهدة الّتي عاهدوها معه، وكانوا أيضاً **(وإذا جاءوك حيّوك بما)** أي بتحيّة **(لم يحيّك به الله)** فكانوا يقولون السّام عليك والسّام هو الموت **(ويقولون)** سرّاً وخفية **(في أنفسهم)** دون أن يعلم أحد **(لولا يعذّبنا الله بما نقول)** من هذه التّحيّة والاستهزاء به لو كان رسولاً، فحيث لا يعذّبنا الله به فليس برسول فأجابه تعالى فقال: **(حسبهم جهنّم)** أي يكفيهم عن عذابنا لهم جهنّم الّتي **(يصلونها)** يدخلونها نتيجة هذه التّحيّة وتناجيهم ضدّ المؤمنين ورسول الله (ﷺ) **(فبئس المصير)** لهم هي جهنّم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى من ذمّ تناجي اليهود والمنافقين ذكر أن التّناجي السّيّئ منهي عنه للمؤمنين أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) بالله ورسوله واعتنقتم الإسلام **(إذا تناجيتم)** أي اذا أردتم أن تتناجوا **(فلا تتناجوا بالإثم)** أي بما هو إثم ومعصية **(والعدوان)** ومعاداة بعضكم بعضاً **(ومعصية الرّسول)** أي ومخالفة رسول الله (ﷺ) والعمل بما يخالف شرعه **(وتناجوا بالبرّ)** بالأمور المحبوبة عند الله، كإصلاح ذات البين، أو التّدبير لرفع مظلمة، وإزالة منكر، وإقامة العدل والإحسان، وكلّ ما فيه الخير **(والتّقوى)** والأمور الّتي فيها الإجتناب عن الباطل **(واتّقوا الله)** في النّجوى وفي كلّ أمر **(الّذي إليه تحشرون)** فيحاسبكم على ما فعلتم ويعاقبكم إن كان شرّاً ويثيبكم إن كان خيراً.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

(**إنّما النّجوى**) بالسّوء (**من الشّيطان**) من دسائس الشّيطان يحمل المنافقين عليه (**ليحزن الّذين آمنوا**) وليس من حقّ المؤمنين أن يحزنوا به حيث (**وليس**) النّجوى (**بضارّهم**) بما يضرّهم شيئاً (**إلّا بإذن الله**) وإرادته وتقديره (**وعلى الله**)فقط لا على غيره (**فليتوكّل المؤمنون**) به فإنّ كلّ شيء بخلقه وتقديره، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

ثمّ لمّا كان نهي المؤمنين عن النّجوى السيّئ متضمّناً ومستلزماً لأن يكون الإجتناب عنه من آداب الإسلام الحسنة انجرّ الكلام إلى ذكر آداب أخرى والّتي تبثّ الحبّ والألفة بين المسلمين فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

(**يا أيّها الّذين آمنوا**) بالإسلام واعتنقوه أنّ من الآداب الحسنة والّتي تبثّ الألفة والمحبّة بين المسلمين، والّتي يجب على المسلمين والمؤمنين أن يتأدّبوا بها هو أنّه (**إذا قيل لكم**) عند الإزدحام والضّيق وعدم كفاية المكان للقادم (**تفسّحوا**) توسّعوا (**في المجالس**) بأن يجمع الانسان نفسه ليجلس إنسان بجانبه (**فافسحوا**) أي فتوسعوا وليفسح بعضكم المجال ليتمكّن القادم من الجلوس، فإذا فعلتم ذلك ووسّع بعضكم لبعض (**يفسح الله لكم**) أي يوسّع الله لكم، قيل: في قبوركم، وقيل: في قلوبكم، وقيل: في الدّنيا والآخرة، وعندي أنّ المراد كلّها حيث لا تنافي بينها، وقد ذكر اللّفظ عامّاً فيحمل على كلّ ما يشمله اللّفظ حسب اللّغة (**وإذا قيل لكم انشزوا**) أي إذا احتاجت التّوسعة إلى القيام ثمّ الجلوس وبذلك تتمّ التّوسعة، وقيل لكم انشزوا أي قوموا للتّوسعة (**فانشزوا**) أي قوموا ليفسح المجال للقادم، لأنّ يجلس (**يرفع الله الّذين آمنوا منكم**) أي إن استعملتم هذه الآداب يرفع الله الّذين آمنوا بالإسلام وتأدّبوا بآدابه، يرفعهم في الدّنيا والآخرة (**والّذين أوتوا العلم درجات**) أي درجات كثيرة في الثّواب والأجر في الآخرة، ويفهم من هذه الآية أنّ بعض النّاس كانوا يتكاسلون عن الإفساح في المجالس بالحركة أو القيام لافتخارهم بنسب أو غنى، وكان يترفّع عن أن يجلس بجنبه من دونه في النّسب أو الغنى، فنبّه الله تعالى أنّ الرّفعة ليست بالنّسب ولا بالمال وإنّما هي بالإيمان

والأعمال الصّالحة والتّقوى والعلم النّافع وأدبهم الله تعالى بقوله: **(يرفع الله الّذين آمنوا)** إلى آخر الآية **(والله بما تعملون)** في الدّنيا من الافتخار والتّعالي على النّاس **(خبير)** عالم فيعاقبكم على ذلك يوم القيامة بالنّار أو في الدّنيا بالذّل والصّغار أو فيهما جميعاً.

حكاية: حكي أنّ رجلاً رأى شخصاً يطوف بالبيت ومعه رجال يطردون له النّاس من المطاف، وبعد سنة أو أكثر رآه في سوق بغداد يستجدي ويتكفّف النّاس فقال له: ألست الّذي كان يطوف بالبيت ومعك رجال يطردون لك النّاس؟ فأجاب: نعم، تكبّرت في مقام يتذلّل فيه النّاس فأذلّني الله تعالى في مكان يتكبّر فيه النّاس.

* * *

تمهيد: كان النّاس يناجون رسول الله (ﷺ) بكثرة إلى حدّ شقّ ذلك على الرّسول (ﷺ) هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان من النّاس من يناجي الرّسول (ﷺ) لمجرد أن يتباهى بذلك ويفتخر ويقول ناجيت رسول الله (ﷺ)، وفيهم من يناجيه نفاقاً، ومنهم من يناجيه صدقاً وإخلاصاً وخيراً، فأراد الله تعالى أن يخفف عن الرّسول ويميّز الّذين يناجونه صدقاً وإخلاصاً من الّذين يناجونه تباهياً أو نفاقاً، فأمر الله تعالى وقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

(ياأيّها الّذين آمنوا) بالله ورسوله **(إذا ناجيتم الرّسول)** أي إذا أردتم أن تناجوه **(فقدّموا)** إلى الفقراء **(بين يدي نجواكم)** أي قبل نجواكم **(صدقة ذلك خير لكم وأطهر)** لأنكم تنالون بذلك أجر الصّدقة وشرف المناجاة معاً، ثمّ استثنى الله تعالى من هذا الحكم الفقراء فقال: فإن لم تجدوا ما تقدّمون لفقركم وفاقتكم **(فإنّ الله غفور)** غفر لكم عن تقديم الصّدقات أيّها الفقراء **(رحيم)** بكم حينما عفاكم عن هذا الحكم. ثمّ بعد أن مضى مدّة وتميّز الصادقون المخلصون عن غيرهم من الّذين لم يتركوا المناجاة خوفاً من الصّدقة أو بخلاً بها، وعلم النّاس كلا الفريقين واتّضح المنافقون والمتباهون خفّف الله تعالى عن المسلمين وألغى هذا الحكم المؤقّت والّذي كان لحكمة وقتيّة فقط، فقال جلّ وعلا:

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

(**أأشفقتم**) أي أخفتم من الفقر إذا بقي هذا الحكم (**أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات**) واستمررتم على الصّدقة قبل المناجاة (**فإذ لم تفعلوا**) أي لم يقدّم هذه الصّدقة كلّكم وترك البعض المناجاة خوف الفقر (**وتاب الله عليكم**) أي عفى عنكم من هذا الحكم وأزاله عنكم، وبدلاً عن ذلك (**فأقيموا الصّلاة**) أي داوموا على إقامة الصّلاة (**وآتوا الزّكاة**) إلى مستحقّيها (**وأطيعوا الله**) وحيث لا يمكن إطاعة الله إلّا عن طريق رسوله فإنّه هو الآخذ للأوامر من الله قال تعالى (**ورسوله**) أي وأطيعوا رسوله فإنّ إطاعته إطاعته فأطيعوه في الحكم و في إزالة الحكم وتبديله بحكم آخر كما هنا، حيث بدّل الصّدقة قبل النّجوى بوجوب الزّكاة.

ذكر ابن كثير أنّ العوفي قال: عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنّه قال: كان المسلمون يقدّمون بين يدي النّجوى صدقة، فلمّا نزلت الزّكاة رفعت هذه الصّدقة، انتهى.

وأقول: إنّ في ذلك فائدة، فإنّ صدقة النّجوى كانت مشروطة بالنّجوى، فكان البخلاء يتركون النّجوى خوف الصّدقة، فجيء بالزّكاة بدله بدون شرط لكي لا يستطيع البخلاء وغيرهم الفرار منها ليستفيد الفقراء (**والله خبير بما تعملون**) فيجازيكم حسب أعمالكم.

ثمّ وإنّ من الأدب الاسلامي الكبير والمهمّ جدّاً أن لا يتولّى المؤسنون الكافرين، وكان قوم يعملون ذلك فأنذرهم الله تعالى أشدّ إنذار فقال جلّ وعلا:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾

(**ألم تر إلى الّذين**) وهم أناس من الأوس والخزرج أسلموا لا عن عقيدة وإنّما أرادوا نفاقاً ودخولاً في الإسلام ظاهراً لجلب منافع، والأمن من بطش المسلمين، وكانوا يوالون اليهود وينقلون أسرار المؤمنين إليهم ففضحهم الله تعالى وقال: (**تولّوا قوماً غضب الله عليهم**) وهم اليهود وتولّوهم عداءً للإسلام لاحبّاً لليهود لأنّهم (**ماهم**) أي

ليسوا هم **(منكم)** من المسلمين، فإنّ كلّ من يوالي الكافرين ضدّ المسلمين فليس بمسلم **(ولا منهم)** أي وليس هؤلاء من اليهود لأنّ دينهم غير دينهم، حيث كانوا وثنّيين وقوميّتهم لم تكن مثل قوميّتهم، وانّما أرادوا بموالاتهم الانتفاع من الطّرفين **(ويحلفون)** لك يا محمّد (ﷺ) بأنّهم لم يخونوكم ولم يذمّوكم **(على الكذب)** لأنّ قولهم هذا الّذي يحلفون عليه كذب، فحلفهم كان على الكذب **(وهم يعلمون)** بأنّ ذلك كذب، وهذا هو دأب المنافقين في كلّ زمان يصادقون الطّرفين المتعاديين، ويحلفون للطّرفين كذباً لينفعوا من الجانبين، وليوقعوا العداء بينهما فيستفيد من ذلك.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

(أعدّ الله) أي هيّأ الله تعالى **(لهم)** لهؤلاء المنافقين **(عذاباً شديداً)** في الدّنيا وفي الآخرة وذلك حيث **(إنّهم ساء)** أي قبح **(ما كانوا يعملون)** من النّفاق والحلف عن الكذب عمداً.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾

(اتّخذوا) أي جعلوا **(أيمانهم)** الكاذبة **(جنّة)** أي سبباً لوقاية أنفسهم وأموالهم وأولادهم **(فصدّوا)** فمنعوا كثيراً من النّاس **(عن سبيل الله)** أي عن الإسلام والعمل له، أو إعتاقه والدّخول فيه **(فلهم)** فبسبب هذا العمل لهم **(عذاب مهين)** يذلّهم ويهينهم.

تنبيه: إنّ هذه الآية وإن وردت في المنافقين في عصر النّبوة إلّا أنّها عامّ لكلّ زمان، فإنّ في كلّ وقت توجد جماعة يوالون ويتصادقون مع قوى الكفر، ويصيرون عملاء وأجراء لهم، ويسعون لإستيلائهم على بلاد المسلمين، فالدّول المستعمرة لم يستطيعوا أن يدخلوا بلاد المسلمين إلّا بعد أن استأجروا بعض من كانوا مسلمين اسماً لا عقيدة؛ فاتّخذوهم جسراً وعلى متنهم عبروا إلى بلادنا واستولوا عليها، ولا يزال أمثال هؤلاء يعملون لحساب الأجنبيّ الكافر وبقاء حكمهم في البلادن فهؤلاء منافقون وأعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنّهم ساء ما يعملون الآن وفي المستقبل، وحيث إنّ المنافقين يعملون هذه الأعمال لأجل أموالهم وأولادهم قال جلّ وعلا:

﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

(لن تغني عنهم) أي لن تدفع عنهم **(أموالهم)** جميع أموالهم **(ولا أولادهم)** ولا كلّ أولادهم **(من الله)** من قبل الله **(شيئاً)** من العذاب والذّلّ والهوان بل **(أولئك أصحاب النّار)** أهل النّار **(هم فيها)** في النّار **(خالدون)** لا يخرجون منها أبداً.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي لن تغني ولن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً من عذاب الله **(يوم يبعثهم)** يحييهم **(الله جميعاً)** مجتمعين **(فيحلفون له)** لله تعالى كذباً **(كما يحلفون لكم)** في الدّنيا **(ويحسبون)** ويظنّون **(أنّهم على شيء)** أي أنّهم بهذا الحلف يحصلون على منفعة عند الله **(ألا إنّهم هم الكاذبون)** هنا وهناك؛ فلا يفيد كذبهم شيئاً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال هؤلاء المنافقين من تولّي الكافرين والحلف على الكذب، ذكر أنّ سبب أعمالهم هذه هو أنّه كما قال جلّ وعلا:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

(إستحوذ) أي غلب **(عليهم الشّيطان)** بوسوسته وأحاط بعقولهم ولعب بها **(فأنساهم ذكر الله)** وأحكامه والخوف منه **(أولئك)** أي هؤلاء وكلّ من اتّصف بهذه الصّفات **(حزب الشّيطان)** أي أتباعه وجماعته **(ألا)** أي فلتعلموا **(إنّ حزب الشّيطان هم الخاسرون)** لأنّهم باعوا الهداية بالضّلالة والآخرة بالدّنيا وأي خسارة أعظم من هذه.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الّذين يعادون الله ورسوله لهم عذاب مهين في الآخرة، ذكر أنّهم يذلّون في الدّنيا أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

(إنّ الّذين يحادّون الله ورسوله) أي يعادون الله بعداوة رسوله ورفض شريعته **(أولئك)** أي كلّ من اتّصف بهذه الصّفة **(في الأذلّين)** أي في القوم الأذلّاء فيذلّون، وعلّل ذلك بقوله جلّ وعلا:

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

(كتب الله) أي قدّر الله وحكم حكماً هو أنّه **(لأغلبنّ أنا ورسلي)** على أعدائنا حيث **(إنّ الله قويّ)** ذو قوّة عظيمة لا تتناهى **(عزيز)** غالب على أمره لا يمنعه في تنفيذ حكمه وإرادته أحد ولا شيء من الأشياء.

ثمّ ذكر الله تعالى أدباً آخر من آداب الإسلام وهو أنّ المؤمن لا يجوز أن يتحبّب ويتودّد ويتصادق مع من يعاند الله ورسوله وينحرف عن عقيدة الإسلام والعمل به، وإن كان ذلك المنحرف من أعزّ النّاس وأقربهم إليه، ومن لم يكن كذلك فقد كفر حيث قال جلّ وعلا:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون) أي يتحابون ويتوادّون ويتصادقون **(من حادّ الله ورسوله)** أي من عادى الله بعدم الإيمان به وبرسوله وبعدم اتّباعه، وإذا وجدت قوماً يعملون ذلك من التّحابب لأعداء الإسلام فليسوا بمؤمنين، وإنّ تظاهرهم بالإيمان كذب ودجل ونفاق **(ولو كانوا)** ولو كان هؤلاء الّذين يتوادّون معهم **(آباءهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك)** أي الّذين يعادون كلّ من عادى الإسلام ويتركونه وينبذونه ويحاربونه بكلّ شدّة **(كتب)** أي رسخ الله **(في قلوبهم الإيمان)** بالله واليوم الآخر **(وأيّدهم)** أي قوّاهم وقوّى عقيدتهم **(بروح)** بقوّة **(منه)** أي حاصلة تلك القوّة من عنده، هذا في الدّنيا أمّا في الآخرة فـ **(يدخلهم جنّات)** بساتين **(تجري من تحتها)** أي تحت أشجارها **(الأنهار)** للسّقي **(خالدين فيها)** مؤبّدين فيها لا يخرجون منها، وجوزوا هذا الجزاء لأنّه **(رضي الله عنهم)** بسبب أعمالهم وهم **(رضوا عنه)** في الدّنيا بالإيمان وما ذهب له من العيش، ورضوا عنه في الآخرة بهذا الجزاء

(أولئك) الموصوفون بهذه الصّفات **(حزب الله)** أي أتباعهم **(ألا)** أي فاعلم **(إنّ حزب الله)** أي المؤمنون به **(هم المفلحون)** الفائزون بنعم الله في الآخرة والنّاجون من النّار والدّاخلون في الجنّة، وهكذا كان المسلمون الأوائل ولذلك انتصروا ولنذكر هنا أمثلة عليهم ذكرها القرطبيّ:

١. قال جريج حدث أنّ أبا قحافة والد أبي بكر(رضي الله عنه) سبّ النّبيّ (ﷺ) فصّكه أبو بكر صكّةً فسقط منها على وجهه، ثمّ أتى النّبيّ (ﷺ) فذكر ذلك له فقال(ﷺ): أو فعلت هذا؟ لا تعد إليه، قال أبوبكر: والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً لو كان السّيف قريباً منّي لقتلته.

٢. قال ابن مسعود (رضي الله عنه): نزلت الآية في أبي عبيدة الجراح فإنّه قتل أباه عبدالله بن الجرّاح يوم (أُحُد) وكان الجرّاح يتصدّى لإبنه أبي عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه، فلمّا أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله.

٣. مصعب بن عمير (رضي الله عنه): قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر.

٤. قتل عمر بن خطاب (رضي الله عنه) خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر.

٥. إنّ عليّ وحمزة قتل يوم بدر عتبة وشيبة وهما من عشيرتهما.

هكذا كان المسلمون فانتصروا، فليكن المسلمون اليوم هكذا لينتصروا، وهذا كلّه مع الكافر الحربي، فالكافر الحربيّ سواءً كان حربيّاً بالقتال أو بالنّظام لا يجوز موالاتهم والتّحابب معهم والتّعاش معهم، أمّا الكافر الذّميّ والمعاهد فيجوز التّحابب والتّعامل معه في المعاملات الإعتياديّة والأمور الأخرى، كالمعاملات بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾ سورة الممتحنة الآيتان/٨،٩. هذا، وأمّا موالاتهم في إدارة الأمور وتولية البلاد والعبد والسّياسة فلا يجوز أيضاً لأنّ السّياسة قتال بدون سلاح وسلاح بدون قتال، وسيأتي في سورة المنافقين قصّة عبدالله بن عبدالله بن أبيّ ممّا يدلّ على شدّة تمسّكه بالإسلام وتركه موالاة أبيه لأنّه لم يؤمن، بل كان يعادي الإسلام ورسوله (ﷺ).

سورة الحشر

(مدنيّة نزلت بعد البيّنة، وآياتها عشرون، سمّيت بالحشر لما فيها من خبر حشر اليهود أي جمعهم في خيبر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾

التّسبيح: التّنزيه، فإذا قيل لله تعالى فالمراد به الاعتراف بنزاهته، ومعنى قوله تعالى: **(سبّح لله)** إنّه دلّ واعترف بنزاهة الله تعالى عن أن يعجز أن يفعل أيّ شيء أراده كلّ **(ما في السّموات والأرض)** فإنّ من قدر على أن يخلق هذا الخلق العظيم لا يعجز عن كلّ ما يريد أن يفعل، ودلّ هذا الخلق على أنّه **(وهو العزيز)** الغالب على تنفيذ إرادته، لا يمنعه من ذلك أي قوّة وسلطان في الكون **(الحكيم)** وهو الحكيم الّذي لا يعمل شيئاً إلّا لحكمة بالغة ومصلحة كبيرة هو يعلمها، فبهذه العزّة والقدرة والحكمة والمصلحة الّتي رآها، أخرج طائفة من اليهود وأجلاهم من المدينة المنوّرة، كما قال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾

قصّة بني النّضير:

نزلت هذه السّورة في بني النّضير ـ وهم طائفة من اليهود كانت تسكن المدينة، وفي رواية قصّة بني النّضير عبارات متفرّقة أحسنها ما ذكره الخازن (رَحِمَهُ اللهُ) فإنّه يقول: إنّ النّبيّ (ﷺ) لمّا دخل المدينة صالحه بنو النّضير على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلون معه، فقبل ذلك الرّسول (ﷺ)، فلمّا غزا رسول الله (ﷺ) بدراً وظهر على المشركين قال بنو النّضير: والله إنّه النّبيّ الأمّيّ الّذي نجد نعته في التّوراة ولا تردّ له راية، فلمّا غزا (أحداً) وانهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله (ﷺ) وللمؤمنين، ونقضوا العهد الّذي كان بينهم وبين رسول الله (ﷺ)، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكّة؛ فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتهم واحدة على محمّد (ﷺ)، ودخل أبوسفيان في أربعين من قريش وكعب بن الأشرف في أربعين من اليهود المسجد الحرام، وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين أستار الكعبة، ثمّ رجع كعب وأصحابه إلى المدينة. فنزل جبريل (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فأخبر النّبيّ (ﷺ) بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، وأمره بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمّد بن مسلمة غيلة، وكان النّبيّ (ﷺ) قد اطّلع منهم على خيانة حين أتاهم في سقيفتهم في دية الرّجلين المسلمين الّذين قتلهما عمرو بن أميّة الضّمري في منصرفه من بئر معونة؛ فهمّوا بطرح حجر على النّبيّ(ﷺ) من الحصن، فعصمه الله منهم وأخبره بذلك. فلمّا قتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله (ﷺ) وأمر النّاس بالمسير إلى بني النّضير، وكانوا بقرية يقال لها زهرة، فلمّا سار إليها النّبيّ (ﷺ) وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف فقالوا: يا محمّد واعية على أثر واعية، وباكية على أثر باكية، قال (ﷺ): نعم، فقالوا: ذرنا نبك شجوننا ثمّ ائتمر أمرك، فقال النّبيّ (ﷺ): اخرجوا من المدينة، فقالوا: الموت أقرب إلينا من ذلك، ثمّ تنادوا بالحرب وأذنوا بالقتال، ودسّ المنافقون عبدالله بن أبيّ وأصحابه أن لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنّكم، ولئن اخرجتم لنخرجنّ معكم فدربوا على الأزقة وحصّنوها، ثمّ إنّهم أجمعوا على الغدر برسول الله (ﷺ) فأرسلوا إليه أن اخرج إلينا في ثلاثين رجلًا من أصحابك وليخرج منّا ثلاثون حتّى نلتقي بمكان نصف بيننا وبينك فيسمعوا منك، فإن صدّقوك وآمنوا بك آمنّا كلّنا، فخرج النّبيّ (ﷺ) في ثلاثين من أصحابه واخرج إليه اليهود ثلاثين حبراً من اليهود حتّى كانوا في براز من الأرض، فقال بعض اليهود لبعض كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه كلّهم يحبّ الموت قبله، ولكن أرسلوا إليه كيف نفهم ونحن

ستّون؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج إليه ثلاثة من علمائنا فيسمعون منك، فان آمنوا بك آمنّا وصدّقناك، فخرج رسول الله (ﷺ) في ثلاثة من أصحابه وخرج ثلاثة من اليهود معهم الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله (ﷺ)، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النّضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله (ﷺ)، فأقبل أخوها سريعاً حتّى أدرك النّبيّ (ﷺ) فسارّه بخبرهم قبل أن يصل اليهم، فرجع النّبيّ (ﷺ)، فلمّا كان الغد صبّحهم رسول الله (ﷺ) بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرّعب وأيسوا من نصر المنافقين، فسألوا رسول الله (ﷺ) الصّلح فأبى عليهم إلّا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به، فقبلوا ذلك؛ فصالحهم على الجلاء وعلى أنّ لهم ما أقلّت الإبل من أموالهم إلّا الحلقة، وهي السّلاح، وعلى أن يخلوا لهم ديارهم وعقارهم وسائر أموالهم، وقال ابن عباس (رضي الله عنهما): على أن يحمل كلّ أهل بيت على بعير ما شاؤوا من متاعهم وللنّبيّ (ﷺ) ما بقي، وقيل: أعطى كلّ ثلاثة نفر بعيراً وسقاءً، وهذا القول أصحّ لأنّه أليق بإنسانيّة الرّسول (ﷺ) وشفقته، ففعلوا ذلك وخرجوا من ديارهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشّام، إلّا أهل بيتين منهم آل أبي الحقيق وآل حييء بن أخطب، فإنّهم لحقوا بخيبة ولحق الطّائفة بالحيرة، وذلك قوله تعالى: (هو الّذي اخرج الّذين كفروا...الخ).

* * *

(هو) أي الله **(الّذي اخرج الّذين كفروا من أهل الكتاب)** أي قدّر وأيّد محمّداً ونصره، فاخرج الّذين كفروا وهم بنو النّضير **(من ديارهم)** بالمدينة المنوّرة إلى الشّام وغيرها من البلاد **(لأوّل الحشر)** اللّام للتّوقيت أي وقت أوّل الحشر وهو حشرهم هذا إلى خيبر، والحشر الثّاني هو حشر عمر إيّاهم وإجلاؤهم من جزيرة العرب إلى الشّام **(ما ظننتم)** أيّها المؤمنون أن يخرجوا ويتّحدوا من ديارهم لقوّتهم وصيانة حصونهم **(وظنّوا)** أي بنو النّضير **(أنّهم مانعتهم حصونهم)** أي تمنعهم قلاعهم **(من الله)** أي من جنود الله وهم المؤمنون أو من عذاب الله والمآل واحد **(فأتاهم الله)** أي أتاهم جنوده أو عذابه **(من حيث لم يحتسبوا)** أي لم يظنّوا أنّ رئيسهم كعب بن الأشرف يقتل بيد أخيه في الرّضاعة، ولم يظنّوا أنّ الرسول (ﷺ) **يأتيهم** بقتالهم، فكان لا يخطر ذلك ببالهم **(وقذف)** أي قذف الله **(في قلوبهم الرّعب)** بقتل رئيسهم فأصبحوا **(يخربون**

بيوتهم بأيديهم) لئلّا ينتفع بها المسلمون بعدهم، حيث أيسوا من بقائهم فيها **(وأيدي المؤمنين)**، وكان المؤمنون أيضاً يخربون البيوت لكي لا يبقى مكان للعدوّ يستر فيه أو يتحصّن به **(فاعتبروا)** أي فاتّعظوا وخافوا أن ينزل بكم مثل ما نزل بهم، فلا ترتكبوا ما ارتكب هؤلاء من الخيانة والغدر ونقض العهد ومخالفة الرّسول (ﷺ) **(يا أولي الأبصار)** يا أصحاب القلوب والألباب.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾

(ولولا أن كتب الله) أي ولولا أن قدّر الله **(عليهم الجلاء)** الإخراج من الوطن **(لعذّبهم في الدّنيا)** بالقتل والسّبي وغير ذلك في الدّنيا **(ولهم)** بعد الجلاء **(في الآخرة)** يوم القيامة **(عذاب النّار)** عذاب جهنّم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سبب إجلائهم وإخراجهم من الوطن في الدّنيا وعذابهم في الآخرة بالنّار فقال جلّ وعلا:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾

(ذلك) ذلك الإخراج في الدّنيا وعذابهم بالنّار يوم القيامة حصل **(بأنّهم)** بسبب أنّهم **(شاقّوا الله)** وحيث إنّ مشاقّة الله غير معلوم، فسّره الله تعالى فقال: **(ورسوله)** أي وشاقّوا رسوله(ﷺ)، فمشاقّة الرّسول (ﷺ) هي مشاقّة الله تعالى **(ومن يشاقّ الله)** بمعاداة رسوله (ﷺ) وصدّ النّاس عن تطبيق شريعته **(فإنّ الله شديد العقاب)** أي إنّ الله شديد عقابه له، ولكلّ من يتّصف بهذه الصّفة وهي معاداة رسول الله (ﷺ) والوقوف دون العمل بكتاب الله وتطبيق شريعته ورفع راية الإسلام، وهذا الحكم سارٍ إلى يوم القيامة لكلّ من أصبح حجر عثرة دون تطبيق الإسلام والحكم به، وما أكثر هؤلاء!.

ثمّ إنّ الجيش الإسلامي حينما حاصر قلاع بني النّضير قطعوا النّخيل وأحرقوها لتوسعة المعسكر أو لغرض آخر من أغراض الحرب، ويقال أنّهم قطعوا نخلة واحدةً وأحرقوا نخلة، وقيل ستّ نخلات، فنادى بنو النّضير: يا محمّد أتزعم أنّك نبي تريد الإصلاح؟ أفمن الصّلاح قطع النّخيل وحرق الأشجار؟ فشقّ ذلك على النّبيّ (ﷺ) واختلف المؤمنون، فقال بعضهم: لا تقطعوا وقال بعضهم: إقطعوا، فنزلت الآية بقوله جلّ وعلا:

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

(**ما قطعتم من لينة**) وهي النّخلة كلّها وقيل هي النّخلة الكريمة (**أو تركتموها قائمة على أصولها**) فلم تقطعوها (**فبإذن الله**) أي كان ذلك مأذوناً فيه من عند الله تعالى (**و**) إذن في ذلك (**ليخزي الفاسقين**) الكافرين ويهينهم.

قال القرطبيّ (ﷺ) بعد تفسير هذه الآية الكريمة: واختلف في تخريب دار العدوّ وقطع ثمارها أو إحراقها على قولين:

الأوّل: إنّ ذلك جائز مطلقاً.

الثاني: إن علم المسلمون أنّ ذلك يكون لهم لا يجوز وإن يئسوا فعلوا.

والصّحيح الرّأي الأوّل لأنّ رسول الله (ﷺ) علم أنّ نخل بني النّضير لهم، ولكنّه قطع وحرق ليكون ذلك نكاية بهم، وإتلاف بعض المال لإصلاح باقيه جائز ومصلحة مقصودة شرعاً وعقلاً. أقول: والآية صريحة في ربط ذلك بالمصلحة بأن كان في ذلك كسر لشوكتهم أو وهن لهم فجاز كما قال تعالى: (**وليخزي الفاسقين**) وإلّا فلا يجوز بدون مصلحة.

تمهيد: إنّ الأموال الّتي تقع في حوزة الدّولة الإسلاميّة ثلاثة أنواع:

الأوّل: الصّدقات: وهي أموال الزّكاة الّتي تجبى وتحصل من المسلمين، وقد بيّن الله تعالى كيفيّة صرفها وتوزيعها فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾ سورة التّوبة الآية/ ٦٠.

الثّاني: الغنيمة: وهي الأموال الّتي تقع بأيدي المسلمين من الكافرين نتيجة القتال والغلبة عليهم، وقد بيّن الله تقسيم ذلك أيضاً فقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾ سورة الأنفال الآية/ ٤١. والباقي أربعة أخماس تقسّم على المشتركين في الجهاد للفارس سهمان وللرّاجل سهم واحد.

الثّالث: الفيء: وهو المال الّذي يأخذه المسلمون من الكفار بدون قتال، بل نتيجة الصّلح والإتّفاق بينهم، كأموال بني النّضير، حيث صالح بنو النّضير رسول الله (ﷺ) على أن يكون المال لرسول الله (ﷺ) وهم يخرجون سالمين ولا يقتلون، ويدخل في ذلك الجزية وما يأخذ من العشر من أراضي الكافرين ويسمّى ذلك بالخراج. ثمّ لما أجلى بنو النّضير وبقيت أموالهم للمسلمين ظنّ بعض المسلمين أنّ هذه الأموال كالغنيمة، فطلبوا تقسيمها كالغنيمة فأنزل الله تعالى الآية التّالية وأخبره فيها بأنّ هذه ليست غنيمة بل هو فيء، وبين حكم الفيء فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

(وما أفاء الله) وما رجع الله **(على رسوله منهم)** من بني النّضير من الأموال ليست غنيمة لأنّها حصلت دون قتال حيث **(فما أوجفتم عليه)** فما حرّكتم على أخذها **(من خيل ولا ركاب)** كالبعير والخيل وغير ذلك من الدّواب، أي ما قاتلتم على ذلك الأموال وما حصّلتموها نتيجة القتال **(ولكنّ الله يسلّط رسله على من يشاء)** فيستسلم دون حرب **(والله على كلّ شيء قدير)**.

ثمّ بعد أن بيّن الله تعالى أنّ هذا فيء وليست غنيمة بيّن كيفيّة تقسيم الفيء فقال جلّ وعلا:

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

(ما أفاء الله) ما رجع على رسوله **(من أهل القرى)** سواء كان قرى بني النّضير وغيرهم بدون قتال **(فللّه)** يكون قسم منه للصّرف على المصالح العامّة **(وللرّسول)** وللرّسول قسم لينفق على نفسه وأهل بيته **(ولذي القربى)** وقسم لأقارب الرّسول الّذين حرموا من أخذ الصّدقات **(واليتامى)** قسم منه **(والمساكين)** وقسم يعطى للفقراء عامّة **(وابن السّبيل)** لهم قسم. وقد قسّمنا كذلك **(كي)** لأجل أن **(لا يكون)** ذلك المال **(دولة**

بين الأغنياء منكم) يتداولونها في التّجارات والمعاملات، ويكون الفقراء وغيرهم من هؤلاء الأصناف محرومين منه **(وما آتاكم)** وما أعطاكم **(الرّسول فخذوه)** فاقبلوه **(وما نهاكم)** الرّسول **(عنه فانتهوا)** لا تقربوه **(واتّقوا الله)** واتّقوا عذاب الله عند مخالفتكم للرّسول **(إنّ الله شديد العقاب)** لمن خالف رسوله ولمن لم يقبل العمل بشريعته وحكمه.

فائدة: هذه الجملة: وما آتاكم الرّسول... إلخ الآية. قال القرطبيّ والخازن وغيرهم من المفسرين: هذا نازل في أموال الفيء، ولكن هو عام في كلّ ما أمر به النّبيّ (ﷺ) أو نهى عنه من قول أو عمل، أي أمر به من واجب أو مندوب أو مستحبّ، أو نهى عنه من محرّم فيدخل فيه الفيء وغيره، روى البّخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود (رضي الله عنه) أنّه قال: (لعن الله الواشمات) اللّائي يعملن الوشم والوشم هو: غرز العضو من الإنسان بالأبرة ثمّ الحشو بالكحل (والمستوشمات) اللّائي يقبلن ذلك (المتنمّصات) اللّائي ينتفن الشّعر من الوجه (والمتفلّجات) اللّائي يتكفّلن تفريج مابين ثنايا أسنانهنّ، فبلغ ذلك امرأة من بني سعد يقال لها أم يعقوب وكانت تقرأ القرآن؛ فأتت ابن مسعود فقالت: ما حديث بلغني عنك أنّك قلت كذا وكذا وذكرته، فقال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله (ﷺ) وهو في كتاب الله تعالى، فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين اللّوحين (الوحي المصحف) فما وجدته، فقال عبد الله: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)[1]. وروى البخاري ومسلم أيضاً عن السّيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله (ﷺ): (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ)[2] وفي رواية (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)[3] انتهى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الفقراء عامّة نصّ على بعض الفقراء للدّلالة على أنّهم أحقّ من غيرهم بهذا المال فقال جلّ وعلا:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨٥٣ الحديث رقم ٤٦٠٤.

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٣٤٣ الحديث رقم ١٧١٨.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٩٥٩ الحديث رقم ٢٥٥٠.

(للفقراء المهاجرين) يعطى من هذا المال للفقراء المهاجرين من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة من أصحاب رسول الله (ﷺ) **(الّذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم)** ذكرت هذه الجملة على أنّهم أحقّ من غيرهم لأنّهم لا مال ولا دار لهم. ثمّ عللّ قوله تعالى خروجهم من بلدتهم بقوله: **(يبتغون)** يطلبون بهذه الهجرة **(فضلاً من الله ورضواناً)** لأنّ الهجرة كانت بأمر الله تعالى واجبة وسبباً لثواب الله ورضوانه **(وينصرون الله)** ينصرون دين الله **(ورسوله)** بهذه الهجرة **(أولئك هم الصّادقون)** ضمير **(هم)** للفصل أي الفرق بين الخبر والصّفة لا للحصر[1] لأنّ الصّدق لم يكن محصوراً عليهم بل الأنصار كانوا صادقين مثلهم، أي صادقون في إيمانهم، فإنّ الإيمان الصّادق هو ما يتحمّل صاحبه في سبيله المشقّة ويضحّي بماله ونفسه لأجله ـ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ سورة الحجرات الآية/ ١٥.

ثمّ بيّن الله تعالى قسماً آخر من الفقراء الأهمّ فقال جلّ وعلا:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾

---

(١) لا مانع من أن يكون للحصر لكن لا للعدد بل للنوع المتصف بتلك الأعمال في موقف معين مطلوب فيه ذلك العمل بحيث لا ينفع في ذلك الموقف إلا ذلك العمل أو تلك الصفات، للتدليل على أن مثل هذه الصفات أو الأعمال في مثل هذه المواقف لا يتصف بها إلا المؤمنون حقيقة، فالإيمان مواقف. إذ كل موقف له ماله مما يدل على حقيقة الإتصاف بالإيمان، ففي موقف الجهاد حين يكون خطر العدو محبطا بالأمة يكون الجهاد أدل على الإيمان من الأعمال الأخرى، وفي الموضع الذي يتطلب الإنفاق يكون الإنفاق مما يحب لإنقاذ شخص من الموت بسبب الجوع أدل على الإيمان من غيره، وفي موقف التعرض لشهوة مغرية يكون ذكر الله والخوف منه الرادع عن ارتكاب تلك المعصية أدل على الإيمان من غيره وهكذا... لذلك جاء آيات كثيرة في القرآن الكريم يحصر الإيمان في أعمال حسب المواقف كهذه الآية ومثل قوله تعالى في الحجرات: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)) وقوله تعالى في الأنفال:(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)) وقوله تعالى في النور: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ)...الخ.

(والّذين) والفقراء الّذين **(تبوّؤا الدّار)** نزلوا المدينة **(والإيمان)** مع الإيمان **(من قبلهم)** من قبل هجرتهم إليهم **(يحبّون من هاجر إليهم)** مدح الله تعالى الأنصار بحبّهم للمهاجرين، فتفيد أنّ من يبغضهم فهو مذموم عندالله تعالى وكفى بذلك خسّة لهم **(ولا يجدون في صدورهم حاجة)** أي لا يحسدون المهاجرين **(ممّا أوتوا)** ممّا أعطوا من أموال بني النّضير **(ويؤثرون)** ويختارون العطاء لغيرهم **(على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)** فقر **(ومن يوق)** ومن وقاه الله **(شحّ نفسه)** وهو البخل **(فأولئك هم المفلحون)** لفظ **(هم)** هنا مثله في **(هم الصّادقون)** وقد مرّ ما فيه. فقسّم رسول الله (ﷺ) أموال بني النّضير كما أمره الله تعالى وأعطى فقراء المهاجرين وأمرهم أن يردّوا ما لديهم من أملاك الأنصار، وأعطى فقراء الأنصار أيضاً ولم يكن فيهم إلّا ثلاثة أشخاص.

ثمّ ذكر الله تعالى قسماً آخر من الفقراء الّذين يستحقّون مال الفيء أي واردات الأراضي الّتي أخذت فيئاً، وهم فقراء المسلمين الّذين يأتون بعد زمان الرّسالة إلى يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

(والّذين جاؤوا من بعدهم) الفقراء الّذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار ومن أوصافهم أنّهم **(يقولون ربّنا اغفر لنا ولأخواننا الّذين سبقونا بالإيمان)** ومرادهم المؤمنون السّابقون **(ولا تجعل في قلوبنا غلّاً)** أي حقداً وكراهيّة **(للّذين آمنوا)** من السّابقين واللّاحقين **(ربّنا إنّك رؤوف رحيم)** بعبادك فتقبّل دعاءنا هذا. قال العلماء: هذه الآية تفيد بأنّ من كان في قلبه شيء من كراهيّة المؤمنين السّابقين والصّحابة والتّابعين فليس له حقّ في أموال الدّولة الإسلاميّة، ولا يجوز أن يعطى لهم منها شيء.

تنبيه: هذا التّقسيم للفيء كان في زمن الرّسول (ﷺ) وأمّا بعده فكلّه لبيت المال يصرف للمحتاجين عامّة وللمصالح العامّة والأمور الخيريّة.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر موقف المنافقين في حادثة بني النّضير فقال جلّ وعلا:

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾

(**ألم تر إلى الّذين نافقوا**) ألم تنظر إلى الّذين نافقوا ماذا فعلوا إنّهم كانوا (**يقولون لإخوانهم**) أصدقائهم (**الّذين كفروا من أهل الكتاب**) وهم بنو النّضير، أرسل اليهم عبدالله بن أبيّ وجماعته أن اثبتوا ولا تخافوا فوالله (**لئن اخرجتم**) لئن اخرجكم المسلمون وأجلوكم عن دياركم (**لنخرجنّ معكم**) ونترك ديارنا (**ولا نطيع فيكم**) لا نطيع في إخراجكم وقتالكم (**أحداً أبداً وإن قوتلتم**) وإن قاتلكم المسلمون (**لننصرنّكم**) نقوم بصفّكم ونقاتل معكم (**والله يشهد**) أي يعلم (**إنّهم**) المنافقين (**لكاذبون**) في هذه المواعيد الّتي وعدوها.

ثمّ بيّن الله تعالى كذبهم فقال جلّ وعلا:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾

(**لئن اخرجوا**) أي لئن اخرج المسلمون بني النّضير من وطنهم وديارهم (**لا يخرجون معهم**) هؤلاء المنافقون (**ولئن قوتلوا**) قاتل المسلمون بني النّضير (**لا ينصرونهم**) لا ينصر المنافقون بني النّضير (**ولئن نصروهم**) بأن شاركوا معهم في القتال (**ليولنّ الأدبار**) هاربين (**ثمّ لا ينصرون**) لا ينصر بنو النّضير من قبل أحد غيرهم، وهم قد فرّوا فلم يبق لهم ناصر غير الله والله قد خذلهم لكفرهم.

ثمّ علّل الله تعالى على أنّهم إن شاركوهم في القتال لولّوا هاربين فقال جلّ وعلا:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾

(**لأنتم**) والله لأنتم أيّها المسلمون (**أشدّ رهبة**) أي أكثر خوفاً وخشية (**في صدورهم**) في قلوبهم (**من الله**) تعالى، والمعنى هؤلاء المنافقون يخافون منكم أكثر ممّا يخافون الله تعالى (**ذلك**) خوفهم منكم أكثر من خوفهم من الله (**بأنّهم**) بسبب أنّهم (**قوم لا يفقهون**) لا يعرفون قدرة الله تعالى وعظمته.

ثمّ أخبر الله تعالى عن أخبار وأحوال اليهود والمنافقين لكي لا يخاف المؤمنون منهم فقال جلّ وعلا:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

(لا يقاتلونكم) أي لا يقاتلكم اليهود والمنافقون **(جميعاً)** مجتمعين لخوف بعضهم من بعض **(إلّا في قرىً محصّنةٍ)** إلّا إذا كان لكلّ فريق منهم قرى محصّنة بالسّور والأسيجة **(أو من وراء جدر)** وحيطان **(بأسهم بينهم شديد)** لأنّهم لا يأمن بعضهم بعضاً **(تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى)** أي تحسبهم مجتمعين على رأي واحد وعمل واحد وعقيدة واحدة، ولكن ليسوا كذلك بل **(وقلوبهم شتّى)** متفرّقة كلّ يريد إضعاف الآخر **(ذلك)** أي هذه التّفرقة **(بأنّهم)** بسبب أنّهم **(قوم لا يعقلون)** تدبير الأمور، فإنّ قيام الأمور واستقامتها بالوحدة واتّفاق الكلمة ووحدة العقيدة والإيمان، ولا يمكن أبداً الجمع بين مختلفي العقائد في العمل والبناء، وإن فعلت ذلك فليس بناجح.

فائدة: قال فيما قبل بأنّهم قوم لا يفقهون، وقال هنا بأنّهم قوم لا يعقلون لأنّ الأوّل كان في الأمور المعنويّة والدّينيّة، وهنا كان في الأمور الدّنيويّة، والفقه يستعمل للأوّل وللثّاني العقل.

* * *

تنبيه: في هذه الآيات معجزات لأنّ القرآن أخبر عن المراسلة الّتي وقعت بين المنافقين وبني النّضير وكان كذلك، وأخبر عن المنافقين بأنّهم لا يخرجون مع بني النّضير وقد حدث كذلك، وأخبر عن خوفهم الشّديد من المسلمين وكان كما أخبر، والأخبار هذه كلّها كانت عن المغيبات والخبر عن الغيب كما هو معجزة، فدلّ ذلك على أنّ القرآن من الله تعالى.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

(كمثل الّذين من قبلهم) أي مثل بني النّضير في الهزيمة والذلّ والهوان في الدّنيا كمثل الّذين من قبلهم وهم أصحاب بدر وبنو قينقاع **(قريباً)** منهم في الزّمان **(ذاقوا**

وبال) عذاب **(أمرهم)** في الدّنيا **(ولهم عذاب أليم)** في الآخرة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مثل بني النّضير في الذّل والهوان، أراد أن يمثّل لإغراء المنافقين لهم بوعودهم الكاذبة فقال جلّ وعلا:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾

(كمثل) أي مثل بني النّضير مع المنافقين في إغوائهم لهم **(كمثل الشّيطان إذ قال للإنسان اكفر)** فيغريه ويغويه **(فلمّا كفر)** الإنسان وسيق إلى العذاب واستنجد بالشّيطان **(قال)** الشّيطان للإنسان **(إنّي بريء منك)** حيث **(إنّي أخاف الله ربّ العالمين)** فلا أستطيع من نجدتك شيئاً.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

(فكان عاقبتهما) أي عاقبة الشّيطان ومن كفر وعاقبة المنافقين وبني النّضير **(أنّهما في النّار خالدين فيها)** لا يخرجون **(وذلك)** الجزاء من دخول النّار والخلود فيها **(جزاء الظّالمين)** أي جزاء كلّ ظالم سواء كان تابعاً أو متبوعاً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال بني النّضير والمنافقين وعذابهم في الدّنيا والآخرة توجّه إلى المؤمنين بالموعظة والإرشاد؛ لأنّ الشّيطان لا يزال يعمل لإفساد كلّ إنسان سيّما المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

(ياأيّها الّذين آمنوا) بالله تعالى واليوم الآخر وصدّقوا الرّسول واعتنقوا الإسلام **(اتّقوا الله)** أي اتّقوا عذاب الله تعالى وذلك بترك المعاصي **(ولتنظر نفس)** أي ولتنظر كلّ نفس وتحاسب نفسها **(ما قدّمت)** ماذا قدّمته من الأعمال الصّالحة **(لغد)** وهو يوم القيامة، سمّي غداً لأنّ الكون يومان يوم هو الحياة الدّنيا ويوم هو الحياة الآخرة، فهو غد بالنّسبة ليوم الدّنيا **(واتّقوا الله)** أعاد هذه الجملة لأنّ الأولى كانت أمراً بترك

المعاصي وهذه أمر بالتّقوى والإجتناب عن ترك الأوامر والعمل الصّالح (**إنّ الله خبير بما تعملون**) فيحاسبكم عليه ويجزيكم على وفقه إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

(**ولا تكونوا كالّذين نسوا الله**) أي نسوا دينه فلم يعملوا به، ومعنى النّسيان هنا الترك لا الذّهول عن الشّيء، لأنّ الثّاني لا يسأل العبد عليه كما قال الرّسول (ﷺ): (رفع عن أمّتي الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه)[1]، والأوّل هو الّذي يعاقب المرء عليه لقوله تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ سورة طه الآية/ ١١٥. أي ترك العمل بالعهد (**فأنساهم**) لشدّة العذاب (**أنفسهم**) لا يدرون بحالهم (**أولئك**) الّذين يتركون العمل بدين الله تعالى (**هم الفاسقون**) الخارجون عن الإطاعة ولذلك استحقّوا العذاب.

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

(**لا يستوي أصحاب النّار**) لا تخرجوا عن آمر الله تعالى فتكونوا من أصحاب النّار بل اعملوا لتكونوا أصحاب الجنّة لأنّه (**لا يستوي أصحاب النّار وأصحاب الجنّة**) في الرّاحة والتّنعمّ حيث إنّ (**أصحاب الجنّة هم الفائزون**) بالنّعم والحياة السّعيدة دون أصحاب النّار؛ فإنّهم يعذبون فيها.

ثمّ أشار الله تعالى بهذه القصص والمواعظ والعبر إلى شدّة قسوة قلوب النّاس فقال جلّ وعلا:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

(**لو أنزلنا هذا القرآن**) الّذي أنزل عليكم أيّها النّاس لو أنزلناه (**على جبل لرأيته**) لرأيت الجبل (**خاشعاً**) متذلّلاً لأمر الله تعالى مطيعاً له (**متصدّعاً**) متشقّقاً من الهول (**من خشية الله**) من خوفه فلم يعصه (**وتلك الأمثال**) الّتي وردت من القصص وغيرها

---

(١) كنز العمال ٤/ ٩٨ الحديث رقم١٠٣٠٧.

(نضربها) نذكرها **(للناس لعلهم يتفكرون)** ليتفكروا ولا يتفكرون، فهم إذن أقسى من الجبل والحجارة.

ثم أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من صفاته ممّا يدعو إلى الخشية منه وإلى إطاعة أوامره واجتناب ما نهى عنه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

(هو) أي حضر في كلّ ضمير **(الله)** أي ذات المستجمع لجميع صفات الكمال والمنزّه عن جميع صفات النّقص **(الّذي لا إله)** لا موجود ولا مشرّع ولا مستحقّ للطّاعة والخضوع له **(إلّا هو)** الكائن بذاته والمعلوم بآثاره وصفاته **(عالم الغيب)** عالم بكلّ ما غاب عن الخلائق كلّهم **(والشّهادة)** أي عالم بكلّ ما يشهده الخلق **(هو الرّحمن)** معناه المفيض على عباده ما لا يعدّ ولا يحصى من النّعم الظّاهرة والباطنة قال تعالى: ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إنّ الإنسان لظلوم كفّار﴾ سورة إبراهيم الآية/ ٣٤. **(الرّحيم)** معناه المتّصف بصفة الإنعام والإحسان اتّصافاً لازماً وثابتاً، فمن هذه الصّفة تنبعث هذه الإنعامات اللّامتناهية الّتي هي مفاد الرّحمن جلّ جلاله هذا. وفي ذكر الرّحمن الرّحيم في بعد قوله: (عالم الغيب والشّهادة) فائدة عظيمة فإنّه حينما قال: (عالم الغيب والشّهادة) تقشعر جلود وقلوب المؤمنين، وتكاد أن تتقطّع خوفاً من الله تعالى، حيث علم أنّه عالم بالسرّ والعلانية وكلّ ما خفي وما ظهر، ولا يخلو إنسان عن خطأ في السرّ أو العلانية، فلتهدئة قلوب الخائفين قال الرّحمن بمن تاب ورجع، الرّحيم بمن خشي الله وندم على ما جنى وارتكب.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(هو الله الّذي لا إله إلّا هو الملك) أي مسيطر على كلّ شيء ومتسلّط على كلّ سلطان، فلا يخرج عن حكمه وقضائه أحد، وهو الملك حقيقة وغيره ملوك مجازاً، وأعطاهم ملكاً امتحاناً هل يعملون بما أمر أو لا؟ ثمّ يزيل ملكه بالموت أو غيره، ويحاسبهم على كلّ ما جرى منهم وكان. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ (٢٦)﴾ سورة آل عمران الآية/ ٢٧. **(القدّوس)** معناه المنزّه عن كلّ نقص وعن ما يعدّ للعبد كمالاً من صفات، لأنّ الكمال صفاته فوق كلّ كمال ولا يتصوّر كمال كمالها، فعلمه ليس كمثل علم العبد وهلمّ جرّاً. فليس كمثله شيء **(السّلام)** معناه المنزّه عن كلّ ما يوجب النّقص والفناء، أو معناه واهب السّلام لمن يشاء من عباده، أو يراد المعنيان حيث لا تنافي بينهما، بل هو متّصف بهما معاً **(المؤمن)** معناه الواهب للأمن والأمان لكلّ مأمون ومحفوظ، وذلك بأمره كن فيكون، أو بتيسير أسباب الأمان له وسدّ سبيل الخوف عنه **(المهيمن)** معناه القائم بقضاء حاجات العباد والباسط جناح الرّأفة والصّيانة عليهم **(العزيز)** معناه الغالب على كلّ أمر والمنفذ لإرادته، ولا يمنعه من ذلك شيء ولا أحد سواه، فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ولا رادّ لما قضى **(الجبّار)** معناه المنفّذ إرادته في خلقه رضوا أم أبوا، ولا يستطيعون التّفلت من قبضته أبداً **(المتكبّر)** معناه تصف بالكبرياء والتّوفّق على غيره بحيث إنّ كلّ شيء دليل تحت قدرته وإرادته وتصريفه **(سبحان الله)** أي تنزّه الله تعالى **(عمّا يشركون)** به فلا شريك له لا في ذاته ولا في أوصافه ولا في أفعاله ولا في أحكامه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٤)﴾

(هو الله الخالق البارئ المصور) الخالق والبارئ والمصوّر كلّها بمعنى واحد وهو: الموجد؟ إلّا أنّ البارئ هو الموجد للشيء دون أن يكون له مثال سابق. المصوّر معناه المخصّص كلّ شيء عند إيجاده بصورة كما أراد. والخالق معناه الموجد والمقتدر للأشياء **(هو العزيز)** أي غالب على أمره وتنفيذ إرادته إذا أراد أن يعمل شيئاً لا يمنع، وإذا لم يرد لا يجبر عليه **(الحكيم)** ذو الحكمة فلا يعمل عملاً إلّا وفيه حكمة بالغة ومصلحة كبيرة.

أللهم بعزتك أنقذنا مما نحن فيه وأصلح حالنا وبالنا وارزقنا صالح الأعمال واختم بالإحسان والإيمان آمالنا وأعمالنا وآجالنا آمين والحمد لله رب العالمين صلى الله على المولى محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين إلى يوم الدّين آمين.

سورة الممتحنة

(مدنيّة نزلت بعد الأحزاب وآياتها ثلاث عشرة وسمّيت بالممتحنة لما فيها الأمر بامتحان المهاجرات).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

قال القرطبيّ (رحمه الله): روى الأئمّة ـ أي أئمّة الحديث ـ واللّفظ لمسلم: عن عليّ (رضي الله عنه) قال: بعثنا رسول الله (ﷺ) أنا والزّبير والمقداد فقال(ﷺ): انطلقوا حتّى تأتوا روضة (خاخ) وهي موضع بين مكّة والمدينة، فإنّ بها ظعينة (وهي المرأة المسافرة في الهودج) معها كتاب فخذوه منها، فانطلقنا تعادي بنا خيلنا فإذا نحن بالمرأة فقلنا: اخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجنّ الكتاب أو لنلقينّ الثّياب، فاخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله (ﷺ) فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكّة يخبرهم ببعض أمر رسول الله (ﷺ). فقال رسول الله (ﷺ): ياحاطب ما هذا؟ قال: لا تعجل عليّ يارسول الله (ﷺ) إنّي كنت امرءاً في قريش، وكان ممّن معك من المهاجرين لهم قربات يحمون بها أهليهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النّسب فيهم أن أتّخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم افعله كفراً ولا ارتداداً

عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله (ﷺ): صدق، فقال عمر (ﷺ): دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال (ﷺ): إنّه شهد بدراً وما يدريك لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم. فأنزل الله عزّ وجل: (يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا عدوي وعدوّكم أولياء ....الخ)[١] وقيل اسم المرأة سارة من موالي قريش، وكان في الكتاب أمّا بعد: فإنّ رسول الله (ﷺ) قد توجّه إليكم بجيش اللّيل، يسير كالسّيل وأقسم بالله لو لم يسرّ إليكم إلّا وحده لأظفره الله بكم، وأنجز موعده فيكم، فإنّ الله وليه وناصره. وذكر أنّ حاطباً لما سمع قوله تعالى يخاطبه يا أيّها الّذين آمنوا ... غشي عليه من الفرح بهذا الخطاب حيث كان يخشى الكفر بهذا العمل.

(**يا أيّها الّذين آمنوا**) هذا خطاب لجميع المؤمنين خاطبهم الله تعالى فقال: (**لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء**) قرن الله تعالى بين عدوّه وهم الّذين لا يؤمنون به، أو يشركون به وبين عدوّ المؤمنين، إشارة إلى أنّ كلّ من كان عدوّاً لله فهو عدوّ المؤمنين والموحّدين وكلّ من كان للمؤمنين عدوّاً فهو عدوّ لله تعالى، وهذا أمر طبيعي، وكذلك إشارة إلى أنّ من كان عدوّاً لله يجب أن يعاديه المؤمنون ولا يوالونه، وقد صرّح بذلك الله تعالى فقال: (**تلقون إليهم بالمودّة**) ترسلون إليهم بما يدلّ على المحبّة والولاء لهم (**وقد كفروا**) أي كفر هؤلاء الأعداء لله تعالى (**بما جاءكم من الحقّ**) وهو دين الإسلام والقرآن، وأنّهم قد بلغوا من الكفر والعداوة لكم إلى أنّهم (**يخرجون الرّسول وإيّاكم**) المعنى اخرجوا الرّسول وإيّاكم من بلدتكم ووطنكم، وعبّر عنه بالمضارع إشارة إلى أنّهم لا يزالون يريدون ويحاولون إخراجكم من كلّ مكان، ولو استطاعوا ليخرجونكم من الدّنيا كلّها لشدّة عداوتهم لكم، وهذه العداوة ليست إلّا لسبب (**أن تؤمنوا**) أي لسبب إيمانكم (**بالله ربّكم**) بأنّه لا إله إلّا هو وحده، وقال: (**بالله ربّكم**) إشارة إلى حقيّة الإيمان به لأنّ من ربّى الإنسان من حين كونه نطفة ويربّيه إلى أن يعود إلى لقائه حقيق بأن يؤمن الإنسان به ويعبده ولا يشرك به غيره، فإذن فمن أظلم ممّن عادى من آمن بمن وجب الإيمان به عقلاً ونقلاً (**إن كنتم خرجتم**) من بلدتكم ووطنكم مكّة (**جهاداً في سبيلي**) أي لأجل الجهاد في سبيل ديني، فلا تتّخذوهم أولياء، فإنّ أوّل خطوة من خطوات الجهاد هي ترك أعداء الله وعدم التّحابب مع الكافرين بدينه وشريعته، فلا

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨٥٥ الحديث رقم ٤٦٠٨.

يمكن الجمع بين الجهاد وموالاة من تجاهده أبداً ومن فعل ذلك فهو منافق **(ومرضاتي)** أي إن خرجتم لأجل إرضائي فلا توالوا من كفر أو أشرك، فإنّه لو فعلتم ذلك فلا أرضى عنكم. ثمّ أخبر الله تعالى بأنّ بعضهم كحاطب فعل ذلك فقال جلّ وعلا: **(تسرّون إليه بالمودّة)** إي أنّكم توادّوهم سرّاً لكي لا يعلم به باقي المؤمنين، ولكنّ هذه الخيانة ليست مع المؤمنين فقط بل هي خيانة معي أيضاً، فإذا استطعتم أن تخفوها عن المؤمنين فلا تستطيعون إخفاءها منّي **(وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم)** فلا يخفى عليّ شيء **(ومن يفعله)** أي وكلّ من يقيم الموالاة مع الكافرين **(منكم)** أيّها المسلمون **(فقد ضلّ سواء السّبيل)** أي انحرف عن الإسلام ودين الله تعالى، فموالاة الكفر والإتّحاد معهم والتّجسس لهم على المسلمين كفر، فإن قيل المسلم إذا كفر إرتدّ وإذا إرتد وجب قتله، فلم لم يترك رسول الله (ﷺ) عمر ليقتل حاطباً؟ الجواب بوجوه:

الأوّل: إنّ هذا الحكم لم يكن موجوداً قبل فعل حاطب ذلك؛ فلذلك لم يقتل لأنّ الحكم لا يسري على الماضي، وإنّما من فعل ذلك بعدها يقتل ويدلّ على ماقلنا إنّ الله تعالى قال: (ومن يفعله منكم) أي بعد نزول هذه الآية (فقد ضلّ سواء السّبيل).

الثّاني: هو أنّ حاطباً لم يفعل ذلك تجسّساً وحبّاً في إستيلاء الكافرين على المؤمنين بل إنّ كتابه كان يأمر الكافرين بأن يخضعوا للرّسول (ﷺ) وأعلمهم بأنّهم لا يستطيعون مقاومته أبداً فليستسلموا وليؤمنوا، وإنّما التّجسس هو من أراد إستيلاء الكافرين على المسلمين، وكان كأجير وعميل لهم، فإنّ معنى موالاة الكافرين من دون المؤمنين هو أن تحبّ سيطرتهم على بلاد الإسلام والمؤمنين، فإنّ ذلك يقتل فاعله، فما حصل من حاطب لم يكن من هذا القبيل وإنّما نزلت الآية في حقّه عتاباً، ولئلّا يتطوّر الأمر إلى أكثر، وسدّاً للذّريعة والباب مطلقاً من موالاة الكافرين. والآيات الّتي تنهي عن موالاة الكافرين كثيرة نورد بعضها:

١- قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٢٨.

٢- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ سورة النساء الآية/ ١٣٨-١٣٩.

٣- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ سورة النساء الآية/ ١٤٤ أي حجةً واضحةً في عذابه لكم.

٤- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ سورة المائدة الآية/ ٥٤.

٥- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ سورة المائدة الآية/ ٦٠.

٦- قال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ سورة المائدةالآية/ ٨٣-٨٤.

٧ - قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة المجادلة /الآية ٢٢.

٨ - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ سورة الممتحنة الآية/ ١.

إلى غير ذلك من الآيات.

سؤال: هل طبّق كلّ المسلمين هذه الآيات؟

الجواب: كلّا. ثمّ نسأل: هل هؤلاء مسلمون؟ الجواب: كلّا ثمّ كلّا، بل هم شرّ من الكفّار لأنّه لولاهم لما أمكن الكافر الإستيلاء على بلاد المسلمين واستعمارهم.

* * *

ثمّ بعد أن نهى الله تعالى عن موالاة الكافرين ذكر أنّ موالاتهم لا تفيد من يواليهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾

(إن يثقفوكم) أي كيف توالونهم وإنّهم إن يثقفوكم أي يظفروا بكم ووقعتم في أيديهم **(يكونوا لكم أعداء)** أشدّاء **(ويبسطوا)** ويمدّوا **(إليكم)** أيّها المؤمنون **(أيديهم وألسنتهم بالسّوء)** أي بالضرب والقتل والسّب والشّتم **(وودّوا لو تكفرون)** لا يرضون منكم إلّا بعد أن تكفروا، وذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٢٠.

ثمّ إنّ الله تعالى بيّن أنّ الّذين يوالون الكافرين إنّما يفعلون ذلك للمحافظة على أولادهم أو أقربائهم، كما قال حاطب بن بلتعة: فأحببت أن أتّخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، فردّ الله تعالى على هذه الفكرة، فقال جلّ وعلا:

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

(لن تنفعكم أرحامكم) أهل قرابتكم **(ولا أولادكم يوم القيامة)** وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تعصون الله لأجلهم **(يفصل)** يفرّق يوم القيامة **(بينكم)** بين القريب وقريبه والإنسان وأولاده، فلا يستطيع أحد أن ينفع غيره **(والله بما تعملون بصير)** فيجازيكم عليه.

ثمّ ذكر الله تعالى من أبطال التّوحيد ومن أعلام المسلمين ومن المؤمنين المجاهرين بالدّعوة والجلدين تجاه كلّ كافر حتّى أقرباءهم وآباءهم وقومهم وعشيرتهم، وهم سيّدنا إبراهيم ومن معه من المؤمنين، وأمرنا الله تعالى بالاقتداء بهم في مصارحة الكافرين وفي منابذتهم، فقال جلّ وعلا:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ

أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾

(قد كانت لكم) أيّها المؤمنون **(أسوة حسنة)** إي اقتداء حسن، وفي وصف الأسوة بالحسنة إفادة أنّ غير هذه الأسوة سيّئة وقبيحة يجب على المسلم اجتنابها **(في إبراهيم والّذين معه)** تلك الأسوة والاقتداء بإبراهيم ومن معه من المؤمنين هي **(إذ قالوا لقومهم)** إذ أعلنوا إيمانهم وقالوا لقومهم **(إنّا برئاءُ)** أي بريئون **(منكم وممّا تعبدون من دون الله)** وهي الأصنام **(كفرنا بكم)** كرهناكم وكرهنا عقيدتكم **(وبدا)** وظهر **(بيننا وبينكم العداوة والبغضاء)** بسبب الاختلاف في العقيدة، فإنّ اختلاف العقيدة تورث العداوة بين أصحاب العقيدتين، إن كان صاحب العقيدة صادقاً في عقيدته **(حتّى تؤمنوا بالله وحده)** أي إنّ العداوة مستمرّة بيننا حتّى تؤمنوا بالله وحده وتعبدوه ولا تشركوا به شيئاً **(إلّا قول إبراهيم لأبيه)** المعنى اقتدوا بإبراهيم ومن معه في هذه المصارحة والمنابذة، ولكن لا تقتدوا بإبراهيم في قوله لأبيه: **(لأستغفرنّ لك)** فإنّ الأستغفار للكافرين غير جائز، وإبراهيم إنّما فعل ذلك حيث لم يك عالماً بذلك قبل، فلمّا علم حرمة الاستغفار للكافرين ندم وتاب من ذلك العمل **(وما أملك لك من الله من شيء)** لا أستطيع أن افعل شيئاً ينفعك. فالله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد **(ربّنا عليك توكّلنا)** فوضنا أمورنا إليك **(وإليك أنبنا)** إليك رجعنا **(وإليك المصير)** الرّجوع يوم القيامة للمحاسبة على الأعمال والجزاء وفقها. وهكذا يجب أن يكون المسلم فيجب أن يكون عدوّاً لكلّ كافر حتّى يؤمن بالله ويعتنق الإسلام، ولو كان من أهله وعشيرته وأولاده.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

(ربّنا لا تجعلنا فتنةً) محلّ امتحان **(للّذين كفروا)** بأن يغلبوا علينا فيظنّوا أنّهم على حقّ **(واغفر لنا)** ذنوبنا **(ربّنا إنّك أنت العزيز)** الغالب على كلّ أمر أردته من نصرتهم علينا أو نصرتنا عليهم **(الحكيم)** ولا تعمل شيئاً من ذلك إلّا لحكمة أنت أعلم بها ونحن عنها غافلون.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾

(لقد كان لكم فيهم) والله لقد كان لكم أيّها المسلمون، أي في إبراهيم ومن معه **(أسوة)** قدوةٌ واقتداءٌ **(حسنة لمن كان يرجو الله)** يرجو رحمة الله ورضوانه **(واليوم الآخر)** أي التّنعم والحياة السّعيدة فيه، فهؤلاء هم الّذين يقتدون بإبراهيم ومن معه هذا الاقتداء الحسن. ويعادون الكفرة ولا يوالونهم **(ومن يتولّ)** ومن يعرض عن هذا الاقتداء فإنّه يخسر وحده ولا يلحق بالله أي ضرر حيث **(فإنّ الله هو الغنيّ)** عن كلّ النّاس وعن عبدتهم **(الحميد)** في ذاته وصفاته سواء عبده النّاس أو لم يعبدوه.

هذا ولما نزلت هذه الآيات أصبح المسلمون يعادون أقرباءهم بشدّة ووجدوا في ذلك مشقّةً في أنفسهم، فبشرّهم الله تعالى بأنّهم إن يصمدوا فإن الله يهدي أقرباءهم فيؤمنون ويحصل بينهم مودّة في الإسلام؛ فقال جلّ وعلا:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

(عسى الله) إذا نسب عسى أو لعلّ إلى الله تعالى فإنّه للتّحقيق، فمعناه قد قرب **(أن يجعل)** الله **(بينكم وبين الّذين عاديتم منهم)** من الكافرين **(مودّةً)** إن صمدتم وصبرتم على الطّاعة في عداوتهم، وذلك بأنّ يهديهم الله تعالى فيؤمنوا ويكونوا إخوة لكم في الإيمان، وقد أنجز الله وعده هذا فأسلم هؤلاء بعد فتح مكة، وهذه معجزة القرآن حيث أخبر عن المستقبل فوقع الأمر كما أخبر **(والله قدير)** على أن يجعل بينكم هذه المودّة **(والله غفور)** لكلّ من ندم وتاب وآمن من الكفار **(رحيم)** ناشيء مغفرته هذه من رحمته فقط لا من شيء آخر.

تنبيه: إنّ هذه الأوامر الشّديدة من عداوة الكافرين وعدم موالاتهم إنّما هي في حقّ الكافر الحربيّ الّذي أنشأ القتال مع المسلمين، أو استولى على بلاد المسلمين، أو يريد الإستيلاء عليهم بالطّرق السّياسية، فهؤلاء كلّهم يجب معاداتهم ويحرم موالاتهم، وأمّا الكافر الذّمّيّ أو المعاهد والّذي لم يستول عليكم ولا يريد السّيطرة على المسلمين أو على بلادهم، فيجوز موالاتهم والتّعامل معهم بالحسنى كما قال جلّ وعلا:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾

(لا ينهاكم الله عن) الكافرين **(الّذين لم يقاتلوكم)** في الدّين حرباً أو سياسةً **(ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم)** أي لا ينهاكم الله أن تكرموهم وتحسنوا إليهم قولاً وفعلاً، لا أن تولّوهم أموركم فإنّه لا ولاية لكافر على مسلم **(أو تقسطوا)** وتعدلوا وتؤدّوا حقوقهم اليهم **(إنّ الله يحبّ المقسطين)** العادلين.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

(إنّما ينهاكم الله عن) موالاة **(الّذين)** قاتلوكم في الدّين أي لأجل العقيدة وفي ضدّها **(واخرجوكم من دياركم)** كالإسرائيليّين الّذين طردوا المسلمين من فلسطين **(وظاهروا)** والّذين ظاهروا أي عاونوهم وأيّدوهم **(على إخراجكم أن تولّوهم)** أي أن تصادقوهم وتوالوهم **(ومن يتولّهم)** يتحابب معهم **(فأولئك هم الظّالمون)** المتجاوزون حدود الله الّتي حدها لكم.

ثمّ بعدما أمر الله تعالى بترك موالاة الكفار، وحينئذٍ كان بعض المؤمنين في مكّة، فوجب عليهم الهجرة منها ليتمكّن لهم ترك موالاة المشركين، وكانت ممّن هاجر مسلمات كان أزواجهنّ كفاراً، فأنزل الله تعالى حكم هؤلاء النّساء فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

(ياأيّها الّذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات) أي النّساء اللّائي تعيّن أنّهنّ مؤمنات **(مهاجرات)** أزواجهنّ من الكفار **(فامتحنوهنّ)** أي فاختبروهنّ ليظهر لكم صدق قولهنّ **(الله أعلم بايمانهنّ)** معناه الله يعلم إيمانهنّ وجوداً وعدماً، وإنّما ذلكم الامتحان لكم ولتعلموا هل هنّ هاجرن لأجل الإيمان أو لكراهة الزّوج أو لعشق رجل منكم **(فإن علمتموهنّ مؤمنات)** صادقات **(فلا ترجعوهنّ إلى الكفّار)** فإنّه **(لا هنّ حلّ لهم)** لأنّهن

مسلمات ولا تحلّ المسلمة لكافر **(ولا هم يحلّون لهنّ)** لأنّهم مشركون، ولا يحلّ نكاح المشرك المسلمة. وإن علمتموهنّ كاذبات في الإيمان فارجعوهنّ إلى الكفار، وإذا صدق إيمانهنّ **(فلا ترجعوهنّ)** لأنّ النّكاح قد انفسخ بإيمانهنّ **(ما أنفقوا)** من المهور الّتي سلّموها إلى تلك النّساء **(ولا جناح)** أي ولا حرج ولا إثم **(عليكم)** أيّها المؤمنون **(أن تنكحوهنّ)** أي تنكحوا تلك النّساء المهاجرات لأنّ نكاحهنّ الأوّل بطل من أزواجهنّ بإسلامهنّ **(إذا إتيتموهنّ أجورهنّ)** أي صداقهنّ، ثمّ بعد أن حكم الله تعالى ببطلان نكاح كافرة من زوجها الكافر إذا أسلمت، ذكر أنّ المسلمة إذا إرتدّت يبطل نكاحها من زوجها المسلم أيضاً فقال: **(ولا تمسكوا بعصم الكوافر)** أي ولا تعتبروا **(بعصم الكوافر)** أي بنكاحكم الّذي هو بينكم وبين الكافرات، فإنّ كفرها يفسخ النّكاح بينكم. ولمّا أنزل الله هذا الحكم طلّق أصحاب كلّ امرأة كافرة بقيت في مكّة على كفرها ولم تؤمن ولم تهاجر مع زوجها المسلم **(واسألوا)** واطلبوا الكفّار ما أنفقتم من المهور على تلك النّساء الكافرات **(وليسألوا ما أنفقوا)** من المهور على نسائهم اللّاتي أسلمن **(ذلكم حكم الله)** يحكم بينكم هذا الحكم فنفّذوه **(والله عليم)** بحال الطّرفين **(حكيم)** لا يحكم حكماً إلّا وفيه حكمة ومصلحة لكلّ النّاس.

ثمّ بعد نزول هذا الحكم كان المسلمون يعطون مهور النّساء المهاجرات للكفّار ولكنّ الكفّار لم يعطوا ولم ينفذّوا حكم الله هذا، فخسر بعض المسلمين فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

(وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفّار) بأن ارتدّت امرأة مسلمة وتركت زوجها وخرجت إلى الكفّار ولم يعط الكفار زوجها مهرها **(فعاقبتم)** فغزوتم الكفّار وأخذتم غنيمة أو فيئاً منهم **(فآتوا)** فاعطوا **(الّذين ذهبت أزواجهم)** إلى الكفّار **(مثل ما أنفقوا)** على تلك الأزواج من المهور تعويضاً لما فاتهم **(واتّقوا الله)** اتّقوا عذابه بتنفيذ ما حكم به **(الّذي)** الله الّذي **(أنتم به مؤمنون)** فالمعنى أنّ الإيمان بالله يجب أن يبعث صاحبه على تنفيذ حكم الله وإلّا فالإيمان بدون الامتثال كشجرة بلا ثمرة، كما أنّ الامتثال بدون الإيمان كبناء فوق الماء لا يقوم ولا يستفيد ولا يفيد.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حكم النّساء الكافرات اللّاتي يهاجرن إلى رسول الله (ﷺ) وأمره أن يمتحنهنّ، والامتحان كانت بالبيعة بين الله تعالى الأمور الّتي تبايع النّساء فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قال القرطبيّ (رحمه الله) في صحيح مسلم: عن عائشة زوج النّبيّ (ﷺ) قالت: كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله (ﷺ) يمتحنّ لقوله تعالى: (ياأيّها النّبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ...الخ).

(ياأيّها النّبيّ إذا جاءك المؤمنات) النّساء اللّاتي تردن أن يؤمنّ ويدخلنّ في الإسلام وجئن **(يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً)** في العبادة والتّقديس وما خصّ به من الأوصاف والأفعال **(ولا يسرقن)** مالاً **(ولا يزنين ولا يقتلن أولادهنّ)** فقد كان الجاهليّون يقتلن بناتهنّ ويدفنونهنّ وهنّ أحياء خوف العار وخوف الفقر **(ولا يأتين ببهتان)** بولد لقيط بهتاناً وكذباً **(يفترينه)** ينسبنه افتراءً وكذباً **(بين أيديهنّ)** إلى بطنهنّ الّذي هو بين أيديهنّ وأرجلهنّ، ويقلن لأزواجهنّ هذا ولدي منك وليس منها ولا منه، ولا يعصينك في كلّ ما أمرتهنّ من **(معروف)** وكلّ أمره معروف وخير **(فبايعهنّ)** فاقبل بيعتهنّ هذه **(واستغفر لهن الله)** واطلب لهنّ من الله تعالى أن يغفر لهنّ عمّا ارتكبن فيما مضى **(إنّ الله غفور)** إذا استغفرت لهنّ فيغفر لهنّ **(رحيم)** ومغفرته لمجرّد رحمته لا لشيء آخر، فإنّه غنيّ عن العالمين.

قالت عائشة (رضي الله عنها): فمن أقرّ بهذا من المؤمنات فقد أقرّ بالمحنة، وكان الرّسول (ﷺ) إذا أقررن بذلك قال لهن: انطلقن فقد بايعتكنّ، ولا والله ما مسّت يد رسول الله (ﷺ) يد إمراة قطّ غير أنّه بايعهنّ بالكلام[1]، هذا وحينما فتح مكّة بايع النّساء بعد بيعة الرّجال مثل هذه البيعة.

---

(١) ٥/ ٢٠٢٥ الحديث رقم ٤٩٨٣.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى ما يجب عليهم تجاه المشركين من عدم الموالاة وغير ذلك ممّا أحاطت به السّورة، نهى أيضاً أن يتولّى المسلمون اليهود والنّصارى فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

(ياأيّها الّذين آمنوا لا تتولّوا قوماً غضب الله عليهم) لأنّهم كانوا يعلمون صدق الرّسول (ﷺ) في قوله أنّه رسول الله، لما وجدوا ذلك في التّوراة والإنجيل، ولكنّهم كفروا عناداً وحسداً واستكباراً، ومن ضلّ عن علم فهو مغضوب عليهم، ومن ضلّ عن جهل فهو ضالّ **(قد يئسوا من الآخرة)** قد تيقّنوا أنّهم ليس لهم حظّ من الآخرة لعملهم هذا كما **(يئس)** كما تيقّن **(الكفّار)** الّذين ماتوا وأصبحوا **(من أصحاب القبور)** حرمانهم، حيث شاهدوا الحقّ وعلموا حسابهم ومكانهم في جهنّم، فيقين هؤلاء مثل يقينهم لمّا وجدوا في التّوراة والإنجيل، فلم يعملوا به، وعلموا أنّ من لم يعمل به ولم يؤمن بمحمّد (ﷺ) فهو في النّار خالداً فيها، أو معناه كما يئس الكفار بالبعث والإحياء بعد الموت من أصحاب القبور، واعتقدوا بأنّهم لا يبعثون ولا يعودون لحياة الآخرة بعد ما بليت عظامهم وأبدانهم ولا يجتمعون معهم أبداً. اللّهم لا تجعلنا ممّن ييأس من رحمتك ولا تحرمنا من مغفرتك ومتّعنا بلطفك ونعمتك في الدّنيا والآخرة، آمين والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعيم الى يوم الدّين.

سورة الصّف

(مدنيّة، نزلت بعد سورة التّغابن وآياتها أربع عشرة، سمّيت بالصّف لورود قوله تعالى فيها: ﴿يقاتلون في سبيله صفّاً﴾...الخ).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾

(سبّح) اعترف ودلّ على نزاهة الله تعالى كلّ **(ما في السّموات وما في الأرض)** فدلّت كلّ ذلك على أنّ الله تعالى منزّه عن أن يعجز عن قهر الكافرين أو إبادتهم أو تذليلهم، فإنّ من قدر على خلق هذا الكون قادر على تذليل الكفرة، وإنّه ما فرض الجهاد عليكم أيّها المؤمنون لعجزه عن ذلك، فإنّه على كلّ شيء قدير **(وهو العزيز)** الغالب على كلّ ما أراد لا يمنعه من تنفيذ إرادته كلّ ما في الكون من قوّة وسلطان، بل إنّما فرض عليكم الجهاد لحكمة أرادها هو، فإنّه **(الحكيم)** ذو حكمة لا يعمل شيئاً إلّا وفيه مصلحة كبيرة وحكمة عظيمة هو يعلمها.

ثمّ أنّب الله تعالى المؤمنين على تكاسلهم عن الجهاد وقتال الكفار فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ②﴾

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة، وملخّص كلّها هو أنّ المؤمنين قالوا: لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله تعالى لعملناه، ثمّ نزل الأمر بالقتال فكرهه بعضهم وتكاسلوا عنه؛ فقال تعالى: **(ياأيّها الّذين آمنوا لم تقولون ما)** شيئاً **(لا تفعلون)** وتتكاسلون عنه.

ثمّ بيّن الله تعالى أنّ القول بشيء دون العمل به مبغوض عند الله تعالى، فقال جلّ وعلا:

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾

في الآية الكريمة تقديم وتأخير، فالتّقدير كبر أن تقولوا ما لا تفعلون مقتاً عند الله، فكبر فعل ماضٍ وجملة **(أن تقولوا ما لا تفعلون)** مؤوّلة بالمصدر، ويكون فاعلاً لكبر فالتّقدير: كبر قولكم ما لا تفعلون مقتاً عند الله، ومقتاً تمييز، والتّمييز إمّا أن يكون محولاً عن الفاعل الأصليّ أو المفعول به، وهنا محول عن الفاعل، فالتّقدير كبر قولكم ما لا تفعلون مقته، أي كبر مقت قولكم ما لا تفعلون، وذلك مثل طاب نفس زيداً أي طاب نفس زيد. والمقت مصدر بمعنى المفعول، فالمعنى: كبر ممقوتيّة أي مبغوضيّة قولكم ما لا تفعلون عند الله، والحاصل أنّ قولكم ما لا تفعلون مبغوض عند الله جدّاً فلا ترتكبوه، وإذا قلتم شيئاً ممّا هو مشروع فافعلوه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن ما هو أحبّ الأعمال إليه، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾

(إنّ الله يحبّ) يكرم ويقدر **(الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً)** في سبيل نصرة دينه وإعلاء كلمته ورفع راية الإسلام **(صفّاً)** مصطفين **(كأنّهم بنيان مرصوص)** رصّ أي شدّ بعضه إلى بعض، فالمعنى: يحبّ الله من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء الشّديد تلاصقه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر موقف قوم موسى مع موسى وقوم عيسى مع عيسى ومخالفتهما لهما، وملامة الله تعالى لهم تحذيراً لأمّة محمّدﷺ من مخالفة رسولهم فيما يأمرهم به من الجهاد وغيره، مبتدئاً بقصّة موسى عليه السلام فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾

(و) اذكر يا محمّد لقومك ليعتبروا **(إذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني)** بمخالفتي وعدم إطاعتي **(وقد تعلمون)** بسبب المعجزات الّتي أظهرتها لكم **(إنّي رسول**

الله إليكم) فلا آمركم إلّا بما أمر الله ولا أنهاكم إلّا عن ما نهى الله تعالى عنه **(فلمّا زاغوا)** فلمّا خالف القوم موسى **(أزاغ الله قلوبهم)** أمال الله قلوبهم عن الحقّ وأضلّهم **(والله لا يهدي القوم الفاسقين)** جبراً بل يهديهم إذا اختاروا الهداية ويضلّهم إذا اختاروا الضّلالة، ولذلك حينما زاغوا عن الحقّ أزاغهم.

ثمّ بعدما ذكر الله تعالى قصّة قوم موسى أتبعه بقصّة قوم عيسى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾

(و) اذكر يا محمّد لقومك **(إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصدّقاً لما)** لشريعة ودين **(بين يدي)** جاء قبلي وهو ما أنزل الله **(من التّوراة)** فأصدقها وأعمل بها **(ومبشّراً)** ومبشّراً لكم **(برسول)** من الله **(يأتي من بعدي اسمه أحمد)** وهو نبيّنا وخاتم الأنبياء والمرسلين محمّد (ﷺ) **(فلمّا جاءهم)** فلمّا جاءهم عيسى **(بالبيّنات)** بالمعجزات الكثيرة كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك **(قالوا هذا)** الّذي جاء به عيسى **(سحر مبين)** وإنّه ليس برسول.

ثمّ بيّن الله تعالى حال هذا القوم ووصفهم بارتكابهم أعلى درجات الظّلم فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾

(ومن أظلم) الاستفهام للنّفي أي لا تجد أظلم **(ممّن افترى على الله الكذب)** حيث وصف معجزاته الّتي أظهرها على يد رسوله بالسّحر ولم يعتبر بها **(وهو يدعى إلى الإسلام)** إلى الانقياد لله وتبعيّة رسوله **(والله لا يهدي القوم الظّالمين)** جبراً، فكيف يهدي من هو أظلم الظّالمين، بل جعل الاختيار بيدهم، فلمّا اختاروا طريق الغواية ظلماً كتب الله عليهم الضّلال والغواية.

ثمّ وصف الله تعالى هؤلاء الأقوام الّذين يقفون ضدّ رسلهم ويصدّون النّاس عن اتّباعهم فقال جلّ وعلا:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾

(يريدون) يريد هؤلاء القوم الظّالمون وأمثالهم من كلّ فئةٍ ضالّةٍ معاديةٍ لرسالة الرّسل وتطبيق شريعتهم **(ليطفئوا نور الله بأفواههم)** شبّه الله تعالى أمثال هؤلاء الّذين يريدون إطفاء نور الإسلام بأفواههم وأقوالهم الكاذبة، ودعايتهم الباطلة بالّذين يريدون إطفاء نور عظيم بنفخ يخرج من أفواههم ولا يستطيعون ذلك، لأنّ هذا النّور أناره الله تعالى **(والله متمّ نوره ولو كره الكافرون)** وعلى رغمهم، وهذه القصص وتلك الآيات كلّها جاءت لتبشّر الرّسول محمّد (ﷺ) بالنّصر وإتمام أمره، ولتهديد كلّ من وقف ضدّ دعوته ونشر شريعته في كلّ زمان ومكان، وقد صرّح بذلك فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

(هو الّذي) إن الله هو الّذي **(أرسل رسوله)** محمّداً (ﷺ) **(بالهدى ودين الحقّ)** وهو دين الإسلام **(ليظهره)** ليظهر ويعلي هذا الدّين الحقّ **(على الدّين كلّه)** على الأديان كلّها، وقد فعل الله تعالى ذلك فأصبح جميع الملل والأمم منقادة للمسلمين وخاضعة لحكمهم **(ولو كره المشركون)** ولو كره إعلاء كلمة الإسلام المشركون. هذه الآية تفيد أنّ كلّ من لا يقبل حكم الإسلام وتطبيقه، فهو مشرك بالله تعالى حيث لا مشرّع إلّا الله تعالى، فمن أراد تشريعاً آخر غير تشريع الله تعالى فقد كفر بالله وأشرك به.

ثمّ بعد أن أخبر الله تعالى أنّ هذا الدّين جاء ليعلو فوق كلّ دين، وعلم أنّ المشركين والكافرين يكرهون ذلك ولا يرضونه، وينجرّ ذلك إلى التّصادم بين المسلمين والكافرين، أمر الله تعالى المسلمين بالجهاد في سبيل إعلاء هذا الدّين وجعل للمجاهدين أجراً عظيماً؛ فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

(ياأيّها الّذين آمنوا) بالله وباليوم الآخر وبالإسلام **(هل أدلّكم على تجارةٍ تنجيكم)** ينجيكم الله بها **(من عذاب إليم)** موجع جدّاً، والاستفهام للتّقرير فمعناه أدلّكم عليها

وهي أنّه **(تؤمنون بالله ورسوله)** تثبتون على الإيمان بالله ورسوله ولا ترتابون في ذلك الإيمان **(وتجاهدون)** وتعملون بجهد ومشقّة **(في سبيل الله)** في سبيل نشر دينه وإعلاء كلمته **(بأموالكم وأنفسكم)** بصرف أموالكم وبذل أنفسكم **(ذلكم)** ذلكم الجهاد **(خير لكم)** من كلّ شيء في الدّنيا والآخرة، أمّا في الدّنيا فلأنّ الجهاد يكون سبباً للعزّ والسّيادة في الأرض، وأمّا في الآخرة فلنيل الكرامة من الله تعالى والفوز بحياة سعيدة لا تفنى ولا تزول **(إن كنتم تعلمون)** العاقبة الحسنى الّتي يورثها الجهاد لما تكاسلتم عنه.

ثمّ عبر الله تعالى عن خيريّة الجهاد وعن ثمرته في الدّار الآخرة، فقال جلّ وعلا:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

(يغفر لكم) مجزوم بتقدير شرط تقديره إن تجاهدوا.....إلخ، يغفر لكم أيّها المؤمنون بسبب الجهاد **(ذنوبكم)** كلّها **(ويدخلكم جنّاتٍ)** بساتين **(تجري من تحتها)** تحت أشجارها الأنهار للسّقي **(ومساكن طيّبة في جنّات عدن)** محلّ إقامة دائمة لا رحيل عنها ولا خروج، ولا ضجر فيها ولا إنزعاج **(ذلك)** الجزاء **(هو الفوز)** النّيل بالمطلوب **(العظيم)** الّذي لا يوصف ولا يدرك كنهه إلّا من ناله.

ثمّ اتّبع الله تعالى ذلك بذكر ثمرة الجهاد في الدّنيا، فقال جلّ وعلا:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

(وأخرى) وثمرة أخرى تحصلون عليها من الجهاد في الدّنيا **(تحبّونها)** تحبّون نيل هذه الثّمرة وهي **(نصر من الله)** فينصركم على الكافرين **(وفتح)** فتح لما تريدون فتحه من البلاد **(قريب)** ذلكم الفتح **(وبشّر المؤمنين)** وبشّرهم يا محمّد بهاتين الثّمرتين نتيجة الجهاد، وهما الفوز العظيم يوم القيامة والنّصر والفتح القريب في الدّنيا، وهذه معجزات أخبر بها القرآن الكريم فإنّه أخبر عن الفتح والنّصر فكانا كما أخبر ووقع الأمر كما بشر.

ثمّ أراد الله تعالى أن يحثّ المؤمنين على القتال بمدح طائفة من السّابقين بالجهاد

ونصرة دين الله تعالى ووعدهم لهم بالتّأييد والنّصر والظّفر بالكافرين، كما أيّد من قبلهم على أعدائهم فغلبوا عليهم، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا كونوا) كونوا كلّكم **(أنصار الله)** أنصار دين الله ومجاهدين في سبيل نشره **(كما)** نصر الحواريّون دين الله وجاهدوا في سبيله حينما **(قال عيسى ابن مريم من أنصاري إلى الله)** من ينصرني إلى تلبية أمر الله ونشر دينه في الأرض **(قال الحواريّون نحن)** كلّنا **(أنصار الله)** أنصار دين الله **(فآمنت)** بعد نصر الحواريّين لعيسى **(طائفة)** جماعة كثيرة **(من بني إسرائيل)** بعيسى واتّبعوه **(وكفرت طائفة)** جماعة أخرى فوقع الخلاف بينهم واشتدّ النّزاع ووقعت بين الطّائفتين الحرب **(فأيّدنا الّذين آمنوا)** قوّيناهم ونصرناهم **(على عدوّهم)** وهم الطّائفة الكافرة وعبّر عنهم بعدوّهم للإشارة إلى أنّ الكفر والإيمان متعاديان، فلا يمكن الجمع بين الكافر والمؤمن والتّحابب بينهما أبداً، وإذا رأيت شيئاً من ذلك فنفاق ودجل، فإنّ اختلاف العقيدة يورث اختلاف القلوب، وذلك يورث النّفرة والنّفرة تورث العداء، ولأنّ كلّ صاحب عقيدة إن صدق في عقيدته يريد إعلاءها على عقائد أخرى، ومن هنا يقع الإصطدام حتماً **(فأصبحوا)** أصبح الّذين آمنوا **(على عدوّهم ظاهرين)** غالبين على عدوّهم بتأييدنا ونصرنا، وهذا وعد من الله تعالى بأنّ كلّ من نصر دينه فإنّ الله ينصره على أعدائه في الدّين كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ سورة محمّد الآية/ ٧. فحينما نرى اليوم من عدم نصر المؤمنين ليس إلّا لأنّ المؤمنين لا يعملون بجدّ وأنّهم ليسوا مؤمنين صادقين وإلّا فإنّ الله لا يخلف الميعاد.

ألّلهم ثبّت قلوبنا على الإيمان وانصرنا على الأعداء وارزقنا سعادة الدّنيا والآخرة، وما ذلك على الله بعزيز فإنّه على كلّ شيء قدير آمين.

سور الجمعة

(مدنيّة نزلت بعد الصّف آياتها إحدى عشرة سمّيت بالصّف لما فيها من الأمر بأداء صلاة الجمعة).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾

تمهيد: في بيان حكمة تصدير هذه السّورة بالتّسبيح، وهذه الاسماء الحسنى فنقول:

أوّلاً: إنّ الله تعالى بعث رسول الله (ﷺ) وهو أمّي ومن أمّة أميّة وجعله ينبع من فعله وقوله العلم، وأصبح النّاس متحيّرين فيه ولا يزالون متحيّرين في علمه وحكمته إلى يوم القيامة فقال تعالى: **(يسبّح لله)** يدلّ ويعترف كلّ **(ما في السّموات وما في الأرض)** بالنّزاهة لله تعالى وأنّه منزّه عن أن يعجز من أن يجعل رجلاً أميّاً وفي أمّة أميّة رسولاً، ويجعله منبعاً للعلوم والمعارف، فإنّ من قدر على خلق هذا النّظام العجيب والكون البديع لقادر على أن يجعل الأمّي عالماً ينطق بالحكمة ويهدي النّاس إلى صراط مستقيم.

ثانياً: إنّ أهل الكتاب قد امتلأت قلوبهم غيظاً وحقداً وحسداً من أنّ الرّسالة إنتقلت من أولاد إسحاق إلى ولد اسماعيل **(عليهما السلام)** كما قال تعالى عنهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٩٠. ولذلك قال تعالى: **(الملك)** إنّ الله هو الملك والمتصرّف في ملكه كيف يشاء، فلا يؤثّر فيه اقتراح النّاس عليهم أو رغبتهم في أمر أو عن أمر آخر.

ثالثاً: إنّ بعضاً من المشركين كانوا لا يؤمنون بالرّسول لأنّه لم يكن من صناديد قريش وعظمائهم، كما قال تعالى لقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ سورة الزخرف الآية/ ٣١. وزعموا أنّه كما كان الملوك حينما يرسلون إلى النّاس وفداً ورسولاً، فإنّما يختارون لذلك من يكون من العظماء والصّناديد فقال تعالى: **(القدّوس)** المنزّه عن صفة المخلوق فإنّه لا يعمل مثل ما يعمل الملوك العبيد، بل يختار حسب إرادته من يشاء ويجعله رسولاً إلى العباد **(العزيز)** الغالب على أمره لا يمنعه من تنفيذ إرادته شيء **(الحكيم)** فلا يعمل شيئاً إلّا وفيه حكمة ناصعة فبعزّته هذه ولحكمته الّتي أرادها اختار إنساناً أميّاً ومن الأمّيّين وجعله رسولاً إلى كافّة النّاس بشيراً ونذيراً، فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾.

(**هو الّذي بعث**) أرسل (**في الأمّيّين**) في العرب سمّوا أمّيّين لأنّ الأمّيّة كانت غالبة عليهم أو لأنّهم لم يكن لهم شريعة ولا كتاب (**رسولاً**) والرّسول هو الإنسان الّذي أوحى الله إليه وأنزل عليه كتاباً أو أمره بنسخ الأحكام الّتي كانت قبله. وقد سبق أن فصّلنا الكلام على تعريف النّبيّ والرّسول والفرق بينهما في تفسير سورة (يس) عند قوله تعالى: ﴿إنّك لمن المرسلين﴾ فمن أراد الإطلاع عليها فعليه الرّجوع إليها. (**منهم**) من الأمّيّين وهو أمّي مثلهم (**يتلو**) يقرأ (**عليهم**) على الأمّيّين (**آياته**) آيات الله تعالى، والآيات جمع آية، والآية جاءت لمعان كثيرة ذكرناها في تفسير سورة يوسف. والمعنى الّذي يليق هنا هو: إمّا آيات القرآن وهي الفقرات من القرآن المفصولة عن أخواتها بعلامات لها شكل مدوّر، وأمّا أحكام الله تعالى، ويجوز أن يحمل على المعنى الأوّل أو الثّاني أو كليهما ليشمل الأحكام المبيّنة بالسّنّة أيضاً (**ويزكّيهم**) ويطهرهم من الكفر والشّرك والجهل والخرافات (**ويعلّمهم الكتاب**) كتاب الله تعالى وهو القرآن (**والحكمة**) والتّفقّه في الدّين (**وإن**) مخفّفة من الثّقيلة تعمل في ضمير الشّأن المقدّر تقديره (وإنّه) وإنّ الشّأن والحال أنّهم (**كانوا من قبل**) قبل مجيء محمّد (ﷺ) (**لفي ضلال**) انحراف عن الطّريق الحقّ (**مبين**) من أبان بمعنى: بانَ، أي اتّضح، وضلال مبين: أي ضلال واضح.

وحيث إنّ بعثة الرّسول (ﷺ) عامّة لكافة النّاس ولكلّ الأمم قال جلّ وعلا:

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾

(وآخرين) ويزكّي الرّسول ويعلم الأمم الآخرين المغايرين **(منهم)** من العرب الكتاب والحكمة فيشمل كلّ الأمم الّذين **(لمّا يلحقوا)** عند نزول هذه الآية **(بهم)** بالأمّيّين في الإيمان بالرّسول (ﷺ) وسيلحقون بهم. وفي هذه معجزة فإنّ القرآن اخبر بأنّ الأمم الأخرى سيلحقون بهم في الإيمان، حيث إنّ **(لمّا)** لنفي الشّيء في الماضي مع توقّع وجوده في المستقبل وتوقّع القرآن للتّحقيق فوقع كما أخبر **(وهو العزيز)** الغالب على أمره فيهدي الأقوام الآخرين إلى اعتناق الإسلام والتّمسك بهذا الكتاب المستبين **(الحكيم)** الّذي جعل الرّسول لكافة النّاس لحكمة أرادها.

ثمّ إنّ كثيراً من النّاس يقولون: لماذا جعلت رسالة الرّسول (ﷺ) لكلّ الأمم؟ ولماذا أرسل الله تعالى الرّسول (ﷺ) من قريش؟ أو لماذا أرسله من العرب ولم يرسله إلى قوم آخر؟ إلى غير ذلك ممّا يريدون أن يحكموا به على الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤﴾

(ذلك) هذه البعثة لرسول الله تعالى (ﷺ) وجعله إلى كافة النّاس **(فضل الله)** نعمة الله تعالى **(يؤتيه)** يعطي الله هذا الفضل **(من يشاء)** ويختاره فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا اعتراض على حكمه ولا رادّ لأمره يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء وهو على كلّ شيء قدير **(والله ذو الفضل العظيم)** لا يدرك كنه فضله وحكمته إلّا هو أي الله تعالى.

ثمّ إنّ بعثة الرّسول كان موعوداً به في التّوراة وقد أخذ العهد من أهل الكتاب أن يؤمنوا عند ظهوره، وقد ذكر لهم أوصافه وعلاماته فيها بحيث لم يكن يخفى عليهم أنّه هو، إلّا أنّهم حينما جاءهم وعرفوه خالفوا التّوراة وحرّفوا كلّ ما يتعلّق بالرّسول (ﷺ) وأوصافه وعلاماته ولم يعملوا بالتّوراة ولذلك ذمّهم الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥﴾

(مثل الّذين حمّلوا التّوراة) حال الّذين كلّفوا بالعمل بالتّوراة وامتثال ما فيها **(ثمّ لم يحملوها)** ثمّ لم يعملوا بها ولم يؤمنوا بالرّسول الّذي أمرتهم التّوراة بالإيمان به،

وقد تركوا كثيراً من أحكام التّوراة غير هذا الحكم أيضاً، فحالهم في عدم الإستفادة من التّوراة (**كمثل الحمار**) كحال الحمار حال كونه (**يحمل أسفاراً**) يحمل كتب العلم ولا يستفيد منها (**بئس مثل**) بئس مثل وحال القوم (**الّذين كذّبوا بآيات**) بأحكام (**الله**).هذا الحال الّذي ذكرناه من حال أهل التّوراة فكذّبوا بما فيها من أحكام الله،وكذّبوا بالقرآن فلم يؤمنوا بما فيه من الأحكام (**والله لا يهدي**) جبراً (**القوم الظّالمين**) الّذين ظلموا وكتموا ما في التّوراة وتجاوزوا عن حدود الله وأحكامه وعن تنفيذ عهده الّذي عهدها إليهم من الإيمان بمحمّد (ﷺ) وأتباعه ونصره وتوقيره بل إنّ من أحبّ الهداية وسعى لها هداه الله تعالى ومن أراد الضّلالة والبقاء عليها تركهم فيها.

لطيفة: في هذه الآية إشارة أخرى وهي أنّ الله تعالى يقول لأمّة محمّد (ﷺ): إنّ اليهود شبّهوا بالحمار الّذي يحمل فوق ظهره الأسفار. أي الكتب لأنّهم تركوا العمل بالكتاب الّذي أنزلناه عليهم وهو التّوراة، وقد أنزلنا إليكم القرآن، فحينما تركتم العمل به وانحرفتم عن تعاليمه فتكون حالكم مثل اليهود كحال الحمار الّذي يحمل فوق ظهره الأسفار والكتب في عدم الإستفادة منها.

* * *

تمهيد: إنّ اليهود والنّصارى كانوا يمتنعون عن الإيمان بالرّسول (ﷺ) من أنّ التّوراة والإنجيل كانا يأمران بذلك، لأنّهم كانوا يدّعون دعاوى كاذبة وباطلة، ويعتقدون أنّهم أهل الجنّة آمنوا بالرّسول أوّلا، وهذه الدّعاوى ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم، فمنها ما قاله تعالى حكاية عنهم: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ سورة آل عمران الآيتان/ ٢٣، ٢٤. ومنها ما ذكره الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١١١. ومنها ماذكره الله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٣٥، ومنها ماذكره الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ سورة المائدة الآية/ ١٨.

* * *

فلهذه الدّعاوى كلّها كانوا لا يعتنقون الإسلام ويخالفون أمر التّوراة والإنجيل من الإيمان ودخول الإسلام، فكذّبهم الله تعالى في تلك الدّعاوى فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ لليهود وغيرهم ممّن يدّعون الدّعاوى الباطلة **(يا أيّها الّذين هادوا)** الّذين دخلوا في اليهوديّة من قبل **(إن زعمتم)** إن اعتقدتم **(أنكم أولياء لله)** أي أحبّاؤه وأبناؤه كما تدّعون **(من دون النّاس)** دون غيركم من الملل **(فتمنّوا الموت)** لأنفسكم **(إن كنتم صادقين)** في دعاواكم هذه لأنّ الجنّة ألذّ وأطيب من هذه الدّنيا بملايين الدّرجات، فمن كان من أهل الجنّة يجب أن يحبّ الموت ليدخل فيها، إلّا أنّهم ليسوا صادقين في هذه الدّعاوى، فلذلك لا يحبّون الموت أبداً كما قال جلّ وعلا:

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾

(ولا يتمنّونه) لا يتمنّون الموت **(أبداً)** إلى الأبد، ويحبّون أن لا يموتوا أبداً **(بما قدّمت أيديهم)** من الجرائم والآثام **(والله عليم بالظّالمين)** فيما عملوا، وسيعاقبهم عقاباً شديداً.

ثمّ بعدما أخبر الله تعالى بأنّهم لا يحبّون الموت أخبرهم بأنّ كلّ ما يعملون فإنّما يعملونه خوفاً من الموت وفراراً منه، وإنّ ذلك الفرار لا ينجيهم فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

(قل) لهم أيّها النّبيّ **(إنّ الموت الّذي تفرّون منه)** بكلّ الوسائل **(فإنّه ملاقيكم)** ولا تنجون منه **(ثمّ)** بعد الموت **(تردّون)** ترجعون **(إلى عالم الغيب)** أي العالم بما أخفيته من الجرائم **(والشّهادة)** وبما عملتموه علناً من المعاصي **(فينبّئكم)** فيجزيكم **(بما)** بكلّ ما **(كنتم تعملون)** في الدّنيا، ولا يغيب عنه تعالى شيء من تلكم الأعمال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾

ذكر الإمام الرّازي في وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها قولين:

الأوّل: إنّ اليهود كانوا يفتخرون بثلاثة أشياء:

الشّيء الأوّل: إنّهم كانوا يقولون: نحن أهل التّوراة، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: (مثل الّذين حملوا التّوراة.......إلخ) أي إنّكم لستم من أهل التّوراة، لأنّ التّوراة أمركم بالإيمان برسول الله (ﷺ)، فلم تمتثلوا، ومن لم يتمثل بشيء فهو ليس من أهله.

الشّيء الثاني: إنّهم كانوا يقولون: (نحن أبناء الله وأحبّاؤه) فردّ الله تعالى عليهم بقوله: (قل ياأيّها الّذين هادوا إن زعمتم..الخ).

الشّيء الثالث: إنّهم كانوا يفتخرون بالسّبت وأنّه يومهم الّذي خصّهم الله به، فردّ الله تعالى عليهم بتخصيص يوم الجمعة وما فيه من الصّلاة والذّكر والفضل والثّواب أكثر من يوم السّبت.

الثّاني: هو أنّ اليهود يفرّون من الموت بالعمل الدّؤوب للدّنيا وبالكسب والتّجارة، وينسون العمل للآخرة، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يتركوا عمل الدّنيا حينما حان وقت العمل للآخرة فقال: (**يا أيها الّذين آمنوا إذا نودي للصّلاة من يوم الجمعة**) أي إذا اذّن المؤذن لصلاة الجمعة في يوم الجمعة (**فاسعوا**) فاذهبوا بجدّ واشتياق (**إلى ذكر الله**) إلى أداء ذكر الله وهو الصّلاة، وإلى استماع ذكر الله وهو الخطبة، وكلتاهما مقصودتان بالأمر بالذّهاب والسّعي إليهما (**وذروا البيع**) في وقت الصّلاة لأدائها (**ذلكم**) ذلك الثّواب الّذي تحصلونه من الصّلاة (**خير لكم**) ممّا تحصلونه في هذه المدّة من البيع (**إن كنتم تعلمون**) ثواب الجمعة وصلاتها، وأنّها خير من منفعة البيع لما تركتموها، بل تركتم كلّ شيء لأجلها.

تنبيه: قوله: (**وذروا البيع**) المراد به كلّ ما يعوق عن حضور الصّلاة يجب أن يترك لغرض أداء الصّلاة والحضور عند ذكر الله والموعظة في ذلك اليوم، سواءً كان بيعاً أو أي عمل آخر.

* * *

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾

(فإذا قضيت الصّلاة) أدّيتم الصّلاة **(فانتشروا في الأرض)** للكسب والعمل **(وابتغوا)** واطلبوا **(من فضل الله)** من رزق الله تعالى **(واذكروا الله كثيراً)** في وقت تحصيل الرّزق، واعلموا أنّ الله يراقبكم فلا تحصلوه من الحرام أو بالطّرق غير المشروعة **(لعلّكم تفلحون)** لكي تفلحوا في الدّنيا بالمعيشة الطّيّبة وفي القيامة بالثّواب الجزيل، لأنّ الكسب الحلال عبادة يؤجر المسلم عليها يوم القيامة كما يستفيد منها في الدّنيا.

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾

ذكر القرطبيّ (رضي الله عنه) أنّه في صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) أنّ النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) كان يخطب يوم الجمعة، فجاءت عير من أهل الشّام فانفلت النّاس إليها حتّى لم يبق إلّا إثنا عشر رجلاً فنزلت هذه الآية.

(وإذا رأوا تجارة أو لهواً إنفضّوا) خرجوا **(إليها)** إلى التّجارة واللّهو **(وتركوك)** الخطاب للرّسول صلى الله عليه وسلم **(قائماً)** تخطب على المنبر، وفي هذا تأنيب شديد لهؤلاء الّذين خرجوا وتركوا الجمعة للتجارة أو اللّهو، ولكلّ من يفعل ذلك إلى يوم القيامة **(قل)** يا أيّها النّبيّ لهؤلاء ولغيرهم **(ما)** الّذي **(عند الله)** من الأجر والثّواب **(خير من اللّهو ومن التّجارة والله خير الرّازقين)** فلا تتركوا عبادته للرّزق، فإنّه يرزقكم ورزقه خير من ما ترجون منه الرّزق.

سؤال: لم قدّم التّجارة على اللّهو في قوله: وإذا رأوا تجارةً أو لهواً، وأخرّها عنه في قوله: خير من اللّهو ومن التّجارة...الخ؟

الجواب: إنّ التّرقي في الكلام هنا من الأدنى إلى الأعلى، والإنفضاض للّهو من المسجد أليق بالتّأنيب من الإنفضاض للتّجارة، فكأنّه قال: وإذا رأوا تجارةً بل لهواً إنفضّوا. وفي قوله: خير من اللّهو ومن التّجارة فما هو خير من التّجارة أعلى ممّا هو

خير من اللّهو، فيكون المعنى وما عند الله خير من اللّهو بل ومن التّجارة أيضاً فما أبلغ هذا القرآن الكريم.

* * *

خاتمة فيما ورد في: بيان فضل صلاة الجمعة ووجوبها:

١- عن أبي هريرة (رضي الله عنه)عن النّبيّ (ﷺ) قال: خير يوم طلعت عليه الشّمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنّة وفيه اخرج منها، ولا تقوم السّاعة إلّا في يوم الجمعة. قال في التّاج: رواه الخمسة إلّا البخاري[١]. وزاد عليه أبو داود: وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم السّاعة، وما من دابّة إلّا وهي مسيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتّى تطلع الشّمس شفقاً من السّاعة إلّا الجنّ والأنس.

٢- عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: نحن الآخرون السّابقون يوم القيامة بيد أنّهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، ثمّ هذا يومهم الّذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه فهدانا الله له، فالنّاس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنّصارى بعد غد. قال في التّاج رواه الشّيخان[٢]. ولمسلم: نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنّة.

٣- وعنه قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول على أعواد منبره: لينتهينّ أقوام عن ودعهم الجمعات، أو ليختمنّ الله على قلوبهم ثمّ ليكوننّ من الغافلين. قال في التّاج رواه مسلم والنسائي وأحمد رضي الله عنهم[٣].

٤- عن أبي الجعد الضّمري (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: من ترك ثلاث جمعات تهاوناً بها طبع الله على قلبه. قال في التّاج: رواه أصحاب السّنن والحاكم[٤].

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٥٨٥ الحديث رقم سنن النسائي ١/ ٥٤٠ الحديث رقم ١٧٥٤، سنن أبي داود ١/ ٢٧٤ لحديث رقم ١٠٤٦، سنن الترمذي ٢/ ٥٩ الحديث رقم ٤٨٨، سنن إبن ماجة ١/ ٣٤٥ الحديث رقم ١٠٨٥.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٣٠٥ الحديث رقم ٨٥٥، صحيح مسلم ٢/ ٥٨٦ الحديث رقم ٨٥٥.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٥٩١ الحديث رقم ٨٦٥، سنن النسائي ١/ ٥١٦ الحديث رقم ١٦٥٩، مسند الإمام أحمد ١/ ٢٣٩ الحديث رقم ٢١٣٢

(٤) المستدرك على الصحيحين ١/ ٤١٥ الحديث رقم ١٠٣٤، سنن أبي داود١/ ٢٧٧ الحديث رقم ١٠٥٢،=

٥- عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) عن النّبيّ (ﷺ) قال: من ترك الجمعة من غير ضرورة كتب منافقاً في كتاب لا يمحى ولا يبدل. قال في التّاج: رواه الشّافعي[١].

٦- ولأبي داود والنسائي: من ترك الجمعة بغير عذر فليتصدّق بدينار فإن لم يجد ديناراً فبنصف دينار[٢]. والمراد بالدّينار مثقال ذهب أو قيمته لأنّ هذا هو الدّينار الإسلامي، فهو المراد في كلّ ما ورد.

هذا ما وفّقني الله تعالى على إيراده في هذه السّورة الكريمة ونرجو من الله تعالى القبول والتّوفيق، وهو الحسب ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة الّا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله على المولى محمّد وآله وصحبه وسلم أجمعين آمين.

سنن ابن ماجة ١/ ٣٥٧ الحديث رقم ١١٢٦، سنن النسائي ١/ ٥١٦ الحديث رقم ١٦٥٧، سنن الترمذي ٢/ الحديث رقم ٣٧٣ الحديث رقم ٥٠٠.

(١) مسند الشافعي ١/ ٧٠

(٢) المستدرك على الصحيحين ١/ ٤١٥ الحديث رقم ١٠٣٥.

سورة المنافقون

(مدنيّة، نزلت بعد الحجّ، آياتها إحدى عشرة، سمّيت بالمنافقين لما فيها من لوم المنافقين وفضحهم).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

قال القرطبيّ (رحمه الله تعالى): روى البخاري عن زيد بن أرقم قال: كنت مع عمّي فسمعت عبدالله بن أبيّ بن سلول يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتّى ينفضّوا. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ، فذكرت ذلك لعمّي فذكر عمّي لرسول الله (ﷺ)، فأرسل رسول الله (ﷺ) إلى عبدالله بن أبيّ وأصحابه؛ فحلفوا أنّهم ما قالوا ذلك، فصدّقهم رسول الله (ﷺ) وكذّبني، فأصابني همّ لم يصبني مثله، فجلست في بيتي فأنزل الله عزّ وجلّ: (إذا جاءك المنافقون .... إلى قوله تعالى: ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ) فأرسل إليّ رسول الله (ﷺ) وقال: إنّ الله قد صدقك.

(إذا جاءك) يا محمّد **(المنافقون)** والمنافق هو الّذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر **(قالوا)** لك كلّهم **(نشهد)** نقول باللّسان ونصدّق بالجنان **(إنّك لرسول الله)** ونحن مؤمنون حقّاً ومسلمون صدقاً **(والله يعلم إنّك لرسوله)** سواء هم شهدوا بذلك أو لم يشهدوا، وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين جملة **(نشهد إنّك لرسول الله)** وجملة **(والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون)** وفائدة الاعتراض هي أن لا يتوهّم أنّ قوله: (والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون) معناه لكاذبون في قولهم إنّك لرسول الله، فمعناه إنّهم لكاذبون في

الشّهادة وفي قولهم إنّا نقرّ باللّسان ونصدّقه بالقلب والجنان، وحيث كذبوا في ذلك لأنّهم لم يصدّقوا برسالته وإنّما كانوا يقولون ذلك خوفاً وتستّراً من المسلمين، وحيث إنّ قولهم هذا وحلفهم على أنّهم لم يقولوا ما ذكره زيد لم يكن إلّا للتّستّر والوقاية من بطش المسلمين قال جلّ وعلا:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢﴾

(اتّخذوا) جعلوا أيمانهم الّتي يحلفون بها أنّهم مسلمون ولم يقولوا ما قال زيد **(جنّة)** وقاية لأنفسهم **(فصدّوا)** بذلك أنفسهم **(عن)** اتّباع **(سبيل الله)** وهو الإسلام صدقاً وإخلاصاً، وبالسّر والعلانية والقلب واللّسان **(إنّهم ساء ما)** قبح العمل الّذي **(كانوا يعملون)** من الأحلف الكاذبة والنّفاق.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٣﴾.

(ذلك) إنّ سوء أعمالهم الّتي أصبحت عادة مستمرّة لهم، وحصلت هذه العادة لهم **(بأنّهم)** بسبب **(أنّهم آمنوا)** حينما رأوا انتصار المسلمين في معركة بدر وقالوا: والله هذا هو النّبيّ المبعوث في التّوراة لا ترفع له راية **(ثمّ كفروا)** حينما لم ينتصر المسلمون في معركة أحد **(فطبع الله)** بسبب ارتدادهم هذا **(على قلوبهم)** وختم عليها فبذلك **(فهم لا يفقهون)** حسن الأمور من قبيحها وسوء الأعمال من حسنها، بل يفضّلون الأعمال السّيئة على الأعمال الصّالحة.

فائدة: يفهم من قوله تعالى: (فطبع الله ....إلخ الآية) أنّ الطّبع على القلوب والختم عليها وإضلال الله تعالى للنّاس ليس جبراً منه، بل كلّ ذلك ناشيء عن سوء أعمال العباد وإرادتهم السّوء والضّلال، وأنّ ذلك كلّه من باب إيجاد المسبّبات عند وجود الأسباب، وبذلك يكون العبد مسؤولاً معاتباً على الكفر والضّلال.

﴿۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٤﴾

كان رؤوس المنافقين يأتون رسول الله (ﷺ) ويجلسون في مجلسه، وكان لهم

أجسام جميلة وفصاحة في اللّسان ويتكلّمون بما يرضي الرّسول (ﷺ) فيحسبهم مخلصين فنبّه الله تعالى رسوله (ﷺ) على حالهم فقال: **(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم)** لحسن هيأتهم ومنظرهم **(وإن يقولوا تسمع لقولهم)** لفصاحتهم وسلاسة كلامهم **(كأنّهم خشب مسنّدة)** إلى الحائط، والعادة أنّ الخشب الّذي لا يصلح للبناء يوضع مسنداً إلى الحائط، أي أنّهم لا ينتفع بهم كمثل هذا النّوع من الخشب؛ فلا تهتمّ بهم **(يحسبون كلّ صيحة عليهم)** قد قيل قديماً (إنّ الخائن خائف) لأنّه يخاف أن تنكشف خيانته فيعاقب، فكان حال المنافقين هكذا، وكانوا يخافون أن يطّلع المؤمنون على خيانتهم فيأمر الرّسول (ﷺ) بقتالهم، ولذلك كانوا يحسبون كلّ صيحة يصيحها المسلمون أنّها صيحة عليهم **(هم العدوّ)** لك أيّها النّبيّ وللمؤمنين، ولذلك يخافون منكم **(فاحذرهم)** ولا تأمن كيدهم **(قاتلهم الله)** لعنهم الله، وهذه كلمة ذمّ وليست دعاءً بالقتل، لأنّه لو كان دعاءً أو إخباراً لقتلوا كلّهم، مع أنّهم لم يقتلوا حيث إنّ رئيسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول مات على فراشه، ولأنّ الدّعاء بمعناه الحقيقي لا يليق بالله، فإنّه كيف يدعو وهو الفعّال لما يريد **(أنّى)** كيف **(يؤفكون)** يصرفون عن الحقّ وهو الإسلام مع وضوحه، وأنّه من الله تعالى فيؤمنون كذباً لا صدقاً بل ينافقون، ألا يعلمنّ أنّ أمرهم سيفتضح وسرّهم سينكشف وأنّ الخزي والعار سيلحق بهم. وهنا نرى من الفائدة أن نعيد سبب نزول هذه الآيات كما قال القرطبيّ آخذاً من البخاري لأنّ هذه الرّواية فيها تفصيل أكثر وتوضيح أفيد، فإليك نصّ ما في القرطبيّ: وسبب نزول هذه الآيات أنّ النّبيّ (ﷺ) غزا بني المصطلق على ماء يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى السّاحل، فازدحم أجير لعمر يقال له جهجاه مع حليف لعبدالله بن أبيّ يقال له سنان على ماء بالمشلل، فصرخ جهجاه بالمهاجرين، وصرخ سنان بالأنصار، فلطم جهجاه سناناً فقال عبد الله بن أبيّ: أو قد فعلوها والله ما مثلنا ومثلهم إلّا كما قال الأوّلون: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ يعني (أبيّاً) منها (الأذلّ) يعني محمّداً (ﷺ) ثمّ قال لقومه: كفّوا طعامكم عن هذا الرّجل ولا تنفقوا على من عنده حتّى ينفضّوا ويتركوه، فقال زيد بن أرقم وهو من رهط عبدالله بن أبيّ: أنت والله الذّليل المنتقص في قومك، ومحمّد (ﷺ) في عزّ من الرّحمن ومودّة من المسلمين، والله لا أحبّك بعد كلامك هذا أبداً، فقال عبدالله: أسكت إنّما كنت ألعب، فأخبر زيد النّبيّ (ﷺ)، فأقسم عبدالله أنّه ما فعل وما قال، فعذره النّبيّ (ﷺ). قال زيد: فوجدت في نفسي ولامني النّاس، فنزلت هذه الآيات فقيل لعبد الله بن أبيّ: قد نزلت فيك آيات شديدة فاذهب

إلى رسول الله (ﷺ) ليستغفر لك فلوّى رأسه فنزلت الآية (واذا قيل لهم تعالوا.......إلخ الآية) اخرجه البخاري والترمذي[1]. انتهى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

(واذا قيل لهم) من قبل بعض أهل قرابتهم قد افتضحتم بالنّفاق تعالوا إلى رسول الله (ﷺ) وتوبوا من النّفاق واطلبوا من رسول الله (ﷺ) أن يستغفر لكم، فإن فعلتم ذلك **(يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم)** من هذه النّصيحة، ومن هذا القول استهزاءً **(ورأيتهم يصدّون)** يعرضون عن الرّسول وعن طلب الاستغفار منه، وذلك لأنّه **(وهم مستكبرون)** فمنعهم من ذلك استكبارهم من الحقّ. قيل: قال ابن أبي حينما لوّى رأسه: أمرتموني أن أؤمن فآمنت وأن أعطي زكاة مالي فأعطيت فما بقي إلّا أن أسجد لمحمّد.

فائدتان: الأولى: إنّ نقل الكلام الصّادق من وإلى النّاس للمصلحة لا تعدّ نميمة بل يعتبر ذلك من باب النّصيحة، فإنّ زيداً لم يذمّ على نقله حديث عبدالله بن أبيّ إلى الرّسول (ﷺ).

الثّانية: إنّ الآيات كلّها وردت في عبدالله بن أبيّ إلّا أنّ الضّمائر كلّها ذكرت بصيغة الجمع؛ وذلك لأنّ جماعته كانوا متّفقين معه في كلّ ما قال.

* * *

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾

ذكر الله تعالى أنّ المنافقين كانوا يستنكفون أن يأتوا إلى الرّسول(ﷺ) لطلب الاستغفار منه، ولعلم الله تعالى بأنّ الرّسول (ﷺ) كما وصفه كان رؤوفاً رحيماً، فكان من المتوقّع أن يستغفر لهم الرّسول (ﷺ) وإن لم يأتوا ولم يطلبوا ذلك منه، ولذلك أخبر الله تعالى رسوله (ﷺ) أنّ استغفاره لهم لا يفيدهم شيئاً، فنبّهه على أن لا يستغفر

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨٦٠ الحديث رقم ٤٦١٩، سنن الترمذي ٥/ ٤١٥ الحديث رقم ٣٣١٢.

لهم فقال جلّ وعلا: **(سواء)** مبتدأ و **(عليهم)** خبره وقوله **(أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم)** جملة مؤوّلة بالمفرد فاعل لسواء، فالتّقدير سواء عليهم استغفارك لهم وعدم استغفارك لهم وذلك لأنّه **(لن يغفر الله لهم)** أبداً بسبب خبث طويّتهم وقبح أعمالهم وإصرارهم على الخروج عن الحقّ والإسلام و **(إنّ الله لا يهدي)** جبراً **(القوم الفاسقين)** المصرّين على الفسق والخروج عن الحقّ، فلا يجبرهم على الإيمان بل يتركهم لاختيارهم وهم لا يختارون إلّا الكفر والنّفاق فلا فائدة في الاستغفار لهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ما يدل على خبث طويتهم وقبح أعمالهم فقال جلّ وعلا:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٧﴾﴾

مرّ سبب نزول الآية سابقاً.

(هم الّذين) إنّ المنافقين هم الّذين **(يقولون)** قال بعضهم لبعض **(لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا)** لكي ينفضّوا أي يذهبوا من عند الرّسول (ﷺ) فإنّهم أحاطوا به ويدافعون عنه لما يجدون عنده من مايصرفه عليهم، فإذا لم تنفقوا ولم تعطوا أموالكم للرّسول فلا يستطيع الإنفاق عليهم فيتركونه؛ فيبقى ضعيفاً لا يستطيع التّسلّط عليكم. زعم المنافقون أنّهم لو لم يعطوا الرّسول (ﷺ) فإنّه لا يجد مالاً ينفقه على من حوله فيتركونه فردّ الله تعالى على زعمهم هذا بقوله: **(ولله خزائن السّموات والأرض)** فلا يترك رسوله ضعيفاً لا مال له لينفقه على من عنده، بل يبسط الرّزق إلى أن يستطيع أن ينفق كيف يشاء، وأنّه ليس محتاجاً إلى مال هؤلاء المنافقين **(ولكنّ المنافقين لا يفقهون)** قدر ومنزلة الرّسول (ﷺ) عند الله تعالى وإنّه لا يحوجه إلى المنافقين ولا يدعه ضعيف الحال لا مال عنده، وقد صدق الله وعده فبسط للرّسول (ﷺ) رزقه، فكان ينفق ولا يخاف الفقر ويعطي ولا يخشى نفاد المال كما قال الشّاعر:

ما قال لا قط إلّا في تشهده   لولا التّشهد كانت لاؤه نعم

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

(يقولون) يقول المنافقون والله **(لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ)** أرادوا بالأعزّ أنفسهم فإنّهم زعموا أنّهم ذو عزّة وقوّة أكثر من المؤمنين **(منها)** من المدينة **(الأذلّ)** أرادوا به الرّسولﷺ وأصحابه، فردّ الله تعالى على زعمهم هذا وقال: **(ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين)** أي وهم أي المنافقون هم الأذلّ **(ولكنّ المنافقين لا يعلمون)** بعزّة المؤمنين وذلّة أنفسهم. قال تعالى في الآية السّابقة: **(ولكنّ المنافقين لا يفقهون)** وهنا قال: **(ولكنّ المنافقين لا يعلمون)** لأنّ الأوّل كان في الأمور الدّينيّة من أن كلّ ما في السّموات والأرض لله تعالى، وهنا في الأمور الدّنيويّة وهي القوّة والعزّة والمنعة، فالفقه يستعمل في المعنويّات والعلم يستعمل في الماديّات.

ويروى أنّ عبدالله بن عبدالله بن أبيّ بن سلول حينما وصلوا حدود المدينة قال لأبيه: والّذي لا إله إلّا هو لا تدخل المدينة حتّى تقول: هو الأعزّ وأنا الأذلّ، فقال عبدالله بن أبي ذلك ثمّ تركه ابنه يدخل المدينة. وهكذا الإيمان والحبّ للإسلام يفدي المسلم في سبيله بالوالد والولد وكلّ ما يعزّ عليه، وهكذا يجب أن يكون المسلم وإلّا فليس صادقاً في الإسلام.

سبق أن ذكر الله تعالى المنافقين وحالهم وأنّهم اتّخذوا طريق النّفاق حفاظاً على الأموال والأولاد وأنّه صرفهم حبّ الدّنيا عن الدّخول في الإسلام صدقاً وإخلاصاً، فبعد ذلك نبّه الله تعالى المؤمنين وحذّرهم من أن يتخلّقوا بأخلاق المنافقين فينشغلوا بسبب الأموال والأولاد عن أداء ما وجب عليهم والإلتزام بالإسلام روحاً ومعنى، وكأنّ الله تعالى بيّن في طيّ ذلك أنّ المؤمن المنافق هو الّذي يشغله الأموال والأولاد عن الدّين ويؤثر ماله وولده على الإلتزام بالحقّ وأداء ما وجب عليه في الدّين، وأنّ المؤمن الصّادق هو من يضحّي بماله وولده في سبيل سلامة دينه واستقامة طريقته فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) إن صدقتم في إيمانكم وأنّكم مسلمون حقّاً وصدقاً وإخلاصاً **(لا تلهكم)** لا تشغلكم **(أموالكم)** كلّها **(ولا أولادكم)** جميعاً **(عن ذكر الله)** عن دينه فتخالفوا أحكامه وأوامره أو ترتكبوا مناهيه بسبب المال أو الولد والحفاظ عليهما أو

مداراتهما **(ومن يفعل ذلك)** فيؤثر ماله أو إرضاء ولده أو حفظه على اتّباع أمر الله تعالى وأحكامه **(فأولئك)** الفاعلون لذلك **(هم الخاسرون)** لأنّهم باعوا الحياة الباقية وهي حياة الآخرة الأبديّة في الجنّة بالحياة الفانية الزّائلة وهي منافع الدّنيا وزينتها، ولا خسارة أكبر من هذه الخسارة.

ثمّ ذكر الله تعالى أنّه يجب أن يكون من صفة المؤمن الصّادق أن يضحّي بماله وينفقه في سبيل أداء أمر الله تعالى وابتغاء مرضاته قبل أن تفوته الفرصة فيموت ويتندم على ما فرّط وقصّر في جنب الله بسبب البخل وحبّ المال وعدم إنفاقه فيما أمر الله تعالى به فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾

(وأنفقوا) يا أيّها الّذين آمنوا أنفقوا أصرفوا **(من ما رزقناكم)** أي من ما سلّمناكم من المال والقوّة، وهنا قوله: مما....الخ، إشارة إلى أنّ كلّ **ما** لديكم هو من الله تعالى ومن ماله سلّمه إليكم، فحينما يأمركم بصرفه فإنّما مثله كمثل الموكّل يأمر وكيله على ماله بأن يصرفه في وجهه، فحينما خالف يستحقّ العزل عن الوكالة وسلب ما هو عنده، أو معاقبته بما يستحقّه فانفقوا أيّها المؤمنون **(من قبل)** أن تفوتكم الفرصة بأن **(يأتي أحدكم الموت)** فيتندّم ويتحسّر على عدم الامتثال في إنفاق ماله **(فيقول)** إظهاراً لحسرته وندامته **(ربّ لولا أخّرتني)** يا ليت أنّه أخرتني وأجّلت موتي **(إلى أجل قريب)** إلى مدّة قليلة **(فأصدّق)** لكي أنفق مالي في سبيلك **(وأكن من الصّالحين)** بسبب صرف المال في سبيل الله تعالى، وهذا التّمني يكون قبيل الموت، وحينما يتيقّن المرء من **الموت** ويتذكّر تفريطه في جنب الله تعالى فيتمنّى هذا التّمني ويطلب هذا الطّلب من الله تعالى، إلّا أنّ هذا التّمني لا يفيده لأنّ الأجل إذا جاء لا يؤخّر كما قال جلّ وعلا:

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

(ولن يؤخّر الله) أبداً **(نفساً)** قبض نفس **(إذا جاء أجلها)** فيقبضها دون تأخير ولا يفيد كلّ طلب وتمنّ **(والله خبير)** مطّلع وعالم **(بما)** بكلّ ما **(تعملون)** مدّة حياتكم قبل الموت، ويحاسبكم على أعمالكم بها ويجزيكم على وفقها، ولا يخفى عليه شيء من

ذلك كبيراً أو صغيراً، كثيراً أو قليلاً، وهو على كلّ شيء قدير، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمّد وآله أجمعين.

سورة التّغابن

(مدنيّة، نزلت بعد سورة التّحريم، آياتها ثماني عشرة آية، سمّيت بالتّغابن لما فيها من قوله تعالى: ﴿ذلك يوم التّغابن﴾).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

تمهيد: إنّ في هذه السّورة تهديداً للّذين كفروا بالرّسول (ﷺ) بأنّ الله تعالى يعذّبهم في الدّنيا كما عذّب الّذين من قبلهم إن لم يؤمنوا، وتهديداً بالعذاب يوم يحييهم ويبعثهم يوم القيامة فلذلك قال: **(يسبّح لله)** يعترف ويدلّ كلّ **(ما في السّموات وما في الأرض)** على أنّ الله تعالى تنزّه عن أن يعجز عن أن يعذّب الكافرين في الدّنيا وأن يبعثهم ويعذّبهم بعد البعث في الآخرة أيضاً، فإنّ الّذي يقدر على خلق السّموات والأرض وما فيهما وعلى إبداع هذا النّظام البديع لقادر على أن يعذّب الكافرين في الدّنيا بما يشاء، وأن يعذّبهم يوم القيامة فيعذّبهم هناك أيضاً. ثمّ كأنّ قائلاً يقول: فلماذا يعذّب الله تعالى الكافرين وإنّ كفرهم لا يضرّه شيئاً، فإنّه غنيّ عن العالمين؟ فقال تعالى: **(له الملك)** له التّصرف المطلق فيتصرف في ملكه كيف يشاء، فيعذّب من يشاء ويرحم من يشاء. ثمّ كأنّ قائلاً آخر يقول: لمّا كان له التّصرف المطلق فلماذا يعذّب من يشاء وهو غنيّ عن عذابهم؟ فقال تعالى: **(وله الحمد)** وله الكمال المطلق فكلّ ما يفعله من فعل فهو جميل وأجمل من عكسه أو خلافه، فإنّه لا يعمل عملاً إلّا وفيه المصلحة الّتي تجعل ذلك العمل جميلاً بل أجمل من غيره. ثمّ كأنّ قائلاً ثالثاً يقول: ألا يستطيع

الله تعالى أن ينعم على الكافر والفاسق كما ينعم على المؤمن والصّالح والكلّ عباده ومن خلقه؟ فقال تعالى: **(وهو على كلّ شيء)** من ثواب المطيع وعذابه وعذاب الكافر والإنعام عليه **(قدير)** لا يمنعه من ذلك شيء إلّا أنّ حكمته اقتضت ثواب المطيع وعذاب العاصي، وإن كان لا تنفعه طاعة المطيع ولا تضرّه معصية العاصي شيئاً.

ثمّ ذكر الله تعالى بعض صفاته الّتي توجب وجوب طاعته وعبادته وتكون سبباً لعذاب الكافر وثواب المؤمن، فإنّ من له هذه الصّفات يجب عبادته ويستحقّ من ينحرف عن طاعته العذاب في الدّنيا أو في الآخرة أو فيهما جميعاً فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾

(هو الّذي) إنّ الله تعالى **(هو الّذي خلقكم)** أوجدكم من العدم لا غيره وعقب خلقه الّذي يوجب الإيمان به والخضوع لدينه **(فمنكم كافر)** اختار الكفر وسلك سبيله **(ومنكم مؤمن)** آمن بالله واختار عبادته وطاعته على عبادة وطاعة غيره، ولا يخفى على الله تعالى شيء من ذلك لأنّه **(والله بما تعملون)** من الكفر وما يتّبعه من الأعمال السّيئة والجرائم ومن الإيمان وما يورثه من صالح الأعمال ومحامد الأخلاق **(بصير)** لا يخفى عليه شيء فيعاقب الكافر على كفره ونتائجه ويثيب المؤمن على الإيمان وثمراته.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾

(خلق) إنّ الله هو الّذي خلق **(السّموات والأرض)** لا غيره، وليس لشيء في ذلك الخلق أيّ نصيب، وخلق كلّ ذلك **(بالحقّ)** ملتبساً ذلك الخلق بالحكمة والإتقان والعدل؛ فلا يعدل شيء منه عمّا سخّر له، وكلّ يعمل ما وضع له، ولا يطغي شيء على آخر، فكلّ يسير ويعمل بميزان واحد واتّزان قويم وتنسيق بديع **(وصوّركم)** وخلقكم **(فأحسن صوركم)** وجعلها أحسن من كلّ المخلوقين، ووهبكم صفات تميّزتم بها من الجمادات والنّباتات وسائر الحيوانات، وتفوّقتم بها عن غيركم من المخلوقات **(وإليه)** إلى الله تعالى لا إلى غيره **(المصير)** مصيركم ورجوعكم في جميع الأمور، فإنّه هو الّذي يقدّرها لكم، أو معناه وإليه رجوعكم يوم القيامة فيحاسبكم على مدى شكركم لهذه النّعم الّتي أنعم بها عليكم، وهذا المعنى أنسب بقوله جلّ وعلا:

﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

(**يعلم**) إنّ الله تعالى يعلم كلّ (**ما في السّموات والأرض**) ولا يخفى عليه شيء من ذلك (**ويعلم ما تسرون**) تخفونه من أعمالكم وأقوالكم فتعملونه سرّاً وتقولونه خفيةً (**وما تعلنون**) وما تظهرون من أقوالكم وأعمالكم (**والله عليم**) علماً ثابتاً وراسخاً لا يزول ولا يفنى (**بذات الصّدور**) ذات الشّيء أي حقيقته، فالمعنى: عليم بحقيقة الصّدور، والمراد بالصّدور القلوب والقلوب هي الإدراكات والإعتقادات والنّيات، فالمعنى أنّ الله تعالى يعلم عقائدكم المستورة في الصّدور ونياتكم المكنوزة فيها، وحاصل معنى الآية أنّ أعمالكم الظّاهرة والخفيّة وأقوالكم السّرية والعلنيّة وعقائدكم ونواياكم كلّها معلومة لله تعالى، لا يخفى عليه شيء منها، ويحاسبكم عليها ويجزيكم على وفقها، فهذه الصّفات العظيمة وهذه النّعم الجليلة من خلق الله تعالى لكم، وخلقه السّماوات والأرض وتصويره لكم أحسن الصّور وعلمه بما في السّموات والأرض وبما تعملون سرّاً وتقولون خفيةً وبما تسترونه في صدوركم من العقائد والنّيات، تدعوكم هذه الصّفات إلى أن تؤمنوا بالله ولا تكفروا وتوحّدوه ولا تشركوا به، وتطيعوه ولا تعصوه في شيء.

ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ الإنسان إن لم يعتبر بهذه الصّفات فلم يخضع لله ولم يعمل بما أمر به، فليعتبر بالأمم الماضية، والّذين لا يخفى على الإنسان أخبارهم وأحوالهم من أنّهم تركوا الانقياد لشريعة الله وكذبوا برسله وما أوصاه إليهم، فأنزل الله تعالى عليهم العذاب وأهلكهم في الدّنيا ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى، فليعتبر الإنسان بتلك الأمم السّابقة قبل أن يصيبه ما أصابهم، وأن يهلك كما أهلكوا واستحقّوا العذاب في الدّارين، فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

(**ألم يأتكم**) يا أهل مكّة ويا كلّ من كفر برسول الله محمّدﷺ (**نبأ**) خبر الأقوام (**الّذين كفروا**) بالله وبرسله (**من قبل**) من قبلكم وبسبب كفرهم هذا (**فذاقوا وبال**) جزاء وعقاب (**أمرهم**) في الدّنيا بأن أهلكوا بالطّوفان كقوم نوحعليه السلام أو الغرق كفرعون وآله،

أو الصّاعقة أو بالصّيحة أو غير ذلك ممّا سلّط الله تعالى عليهم من العذاب **(ولهم)** في الآخرة **(عذاب إليم)** موجع والاستفهام للإنكار وإنكار النّفي إثبات، فالمعنى قد أتتكم أخبار هذه الأمم فاعتبروا بهم، قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم من العذاب والدّمار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾

(ذلك) ذلك العذاب الّذي ذاقه الأقوام الّذين كفروا من قبل كان **(بأنّه)** بسبب أنّه **(كانت تأتيهم رسلهم)** من الله تعالى **(بالبيّنات)** بالدّلائل الواضحة الدّالة على أنّهم رسل من الله تعالى فلم يؤمنوا بهم بل كفروا **(فقالوا أبشر يهدوننا)** يرشدوننا إلى الله وشريعته ويكون رسولاً من عنده، والاستفهام كان على سبيل الإنكار، فأرادوا أنّه لا يكون البشر رسولاً من الله تعالى بل ينبغي أن تأتي الملائكة بالرّسالة للنّاس، وذكر **(يهدوننا)** وإن كان لفظ بشراً مفرداً إلّا أنّه جنس يشمل الكثير والقليل كالقوم، ولسبب هذه المكيدة الّتي كادها الشّيطان وأدخل في قلوبهم لم يؤمنوا **(فكفروا)** بالرّسل **(وتولّوا)** عن اتّباعهم **(واستغنى الله)** عنهم فلم يهدهم جبراً وإلزاماً **(والله غنيّ)** عن إيمان النّاس فجعل الاختيار بيدهم، فمن آمن فلنفسه ومن كفر فعليها، وقد جعل الله الاختيار بيد العباد ولم يجبرهم على الخير والإيمان لأنّه **(حميد)** محمود وجميل أفعاله كلّها فإنّه لا يعمل عملاً إلّا لحكمة كبيرة، فجعل الاختيار بيد العباد للحكمة الّتي هو أرادها ويعلمها.

تنبيه: إنّ استنكاف الأقوام من اتّباع الرّسل لأنّهم بشر مثلهم دسيسة كبيرة وقديمة أضلّ به الشّيطان كثيراً من النّاس من الأمم الماضية، وأخبر القرآن عن ذلك بآيات:

١- قال تعالى عن قوم نوح (عليه السلام): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾ سورة المؤمنون الآيتان/ ٢٣، ٢٤.

٢- قال تعالى فيمن جاء بعد نوح (عليه السلام): ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤)﴾ سورة المؤمنون الآيات/ ٣١ -٣٥.

٣- قال تعالى عن قوم صالح (ﷺ): ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سورة الشعراء الآيتان/ ١٥٤ - ١٥٥.

٤- قال تعالى عن قوم شعيب (ﷺ): ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ سورة الشعراء الآيتان/ ١٨٥- ١٨٧).

٥- قال تعالى في قوم هود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ سورة القمر الآية ٢٤ - ٢٧.

إلى غير ذلك من الآيات من هذا القبيل، وهكذا كان الأقوام السّابقون يستبعدون أن يكون الرّسل من البشر فلم يؤمنوا برسولهم وكذّبوهم واستنكفوا من اتّباعهم، ولا يخفى فإنّ الكفر كما يقولون ملّة واحدة[1]، ومكيدة الشّيطان ووسوسته تأتي على منوال واحد وتنسيق خبيث، فلذلك حذا كفار مكّة وغيرهم ممّن لم يؤمنوا برسول الله (ﷺ) حذو الأقوام السّابقين وعارضوا الرّسول (ﷺ) ولم يؤمنوا به، بحجة أنّه بشر واستبعدوا أن يأتي الرّسل من البشر، وقد أخبر القرآن عن ذلك في آيات أخرى ورد على قولهم:

١. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ سورة الأنعام/ الآية ٩١.

٢. قال تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٣.

وتوجد آيات كثيرة من هذا القبيل، واقتصرنا على ما كتبنا خشية الإطالة، فردّ الله تعالى على هذه الفكرة الباطلة والدّسيسة الشّيطانيّة الّتي أضلّت كثيراً من النّاس، ردّ الله تعالى عليها في القرآن الكريم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا

(١) (الكفر ملة واحدة) ذكرها العلماء كقاعدة فقهية، أنظر فتح الباري ١٢/ ٢٧٢.

عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ سورة الإسراء الآية ٩٣ - ٩٤.

أفاد الله تعالى في هذه الآية أنّ الرّسول يكون من جنس المرسل إليهم، فيرسل الملك إلى الملائكة وإلى البشر يرسل البشر لإمكان التّلاقي والتّفاهم بين الرّسول والمرسل إليهم، فإنّه لو أرسل الملك إلى البشر على صورة الملائكة كأجسام لطيفة لا ترى، لما أمكن التّفاهم بينهم، ولو جاءهم على صورة الإنسان والبشر لالتبس عليهم فطعنوا فيهم كما يطعنون في من كان بشراً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ سورة الأنعام الآية/٨، ٩.

* * *

هذا ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ منكري الإسلام ورسوله لا يعتبرون بما جرى على الأمم الماضية من العذاب والدّمار في الدّنيا بسبب تكذيبهم للرّسل فكذّبوا الرّسول (ﷺ) وكفروا. أراد الله تعالى أن يذكر أنّهم ما خافوا عذاب الآخرة أيضاً لأنّهم لم يؤمنوا بالحياة بعد الموت فقال جلّ وعلا:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾

(زعم) يقال زعم للاعتقاد الباطل فالمعنى اعتقد اعتقاداً باطلاً **(الّذين كفروا)** بالإسلام **(أن)** مخفّفة من الثّقيلة اسمه ضمير الشّأن المقدّر وتقديره **(أنه)** أي أنّ الشّأن أنّهم **(لن يبعثوا)** لن يحيوا بعد الموت، فلا حياة ولا حساب بعد الوفاة **(قل)** أيّها المسلم **(بلى وربّي لتبعثن)** لتحيين **(ثمّ لتنبؤنّ)** أي لتخبرنّ **(بما عملتم)** في الدّنيا من خير أو شرّ، وهذا وعد ووعيد، لأنّ المراد بالإخبار بالعمل الجزاء عليه، والجزاء بعد الإحياء **(على الله يسير)** سهل لا صعوبة فيه، فإنّ من قدر على الإنشاء فعلى الإعادة قادر بالأولى، وإذا كان الأمر كذلك:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨﴾

(فآمنوا) أي فإذا كان البعث والحساب موجوداً فآمنوا **(بالله ورسوله)** محمّد

(ﷺ). **(والنّور الّذي أنزلنا)** على محمّد (ﷺ) وهو دين الإسلام. سمّي نوراً لأنّه ينوّر طريق الآخرة كما ينوّر النّور طريق الدّنيا **(والله بما تعملون)** من اتّباع الإسلام والانحراف عنه **(خبير)** لا يخفى عليه شيء من ذلك فيثيبكم على اتّباعه ويعاقبكم على الانحراف عنه.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

(يوم يجمعكم) يوم ظرف، والعامل فيه قيل قوله: لتنبّؤنّ، وقيل: اذكر، وعندي أنّ العامل فيه هو يجزيكم، المستفاد من قوله بما يعملون خبير، لأنّ كلّ ما قاله تعالى في القرآن الكريم بما تعملون خبير أو بصير أو عليم فهو وعد للمؤمنين بالجزاء الحسن وهو الثّواب ووعيد للفاسقين بالعقاب، فيكون المعنى والله بما تعملون خبير فيجزيكم حسب أعمالكم **(يوم يجمعكم ليوم الجمع)** وهو يوم القيامة سمّي يوم الجمع لأنّه يجمع النّاس فيه للحساب والجزاء **(ذلك)** ذلك اليوم وهو يوم القيامة **(يوم التّغابن)** يوم الغبن والخسارة وأخذ المظلوم حقّه من الظّالم **(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً)** والعمل الصّالح هو كلّ ما كان مشروعاً في الشّرع ويكون موافقاً للشّرع **(يكفّر)** يمحو الله **(عنه سيّئاته ويدخله)** الله تعالى **(جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً)** لا يخرجون منها بعد دخولها **(ذلك)** التّكفير من السّيئات وإدخاله الجنّات **(الفوز)** هو نيل المقصود **(العظيم)** وايّ فوز أعظم من الحياة الأبديّة السّعيدة وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر، رزقنا الله تعالى هذا الفوز برحمته الواسعة آمين.

سؤال: إنّ قوله ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يفيد أنّ من آمن بالله وعمل **صالحاً** فهو من أهل الجنّة وإن لم يكن مسلماً ومؤمناً بمحمّد (ﷺ) فهل هذا صحيح أم لا؟

الجواب: في تفسيرنا لقوله تعالى: **(إنّه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحضّ على طعام المسكين)** في سورة الحاقّة تجد جواباً شافياً وتفصيلاً وافياً بإذن الله تعالى، كما ويخرج غير المسلم من هذا الفوز قوله تعالى: **(والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون)** لأنّ معنى **(والّذين كفروا)** أي كفروا بمحمّد (ﷺ)

ومعنى **(وكذّبوا بآياتنا)** أنّهم لم يؤمنوا بما في القرآن من الآيات والأحكام الّتي أنزلها الله تعالى ليكون دستوراً للعمل والحياة وفقها **(أولئك)** الّذين كفروا ولم يتّبعوا أحكام الإسلام ولم يعملوا بها **(أصحاب النّار)** كلّهم وداخلون فيها **(خالدين فيها)** ولا يخرجون منها **(وبئس المصير)** مصيرهم هذا هو جهنّم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

تمهيد: لقد ذكر الله تعالى أنّ الكافرين لم يعتبروا بما جرى على الأمم الماضية بسبب الكفر، وإنّهم لم يؤمنوا بالبعث فلم يخافوا منه، وإنّ الّذي يؤمن ويعمل الصّالحات فله الجنّة والفوز العظيم، ومن كفر وكذّب بآيات الله فمأواه جهنّم وبئس المصير، فالمرء قد يتوهّم من هذه الأمور أنّ الانسان له التّصرف المطلق فيعمل ما يعمل من الاعتبار وعدم الاعتبار وخوف الآخرة وعدم الخوف والإيمان والعمل الصّالح أو الكفر والتّكذيب بآيات الله تعالى، فدفع الله تعالى هذا التّوهّم فقال وعزّ من قائل: **(ما أصاب)** ما أصاب أحداً **(من مصيبة)** من خصلة وعقيدة وعمل خير أو شرّ **(إلّا بإذن الله)** إلّا بقضاء الله تعالى وقدره وخلقه وتقديره، فالإنسان ليس له التّصرف في أي شيء إلّا باذن الله تعالى وإرادته.

سؤال: إذا كان كلّ شيء من تصرّفات الإنسان باذن الله تعالى وإرادته وقضائه وخلقه وتقديره، فلماذا يثاب الصّالح ويعاقب الفاسق؟ فأشار الله تعالى إلى جواب هذا السّؤال فقال: **(ومن يؤمن بالله)** والمعنى أنّ كلّ شيء بخلق الله تعالى وإرادته إلّا أنّه جعل الاختيار بيد العبد، فإذا اختار شيئاً وصمّم عليه، خلقه الله تعالى له، سواء كان ذلك المراد خيراً أو شرّاً، فمن أراد الكفر خلقه الله تعالى له **(ومن يؤمن بالله)** ومن اختار الإيمان بالله وسعى له سعيه **(يهد)** يهدي الله **(قلبه)** ويشرحه ويقذف فيه الأيمان، وعلى طريق العكس من يختار الكفر وسعى له سعيه واطمأنّ به يضلّ الله قلبه ويطرح فيه الكفر، فعلى اختيار العبد للأيمان يثاب المؤمن، وعلى اختياره الكفر يعاقب الكافر **(والله بكلّ شيء عليم)** فيعلم مرادات العباد ونواياهم واختياراتهم، فيخلق لهم ما أرادوا وما اختاروا وما نووا كما هو الحال في المحسوسات، فمن سلك سبيل البصرة يوصله الله تعالى إلى البصرة، ومن سلك سبيل الموصل يوصله الله تعالى إلى الموصل، ولا

يوصل من سلك سبيل البصرة إلى الموصل أو بالعكس، فكذلك من اختار سبيل سلوك الخير يسّر له ومن سلك سبيل الشّر فتحه له، وذلك من باب خلق المسبّبات بعد الأسباب، وصرّح الله تعالى بذلك في سورة آل عمران **(ومن يرد ثواب الدّنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشّاكرين)** ولا يجبر الله تعالى عبداً على خير أو شرّ إلّا نادراً.

* * *

هذا وحيث إنّ العبد بيده الاختيار أمره الله تعالى بقوله جلّ وعلا:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾

(وأطيعوا الله) بامتثال أوامره والاجتناب عمّا نهى عنه، وحيث لا يمكن معرفة أوامر الله تعالى لتمتثل ولا نواهيه لتتجنّب إلّا عن طريق الرّسولﷺ قال تعالى: **(وأطيعوا الرّسول)** فإنّ إطاعته إطاعة الله تعالى حيث إنّه لا يأمر إلّا بما أمر به الله ولا ينهى إلّا عمّا نهى الله تعالى عنه، فإنّه المبلّغ لحكم الله ﴿ولا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى﴾. **(فإن تولّيتم)** أي فان أعرضتم عن الأطاعة واخترتم الضّلال **(فإنّما على رسولنا البلاغ المبين)** البلاغ الواضح، وليس عليه إجباركم على الخير والطّاعة وليس من وظيفته ذلك، فهو يبلّغ عن الله وأنت بيدك أمرك، فإن عملت وفق التّبليغ فلك الأجر والثّواب وإن خالفت فعليك الوزر والعقاب ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سورة آل عمران الآية ١١٧.

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى بإطاعته وأوجبها على عباده علّل وجوب طاعته فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

(الله لا إله) لا موجد ولا مؤثّر في أيّ شيء ولا حاكم تكويناً ولا تكليفاً **(إلّا هو)** فلذلك وجب إطاعته وحده، ولا يجوز إطاعة غيره إلّا ضمن ما قدّره هو كما قال

أبوبكر الصّديق (رضي الله عنه): أطيعوني ما أطعت الله فيكم وإلّا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[١]. وقال أيضاً: وإن أخطأت فقوّموني[٢]. فالله تعالى هو المؤثّر وهو المشرع **(وعلى الله)** الموصوف بهذه الوحدة في الخلق والإيجاد والتّأثير والتّشريع لا على غيره **(فليتوكّل المؤمنون)** به في أمورهم وشؤونهم الدّينية والدّنيويّة وخصّ المؤمنين بالتوكّل عليه لأنّ الكافر به لا يعرفه ليتوكّل عليه.

ثمّ إنّ كثيراً من النّاس ينحرفون عن إطاعة الله تعالى لأجل أزواجهم أو أولادهم، وذلك لتحصيل الرّزق لهم بطريق غير مشروع، أو أنّه يرتكب منهيّاً عنه لأجلهم وللحفاظ عليهم، أو أنّهم ينهونه عن إطاعة الله تعالى فحذّر الله تعالى المؤمنين عن ذلك كلّه فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم) وهم الّذين يأمرونكم بالمعاصي أو يسوقونكم إلى الانحراف عن منهج الله تعالى أو يتسبّبون في أن ترتكبوا المعاصي ترحّماً أو حفاظاً عليهم أو إعالة لهم، فإنّ كلّ من يتسبّب في ضررك فهو عدوّ لك، وأيّ ضرر أضرّ من الضّرر في الدّين **(فاحذروهم)** من أن يضرّوكم. حينما نزلت هذه الآية أراد بعض المؤمنين أن يعاقبوا أولادهم ويؤذوهم فقال تعالى: **(وأن تعفوا)** عنهم **(وتصفحوا)** أي وتعرضوا عن إيذائهم **(وتغفروا)** لهم فذلك أحسن **(فإنّ الله غفور رحيم)** ويريد أن يغفر العباد بعضهم لبعض، فليس المطلوب منكم أن تؤذّوهم إنّما المراد منكم أن تحذروهم من أن تقعوا في الباطل بسببهم.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾

(إنّما أموالكم وأولادكم فتنة) امتحان لكم من الله تعالى فوهبكم الله الولد والمال لينظر هل تعصون الله بسبب المال والولد أم لا؟ وهل تصرفون أموالكم وأولادكم في

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١١/ ٣٣٦ الحديث رقم ٢٠٧٠٢.

(٢) المصدر والحديث نفسه.

الخير أم الشّر؟ **(والله عنده أجر عظيم)** لمن تمسّك بدينه ولم ينحرف عنه بسبب الأموال والأولاد، بل واستغل ماله وأولاده في إطاعة الله تعالى وساقها إلى الخير وجنّبها عن كلّ ما فيه الشّر والمعصية.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾

(فاتّقوا الله) أي اجتنبوا معاصي الله تعالى بسبب أموالكم أو أولادكم أو شهواتكم **(ما استطعتم)** بقدر ما في وسعكم أي بكلّ جهدكم **(واسمعوا)** استجيبوا داعي الله **(وأطيعوا)** أمر الله **(وانفقوا)** أموالكم فيما أمر به أو أباح **(خيراً)** أن تنفقوا يكن **(خيراً لأنفسكم)** لأنّكم تثابون على ذلك مقابل الواحد عشرة إلى سبعمائة أو أكثر والله واسع عليم **(ومن يوق)** ومن حفظه الله من **(شحّ نفسه)** بخل نفسه **(فأولئك هم المفلحون)** الفائزون بما يرغبون فيه من النّعم والعطايا من الله تعالى.

ثمّ بيّن الله تعالى أنّ الإنفاق في سبيل الخير هو قرض مع الله تعالى وبين حسن عاقبة ذلك القرض فقال جلّ وعلا:

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

(إن تقرضوا الله) بالأنفاق في سبيله **(قرضاً حسناً يضاعفه لكم)** يجزيكم عليه أضعافاً **(ويغفر لكم)** ذنوبكم **(والله شكور)** كثير الثّواب على الطّاعات **(حليم)** في العقاب.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

(عالم الغيب) أي يعلم الله تعالى كلّ ما غاب واختفى من أعمالكم، وكلّ ما انكشف وظهر من أفعالكم **(العزيز)** الغالب والمنفّذ لإرادته في ثواب المطيع وعقاب العاصي **(الحكيم)** ولا يعمل شيئاً من ذلك إلّا لحكمة بليغة هو يعلمها، ونحن عنها غافلون وستنكشف لنا الحقيقة يوم الآخرة.

هذا ما وفّقنا الله تعالى على إبدائه، نرجو الله تعالى القبول وحسن الختام، والحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على خير خلقه محمّد وآله وصحبه أجمعين آمين.

سورة الطّلاق

(مدنيّة، آياتها إثنتا عشرة آية، نزلت بعد الإنسان، سمّيت بذلك لما فيها من كيفيّة إيقاع الطّلاق).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾.

(يا أيّها النّبيّ) نادى الله نبيّه وحده لأنّه المبلّغ لأحكام الله تعالى وخاطب في **(إذا طلّقتم)** الجمع لأنّ الحكم عامّ للجميع من النّبيّ (ﷺ) وأمّته، ومعنى إذا طلّقتم أي إذا أردتم أن تطلّقوا **(النّساء)** نساءكم **(فطلّقوهن لعدّتهن)** طلّقوهن لوقت عدّتهن أي في الوقت الّذي يبدأن ويدخلن في العدّة، ولا تطلّقوهنّ في وقت لايدخلن في العدّة، ولا يحسب لهنّ ذلك الوقت من العدّة، وبسبب ذلك تتأخّر عدّتهنّ فيكون ذلك ظلماً منكم لهنّ، وذلك بأن يطلّق الرّجل زوجته في الحيض أو النّفاس أو في طهر جامعها فيه، فإنّ مدّة الحيض والنّفاس والطّهر الّذي جامعها فيه لا يحسب من العدّة، بل تبتدئ العدّة بعد الحيض والنّفاس، وبعد ذلك الطّهر فتتأخّر عدّتها فتنظلم المرأة بذلك. هذا وإنّ الطّلاق باعتبار الوقت الّذي يوقع فيه اقسام:

الأوّل: الطّلاق السّني: وهو ما كان موافقاً للسّنة بأن يطلّقها في طهر لم يجامعها

فيه، أو يطلقها وهي حامل بان حملها فيقع الطّلاق بلا خلاف.

الثّاني: الطّلاق البدعي: وهو ما كان مخالفاً للسّنة بأن يطلّقها في الحيض أو النّفاس أو في طهر جامعها فيه، وهذا الطّلاق اختلف الفقهاء في وقوعه، فمنهم من قال: لا يقع لأنّه عمل غير موافق للشّرع ولا يعتدّ بهذا الطّلاق فلا يقع. وعند الجمهور أنّه يقع وأنّ النّهي عنه لا يستلزم الفساد وعدم الأعتداد، وإنّما يستلزم الإثم للمطلّق.

الثّالث: وهو لا سنّي ولا بدعي، وهو طلاق الآيسة والصّغيرة وغير المدخول بها حيث لا عدّة عليها.

وأمّا الطّلاق بلفظ الثّلاث كأن يقول الرّجل لامرأته: أنت طالق ثلاثاً، فاختلف فيه الفقهاء:

فالجمهور على: أنّ الطّلاق بلفظ الثّلاث ليس بدعيّاً ويقع بائناً بينونة كبرى لا تحلّ له إلّا بعد التّحليل. وعند البعض: أنّه لم يوجد في زمن الرّسول (ﷺ) جمع الطّلقات الثّلاث وإنّما كان الرّجل يطلّق امرأته مرّة واحدة فيراجعها إن شاء، ثمّ إن طلّقها مرّة ثانية يراجعها إن شاء، وإذا طلّقها مرّة ثالثة فلا رجعة له عليها، ولا تحلّ له إلّا بعد التّحليل، فعلى هذا يكون جمع الطّلّقات الثّلاث بدعياً فلا يقع، وعند بعض أنّه سنّي غير أنّه لا يقع به إلّا واحدة وله الرّجعة عليها، وهذا الخلاف مع أدلّته مبسوطة في كتب الفقهاء فراجعها إن شئت.

(**وأحصوا العدّة**) احسبوها أي أن تنتهي وتنقضي فلا تتزوّجوا المعتدّة ولا تزوّجوها، ولتحبس هي نفسها عن الزّواج حتّى تنقضي عدّتها تماماً، والعدّة للمتوفّى عنها زوجها إن كانت حاملاً تنتهي بوضع حملها وإلّا فبعد أربعة أشهر وعشرة أيّام من يوم الوفاة. والمطلّقة إن كانت صغيرة لم تحض أو كبيرة يئست من الحيض فعدّتها ثلاثة أشهر من يوم الطّلاق، وإن كانت حاملاً فبوضع الحمل، وان كانت المرأة تحيض فعدّتها ثلاثة قروء أي ثلاثة أطهار أو ثلاثة حيض،على اختلاف بين الفقهاء، لأنّ القرء جاء بمعنى الطّهر والحيض. وأيّ نكاح عقد في أيّام العدّة فهو نكاح فاسد إجماعاً. (**واتّقوا**) واجتنبوا العذاب بأن لا تعصوا الله (**ربّكم**) فتمتثلوا أوامره وتجتنبوا نواهيه، ولا تتجاوزوا حدوده ولا تطلّقوا النّساء في الحيض أو في طهر جامعتموهن فيه (**ولا تخرجوهنّ**) لا تخرجوا المطلّقات (**من بيوتهنّ ولا يخرجن**) نهى الله تعالى الرّجال أن

يخرج مطلّقته من بيتها، ونهى المطلّقة أن تخرج هي من بيتها إلى أن تنتهي العدّة وتنقضي إلّا لضرورة داعية إلى الخروج فترجع فوراً (**إلّا أن يأتين بفاحشة**) بخصلة سيّئة (**مبيّنة**) واضحة لا يمكن المساكنة معها فحينئذ يجوز إخراجها (**وتلك**) وهذه الحدود من عدم جواز الطّلاق في الحيض والنّفاس أو في طهر جامعها فيه، ومن وجوب إحصاء العدّة وعدم إخراج الزّوج مطلّقته من بيتها، وعدم خروجها باختيارها كلّ هذه الأمور (**حدود الله**) احكامه (**ومن يتعدّ حدود الله**) فلم يطبّقها ولم يراعها (**فقد ظلم نفسه**) لأنّه يعرضها على العذاب بارتكاب ما نهى الله تعالى عنه (**لا تدري**) لا تعلم ما في المستقبل فإنّه (**لعلّ**) ببقائها في بيتها وتحت نفقة ورعاية زوجها تتحرّك الدّوافع من الرّجل فيراجعها، ولا يكون هذا الطّلاق سبباً للفرقة النّهائية بينهما، لأنّ الطّلاق مضرّة للزّوجين؛ ولذا كان مبغوضاً عند الله تعالى، وما أحلّه إلّا عند ضرورة ملجئة إليه، وهذا معنى قوله تعالى: (**لعلّ الله يحدث بعد ذلك امراً**) وهو الرّغبة في إرجاعها إلى نكاحه.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾

(**فإذا بلغن أجلهنّ**) فإذا شارفن على أجلهنّ وقرب انتهاؤه بحيث بقي زمن يسع الرّجعة (**فأمسكوهنّ**) راجعوهنّ (**بمعروف**) بنيّة صالحة ومعاشرة حسنة (**أو فارقوهنّ بمعروف**) بأن تعطوهنّ مهورهنّ ومتعتهنّ تماماً دون نقصان، ولا تراجعوهنّ لتطلقوهنّ مرّة أخرى فتطول عليها العدّة كما قال تعالى: ﴿ولا تمسكوهنّ ضرارا﴾، سورة البقرة الآية/ ٢٣١. لمجرّد الإضرار بها بتطويل عدّتها (**وأشهدوا**) على الطّلاق والرّجعة أو على الرّجعة فقط.

سؤال: هل الإشهاد واجب أو مستحبّ؟

الجواب: فيه خلاف: قال القرطبيّ: الظّاهر أنّ الأمر بالإشهاد راجع إلى الرّجعة، فإن راجع بدون إشهاد فالرّجعة صحيحة عند بعض وباطلة عند البعض الآخر، وقيل

(وأشهدوا) على الطّلاق والرّجعة، وهذا الإشهاد مندوب عند أبي حنيفة مطلقاً، وعند الشّافعي واجب في الرّجعة مندوب في الطّلاق، وعند البعض الإشهاد شرط في وقوع الطّلاق فإن لم يشهد لم يقع. والخلاف مع الأدلّة مبسوط في كتب الفقه. وفائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التّجاحد وأن لا يتّهم في إمساكها بالفسق، ولئلا يموت أحدهما فيبدي الآخر ثبوت الزّوجية ليرث.

* * *

(ذوي عدل منكم) من المسلمين، وهل تقبل شاهدة النّساء؟ فقال بعض: نعم، وقال الآخرون: لا تقبل شهادة النّساء فيما عدا الأموال. **(وأقيموا الشّهادة)** قيل: معناه إذا استشهد أحدكم فليحتمل الشّهادة لأن تحمّل الشّهادات فرض كفاية، وقيل: معناه إذا تحمّلتم فأدّوها **(لله)** لأجل رضاء الله تعالى، ويجوز أن يراد المعنيان حيث لا تنافي بينهما، بل كلّ منهما مأمور به **(ذلكم)** المذكور من الأحكام والآداب الخاصّة بالطّلاق **(يوعظ به)** يؤمر به **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر)** فإنّهم هم الممتثلون للأوامر والمستفيدون منه، وهنا إشارة إلى أنّ من اتّعظ بهذه الأوامر وتأدّب بهذه الآداب فهو مؤمن صادق، ومن لا فلا **(ومن يتّق الله)** فعمل في كلّ شيء حسبما أمره به ووعظه الله **(يجعل)** الله تعالى **(له مخرجاً)** من كلّ ضيق، فإنّ الله تعالى لا يأمر عباده إلّا بما فيه مصلحتهم ومنفعتهم وسعادتهم في الدّارين، ولو امتثلوا لسعدوا فيها وأفلحوا **(ويرزقه)** ومن يتّق الله فلم يرتكب ذنباً عند طلب الرّزق ولم يطلب محرّماً يرزقه الله تعالى **(من حيث)** من الجهة الّتي **(لا يحتسب)** أنّه يرزق من هذه الجهة.

حكاية: يحكى أنّ رجلاً نزل ببلدة للتجارة فرأى **(لؤلؤة)** تباع بألف دينار وكانت له بنت يحبّها كثيراً حيث لم يكن له غيرها من الأولاد، فاشترى اللّؤلؤة كهدية لها، فبعد أن اشتراها فقدها فاستأجر منادياً فنادى من عثر على لؤلؤة كذا فأعادها فله جائزة مائة دينار، وقد التقطها شابّ عفيف تقّي، وكان في غاية الفقر والفاقة، ولا يملك شيئاً من المال، وكان بأحوج ما يكون إلى المال، فلمّا سمع النّداء ركض وراء المنادي فقال: دلّني على صاحب اللّؤلؤة، فلمّا لقيه ردّها إليه فاخرج الرّجل مئة دينار وقدّمها إلى الفتى، إلّا أنّ الفتى أبى أن يقبل شيئاً منها وقال: لم أردّها إليك إلّا لوجه الله تعالى وابتغاءً لمرضاته، ثمّ مضت أيّام وصادف أن سافر الشّاب إلى جهة وركب السّفينة فأصيبت السّفينة ممّا اضطرّ ربّانها إلى أن يوقفوها في شاطئ، فخرج الفتى وتوجّه إلى

البلد حيث كان غريباً، وكان ممّن قلبه متعلّق بالمساجد، فتوجّه إلى مسجد البلدة، فلمّا رآه المصلّون ورأوا في وجهه سيما الصّلاح رحّبوا به وبقي أيّاماً هناك، وبعدما عرف القوم الأدب والتّقوى والعلم منه عيّنوه معلّماً للأطفال، وبعد مدّة قال له أحد أصدقائه: ألا تتزوّج؟ فقال: كيف ولا أملك شيئاً؟ قال: أفئن دعيت إلى فتاة ثريّة ذات دين وعفّة وجمال؟ قال: لا مانع عندي. فخطبوا له الفتاة، فلمّا دخل عليها وجد في جيده قلادة وفي مؤخّرتها تلك اللّؤلؤة الّتي ردّها إلى صاحبها، فقال: من أين لك هذه اللّؤلؤة؟ فقالت: إنّ لهذه اللّؤلؤة قصّة عجيبة وقصّت: أنّ أباها اشتراها لها، ثمّ فقدها فأعلن عن جائزة لمن يردّها إليه فردّها إليه فتى ولم يقبل الجائزة حيث لم يردّها إلّا ابتغاء لوجه الله تعالى، ثمّ قالت: فكان أبي يدعو دائماً أن يأتي الفتى ويسكن هذه البلدة فيزوّجه بنته. فقال الفتى: إذاً والله قد استجاب الله دعوة أبيك وأنا ذلك الفتى.

* * *

(ومن يتوكّل على الله) فيفوض أمره إليه **(فهو حسبه)** ييسّر له الأمور. روي عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنه): أنّ هذه الآية نزلت في عوف بن مالك الأشجعي وذلك أنّه أسّر ولده وضيق عليه رزقه؛ فشكى ذلك إلى رسول الله (ﷺ) وقال: إنّ العدوّ أسّر ابني وضرعت الأمّ فما تأمرني؟ فقال (ﷺ): اتّق الله واصبر، آمرك وإياها أن تستكثروا من قول لا حوّل ولا قوّة إلّا بالله. فعاد إلى بيته وقال لامرأته أنّ رسول الله (ﷺ) أمرني وإيّاك أن نستكثر من قول لا حول ولا قوّة إلّا بالله فقالت: نعم ما أمرنا به فجعلا يقولانه دائماً، فغفل العدوّ عن ابنه فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه وهي أربعة آلاف شاة، فنزلت الآية وجعل النّبيّ (ﷺ) تلك الأغنام له. ومناسبة هذه الآية لآيات الطّلاق أنّ المرء إذا اتّقى الله وجعل معاملاته وفي ضمنها الطّلاق وفق ما رسم الله تعالى له ولم يخالف أمره يجعل له من ضيق فراق الزّوج وندامة التّطليق إلى غير ذلك من نتائج الطّلاق والفراق مخرجاً **(إنّ الله بالغ أمره)** إنّ الله منفّذ أمره وإرادته اتّقى النّاس أو لم يتّقوا إلّا أنّه **(قد جعل لكلّ شيء قدراً)** أجلاً ينفّذ أمره حينما حان الأجل ولكنّ هذه الأمور يأمر الله تعالى بها لأنّها أسباب اعتياديّة تجلب رحمة الله تعالى ونتائجها، وقد جرت عادة الله تعالى بخلق تلك النّتائج عندها إلّا أنّها تجبر الله تعالى على ذلك.

فائدة: في بيان كراهيّة الإسلام للطّلاق وأنّه لا يجوز الطّلاق إلّا في حالات

ضروريّة تلجأ إليه ولا مناص منه، وذكر القرطبي أحاديث في هذا الموضوع فقال (رحمه الله تعالى):

١- روى الثّعلبي من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال رسول الله (ﷺ): (أبغض الحلال إلى الله الطّلاق)(١).

٢- عن عليّ رضي الله عنه عن النّبيّ (ﷺ) قال: (تزوّجوا ولا تطلّقوا فإنّ الطّلاق يهتزّ منه العرش)(٢).

٣- عن أبي موسى الأشعريّ (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): لا تطلّقوا النّساء إلّا من ريبة، فإنّ الله عزّ وجلّ لا يحبّ الذّواقين والذّواقات)(٣).

٤- عن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): ما حلف بالطّلاق وما استحلف به إلّا منافق)(٤).

والأحاديث في الموضوع كثيرة جدّاً، هذا ولكون الطّلاق مكروهاً ومبغوضاً إلى الله تعالى، نرى أنّ الله جعل له حدوداً وأسيجة يكاد يتعذّر الطّلاق على المرء ولا يقدم عليه بسهولة لأنّه:

أوّلاً: حرّم أن يطلّق الرّجل امرأته وهي في الحيض.

ثانياً: حرّم أن يطلّقها في طهر جامعها فيه، والجميع يعلم أنّ من الصّعوبة أن تكون المرأة في الحيض ثمّ تطهر فيصبر الرّجل عن جماعها فيطلّقها قبل أن يجامعها، فإنّ الشّهوة تتراكم في حال الحيض وينحبس الجنس فيكون من الصّعوبة عدم التّقرب إليها فيطلّقها فوراً.

ثالثاً: جعل الطّلاق مرّتين وجعل بعد كلّ طلقة منهما حقّ الرّجعة ما دامت في العدّة، وجعل لهما حقّ تجديد النّكاح بعد انتهاء العدّة بدون محلّل.

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٢٥٥ الحديث رقم٢١٧٨.

(٢) كنز العمال ٩/ ٢٨٦ الحديث رقم ٢٧٨٧٤. وهو ضعيف وقيل بل موضوع / انظر التيسير بشرح الجامع الصغير ١/ ٤٤٨.

(٣) كنز العمال ٩/ ٢٨٦ الحديث رقم ٢٧٨٧٣ ونقل عن السخاوي أنه ضعيف بل موضوع.

(٤) كنز العمال ١٦/ ٢٩٤ الحديث رقم ٤٦٣٤٠.

رابعاً: أمر أن لا تخرج المرأة من بيتها مدّة العدّة وأن لا يخرجها زوجها عنوة، وفي بقائها هذه المدّة في البيت والزّوج يراها ويراعي شؤونها وينفق عليها، فقليلاً ما لا تحدث في هذه الحالة الرّغبة من الزّوج في رجعتها، فإذا طلّقها ثالثة فمعنى ذلك أنّه وصلت النّفرة بينهما إلى حدّ لا يمكن التّعايش بينهما أبداً، وفي ذلك الوقت فالفراق أحسن من بقائهما على هذه النّفرة المستعرة والجحيم التّعايشي، والجمع بين الضّدين أو بالأحرى بين العدوّين كما لا يخفى على من له عقل وبصيرة في إدراك الحقائق والأمور، ولعمري لو كان المسلمون صادقين في إسلامهم ولم يعملوا ما يخالف دينهم وطبّقوا أوامر الله تعالى في الطّلاق ولم يطلّقوا إلّا حسب ما أمر الله لأصبح الأمر أنّه لا يوجد الطّلاق في المسلمين إلّا نادراً جدّاً، وفي حالات ملجئة تدعو إليه، ولكن للأسف الشّديد لا نجد عند المسلمين مراعاة آداب الإسلام في الطّلاق كما لا يراعون آدابه في غيره من الشّؤون فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

* * *

سؤال: فإذا كان الطّلاق بهذه الكراهيّة والمبغوضيّة إلى الله تعالى، فلماذا شرعه الله تعالى ؟

الجواب: قد شرع الله تعالى الطّلاق إراحة للزّوجين في حالة حدوث نفرة بينهما تقضي على صفو الحياة وتكدّر معيشة كلّ الطّرفين، بحيث يتمنّى كلّ طرف أن يكون بينهما بعد المشرقين، وفي تلك الحالة أيضاً لم يبح الله تعالى إيقاع الطّلاق فوراً، بل أمر أنّه إذا وقع شقاق يرسلُ حكمان حكم من أهل الزّوج وحكم من أهل المرأة، ويسعيان للإصلاح والتّوفيق بينهما، فإن علما أنّه لا مجال للإصلاح ولا يمكن التّوفيق بينهما، فحينئذ يحكم بالتّفريق بينهما تفريقاً رجعياً يمكن الرّجعة بعده، وفي مثل هذه الحالة لا يوجد أحد من ذوي العقول أن لا يبيح الطّلاق ويحكم عليهما بالبقاء على هذه الحالة الّتي هي أقسى من جهنّم وبئس المصير، فالطّلاق لم يشرع إلّا في مثل هذه الحالة من الأحوال الّتي يشقّ فيها التّعايش بينهما.

* * *

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى بإحصاء العدّة وأنّ للزّوج الرّجعة أثناء العدّة، وقد بيّن الله تعالى العدّة في غير هذه السّورة لذوات الحيض بأنّها ثلاثة قروء، أراد الله تعالى أن

يبيّن عدّة النّساء اللّاتي لم يحضن لصغرهنّ واللّاتي يئسن من المحيض لكبرهنّ وعدّة ذوات الحمل، فقال تعالى:

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾﴾

(واللائي يئسن من المحيض من نسائكم) لكبرهنّ وبلوغهنّ سنّاً لا تحيض النّساء فيها عادة فلم يحضن **(إن ارتبتم)** في حكم عدّتهن كم هي **(فعدّتهن ثلاثة أشهر)** قمريّة تماماً **(واللّائي لم يحضن)** لصغرهنّ وعدم بلوغهنّ سنّ الحيض أو بلغن ولم يحضن بعد، فعدّتهنّ ثلاثة أشهر أيضاً، وأمّا اللّائي لم يبلغن سنّ اليأس وانقطع حيضهنّ ووقع الشّكّ فيهنّ هل يئسن أو انقطع دمهنّ مؤقّتاً ففيها ثلاثة أقوال:

الأوّل: إنّ عدّتها ثلاثة أشهر أيضاً.

الثاني: إنّ عدّتها ثلاثة أشهر بعد تسعة أشهر تستبرئ بها مدّة الحمل فتكون عدّتها اثني عشر شهراً.

الثالث: إنّها تصبر حتّى تبلغ سنّ اليأس فتعتدّ ثلاثة أشهر بعد بلوغها سنّ اليأس.

(وأولات الأحمال) وذوات الحمل **(أجلهنّ)** عدّتهنّ تنتهي حين **(أن يضعن حملهنّ)** ولو كان الوضع بعد لحظة من الفراق **(ومن يتّق الله)** فعمل وفق ما أمر به **(يجعل له من أمره يسراً)** ويوفّقه على الخير في حياته في الدّنيا ويسهّل له أموره، وأمّا بالنّسبة للآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾﴾

(ذلك) الأحكام الّتي ذكرت **(أمر الله)** وحكمه **(أنزله إليكم)** لتعملوا به وتطبّقوه **(ومن يتّق الله)** فلم ينحرف عن أحكامه ولم يخالف أمره **(يكفّر عنه سيّئاته)** ذنوبه ويعظم له أجراً ثواباً في الآخرة.

ثمّ بعد أن ذكر الله العدّة ذكر ما يجب على الأزواج المعتدّة فقال جلّ وعلا:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾

(أسكنوهنّ) أسكنوا المعتدّات **(من حيث سكنتم)** في المكان الّذي تسكنون فيه **(من وجدكم)** مسكناً حسبما تجدون وتستطيعون وتقدرون عليه. والمعتدّة أنواع:

الأوّل: المعتدّة من الطّلاق الرّجعي: فهذه يجب لها على زوجها السّكن والنّفقة بالإتّفاق.

الثّاني: المعتدّة من الطّلاق البائن أو من الخلع أو من اللّعان وتسمّى المبتوتة ففيها ثلاثة أقوال:

أ. إنّها يجب لها السّكنى دون النّفقة وهو مذهب مالك والشّافعي.

ب. يجب لها السّكنى والنّفقة وهو مذهب أبي حنيفة.

ج. إنّها ليس لها سكنى ولا نفقة.

وهذا الّذي سبق كلّه في غير الحامل لأنّ الحامل لها النّفقة والسّكنى بدون خلاف.

الثّالث: المعتدّة عن الوفاة: قال في الخازن: لا نفقة لها عند أكثر أهل العلم، وعن عليّ (رضي الله عنه): إنّها إن كانت حاملاً فلها النّفقة من التّركة. وأمّا السّكنى فللشّافعي فيه قولان: أحدهما أنّه لا سكنى لها بل تعتدّ حيث شاءت وهو قول أبي حنيفة أيضاً. وثانيهما: لها السّكنى وبه قال مالك وأحمد، انتهى.

(ولا تضارّوهن) ولا تؤذوهن **(لتضيّقوا عليهنّ)** ليخرجن من المسكن **(وإن كنّ أولات حمل)** ذوات حمل **(فأنفقوا عليهنّ حتّى يضعن حملهنّ)** قال الغرناطي: اتّفق العلماء على وجوب النّفقة مدّة العدّة للمطلّقة الحامل عملاً بهذه الآية، سواء كان الطّلاق رجعيّاً أو بائناً، واتّفقوا على أنّ للمطلّقة الرّجعيّة النّفقة في العدّة مطلقاً، وأمّا إذا كان الطّلاق بائناً والمرأة غير حامل فاختلفوا فيه. وأمّا المتوفّى عنها زوجها فلا نفقة لها عند مالك والجمهور سواء كانت حاملاً أو غير حامل. وقال قوم: للحامل النّفقة من التّركة، انتهى مع بعض الإختصار. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حكم الحامل في حالة

الحمل ذكر حكمهما بعد الحمل من أنّه ليس عليها أن تضع الولد فقال جلّ وعلا: **(فإن أرضعن لكم)** الولد **(فآتوهنّ أجورهنّ)** فأعطوهنّ أجرة الرّضاعة، وهنا كأنّ قائلاً يقول: فما هي مقدار أجرة الرّضاعة؟ فقال تعالى: **(وأتمروا)** واتّفقوا بعد المشاورة والتّداول **(بينكم)** على مقدار الأجرة **(بمعروف)** بحيث لا يكلف الزّوج أكثر من طاقته ولا تكلّف المرأة ما يضرّها وتغبن فيه **(وإن تعاسرتم)** وإن اختلفتم في أجرة الرّضاعة فلم تتّفقوا فليس لكم إجبارها على الرّضاعة مجاناً أو بما تريدون من أجرة، وليس لها أن تجبركم على أن تسترضعها حسبما تريد بل **(فسترضع)** الولد **(له)** للوالد **(أخرى)** امرأة أخرى تستأجر لذلك أو ترضعه مجاناً، ولكن إذا علم أنّ الولد يتضرّر إذا لم ترضعه أمّه فيجبر القاضي الأمّ على الرّضاع بأجرة المثل.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى وجوه النّفقة على زوج للمعتدّة من طلاقه وأجرة الرّضاعة بيّن الله تعالى النّفقة وأجرة الرّضاعة تقدّر حسب حال الزّوج فقال جلّ وعلا:

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

(لينفق ذو سعة) أي يجب أن ينفق الغنيّ والثّري **(من سعته)** ما يناسب غناه وثروته، بأن يصرف مثل ما يصرف أمثاله على أزواجهم من الأواسط لا البخلاء ولا السّفهاء، ولا يجوز للغني أن ينفق على معتدّته مثل ما ينفق الفقير أو المسكين **(ومن قدر)** أي ضيّق وقل **(رزقه)** فكان فقيراً **(فلينفق ممّا آتاه الله)** حسب ماله **(لا يكلّف الله نفساً)** أن ينفق على معتدّته **(إلّا ما أتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً)** إلّا بقدر ما أعطاها من المال وحسب حالها إيساراً وإعساراً، وكذلك الحكم في أجرة الرّضاع ونفقة الرّضيع ونفقة الأهل والأولاد وكلّ من يجب عليه نفقته.

وبعد أن ذكر الله تعالى هذه الأحكام خوّف الله تعالى المسلمين بالعقوبة في الدّنيا قبل الآخرة إذا لم يطبّقوا هذه الأحكام ولم يعملوا بها فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾

(وكأيّن) وكثيراً **(من قرية)** من القرى **(عتت)** تولّى أهلها **(عن أمر ربّها ورسله)** عن إطاعة أمر ربّهم الّذي بلغهم رسله فلم يعملوا حسب أمره ولم يطبّقوا شريعته **(فحاسبناها)** ناقشناها ودقّقنا في ذلك إلى أن حاسبناها **(حساباً شديداً)** دقيقاً **(وعذّبناها عذاباً نكراً)** كريهاً، وهذا كناية عن شدّة العذاب **(فذاقت)** طعمت **(وبال أمرها)** عذاب انحرافها عن دين الله وشريعته وأحكامه بأن عذّبوا في الدّنيا **(وكان)** وصار في النّتيجة **(عاقبة)** ثمرة **(أمرها)** عصيانها لأمر الله والرّسل **(خسراً)** خسارة كبيرة لا تعوّض ولا تجبر وذلك في الآخرة، وأي خسارة أكبر من خسارة الآخرة.

ثمّ فسّر الله تعالى تلك الخسارة فقال جلّ وعلا:

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾

(أعدّ الله لهم) أعدّ الله لأصحاب هذه القرى، وبهذا يعلم أنّ الضّمائر في: عتت، وأمر ربّها، وحاسبناها، وعذبناها، وفي وبال أمرها وعاقبة أمرها، كلّ هذه الضّمائر عائدة إلى القرى مجازاً، والمراد بها أهلها لأنّ هذه الصّفات كلّها من صفات الأهل لا من صفات القرى **(أعدّ الله لهم)** لأصحاب هذه القرى بسبب انحرافهم عن دين الله **(عذاباً شديداً)** في الآخرة **(فاتّقوا الله)** احفظوا أنفسكم من عذاب الله بسبب الانحراف عن دينه **(يا أولي الألباب)** يا أصحاب العقول **(الّذين آمنوا)** بدل عن أولي الألباب، فالمعنى فاتّقوا الله أيّها المؤمنون فإنّه قد **(أنزل الله إليكم ذكراً)** كتاباً وهو القرآن وأحكاماً وهي الإسلام، فلا تنحرفوا عنه فتعذّبون في الدّنيا والآخرة كما عذّب من قبلكم لانحرافهم عمّا أنزل إليهم، وهذه سنّة الله تعالى في عباده كلّما عتت أمّة عن دين ربّها عذّبها الله تعالى في الدّنيا بالذّل والهوان، وفي الآخرة بجهنّم وبئس المصير، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

ثمّ بيّن الله تعالى كيف أنزل الذّكر فقال جلّ وعلا:

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾

(رسولاً) أنزل إليكم ذكراً بأن أرسل إليكم **(رسولاً يتلوا عليكم آيات الله)** إذا فسّرت الآيات بالأحكام فتكون **(مبيّنات)** بفتح الياء وبمعنى واضحات، و إذا فسّرت بجمل من القرآن الكريم فيجوز فتح الياء في **(مبيّنات)** بمعنى واضحات وكسرها بمعنى موضّحات لأنّ هذه الجمل توضّح أحكام الله وما يأمر به وينهى عنه، وقد وردت القراءتان **(ليخرج)** ليخرج الرّسول بتلك الآيات والأحكام والإرشادات والمواعظ **(الّذين آمنوا)** به وبتلك الآيات **(من الظّلمات إلى النّور)** من ظلمات الجهل إلى نور العلم، وظلمات الجور إلى نور العدل، ومن ظلمة الفوضى إلى نور النّظام، ومن ظلمة الفجور إلى نور العفّة، ومن ظلمة الوثنيّة إلى نور التّوحيد وإلى غير ذلك، فكلّ ما يأمر به الرّسول نور، وكلّ ما ينهى عنه فهي ظلمة **(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً)** والعمل الصّالح هو ما كان موافقاً للشّرع الشّريف وحسب قواعد الإسلام **(يدخله)** الله **(جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً)** مرّ تفسيرها في مواضع كثيرة **(قد أحسن الله له رزقاً)** في الجنّة يوم القيامة.

ثمّ بيّن الله تعالى عظمة الله تعالى، ومن ذلك يفهم عظمة إنعامه وحسن رزقه واستحقاقه للعبادة والإيمان به فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾﴾

(الله) عظيم لا يدرك كنه عظمته ويدلّ على عظمته هذه أنّه **(خلق سبع سموات طباقاً ومن الأرض مثلهنّ)** في تفسير هذه الآية ننقل ما قاله الغرناطي حول هذه الآية فقال: اختلف المفسّرون في هذه الفقرة، فقيل إنّها سبع أرضين لظاهر هذه الآية، فقوله: مثلهنّ، أي مثل السّماوات في العدد وهو السّبع، وقيل: إنّها واحدة، وقوله: مثلهنّ، المراد بالمماثلة هنا المماثلة في عظم الجرم وكثرة العمارة والمنافع، وقد رجّح المعنى الأوّل لقوله (ﷺ): من غصب شبراً من أرض طوّقه الله تعالى يوم القيامة من سبع أرضين)[١]، أقول: ولايستفاد من هذا الحديث أنّه توجد سبع أرضين، بل المراد به سبع طبقات هذه الأرض، لأنّه حينما يغصب شبراً في أرض يغصبه إلى سبع طبقاتها، فيطوّق

(١) المستدرك على الصحيحين ٤/٣٢٩ الحديث رقم ٧٨٠٧.

من هذه السّبع ولا يعقل أنّه يغصب شبراً في أرض فيطوّق منها ومن ستّ أرضين أخرى، والّذي يقول إنّ الأرضين سبع فأين السّت الأخرى وإلى الآن لم يكتشف إلّا أرض واحدة **(يتنزّل الأمر)** والأمر من الله تعالى، أي أنّ الأمر من الوحي والتّكوين والإيجاد والتّقدير بين السّماوات، وفيها تنزل من الله تعالى، وخلق الله تعالى هذه السّماوات والأرض **(لتعلموا)** اللّام ليس للعلّة والغاية بل للتّعقيب والنّتيجة فالمعنى: فتكون العاقبة من هذه الأشياء والتّفكير فيها **(لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير)** فإنّ من خلق السّماوات، ومثل هذا الخلق يجب أن يكون على كلّ شيء قديراً **(وأنّ الله أحاط بكل شيء علماً)** أحاط علمه بكلّ شيء، فإنّ مثل هذا الخالق لا بدّ وأن يكون له علم بكلّ شيء، فيحاسبكم وفق علمه بأعمالكم من خير وشرّ وصلاح وفساد وكفر وإيمان، ولا يغيب عنه شيء، وإنّ لذلك الحساب يوماً هو يوم الآخرة. حفظنا الله تعالى من كلّ شرّ وخسارة، وجعلنا من عباده الأبرار، ورزقنا حسن الخاتمة آمين، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله تعالى على المولى محمّد وآله وصحبه أجمعين.

سورة التّحريم

(مدنيّة، آياتها اثنتا عشرة آية، نزلت بعد سورة الحجرات، سمّيت بالتّحريم لما فيها من بيان حكم تحريم ما أحلّ الله).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ ﴾

في سبب نزول هذه الآية روايتان:

الأولى: عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كان رسول الله (ﷺ) يحبّ الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس عندها أكثر ممّا كان يحتبس، فغرت فسألت عن ذلك؟ فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكّة من عسل فسقت النّبيّ (ﷺ) منه شربة فقلت: أما والله لأحتالنّ، فذكرت ذلك لسودة وقلت: إذا دخل عليك رسول الله (ﷺ) فإنّه سيدنو منك فقولي له: يارسول الله أكلت معافير؟ فإنّه سيقول: لا، فقولي: ما هذه الرّيح الّتي أجد، وكان رسول الله (ﷺ) يشتدّ عليه أن يوجد منه الرّيح، فإنّه سيقول: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي: جرست نحلة العرفط، وسأقول ذلك، وقولي أنت يا صفيّة ذلك، فلمّا دخل رسول الله (ﷺ) على سودة قالت: تقول سودة: والله الّذي لا إله إلّا هو لقد كدت أبادئه بالّذي قلت، وإنّه لعلى الباب فرقاً منك، فلمّا دنا منها قالت سودة: يارسول الله أكلت معافير؟ قال: لا، قالت: فما هذه الرّيح الّتي أجد؟ قال (ﷺ): سقتني حفصة شربة عسل، قالت: جرست نحلة العرفط، فلمّا دخل عليّ قلت مثل ذلك، ثمّ دخل على صفيّة فقالت له مثل ذلك. فلمّا دخل على حفصة قالت: يارسول الله (ﷺ) ألا أسقيك

منه؟ قال (ﷺ): لا حاجة لي فيه، قالت: تقول سودة: سبحان الله لقد حرّمناه عليه. قلت لها: اسكتي. وفي رواية: إنّ الّتي شرب النّبيّ (ﷺ) عندها العسل هي زينب بنت جحش،فنزلت: (يا أيّها النّبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله ....الخ).

الثّانية: أنّ النّبيّ (ﷺ) كان يقسم بين نسائه فلمّا كان يوم حفصة استأذنت رسول الله (ﷺ) في زيارة أبيها، فلمّا خرجت أرسل رسول الله (ﷺ) إلى جاريته مارية القبطيّة فأدخلها بيت حفصة وخلا بها، فلمّا رجعت حفصة وجدت الباب مغلقاً فجلست عند الباب، فخرج رسول الله (ﷺ) ووجهه يقطر عرقاً وحفصة تبكي، فقال (ﷺ): ما يبكيك؟ قالت: إنّما أذنت لي من أجل هذا، أدخلت أمتك في بيتي، ووقعت عليها في يومي، وعلى فراشي، أما رأيت لي حرمة وحقّاً؟ ما كنت تصنع هذا بامرأة منهنّ، فقال رسول الله (ﷺ): أليست هي جاريتي قد أحلّها الله لي، اسكتي فهي حرام عليّ ألتمس بذلك رضاك فلا تخبري بذلك امرأة منهنّ. فلمّا خرج رسول الله (ﷺ) قرعت حفصة الجدار الّذي بينها وبين عائشة وقالت لها: ألا أبشّرك أنّ رسول الله (ﷺ) قد حرّم عليه أمته مارية وقد أراحنا الله منها، وأخبرت عائشة بما رأت وكانتا متظاهرتين على أزواج النّبيّ(ﷺ). والرّواية الأولى أقوى سنداً ورواية، إلّا أنّ الرّواية الثّانية أقوى معنى وأنسب للسّورة لسببين:

الأوّل: فإنّ رضا الأزواج في تحريم مارية له معنى ظاهر ومعقول ولا معنى لرضاهنّ في تحريم العسل وحبّهن لذلك.

الثّاني: فلأنّ للإسرار بخبر تحريم مارية والأمر بكتمه معنى معقول، ولا يوجد معنى وسبب في الإسرار بتحريم العسل والأمر بكتمانه. ولذلك أخذ المفسّرون كلّهم بالرّواية الثّانية وفسّروا السّورة على ضوئها فقالوا: **(يا أيّها النّبيّ)** هذا الخطاب خطاب ملاطفة وليس خطاب معاتبة **(لم تحرّم ما أحلّ الله لك)** وهي مارية جاريته، والمراد بالتّحريم الامتناع عنها لا التّحريم الشّرعي، فإنّ التّحريم والتّحليل بيد الله تعالى وليس بيد أحد سواه **(تبتغي)** بذلك التّحريم **(مرضات أزواجك)** حيث كنّ يحببن تحريمها، إذ كنّ يحببن تقليل الضّرات والمشاركات في صحبة الرّسول (ﷺ)، وهذه طبيعة جبلّية لا يمكن للنّساء التّخلي عنها مهما بلغن من التّقوى والصّلاح ومن العلم والثّقافة سيّما إذا كان الزّوج عظيماً بل رسولاً من الله تعالى، فلم يكن في حبّهنّ ذلك إثم ولا ملامة، حيث لا يؤاخذ الإنسان على ما لا يمكنه التّخلص منها. فحينما نزلت هذه الفقرة من

الآية أوجس الرّسول (ﷺ) في نفسه خيفة من أنّه أصابه إثم في التّحريم فقال له الله تعالى: **(والله غفور)** غفر لك من هذا التّحريم فلم يعتبره إثماً **(رحيم)** بك فيتدارك أمرك في كلّ الأمور، أو المراد بـ **(غفور)** لنسائك اللّاتي إشتركن في هذه المؤامرة الّتي أدّى بك إلى تحريم جاريتك **(رحيم)** بهنّ ولذلك غفر لهن.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

(قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم) أي لا تمتنع عن التّمتع بجاريتك بسبب تحريمك إيّاها، بل تمتّع بها وأدّ كفّارة مثل كفّارة اليمين و **(قد فرض)** عيّن الله تعالى **(لكم)** ما يكون **(تحلّة أيمانكم)** سبباً لنقض أيمانكم **(والله مولاكم)** متولّي أموركم، فتولّى أمر أيمانكم بنقضها بالكفّارة **(وهو العلّي)** الّذي لا يردّ أمره وينفذ حكمه **(الحكيم)** لا يحكم بشيء إلّا وفيه حكمة عظيمة.

مسألة: استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على أنّ تحريم الحلال يمين يوجب الكفارة على من حرّمه إذا أراد الرّجوع إلى التّمتّع به، والّذي لا يرى تحريم الحلال يميناً يقول: إنّ الرّسول (ﷺ) حينما حرّم العسل أو مارية حلف على أن لا يأكل من العسل أو لا يتمتّع بمارية، ولذلك أوصاه الله بالكفّارة لحلفه لا للتّحريم.

فنودّ أن نذكر آراء العلماء فيمن حرّم على نفسه حلالاً وما هو حكمه فنقول: لو حرّم المكلّف على نفسه شيئاً غير زوجته لم يلزمه بذلك شيء عند مالك والشّافعي، وتجب بذلك كفّارة عند ابن مسعود والثّوري وأبي حنيفة في تحريم كلّ حلال، وأمّا إذا قال لزوجته: أنت عليّ حرام ففيه ثمانية عشر قولاً ذكرها القرطبيّ في تفسيره:

الأوّل: إنّه لا شيء عليه، وبه قال الشّعبي ومسروق وربيعة وأبو سلمة، وهو عندهم كتحريم الماء والطّعام لا شيء فيه.

الثّاني: إنّها يمين يكفّرها كفارة اليمين، قاله: أبوبكر الصّديق وعمر بن الخطّاب وعبدالله بن مسعود وإبن عباس وعائشة والأوزاعي (ﷺ)وهو مقتضى الآية.

الثّالث: إنّها تجب فيها الكفارة وليست بيمين، قاله ابن مسعود وابن عبّاس في إحدى روايتيه والشّافعي في أحد قوليه.

الرّابع: هي ظهار ففيها كفارة الظّهار، قاله عثمان وأحمد بن حنبل وإسحاق.

الخامس: إنّه إن نوى ظهاراً كان ظهاراً وإن نوى تحريم عينها عليه بغير طلاق تحريماً مطلقاً وجبت كفّارة يمين، وإن لم ينو شيئاً فعليه كفارة يمين، قاله الشّافعي.

السّادس: إنّها طلقة رجعيّة، قاله عمر بن الخطاب والزّهري وعبد العزيز بن إبي سلمة وإبن الماجشون (ﷺ).

السّابع: إنّها طلقة بائنة، قاله: حماد بن أبي سليمان وزيد بن ثابت ورواه ابن خويز متداد (رضي الله عنه).

الثامن: إنّها ثلاث تطليقات، قاله عليّ ابن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبوهريرة (رضي الله عنه).

التّاسع: هي في المدخول بها ثلاث وما ينوى في غير المدخول بها، قاله: الحسن وعلي بن زيد والحكم وهو مشهور مذهب مالك (رضي الله عنه).

العاشر: ثلاث في الوجهين ولا ينوى في شيء، قاله: عبدالملك في المبسوط وبه قال ابن ليلى.

الحادي عشر: هي في المدخول بها ثلاث وغيرها واحدة، قاله ابن مصعب ومحمد بن الحكم.

الثّاني عشر: إنّه إن نوى الطّلاق أو الظّهار كان ما نوى، فإن نوى الطّلاق فواحدة بائنة أو إثنتين فواحدة، وإن نوى ثلاثاً فثلاث، وإن لم ينو شيئاً فيمين وحكمها حكم الإيلاء، وبه قال: أبوحنيفة وأصحابه زفر، إلّا أنّه قال: إذا نوى اثنين فاثنين.

الثّالث عشر: إنّه طلاق ولا ينفعه نيّة الظّهار، قاله ابن القاسم.

الرّابع عشر: قال يحيى بن عمر: يكون طلاقاً فإن ارتجعها لا يجوز له وطؤها حتّى يكفّر كفارة الظّهار.

الخامس عشر: إن نوى الطّلاق فما أراده من عدده فان نوى واحدة فهي رجعيّة، وهو قول الشّافعي (رضي الله عنه)، وروي مثله عن أبي بكر وعمر وغيرهم من الصّحابة والتّابعين (رضي الله عنه)، والظّاهر إنّه إن نوى اثنتين فرجعيّة أيضاً.

السّادس عشر: إن نوى ثلاثاً فثلاث، وإن واحدة فواحدة، وإن نوى يميناً فيمين،

وإن لم ينو شيئاً فلا شيء عليه، وهو قول سفيان وبمثله قال أبو ثور والأوزاعي (رحمهم الله)، إلّا أنّهما قالا: إن لم ينو شيئاً فواحدة.

السّابع عشر: له نيّته ولا يكون أقلّ من واحدة، قاله ابن شهاب، وإن لم ينو شيئاً لم يكن شيء، قاله: ابن العربي.

الثّامن عشر: إنّ عليه عتقاً وإن لم ينو ظهاراً.

انتهى ما في القرطبي من ذكر الأقوال، وقد بيّن القرطبيّ سبب الخلاف وأدلّة القائلين ممّا لا يسع المجال لنقلها هنا فراجعه إن شئت.

* * *

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾

(وإذ أسرّ النّبيّ إلى بعض أزواجه حديثاً) وإذ أخفى الرّسول (ﷺ) كلاماً فلم يذكره لأحد إلّا أنّه أفضى به إلى بعض أزواجه وأمرها أن تكتمه ولا تفشيه بين الأزواج الأخريات، ولكنّها أفشت ذلك الكلام وأخبرت به غيرها وفشى الكلام بين الأزواج الطّاهرات **(فلمّا نبّأت به)** فلمّا أخبرت بذلك الكلام غيرها **(وأظهره الله عليه)** وأطّلع الله رسوله على إفشائها للكلام المذكور **(عرّف)** الرّسول أي ذكر لزوجته الّتي أفشت الحديث **(بعضه)** لا كلّه، وقال لها: لقد قلت وذكرت لغيرك كذا وكذا **(وأعرض عن بعضه)** فلم يذكره، وذلك لأنّه إذا عرف الإنسان غيره ببعض ما قال علم إنّه إطلع على كلّ ما قال فلا حاجة إلى ذكر الكلّ **(فلمّا نبّأها به)** فلمّا أخبر الرّسول زوجه أفشاءها للكلام **(قالت)** الزّوج **(من أنبأك بهذا)** وممّن سمعت إنّي أفشيت هذا الحديث **(قال)** الرّسول (ﷺ) **(نبأني)** أخبرني بذلك **(العليم)** بكلّ عمل **(الخبير)** بكلّ قول ولا يغيب عنه شيء وهو الله تعالى.

تنبيه: لم يبيّن الله تعالى الحديث الّذي أسرّ به الرّسول (ﷺ) إلى إحدى أزواجه بل تركه مبهماً، ولذلك اختلف النّاس فيه فقال بعضهم: هو تحريم مارية، وقال

الآخرون: هو تحريم العسل، وقال بعض آخر: هو قول: إنّ أبابكر وعمر سيكونان خليفة بعده، ولكنّ الّذي يفهم من سياق الآيات الكريمة أنّ الحديث كان ممّا أحدث بلبلة في بيت الرّسول (ﷺ) وبين أزواجه الطّاهرات، وكان السّبب لإفشاء هذا الحديث وإحداث هذه البلبلة إثنتان من أزواجه، والمشهور أنّهما حفصة وعائشة (رضي الله عنهما)، فسبّب ذلك أن غضب الرّسول (ﷺ) على أزواجه كلّهن عامّة وعلى اللّتين كانتا سبباً لتلك البلبلة خاصّة فقال جلّ وعلا:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾

(إن تتوبا إلى الله) فذلك من واجبكما حيث **(فقد صغت)** مالت عن الصّواب **(قلوبكما)** فيجب عليكما أن تتوبا وأن لا تعودا إلى مثل ذلك أبداً **(وإن تظاهرا عليه)** وإن بقيتما على تظاهركما وتعاونكما على فعل ما يكون **(عليه)** على الرّسول ممّا يسوؤه وذلك لإفراط الغيرة فلا تنجحان في ذلك حيث **(فإنّ الله هو مولاه)** ناصره **(وجبريل)** ناصره أيضاً **(وصالح المؤمنين)** ينصرونه فلا تستطعن أنتنّ ولا غيركنّ الغلبة والسّيطرة عليه.

ثمّ عاتب الله تعالى أزواج النّبيّ عامّة وخوّفهنّ بطلاق رسول الله (ﷺ) لهنّ إذا لم يتبن من إثارة ما يؤذي رسول الله (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾

(عسى ربّه) كلمة عسى من الله تعالى للتّحقيق لا للتّقريب فالمعنى: إنّ ربّه أي ربّ النّبيّ (ﷺ)، وخبر عسى قوله **(أن يبدله أزواجاً)** أي أنّ ربّه سيبدّله أزواجاً .....إلخ. **(إن طلقكنّ)** نتيجة استمراركن على هذه الحالة من الإفراط في الغيرة وإحداث البلبلة لأجلها **(خيراً منكنّ)** أي منكنّ بعد الطّلاق لو فرض وجوده، فإنّهنّ كنّ خير النّساء ولم توجد خير منهنّ بسبب كونهنّ في عصمة الرّسول (ﷺ) فلو زالت هذه الخاصيّة ذهبت خيرتهنّ وينال بها من ينال تلك الخاصيّة وهنّ اللّاتي يأتين مكانهنّ **(مسلمات)** منقادات

لأوامر الرّسول (ﷺ) **(مؤمنات)** يؤمنن رسول الله (ﷺ) من إحداث المشاكل في البيت **(قانتات)** مطيعات **(تائبات)** راجعات إلى أمره غير مخالفات له **(عابدات)** لله تعالى **(سائحات)** صائمات **(ثيّبات)** جمع ثيّبة، سمّيت ثيّبة من ثاب أي رجع لأنّ المرأة تثوب وترجع إلى بيت أبيها بعد فراق زوجها **(وأبكاراً)** جمع بكر سمّيت بكراً لأنّها على حالتها الأولى ولم تفتض، وبهذا العتاب والتّخويف والتّهديد بالطّلاق وإبدالهنّ بخير منهنّ سكنت الأزواج الطّاهرات وامتثلن أوامر الرّسول (ﷺ) وأصبحن متأدّبات بآداب الله ومتخلّقات بأخلاق أمر بها الله تعالى؛ وبذلك حفظن أنفسهن من عذاب الله تعالى، وبعدما تأدّبت أزواج الرّسول (ﷺ) بآداب حفظن بها أنفسهنّ من عذاب الله، أمر الله تعالى المؤمنين جميعاً أن يحفظوا أنفسهم وأهلهم من العذاب فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) إن صدقتم في إيمانكم **(قوا أنفسكم وأهليكم ناراً)** إحفظوا أنفسكم وأهليكم من جهنّم، وذلك بأن تطيعوا أوامر الله تعالى ولا تخالفوا شريعته، وبأن تؤدّبوا أهليكم وأولادكم بآداب الإسلام وتدرّبوهم على أخلاق القرآن، وتجنّبوهم المعاصي والفجور، وتحثّوهم على الطّاعات والعبادات وأداء ما فرض الله تعالى عليهم في الدّين والاجتناب عمّا نهى عنه، ثمّ وصف الله تعالى جهنّم بقوله: **(وقودها)** وقود تلك النّار **(النّاس والحجارة)** والوقود ما يطرح في النّار لتتّقد وتلتهب وتشتعل **(عليها)** وكلّ على تلك النّار لإيقادها وإلقاء النّاس فيها **(ملائكة غلاظ)** قساة قلوبهم لا يرحمون أحداً **(شداد)** أقوياء لا يقاومهم أحد **(لا يعصون الله ما أمرهم)** من إلقاء النّاس في جهنّم **(ويفعلون ما يؤمرون)** به من تعذيبهم وإهانتهم.

ثمّ أخبر الله تعالى عن حال الكافرين حينما يلقون في هذه النّار، وأنّهم يعتذرون عن كفرهم ومعاصيهم، فيجيبهم الله تعالى في ذلك الوقت، فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

(يا أيّها الّذين كفروا) بشرائعنا ورسلنا وثوابنا وعقابنا **(لا تعتذروا اليوم)** فإنّه لا ينفع النّدم والمعذرة في هذا اليوم، حيث بلّغناكم كلّ شيء فلم تؤمنوا به، فأصبحتم

مستحقّين لهذا العذاب وما ظلمناكم فإنّه **(إنّما تجزون ماكنتم تعملون)** فعاقبناكم على وفقه، فأنتم ظلمتم أنفسكم وحقّ لكم هذا العذاب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى شدّة نار جهنّم وغلظة قلوب من وكّلوا عليها وحال الكافرين يوم القيامة من النّدامة، التفت الله تعالى إلى المؤمنين وأمرهم بالاجتناب عمّا يدخلهم هذه النّار والإتيان بما يقيهم منها، فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً) توبة خالصة وهي عبارة عن النّدم على ما فعل من الذّنب والخروج عنه، والعزم على عدم العود إليه والأمر في **(توبوا)** بالنّسبة للمؤمن العاصي على حقيقته، وهو وجوب التّوبة عليه، أمّا بالنّسبة لمن لم يعص هو الدّوام والثّبات على عدم المعصية والتّوقي منها، وفيه إشارة إلى أنّ العصمة للأنبياء فقط، وأنّه لا يسلم مؤمن من خطأ؛ فكلّ النّاس خطاؤون وأفضل الخطّائين التّوابون، فالمطلوب منهم التّوبة عن المعصية لا عدم صدورها عنهم قطّ وأبداً، فتوبوا إلى الله توبة نصوحاً أيّها المؤمنون، فإن تبتم **(عسى ربّكم)** بعد التّوبة **(أن يكفّر عنكم سيّئاتكم)** أن يستر ذنوبكم بالمغفرة عنها بالتّوبة، وعسى للتّحقيق، فمعناه أن الله تعالى يغفر عن ذنوب التّائبين، والآيات والأحاديث المبشّرة بتكفير التّوبة للذّنوب كثيرة **(ويدخلكم)** بسبب التّوبة وبعد العفو عن الذّنوب **(جنّات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النّبيّ والّذين آمنوا معه)** يدخلكم تلك الجنّات يوم لا يوقع الله النّبيّ ولا الذين آمنوا معه في الخجل، وذلك فإنّ الرّسول (ﷺ) والمؤمنين كلّهم يعدّون الصّالحين بنعم الله وثوابه يوم القيامة، ويوعدون الفاسقين بنقم الله تعالى وعقابه في ذلك اليوم، فلو لم يفعل الله ذلك لخجل الرّسول والمؤمنون من عدم تحقيق وعدهم ووعيدهم كما قالوا: فلا يخزيهم الله تعالى ويفعل كما قالوا، ويفعل الله تعالى ذلك يوم القيامة، وفي ذلك اليوم يكون الرسول والمؤمنون **(نورهم)** ضياؤهم **(يسعى)** يمشي لينوّر لهم الطّريق يوم

الحشر وعلى الصّراط **(بين أيديهم)** أمامهم **(وبأيمانهم)** وفي يمينهم، وذلك لأنّ في ذلك اليوم يقع النّاس في ظلام فيخلق الله تعالى لكلّ مؤمن نوراً بقدر أعمالهم يهتدي به في الطّريق. قال القرطبيّ: عن ابن مسعود أنّه قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنّخلة ومنهم نوره كالرّجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره على إبهام رجله، فيطفأ مرّة ويوقد مرّة أخرى. قال قتادة: ذكر لنا أنّ النّبيّ (ﷺ) قال: إنّ من المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعدن، أو ما بين المدينة وصنعاء ودون ذلك، حتّى يكون منهم من لا يضيء نوره إلّا موضع قدميه، قال الحسن: ليستضيئوا به على الصّراط، وقال مقاتل: ليكون دليلاً لهم إلى الجنّة، ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ سورة الحديد الآيات/ ١٣،١٤،١٥، وقد ورد تفسيره عند تفسيرنا لسورة الحديد فراجعها إن شئت.

(يقولون) المؤمنون يقولون **(ربّنا أتمم لنا نورنا)** أدم لنا نورنا إلى أن نصل إلى الجنّة، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: هذا دعاء المؤمنين حينما أطفأ الله نور المنافقين **(واغفر لنا إنّك على كلّ شيء قدير)** من العذاب والثّواب لكلّ أحد فإنّك مالكهم تتصرّف فيهم حسبما تشاء.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى وصف جهنّم، وحذّر الكافرين منها، وأمر المؤمنين بالتّوبة إلى الله ووعدهم بالجنّة فلم يفد كلّ ذلك الوعظ والإنذار والتّبشير الكافرين شيئاً ولم يزدادوا سوى الكفر والعداء لهذا الدّين ولمن جاء به وللمؤمنين، بعد ذلك أمر الله تعالى نبيّه بجهادهم فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾

(يا أيّها النّبيّ جاهد الكفّار) الّذين أعلنوا كفرهم **(والمنافقين)** وهم الّذين يتظاهرون بالإسلام وهم كافرون به في الحقيقة **(واغلظ)** اشدد عليهم في الدّنيا

(ومأواهم) ومرجعهم يوم القيامة **(جهنّم وبئس المصير)** وقبح المصير الّذي يصيرون إليه وهي جهنّم.

ثمّ إنّ كثيراً من النّاس ينقصهم الخوف من عذاب الله تعالى ومن دخول جهنّم بسبب أنّ لهم صلة قربى للنّبي أو لصالح من الصّلحاء، فأشار الله تعالى إلى أنّ الصّلة أو القربى ليس لها أيّ تأثير، فلا ينجو من استحقّ العذاب بسبب صلته إلى الصّالحين ولا يهلك ويعذّب من وجد فيه الصّلاح بسبب صلته إلى الفاسقين، بل كلّ إنسان مرهون بعمله؛ ويجزي حسب ما عمل من خير خيراً مهما كانت صلته، وعلى الشرّ عذاباً مهما كانت صلته، وضرب الله لذلك أمثلة فقال جلّ وعلا:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

(ضرب الله مثلاً) ذكر الله تعالى على سبيل المثل والتّشبيه **(للّذين كفروا)** وأثبت لهم بهذا المثل أنّ الصّلة إلى الصّالحين لا تنجي ولا تفيد ما لم تقترن تلك الصّلة بصفة ذلك الصّالح من الإيمان والتّقوى، فذكر لهذا المثل **(امرأة نوح وامرأة لوط)** فإنّ هاتين الامرأتين **(كانتا تحت)** أي زوج **(عبدين من عبادنا)** وهما نوح ولوط **(فخانتاهما)** فلم تؤمنا بهما، فكانت امرأة نوح تقول لنوح: إنّه مجنون وتتّفق مع الكافرين في صدّ النّاس عن الإيمان به، وامرأة لوط تخبر القوم بمن نزل ضيفاً على لوط وتدعوهم إلى أن يعملوا السّوء بالضّيف **(فلم يغنيا)** فلم يغن نوح ولوط **(عنهما)** عن زوجيهما **(من الله)** شيئاً، أي لم يستطيعا أن يدفعا عنهما العذاب بل **(وقيل)** للمرأتين **(ادخلا النّار)** جهنّم **(مع الدّاخلين)** مع الكافرين الّذين يدخلونها.

ثمّ بعد أن أشار الله تعالى مثالين لصلة الكافر إلى الصّالح وأنّها لم تفد صاحب الصّلة شيئاً، أراد أن يذكر مثالاً لصلة المؤمن بالكافر وأنّها لا تضرّ صاحب الصّلة شيئاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾

(وضرب الله مثلاً) وذكر الله تعالى مثلاً **(للّذين آمنوا)** وبيّن للّذين آمنوا أنّ صلتهم مع الكافرين لا يضرّهم شيئاً ما لم تقترن تلك الصّلة بمعصيّة لأجلها، فذكر **(امرأة فرعون)** وهي آسية والّتي كانت تكره فرعون لكفره ودعت من الله تعالى **(إذ قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة ونجّني من فرعون)** بفصل منه والتّفريق بيننا **(وعمله)** من كفره وظلمه **(ونجّني من القوم الظّالمين)** وهم أتباع فرعون، فنجّاها الله تعالى فتوفيّت بعد هذا الدّعاء كما يروى، وأدخلها الله الجنّة ولم يضرّها صلتها إلى فرعون.

ثمّ ذكر الله تعالى مثالاً آخر بيّن فيه أنّ العبرة بالعمل والإيمان والصّلاح والتّقوى لا بالصّلة، فذكر لذلك السّيدة مريم فإنّها قبلت من عند الله تعالى من خلّص عباده بسبب تقواها وطاعتها لربّها فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

(ومريم ابنت عمران الّتي أحصنت) عصمت **(فرجها فنفخنا فيه)** في فرجها **(من روحنا)** وهو روح عيسى (عليه السلام) ينفخ جبريل فيه **(وصدّقت)** وآمنت **(بكلمات)** بمقدّرات **(ربّها)** وأنّه يستطيع أن يخلق منها ولداً دون أن يمسّها بشر **(وكتبه)** وآمنت بكتب الله تعالى وأحكامه **(وكانت)** بسبب ذلك معدودة عند الله تعالى **(من القانتين)** من العابدين المقرّبين إلى الله تعالى.

تنبيهات:

الأوّل: ذكر الله تعالى المثل الأوّل لفائدة هي: أنّ صلة الكافر بالمؤمن لا تفيده شيئاً ما لم يقترن بالإيمان والتّقوى.

الثّاني: ذكر المثل الثّاني لفائدة هي: أنّ صلة المؤمن بالكافر لا يضرّه شيئاً مالم تؤثّر في إيمانه وتقواه.

الثّالث: ذكر المثل الثّالث لإفادة أنّ العبرة بالعمل لا بالصّلة، فإنّ مريم عملت وعبدت، فأصبحت من المقرّبين إلى الله تعالى، وأظهر الله تعالى منها معجزة كبيرة هي ولادة عيسى بدون والد، وأصبحت أمّاً لأحد الرّسل من أولي العزم رغم أنّها نشأت يتيمة فقدت الوالدين.

الرّابع: قال تعالى: **(وكانت من القانتين)** ولم يقل من القانتاتن للإشارة إلى أنّها ساوت الرّجال العابدين المقرّبين إلى الله تعالى وفاقت جميع النّساء.

الخامس: ذكر في المثالين الأوّل والثّاني صلة المرأة بالرّجل دون الولد بالوالد أو بالعكس أو صلة أخرى، وذلك لأنّ المرأة ألصق النّاس بالإنسان وأقربهم إليه في العشرة والحياة، فإذا لم تفد ولم تضرّ صلتها فغيرها أولى. وذكر في المثل الثّالث الامرأة أيضاً للإشارة إلى أنّه إذا بلغت المرأة بعملها هذه الدّرجة فالرّجل يبلغ بالأولى لأنّه من القاعدة العامّة أنّ الرّجل خير من المرأة باعتبار حقيقتها وماهيتها، ألا يرى أنّه لم يأت منهنّ رسول ولا نبيّ.

فاعمل أيّها المسلم ولا تغترّ بكلّ صلة ولا قرابة ولا حسب ولا نسب، ولك في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٤٨. خير دليل وفي قوله تعالى: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ سورة لقمان الآية/ ٣٣. أكبر برهان في أنّ الصّلة والقرابة لا تنفع، وأنّ العبرة كلّها بإيمان المرء وعمله وحسن الخاتمة.

* * *

متّعنا الله وإياكم بالإيمان الكامل والعمل الصّالح، ورزقنا السّعادة في الدّنيا والآخرة آمين، والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على خير خلقه سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الدّين آمين. ٢٣ ربيع الأول ١٤٠٦هـ ـ المصادف ٦ كانون الأول ١٩٨٥م.

جزء

﴿تبارك﴾

سورة الملك

(مكيّة، وهي ثلاثون آية، نزلت بعد الطّور، سمّيت سورة الملك حيث ذكر فيها أنّ الملك كلّه بيد الله تعالى وحده، وتسمّى الواقية والمانعة والمنجية أيضاً، لأنّها تقي وتنجي وتمنع تاليها من عذاب القبر).

قال القرطبيّ: روى التّرمذي عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما): (أنّ رجلاً من أصحاب رسول الله (ﷺ) ضرب خباءة على قبر وهو لا يحسب أنّه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتّى ختمها، فأتى رسول الله (ﷺ) وذكر ذلك له فقال (ﷺ): (وهي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر)[1]. وتسمّى المجادلة أيضاً لأنها تجادل عن قارئها وتشفع له يوم القيامة. قال في حاشية الجمل على تفسير الجلالين: روى أبو هريرة (رضي الله عنه) أنّ الرّسول (ﷺ) قال: إنّ سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل يوم القيامة فاخرجته من النّار وأدخلته الجنّة، وهي سورة تبارك)[2]. وروي: أنّ من قرأها كلّ ليلة لم يضرّه الفتّان، أي الملك الموكل بعذاب القبر. كما ورد أنّ رسول الله (ﷺ) كان يقرأ هذه السّورة كلّ ليلة إذا أخذ مضجعه، وأنّه (ﷺ) قال: إنّها تنجي من عذاب القبر، ذكر ذلك الغرناطيّ في تفسيره.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أي بالقدرة الّتي يخلقه الله تعالى ويهبها لي أقرا هذه السّورة، وهكذا فكلّ فعل بدأ فيه بالبسملة يقدر ذلك الفعل ليتعلق به باء بسم الله، فللأكل يقال: بالقدرة الّتي يخلقها

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٦٤ الحديث رقم ٢٨٩٠.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ١٦٤ الحديث رقم ٢٨٩١.

الله تعالى لي آكل، وللسّير يقال: بالقدرة الّتي يخلقها الله تعالى لي أسير، وقس على ذلك، وهذا اعتراف بقدرة الله تعالى وبعجز العبد عن كلّ شيء إلّا إذا أقدره الله تعالى عليه، وإنّه لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، هذا وللاعتراف بهذه الحقيقة وللاجتناب عن التّوكل على غير الله تعالى في كلّ عمل جعلت هذه الكلمة شعاراً للمسلمين، وأمروا بأن يقولوها قبل البدء بأعمالهم، لذلك، ولإستمداد القوّة والقدرة من الله تعالى على ما يعملون، حيث لا إمداد ولا اقتدار إلّا من الله تعالى، وإنّ كلّ من إستمدّ القوّة والقدرة من غيره تعالى، فقد أشرك بالله ورجع إلى الوثنيّة وعقيدة عبادة الأصنام، والّذين كانوا يستمدّون القوّة من غير الله تعالى ويقولون عند البدء بأعمالهم: بسم اللّات أو بسم العزّى ... أو ... أو ... إلى غير ذلك من اسماء آلهتهم الباطلة وأصنامهم المضلّلة. فلا يجوز للمسلم أن يطلب الإمداد والقوّة من غير الله تعالى، أو أن يبدأ بأي اسمٍ سوى اسم الله تعالى مهما كان ذلك الاسم ومن كان صاحب ذلك الاسم. هذا وقد فصّلنا هذا الكلام في رسالتنا (القول المنصف في تفسير سورة يوسف) وبما يثلج القلوب ويفي بالمطلوب، والحمد لله تعالى.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

لفظ (**تبارك**) مشتقّ من البركة للمبالغة، وبرك بمعنى زاد، فتبارك بمعنى زاد بكثرة، وإذا نسب إلى أشخاص فمعناه زاد رتب ما نسب إليه، فمعنى تبارك الله زادت رتبه بكثرة في العظمة والعلوّ. فالمعنى هنا: تعالى وتعاظم الّذي بيده الملك. والمراد باليد التّصرف و (**الملك**) بضم الميم مصدر أي صاحب السّلطان والسّيطرة، وأمّا الملك بكسر الميم فهو مصدر (**المالك**). والملك أبلغ من المالك لأنّ كلّ ملك مالك وليس كلّ مالك ملكاً. واللّام في الملك للإستغراق، فمعنى (**بيده الملك**) في يده وتصرفه كلّ سلطة وإستيلاء في الحقيقة، فيؤتيه لمن يشاء وينزعه ممّن يشاء حسب حكمته وإرادته، كما قال تعالى: ﴿قلِ اللّهُمَ مَالِكَ المُلكِ تُؤتي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ الملكَ ممَّنْ تشاء﴾ سورة آل عمران الآية/ ٢٧. (**وهو على كلّ شيء قدير**) فلا يخرج شيء عن قدرته وإرادته وتصرّفه ويتصرّف فيه كيف يشاء ويريد.

فائدة: إنّ كلّ طائفة من النّاس يقدّس ويعظّم شيئاً فيخضع له ويعبده، فمنهم من يعظّم الطّبيعه ويخضع لها ويكبّرها، ومنهم من يعظّم البقر أو النّار ويسجد لهما، ومنهم من يعظّم عبداً من عباد الله تعالى ويعبده ويعظّمه. لكنّ الإسلام لا يعظّم ولا يقدّس

سوى الله تعالى، فهو العظيم حقّاً ولا عظيم سواه حقيقةً، بل عظمة كلّ عظيم مستمدّة من تعظيم الله له، فيعطي من يشاء من العظمة العرضيّة بقدر ما يريد، فجاءت هذه الآيات الكريمة ردّاً على من يعظّم غير الله تعالى فقال: (تبارك الّذي بيده الملك ...الخ). ولم يقل تبارك الله لأنّه أراد أن يذكره بصفاته الّتي تدلّ على أنّه هو العظيم لا غيره، فكأنّه قال: (تبارك الله) لأنّه هو الّذي بيده الملك والتّصرف في كلّ شيء وله قدرته على كلّ شيء، وهو الّذي خلق الموت والحياة وخلق السّموات إلى آخر أوصافه. فمن كانت هذه صفاته فهو العظيم ولا عظيم سواه. وهذا مثل ما يتشاجر رجلان فيقول أحدهما: زيد ماهر في البناء مثلاً، ويقول الآخر: بل عمرو ماهر فيه، فيقال: الّذي بنى هذه العمارة والّذي أسسّ هذه القلعة هو الماهر في البناء لا غيره وهو زيد لا عمرو ... وهذا الأسلوب بديع وفاش عند البلغاء، ويسمّى ذكر الشّيء مع دليله. هذا والدّليل على وجود من يتّصف بهذه الصّفات هو أنّ وجود هذا الإنسان العجيب في حسنه وجماله وعقله وكماله وفرض الموت والحياة عليه، ووجود هذه السّموات بعضها فوق بعض، وهذه النّجوم اللّامعة والكواكب العظيمه الواقفة في الفضاء، أمر بديهي ومحسوس لا ينكره أحد. فوجود هذا النّظام البديع وهذا الخلق العظيم لا يمكن أن يكون إلّا من صنع صانع عليم قدير وحكيم ومبدع وبصير، والّذي بلغ علمه نهاية الكمال والشّمول، ووصلت قدرته أعلى درجات الفكر والتّصور وليس ذلك إلّا الله تعالى. فإنّ ما سواه ممّا يعبده الطّوائف الجهلة من الأصنام والأبقار والهياكل والأشخاص والنّار لا يشكّ فيها حتّى عبدتهم أنّها لا تستطيع أن تخلق شيئاً ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١)﴾ سورة العنكبوت الاية/ ٧١. فلم يبق الخلاف بين المسلمين وبين غيرهم من أنّ خالق هذا الكون هو الله، وإنّما الخلاف هو بين المسلمين وعبّاد الطّبيعة وهم الماديّون الّذين يقولون: إنّ الكون عبارة عن تحوّل وتطوّر المادّة، ومن هذا التّطوّر وجد هذا النّظام البديع، فنقول لهم: إن أردتم بالطّبيعة الّتي تحوّل وتطوّر المادة من حال إلى حال شيئاً عليماً وسميعاً بصيراً وقادراً ذا إرادة وتقدير فذاك هو الله، فلم نختلف إلّا في الاسم، وإن أردتم بها المادّة الصّماء الّتي لا تفكّر ولا تعقل وأنّها بنفسها تتحوّل وتتطوّر فلا شكّ أنّ ذلك غير معقول، فإنّ التّنظيم والتّصنيع لا يمكن بدون علم وتدبّر، فليس من المعقول أن يكون خالقاً ما لا حسّ له ولا إدراك، ويخلق ما له إدراك وحس وعقل وتفكير، كمثل هذا الإنسان العجيب، أو أن يخلق هذا النّظام المتقن البديع. وإن أراد أنّه يوجد من يعلم

ويقدر ويريد ويدبّر فخلق المادّة وجعلها بحيث تتطوّر وتتحوّل من شيء إلى شيء فنحن لا ننكر ذلك، بل نعتقد أنّ الله تعالى خلق الخلق وجعل له نظاماً أودع فيه الأسباب والمسبّبات وبذلك يتطوّر ويتحوّل بعض الأشياء إلى بعض، أو ينظّم بعضها إلى بعض، فيحصل من ذلك شيء آخر، وإنّ كلّ ذلك بيد الله تعالى أي بإرادته وتقديره، فالإسلام يعترف بالأسباب والتّطوّر إلّا أنّه يقرّ بأنّ فوق الأسباب من خلق الأسباب ويخلق المسبّبات بعدها، فمن لم يعتقد بالأسباب فهو مجنون، ومن لم يعتقد بمسبّب الأسباب فهو كافر مفتون، ومن تتبّع الأسباب وصل إلى الايمان بالله حينما تنتهي الأسباب، ويرى أنّ فوق ذلك قوّة أخرى غير الأسباب بمسبّب، ومن هنا نذكر لك مثالاً وهو: أنّه لو دخل البلد بدويّ لم ير المدنيّة والحضارة طول عمره، فأوّل ما ينظر إلى مصباح الكهرباء يعتقده بأنّ هذا الزّجاج المدوّر أو المستطيل هو الّذي يورث النّور وينوّر، ثمّ حينما يتثقّف قليلاً يعلم أنّ هذا النّور يأتي من السّلك إلى الزّجاج، ثمّ بعدما يتعلّم أكثر يعلم أنّ هذه القوّة تأتي من المحوّلة وإنّما وظيفة التّيار نقلها، ثمّ بعدما رأى أنّ المحوّلة تعطّلت، فجاء إنسان فأوصلها، أو رأى إنساناً وضع محوّلةً أخرى جديدةً علم أنّ هذه القوّة تأتي من المحطّة الأصليّة وهي (الدّينمو)، ثمّ بعدما رأى أنّ المحطّة هلكت وجدّدها الإنسان علم أنّ انساناً عاقلاً وعالماً وضع هذه الماكنة الّتي تولّد هذه القوّة وتبثّها. فهذا البدوي لو قيل له أوّل مرّة أنّ هذا من صنع الإنسان لربّما أنكر ذلك، ولكن حينما رأى أنّ الماكنة هلكت فأصلحها الإنسان، أو رأى أنّ الإنسان صنع ماكنة أخرى، أو قال له من يثق به ويعتمد عليه، اقتنع بعد ذلك وصدّق أنّ هذه الصّنعة من الإنسان المفكّر والمخترع بإذن الله تعالى. فكذلك الإنسان المادّي والطّبيعيّ، يرى هذه الطّبيعة وهذا الكون المملوء بالأسباب والمسبّبات، وبتحوّل المواد بعضها إلى بعض أو امتزاج بعضها ببعض وحدوث ثالث منها. فحينما يقال له: إنّ هذه الطّبيعة والكون صنعه وخلقه صانع عليم وخالق قدير وهو الله لا يصدق، ذلك إلّا بواحد من هذه الأمور:

١. أن يسمع ذلك ممّن يعتقد ويثق به،ويرى أنّ صدور الخطأ منه محال، وذلك كمن صدّق بذلك نتيجة السّماع من الأنبياء والمرسلين أو من ورثتهم وهم العلماء العاملون.

٢. أن يتتبّع الأسباب كلّها في كلّ شيء إلى أن تنتهي الأسباب، فيرى فوق ذلك قوّةً قديرةً فوق الأسباب والمسبّبات وغير داخلة في إطار المادّة وعالم المواد.

٣. أن يفكّر بعقله فيؤدّي تفكيره إلى أنّ هذا الكون العظيم العجيب وهذا النّظام البديع لا يمكن أن يوجد إلّا بإيجاد صانع عليم وقادر مريد، أو وجد ذلك بعلمه وقدرته ووفق إرادته الحكيمة.

٤. أن ينهدم هذا الكون والنّظام، وينشيء الله تعالى نظاماً آخر وذلك ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ سورة إبراهيم الآية/٤٨. فحينئذٍ يؤمن ويصدّق هذا الإنسان كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣)﴾ سورة الفجر الآيات/ ١٧ ـ ٢٣. أي يتذكّر الإنسان خطأه وضلاله وكذبه حينما لم يصدّق بما قال الرّسل ولم يؤمن بخالقه ولم يتفكّر في مبدئه ومعاده. ويعترف بهذا الخطأ والضّلال الكبير كما قال تعالى: ﴿ونفخ في الصّور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون* قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرّحمن وصدق المرسلون*﴾ سورة يس الايات ٥١ - ٥٣.

٥. أن يقذف الله تعالى الإيمان في قلبه فيؤمن، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

* * *

تنبيه: قوله: (بيده) الجار والمجرور متعلّق بمحذوف تقديره (ثبت بيده) وهذه الجملة خبر والملك مبتدأ له قدّم الخبر عليه ليفيد الحصر. فالمعنى بيده كلّ التّصرفات والسّلطات ولا بيد غيره، فلا سلطة ولا إستيلاء لأحد سواه. فهو ملك الملوك وسلطان السّلاطين. فكلّ سلطة أو ملك أو إستيلاء تراه لغيره فهو ملك عرضي لا ذاتي، وهبه الله تعالى له، بدليل أنّ ملك كلّ ملكٍ يزول، والذّاتي هو ما لا يزول ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة آل عمران الآية/٢٦.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ كلّ التّصرفات بيده وأنّه على كلّ شيء قدير، أراد أن

يبرهن على ذلك بما هو في الآفاق والأنفس، وبأقرب ما يمسّ الإنسان فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

معناه: الّذي قدّر الموت والحياة للإنسان. قال بعض المفسّرين: المراد بالموت هو الموت الّذي يأتي على الإنسان بعد حياة الدّنيا، وبالحياة مدّة بقائه في الدّنيا. وقال بعضهم: المراد هو الموت الّذي كان فيه حينما كان تراباً ثمّ حينما كان نطفةً. وبالحياة مدّة بقائه على الأرض إلى أن يموت قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٨، أي كنتم تراباً ونطفةً فبثّ فيكم الحياة. وقال بعضهم: المراد مطلق الموت والحياة، فيشمل الموت الأوّل والثّاني والحياة في الدّنيا والآخرة. والمعنى الأوّل أصحّ وأرجح؛ لأنّ قوله تعالى: **(ليبلوكم أيكم أحسن عملاً)** يتفرّع على الحياة والموت بعدها لا على الموت قبل الحياة في الدّنيا ثمّ الحياة فيها، فإنّ الموت الّذي هو بعد الحياة هو الّذي يدعو المرء إلى العمل الصّالح لا الموت السّابق عليها. لأنّه هو الّذي يعظ ويدعو النّاس إلى عمل الخير ليجني ثمرته بعد هذا الموت في الحياة الآخرة، هذا وإنّما قدّم على الحياة وإن كان متأخّراً عنها على هذا التّقدير. لأنّ الموت هو الّذي يدعو إلى الجدّ في العمل للنّجاح في هذا الاختبار، حيث لولا الموت وعواقبه لما عمل أحد خيراً لله تعالى. ولو عمل فإنّما يعمل بمعنى آخر كغرض من أغراض الدّنيا أو باسم الإنسانيّة أو اسماء أخرى اخترعها من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، لذلك يحرمون من الثّواب حيث لم يعملوا لله ولا للآخرة، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ سورة الكهف الآية/ ١٠٥. أو يقال قدّم الموت لأنّ المراد بالحياة هي الحياة الّتي تكون بعد الموت يوم القيامة، والموت مقدّم عليه طبعاً، فقدّم عليه ذكراً ليطابق ذكر الطّبع، وبهذا يكون أوفق بقوله تعالى: (ليبلوكم)، وهذا القول حسن إلّا أنّه جاءت الآية للاستدلال على عظمة الله تعالى، والاستدلال يجب أن يكون بما هو مسلم به عند الخصم، والحياة في الآخرة لم تكن ممّا يعتقد به الخصم بل إنّما كانوا يعتقدون بالحياة الّتي يعتريها الموت والّتي تعتري الموت الأوّل وهو عدم الأصل، وهو الحال كونهم تراباً أو نطفةً. هذا، فالّذي خلق هذا الإنسان العجيب وقدر عليه هذا الموت الرّهيب ووهبه هذه الحياة المليئه بالأعاجيب جدير وحقّ بأنّ يقال في وصفه: وهو على كلّ شيء قدير.

(**ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً**) معناه ليختبركم أيّكم يأتي بالأعمال الحسنة الّتي تورث الثّواب الجزيل، وأيّكم أسوأ عملاً، أي يعمل أعمالاً سيّئة فيستحقّ العذاب الأليم. وحذفت هذه الفقرة من الآية للإشارة إلى أنّه من الجدير أن لا يوجد من يسيء العمل فيذكر ويخبر عنه.

سؤال: إنّ الله تعالى عالم بكلّ شيء ولا يخفى عليه شيء فكيف يقول: (ليبلوكم) أي ليختبركم، والاختبار إنّما يكون من الجاهل بحال الّذي يختبره؟

الجواب عن هذا بوجوه:

الوجه الأوّل: إنّ المراد أنّه تعالى يعامل معكم معاملة المختبر ليظهر ويتميّز من يحسن العمل ممّن يسيئه، وذلك لإلزام المسيء الحجّة، فلا يبقى له أي اعتراض حينما يعذّب وينتقم منه.

الوجه الثّاني: هو أنّ لعلم الله تعالى بالشّيء تعلّقين: الأوّل: تعلّق معنوي وهو علم الله تعالى في الأزل بما سيكون، ويحدث من الأزل إلى الأبد، فهذا التّعلق ثابت لله تعالى وأزلي وقديم، ويسمّى علماً أزليّاً ومعنويّاً. والثّاني: تعلّقه بالشّيء حين وجوده وموافقاً لعلمه السّابق، وهذا حادث لا يوجد إلّا بعد وجود ذلك الشّيء وتعلق العلم الأزلي به. فتعلقّ الثّاني هو تعلّق العلم الأزليّ بشيء حين وجوده كما كان في الأزل يسمّى علماً تنجيزيّاً. فمثلاً إنّ الله تعالى قد علم أنّه سيولد لعبد الله بن عبد المطلب ولد ويسمونّه محمّداً، وأنّه سيختاره نبيّاً ورسولاً، فعلمه المعنوي هذا كان موجوداً في الأزل، ولكنّ علمه التّنجيزي والوقوعي والمتعلّق بهذا الأمر، لم يوجد إلّا بعد الولادة وتسميته محمّداً واجتبائه رسولاً، فحينئذٍ أصبح علمه الأزلي علماً وجودياً متعلّقاً بما وقع كما هو في الأزل. وبهذا المعنى قال (ﷺ): (كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين)[1] أي

---

(١) جاء في المرقاة: وعن أبي هريرة رضي الله عنه قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة أي ثبتت قال وآدم أي وجبت لي النبوة والحال أن آدم بين الروح والجسد يعني وأنه مطروح على الأرض صورة بلا روح والمعنى أنه قبل تعلق روحه بجسده قال الطيبي هو جواب لقولهم متى وجبت أي وجبت في هذه الحالة، فعامل الحال وصاحبها محذوفان، رواه الترمذي ورواه ابن سعد وأبو نعيم في الحلية عن ميسرة الفخر وابن سعد عن ابن أبي الجدعاء والطبراني في الكبير عن ابن عباس بلفظ كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد كذا في الجامع، وقال ابن ربيع أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه وصححه الحاكم وروى أبو

كنت نبياً في علم الله الأزلي وبالوجود المعنويّ لا في الوجود الواقعي والعلم الوجوديّ. فمعنى الآية: يتعلّق علم الله الأزليّ بالّذي يحسن العمل تعلّقاً وجوديّاً وواقعيّاً، كما تعلّق به تعلّقاً معنويّاً قبل.

الوجه الثّالث: لا نسلّم أنّ الاختبار إنّما يكون لمن جهل بحال الّذي يختبره، بل ربّما يختبره من يعلم حاله لإظهار حاله كما علم. فمثلاً رجل له ولدان، أحدهما بارّ ومطيع والآخر عاقّ وعاص، فلربّما يلومه النّاس على عدم الشّفقة عليه، فيأمره أمام النّاس بشيء وهو يعلم أنّه لا يمتثل، وإنّما يفعل ذلك ليظهر عقوقه فلا يبقى لهم حجّة في لومهم إيّاه. وقد عبّر الله تعالى عن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ سورة طه الآية/ ١٣٤. أي ولو أنّا أهلكنا أهل مكّة قبل بعثة محمّد لقالوا: ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبعه من قبل أن نذلّ ونخزى، فلذلك إختبرناهم وأرسلنا إليهم محمّداً لئلّا يبقى لهم حجّة، ولئلا يقولوا: أهلكنا دون أن نبلّغ ويرسل إلينا، ولو أرسل إلينا لآمنّا وسلّمنا من العذاب.

* * *

(وهو العزيز) أي الغالب على أمره والمنفّذ لحكمه، فلا يمنعه أي مانع من أن ينتقم من المسيء لعمله. **(الغفور)** كثير المغفرة لمن أحسن عمله ولمن تاب من إساءته إذا تاب دون إستثناء ولبعضهم بدون توبة إن شاء وبشرط أن يكون مؤمناً. فهذه الآية وعيد للّذين أساؤوا العمل بالعذاب، ووعد لمن أحسن العمل بالثّواب. وقدّم الوعيد على الوعد لأنّ الخوف أدعى إلى العمل والإطاعة.

وبعد أن ذكر الله تعالى ما يدلّ على عظمته وكمال قدرته من عالم السّفل وبما هو

نعيم في الدلائل وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعا كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث وأما ما يدور على الألسنة بلفظ كنت نبيا وآدم بين الماء والطين، فقال السخاوي لم أقف عليه بهذا اللفظ فضلا عن زيادة وكنت نبيا ولا ماء ولا طين وقال الحافظ ابن حجر في بعض أجوبته إن الزيادة ضعيفة وما قبلها قوي وقال الزركشي لا أصل له بهذا اللفظ ولكن في الترمذي متى كنت نبيا قال وآدم بين الروح والجسد قال السيوطي وزاد العوام ولا آدم ولا ماء ولا طين ولا أصل له أيضا / مرقاة المفاتيح ١٠/ ٤٣٩ الحديث رقم ٥٧٥٨.

أقرب إلى الإنسان، أراد أن يستدلّ على ذلك بعالم العلوّ أيضاً فبدأ بما هو أعلى فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾﴾

أي ومن دلائل عظمة الله وكمال قدرته أنه **(خلق سبع سماوات طباقاً.....الخ)**، وتكلّم المفسّرون عن السّماوات السّبع وذهبوا مذاهب مختلفة في تفسيرها. فمنهم من يقول: إنّ المراد بها السّيارات السّبع وهي: الزّحل والمشتري والمرّيخ والشّمس والزّهرة وعطارد والقمر، لكنّ هذا القول خطأ لوجهين:

الأوّل: إنّ السّيارات ليست سبعاً فقط بل اكتشفت سيارات أخرى غير هذه السّبع وربّما يكتشف أكثر من ذلك.

الثّاني: إنّ الشّمس والقمر والنّجوم عطفت على السّماوات، أو ذكرت مقابل لها في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ٥٣. وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا....الخ﴾ سورة الشمس الآيات/ ١-٦، والآيات الّتي ذكر فيها الشّمس والقمر والنّجوم معطوفة على السّماوات أو مقابلة لها كثيرة، ولا يخفى أنّ ذكر شيء معطوفاً على شيء أو مقابلاً له يدلّ على أنّه غيره. فالسّماوات غير النّجوم وغير الشّمس والقمر والسّيارات. ومنهم من يقول: المراد بالسّماوات السّبع المجموعات الشّمسيّة، وهذا القول أيضاً خطأ، لأنّ المجموعات الشّمسيّة إلى الآن لم يعلم عددها أنّها سبع أو أكثر أو أقل، كما ولم يكن هذا الإصطلاح موجوداً وقت نزول القرآن ليستدلّ بها على عظمة الله تعالى. والاستدلال يجب أن يكون بما هو معلوم عند النّاس. هذا، فللوصول إلى معرفة ما هو المراد بالسّماوات السّبع يجب أن ننظر إلى جميع الآيات الّتي ورد فيها ذكر السّماوات السّبع فنقول: إنّ السّماوات السّبع وردت في تسع آيات في القرآن الكريم وهي:

١. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ

فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٩.

٢. قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ سورة الإسراء الآية/ ٤٤.

٣. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ سورة المؤمنون الآية/ ١٧. ولا توجد في هذه الآيات ما يعيّن أو يشخص السّماوات السّبع، بل إنّ كلّ ما يستفاد منها أنّ الله تعالى خلق فوق الأرض سبع سماوات.

٤. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ سورة المؤمنون الآية ٨٦، ٨٧، والّتي يستفاد من هاتين الآيتين أمور:

الأوّل: أنّه يوجد العرش أيضاً.

ثانياً: إنّ العرش غير السّماوات، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وانشقّت السّماء فهي يومئذٍ واهية (١٦) والملك على أرجائها ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ سورة الحاقة الآيتان ١٦، ١٧.

الثّالث: كان النّاس حين نزول القرآن يؤمنون بوجود السّماوات السّبع وبوجود العرش وهذا واضح من منطوق الآيتين:

٥. قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة فصلت الآية/ ١٢. ولا يستفاد من هذه الآية أيضاً تشخيص السّماوات السّبع وتعيّنها.

٦. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ سورة الطلاق الآية ١٢. وهذه الآية أيضاً لا تفيد تشخيص السّماوات السّبع كما لا يخفى.

٧. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)﴾ سورة نوح الآية/ ١٥، ١٦. ليس في هذه الآية أيضاً ما يعيّن السّموات السّبع ولكن يستفاد منها أنّ الشّمس والقمر ليسا من السّماوات السّبع بل هما غيرهما كما سبق وإن ذكرنا أنّ السّماوات السّبع غير السّيارات السّبع.

٨. قال تعالى ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ سورة النبأ الآية/ ١٤. ولا توجد أيضاً في هذه الآية ما يشخّص السّماوات السّبع.

فالآيات الّتي ذكرناها لا تفيد ولا تدلّ على تشخيص السّماوات السّبع، إلّا أنّه استفدنا منها أموراً مهمّة جدّاً وهي:

١. إنّ السّماوات السّبع ليست عبارة عن السّيارات السّبع، وذلك بحكم الآية/ ١٢ من سورة نوح.

٢. إنّ السّماوات السّبع غير العرش بحكم الآيتين/ ٨٦،٨٧، من سورة المؤمنون وبحكم الآية/ ١٧ من سورة الحاقّة.

٣. إذا ضممنا هذه الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٥، علمنا أنّه يوجد الكرسيّ فوق السّماوات السّبع وأنّه أكبر من السّماوات والأرض كلّها. فحاصل من هذا أنّه يوجد العرش والكرسيّ والسّماوات السّبع كلّ ذلك فوق الأرض.

٤. إستفدنا أنّ هذه السّماوات السّبع والعرش والكرسيّ كلّها غير النّجوم والكواكب والشّمس والقمر والسّيارات، وذلك بحكم الآية/ ٥٣، من سورة الأعراف.

فبقي أن نعرف أنّ السّماوات السّبع والعرش والكرسيّ هل هي محيطة بالكون؟ بمعنى أنّ العرش محيط بالكرسي والكرسي محيط بالسّماء السّابعة، والسّابعة بالسّادسة والسّادسة بالخامسة والخامسة بالرّابعة والرّابعة بالثّالثة والثّالثة بالثّانية والثّانية بالأولى والأولى يحيط بما تحتها من النّجوم والكواكب والأرض وهي الّتي تسمّى بالسّماء الدّنيا أو لا؟ فنقول: إنّ هناك إحتمالين يفهمان من قوله تعالى: (سبع سماوات طباقاً):

ألإحتمال الأوّل: إنّ معنى طباقاً وقع بعضها فوق بعض دون أن يحيط البعض بالبعض. وذلك كما أنّ زحل فوق المشتري والمشتري فوق المريخ في الفضاء، وهكذا فالسّماوات بعضها فوق بعض دون أن يحيط بعضها ببعض كالسّيارات.

ألإحتمال الثّاني: أن يكون معنى طباقاً مطبقاً، أي محيطاً بعضها ببعض. قال في الجمل على تفسير هذه الآية روى عن ابن عبّاس (طباقاً) أي بعضها فوق بعض. قال البقاعي: في شرح قول ابن عبّاس: بحيث يكون كلّ جزء منها مطابقاً للجزء من الأخرى، ولا يكون جزء منها خارجاً عنها، وهي لا تكون كذلك إلّا أن تكون الأرض

كرويّاً وسماء الدّنيا محيط بها إحاطة قشر البيضة بها من جميع الجوانب، والسّماء الثّانية محيطة بالسّماء الدّنيا ... وهكذا إلى أن يكون الكرسي محيطاً بالكلّ والعرش محيطاً بالكرسيّ. انتهى ما في الجمل.

فهذان إحتمالان وبكلّ قال طائفة من العلماء، والّذي يختار ويرجّح من هذين القولين هو القول الثّاني والّذي ذكره البقاعيّ وذلك لما يلي:

١. إن قوله تعالى: ﴿وسع كرسيّه السّماوات والأرض...الخ﴾ يدلّ على أنّ الكرسيّ محيط بالسّماوات والأرض، لانّ السّعة تفيد الإحاطة كما لا يخفى.

٢. قال تعالى: ﴿وفتحت السّماء فكانت أبواباً﴾ سورة النبأ الآية/ ١٩. فإنّه لو لم تكن السّماوات محيطة بل مثل كوكبة واقفة في الفضاء لكانت مفتوحةً دائماً، ولا وجه لتخصيص الفتح بيوم القيامة، وذلك كسائر الكواكب فإنّ كلّها مفتوحة حيث يوجد في جوانبها فراغ يمكن الصّعود منه، وعلمه بأسباب تمكّن الإنسان من ذلك كما وقع ذلك وصعد النّاس إلى سطح القمر.

٣. ذكر في حديث المعراج أنّ جبريل (ﷺ) كان يصحب الرّسول (ﷺ) يستفتح فتقول الملائكة: من أنت؟ فيقول: جبريل، فتقول الملائكة: ومن معك؟ فيقول: محمّد، فيقولون: أو قد بعث؟ فيقول: نعم، فيقولون: مرحباً به وأهلاً، فيفتحون له السّماء. فقول الملائكة لجبريل بعد أن قال أنا جبريل: (ومن معك)؟ دلّ على أنّ الملائكة عرفوا من استفتاح جبريل أنّ معه جسماً كثيفاً، لأنّ جبريل لو كان وحده لما احتاج إلى الاستفتاح، لأنّه ينفّذ في السّماوات كلّها. وإنّما تدعو الحاجة إلى الاستفتاح إذا كانت السّماء محيطة، لأنّها لو كانت كرةً واقفةً في الفضاء كمثل الكواكب، لاستطاع جبريل أن يصعد بالرّسول من جانب من جوانبها دون الحاجة إلى الاستفتاح كما ترسل الكواكب الفضائية اليوم إلى فوق الكواكب وفي جانب من جوانبها.

٤. قال تعالى: ﴿يوم نطوي السّماء كطيّ السّجل للكتب﴾ سورة الأنبياء الآية/ ١٠٤. والطّيّ إنّما يليق بالشّيء الممتدّ والمفروش لا بالشّيء الكروي والمدعبل.

* * *

فتبين من هذا التّحقيق أنّ معنى الآية الكريمة هو: أنّ الله تعالى **(خلق سبع سماوات طباقاً)** أي محيطاً بعضها ببعض فكلّ فوقانيّة تحيط بما تحتها.. وهكذا إلى

السّماء الدّنيا وهي محيطة بما تحتها من النّجوم والكواكب والأرض. هذا واستدلّ الله تعالى بخلق هذه السّماوات على عظمة ذاته وكمال قدرته، لأنّ المخاطبين حين نزول القرآن كانوا يؤمنون بوجود هذه السّماوات السّبع لوجود بقايا من الأديان السّابقة، ولما كان يخبر بذلك بعض أهل النّجوم. فاستدلّ بما هو مسلم عندهم بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٨٧)﴾ سورة المؤمنون الآية/ ٨٦، ٨٧. ولأنّ كلّ إنسان يعلم بفطرته أنّ هذه السّماوات لا يخلقها إلّا عالم قدير وهو الله. هذا ما وصل إليه فكري الفاتر وحسب فهمي من الآيات الكريمة والحديث الشّريف.

وإنّ العلم لم يصل إلى كشف وتحقيق هذه المسألة. فإنّ الإكتشافات الفلكيّة لم تصل إلّا إلى جزء من بلايين بلايين ممّا يوجد في الجوّ أو الفضاء، وقياس السّماوات على الكواكب الّتي اكتشفت في أنّها وجدت أجراماً وكرات واقفة في الفضاء دون إحاطة بعضها ببعض، قياس لا دليل عليه لا من العقل ولا من النّقل، بل النّقل يخالفه في الظّاهر.

(ما ترى في خلق الرّحمن من تفاوتٍ فارجع البصر هل ترى من فطور) إعلم أنّ كلّ بناء مهما كان بناؤه متقناً حينما ينظر إليه أهل الفنّ والماهرون في البناء يجدون فيه نواقص وخللاً وعيوباً ويقولون: لو كان هذا كذلك لكان أحسن، ولو كان ذاك كذا لكان أجمل، ولو كان ذلك هكذا لكان أمتن.. أو.. أو.. ولكن بناء الله تعالى للسّماوات والأرض ولكلّ شيء لا يستطيع أحد أن يجد فيه خللاً أو عيباً أو نقصاً. بل كلّ من نظر إليه وفكر فيه اندهش عقله وتحيّر فكره وقال: ليس في الإمكان أبدع ممّا كان، لذا قال تعالى: **(ما ترى في خلق الرّحمن من تفاوتٍ فارجع البصر هل ترى من فطور)** الخطاب في **(ما ترى)** لكلّ من يوجد له الرّؤية، فالمعنى ما ترى أيّها النّاظر من كنت ومهما كنت في الفنّ والهندسة والبناء **(في خلق الرّحمن)** للسّماوات السّبع ولكلّ ما خلق من السّماوات والأرض وما بينهما من النّجوم والكواكب والحيوان والنّبات والمعادن **(من تفاوتٍ)** من نقصٍ أو خللٍ أو عيب **(فارجع البصر)** أي فأعد النّظر والفكر **(هل ترى من فطور)**؟ أي من نقصٍ، والاستفهام للإنكار وإنكار المثبت نفي. فالمعنى لا ترى أي فطور وخللٍ وعيبٍ ونقصٍ.

* * *

ثمّ أكّد الله تعالى هذا التّحدّي فقال جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾

(ثمّ ارجع البصر) أي أعد النّظر والفكر في خلق الرّحمن **(كرّتين)** أي مرّة بعد مرّة إلى أن لا يتناهى، فإذا فعلت ذلك **(ينقلب إليك البصر)** أي يرجع إليك نظرك وتفكّرك **(خاسئاً)** أي غير واصل لنيل ما قصد من خللٍ أو عيبٍ **(وهو حسير)** أي كليل وتعب من كثرة التّردّد وعدم حصول المرام. قال الشّيخ عبد القادر المغربي بعد تفسير هذه الآية: «وقد أيّدت التّجارب من العلماء والباحثين في المادّة ونواميسها، والكائنات وسننها مضمون هذه الآية، فإنّهم قرّروا بعد النّظر الدّقيق أنّ العالم جميعه من أصغر ذرّة في فضائه إلى أكبر جرمٍ في سمائهم خاضع لناموس واحد، ومتماسك بنظام عامّ شامل، لا يمكن حصول خللٍ فيه ولا طروء شذوذ عليه، إلّا أن يشاء الله تعالى».

ثمّ إنّ الله تعالى بعد أن ذكر البرهان من السّفل والعلوّ على كمال قدرته وعظمة ذاته أراد أن يبرهن على ذلك بما في المتوّسط بين السّفل والعلوّ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾

(ولقد زيّنا السّماء الدّنيا بمصابيح) المعنى ولقد خلقنا كواكب مضيئة كالمصابيح والسّرج، فزينا السّماء الدّنيا أي السّماء الأقرب إليكم أيّها النّاس بها، وهي السّماء الأولى لمن يصعد إلى السّماء، وإن تزيّن السّماء الأولى بهذه النّجوم يكون بثلاثة أنواع:

الأوّل: أن تكون هذه النّجوم مركوزة في ثخن السّماء.

الثّاني: أن توضع النّجوم أمامها وفي واجهتها.

الثّالث: أن يكون البعض مركوزاً فيها وبعضها أمامها.

وليس في القرآن الكريم دلالة على تعيّن احتمال من هذه الاحتمالات، فالكلّ محتمل، ولا يقين على واحد منها. وقال فلاسفة اليونان القدماء كأرسطو وأفلاطون وتلامذتهم أنّ النّجوم الثّوابت أي غير السّيارات كلّها مركوزة في ثخن الفلك الثّامن، وهو المسمّى بالكرسي في لسان أهل الشّرع، ولذلك يسمّون هذه السّماء بفلك الثّوابت،

إلّا أنّ هذه الآية لا تصدّقهم. فإنّه لو كان الأمر كما قالوا لقال تعالى: ﴿ولقد زيّنا السّماء البعدى...﴾ ولقد أبطل العلم الحديث والإكتشافات الحديثة أكثر نظريّاتهم، فلم تبق قيمة لنظريّاتهم بعد ذلك للاحتجاج بها. **(وجعلناها رجوماً للشّياطين)** الرّجوم جمع رجم، والرّجم بمعنى الرّمي. فالمعنى: جعلنا هذه النّجوم محلاً لرمي الشّياطين الّذين يريدون الصّعود إلى السّماء لإستراق الأخبار، فيرمون بشرارات من النّار تنفصل من تلك النّجوم. فتحرقه قبل أن يصل إلى محلّ إخبار الله تعالى، وقال بعض المفسّرين: الرّجم بمعنى الظّن. فالمعنى وجعلنا تلك النّجوم محلّا لظنّ الشّياطين وهم المنجّمون، فإنّهم يستدلّون بحركات النّجوم على حوادث في المستقبل. وهذا المعنى باطل لوجهين:

الوجه الأول: إنّه ليس كلّ منجّم شيطاناً أي كافراً، بل إنّما الكافر من يعتقد بأنّ النّجم هو المؤثّر والموجد لما يقع في المستقبل. ولكنّ المنجّم المسلم الّذي يعتقد بأنّ الله تعالى يخلق بإرادته هذه الحادثة عند وصول هذا النّجم إلى نجم آخر أو مكان معيّن أو غير ذلك فليس بكافر، بل هو مسلم ومشتغل بعلم شريف هو فرض كفاية تعلّمه على المسلمين. قال الإمام الرّازي (رحمه الله) في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فنظر نظرة في النّجوم﴾ سورة الصافات الآية/ ٨٨. وها هنا ينشأ سؤالان: الأوّل: إنّ النّظر في النّجوم حرام فكيف أقدم سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) على ذلك، فقال بعدما نظر في النّجوم: إنّي سقيم؟ ونجيب على هذا السّؤال بستّة أجوبة، وفي أحد الأجوبة نقول: لا نسلّم أنّ النّظر في النّجوم حرام؛ لأنّ من اعتقد أنّ الله تعالى خصّ كلّ واحد من هذه النّجوم بقوّة خاصّة وبخاصيّة معيّنة، ولأجلها يظهر الله تعالى أثراً مخصوصاً. فهذا العلم على هذا الوجه ليس بحرام ولا باطل اه. ـ كلام الإمام الرّازي (رحمه الله). فالحرمة إذن إنّما تأتي من الإعتقاد أنّ النّجم موجد ومؤثّر أو مجبر لله تعالى على إحداث الحادثة، تعالى الله عن ذلك، وليس الحرمة من نفس العلم.

الوجه الثّاني: أنّه وردت آيات أخرى تفسّر هذه الآية مثل ما فسرنا أو تؤيّد تفسيرنا هذا، والآيات هي:

١. قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ سورة الصافات الآيات/ ٦ ـ ١٠.

٢. قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة السجدة الآية/ ١٢.

٣. قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩)﴾ سورة الجن الآيتان/ ٨،٩.

ودلّ على ذلك الحديث الشّريف أيضاً حيث قال الإمام الرّازي: روى الزهري عن عليّ بن أبي طالب عن ابن عبّاس قال: (بينا النّبيّ (ﷺ) جالس في نفر من أصحابه، إذ رمي بنجم فاستنار، فقال (ﷺ): ما كنتم تقولون في الجاهليّة إذا حدث هذا؟ قالوا: كنّا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم. قال (ﷺ): (فإنّها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته، ولكنّ ربّنا تعالى إذا قضى الأمر في السّماء سبّحت حملة العرش ثمّ سبّح أهل السّماء وسبّح أهل كلّ سماء حتّى ينتهي التّسبيح إلى هذه السّماء، ويستخبر أهل السّماء حملة العرش: ماذا قال ربّكم؟ فيخبرونهم ولا يزال ذلك الخبر من سماء إلى سماء إلى أن ينتهي الخبر إلى هذه السّماء، ويتخطّف الجنّ فيرمون، فما جاؤوا به فهو حقّ ولكنّهم يزيدون فيه) أي فبتلك الزّيادة يقع الكذب في خبرهم. ولعلّ هذا الحديث ورد قبل منع الجنّ كليّاً من التّخطّف.

تنبيهات: الأوّل: إنّ كلّ النّجوم هو سبب لتزيّن السّماء الدّنيا، سواء كانت مركوزة فيها أو موضوع بينها وبين الأرض، قريبةً منها أو بعيدةً، بأنّ كلّ ما يوجد أمام الشّيء من أسباب الزّينة يكون سبباً لزينته.

الثّاني: إنّه ليس كلّ النّجوم محلاً لرجم الشّياطين. بل إنّما يكون كذلك ما يكون قريباً جدّاً من السّماء الدّنيا. فقوله تعالى: **(وجعلناها رجوما للشّياطين)** كما يقال: قتل بنو فلان فلاناً وما قتله إلّا بعضهم، وهذا كلام صحيح وبليغ.

الثّالث: إنّ النّجم ليس نفسه يرجم به الشّيطان حتّى يقال: فيلزم أن يزول النّجم بعد الرّمي فتقلّ النّجوم وليس كذلك، بل الرّجم يكون بانفصال شرّارة من النّجم فتصيب الجنّ فتحرقه كما تنفصل من النّار شرّارة فتحرق شيئاً، ولا يلزم من ذلك زوال النّار ولا إنقضاؤها، وسيأتي هذا البحث في سورة الجنّ إنشاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

(وأعتدنا لهم عذاب السّعير) بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الشّياطين يرمون بالشّهب حينما يريدون الصّعود إلى السّماء فيحترقون، ذكر أنّهم لا يسلمون بهذا الإحتراق من

عذاب الله تعالى. بل يعذّبون يوم القيامة أيضاً بالنّار فقال: **(واعتدنا)** أي هيّأنا **(لهم)** أي لهؤلاء الشّياطين **(عذاب السّعير)** والسّعير فعيل بمعنى مفعول، اسم لجهنّم لأنّها نار مسعورة، ولم يؤنّث لأنّ الفعيل بمعنى المفعول يكون للمذكّر والمؤنث سواء بدون تاء كما قرّر في علم النّحو والصّرف.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه هيّأ للشّياطين عذاب السّعير، أشار إلى أنّ هذا العذاب عامّ لكلّ كافر، وليس خاصّاً بالشّياطين فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾

(وللّذين كفروا بربّهم) الواو إمّا للعطف على لهم في قوله: **(وأعتدنا لهم)** فالمعنى: وأعتدنا للّذين كفروا بربّهم **(عذاب جهنّم)** فيقرأ لفظ عذاب بالنّصب على أنّه مفعول لإعتدنا، وهذه قراءة واردة. أو يكون الواو لابتداء فيكون جملة **(للّذين كفروا)** جملة مستقلّة فيقرأ لفظ **(عذاب)** مرفوعاً ويكون مبتدأ، وقوله: **(للّذين كفروا)** خبراً له مقدّماً عليه فيكون التّقدير: وعذاب جهنّم حاصل وثابت للّذين كفروا بربّهم، وإنّما قدّم الخبر للإهتمام لا للحصر، لأنّ العذاب ليس محصوراً وخاصّاً بالكافرين بالله، بل هو ثبت للكافرين بالرّسل والكافرين بما ثبت من الدّين بالضّرورة، وللفاسقين من المؤمنين أيضاً. فالتّقديم للإهتمام فقط لا للحصر. ومعنى الإهتمام أنّه لمّا ذكر أنّ عذاب السّعير مهيّأ للشّياطين، والشّياطين هم أشنع أصناف الكفرة، انتظر السّامع أن يعرف ما أعدّ للكافرين غير الشّياطين، فكأنّه قال: فما للكافرين غيرهم؟ فقال: وللّذين كفروا ... إلخ. هذا على قراءة الرّفع للفظ **(عذاب)** وهذه القراءة قراءة حفص، **(وبئس المصير)** كلمة بئس فعل من أفعال الذّم، والمصير فاعله، والمخصوص بالذّم محذوف، تقديره (هي) راجع إلى جهنّم، فلفظ هي مبتدأ والجملة بئس المصير خبره، تقديره (هي) أي جهنّم **(بئس المصير)** أي مصير ومرجع سيّئ جدّاً لمن دخلها.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ جهنّم مرجع سيّئ، أراد أن يفصل في بيان مساءتها فقال جلّ وعلا:

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾

(إذا ألقوا) إذا طرح الكفّار **(فيها)** في جهنّم **(سمعوا لها)** لجهنّم **(شهيقاً)** صوتاً

شديداً ومنكراً كصوت الحمير **(وهي)** جهنّم **(تفور)** تغلى كغليان القدر، وذلك كناية عن شدّة حرارتها، وإنّها بلغت النّهاية في الحرّ.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾

(تكاد تميّز) أصله تتميز، حذفت أحد التّاءين أي تكاد تتمزّق **(من الغيظ)** أي من الغضب على من ألقي فيها، شبّهت حال جهنّم في بلع من ألقي فيها بحال الإنسان الّذي يغضب فتنتفخ أوداجه، ويكاد أن يتمزّق حلقه وأعصابه من الغضب **(كلّما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها)** جمع خازن، والمراد بهم الملائكة الموكّلون بجهنّم وبإلقاء أهلها فيها **(ألم يأتكم نذير)** أي ألم يأتكم رسول من الله تعالى ينذركم ويخوّفكم من هذا المكان والدّخول فيه، بسبب المعاصي وارتكاب ما حرّم الله والحكم بغير ما أنزل الله تعالى، ألم يأتكم هذا النّذير فتمتثلوا أمره فتصونوا أنفسكم من هذا المصير السيّئ؟. وهذا الاستفهام للإنكار والتّقريع، وإنكار النّفي إثبات. فالمعنى: قد جاءكم نذير فلم لم تمتثلوه وخضتم فيما أفضاكم إلى هذا الحال المهين. هذا وحملنا الاستفهام على هذا المعنى لأنّ هذا الخطاب إنّما هو لمن جاءهم الرّسل فلم يؤمنوا، فإنّ من لم تأتهم الرّسل لا يكلّف ولا يعذّب. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥. وبعدما استفهموا هذا الاستفهام التّقريعي، أجابوا واعترفوا.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾

(قالوا) تندّماً وتحسّراً وتجهيلاً لأنفسهم **(بلى قد جاءنا نذير فكذّبنا)** أي فكذّبناهم **(وقلنا ما نزّل الله من شيء)** إليكم وأنّكم تفترون على الله تعالى في دعوى الرّسالة **(إن أنتم إلّا في ضلال كبير)** أي إن أنتم أيّها المدّعون الرّسالة إلّا في (ضلال) أي خطأ (كبير) في هذه الدّعوة.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

(وقالوا) أي قال الّذين دخلوا جهنّم تندّماً وتحسّراً **(لو كنّا نسمع)** أي لو كنّا

نستجيب الرّسول دون توقّف وتفكّر ونؤمن به **(أو نعقل)** أي لو كنّا نتفكّر ونتعقل فنؤمن به بعد ظهور الدّليل والبرهان على رسالته **(ما كنّا)** ما أصبحنا **(في أصحاب السّعير)** أي من أهل جهنّم.

فائدتان:

الأولى: إنّ هذه الآية تدلّ على أنّ إيمان المقلّد مقبول ومنج من العذاب كإيمان المستدلّ، فإنّه رتّب فيها عدم دخول جهنّم على السّمع والطّاعة والإيمان دون دليل، وعلى الاستجابة والإيمان بعد التّفكير والتّعقل والاستدلال.

الثّانية: تدلّ هذه الآية على أنّ الإيمان بالله فقط ليس سبباً للنّجاة من العذاب، بل يجب أن ينضمّ إلى ذلك الإيمان برسول الوقت، فإنّ هؤلاء كانوا مؤمنين بالله بدليل أنّهم قالوا: (ما نزّل الله من شيء) وإنّما دخلوا جهنّم لأنّهم لم يؤمنوا برسوله. وليت شعري ما فائدة الإيمان بالله سوى تطبيق شريعته وامتثال حكمه، ليعيش النّاس في ظلال عدله وسعداء بتطبيق دينه وأحكامه، ولا يمكن ذلك إلّا بالإيمان بالرّسول. فالإيمان بالرّسول وتطبيق شريعته هو المنجّي لا الإيمان بالله فقط.

* * *

(فاعترفوا بذنبهم) أي فأقرّ أهل النّار بذنبهم من الكفر والفسق، فلم تبق لهم حجّة، وآمنوا باستحقاقهم لهذا العذاب **(فسحقاً)** أي فبعداً لرحمة الله تعالى **(لأصحاب السّعير)** أي لأهل جهنّم، فلا يرحم بهم الله تعالى، فلا يخرجون منها حتّى يتطهّروا من الذّنوب إن كانوا مؤمنين فاسقين، وإلى الأبد إن كانوا كافرين، ولا يفيدهم اعترافهم هذا شيئاً، لأنّ التّوبة والإيمان لا يقبلان حال اليأس أي قبيل الموت وبعده.

ثمّ بعدما ذكر الله تعالى حال الكافرين وعذابهم أراد أن يذكر حال المؤمنين وثوابه، كما هو عادته في القرآن، فإنّه يأتي بالوعد بعد الوعيد أو بالعكس، وبحال المؤمنين بعد الكافرين أو بالعكس فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾

(إنّ الّذين يخشون ربّهم) أي الّذين يخافون ربّهم وعذابه فيمتنعون عن ارتكاب المعاصي ويمتثلون أوامر الله تعالى وهم **(بالغيب)** أي غائبون عن النّاس لا يخافون

رقابة أحد غير الله تعالى، ولا يخافون أن يطّلع على جريمتهم أحد أو أن تظهر عند النّاس فهؤلاء **(لهم مغفرة)** من الله تعالى **(وأجر كبير)** أي ثواب عظيم وكثير يوم القيامة.

حكايتان: ولإيضاح الخشية من الله تعالى بالغيب نذكر هنا حكايتين قصيرتين:

الأولى: إنّه ذهب رجلان إلى مكان لسرقة شيء، فلمّا وصل المكان المعيّن ليأخذوا ذلك الشّيء قال أحدهما لصاحبه: قف هنا وراقب، فلمّا أدركت أنّ أحداً يرانا فأشّر إليّ. فلمّا دنا الرّجل من الشّيء وأراد أن يأخذه، أشار إليه صاحبه أنّ واحداً يرانا، فرجع اليه، ولمّا نظر إلى اليمين والشّمال والخلف والإمام ولم ير أحداً قال: فمن الّذي يرانا؟ قال صاحبه: يرانا الله سبحانه وتعالى وهو بكلّ شيء عليم، فتاب الرّجل ورجعا عن عملهما.

الثّانية: كان أحد العلماء يربّي تلاميذه ويدرّبهم على التّقوى والطّاعة وعبادة الله تعالى. فكان يسلّكهم سبيل المعرفة بالله. فأراد يوماً أن يمتحن تلامذته، فأعطى كلّ واحد منهم دجاجة وسكّينة وقال له: إذبح حيث لايراك أحد. فانزوى كلّ طالب إلى زاوية وذبح دجاجته، إلّا أنّ واحداً منهم رجع وبيده الدّجاجة ولم يذبحها، فقال الأستاذ: لم لم تذبحها؟ قال: أمرتنا أن نذبح حيث لا يرانا أحد، فأينما ذهبت علمت أنّ الله تعالى يراني فرجعت. فقبل الأستاذ بين عينيه وقال: هكذا يجب أن يكون الإيمان بالله والشّعور برقابته تعالى.

فيا أخي: هذه هي الخشية من الله تعالى، فما أجدر بنا أن نكون كذلك ونحن مؤمنون ومسلمون ...!

* * *

ثمّ بعد أنّ مدح الله تعالى الّذين يخشون ربّهم بالغيب أشار إلى أنّه يجب على العبد أن يخاف من الله تعالى، ولا يرتكب المعصية لا في السّر ولا في العلن، لأنّ علم الله تعالى بالنّسبة إليهما سواء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء وإن كان في غاية الخفاء فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾

(وأسرّوا قولكم) أي قولوا واعملوا سرّاً وخفية **(أو إجهروا به)** أو اظهروا واعلنوا قولكم وأعمالكم. فكلّ ذلك بالنّسبة إلى علم الله تعالى سواء حيث **(إنّه عليم بذات الصّدور)** ذات الشّيء ما يلازمه وما فيه. فالمعنى أنّ الله عليم بما في الصّدور أي القلوب من الخواطر والنّيّات، والخواطر والنّيّات من أخفى ما يكون من الأشياء، فإذا علم الله تعالى بها فكيف بأقوالكم وأعمالكم وهي أظهر منها. ولم يذكر الأعمال في الآية لان القول أخفى منه فاكتفى به منه.

ثمّ استدلّ الله تعالى على أنّه عليم بكلّ شيء وفي السّر والعلن فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

(ألا يعلم من خلق) في هذه الفقرة إعرابان لأنّ لفظ **(من)** إمّا فاعل ليعلم فالمفعول محذوف تقديره **(ألا يعلم من خلق)** مخلوقه، وكلّ شيءٍ مخلوقه من قول وعمل، لأنّ الخلق لا يمكن بدون العلم بما يخلق. أو الفاعل ضمير مستتر في: يعلم راجع إلى الله تعالى، ومن خلق مفعوله، فتقدير ألا يعلم الله تعالى الّذي خلقه كلّه من قول وعمل النّاس وحركاتهم وسكناتهم. والوجه الأول أولى لأنّه عالم بكلّ المخلوقات من ذوي العقول وغيرهم. وفي الثّاني يكون المعلوم خاصّاً بذوي العقول لأنّ لفظ **(من)** مختص بهم غالباً. وهو **(اللّطيف)** أي العالم بالأمور الجليّة والخفيّة كلّها **(الخبير)** المطّلع على الأخبار والأقوال العلنيّة والسّريّة جميعها.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه عالم بالسّر والعلن، وذلك يجب أن يكون موجباً بأن يخشى العباد منه فيهما، فلا يرتكب ما نهى عنه، وليمتثلوا ما أمر به، أراد أن يذكّرهم بنعمه الّتي أنعم بها عليهم ليشكروه بعبادته وعدم الإجتراء على معصيته فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

(هو الّذي جعل) أي خلق **(لكم الأرض ذلولاً)** أي ذليلة تحت أقدامكم، تعملون عليها وتحفرونها وتزرعونها وتبنون عليها وتخرجون منها المعادن **(فامشوا في مناكبها)** أي تمشون في جوانبها من الجبال والآكام والوديان والصّحارى **(وكلوا من رزقه)** أي بهذا المشي والحركة على الأرض من الفواكه والحبوب وغير ذلك من كلّ ما ينتفع به

الإنسان ويستحصله بالكسب والحركة على هذه الأرض الذّليلة، فقوله تعالى: **(فامشوا)** في جوانبها وأرجائها **(وكلوا)** كلاهما في معنى الخبر جيئ بهما بلفظ الأمر ليكون أمراً بالكسب وتحصيل الرّزق به، والحركة على هذه الأرض المملوءة بالمنافع والموارد الّتي كلّها من نعم الله تعالى، أنعم بها على عباده وخلقها لهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ سورة البقرة الآية/ ٣١.

فالسّعي وراء الرّزق الحلال مأمور به وعبادة واجبة يثاب الإنسان عليها يوم القيامة، كما يترفه به في هذه الدّنيا، والقاعد عاصٍ يجب زجره على ذلك، ولذلك نهى سيّدنا عمر (رضي الله عنه) جماعةً مكثوا أيّاماً في المسجد فقال لهم: من أين تأكلون؟ قالوا: نحن متوكّلون، فقال: بل أنتم متأكّلون، إذهبوا واعملوا فإنّ هذه السّماء لا تمطر ذهباً ولا فضّةً، وطردهم من المسجد **(وإليه النّشور)** أي وإلى الله ترجعون فيسألكم ممّ حصّلتم هذا المال وهذا الرّزق وفيم صرفتم؟. فمن كان قد حصّله من الحلال وصرفه في الحلال يثاب عليه، ويكون نعمة له يوم القيامة كما كان نعمةً له في الدّنيا. ومن كان قد حصّله من الحرام أو صرفه في الحرام فينقلّب عليه عذاباً وجحيماً.

ثمّ بعد أن خوّف الله عباده بعذاب الآخرة على المعاصي أراد أن يخوّفهم بعذاب الدّنيا أيضاً، وقال جلّ وعلا:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾

أي أأمنتم أيّها الكفرة والعصاة من أن يعذّبكم **(من في السّماء)** أمره وتقديره بأن يخسف أي يغور **(بكم الأرض فإذا هي)** أي الأرض **(تمور)** أي تتحرّك وتميل بكم إلى جوفها، وتبلعكم كما فعل ذلك بقارون نتيجة عصيانه وطغيانه.

ثمّ لما خوّفهم بعذاب من الأرض أراد أن يخوّفهم بعذاب من السّماء؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾

(أم أمنتم) أي هل أمنتم أن يرسل الله تعالى عليكم حاصباً، أي ما يرمى بالحجارة عليكم من ريح أو سحاب فيهلككم بها، كما فعل ذلك بقوم لوط نتيجة

انحرافهم عن دين الله تعالى. والاستفهام في كلتا الآيتين للتّهديد والتّخويف. فالمعنى لا تأمنوا من عذاب الله الأرضيّ والعلويّ، فإنّما أنتم فيه من الكفر أو المعاصي ممّا يسبب غضب الله تعالى وتسليط عذابه عليكم. ثمّ أكّد الله تعالى التّهديد فقال: **(فستعلمون كيف نذير)** أي بعد مدّة تعلمون كيف عاقبة إنذاري من شدّة العذاب. وقد أصاب المخاطبين حينئذٍ وهم أهل مكّة، ذلك العذاب في حرب بدر وغيرها. وهكذا فكلّ جيل عصى ربّه وانحرف عن دينه فإنّ الله يسلّط عليهم العذاب إن عاجلاً أو آجلاً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٦، وهكذا سنّة الله في العباد، واقرأ التّاريخ لتصدّق بذلك؛ ولذلك يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾

(ولقد كذّب الذين) اللام جواب قسم محذوف تقديره وبعزّتي لقد كذّب الّذين **(من قبلهم)** أي من قبل المخاطبين بالقرآن من الأمم السّابقة **(فكيف كان نكير)** أي فقرؤوا أخبارهم لتعرفوا كيف كان نكيري أي عذابي لهم، وذلك لتعتبروا فتتركوا ما أنتم فيه من الكفر أو العصيان.

ثمّ بعد أن خوّف الله تعالى الكفرة والفاسقين بعذاب من السّماء أو الأرض ذكر ما يدلّ على قدرته على ذلك، فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

(أولم يروا) أي أولم ينظروا ويتفكّروا **(إلى الطّير)** أي إلى جماعات الطّيور الكائنة **(فوقهم)** في السّماء **(صافّات)** باسطات أجنحتهنّ **(ويقبضن)** أي يضممن أجنحتهنّ إلى جنوبهن **(ما يمسكهنّ)** أي ما يوقفهن في هذا الفضاء وسط الهواء **(إلّا الرّحمن)** وهو الله تعالى. ذكر باسم الرّحمن ليعلم أنّ إيقافهنّ وإمساكهنّ صادر من رحمانيّته. فمن استطاع أن يوقف هذه الأجسام الثّقيلة في الهواء الّذي لا يتحمّل أي ثقل بل يرمي به إلى الأرض قادر على أن يعذّب من يشاء بعذاب من السّماء أو الأرض.

تنبيه: قد يقال أنّ الإنسان اقتدر أن يوقف أجساماً أكبر من الطّير في الهواء، كهذه

الطّائرات الّتي يطير بها، والكواكب الفضائية الّتي يحاول أن يكشف بها الأمور، فنقول لهذا القائل ما يلي:

أوّلا: إنّ هذا الإنسان لم يستطع أن يوجد شيئاً من العدم وإنّما يرّكب ويرتب المواد الّتي خلقها الله تعالى وقدّر فيها أنّها إذا ركّبت ورتّبت فإنّها تطير.

ثانياً: إنّ هذا الإنسان المفكر هو من خلق الله تعالى، وإنّ هذا التّفكير الّذي يعمل به هو من خلق الله أيضاً، وإنّ هذا الصّنع إنّما ألهمه الله تعالى. حيث إنّ أفراد الإنسان كلّها متساوية في الحقيقة والذّاتيات، فتخصيص بعض ببعض التّفكيرات دون بعض، وبعض بتفكيرات أخرى ليس من ذاتها بل من أمر خارج منها، وهو إلهام الله تعالى لهم وإدخاله في قلبهم، وتعليمهم وسوقهم إلى ذلك العمل، فيرجع كلّ ذلك الى الله كما قال تعالى: ﴿وإليه ترجع الأمور﴾ سورة الحديد الآية/ ٥.

* * *

ثمّ بعد أن خوّف الله تعالى المشركين بالعذاب السّماوي أو الأرضي، كان في تصوّر المشركين أنّ أصنامهم ينقذونهم من هذا العذاب، فردّ الله تعالى عليهم، فقال جلّ وعلا:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

(أمّن) أينما وجدت هذه الكلمة فأصلها (أم من) أدغم الميم في الميم فصار (أمّن **هذا الّذي**) أي عيّنوا لي (**الّذي هو جند لكم**) فيدافع عنكم و (**ينصركم**) بإنقاذكم من العذاب، فمن هو ذلك (**من دون الرّحمن**) والاستفهام للإنكار، فالمعنى ليس أحد ينصركم من عذاب الله تعالى سواه. وأنّه إذا أنزل العذاب فلا يردّه، فإذاً (**إن الكافرون**) ليس الكافرون في اتّكالهم على غير الله تعالى من الأصنام والأشخاص والأسباب (**إلّا في غرور**) غرّهم الشّيطان بذلك.

وكذلك حينما ينذرون بعذاب القحط والجوع كانوا يتّكلون على غير الله تعالى، ويعتقدون بأنّهم يدفعون أو يرفعون عنهم الجوع والقحط، فردّ الله تعالى على زعمهم هذا، فقال جلّ وعلا:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾

(**أمّن هذا الّذي يرزقكم إن أمسك رزقه**) أي عيّنوا لي من هو الّذي يرزقكم إن أمسك الرّحمن رزقه عنكم، وهو الله، عبّر عنه بالضّمير الرّاجع إلى الرّحمن ليعلم أنّه يرزق النّاس بمجرّد رحمانيّته، لا لحاجته إليهم ولا إلى رزقهم. والاستفهام للإنكار، فالمعنى ليس أحد يستطيع أن يرزقكم غير الله تعالى. فليس للكفار أي حجّة في شركهم وكفرهم (**بل**) إنّما يصرّون على الكفر أو المعاصي لأنّهم (**لجّوا**) أي دخلوا بعمق (**في عتوٍ**) كبرياءٍ تمنعهم اتّباع الرّسول أو الدّاعي إلى الله (**ونفور**) عن هذا الدّين لأنّه يمنعهم عن الشّهوات أو عن ما هم فيه من الرّياسة وأكل أموال النّاس بالباطل، بسبب شركهم وكفرهم أو عقيدة الوسائط والإشراك.

ثمّ أراد الله تعالى أن يضرب للمؤمنين والمشركين مثالاً فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

(**أفمن يمشي مكبّاً**) أي منكوساً (**على وجهه أهدى**) أي أوصل إلى المقصد والمطلب والمنزل (**أمّن يمشي سويّاً**) أي مستقيما قائماً على قدميه وهو (**على صراط مستقيم**) لا عوج فيه ولا انحراف، وللتّقابل يقدّر بعد قوله: (**مكبّاً على وجهه**) جملة وهي: (على صراط معوج ومنحرف) ومعنى الاستفهام الإخبار بأنّ من يمشي سويّاً وعلى صراط مستقيم وهو المسلم أهدى ممّن يمشي مكبّاً على وجهه وهو الكافر والفاسق والمشرك. وليس معنى أهدى هو أكثر هداية، كما هو مقتضى افعل التّفضيل حتّى يلزم أنّ الماشي مكبّاً... إلخ، له الهداية أيضاً إلّا أنّ هدايته أقل، بل أهدى هنا صفة مشبهة بمعنى المهتدي فيكون مقابله ضالّاً. أو أنّه افعل تفضيل جرّد عن معنى الزّيادة مثل: هو أفقه من الجدار، وهذا الاستعمال شائع. فالمعنى: أنّ الأوّل ضالّ لا يصل إلى الحقّ، والثّاني مهتد وواصل إلى الحقّ والدّين القويم.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه مرّة أخرى على دلائل قدرته على العباد وإنعامه عليهم؛ ليخافوه فلا يُكفر ولا يشرك به. وليشكروه فيعبدوه ولا يُنحرف عن دينه ومنهجه، فقال جلّ وعلا أولاً:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي يا أيّها النّبيّ، ويا كلّ داعيةٍ إلى الله تعالى **(قل)** للكافرين **(هو)** أي الله **(الّذي أنشأكم)** أي خلقكم وأوجدكم من العدم **(وجعل)** أي وخلق **(لكم السّمع)** أي لتسمعوا آيات الله القوليّة فتعملوا بها **(والأبصار)** لتنظروا بها إلى الآيات الكونيّة فتعتبروا بها **(والأفئدة)** لتفكّروا بها لتهتدوا إلى معرفة الله والإيمان برسله إلّا أنّكم **(قليلاً ما تشكرون)** أي قليلاً ما تستعملون هذه النّعم فيما يجب استعمالها فيه، حيث ضيّعتم سمعكم فلم تسمعوا به الحقّ وبصركم فلم تبصروا آيات الله للاعتبار، وضيّعتم الأفئدة فلم تفكّروا بها تفكيراً يهديكم إلى الحقّ، وإنّ شكر النّعم هو استعمالها فيما أمر الله أن تستعمل فيه، وفي الأمور المباحة والمشروعة، ولكنّ الكفرة والعصاة أكثر ما يستعملون هذه النّعم وغيرها من النّعم في الأمور الباطلة والّتي حرّمها الله تعالى.

سؤال: لماذا ذكر الله تعالى السّمع في الآية بلفظ المفرد وذكر الأبصار والأفئدة بلفظ الجمع؟

الجواب: إنّ السّمع والبصر والفؤاد كلّ منها اسماء لقوى مفردة لا تعدّد فيها. فالسّمع: اسم لقوّة مودّعة في العصب الآتي من الدّماغ والمفروش على صماخ الأذنين، والبصر: اسم للقوّة المودّعة في العينين، والفؤاد: اسم للقوّة المودّعة في الجسم الصّنوبري الموجود تحت الثّدي الأيسر والمسمى بالقلب. وهذه القوى كلّها مفردة لا تتعدّد إلّا باعتبار المتعلّقات والمدركات، فالسمع ليس له إلّا متعلق واحد وهو الأصوات، فهو مفرد من حيث المعنى والمتعلّق. ولكن البصر يتعلق ويدرك أموراً كثيرة وهي اللّون والشّكل والحجم والحركة والسّكون والجمود والسّيولة والبعد والقرب، والجهات السّت: وهي الشّرق والغرب والجنوب والشّمال والفوق والتّحت، فلذلك ذكر بلفظ الجمع. وكذلك الفؤاد فإنّه عبارة عن العقل، والعقل مدركاته كثيرة فإنّها تنقسم إلى تصوّر وتصديق، وكلّ منها إلى ضروريّ ونظريّ، والتّصديق ينقسم إلى يقين وظنّ ووهم وخيال وسفسطة وغير ذلك، فلذلك ذكر الفؤاد بلفظ الجمع أيضاً لتعدّد مدركاته ومتعلّقاته والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ قال جلّ وعلا ثانياً:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أي قل يا أيّها النّبيّ ويا كلّ داعيةٍ إلى الله **(هو الّذي ذرأكم)** أي أنّ الله هو الّذي نشركم **(في الأرض)** هذه لتعبدوه وتعملوا حسب شريعته ولتهتدوا بهديه **(وإليه)** لا إلى غيره **(تحشرون)** تجمعون فيحاسبكم على ذلك. فمن اهتدى بهديه واستقام على دينه فيثاب بالنّعيم المقيم، ومن ضلّ فيعاقب بالعذاب الأليم.

تنبيه: ذكر الله تعالى هذه الدّلائل على قدرته وإنعامه على عباده دون أن يستدلّ ويبرهن على أنّ ما استدلّ به صادر منه، وذلك لأنّ كلّ ما نسب إليه في هذه الآيات يعلم كلّ عاقل بفطرته أنّه منه، ويعلم الغافل ذلك بأدنى تأمّل وتنبيه. لأنّ هذه الأمور لا يمكن إلّا أن يصدر عن عالم قدير بلغ علمه وقدرته أعلى ما يتصوّر من العلم والقدرة، وعن مريد بصير ذي إرادة قويّة وفعّال لما يريد وذلك هو الله تعالى.

* * *

ثمّ بعد إن ذكر الله تعالى دلائل قدرته وجلائل نعمه ونبذة من أوصاف ذاته وخوّف الناس من يوم القيامة بقوله: **(وإليه تحشرون)** ذكر ما للكافرين من عقيدتهم حول الحشر والحساب وماذا يقولون فيه فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

(ويقولون) أي ويقول الكافرون: **(متى هذا الوعد)** أي وعد الحشر والحساب والّذي تخوّفوننا به يا أيّها المؤمنون، فمتى يأتي هذا اليوم يوم القيامة **(إن كنتم صادقين)** في قولكم: إنّه يأتي، وتخوّفوننا به، والمعنى إنّهم لا يؤمنون بهذا اليوم ومجيئه، فيسألونكم استهزاءً وسخريةً عن وقت هذا اليوم. فالآية جاءت لبيان سوء عقيدتهم ونفيهم ذلك اليوم. فأمر الله تعالى الرّسول وكلّ داعية أن يجيب الكافرين عن هذا السّؤال بما قال في قوله جلّ وعلا:

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ مؤمن في جواب سؤال الكافرين هذا **(إنّما العلم)**

بوقت ذلك اليوم (**عند الله**) خاصّة ولم يعط ذلك العلم لغيره (**وإنّما أنا نذير مبين**) وإنّما وظيفتي هي أن أنذركم بهذا اليوم إنذاراً واضحاً بيناً، وليس من وظيفتي الإعلام بوقته، وقد أدّيت واجبي وأنذرتكم، فبقي العتب عليكم أنتم إن لم تؤمنوا ولم يبق لكم حجّة في يوم الحساب.

ثمّ بعد أن أخبره بأنّ العلم بوقت هذا اليوم عند الله تعالى، وأنّه يأتي دون شكّ، أخبرهم بالحالة السّيئة الّتي تعتريهم في ذلك اليوم وبالنّدامة العظمى حينئذٍ فقال جلّ وعلا:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

(**فلمّا رأوه**) أي فلمّا رأوا ذلك اليوم (**زلفةً**) أي عن قريب، جعله قريباً لأنّ كلّ آتٍ قريب وإن بعد، ولأنّ من مات فقد قامت قيامته، والموت قريب من المرء (**سيئت**) أي أعبست وأحزنت في ذلك الوقت (**وجوه الّذين كفروا**) بذلك اليوم (**وقيل**) لهم تبكيتًا (**هذا الّذي كنتم به تدعون**) أي هذا الّذي كنتم تطلبون وتدعون مجيئه استهزاءً بالمؤمنين، حيث كانوا يقولون للمؤمنين: متى هذا الوعد؟ فليأت ذلك إن كنتم صادقين. فذوقوا اليوم جزاء استهزائكم بالمؤمنين بهذا اليوم. وإنّ هذه الحالة تكون في المستقبل ولم تأت بعد إلّا أنّه عبّر عنها بالماضي فقال: (فلمّا رأوه...الخ) إشارة إلى أنّ مجيء ذلك اليوم محقّق، فلتحقّق وقوعه كأنّه جاء ومضى، فعبّر عنه بالماضي، وأمثال ذلك في القرآن كثيرة جدّاً. أو لأنّ هذا الشّيء مضى وقضى به في علم الله تعالى، ولذا عبّر عنه بالماضي. والله تعالى أعلم.

ثمّ كان الكافرون يدّعون ويتمنّون هلاك الرّسول (ﷺ) وهلاك من معه من المؤمنين، فأمره الله تعالى بقوله جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

(**قل**) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ داعية، قل للكافرين الّذين يتمنّون هلاككم (**أرأيتم**) أي

علمتم (**إن أهلكني الله**) إن أماتني الله تعالى (**ومن معي**) من المؤمنين (**أو رحمنا**) فأبقانا لنشر الدّعوة، فماذا تستفيدون من هلاكنا، فإنّكم من أهل النّار هلكنا نحن أم بقينا (**فمَن يجير الكافرين من عذاب أليم**) أي فمن يحفظكم وينجيكم، وضع المظهر وهو (**الكافرين**) موضع المضمر وهو (**كم**) إشارة إلى أنّ سبب عذابهم هو الكفر لا ذواتهم. وتفيد الآية معنىً آخر وهو أنّه نحن المأمول فيهم أن نجيركم وننجّيكم من ذلك العذاب، وذلك بحسن الدّعوة والحكمة والموعظة الحسنة. فإن أهلكنا نحن فلا أحد يدعوكم إلى الخير والإيمان والطّريق إلى الله تعالى. فبقاؤنا نعمة لكم وليس بنقمة. فعليكم أن تحبّوا بقاءنا ولا تحبّوا هلاكنا، فقد ضللتم في ذلك أيضاً، فتباً لكم وسحقاً.

ثمّ بعد هذه المحاورة الطّويلة والمناقشة مع الغواة وإظهار الأدلّة والبراهين لهم، أمر الله تعالى رسوله وكلّ داعٍ مسلم أن لا يلين للكافر ولا يميل إليهم، بل يصارحهم بأنّه ثابت على ما يدعو إليه ومؤمن بما أتى به، وإنّه لا يزحزحه عن ذلك لا الخوف ولا الطّمع. وأمرهم بهذه المصارحة لأنّ الثّبات هو أقوى دعامة الدّعوة وأنجح وسائل النّجاح والانتشار لها فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

(**قل هو**) أي الّذي أدعو إليه وهو الله (**الرّحمن**) هو الرّحمن أي المحسن والمنعم على عباده، ومنه المعونة والنّصر وحده (**آمنّا به**) ولا يصرفنا عن هذا الإيمان كلّ محاولة أو تهديد أو تعذيب، فإنّ الإيمان أقوى من ذلك كلّه (**وعليه**) وحده لا على غيره (**توكّلنا**) في كلّ أمورنا وفي نصرنا وخذلانكم (**فستعلمون**) أي فبعد مدّة تعلمون أيّها الكفرة (**من هو في ضلال مبين**) نحن أو أنتم. وذلك العلم يحصل لهم يوم القيامة وفي الدّنيا أيضاً بعد ثبات المؤمنين على عقيدتهم وعملهم الدّائب في الدّعوة والجهاد في سبيلها. فإنّ الحقّ يعلو ولا يعلى عليه. وقد حصل ذلك للمؤمنين الأوّلين حيث آمن أهل مكّة كلّهم واعترفوا بضلالهم قبل فكانوا يسمّون زمانهم قبل الإسلام بالجاهليّة فيقولون: كنّا في الجاهليّة نعمل كذا وكذا إلى غير ذلك من اعترافاتهم الموجودة في التّأريخ والسّيرة. فأثبت أيّها الأخ المسلم، ودم على دعوتك واصمد، فإنّ النّصر لك والهزيمة للكفر والكافرين. وقد قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الروم الآية/٤٧. ووعد الله صدق. فخذلان المؤمنين ليس لأنّ الله أخلف وعده، كلّا ثمّ كلّا، بل لأنّه لا يوجد المؤمنون ولا يوجد ذلك الإيمان، وكمجتمع إيماني يعمل

للإيمان، ولا قوّة للأفراد وحدهم دون التّرابط والعمل الموحّد للإيمان والعقيدة والإسلام. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

أمر الله تعالى رسوله وكلّ داعية أن يعلن إيمانه بالرّحمن والتّوكّل عليه في كلّ شيء، وإنّ كلّ شيء بيده. فإنّ التّوكل عليه في كلّ شيء معناه أنّ كلّ شيء بيده، وبعد ذلك أمره أن يعلن عن عجز آلهتهم عن كلّ شيء وإن يذكّرهم بما هو من أقرب الأشياء إليهم، ومن أهم ما يحتاجون إليه وهو الماء، فإنّه بيد الله تعالى وأنّ غيره ليس في قدرته خلقه إبتداء ولا إعادته إذا فقد، قال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ داع إلى الله تعالى **(أرأيتم)** أعلمتم **(إن أصبح ماؤكم غوراً)** أي غائراً في الأرض فجفّت عينها ومجراها **(فمن يأتيكم)** بعد ذلك **(بماء معين)** والمعين جاء بمعنى المريء وبمعنى الجاري، وهنا استعمل في معنييه، فالمراد فمن يأتيكم بماء مرئي كماء البحر والآبار وبماء جار كماء العيون والأنهار والاستفهام للتّقرير، فالمعنى قد علمتم ذلك واعترفتم به فلم لا تعبدونه ولم تشركون به غيره. هذا إذا كان خطاباً للمشركين أو هو لكلّ كافر، وذكر بدون برهان لأنّ ذلك مركوز في فطرة كلّ إنسان ينتبه له بأدنى تنبيه ولا يحتاج إلى دليل. فإنّ كلّ إنسان يرى في قرارة نفسه أنّ هذا الماء لا يستطيع أن يوجده إلّا من بلغت قدرته النّهايه وعلمه الغاية وإرادته فوق كلّ إرادة وإنّه فعّال لما يريد وهو الله تعالى.

هذا ما وصل إليه الفكر الفاتر، ونرجو من الله تعالى أن يرزقنا التّوفيق والإخلاص في العمل والصّدق في القول، وأن يجنّبنا الزّلل والنّسيان وهو على كلّ شيء قدير، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

سورة القلم

(مكيّة إلّا من الآية ١٧-٢٢، ومن الآية ٤٨-٥٠، وهي إثنتان وخمسون آية، سمّيت بالقلم لما فيها قوله تعالى: ﴿والقلم وما يسطرون﴾)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ نٓ ۚ ﴾

قال بعض المفسّرين هو اسم للرّسول (ﷺ)، فيكون منادى محذوف الياء فالمعنى يا نون ... إلخ، وهذا القول باطل لوجهين:

الأوّل: أنّ اسماء الرّسول (ﷺ) جمعت وليس فيها أن (نون) اسم من اسمائه.

الثّاني: لو كان اسماً لوجب أن يكتب هكذا (نون) لا مثل ما كتب وهو (ن).

وقال بعضهم: إنّه حرف من حروف الرّحمن فيكون قسماً بالرّحمن، فالمعنى والرّحمن والقلم...إلخ. وهذا باطل أيضاً وذلك لأنّ الإختصار لا يجوز إلّا بقرينة تعيّن المختصر منه، وإلّا فكلّ واحد يذكر شيئاً فيقول البعض هو سبحان والآخر هو ديّان و... و... فيكون ملعبةً بين اللّاعبين، كلّ يقدر حسب هواه. وبعضهم يقولون: هو اسم للمحبرة، أقسم الله تعالى بالمحبرة والقلم ... إلخ. وهذا المعنى وإن كان حسناً إلّا أنّه لوجب أن يكتب (نون) لا (ن) كما لا يخفي. ويقول البعض: إنّه اسم للحوت، والمراد به الحوت الّذي وقفت عليه الأرض، ويُروون حديثاً يفيد أنّ الأرض وضعت على الحوت والحوت على الماء والماء على الهواء، إذ هي على رأس ملَك والملَك على حجر والحجر على ثور والثّور على حوت والحوت ... إلخ، وهذا المعنى في غاية

البطلان، وإنّ هذا الحديث موضوع[(١)] لأنّ الرّسول (ﷺ) كان رجلاً واقعيّاً[(٢)] وهو أبعد النّاس عن الأمور الخرافيّة، ورسالته جاءت للقضاء على كلّ أمر خرافيّ وغير واقعي، وليثبت العلم ويُروّجُهُ، فدينه هو دين الإسلام، دين يسالم الواقع ويساير العلم كتفاً بكتفٍ، فكلّ ماذكر في الإسلام ونشر باسمه وكان مخالفاً للعلم والواقع واليقين فهو مفترى على الإسلام ورسوله، وأُدخل فيه كذباً وافتراءً. قال الشّيخ اسماعيل الكلنبوي في تفسيره روح البيان: إنّ هذا الحديث موضوع. ولو صحّ فالمراد به غير ظاهره، بل المراد به إشارات إلى مالم نطّلع عليه بعد.

سؤال: كيف دخلت الأمور الباطلة في الإسلام ونشرت باسمه إو باسم رسوله؟

الجواب: إنّه قد دخل في الإسلام أناس من اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام لا صدقاً بل كذباً، وليتستّروا بالإسلام فيتآمروا عليه وعلى أبنائه، فادخلوا في الإسلام أموراً باطلة بعيدة عن العقل والواقع ليشوّهوا الإسلام عند أهل العقل فلا يعتنقوه، وليسمّوا الإسلام بأنّه دين خرافة وأباطيل. ونقل بعض العلماء السّذج هذه الأمور وأدخلوها في كتبهم وجعلوها من صميم الدّين دون أن يحقّقوها ويوزنوها بميزان العقل والواقع فلا يقبلوها. ولكنّ العلماء المحقّقين قد وضعوا أصابعهم على هذه الأمور كلّها وبيّنوا أنّها باطلة وسمّوها بالإسرائيليّات. فإذن يا أخي إعلم بأنّ كلّ مانشر في الكتب الإسلاميّة باسم الإسلام أو باسم رسوله ممّا يخالف العقل والواقع، فهو لا يخلو عن أحد أمرين:

الأوّل: إنّه مفترى على الإسلام وإنّ أعداء الإسلام أدخلوه فيه وروّجه بعض العلماء السّذج واعتقدوا أنّه من الإسلام بدون تحقيق.

---

(١) لم أجده في كتب الحديث، لكنّه أورده الطّبري وقال: حدّثنا موسى بن هارون، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السّدي في خبر ذكره عن أبي مالك عن أبي صالح، عن ابن عبّاس، وعن مرّة، عن عبد الله، وعن ناس من أصحاب النّبيّ: خلق الله الأرض على حوت، والحوت هو النّون الّذي ذكر الله في القرآن(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصّفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصّخرة في الرّيح، وهي الصّخرة التي ذكر لقمان ليست في السّماء، ولا في الأرض. / تفسير الطبري ١/ ٢٤. لكنّه عدّ من الإسرائيليات التي دخلت في التفاسير / أرشيف ملتقى أهل الحديث / موقع الأنترنيت..

(٢) أي علميا كما هو عليه الامر في حقيقة واقع المعلوم.

الثّاني: إنّ العلم لم يصل إلى درجة اليقين في هذا الأمر، وإنّه لايزال نظرية وفي طريق التّجربة ولم يصل إلى الحقيقة وتحتمل الخطأ والتّغيير.

* * *

ولنرجع الى بيان حقيقة معنى (ن) في هذه السّورة فنقول: (ن) اسم لأحد حروف الهجاء التّي يُركّب النّاس كلامهم وخطبهم وأشعارهم منها وهو الحرف الواقع في أوّل كلمة (نعم) وفي آخر (من) مثلاً. وجيء به في أوّل هذه السّورة مقطّعاً ومفرداً كما جاء (ق) في أوّل سورة (قاف)، و(ص) في أوّل سورة (صاد). حرفين مقطّعين ومفردين. وجاء (يس) في أوّل سورة (ياسين)، (وطه) في أوّل سورة (طه) و(طس) في أوّل سورة (النّمل)، حروفاً مقطّعة وثنائيّة. و(ألم) في أوّل سورة (البقرة) وغيرها، و(طسم) في أوّل سورة (الشّعراء) و(ألر) في أوّل سورة (يوسف) مقطّعة وثلاثيّة. و(ألمر) في أوّل سورة (الرّعد)، و(ألمص) في أوّل سورة (الأعراف) رباعيّة. و(كهيعص) في أوّل سورة (مريم) و(حمعسق) في أوّل سورة (الشّورى) خماسيّة. ومعنى هذه الحروف كلّها واضحة، فإنّ (ن) اسم للحرف الأوّل من كلمة (نعم) مثلاً و(ق) اسم لأوّل (قال) وهكذا فكلّ حرف اسم لحرف الهجاء. إلّا انّ المفسرين اختلفوا في بيان المقصود الّذي جيئ بهذه الحروف المتقطّعة لأجله في أوائل هذه السّور وهو مقاصد عدّة:

المقصد الأوّل: وذكروا أقوالاً هي:

الأوّل: أنّه جيء بها في أوّل هذه السّورة للتّنبيه وليجلب النّظر ويتهيّأ السّامع لما يأتي بعدها ويلقى عليه، ليكون أوقع في قلبه وسمعه، فإنّ الإنسان حينما يسمع شيئاً غريباً يفتح كلّ أذنيه وقلبه لما يأتي بعده، فإذا جاء يكون أشدّ وقعاً وأحسنه في السّمع والقلب، ويؤيد هذا القول إنّها لم تأت إلّا قبل الإخبار المهمة، كالإخبار بأنّ هذا القرآن من الله تعالى والإخبار بأنّ محمّداً رسول من الله تعالى.

الثّاني: إنّه جيئ بها لتكون معجزة للرّسول (ﷺ)، وذلك لأنّ كلّ إنسان يستطيع ويعرف أن يتكلّم بالنّون والقاف والصّاد، فإنّ كلّ إنسان حينما يقول (نقص) و(فقد) فقد تكلّم بالنّون والقاف والصّاد إلّا أنّه لا يعرف التلفّظ باسماء هذه الحروف كأن يقول: نون، قاف، صاد، إلّا القرّاء والكتّاب. وكلّ النّاس كانوا يعلمون أنّ محمّداً كان أميّاً لم يشتغل مدّة حياته بكتابةٍ ولا قراءةٍ، فحينما بلغ أربعين سنة، وتكلّم بهذه الاسماء دون

تعلم دلّ ذلك على أنّه تعلّم من الوحي وأنّه رسول، وهذا معنى المعجزة، لأنّ المعجزة معناها ما دلّ على صدق الرّسول في قوله إنّه رسول.

الثّالث: إنّ الله تعالى ذكر هذه الحروف في أوائل بعض السّور للتّحدي والإعلام بأنّ هذا القرآن من الله تعالى فكأنّه يقول: يا ناس إنّ هذا القرآن مركّب من هذه الحروف الّتي تركّبون منها خطبكم وقصائدكم، وليست من حروف غريبة عليكم، فإن صدّقتم في قولكم أنّه ليس من الله بل هو من البشر فأتوا أنتم ولو بمثل أقصر سورة منه بلاغةً وفصاحةً ورونقاً وجمالاً في البيان وحسن التّعبير؛ فحيث لم تستطيعوا ذلك ولن تستطيعوا، فاعلموا بأنّ هذا القرآن من الله تعالى وأنّ محمّداً رسوله، ولقد صرّح الله بهذا التّحدي في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ سورة البقرة الآيتان/ ٢٣، ٢٤. ويجوز أن يكون المراد من الإتيان بهذه الأمور كلّها وأمور أخرى لم نطّلع عليها حيث لا منافاة بينها، ونقول: هذا وإنّ سبق أن رجّحنا القولين الأخيرين في تفسير سورة يوسف واعترضنا على الباقي. والله تعالى أعلم.

* * *

﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾

بعث الله تعالى محمّداً (ﷺ) رسولاً وأمره بنشر دعوة الإسلام والتّوحيد والدّعوة إلى عبادة الله تعالى عزّ وجلّ ونبذ الأصنام بجميع أنواعها، والحكم بشريعة الله تعالى ونبذ كلّ القوانين والعادات الّتي تخالف دين الله تعالى. فافترق النّاس فريقين: فريق يحبّ الحقّ ويسعى له فآمن هؤلاء بمحمّد (ﷺ) واتّبعوه ونبذوا ما كانوا عليه من عبادة غير الله تعالى وسفاسف الأمور وتركوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وفريقٌ كانوا يكرهون الحقّ ولا يسعون إليه ويحبّون الفواحش والشّهوات وما تهوى أنفسهم. وكان لبعضهم منافع ومصالح ورئاسة فيما هم عليه من عبادة غير الله تعالى والعادات السّيئة والتّقاليد الضّالة المضلّة. فلم يعجب هؤلاء ما جاء به محمّد من هذا الدّين لأنّهم علموا أنّ هذا الدّين يحرّر الإنسان من عبادة غير الله تعالى، ومن الانقياد للأشخاص والأوثان والأصنام والتّبعيّة العمياء للرّؤساء والمترئسين على النّاس ويفتح أمامهم باب العدل

والمساوات، وأن لا فضل لأحد على أحد إلّا بالتّقوى والعمل الصّالح وما يقدّمه من خدمة عمليّة للمجتمع والأمّة، فلا إستغلال ولا إستعباد ولا إطاعة لأحد إلّا ضمن حدود الله وفيما عيّنه الله تعالى وحدّ وحكم به، فعلموا أنّهم سيفقدون هذه الرّئاسة والمنافع الّتي كانوا يستفيدونها من النّاس بسبب سدانة الأصنام والآلهة الباطلة، بالإضافة إلى ما كان موجوداً بينهم من تعصّب قبلي لا يسيغ لبعضهم اتّباع محمّد وهو من قبيلة بني هاشم المنافسة لهم في الشّرف والسّيادة، فهذه الأمور كلّها دعت هؤلاء النّاس إلى أن يعادوا محمّداً (ﷺ) وأتباعه وأن يصدّوا النّاس عن اعتناق هذا الدّين، فاستعملوا كلّ الوسائل في سبيل الوقوف دون نشر دعوة حضرة محمّد (ﷺ) وعدم ظهور هذا الدّين. وكان من إحدى وسائلهم أنّهم أشاعوا بين النّاس وقالوا: إنّ محمّداً هو مجنون، وكانوا يحذرّون النّاس من الإقتراب منه واستماع كلامه، فإنّه مجنون وما يتلوه هو من كلام الجنّ فلا يليق بالإهتمام به والحضور لديه واستماع أباطيله ولغوه وهذيانه. فحزن بذلك قلب الرّسول الشّريف، حيث من طبيعة كلّ إنسان أنّه يحزن حينما ينسب إليه ما لا يليق به كذباً وافتراءً. ومن جهةٍ أخرى كان يعلم أنّ كثيراً من النّاس يصدّقون بقولهم هذا وتصدّهم هذه الأراجيف عن الإتّصال به وعن قبول دعوته؛ فسلّاه الله تعالى بقوله جلّ وعلا: **(والقلم وما يسطرون * ما انت بنعمة ربك بمجنون).**

أقسم الله تعالى بالقلم وبما يسطر ويكتب النّاس بالقلم من العلوم والمعارف على أنّ محمّداً ملتبس بنعمة الله تعالى وهي النّبوّة والرّسالة، وأنّه ليس بمجنون، وإنّما المجنون هو من يعادي دعوته ولا يتّبع شريعته، لأنّ المجنون هو من لا يسلك السّبيل المستقيم وينحرف عن المنهج القويم، وهم كذلك لا أنت يا محمّد. وقد أخبر الله تعالى عن قولهم هذا ودعاياتهم هذه ضدّ الرّسول (ﷺ) في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ سورة الدّخان الآيتان/١٣، ١٤. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ سورة الحجر الآية/٦، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾ سورة القلم الآية/٥٢.

سؤال: ما الحكمة في قسم الله تعالى بالقلم وما يكتب بالقلم على أنّ محمّداً ملتبس بنعمة الله وهي الرّسالة وليس بمجنون؟

الجواب: إنّ الحكمة أنّ القلم أداة للعلم وكسبه ونشره، وما يكتبه النّاس بالقلم هو العلم، فالله تعالى أقسم بأداة العلم وبالعلم على أنّ محمّداً رسول وليس بمجنون، وذلك لأمرين:

الأوّل: ليعلم النّاس عظمة العلم وقيمته، وأنّ العلم وصل إلى حدٍ من الشّرف والعظمة أن أقسم الله تعالى به، بل وبما يكون أداة له كالقلم.

الثّاني: ليشجّع المسلمون العلم ويبتغوه ويحترفوه وأن لا يدعوا أي مجال للجهل أن يدخل بين المجتمع فيفسدهم، فإنّ الجهل هو من أكبر ما يفسد المجتمع ويأوي به إلى هاوية الذّل والاستعباد. ولذلك لا نرى أيّ نظام شجّع العلم وروّجه وعظّمه كما شجّع الإسلام العلم وقدّسه وحثّ النّاس على تحصيله ونشره. وإليك أدلّة من كتاب الله تعالى وسنّة رسول الله (ﷺ):

الأوّل: إنّ أوّل ما بعث الرّسول (ﷺ) أمر بالقراءة والتّعلم، فإنّ أوّل آية نزلت عليه هي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ سورة العلق الآيات/ (١ - ٤).

الثّاني: قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ سورة المجادلة الآية/ ١١.

الثّالث: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ سورة الزمر الآية/ ٩.

إلى غير ذلك من الآيات الّتي تشيد بالعلم والتّعلم ممّا يوجب سردها التّطويل، ومن الممكن الإطّلاع عليها من القرآن الكريم في كلمة علم.

وأمّا من سنّة رسول الله (ﷺ) فهي:

١. لقد كان الرّسول (ﷺ) مدّة حياته يسعى بشتّى الوسائل لنشر العلم وترويجه بين المسلمين. وكان يشجع النّاس على العلم بأعماله وأقواله. فمن أعماله: أنّه أسر من المشركين في حرب بدر سبعين شخصاً، وبعد التّشاور والمذاكرة قرّر الرّسول (ﷺ) أن يطلق سراحهم مقابل مبلغ من المال يدفعونه لبيت مال المسلمين، واختار الرّسول (ﷺ) من بين هؤلاء الأسرى جماعة وقرّر أن يكون فداء كلّ واحد منهم أن يعلّم عشرة من

المسلمين القراءة والكتابة، فعلّم كلّ واحد منهم عشرة وأطلق سراحهم مقابل ذلك.

٢. أقواله الّتي مدح بها العلم والتّعلم وأمر فيها بالتّعلم فلا تعدّ ولا تحصى، ونذكر منها نبذة هي:

أ- قال (ﷺ): (طلب العلم فريضة على كلّ مسلم)[1].

ب- (من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله تعالى له طريقاً إلى الجنة)[2].

ت- (إنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يطلبه)[3].

ث- (إنّ العالم يستغفر له من في السّماوات ومن في الأرض حتّى الحيتان في الماء)[4].

والحاصل أنّ الأحاديث الواردة في فضل العلم وتشجيعه وترويجه بين المسلمين كثيرة خصص لها في كتب الحديث باب خاصّ بعنوان (باب فضل العلم). فيا أخي هذا موقف الإسلام من العلم وفضله له وتشجيعه إيّاه، ولكنّ أعداء الإسلام لم يزالوا ولا يزالون يبثّون الدّعاية ضدّ الإسلام ويدّعون أنّ الإسلام ضدّ العلم أو أنّه لا يلائم العلم ولا يتمشى معه، ويفترون ذلك على الإسلام زوراً وبهتاناً، وذلك ليبعدّوا النّاس عن الإسلام وينفّروهم عنه. ومن الأسف الشّديد أنّ بعض أبناء المسلمين والّذين ينسبون إلى الإسلام بالجنسيّة فقط لا بالتّعليم والمعرفة بالإسلام قد اغترّوا بهذه الدّعايات ويبثّونها بين النّاس جهلاً بالإسلام أو تجهلاً وعمالةً للأجنبي قصداً أو بدون أن يشعروا وبدون أن يتعلّموا دينهم ويتفحصوه ويعلموا كذب هذا الافتراء وصدقه. وبالرّغم من أنّه من القواعد العامّة والمسلّمة عند جميع العقلاء أنّه لا يجوز الحكم على شيء قبل معرفته والإطّلاع عليه، ولكنّهم يحكمون على الإسلام دون أن يعلموا منه شيئاً ودون أن يطّلعوا على قواعده وأحكامه وأوامره ونواهيه. غير أنّهم أصبحوا أبواقاً بيد الأجانب يبثّون ما هم ينفخون فيهم، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. وبالمناسبة نروي لكم حكاية صغيرة:

الحكاية: كنت مسافراً بين بغداد وأربيل بالقطار، فجلس عندي من ظهر أنّه معلّم

(١) سنن ابن ماجة ١/ ٨١ الحديث رقم ٢٢٤.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٢٨ الحديث رقم ٢٦٤٦ وقال حديث حسن.

(٣) سنن أبي داود ٣/ ٣١٧ الحديث رقم ٣٦٤١.

(٤) وهو جزء من الحديث السابق.

في المدارس الإبتدائيّة (وكان في ذلك الوقت معلّم الإبتدائية يعتدّ بثقافته) فسمعت منه كلاماً كرهته، فقلت: يا أخي هل أنت مؤمن؟ قال: نعم إنّي مؤمن بأنّ هذا الكون له مدبّر قدير وعليم وهو الله تعالى، فأنا مؤمن بالله. فقلت: هل تعرف أنّ الأيمان بالله ليس مقبولاً ما لم يقترن بالإيمان بالرّسول (ﷺ)؟ فقال: تريد محمّداً؟ قلت: نعم. قال: محمّد عظيم. فقلت: يقال لكثير من النّاس عظيم فهل تؤمن بأنّه رسول؟ فقال: نعم، وإنّي مسلم وأنا أصلّي. فقلت: فماذا تقول في أبي بكر الصّديق (رضي الله عنه)؟ قال: كان رجلاً طيّباً مسكيناً، فقلت: فعمر (رضي الله عنه)؟ فقال: إنّ عمر لم يكن طيّباً، قلت: ولم؟ قال: لأنّه كان عدوّاً للعلم. قلت: وكيف؟ قال: حينما فتح عمرو بن العاص مصر وجد فيها مكتبات، فكتب لعمر ماذا يفعل بها، فأمر عمر بإلقائها في النّيل، فأُلقيت في النّيل وضاع ذلك العلم الضّخم الموجود فيها. فقلت: يا أخي إنّ عمر (رضي الله عنه) شهيد العلم، فإنّه كان لا يأذن لغير المسلمين أن يسكنوا المدينة المنورة إلّا أنّه أذن لأبي لؤلؤة الفارسي لأنّه كان يتقن الصّناعات حتّى قال له حينما شكى سيّده عنده: يقولون: إنّك تصنع الطّواحن بالهواء؟ فقال أبو لؤلؤة: نعم. فقال: نريد أن تصنع لنا طاحونة منها، قال: سأصنع طاحونة يسمع بها الشّرق والغرب فقال عمر(رضي الله عنه): إنّه أوعدنا، ثمّ بعد أيّام قتل أبو لؤلؤة عمر (رضي الله عنه) فأصبح شهيد العلم، فلا يمكن ولا يعقل أن يأمر عمر بأضاعة العلم وكتبه، وإنّما الكتب الّتي أمر بإلقائها في النّيل كانت كتباً وثنيّة وخرافيّة (وإنّي قلت هذا القول بمجرّد تصوّري دون اطلاع على القضيّة نفسها، ولكن بعد يومين صادف أن رأيت كتاب (لمحات في التّاريخ) لنهرو رئيس وزراء الهند، ففتحته فأوّل موضوع وقعت عليه عيني هو أنّه يقول: ما أحبّ العلم وما خدمه دين من الأديان ولا نظام مثل الإسلام، فالإسلام عاشق للعلم وإنّ الكتب الّتي ألقاها عمر في النّيل كانت كتب وثنيّة وخرافة لا كتب علم، فشكرت الله تعالى على ما قلت وقد طابق العلم والتّأريخ والواقع. فيا أخي انظر إلى (نهرو) كيف يمدح الإسلام ويشهد له وهو ليس بمسلم، بل ربّما كان يعادي الإسلام ولكنّه لا يحبّ أن يخون التّاريخ والواقع، انظر إلى نفسك وأمثالك وأنتم مسلمون، كيف تفترون على الإسلام واغتررتم بالأجنبيّ وأبواقه ضدّ الإسلام.

❊ ❊ ❊

نصيحة: فيا أخي المسلم ويا كلّ من يحبّ الحقّ ويعشقه، أرجو أن تطّلع على القرآن الكريم وسنّة الرّسول الأمين (ﷺ) لتعرف مدى اهتمام الإسلام بالعلم وحبّه

وتشجيعه له. وانظر إلى التّأريخ أيضاً لترى مدى إهتمام المسلمين بالعلم وخدمتهم له، فإنّ أوّل ساعة صنعت، صنعت واخترعت في بغداد في زمن الخليفة العباسي هارون الرّشيد، وإنّ أوّل رصد فلكي وضع لكشف السّماوات والكواكب كان في بغداد، وكانت أوروبا في ذلك الوقت في أوج الهمجيّة والوحشيّة وأبعد عن كلّ علم. وتثقّف من تثقّف منه في مدارس المسلمين الّتي كانت في الأندلس وقرطبة، وأخذوا الحضارة والتّمدن من المسلمين، وهم يعترفون بذلك، فإنّ كثيراً من المستشرقين وكتّابهم الصّادقين يقولون: نحن مدينون للشّرق حيث كنّا في الجهل فتعلّمنا منهم. ولكن ما ذنب الإسلام حينما ابتعد المسلمون عن روح الإسلام وغفلوا عن العلم والتّعلم بسبب النّزاع والصّراع الّذي بسببه قاتل بعضهم بعضاً لإستلام الحكم والإعتلاء على كرسيّه. فجهْلُ المسلمين سيّئة من سيّئات المسلمين لا من سيّئات الإسلام دين الله الحنيف. وهنا نريد أن نذكر حكماً شرعيّاً في هذا الموضوع لتعلّم صدق قوله.

* * *

حكم شرعي:

١. إنّ كلّ علم وكلّ صنعة وكلّ حرفة يحتاج إليها النّاس من الإسكافيّة وإلى صناعة علم الذّرة يعتبره الإسلام واجباً من واجبات المسلمين وفرض كفاية يجب أن تقوم طائفة من المسلمين بتعلّمها والإشتغال بها، فإذا فقدت صنعة أو حرفة أو علم في المجتمع الإسلامي أثم المسلمون كلّهم، لأنّه لا يجوز أن يحتاج المسلمون في أيّ شيء من الأشياء إلى غيرهم، فإنّ الحاجة إلى الغير سبب لإستيلاء الغير عليهم. والإسلام لا يقبل إستيلاء غير المسلمين عليهم. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم﴾ سورة الأنفال الآية/ ٦٠. ولا يعدُّ أيّة قوّة بدون العلم والتّعلم للحرف والصّنائع كلّها كما لا يخفى.

٢. إنّ الله تعالى يمدح ذا القرنين بأنّه اتّخذ الأسباب وتعلّمها واستعملها، وبذلك استولى على الشّرق والغرب والشّمال فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا...الخ﴾ سورة الكهف الآيتان/ ٨٥، ٨٦. إلى آخر الآيات التّي تتعلق بقصة ذي القرنين في سورة الكهف. وإنّما يذكر الله هذه القصّة ليعتبر بها المسلمون ويتّخذوا بالأسباب وعلومها لكي يتفوّقوا ولا يذلّوا تحت أقدام

الأجانب، ولكي يتّقوا حتّى لا يستعمرهم غيرهم. وإنّ القرآن الكريم يأمرنا دائماً أن نتفكّر في خلق الله تعالى من السّماوات والأرض والحيوان وغيرها لنستفيد من ذلك التّفكر علوماً ومعارف نحتاج إليها. قال تعالى في سورة الغاشية: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ سورة الغاشية الآية/ ١٧. أي لتتعلّموا تشريح الأبدان وعلوم الصّحة ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ سورة الغاشية الآية/ ١٨. أي لتتعلّموا علم تشريح الأفلاك ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سورة الغاشية الآية/ ١٩. لتتعلموا علم طبقات الأرض وما فيها من المعادن والكنوز ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ سورة الغاشية الآية/ ٢٠. لتتعلّموا استخراج المعادن والكنوز. فإنّ الأمر بالنّظر في هذه الأشياء أمر بنظر الكشف والتّنقيب لأنّ مجرّد النّظر والرّؤية بالعين يستوي فيه الإنسان والأنعام والبهائم والوحوش فلا فضل فيه.

* * *

خاتمة: تبيّن من ما تقدّم ذكره أنّه لا يجوز للمجتمع الإسلامي أن يتأخّر عن غيره في العلوم والمعارف وكلّ ما يحتاج إليه مجتمع في شؤون الحياة، ولا يجوز له أن يحتاج إلى غيره في أي فنّ من الفنون، وأنّه لو تأخّر في شيء من ذلك فإنّه آثم وعاص ويبوء بالخسارة والخذلان. فإنّ الحاجة إلى الغير هو الطّريق الوحيد لإستيلاء الغير عليه، وذلك ما يتحاشى عنه الإسلام، فإنّ الإسلام يجب أن يعلو ولا يعلى عليه. ولهذا كان العلماء الأوّلون يفتون بأنّ لبس ثياب الكفار حرام، وكان القصد من هذا الفتوى أنّ المسلمين يجب عليهم أن يتعلّموا صنع الثّياب بأنفسهم ولا يحتاجوا إلى شرائه من الكفّار. فإنّ الحاجة كما قلنا سبيل الذّل والاستعمار، وإنّ تحرّر الإقتصاد هو السّبيل الوحيد إلى التّحرر والإستقلال، ولكنّ النّاس كانوا لا يفهمون القصد من هذه الفتوى بل وحتّى بعض العلماء أيضاً فما كانوا يشرحونها على حقيقتها، فصارت الفتوى من من ما يضحك منها النّاس فيقولون: كيف يُحرّم علينا أن نشتري الثّوب من الكفّار؟ أنبقى عراة أو نعيش بدون ثوب ولباس.

* * *

تنبيه: ظنّ كثير من النّاس أنّ العلم الّذي أقسم الله تعالى به هو علم الدّين فقط، فيكون التّقدير والتّقديس والتّشجيع في الإسلام لعلم الدّين فحسب، وإنّ هذا الخطأ

عظيم وبهتان على الإسلام، فإنّ الإسلام يقدّر كلُّ علم سواء كان علماً دينيّاً أو علماً آخر كالعلم الجيولوجي والعلم الصّناعي والطّب وغير ذلك من سائر العلوم؛ ولذلك قال تعالى: **(وما يسطرون)** عامّاً ودون تعيّن لما يسطّر وذلك ليعم كلّ ما يسطر من العلوم والمعارف دون فرق بين علم وآخر. وكذلك حينما يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ سورة الزمر الآية/ ٩. لم يذكر المفعول ولم يبيّن المعلوم ليفيد بأنّ العالم بأيّ علم أفضل من الجاهل به، وأنّه كلّ علم مفيد له الفضل والتّقدير. وإنّ ما يروى في الخبر أو الأثر [اطلب العلم ولو بالصّين][١] ليس المراد منه العلم الدّيني لأنّ ذلك العلم لم يكنْ موجوداً في الصّين، بل إنّما المراد هو علم الصّنعة فإنّ الصّين كان مشهوراً في ذلك الوقت بصناعة الزّجاج والفخار وغير ذلك من حاجيّات النّاس، فالحاصل أنّ كلّ علم نافع هو مقدّر ومقدّس في الإسلام وواجب على المسلمين أن يعيّنوا طائفة لتعلّمه لكي لا يحتاج المسلمون إلى غيرهم، ولئلّا يتفوّق غيرهم عليهم أو يخدعوهم بعلوم يعرفونها دونهم فيُضلّوهم عن الصّراط المستقيم، ولأجل الإيضاح نذكر هذه القصّة والّتي يرويها القرآن الكريم.

* * *

القصّة: ظهر في بابل بعد سيّدنا سليمان (عليه السلام) جماعة من السّحرة فكانوا يفتنون النّاس عن دينهم بالسّحر ويدّعون علم الغيب، وإنّهم كانوا يؤثّرون بعلمهم هذا في النّاس وأمورهم. فأنزل الله تعالى ملكين كي يُعلّمان النّاس السحر ليعلموا أنّ ما يقوم به هؤلاء هو السّحر فلا يفتتنوا بسحرهم وأباطيلهم، وذلك ما ذكر الله تعالى فيقول: ﴿وَاتَّبَعُوا أي اليهود مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٠٢، ١٠٣، فتبيّن من هذه القصّة الّتي ذكرها القرآن أنّ كلّ علم بما فيه

---

(١) كنز العمال ١٠ / ٢٤٢ الحديث رقم ٢٨٦٩٧. وذكر عن المناوي في الفيض أنه لم يصح فيه إسناد.

علم السّحر الّذي حرّمه الإسلام، يجب على المسلمين تعلّمه لكي لا يخدعهم به من يعرفه من الأجانب فيُضلّوهم، وإنّ حرمة السّحر ليس معناه أنّ تعلّمه حرام، بل المراد به أنّ العمل به حرام إلّا لضرورة، كمقابلة الأعداء بالمثل ودفع شرّهم وخداعهم للبسطاء، بل تعلّمه لهذا الغرض من فروض الكفايات. قال سيّدنا عليّ بن أبي طالب (كرّم الله وجهه):

عرفت الشّرّ لا للشّرّ لكن لتوقّيه ومن لا يعرف الشّر من النّاس يقع فيه

فكلّ علم مقدر في الإسلام ويجب تعلّمه وإن كان العمل ببعضها حراماً إلّا لحاجةٍ تقتضيها مصلحة الإسلام والمسلمين.

* * *

المقصد الثّاني: (من المقصدين اللّذين أقسم الله تعالى بالعلم لأجلهما) هو أنّه أقسم الله تعالى بالعلم على أنّ محمّداً رسول وأنّه ليس بمجنون. وأراد بذلك والله أعلم أنّ العلم يثبت أنّ محمّداً رسول وأنّه ليس بمجنون. وإنّك إذا تفحّصت كلّ علم وقارنْته بما جاء به محمّد فإنّ ذلك العلم يشهد بأنّ محمّداً رسول الله، وإنّ ماجاء به هو من الله تعالى، وليس هو من عنده أو غيره من البشر، وإليك شهادات هذه العلوم بذلك:

الأوّل: علم البلاغة:

إنّ التّاريخ يشهد وكلّ النّاس يعلمون أنّ محمّداً لم يشتغل مدّة حياته بالقراءة والكتابة أو الشّعر والخطابة، بل كان رجلاً أميّاً لم يعرف شيئاً من ذلك، ولكن حينما بلغ أربعين سنة، أتى بكتاب بلغ من الفصاحة والبلاغة وحسن التّعبير والأسلوب حدّاً لم يستطعْ جميع بلغاء العرب وشعراؤهم أن يأتوا بما يقرب من القرآن في البلاغة وحسن الصّياغة وجودة البيان والتّعبير، مع أن القرآن تحدّاهم في كثير من الآيات أن يأتوا بمثله ولو بمثل أقصر سورة منه. وإليك بعض من تلك الآيات:

١. قال تعالى: ﴿وإن كنتم في ريبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٣.

٢. قال تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ سورة هود الآية/ ١٣.

٣. قال تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ سورة يونس الآية/ ٣٨.

٤. إلّا أنّهم بالرّغم من هذا التّحدي ومع حرصهم الشّديد على معارضة القرآن لإبطال إعجازه، ما استطاعوا أن يأتوا بشيء من ذلك، ولو استطاعوا لفعلوا، ولو فعلوا لنقل تواتراً لشدّة أعداء القرآن وكثرة معارضيه، فدلّ ذلك على أنّ القرآن هو من الله تعالى، وليس من البشر، لأنّه لو كان من البشر لاستطاعوا ذلك. لأنّ البشر في وسعه معارضة كلام البشر. فشهد علم البلاغة على أنّ القرآن من الله تعالى وأنّ محمّداً (ﷺ) رسول الله وليس بمجنون.

الثّاني: علم تاريخ الماضي:

كان محمّد (ﷺ) أميّاً ولم يكن له أيّة صلة بكتب التّواريخ ولا بالكتب السّماوية، وبالرّغم من هذا حينما يسأل عن حال أمّةٍ سابقةٍ أو رسول سابق ينزل القرآن ويخبر كما هو الواقع والموجود في التّوراة والإنجيل غير المحرّفين. وممّا كان خفيّاً إلّا على الإختصاصيين من أحبار اليهود ورهبان النّصارى، هذا، ولو كتبنا هذه الوقائع كلّها لاحتجنا إلى تسويد كراسات إلّا أنّه نكتفي في بيان ذلك ببعض الأمثلة:

المثال الأوّل: إنّ أهل مكّة أرسلوا وفداً إلى يثرب (المدينة المنوّرة) وأمروهم أن يسألوا أهل الكتاب فيعرفوا ماذا يقولون في محمّد؟ هل هو نبيّ أم لا ؟. فإنّهم أهل كتاب وهم أدرى بهذه الأمور. فوصل الوفد المدينة وسألوا الأحبار هناك، فقالوا لهم: سلوا محمّداً عن ثلاثة أشياء، فإن أجابكم فهو نبيّ وإلّا فهو متقوّل فروا رأيكم فيه، أمّا الأشياء فهي:

١. سلوه عن فتيةٍ ذهبوا وغابوا في الزّمان القديم، كيف كانت قصّتهم؟

٢. سلوه عن رجل طوّاف طاف الشّرق والغرب، وما هي قصّته؟

٣. سلوه عن الرّوح ما هي؟

فرجع الوفد إلى مكّة وأخبروا أهلها بما قال أهل الكتاب. فأتوا وسألوا رسول الله (ﷺ) فنزل جبريل (عليه السلام) بجواب الأسئلة الثّلاثة وأنزل عليه قصّة الفتية وهم أصحاب الكهف وقصّة الرّجل الطّائف وهو (ذو القرنين) في سورة الكهف أيضاً، وأخبره بمعنى

الرّوح في قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ٨٥.

المثال الثّاني: جاء اليهود إلى رسول الله (ﷺ) فسألوه عن سبب إنتقال آل يعقوب من فلسطين إلى مصر، وعمّا جرى على يوسف. فنزل عليه (ﷺ) سورة يوسف وفيها قصّة يوسف (ﷺ) وبيان سبب إنتقال آل يعقوب (ﷺ) إلى مصر، وقصّ ذلك عليهم بأحسن القصص والبيان وتعجّب اليهود من ذلك.

المثال الثّالث: كلّ ما يذكره القرآن من أحوال موسى وعيسى (ﷺ) وأحوال الأمم السّابقة كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من الأمم والأقوام، كان موافقاً لما في التّوراة والإنجيل والكتب السّماوية الأخرى. وكان بعض ذلك ممّا يخفى إلّا على الاختصاصيّين من الأحبار والرّهبان، مع أنّ التّاريخ يشهد بأنّ محمّداً لم يطّلع في يوم من الأيام على هذه الكتب، وكان النّاس يعرفون ذلك جيّداً. فيدلّ هذا على أنّ محمّداً رسول من الله تعالى، وأنّه ليس بمجنون.

الثّالث: علم تاريخ المستقبل:

إذا نظرنا إلى القرآن الكريم واطّلعنا على مافيه من الأخبار عن أشياء تحدث في المستقبل وقعت كما أخبر بها، وإن أردنا أن نكتب كلّ ذلك لاحتجنا الى تأليف خاصّ بهذا الموضوع، إلّا أنّه نكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة:

أولاً: وقع بين الفرس والرّوم حرب، وانتصر الفرس على الرّوم، وبذلك حزن المسلمون، لأنّ الرّوم كانوا أهل كتاب وتوحيد، وكان الفرس أهل شرك ووثنيّة، وفرح المشركون وقالوا: نحن ننتصر عليكم كما انتصر الفرس على الرّوم لأنّا متّحدون مع الفرس في الشّرك والرّوم يلائمونكم في التّوحيد. فسلّى الله تعالى المؤمنين وأنزل: ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ سورة الروم الآية/ ٢،١، فذكر أبوبكر الصّديق ذلك للمشركين وتراهن معهم وقدّر لهم مدّة ثلاث سنوات، فقال الرّسول (ﷺ): يا أبا بكر زد في الرّهان وزد في المدّة، لأنّ كلمة بضع تطلق على ثلاث إلى تسع. ففعل أبو بكر ذلك. وبعد مضي بضع سنين وقع حرب آخر بين الفرس والرّوم وانتصر الرّوم على الفرس.

ومن أدقّ وأعجب ما عبّر عنه القرآن أنّه قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ سورة الروم الآية/ ٤،٥. حيث كان إنتصار الرّوم في يوم بدر الكبرى. وحينما انتصر المؤمنون على المشركين وفرحوا بذلك فمن أين عرف محمّد نصر المؤمنين في المستقبل وأنّه يصادف نصرهم نصر الرّوم على الفرس. فعلْمُ التاريخ يشهد بأنّ القرآن من الله وأنّ محمّداً رسول الله.

ثانياً: كان يحيط بالرّسول (ﷺ) الأعداء من كلّ الجوانب، فاليهود يكيدون كلّ كيد لدحره، والقبائل تحاول القضاء عليه وعلى دينه، والمشركون يتربّصون به كلّ دائرة، فكان يضيق بذلك صدره الشّريف، فسلّاه الله تعالى وبشّره بالنّصر على أعدائه وفتحه لمكّة، فأنزل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(٣)﴾ سورة النّصر. فوقع ما بشّره الله تعالى به بعد ذلك وفتح مكّة وانتصر على أعدائه جميعاً.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٣، ثمّ قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ سورة البقرة الآية٢٤. فأخبر بقوله: ولن تفعلوا بأنّ منكري القرآن لا يفعلون معارضة القرآن ولا يستطيعون تحدّيه إلى يوم القيامة. فلو لم يكن القرآن من الله تعالى فكيف يجرؤ محمّد أن يعلن هذا التحدي ويكون كما أعلن. فإنّه منذ ذلك الوقت وإلى الآن لم يستطع أحد هذه المعارضة ولن يستطيع بعد ذلك أحد.

رابعاً: إنّ الله تعالى يقول: ﴿وألفيا سيّدها لدى الباب﴾ سورة يوسف الآية/ ٢٥، فاطلق لفظ السّيد على العزيز وهو كان زوجاً للّتي راودت يوسف عن نفسها لا سيّدها. والسّر في ذلك أنّه أكتشف في الآونة الأخيرة من تاريخ مصر القديمة فوجدوا فيها أنّ أهل مصر كانوا يقولون لزوج المرأة سيّدها. فأين عرف محمّد هذا الإصطلاح؟ وهو لم يقرأ التّاريخ ولم يعرفه لولا أنّ الله تعالى علّمه ذلك، إذن القرآن من الله تعالى حقّاً ويقيناً. وبالمناسبة لا زال المصريّون يستخدمون هذا المصطلح.

خامساً: عبّر الله تعالى عن حاكم مصر في زمن موسى (عليه السلام) بفرعون وسمّاه في زمان يوسف (عليه السلام) بالملك. والسّر في ذلك أنّه اكتشفت تاريخيّاً أيضاً أنّ المصريين كانوا إذا كان الحاكم منهم يسمّونه بفرعون، وفي وقت موسى كان الحاكم منهم. وإذا

كان الحاكم من غيرهم ومن المستولين عليهم يسمّونه بالملك. وكان الحاكم في زمن يوسف من الهكسوس واستولوا عليهم. فمن أين عرف محمّد هذا التّعبير الدّقيق؟ إن لم يكن القرآن من الله تعالى. فاشهد يا أخي مطمئنّاً بأنّ محمّداً رسول الله.

الرّابع: علم الفلك:

يذكر القرآن الكريم صراحة أو إشارة أشياء كثيرة عن الأجرام العلويّة، وفي وقت لم يكن لأهل الجزيرة العربيّة علم بذلك، ثمّ جاء علم جغرافية السّماء وصدّق كلّ ما يقوله القرآن. ولو كتبنا كلّ ما يتعلّق بهذا الموضوع لاحتجنا الى تأليف مستقل إلّا أنّه نذكر هنا بعض الأمثلة:

المثال الأوّل: يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ سورة يونس الآية/ ٥. وقد ثبت في اللّغة العربيّة أنّ الضّياء يقال لما كان إشراقه من ذاته، ويقال النّور لما لا يكون له إشراق من ذاته وإنّما يأخذه من غيره ويعكسه للعالم، وبعد ما اكتشف حال الشّمس، والقمر تبيّن أنّ الشّمس تشرق بنفسها وأنّ القمر ليس له إشراق بلْ يأخذ الإشراق من الشّمس ويعكسه للأرض كالمرآة.

المثال الثّاني: يقول الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ سورة الرّحمن الآية/ ٣٣، فأخبر بأنّ الإنسان يستطيع أن يسير في أقطار السّماوات والأرض بسلطان وهو العلم، وتهيئة الأسباب لذلك، وقد جاء العلم وهيّأ أسباباً يصعدون بها إلى السّماء. ثمّ أخبر الله تعالى في نفس الآية بأنّ المانع من نفوذ الإنسان في أقطار السّموات والأرض أنّه يوجد في الجوّ شرارات من النّار والنّحاس فتمنع الإنسان من النّفوذ. فأثبت العلم أنّه توجد طبقة حارّة في الأعلى تحرق كلّ ما وصل إليها إلّا ما يصاحبه مانع من ذلك. وكذلك توجد طبقة حارّة في جوف الأرض تحرق كلّ ما يصلها. إلّا أنّ سلطان العلم وصل إلى أنْ اخترع ما يمنع الإنسان من تأثير هاتين الطّبقتين والمرور فيها دون احتراق وذلك هو السّلطان الّذي أخبر عنه القرآن.

المثال الثّالث: إنّ القرآن يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأنبياء الآية / ٣٠. ولقد أثبت العلم أنّ الأرض والسّماوات كلّها كانت كرةً واحدةً فانفلقت تلك الكرة

وأصبحت أرضاً وسماءً وكواكب ونجوماً وشموساً وأقماراً. فمحمّد الّذي عاش أُمّيّاً من أين عرف هذه الأمور الدّقيقة الّتي لم تعرف إلّا بعد برهة من الزّمان؟ وأموراً لم تعرف إلى الآن وسيكتشفها الزّمن والعلم. تصديقا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ سورة السجدة الآية/ ٣٣. هكذا يشهد علم السّماء أنّ القرآن من الله تعالى وأنّ محمّداً رسوله وليس بمجنون.

الخامس: علم النّبات:

١. يقول الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة يس الآية/ ٣٧. فأخبر في هذه الآية الكريمة أنّ ما ينبت من الأرض من النّباتات والأشجار كلّها منها ذكر وأنثى، وإنّ الأنثى تلقّح من الذّكر فتثمر وإلّا فلا. ثمّ أخبر بأنّ التّلقيح في النّبات والشّجر يكون بسبب الرّياح فتأتي الرّيح وتأخذ اللّقاح من الذّكر وتبثّه على الأنثى، وبذلك يتمّ التّلقيح. قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ سورة الحجر الآية / ٢٢.

٢. ويقول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ سورة الإسراء الآية / ٤٤، فأخبر في هذه الآية بأنّ كلّ شيء من الجمادات والحيوان والنّباتات له كلام ونطق ويسبّح لله تعالى بنطقه وكلامه، إلّا أنّ الإنسان لا يفهم تسبيحه ولا يسمعه إلّا إذا أراد الله ذلك، كما أظهر ذلك معجزة للرّسول (ﷺ) فسبّح الحصى في يده وسمع ذلك التّسبيح أبو بكر وعمر وبعض أصحابه. وفي هذه الآونة الأخيرة أثبت العلم أنّ الأشجار لها كلام ولغة يتكلّم بها بعضها مع بعض. وسيثبت أنّ للجماد أيضاً كلام ولغة يتفاهم بها فيما بينها كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ سورة الزلزلة الآية/ ٤.

السّادس: علم الإنسان:

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ سورة المؤمنون

الآيات/ ١٢ ـ ١٤، وقد شرح الرّسول (ﷺ) هذه المسألة فقال: إنّ النّطفة تبقى في الرّحم أربعين يوماً ثمّ تصير علقةً إلى أربعين يوماً ثمّ تصير مضغة أربعين ثمّ تصوّر وينفخ فيها الرّوح. فمن أين عرف محمّد هذه الأدوار للجنين؟ وأشياء أخرى أخبر عنها فجاء العلم وأثبت كما أخبر به محمّد (ﷺ) فهل درس محمّد في كليّة الطّب؟ كلاّ، ولكنّه من ربّ العالمين.

خاتمة: إنّ ما ذكر من شهادات العلم على رسالة الرّسول هو قطرة من نهر، وإنّ من يقرأ القرآن ويطبّقه مع العلم يندهش ويتحيّر، ولا يبقى له مجال إلّا أن يقول: أشهد أنّ هذا القرآن من الله تعالى، وأنّ محمّداً رسول الله، وقد أسلم كثير من المستشرقين بهذه الطّريقة واعترف بعض آخر منهم بهذه الحقيقة وإن لم يسلموا اعترافاً بالحقّ ووفاءً للعلم وأمانةً للتّاريخ. ولم ينكر ذلك إلّا الحاقدون منهم لأنّ الحقد ممّا يعمي ويصمّ.

* * *

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾

(وإنّ لك) يا أيّها النّبيّ نتيجة تحمّلك هذه الرّسالة وتبليغها **(لأجراً)** عند الله تعالى **(غير ممنون)** أي غير مقطوع. فلا ينتهي أجرك هذا ولا ينقطع إلى يوم القيامة وقيام السّاعة. وذلك لأنّ كلّ من عمل عملاً أو نشر علماً يبقى له أثر ذلك العمل والعلم مدّة بقائها وهذه قاعدة من قواعد الإسلام، ومنحة من منح الله تعالى، تشجيعاً للمرء على عمل الخير ونشر العلم. قال رسول الله (ﷺ): (من سنّ سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجرهم شيئاً)[١] وقال أيضاً: (ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلّا كان له به صدقةً)[٢]. قال تعالى: ﴿إنّا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ

---

(١) فتح الباري ١٢ / ١٩٣ بهذا اللفظ، قال أخرجه مسلم في حديث جرير ولكن لفظ مسلم هكذا: (من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء) صحيح مسلم ج٤/ ص٢٠٥٩ الحديث رقم١٠١٧.

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١١٨٩ الحديث رقم١٥٥٣.

شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ سورة يس الآية ١٣. وإنّ الرّسول (ﷺ) هو الّذي جاء بهذا الدّين من الله تعالى ونشره بين النّاس، فكلّ مسلم يعمل عملاً حسناً من الأعمال الرّوحيّة أو البدنيّة أو الماليّة أو الفرديّة أو الإجتماعيّة فالرّسول شريك له ويأخذ مثل ما يأخذه هذا العامل من أمّته من الأجر، لأنّه هو الّذي علم النّاس هذه الأعمال ودلّهم عليها، والدّال على الخير كفاعله هذا. وإنّ الإسلام وجماعة المسلمين لا ينتهون ولا ينقطعون إلى يوم القيامة. فإنّ الرّسول (ﷺ) قال: (لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم حتّى يأتي أمر الله)[١] أي السّاعة. وبهذا يكون أجر الرّسول (ﷺ) لا ينتهي عدداً ولا ينقطع مدداً إلى يوم القيامة. وفي هذا حثّ للرّسول (ﷺ) ولكلّ داعية إلى الإسلام على أن يستمرّ على دعوته ويدأب على جهاده وأن لا يزحزحه عن ذلك أيّ شيء فإنّ له لأجراً بسبب ذلك لا ينقطع ولا ينتهي إلى قيام السّاعة.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾

وهذا دليل آخر على أنّ محمّداً (ﷺ) ليس بمجنون بل إنّه رسول من الله تعالى، لأنّ هذا الخلق العظيم الّذي هو عليه ليس بأخلاق المجانين ولا يليق بهم، بل هو من أخلاق الأنبياء والمرسلين.

سؤال: كيف كان خلق الرّسول (ﷺ) والّذي وصفه الله تعالى بأنّه عظيم؟

الجواب: سئلت السّيدة عائشة (رضي الله عنها) عن خُلُق الرسول؟ فقالت: كان خُلُقه القرآن[٢]. فمن أراد أن يتخلّق بخلق الرّسول فليتخلّق بأخلاق القرآن ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم﴾ سورة الإسراء الآية/ ٩ هذا وللتّبرك نودّ أن نذكر نبذة من أخلاق الرّسول (ﷺ) ليقتدي به المسلمون حيث أمر الله تعالى بذلك فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ سورة الأحزاب الآية/ ٢١.

* * *

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٥٣ الحديث رقم ١٩٢٠.
(٢) مسند أحمد بن حنبل ٦/ ٢١٦ الحديث رقم ٢٥٨٥٥.

ومن صفات الرّسول (ﷺ) الّذي شهد له الاعداء قبل الأتباع:

١ ـ **الصّدق**: كان الرّسول (ﷺ) صادقاً في أقواله وأعماله ولم يصدر عنه الكذب قطّ، ولذلك كان معتمد النّاس كلّهم وكان أعداؤه يعترفون بذلك. قال القرطبيّ نقلاً عن الصّحيحين عن ابن عبّاس قال: لما نزلت ﴿وأنذرْ عشيرتك الأقربين﴾ خرج رسول الله (ﷺ) حتّى صعد الصّفا، فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا الّذي يهتف؟ قالوا محمّد. فاجتمعوا إليه. فقال: (يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب!) فاجتمعوا إليه. فقال: (أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ)؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً. قال (فإنّي نذير لكم بين يديّ عذاب شديد) فقال أبو لهب: تباً لك! أمّا جمعتنا إلّا لهذا! ثمّ قام فنزلت هذه السّورة (تبّت يدا أبي لهب وتب... إلخ)[1]. ففي هذه الرّواية نرى أنّ القوم لم يستطيعوا أن لا يعترفوا بصدقه فقالوا: ما جرّبنا عليك كذباً. إلّا أنّ الشّيطان أعماهم عن الإيمان به.

٢ ـ **الأمانة**: كان الرّسول (ﷺ) أميناً لم يُر فيه الخيانة قطّ. وهو أوّل رجل لقب بالأمين بين قريش لأمانته. فكان النّاس يضعون أماناتهم عنده. ولهذه الأمانة أعجبت به السّيدة خديجة الكبرى فخطبته لنفسها فتزوجها بالرّغم من أنّه كان لا يملك شيئاً، وإنّ كلّ أثرياء مكّة كانوا يرغبون في نكاح خديجة، وخطبوها إلّا أنّها رفضت الكلّ وخطبت هي محمّداً وتزوجته لأمانته. وحينما هاجر (ﷺ) إلى المدينة خلّف عليّاً مكانه ليردّ الأمانات الّتي كانت عنده بالرّغم من أنّ الأمانات كانت لأعدائه الّذين أرادوا قتله، فبقي عليٌّ كرم الله وجهه وردّ الأمانات كلّها ثمّ إلتحق به.

٣ ـ **الحلم**: كان الرّسول (ﷺ) حليماً لا يغضب على أحد لنفسه إلّا أنّ يرى أحداً يخالف أمر الله تعالى فيغضب لذلك، ولاثبات ذلك نروي إليكم هاتين الحادثتين:

الحادثة الأولى: يُرْوى انّه (ﷺ) كان يمشي في سكك المدينة وكان على كتفه رداء، فجاء أعرابي فجرّ رداءه وأثّر في كتفه، وقال: يا محمّد أعطني فإنّك لا تعطيني من مالك ولا من مال أمّك بل من مال المسلمين، فالتفت إليه الرّسول (ﷺ) وقال: ماذا تريد؟ قال: الطّعام، فقال: اذهبوا به وحمّلوا له بعيره، فلمّا حملوا له بعيره، قال له الرّسول (ﷺ): هل أخذت حقّك؟ قال: نعم. قال: وأنا آخذ منك حقّي! قال: ماذا؟ قال: قد

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٩٠٢ الحديث رقم٤٦٨٧، صحيح مسلم ١/ ١٩٣ الحديث رقم ٢٠٨.

آذيت كتفي، قال الأعرابي: لا. قال: الرّسول (ﷺ): ولم؟ قال لأنّك رؤوف رحيم، فتبسّم الرّسول وذهب الأعرابي يحدو بعيره.

الحادثة الأخرى: إستدان الرّسول (ﷺ) بعض النقود من يهودي، فجاء اليهودي قبل أن يحلّ موعد الوفاء وطلب من الرّسول (ﷺ) أن يفي بدينه فقال الرّسول (ﷺ): إنّه لم يحلّ الموعد، فجذب اليهودي من مجامع ثوب الرّسول وشدّه شدّاً عنيفاً وقال بغلظة: إنّكم يا بني هاشم قوم تماطلون في أداء الدّيون، فنهره عمر (رضي الله عنه) وأراد أن يقتله، فقال الرّسول (ﷺ): مهلاً يا عمر ليس لك هذا، إنّما لك أن تقول لصاحب الحقّ: إذا طلبت فأحسن الطّلب، وأن تقول لي: إذا استقرضت فأحسن الأداء، فذهب اليهودي ثمّ رجع ثانية وفعل مثل ما فعل سابقاً وأساء الأدب فأراد عمر قتله فمنعه الرّسول (ﷺ) وقال له مثل ما قال أوّل مرّة، فوقع اليهودي على قدم الرّسول، وقال: يا محمّد! والله ما جئت لأطلب منك الدّين، فإنّي أعرف أنّ الموعد لم يحلّ، ولكنّني قرأت جميع أوصافك في التّوراة فوجدتها كلّها متحقّقة فيك إلّا الحلم لم أجرّبه فجئت لأجرّبه فوجدت أنّ شدّة الجهالة لا تؤثّر فيك ولا تزيدك إلّا حلماً، فأشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنّ محمّداً رسول الله. وأمّا الدّين فقد جعلته صدقة لفقراء المسلمين. وقال أنس: خدمت رسول الله (ﷺ) عشر سنوات فلم يقل لشيء لم افعله لم لم تفعله؟ ولا لشيء فعلته لم فعلته؟ وهكذا كان الرّسول (ﷺ) يهدي النّاس بأخلاقه إلى الإسلام. فهكذا يجب أن يكون المسلم وكلّ مرشد إلى الدّين.

٤ ـ **التّواضع**: كان الرّسول (ﷺ) متواضعاً نزيهاً عن الكبر والخيلاء. فكان يقول لأصحابه لا تعظّموني كما يعظم الأعاجم أكاسرهم[١]. وكان حينما يأتي إلى المجلس يجلس حيث يراه خالياً. ولم يكن له مكان خاصّ ولا زيّ معين فكان الرّجل يأتي ولا يعرف من هو الرّسول، فيسأل ويقول أيّكم محمّد؟ فيشيرون إليه فيعرفه. وكان يقول لا تطروني كما أطرت النّصارى بعيسى فجعلوه إبناً لله فضلّوا، قولوا: عبد الله وإبن عبد الله، أو قولوا: رسول الله. وكان (ﷺ) يجيب دعوة الغني والفقير، وكان يبتسم في وجه

(١) لم أجده حديثاً، لكنه يوافق ما رواه أبو داود وغيره عن أبي أمامة قال: خرج علينا رسول الله (ﷺ) متوكئا على عصا فقمنا إليه فقال لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا / سنن أبي داود ج٤/ ص٣٥٨ الحديث رقم ٥٢٣٠.

النّاس. وحينما يصافحه أحد لا يسحب يده حتّى يسحب المصافح يده، وكان يقف للعجائز في الطّريق ويجيب عن أسئلتهنّ ويقضي حاجتهنّ، وكان يحمل الأحجار مع أصحابه حينما بني المسجد، وفي السّفر يجمع الحطب لإعداد الطّعام مع الأصحاب، وقال (ﷺ) لرجل وقف أمامه فارتعش من هيبته: لا تخف فإنّي لست إلّا ابن امرأة كانت تأكل القديد[١]. إلى غير ذلك ممّا يدلّ على تواضعه وحسن خلقه ما لا يمكن سرد جميعه إلّا في كتاب كبير وخاصّ بذلك الموضوع.

٥ ـ السّخاء:

كان الرّسول (ﷺ) كثير السّخاء، لم يقل: لا في جواب السّائلين قطّ. قال الشّاعر في وصفه:

ما قال لا قطّ إلّا في تشهّده لولا التّشهّد كانت لاؤه نعم

ولم يكن يدخر في بيته ديناراً ولا درهماً. وحينما كان يصوم لا يفطر حتّى ينفق ما في بيته على الفقراء من نقد، فصادف يوماً وهو صائم أن وجد في بيته دينارين فلم يفطر حتّى أخبروه بأنّه جاء فقيران وصرف لهما الدّيناران فأفطر حينذاك.

٦ ـ العدل:

كان الرّسول (ﷺ) عادلاً لا يفرّق في الحكم بين القريب والبعيد والقويّ والضّعيف والغنيّ والفقير. ومن عدله أنّه حينما نزلت آية الرّبا خطب بين النّاس فقال: إنّ كلّ ربا موضوع (أي لا يجوز أخذ الزّيادة على القرض) وأوّل ربا أضعه ربا العباس ابن عبد المطلب. فنفّذ الحكم أوّل ما نفذ على عمّه العباس وقال: وكلّ دم في الجاهليّة موضوع وأوّل دم أضعه هو دم ربيعة بن عبد المطلب وهو عمه. وقد سرقت امرأة مخزوميّة فأمر بقطع يدها، فأرادوا أن يشفعوا لها فلم يستطيعوا، فكلّفوا زيداً وهو كان حِبه فعرض عليه زيد فغضب الرّسول (ﷺ) وقال: أيُشْفع في حدّ من حدود الله وأنا بين أظهركم؟، ثمّ قام فاختطب ثمّ قال: إنّما أهلك الّذين من قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم القويّ تركوه، وإذا سرق الضّعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها[٢].

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٢/٥٠٦ الحديث رقم ٣٧٣٣.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ١٢٨٢ الحديث رقم ٣٢٨٨.

وخلاصة القول إنّ كلّ أخلاق الرّسول (ﷺ) كانت عظيمة، وبأخلاقه العظيمة استطاع أن يوحّد بين تلك القبائل المتطاحنة وأن يهدي هؤلاء الأعراب الجلف والشّديدة في العنف والجهالة. فللّه درّ البويصريّ إذ يقول:

كفاك بالعلم في الأميّ معجزةً في الجاهليّة والتّأديب في اليتم

ولذلك قال تعالى: **(وإنّك لعلىٰ خلق عظيم)**.

* * *

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾

(فستبصر ويبصرون) أي فعن قريب يتّضح لك ولهم **(بأيكم)** أيّ بأيّكم التّصق **(المفتون)** مفعول أريد به المصدر أي بأيّكم التصق الفتنة وهي الجنون. وهذا الأمر يتّضح في الآخرة وهي قريب فإنّه في الآخرة يعلم كلّ كافر الحق ويعترف أنّه كان ضالاًّ وغير عاقل كما قال تعالى حكاية عن الكافرين: ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ سورة الملك الآيات/ ٩-١١. ويتّضح ذلك الأمر أيضاً عند ثبات المؤمنين على دعوتهم ونضالهم في سبيل نشر دين الله تعالى. وقد حصل ذلك لمشركي مكّة فإنّهم تبيّن لهم الحقّ وأسلموا، وكانوا يسمّون حالهم قبل الإسلام بالجاهليّة، فكانوا يقولون كنّا في الجاهليّة نعمل كذا وكذا. وهذه معجزة القرآن حيث أخبر بأنّ أعداء الرّسول سيتّضح لهم الأمر ويعلمون أنّ الجنون ملتصق بهم لا بالرّسول (ﷺ)، ووقع الأمر كما أخبر عنه القرآن.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

هذه الآية وعيد للكافرين بالعذاب في الدّنيا أو الآخرة أو فيهما، فإنّ المعنى **(إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله)** فينتقم منهم **(وهو أعلم بالمهتدين)** فيثيبهم وينصرهم. وقد حقّق الله وعده هذا بنصر المؤمنين وهزيمة الكافرين في بدر، وحين فتح مكّة بأيدي المسلمين.

خاتمة: إنّ مفاد هذه الآيات الكريمة ليس مختصاً بالرّسول (ﷺ) ولا بزمانه فقط، بل إنّ في كلّ زمان شرذمةً وأناساً يسمّون المتمسّك بالآداب الإسلاميّة باسم الرجعيّة أو

الخرافيّة وغير ذلك من اسماء التّعيير والتّشهير، إلّا أنّ هؤلاء لو فكّروا في الإسلام وطبّقوه مع العلم والواقع يدركون ويعترفون بأنّ الإسلام حقّ وإنّهم هم جهلاء ومنحرفون عن الصّراط المستقيم. فعلى المسلم والدّاعي إلى الإسلام أن لا يحزن من هذه الدّعايات لأنّ له أجراً كبيراً على ما يتحمّل من الأذى في سبيل هذا الدّين. فإنّ الله يعلم به فيثيبه ويسبغ عليه نعمه في الدّنيا والآخرة، ويعلم أعداءه فينتقم منهم بعذاب أليم.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾

كان المشركون يأتون رسول الله (ﷺ) ويقولون له اترك سبّ آلهتنا وخذ شيئاً من ديننا ونحن نأخذ شيئاً من دينك، وبذلك نتصادق ونتقارب ويرتفع هذا العداء بيننا. فأنزل الله تعالى عليه قوله: **(فلا تطع المكذّبين)** والمعنى بعد أن عرفت أنّك رسول الله ولست بمجنون، وأنّهم هم المجانين أي عديمو العقول والبصائر، وأنّ لك أجراً غير منقطع على هذه الرّسالة، وإنّه سيتّضح لك ولهم أنّهم هم المفتونون، وأنّ الله يثيبك ومن اتّبعك على ما ترون من المشقّة في سبيل هذا الدّين، وأنّه يعاقب هؤلاء الكفرة على عدائهم لك ولدينك وأتباعك، وأنّ النّصر لك، فبعد كلّ ما عرفته من ذلك (فلا تطع المكذّبين) أي الّذين يكذّبونك في أنّك رسول الله ويكذبون بدينك هذا الدّين القويم.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾

يحبّون ويودّون مداهنتك لهم ومتابعتك إيّاهم؛ ولذلك يداهنونك ويتقرّبون إليك، فاحذرهم ولا تطعهم فإنّ في ذلك دسيسة وفي ذلك ضرراً لك ولدينك وللمؤمنين، ولأنّ الإسلام طريقة مستقيمة لا تقبل الإعوجاج ومنهج مستقل لا يقبل خلطاً وتغييراً، وصامد لا يقبل الملاينة والمداهنة، وصريح لا يقبل الخفاء في الأمر والغموض فيه.

تنبيه: إنّ هذه الآية الكريمة وإن نزلت على الرّسول ﷺ إلّا أنّها ليست مختصة بالرّسول (ﷺ) وبالمؤمنين الّذين كانوا في زمانه فحسب بل إنّها أمر وتحذير لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، ونهي لهم عن أن يوادّوا الكافرين أو يصادقوهم أو يولّوهم أمورهم وقد صرّح الله تعالى بهذا النّهي في آيات كثيرة من القرآن الكريم وإليك بعضاً منها لتعلّم مدى خطر تولية الكافرين ومصادقتهم.

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٢٨. والمعنى إلى الله رجوعكم فينتقم منكم انتقاماً شديداً على مصادقتكم للكافرين وتولّيتكم إيّاهم أموركم.

١. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٨٨. وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ اتّخاذ المسلم من لا يدين بدينه ولا يعتقد عقيدته وليّاً له، دليل على عدم عقله وسوء تصرّفه في الحياة. فإنّ المخالف في العقيدة مهما يكون صديقاً لك فهو عدوّ لك ويتربّص بك الدّوائر، فإنّ الاختلاف في العقيدة عداء لا يمكن الجمع بينه وبين الصّداقة أبداً.

٢. قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ سورة المجادلة الآية/ ٢٢. وفي الآية نصّ على أنّ المصادقة والتّحابب مع الكافرين دليل على عدم الإيمان، وانّه لا يجتمع ذلك مع الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنّ من فعل ذلك فليس بمؤمن حقّاً.

٣. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ سورة المائدة الآية/ ٥٤، وفي هذه الآية تصريح بأنّ من اتّخذ غير المسلمين وليّاً لأمره وأمين سرّه ومعتمد أمره وشريك عمله في تنظيم الحياة الاجتماعيّة والعمل الموحّد، فإنّه ظالم وإنّ الله تعالى لا يهديه، ولا يوفّقه في الدّنيا ولا في الآخرة للخير والفوز.

والآيات في النّهي عن تصادق الكافرين كثيرة تجدها في القرآن الكريم، ولا يمكن سردها كلّها هنا. واقرأ التّاريخ لتعلم أنّ الاستعمار لم يستطع أن يستولي علينا إلّا بعد أن اتّخذ بطانة من المسلمين، فاتّخذهم جسراً عبر عليهم ودخل بلادنا ولعب بنا ما لعب ويلعب. وإنّ هذه البطانة قد لاقوا انتقام الله تعالى في الدّنيا قبل الآخرة، وإنّ عذاب الآخرة أشدّ وأبقى. وسيلقى كلّ من يعمل للكافر انتقامه من الله تعالى في الدّنيا والآخرة ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ سورة الشّعراء الآية/ ٢٢٧.

❊ ❊ ❊

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾

(ولا تطع كلّ حلّاف) أي لا تطع ولا تصادق كلّ من كان كثير الحلف على كلامه **(مهين)** أي حقير في ذاته وفي رأيه، ولذلك يكثر من الحلف لتقوية رأيه، والمراد هنا الّذي يحلف كذباً، فالمراد: ولا تطع الكاذبين الّذين يكذبون في أقوالهم وأعمالهم وعهودهم ووعودهم، وفسّرنا كذلك لأنّ الحلف على الحقّ والصّدق لا يذمّ وإن كان كثيراً، فإنّ الله تعالى كثيراً ما يحلف في القرآن الكريم، وإنّ رسول الله (ﷺ) كان كثيراً يحلف ويقول: (والّذي نفس محمّد بيده) مثلاً. فالآية جاءت للنّهي عن تصديق الكاذبين وإطاعتهم وذمّ الكذب وبيان أنّ الكذب خلق ذميم يجب على المسلم أن يجتنبه ويجتنب مصادقة من يتّصف به. قال النّبيّ (ﷺ): (كبرت خيانةً أن تحدّث أخاك حديثاً هو لك به مصدّق وأنت له كاذب)[١] وقال أيضًا: (إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلاً من نتن ما جاء به)[٢] والأحاديث في ذمّ الكذب والنّهي عنه كثيرة جدّاً. ومن الأعظم إثماً أن يحلف الإنسان على ما يكذب فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)﴾ سورة آل عمران الآية/ ٧٧، .

تنبيه: قد علمت عظمة جريمة الكذب وكثرة إثمه إلّا أنّه يجوز في مواضيع نذكرها هنا:

الأوّل: للإصلاح بين المسلمين.

الثّاني: لإرضاء الزّوج والأهل.

الثّالث: لمصلحة الحرب والجهاد.

قالت أمّ كلثوم (رضي الله عنها): ما كان رسول الله (ﷺ) يرخّص في شيء من الكذب إلّا في ثلاث، كان يقول (ﷺ): لا أعدّه كذباً، الرّجل يصلح بين النّاس يقول ولا يريد به إلّا الإصلاح، والرّجل يحدّث امرأته والمرأة تحدّث زوجها[٣].

---

(١) مسند الشهاب ٣/ ٣٥٧ الحديث رقم ٦١١.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٣٠٨ الحديث رقم١٩٧٢.

(٣) سنن أبي داود ٤/ ٨١ الحديث رقم٤٩٢١.

الرّابع: لإنجاء المظلوم من الظّالم ماله أو نفسه من شخصك أو مسلم غيرك؛ فيجوز الكذب هنا والحلف عليه.

* * *

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾

أي ولا تطع كلّ همّاز مشّاء بنميم، ولفظ كلّ في هذه الآيات للعموم والإستغراق، أي ولا تطع أي واحد من الحلافين والهمّازين والمشّائين بنميم. ولنأت على معنى الهمّاز والمشّاء بنميم: **(الهمّاز)** من الهمز وهو الغيبة، والغيبة كما فسره الرّسول (ﷺ): هو ذكرك أخاك بما يكره، أي يكره أن يذكر به. وقيل للرّسول (ﷺ) أو رأيت لو كان فيه ذلك الوصف؟ فقال (ﷺ): إنّ كان فيه فقد غبته وإلّا فقد بهتّه[١]، أو كما قال: فالغيبة صفة ذميمة يجب على كلّ مسلم أن يتجنّب عنها، وإنّ الله تعالى شبّه المغتابين بالّذي يأكل لحم أخيه ميتاً فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة الحجرات الآية/ ١٢. والسّر في هذا التّشبيه أنّ للإنسان حياتين حياة الجسم وحياة الشّرف، فمن اغتاب أحداً فقد نقص من شرفه وتقديره بين النّاس ونقص بذلك من حياته، فكان كأنّه أكل لحمه، وأمّا تشبيهه بالميّت فلأنّ الغائب لا يستطيع الدّفاع عن نفسه كالميت. هذا وإنّ ضرر الغيبة يرجع إلى فاعلها، فإنّه روى أنس بن مالك أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (لمّا عرج بي إلى السّماء مررت بقوم لهم أظفار من النّحاس يخمّشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت من هؤلاء يا جبريل قال: هؤلاء الّذين يأكلون لحوم النّاس ويقعون في أعراضهم)[٢].

تنبيه: بالرغم من قبح الغيبة وخبثها وكثرة وزرها فإنّها تجوز بل تجب في ستّة مواضع جمعها الشّاعر في بيتين فقال:

---

(١) نص الحديث كما جاء عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ». قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِى أَخِى مَا أَقُولُ قَالَ «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ» . صحيح مسلم ٨/٢١ الحديث رقم ٦٧٥٨ .

(٢) سنن أبي داود ٤/ ٢٦٩ الحديث رقم ٤٨٧٨.

القدح ليس بغيبةٍ في ستّةٍ — متظلّم ومعرّف ومحذّر
ولمظهرٍ فسقاً ومستفتٍ ومن — طلب الإعانة في إزالة منكر

ونشرح هؤلاء الأشخاص السّتّة فنقول:

متظلّم: هو من ظلمه ظالم فيذكر ظلمه، ويصف مظلمته عند الحاكم أو عند النّاس ليرفعوا عنه مظلمته.

ومعرّف: وهو من يذكر شخصاً ولا يعرف بين النّاس إلّا بذكر وصف اشتهر به مثل الأعرج أو الأعمى أو غير ذلك؛ فيجوز ذكره بهذا الوصف بتعريف.

ومحذّر: وهو من يحذر شخصاً من مصاحبة شخص أو التّعامل معه لأنّ ذلك الشّخص لا يصلح للمصاحبة والتّعامل لعيب فيه، فيذكر له ذلك العيب مثل:

أ. رجل يريد أن يخطب امرأة فيجب عليك أن تذكر له عيوب هذه المرأة إن وجدت، لأنّ الرّسول (ﷺ) قال: (من أستشير في خاطب ذكر مساويه)[(١)] قال العلماء: وكذا إن لم يستشر لأنّ دفع الضّرر على المسلم واجب، وكذا يجب ذكر عيوب الخطيب لمخطوبه أيضاً حيث لا فرق بينهما في دفع الضّرر عنهما.

ب. طالب يريد أن يدرس أو يستفتي عالماً فيجب أن تذكر له عيوب العالم إن وجدت فيه لأن لا يتضرّر الطّالب به.

جـ . شخص يريد أن ينتمي إلى شيخ يجب عليك أن تذكر عيوب الشّيخ لكي لا يتضرّر به المريد.

د. مريض يريد مراجعة طبيب يجب ذكر عيوب الطّبيب كي لا يتضرّر المريض به.

هـ . رجل يبيع ويشتري يجب عليك أن تذكر عيوبه إن وجدت كالغش والتطّفيف مثلاً لكي لا يتضرّر الزّبائن به.

وهكذا كلّ صاحب عمل يجب عليك ذكر عيوبه لمراجعه لكي لا يتضرّر به النّاس كالمحامين والأطبّاء والمهندسين والمقاولين والبنّائين وأصحاب الحرف: وعلى هذا فقس إن كنت ذا قياس.

---

(١) لم أجده حديثا ولكنه من قول الغزالي رحمه الله تعالى | انظر فيض القدير ١/١١٦.

ولمظهرٍ فسقاً: وهو الّذي يجهر بالفسق، يجب عليك ذكر فسقه ليمتنع النّاس من فسقه وليمنعوه عن الفسق إن استطاعوا.

ومستفتٍ: وهو الّذي يسأل عالماً فيقول: إنّ فلانا يقوم بهذا العمل فهل هو حرام أم لا؟ وما هو حكمه وعقوبته؟

ومن طلب الإعانة في إزالة منكر: وذلك كمن يأتي إلى الحاكم ويقول: فلان يعمل المحرّم الفلاني ليمنعه الحاكم أو يأتي إلى النّاس ويذكر عمله ليمنعوه إن استطاعوا.

وأمّا المشّاء بنميم فمعناه: الّذي يسعى بين النّاس بنميمة حيث ينقل أقوال بعضهم أو أعمالهم لبعض؛ ليوقع بينهم العداوة والبغضاء، وإنّ هذه الصّفة جريمة إجتماعيّة كبيرة يجب على المسلم أن يتجنّب عنها وعلى كلّ من يتّصف بهذه الصّفة الخبيثة، وإنّ عذاب الله تعالى للنّمّام عظيم، قال الرّسول (ﷺ): (لا يدخل الجنّة قتّات)[١] والقتّات هو النّمّام، وقال أيضاً: (إنّ شرّ النّاس ذو الوجهين الّذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه)[٢] أي للإفساد بينهم.

تنبيه آخر:

إنّ النّميمة كما ذكرنا هي نقل كلام النّاس أو عملهم إلى آخرين لإيقاع الفتنة بينهم، وأمّا نقل ذلك للنّصيحة أو للمصلحة العامة فليس بنميمة بل هي نصيحة واجبة لدفع ضرر بعض النّاس عن بعض، أو عن المصلحة العامّة الإسلاميّة، وذلك مثل الرّجل الّذي يذكره الله تعالى فيقول: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾[٣] سورة القصص الآيه/ ٢٠.

* * *

﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾

أي ولا تطع كلّ من يكون **(منّاع للخير)** فلا يقوم هو بالخير ويمنع النّاس من أن

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٥٠ الحديث رقم ٥٧٠٩.
(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٢٦ الحديث رقم ٦٧٥٧.
(٣) القصص ـ ٢٠ ـ

يقوم بالخير، سيّما الّذين يمنعون النّاس من التّمسك بالإسلام، فإنّ الإسلام ينبوع كلّ خير وهاد إليه **(معتدٍ)** أي ظالم ومتعدّي على حقوق النّاس والّذي يتجاوز الحقّ ولا يأخذ به **(أثيم)** مذنب عاص منحرف عن أمر الله تعالى ودينه ومنهجه وحكمه.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

(عتل) أي غليظ القلب والقاسي، وبعد هذه الصّفات **(زنيم)** هو الّذي وسم بالشّر أي لازمه الشّر فصار يعرف به بين النّاس.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾

أي لا تطعه لأنّه كان ذا مال وبنين. إنّ هذه الآية لها معنيان:

الأوّل: إنّ من كان متّصفاً بهذه الصّفات فلا تطعه لكونه ذا مال وبنين أي ذا غنى وذا قوّة، فإنّ البنين كناية عن القوّة لأنّ صاحب البنين ذو قوّة يدافع عنه أبناؤه ويقهر النّاس بقوّة أبنائه. الإنسان حينما يطيع أحداً فإنّما يطيعه لقوّته خوفاً منه أو طمعاً أو لغناه طلباً للاستفادة من ماله. فنهى الله تعالى أن يطاع مَنْ هذه صفاته وإن كان ذا مال وقوّة.

الثّاني: (أن) أي لأنّه متعلّق بما بعده، فالمعنى لأنّه كان ذا مالٍ وبنين طغى وتكبّر حتّى صبح بحال أنّه:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾

أي إذا دعي إلى حكم الله والعمل به أبى وقال هذا من أساطير الاوّلين الّذين ذهب حكمهم كما ذهب زمانهم. وهذا المعنى أصحّ عندي؛ فإنّ كلّ كافر وملحد حينما يدعى إلى الحكم بكتاب الله وتطبيق نظام الله تعالى يقول: إنّ هذا نظام رجعي لا يلائم تقدّم العصر وإن كان صالحاً في وقته وأمّا الآن فلا، وما أكثر هؤلاء الكفرة ممّن يحملون الجنسيّة الإسلاميّة حيث نفخ المستعمر الأجنبي فيه وجعله عدوّ الدّين والنّظام الإسلاميّ وساقه إلى نظام هو بنظام الغاب والبهائم أشبه من نظم الإنسانيّة وترك نظام خالق الأرض والسّماء وصدق فيهم ما قاله البويصري:

كم حسّنت لذّة للمرء قاتلةً ... من حيث لم يدر أنّ السّم في الدّسم

فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وليتفطّن المسلم لهذه الدّسيسة وينتبه إلى أنّه كيف يسوقه الأجنبي إلى هاوية الذّل والعبوديّة والتّبعية في الدّنيا ويسوقه إلى جهنّم وبئس المصير في الآخرة.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾

(سنسمه) سنجعل علامة **(على الخرطوم)** على خرطومه أي أنفه، وهذه كناية عن الذّل فالمعنى: سنذلّ هذا الّذي يقول لآياتنا أساطير الأوّلين، قال ذلك لأنّ العادة جرت قبل أن من أرادوا إهانته يجعلون علامة على أنفه فيقطعون أنفه أو يجرحونه، فصار هذا كناية عن الإهانة والإذلال. إنّ هذه الآية وعيد لكلّ من يأبى اتّباع آيات الله تعالى والعمل بها بإذلاله في الدّنيا والآخرة أو في أحديهما، وقد حقّق الله تعالى هذا الوعيد في أهل مكّة فإنّهم ذلّوا وأهينوا في حرب بدر وحين فتح مكّة. وحقّقه الله فينا أيضاً حيث قد تسلّط علينا الأجنبي واستولى على ديارنا وبلادنا وغصب منّا أقدس بقعة بعد مكّة والمدينة وهي القدس الشّريف والمسجد الأقصى، كلّ ذلك بانحرافنا عن منهج الله وإبتعادنا عن دينه والتّبعيّة للأجنبي والعمالة له، فإنّا لله وإنّا اليه راجعون.

القصّة: ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر قصّة قوم انحرفوا عن أمر الله تعالى فانتقم منهم لتكون القصّة عبرة يعتبر به المخاطبون وليجتنبوا الظّلم وكلّ ما كان ذنباً أو إثماً أو معصية لأمر الله تعالى. وقبل الخوض في تفسير الآيات الّتي تتعلّق بالقصّة نذكر لكم خلاصة القصّة فنقول:

كان في اليمن رجل صالح متّبع لأوامر الله تعالى ومؤدّ لما وجب عليه من الواجبات الماليّة والبدنيّة، وكان له بستان ومزرعة داخل البستان، فكان الرّجل يعيش هو وأولاده عيشة مرضيّةً من غلات مزرعته وثمار بستانه، وكان يتصدّق بما فرض الله عليه للمساكين. فلمّا توفّي الرّجل رأى أولاده أنّما كان ينفق والدهم على المساكين شيء كثير وأنّه ضرر لا داعي لفعله فلم لا يدّخرون كلّ ما يحصلون عليه من البستان لأنفسهم، فهم أولى به لأنّه ملكهم، فقرّروا وحلفوا على أن يجنوا البستان دون أن يتركوا شيئاً للفقراء والمساكين، وأن يذهبوا إلى جنْيه غداً في الصّباح المبكّر حتّى لا يعلم به المساكين والفقراء ويجتمعوا حولهم يطلبون منهم جزءاً من المحصول، ففي نفس اللّيلة وهم نائمون أرسل الله تعالى صاعقةً فأحرقت البستان وجعلته أرضاً سوداء قاحلة لا

تنبت وكأنّها لم تنبت شيئاً قطّ، فلمّا أصبح الصّباح وانتبهوا من نومتهم الخاسرة دعا بعضهم بعضاً أن امشوا إلى البستان وقبل أن يشعر بنا أحد، فذهبوا وهم يتكلّمون فيما بينهم سرّاً ونجوى، ويقول بعضهم لبعض لا تدعْ أحداً من المساكين أن يدخل علينا حينما نجني الثّمار. فلمّا وصلوا إلى مكان البستان ولم يجدوا إلّا أرضاً سوداء لا نبات فيها ولا شجر ولا حبوب ولا ثمر. فلمّا رأوها كذلك قالوا: إنّا أخطأنا الطّريق وإنّ هذا ليس مكاناً لبستاننا، فلمّا نظروا إلى أطرافه وحدوده وعلموا أنّه هو بستانهم إلّا أنّ الله تعالى غضب عليهم فانتقم منهم وأحرق بستانهم نتيجةً لنيّتهم السّيّئة وغصبهم حقوق الفقراء والمساكين، فندموا من عملهم هذا وقالوا: إنّا ظلمنا أنفسنا فانتقم الله منّا وإنّ الله قد عدل فيما فعل بنا وتقدّس عن الظّلم وإنّا لحقيقون بالانتقام، فتوجّه بعضهم إلى بعض وأصبح كلٌّ يلوم الآخر ويقول: أنت الّذي حملتنا على هذا القرار، فردّ عليه قائلاً: بل أنت فعلت ذلك، ثمّ اعترف الكلّ بخطئه وتابوا إلى الله تعالى وقالوا: إنّنا جميعاً مذنبون فنستحقّ العذاب لأنّا كنّا طاغين وقد تجاوزنا حقوق الله تعالى وخالفنا أمره. ثمّ توجّهوا إلى الله تعالى فقالوا: نرجو الله تعالى أن يبدلنا خيراً من هذا البستان لأنّنا قد تبنا وإنّ الله يقبل التّوبة وهو أرحم الرّاحمين وهكذا ينتقم الله تعالى في الدّنيا من العصاة والظّالمين إن شاء وإنّ عذاب الآخرة لهم أشدّ إن استمرّوا على معصيتهم ولم يتوبوا إلى الله بترك المعاصي والذّنوب.

* * *

ولنرجع الآن إلى تفسير الآيات الكريمة:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾

(إنّا بلوناهم) إنّا امتحنّا أهل مكّة بإبداء النّعم والمال والبنين عليهم، فامتحنّاهم بذلك هل يشكرون نعم الله تعالى فيعبدونه ولا يشركون به شيئاً ويؤمنون برسوله ويتّبعون دين الله وشريعته؟ فلمْ ينجحوا من هذا الامتحان **(كما بلونا أصحاب الجنّة)** أي كما امتحنا أصحاب الجنّة أي البستان المعروف لأهل مكّة حيث كانوا يمرّون عليه حينما يذهبون إلى اليمن، امتحن الله أصحاب هذه الجنّة حيث وسّع عليهم رزقهم ومعيشتهم من غلّات وثمار هذا البستان فلم ينجح هذا الامتحان **(إذْ أقسموا ليصرمنّها مصبحين)** إذْ اتّفقوا وحلفوا أنّهم ليقطعنّ ثمار هذا البستان في الصّباح المبكّر **(ولا**

يستثنون) ولا يتركون من ثماره للفقراء والمساكين شيئاً.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾

(فطاف عليها طائف من ربّك) أي فبعد اتّفاقهم هذا وبسبب هذه النّيّة السّيئة غضب الله عليهم فأرسل صاعقةً ونزلت على البستان **(وهم نائمون)** لا يعلمون كلّ ذلك، وهم فرحون بأنّهم سيجنون ثمرة بستانهم ويأخذون ثماره كلّها دون أن يعطوا للفقراء شيئاً **(فأصبحت)** الجنّة هذه من أثر هذا الطّائف النّازل عليها **(كالصّريم)** كأرض قاحلة سوداء كاللّيل المظلم، فلا نبات فيها ولا شجر.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

(فتنادوا مصبحين) فحينما أصبحوا وانتبهوا من نومهم دعا بعضهم بعضاً **(أنْ اغدوا على حرثكم)** أي إمشوا صباحاً مبكّرين إلى البستان **(إن كنتم صارمين)** قاطعين ثماره.

﴿فَٱنطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾

(فانطلقوا) أي فذهبوا واتّجهوا نحو البستان **(وهم)** في هذه الحالة والمشي إلى البستان **(يتخافتون)** يتكلّمون سرّاً كي لا يسمع غيرهم، ويأمر بعضهم بعضاً **(أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين)** أي لا تدع أيّ مجال أن يدخل البستان اليوم أيّ مسكين وفقير، فذهبوا هكذا.

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾

(وغدوا على حرد) أي وفي النّهاية وقعوا على مكان محروم من كلّ ثمر ونبات **(قادرين)** وكانوا يظنّون أنّهم يقدرون **على** جني ذلك البستان **(فلمّا رأوها)** أي رأوا مكان الجنّة وهي قاحلة ليس فيها شيء من الثّمر والزّرع **(قالوا إنّا لضالّون)** أي أخطأنا الطّريق فإنّ هذا ليس مكان بستاننا، فهو في مكان آخر، ولكن لمّا فكّروا في حدوده وأطرافه وعلاماته عرفوا أنّ المكان مكان البستان، وإنّما البستان قد هلك فقالوا: لم نخطئ الطّريق **(بل نحن محرومون)** بل غضب الله علينا فأهلك بستاننا ونحن محرومو**ن** من منافعه وموارده.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(قال أوسطهم) قال أحسنهم رأياً وهو الّذي قال لهم أوّل مرّة: لا تفعلوا هذا ولا تمنعوا المساكين حقوقهم فلم يسمعوه **(ألم أقلْ لكم)** أوّل الأمر **(لولا تسبّحون)** أي لولا تعظّمون الله بإتّباع أمره وإعطاء المساكين ما أمر به، فحينئذٍ تنبّهوا لخطئهم واعترفوا بذنبهم **(قالوا سبحان ربّنا)** أي تنزّه ربّنا عن الظّلم؛ فما ظلَمنا بإهلاك بستاننا بل **(إنّا كنّا ظالمين)** لأنفسنا حيث تجاوزنا حدود الله تعالى وخالفنا أمره.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾

(فأقبل بعضهم على بعض) أي توجّه بعضهم إلى بعض فأصبحوا **(يتلاومون)** يلوم بعضهم بعضاً، هذا يقول لذاك: أنت الّذي حملتنا على هذا القرار والحلف، وذاك يقول: بل أنت فعلته وهكذا. ثمّ اعترف كلّهم بالذّنب **(قالو ياويلنا)** أي ياعذاب تعال إلينا فإنّا مستحقّون حيث **(إنّا كنّا طاغين)** متجاوزين حدود الله ومخالفين أمره.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

(عسى ربُّنا) لعل ربّنا، وهذا دعاء منهم، فمعناه نرجو من ربّنا **(أن يبدلنا)** أن يعطينا بدل هذه الجنّة جنّةً **(خيراً منها)** أي من تلك الجنّة الّتي كانت فأُهلكت وذلك حيث **(إنّا إلى ربّنا راغبون)** أي تائبون. فتقبّل الله دعاءهم وأعطاهم جنّة أحسن من ما كانت بكثير **(كذلك)** أي مثل ما علمت من عذاب أهل البستان **(العذاب)** أي عذاب الله تعالى في الدّنيا لمن أراد أن ينتقم منه **(ولعذاب الآخرة أكبر)** وبعزّتي لعذاب الآخرة وهي القيامة أكبر من عذاب الدّنيا بكثير **(لو كانوا يعلمون)** أي لو كانوا يعلمون شدّة عذاب الآخرة لمّا ارتكبوا المعاصي والذّنوب ولم يخالفوا أمر الله تعالى إلّا أنّهم لا يعلمون ذلك، فلذلك يرتكبون ما يرتكبون من معاصي الله تعالى وذنوبه.

سؤال: كيف يعذّب الله المرء على أمرٍ وهو جاهل به، ومن شرط التّكليف أن يكون المكلّف عالماً بالمكلّف به وإلّا فيكون تكليفاً بما لا يطاق؟

الجواب: عن هذا بوجوه:

الأوّل: إنّ المراد من لا يعلمون لا يؤمنون، والمرء يعذب على عدم الإيمان بعدما دعاهم الرّسول إليه وأظهر لهم الحجّة والمعجزات والبراهين الدّالة على صدقه.

الثّاني: إنّ المرء لا يعذّب على عدم العلم بالشّيء وإنّما يعذّب على عدم السّعي للعلم به وسلوك سبيله، وذلك بالنّظر في الدّلائل المثبتة له أو تصديق من يعلمه. فإنّ الله تعالى يلوم كثيراً في القران من لا يتفكّر في الدّلائل فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ سورة يوسف الآية/ ١٥٠، وقال: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾ سورة الغاشية الآيات/ ١٧ ـ ٢٠، إلى غير ذلك من الآيات الّتي تذمّ العباد على عدم التّفكير وعدم سلوك سبيل العلم والنّظر فيما يورثه ويحصّله. واللّوم علامة المسؤوليّة، وإنّ كلّ ما يلام عليه فهو ذنب ومعصية فتركهم سبيل العلم معصية، فمعنى (لو كانوا يعلمون) لو اجتهدوا في سبيل العلم وسلكوا سبيل تحصيله لعلموا، فلم يفعلوا تلك الأمور.

الثّالث: إنّه كثيراً ما يعبّر القرآن الكريم عن عدم العمل وفق العلم بالجهل وعدم العلم، لأنّ العلم الّذي لا ينتج العمل هو والجهل سواء، فالمعنى أنّهم لم يعملوا وفق العلم وإلّا لم يرتكبوا المعاصي ولم يستحقّوا العذاب.

* * *

تنبيه: إنّ هذه القصّة تنبيه لكلّ ذي ثروة ومال بأنّ ماله ونفسه معرّض لعذاب الله تعالى في الدّنيا أو الآخرة أو فيهما إن لم يواس به الفقراء والمساكين ولم يؤد حقّهم منه هذا.

* * *

وبعدما ذكر الله تعالى الكافرين والفاسقين وخوّفهم بعذاب الدّنيا والآخرة أراد أن يذكر حال المتّقين فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾

(إن للمتّقين) المتّقين هو جمع المتّقي وهو الّذي يتجنّب الذّنوب، ويطلق على المؤمن لأنّه اتّقى الكفر، ويطلق على المؤمن الصّالح لأنّه اجتنب المعاصي. وهنا وقع

مقابلاً للكافرين وهم أهل مكّة ومقابلاً للمؤمنين وهم أصحاب الجنّة المارّ ذكرهم، فيراد به كلا المعنين، فالمعنى أنّ الّذين يتّقون الذّنوب كلّها من الكفر والمعاصي لهم جنّات النّعيم دون أنْ يذوقوا أي عذاب ووبال، والّذين اتّقوا الكفر وخاضوا في المعاصي لهم جنّات النّعيم بعد أن يتطهّروا من الذّنوب بالعذاب أوْ أن يعفو الله تعالى برحمته، فالمؤمن من أهل الجنّة إنْ عاجلاً أم آجلاً، فلذا قال رسول الله (ﷺ): [من قال لا إله إلّا الله] أي ومحمّد رسول الله [دخل الجنّة][1]. اللّهم اجعلنا من أهل الجنّة و لا تعذّبنا لا في الدّنيا ولا في الآخرة إنّك أرحم الرّاحمين.

بعد أن ذكر الله تعالى أنّ للكافرين والفاسقين عذاباً شديداً في الآخرة وأنّ للمتّقين جنّات النّعيم، كان مشركو مكّة يقولون للمؤمنين: لئن صدقتم في أنّ القيامة تأتي وفيها العذاب والنّعيم، فيكون حالنا أحسن من حالكم كما هي أحسن هنا، فإنّكم فقراء معدمون ونحن أغنياء مكرمون، ومن أكرمه الله في الدّنيا فسيكرمه في الآخرة أيضاً، وهذه ديدنة كثير من الكافرين فردّ الله تعالى على زعمهم هذا فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

(أفنجعل) أي أفنساوي بين الكافر والمسلم وبين الصّالح والفاسق وبين المطيع والعاصي؟، والاستفهام للإنكار، أي لا نفعل ذلك بل إنّ للكافرين والعصاة العذاب الأليم وللمؤمنين والصّالحين الثّواب والنّعيم.

ثمّ إنّ السّبب الّذي يحمل كلّ إنسان على الكفر أو المعاصي لا يخلو عن أحد الأمور السّبعة:

الأمر الاوّل: إنّه يزعم البعض أنّ القيامة لا تأتي، وإنّ من مات فات وما الحياة إلّا هذه الحياة الدّنيا، وبعد الممات يستوي المؤمن والكافر والصّالح والفاسق في أنّهما يذهبان إلى غير رجعة دون حساب وكتاب ولا حياة بعد الموت أبداً، فردّ الله على زعمهم هذا بقوله: **(أفنجعل المسلمين كالمجرمين)** أي أفنجعل المسلمين كالمجرمين في أنّهما يذهبان دون حساب ولا كتاب ولا ثواب ولا عقاب، ولا نجعل الحياة بعد الموت **(مالكم)** أي دليل لكم على هذا الحكم، أي والاستفهام للإنكار حيث لا دليل لكم

(١) المستدرك على الصحيحين ٤/٢٧٩ الحديث رقم ٧٦٣٨.

(كيف تحكمون) هذا الحكم المخالف للعقل، فإنّ العقل حينما يرى أنّ كثيراً من النّاس مؤمنون لله مسلمون ومنقادون لحكمه لا يُؤذون أحداً، ويقومون بالخير والعمل الصّالح ثمّ يموتون دون أن يلقوا ثواباً على عملهم، في جانب آخر أناس مُعْرضون عن الله تعالى ونظامه ويعملون حسب هواهم ويفسقون ويفجرون ويؤذون النّاس ثمّ يموتون ولا يلقون أي عذاب وانتقام على جرائمهم وفواحشهم، فلو مات هذان القسمان كلّ منهما دون أن يلقى أهل الخير ثواباً وأهل الشرّ عذاباً، لزم أن يكون الله تعالى غير عادل، وهذا محال، فلا بد من يوم يبعث فيه النّاس كلّهم ويحاسبوا فيه على أعمالهم ويلقى كلّ من المؤمن والصّالح ثواب إيمانه وصلاحه والكافر والفاسق عقاب كفره وفسقه وليتحقّق عدالة الله تعالى.

الأمر الثّاني: إنّ بعض النّاس يعتقد أنّ المؤمن والكافر والمطيع والعاصي كلّهم متساوون يوم القيامة، وأنّ الكفرة والعصاة يكرمون كما يكرم المؤمنون والصّالحون، فردّ الله تعالى على زعمهم بهذه الآية أيضاً فقال: **(أفنجعل المسلمين كالمجرمين)** أي لا نجعلهم متساوين فإنّ ذلك ظلم وتنزّه الله عن الظّلم، وحيث إنّ كلّ زعم وعقيدة لا بد وأن يستند إلى دليل من العقل أو النّقل، فنفى الله تعالى أن يكون لهم دليل على ذلك التّساوي فقال: **(مالكم)** أي دليل لكم من العقل على الحكم بهذا؟ والاستفهام للإنكار، أي لا دليل لكم لأنّ العقل يحكم بخلاف ذلك، فإنّ التّسوية بين المطيع والعاصي والمؤمن والكافر خلاف الحكمة وخلاف العدل والإنصاف، وإنّ الله حكيم لا يخالف الحكمة في أمره وهو أعدل العادلين فلا يخالف العدل في حكمه، فإذا كان العقل على خلاف حكمهم هذا **(كيف تحكمون)** هذا الحكم المخالف للعقل والعدل والحكمة.

ثمّ بعد أنْ نفى الله أن يكون لهم دليل من العقل نفى كذلك أن يكون لهم دليل من النقل أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

(أم لكم) أي أم نزل عليكم **(كتاب)** من عند الله تعالى وأنتم **(فيه)** في ذلك الكتاب **(تدرسون)** تقرؤون **(إنّ لكم فيه)** في ذلك الكتاب **(لما تخيّرون)** كلّما تختارون من قول وعمل ونظام ومنهج، وأنّكم لا تعاقبون على شيء ممّا تختارونه؟ والاستفهام للإنكار، أي ليس لكم من الله تعالى كتاب تقرؤون فيه ذلك، فإنّ كلّ الكتب المنزلة من

الله تعالى تنصّ على عقاب الكافر والعاصي والثّواب للمؤمن والمطيع لنظام الله تعالى.

الأمر الثّالث: إنّ بعض النّاس كانوا يزعمون أنّ لهم عهداً على الله تعالى أن لا يعذّبهم وذلك مثل اليهود الّذين كانوا يعتقدون ويقولون: ﴿لن تمسّنا النّار إلّا ايّاماً معدودات﴾ سورة آل عمران الآية/ ٢٤. ومثل بعض النّصارى الّذين يعتقدون أنّ الله تجسّد في سورة المسيح ثمّ قدر أن يقتل ليكون فداءً عن ذنوب عباده، أو كمثل بعض المسلمين الفاسقين الّذين اغترّوا بنسبهم ويزعمون أنّ آباءهم وأجدادهم ينجّونهم من عذاب الله تعالى فيعملون ما يشتهون، فنفى الله تعالى ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

(أم لكم أيمان علينا) أي أم لكم عهود علينا **(بالغة)** تلك العهود **(إلى يوم القيامة)** وبحكم تلك العهود **(إنّ لكم)** ومن حقّكم **(لما تحكمون)** من الثّواب مع الكفر والتّكريم مع العصيان؟ والاستفهام للإنكار، فالمعنى ليس شيء من هذه العهود بل إنّ العهد على خلاف ماتقولون، حيث عهد الله تعالى إلى بني آدم كلّهم على أن يثيب المطيع ويعاقب العاصي كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)﴾ سورة يس الآيات/ ٦٠ ـ ٦٤. وإنّ هذا العهد كان معلوماً عند كلّ الملل وفي الكتب السّماوية القديمة الموجودة عند أهل الكتاب وعند المشركين أيضاً، حيث بقي فيهم بقيّة من دين سيّدنا إبراهيم واسماعيل ﷺ وإنّما هم يكذبون ويفترون على الله تعالى.

ثمّ إنّه من العادة المقررة في العهود أنّ كلّ عهد بين طرفين لا بد وأن يكون بينهما كفيل بتنفيذ ما عهدا عليه إن أبى أحد الطّرفين فقال جلّ وعلا:

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

(سلهم أيّهم بذلك زعيم) أي سلهم إن كان لهم هذا العهد على الله تعالى فأيّهم بتنفيذ هذا العهد كفيل إن أبى الله تعالى عن الإيفاء بهذا العهد، فالمعنى لا عهد ولا كفيل بذلك.

الأمر الرّابع: إنّ بعض الكفرة يعتقدون أنّه يوجد شركاء لله سبحانه، وإنّهم ينقذونهم، فردّ الله تعالى على هذا الزّعم أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾

أي هل لهم شركاء لله في الواقع، وهم ينقذونهم من عذاب الله تعالى؟ والاستفهام للإنكار، أي ليس لهم شركاء في الحقيقة وإنّما هم اخترعوها ونصبوها آلهةً شركاء لله وعبدوهم كذباً وافتراءً، ثمّ تحدّاهم الله تعالى فقال: **(فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين)** أي فليأتوا بشركائهم لينجوهم من العذاب حينما يعذّبون إن كانوا صادقين في عقيدتهم هذه، وإنّ هؤلاء الشّركاء لله سبحانه وتعالى وإنّهم ينقذونهم من عذابه وانتقامه، والأمر للتّعجيز، أي لا يستطيعون الإتيان بهم حيث لا يوجدون، ثمّ تحدّاهم الله تعالى أن يأتوا بهؤلاء الشّركاء في أضيق أحوالهم وأشدّ ما يحتاجون إليه وهو يوم الشّدّة في يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

فليأتوا بشركائهم الّذين اعتقدوهم **(يوم يكشف عن ساق)** أي في اليوم الّذي يكشف فيه السّاق. وكشف السّاق كناية عن الشّدة فإنّ الإنسان يكشف عن ساقه حين الشّدة ليهرب منها. أو كناية عن ظهور ما خفي، والمراد هنا يوم القيامة، فإنّه يكون فيه الشّدّة، وفيه يظهر ما خفي من النّيات والأعمال والأقوال. فلْيأتوا بهم لينجّوهم من العقاب على تلك النّيات والأعمال والعقائد **(ويدعون إلى السّجود فلا يستطيعون)** أي فليأتوا بهم يوم يدعون إلى السّجود لله تعالى وهم يحبّون أن يفعلوه إلّا أنّهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك، لأنّ ذلك يوم الجزاء والحساب لا يوم العمل والإكتساب، إنّ الدّنيا كانت دار عمل فمن لم يعمل فيها لا يستطيع أن يجبر هناك، فأمْرهم بالصّلاة هناك ليس للأداء بل للإهانة والتّكدير، كما كان أمرهم بإتيان الشّركاء لإظهار عجزهم ولتكديرهم وتكذيبهم فيما كانوا يعتقدونه.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

(خاشعةً أبصارهم) أي نازلةً أبصارهم لا يستطيعون رفعها للنظر إلى غيرهم خجلاً من سوء مصيرهم **(ترهقهم)** تخشاهم **(ذلّة)** مهانة وحقارة **(وقد كانوا)** في الدّنيا **(يدعون**

الى السّجود) كلّ وقت صلاة ويسمعون الآذان **(وهم سالمون)** غير معذورين يستطيعونها إلّا أنّهم أبوا أن يُصلّوا في الدّنيا ويسجدوا لله فلم يستطيعوا أن يسجدوا في الآخرة لأنّ الدّنيا دار عمل والآخرة دار الجزاء، فمن لم يعمل في الدّنيا لا يستطيع أن يعمل في الآخرة.

هذا وبعد أن ذكر الله تعالى المزاعم الأربعة وفنّدها كلّها تحسّر الرّسول (ﷺ) كثيراً واشتدّ غضبه، وكاد أن يثير حرباً على هؤلاء الكفرة فسلّاه الله تعالى وهدّأه حيث لم يكن الوقت وقت الجهاد والأمر به فقال جلّ وعلا:

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(فذرني ومن) أي ففوّض إليّ أمر من **(يكذّب بهذا الحديث)** حديث القيامة والثّواب والعقاب، فوضْ إليّ أمرهم ولا تقم أنت بشيء تجاههم فإنّي أنا انتقم منهم **(سنستدرجهم)** أي نأتي لهم بالعذاب تدريجيّاً **(من حيث لا يعلمون)** دون أن يشعروا به.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

(وأملي لهم) أي وأمهل لهم في الحياة والصّحة وأسباب النّعمة إلى أن يحين وقت عذابهم فإذا جاء وقته **(إنّ كيدي)** عذابي لهم **(متين)** شديد وقويّ في ذلك الوقت. وحكمة الإمهال شيئان: الامتحان لهم، هل يرجعون أو لا؟ وللمؤمنين هل يغترّون بنعم الكفرة والفسقة فيميلوا إليهم أم لا؟ ولأنّ العذاب بعد النّعمة أشقّ على الإنسان، فإنّ المنعم والمترف يتأذّى بالعذاب أكثر وأكثر، ولذلك يقول الرّسول (ﷺ) فيما يروى عنه: (اللّهم إنّي أعوذ بك من الحور بعد الكور)[١] أي من التّنزل بعد التّرقي. فقوله تعالى: **(فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إنّ كيدي متين)** وقع اعتراضاً بين ذكر الأمر الرّابع وذكر الأمر الخامس والأمر السّادس لتدارك موقف الرّسول (ﷺ).

الأمر الخامس: إنّ الرّسول أو الدّاعي إلى الإسلام يطلب منهم أجراً على الإسلام واعتناقه، فيستثقلون هذا الأجر ولذلك لا يؤمنون، فنفى الله تعالى ذلك أيضاً فقال جلّ وعلا:

---

(١) سنن الترمذي ٥/٤٩٧ الحديث رقم ٣٤٣٩ وقال حسن صحيح.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(أم تسألهم أجراً) على هذا التبليغ وعلى الإسلام **(فهم من مغرم)** أي من أداء ذلك الأجر **(مثقلون)** يثقل عليهم الإسلام فلا يعتنقونه؟ والاستفهام للإنكار، فإنّ من دأب كلّ رسول وكلّ داعيةٍ أن يقول: ﴿فما اسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلّا على ربّ العالمين﴾ سورة الشعراء الآية/ ١٠٩. فلا غرامة تعوقهم عن اعتناق هذا الدّين.

الأمر السّادس: هو أن يأتيهم الوحي بأنّهم أهل جنّة وتكريم، آمنوا أو لم يؤمنوا، فنفى الله ذلك أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

(أم عندهم الغيب) أي هل عندهم الغيب بأنّهم مكرمون مع الكفر والمعاصي **(فهم يكتبون)** أي هذا الوحي ولذلك لا يؤمنون؟ كلّا ليس لهم ولا لأحدٍ هذا الوحي وإنّما كلّ ما أوحي إلى الأنبياء هو أنّ العبرة بالإيمان والعمل، وإنّ من عمل شرّاً فسيلقى مرارة عذابه ومن يعمل خيراً يناله حلاوة ثوابه.

الأمر السّابع: إنّه يعتمد على رحمة الله تعالى فيعصي ويقول: إنّ الله غفور رحيم. وهذه دسيسة يجلب بها الشّيطان كثيراً من النّاس إلى المعصية، ونهى الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿فلا تغرنّكم الحياة الدّنيا ولا يغرنّكم بالله الغرور﴾ سورة لقمان الآية/ ٣٣.

تنبيهان: التّنبيه الأوّل: إنّ في هذه الآيات الكريمة تنبيهاً على أنّ العبرة كلّ العبرة في الفوز والفلاح والنّجاة من عذاب الله تعالى بالتّقوى والعمل الصّالح وحده، ولا شيء دون ذلك ممّا يفيد الإنسان شيئاً، وإنّ ما اغترّ به بعض النّاس من الاعتزاز بالنّسب والآباء والأجداد، أو بالرّجال الصّالحين كلّ ذلك من الأباطيل الّتى روّجها الجهلة أو الطّامعون والآكلون لأموال النّاس بالباطل، وإنّ الإسلام جاء ليقضي على مثل هذه الأمور ووردت آيات من القرآن الكريم، وأحاديث صحيحة تفنّد هذه الآراء، فنريد أن نذكر بعضها هنا فنقول:

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)﴾ سورة المؤمنون الآيات/ ١٠٢ ـ ١٠٤.

إنّ إبراهيم (ﷺ) استغفر لأبيه فلم يقبل منه ذلك، فتبرّأ إبراهيمﷺ منه بعد ذلك. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ سورة التوبة الآية/ ١١٤.

دعا نوح لإبنه فلم يستجب الله له، بل نهره على ذلك قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ سورة هود الآيتان/ ٤٥، ٤٦.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ سورة الشعراء الآية/ ٨٨.

قال الرّسول (ﷺ): (يافاطمة بنت رسول الله اعملي فإنّي لا أُغني عنك من الله شيئاً، ياصفيّة عمّة رسول الله اعملي فإنّي لا أُغنى عنك من الله شيئاً)[1].

فالآيات والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة، نكتفي بهذا القدر؛ فإنّ فيه كفاية لمن ألقى السّمع وهو شهيد.

وأمّا في الاعتزاز والإغترار بالصّالحين وأولياء الله تعالى فنقول:

قال تعالى لرسوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنّهم فاسقون﴾ سورة آل عمران الآيه/ ١٢٨.

قال تعالى: ﴿قل إنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً﴾ سورة الجن الآية/ ٢١. فإذا كان الرّسول (ﷺ) وهو أكبر أولياء الله تعالى ليس له من الأمر شيء وإنّه لا يملك ضرّاً ولا نفعاً، فكيف بالأولياء وإنّهم أنزل درجة من الرّسول (ﷺ) بكثير وكثير.

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا(٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ

---

(١) مسند الشافعي ١/ ٢٩.

وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ سورة الإسراء الآيتان/ ٥٦،٥٧. أي أنّ أقربهم إلى الله يطلب إلى الله وسيلة من العبادة والطّاعة لينجو بها.

٥. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ سورة فاطر الآية/ ١٤، وإنّ الآيات في هذا القبيل كثيرة جدّاً إلّا أنّ في ذكر هذا القدر كفاية لمن يكون له فهم ودراية، وإلّا فلا يفيد التّطويل ولو تليت عليه التّوراة والإنجيل.

* * *

سؤال: أليس هناك شفاعة من الأنبياء والصّالحين؟

الجواب: بلى ولكنّ الشّفاعة أيضاً لا تكون إلّا بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿من ذا الّذي يشفع عنده إلّا بإذنه﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٥، وكذلك لا تكون الشّفاعة إلّا لمن يستحقّها وبقدر ما يستحقّها بسبب الإيمان والأعمال، قال تعالى: ﴿يوم نحشر المتّقين إلى الرّحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنّم ورداً * لا يملكون الشّفاعة إلّا من اتّخذ عند الرّحمن عهداً*﴾ سورة مريم الآيات/ ٨٦ ـ ٨٨.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ سورة طه الآية/ ١٠٩. إلى غير ذلك من الآيات.

سؤال: إذاً فما فائدة الأولياء والصّالحين ؟

الجواب: فائدتهم تنحصر في أمور هي:

أنهم يعلّمونك طريق الحقّ وتعاليم الإسلام وما به تعاقب وتعذّب، وكيف تطيع الله تعالى في العبادات والمعاملات والسّير والأخلاق. فهم هداة الأمّة ومعلّمو شريعة الله تعالى.

إنّك تنتفع من مجالستهم ومصاحبتهم وذلك بالتّعوّد على أعمالهم الصّالحة وأخلاقهم الحسنة، فإنّ الرّسول (ﷺ) يقول: (مثل جليس الصّالح وجليس السّوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يحذيك وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه

ريحاً طيّبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك أو تجد منه ريحاً خبيثة)[١] لذلك أمر الله تعالى بمصاحبتهم فقال: ﴿وكونوا مع الصّادقين﴾ سورة التوبة الآية/ ١٢٠.

أن يدعو لك فإنّ دعاء المؤمن للمؤمن مستجاب سواءً كان الدّاعي أعلى من المدعو له أو لا، فإنّ الرّسول (ﷺ) لما ودّع عمر بن خطاب رضي الله عنه للعمرة قال له: (يا أخيّ لا تنسانا)[٢] أي من دعواتك لنا، والرّسول كان أعلى من عمر كما نعلم. وقد أمر (ﷺ) أبا بكر وعمر أن يطلبا من أويس القرني أن يدعو لهما حينما أدركاه، وقد أدركاه وطلبا منه الدّعاء، فدعا لهما وهما كانا أعلى منه رتبةً لأنّه كان تابعيّاً وهما من خلّص الأصحاب.

فدعاء المسلم للمسلم مشروع ومستجاب، وقد أمر الله تعالى به فقال: ﴿وقال ربّكم أدعوني أستجب لكم إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين﴾ سورة غافر الآية/ ٦٠. وقال: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلّبكم ومثواكم﴾ سورة محمد الآية/ ١٩، والآيات والأحاديث الواردة في الدّعاء كثيرة تجدها في التّاج في باب فضل الدّعاء.

هذا ما يستفيده المسلم من الصّالحين الأحياء، فمن ادّعى وراء ذلك شيئاً فعليه بالدّليل من الكتاب أو السّنة الشّريفة، وأمّا الاموات فلا يستفاد منهم إلّا الدّعاء، وفى طلب الدّعاء منهم خلاف جوّزه البعض ومنعه آخرون. والله الموفّق وهو يهدى السّبيل.

التّنبيه الثّاني: أشار تعالى بقوله: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إنّ كيدي متين *﴾ إلى أنّه لا ينبغي أن يغترّ المسلم بما وهب وأعطى للكافرين من نعم الدّنيا والغنى والمال، فإنّ ذلك ليس نعمة في الحقيقة، بل هو أقرب إلى النّقمة لأنّ ذلك إستدراج وإمهال لينالوا عذابهم الأليم والانتقام الشّديد، وقد وضّح ذلك في آيات كثيرة هي:

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ سورة آل عمران الآيتان/ ١٩٦، ١٩٧.

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢١٠٤ الحديث رقم٥٢١٤.

(٢) أخبار مكة للفاكهي ١/ ٤٠٧ الحديث رقم٨٧٥.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٧٨.

قالى تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ سورة طه الآية/ ٨٨.

قالى تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢١٢.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ سورة آل عمران الآيتان/ ١٤،١٥. والآيات في هذا الموضوع كثيرة وفى هذا القدر عبرة لأولي الألباب.

فالحاصل أنّ الدّنيا ليست كلّ شيء، وإنّ كثرة المال والثّروة ليست دليل الرّاحة والغنى، فإنّ الرسول (ﷺ) يقول: (ليس الغنى عن كثرة العرض إنّما الغنى غنى النّفس)[1] وقال أيضاً: (الغنى اليأس ممّا في أيدي النّاس)[2]. هذا، وإنّ الفقير القانع أكثر بكثير راحةً وطمأنينةً من الغني، ولا تجد غنيّاً إلّا وله متاعب كثيرة ومشاكل متعدّدة بخلاف المساكين. وكثيرا ما تجد غنيّاً فتحسبه أنّه في أرغد عيش وأسعد حياة، ثمّ بعد ما اطّلعت عليه تجده عكس ذلك.

* * *

حكاية: رأيت في بلدة قصراً من أحسن قصور المدينة، فقلت لمن هذا القصر؟ قالوا: لفلان، ثمّ رأيت سيّارة من أحسن سيارات ذلك الوقت، فسألت عنها فإذا هي لصاحب القصر، ثمّ رأيت رجلاً أصفر اللّون ضعيف البنية، كأنّه رجع من القبر بإجازة، كما يقول النّاس، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو صاحب القصر والسّيارة وإنّه مبتلى بمرض السّل، وذهب إلى لندن وغيرها للمعالجة إلّا أنّه ما استفاد شيئاً، فقلت في نفسي: والله

(١) صحيح البخاري ٥/٢٣٦٨ الحديث رقم ٦٠٨١.

(٢) المعجم الأوسط ٦/٥٥ الحديث رقم ٥٧٧٨.

ليس المال كلّ شيء وليست الرّاحة في الثّروة والمال والقصر والسّيارة وإنّما هي هبةٌ يهبها الله تعالى لمن يشاء.

❊ ❊ ❊

حكاية أخرى: دعا أحد المساكين من الله تعالى أن يريه نبيّ الله سليمان (عليه السلام) ليتكلّم معه كلاماً فأمر تعالى سليمان: أن إذهب إلى المكان الفلاني فإنّ هناك مسكيناً يحرث الأرض يريد أن يكلّمك كلاماً، فنزل سليمان عند الفلّاح وسلّم عليه فقال: من أنت؟ فقال: سليمان، أمرني ربّي أن أنزل عندك فإنّ لك معي كلاماً، قال: نعم، قال: فما هو؟ قال: يا سليمان نظرت إلى نفسي وإلى حالي، ثمّ نظرت إلى حالك، فقارنت بينهما فرأيت أنّ ما مضى لم يبق فهو بالنّسبة لي ولك سواء، وأنّ المستقبل لم يأت فهو أيضاً بالنّسبة إلينا كلينا سواء، وأنّ الحياة هي هذه اللّحظة والآن أنا مثلك شبعان لا فرق بيننا، وإنّما الفرق أنّ حسابك يوم القيامة كثير وحسابي قليل، فبكى سليمان إلى أن نزل جبريل وقال له: إنّ ربّك يسلّم عليك ويقول إنّنا لا نحاسبه على ما وهبناه، فإنّ ما وهبناه رحمة منّا عليه، فحينئذٍ هدأ سليمان وانقطع بكاؤه وحمد الله تعالى وودّع الفلّاح المسكين. فانظر يا أخي إنّ المؤمن المسكين يرى نفسه وسليمان سواء، بل يرى حاله أحسن من حال سليمان لقلّة حسابه يوم القيامة.

❊ ❊ ❊

تنبيه: ليس القصد من سرد مثل هذه الآيات الكريمة ومن هذه الأحاديث الشّريفة والحكايات اللّطيفة أن يترك المسلم عمله للدّنيا وأن يعيش كلّاً على النّاس، فإنّ ذلك أمر غير جائز ولا يليق بالمسلم، وإنّ المسلم القويّ خير من المسلم الضّعيف وإنّ اليد العليا، وهي الّتي تعطي، خير من اليد السّفلى، وهي الّتي تأخذ. قال الشّاعر المسلم:

ما أحسن الدّين والدّنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرّجل

وقال عليّ (رضي الله عنه): (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً)[1]. بل إنّ السّعي لكسب المال بقدر ما يؤمّن المعيشة من المأكل والملبس

---

(١) ٢/٩٨٣ الحديث رقم ١٠٩٣ أسنده إلى عمرو بن العاص، وقيل هو حديث؛ كنز العمال ٥/٢٠٣ الحديث رقم ١٤٠٣٣.

والمسكن فرض عين على كلّ مسلم، وما زاد على ذلك فكسبه من الطّريق المشروع مشروع ومحبوب. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سورة البقرة الآيتان/ ٢٠١، ٢٠٢. فترى في هذه الآية يمدح الله تعالى من يطلب الدّنيا والآخرة معاً ولا يترك واحدة منهما، ولذلك قيل في الخبر أو الأثر: (ليس الرّجل رجل الدّنيا فقط، وليس الرّجل رجل الآخرة فقط، بل الرّجل رجلاهما)[1].

* * *

فليس القصد كما مرّ من سرد الآيات والأحاديث والقصص أن يترك المسلم الدّنيا البتّة، بل القصد أنّه لا يجوز للمسلم أن تكون الدّنيا همّه الأوّل والأخير، وأن لا تشغله دنياه عن آخرته، ولا تسرقه الدّنيا وحبّها على أن يكسب المال من أيّ طريق كان دون التّورّع والتّحفظ من أنّ هذا حلال فيأخذه وهذا حرام فيتركه. فنعم المال مال المسلم الّذي يأخذه من حلال ويصرفه في الحلال وفي وجوه البرّ والإحسان، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٦١ ـ وبئس المال مال الفاسق الّذي يكسبه من حرام ولا يصرفه في وجوه البرّ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ سورة التّوبة الآية/ ٣٥.

تمهيد: إنّ الرّسول أو الدّاعية، حينما يرى أنّه كلّما دعا النّاس إلى الخير وسبيل الرّشد يتمادون في الغيّ وطريق الضّلالة ولا يستجيبون لدعوته، بل يقابلونه بالسّخرية والاستهزاء والتّجافي عن دينه ومنهجه القويم سأَمَ ويئس ويكاد أن يترك دعوته، ويبتعد عن هؤلاء التّائهين في وادي الغواية والضّلالة، قد فعل ذلك أحد الرّسل وهو نبيّ الله يونس فإنّه حينما أصرّ قومه على الضّلالة ولم يسلكوا سبيل الاستقامة والهداية أنذرهم بعذاب ينزل عليهم إن لم يستجيبوا له، فلمّا تأخر العذاب سأم من الدّعوة ويئس من استجابة القوم له وترك الدّعوة، وخرج من بين القوم دون أن يأذن له ربّه، فابتلاه الله

---

(١) لم أجده حديثاً.

تعالى ثمّ تاب عليه كما تأتي قصّته.هذا، وإنّ الرّسول محمّداً (ﷺ) حينما رأى إصرار قومه على الشّرك والضّلال وعدم الاستجابة لدعوته إلى عبادة الله وحده،سأم وتعب وكاد أن يترك قومه ودعوتهم إلى الله تعالى وإرشادهم إلى الحقّ والصّراط المستقيم، فأراد الله تعالى أن يجدّد من نشاطه ويقوّي عزمه على المضيّ في الدّعوة والإرشاد، وأن لا يأخذه السّأم ولا يسوقه اليأس إلى الإنهزام من القوم والإنصراف عن الدّعوة. فقال جلّ وعلا:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾

(فاصبر) أي فتحمّل المشقّة **(لحكم ربّك)** لتنفيذ حكم ربّك وهو إرشادهم ودعوتهم إلى الحقّ **(ولا تكن كصاحب الحوت)** أي ولا تُصِرْ كصاحب الحوت وهو سيّدنا يونس (عليه السلام) ولا تجعل حالك كحاله **(إذ نادى)** حينما نادى ربّه **(وهو مكظوم)** أي مبلوع في بطن الحوت فدعا من ربّه الخلاص **(لولا أن تداركه)** أي وصله **(رحمة من ربّه)** فأنجاه سالماً **(لنبذ)** لطرح وأُلقي **(بالعراء)** أي في الصّحراء **(وهو مذموم)** عند الله وعند النّاس، إلّا أنّ الله تعالى تداركه برحمته وأنعم عليه **(فاجتباه)** أي فاختاره **(ربّه فجعله من الصّالحين)** من المرسلين.هذا، وإليك قصّة يونس (عليه السلام) :

القصة: أرسل الله تعالى يونس بن متّى إلى مدينة نينوى فدعاهم إلى ترك عبادة الأصنام والأوثان، والتّوجه إلى عبادة الله وحده، والإلتزام بشريعته والحكم بمنهجه ودينه، فلم يستجيبوا له بل قابلوه بالسّخرية والاستهزاء كما هي عادة كلّ قوم ضالّ ومنحرف عن الحقّ والمنهج القويم. فأمره الله تعالى أن ينذرهم بالعذاب إن استمرّوا على كفرهم هذا وسخريّتهم بدين الله ورسوله. فأنذرهم يونس بالعذاب، فلم يزيدوا إلّا عتوّاً واستكباراً، فيئس يونس من إيمانهم وغضب عليهم وتأخّر العذاب، فظنّ يونس أنّ العذاب لا يأتي، فترك الدّعوة وانعزل عن القوم، وخرج من بينهم دون أن يأذن الله له، فتوجّه إلى البحر وركب سفينة، فبعد مضي مدّة من ركوبه إضطربت السّفينة وكادت أن تنقلب بمن فيها فيغرقوا كلّهم، وكان المتّبع في ذلك الوقت أنّه كلّما دخل عبد آبق من سيّده في سفينة فإنّ السّفينة تنقلب، فتنادى الرّكاب وربّان السّفينة من الآبق؟ فلم يجب

أحد، فاتّفقوا على أن يقترعوا، فمن وقع عليه السّهم فهو الآبق، فيأخذوه ويلقوه في البحر ليسلم الباقون ففعلوا، فوقع السّهم على يونس، فحينئذٍ شعر يونس بخطيئته من تركه القوم دون الإذن من الله تعالى، فقال أنا الآبق فخذوني، فألقوه في البحر وسكنت السّفينة بعد خروج يونس منها، وأمر الله تعالى حوتاً أن يبلع يونس وأن لا يؤذيه، فالتقمه الحوت فبقي في بطنه بضعة أيام، فاعترف بذنبه وتاب إلى لله تعالى، فكان ينادي وهو في بطن الحوت ويدعو ربّه ويقول: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ سورة هود الآية/ ٨٧ ـ فأمر الله تعالى الحوت أن يلقيه إلى الشّاطىء في جانب مدينة نينوى، وأنبت الله عليه شجرة من اليقطين لتظلّله فلا يتأذّى بالشّمس وأن لا يؤذيه الذّباب. هذا، وإنّ أهل نينوى بعدما فقدوا يونس رأوا سحاباً وصواعق من السّماء فظنّوا أنّ العذاب قد أتاهم، فتابوا إلى الله تعالى وآمنوا وأصبحوا يبحثون عن يونس ليرجعوا به ويؤمنوا ويعبدوا الله حسب إرشاده وتنويره، فوجدوه ورجعوا به إلى بلدهم، ورفع الله عنهم العذاب فأصبحوا قوماً صالحين. وأنعم الله تعالى عليهم بالرّغد من العيش وسعة من الرّزق والأموال، وقال تعالى في حقهم: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ سورة يونس الآية/ ٩٨.

* * *

تنبيه: إنّ هذه الآيات الكريمة وما تشير إليه من قصّة يونس (عليه السلام) تنبيه على أنّه يجب على الرّسول والدّاعية إلى الله تحمّل الأذى والمشقّة في سبيل الدّعوة، ولا يجوز لهما أن يتركا قومهما وإن بلغهما اليأس من إيمانهم أو السّأم والمشقّة أعلى ما يكون، فترك الدّعوة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر بحجّة أنّ النّاس لا يستجيبون، أو بسبب السّخرية والاستهزاء من الدّاعي غير مقبول، وإنّ هذه دسيسة من دسائس الشّيطان يسوق الدّعاة بها إلى ترك دعوتهم والمسلمين على ترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. فعلى المسلم أن يدعو ويأمر بالمعروف قُبلَ منه أم لا، فإنّه من واجبه الدّعوة فقط، وأمّا استجابة النّاس فليس بواجبه، بل هي موكولة إلى الله تعالى يخلقها في قلوب بعض ولا يخلقها في قلوب بعض. وحينما أمر الإنسان بالمعروف فقد أدّى واجبه

وتخلّص من المسؤوليّة والتّبعة، وتبقى التّبعة على المأمورين، قال تعال: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٦٣.

* * *

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى رسوله أن يصبر ويتحمّل الأذى في سبيل الدّعوة ونشر دين الحقّ ذكر بعض ما كان يلاقي الرّسول من أذى قومه وسخريّتهم منه، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

(وإن) هذه مخفّفة من الثّقيلة واسمه ضمير الشّأن المقدّر تقديره (وإنّه) أي أنّ الشّأن والحال هو **(يكاد الّذين كفروا)** قرب الّذين كفروا من أنّهم **(ليزلقونك)** أي يوقعونك من الطّريق، طريق الإسلام والدّعوة إليه، ويخرجونك عنه **(بأبصارهم)** أى بسبب نظرهم الشّذر إليك وسخريّتهم منك فإنّهم كانوا ينظرون إليه بأطراف عيونهم ويسخرون منه بغمزاتهم السّيئة، والمرء إن لم يكن قويّاً جدّاً لا يستطيع مقاومة ملامة النّاس وسخريّتهم منه، فكثيراً ما ترك أبطال أعمالاً هرباً من سخريّة النّاس واستهزائهم به، إلّا أنّ الرّسولﷺ صبر وتجلّد ولم يبال بكلّ هذه السّخريات والأنظار الشّذرة، ومضى في طريق الدّعوة والكفّار يستهزئون به **(ويقولون إنّه)** أي محمّد **(لمجنون)** فلم تؤثّر فيه كلّ هذه الأقاويل وكان مثل ما يقال: القافلة تسير والكلاب تنبح، يمشي في طريق دعوته لا يثنيه منه ولا يزلقه عنه سوء غمزة النّاظرين ولا سخريّة الكافرين، إلى أنْ نصره الله وأتمّ نوره ولو كره الكافرون. وهكذا يجب أن يكون الدّعاة والمسلمون في سبيل نشر دين الله وعقيدة الإسلام. ثمّ قال تعالى: **(وما هو)** أي ليس القرآن الّذى أتى به محمّد من كلام الجنّ كما وليس محمّد مجنوناً، بل إنّ القرآن **(ذكر)** موعظة من الله تعالى ودستور أنزله تعالى **(للعالمين)** كلّهم ليعملوا به ويطبّقوه، وبذلك يكون لهم السّعادة والفلاح في الدّنيا والآخرة، وقد فصّلنا الكلام على هذه الفقرة في (تفسير جزء عمّ) عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ سورة التكوير الآية/ ٢٧. فراجعه.

هذا ما وصل إليه الفكر الفاتر، ونرجو من الله تعالى القبول لما مضى والتّوفيق على ما يستقبل، إنّه خير موفّق ومعين، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

٨/ ذي الحجة/ ١٤٠٥هـ.

سورة الحاقّة

(مكيّة، وآياتها ٥٢ آية، نزلت بعد الملك، سمّيت بالحاقّه لما فيها من قوله تعالى: ﴿الحاقّة ما الحاقّة﴾).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾

كان الموضوع في سورة الملك هو البحث عن عظمة الله تعالى وجمال جلاله وجلال جماله وكمال قدرته، ثمّ جاءت سورة القلم ليثبت رسالة محمّد (ﷺ) وأنّه رسول من الله تعالى وليس بمجنون، وإنّما المجنون هو من انحرف عن دينه وابتعد عن شريعته. وأتت هذه السّورة والّتي تليها للكشف عن يوم القيامة وأهواله وما يجري فيه من محاسبة العباد ومصير الكافرين الى جهنّم وبئس المصير، وإيفاد المؤمنين إلى الجنّة وتنعّمهم بالنّعيم المقيم. وهذه الأسس الثّلاثة هي أصول الإسلام الّتي بنى عليها واستقام فقال تعالى: **(الحاقّة)** وهي اسم فاعل من حقّ، أصلها حاقق أي ثابت، أدغمت القاف في القاف فصار الحاقّ، ثمّ ألحقت به تاء التّأنيث لأنّها صفة للحادثة الحاقّة أي الثّابتة والآتية لامحالة وهي القيامة. فالحاقّة مبتدأ و**(ما)** في **(ما الحاقّة)** مبتدأ ثان، والحاقّة خبره وجملة **(ما الحاقّة)** خبر الحاقّة، والاستفهام هنا للتّهويل والتّعظيم، فالتّقدير الحاقّة شيء عظيم الحاقّة **(وما أدراك ما الحاقّة)** أي أي شيء أعلمك ما الحاقّة، وما في **(ما الحاقّة)** هنا أيضاً للتّعظيم. فالمعنى ما الّذي أعلمك مقدار عظمة الحاقّة، أي ما أعلمك شيء ولا يمكن إدراك مقدار عظمة الحاقّة لأنّها عظيم جدّاً ووجدان لا يدرك كنهها إلّا من أدركها ووجدها ودخل فيها، كما هو الشّأن في سائر الوجدانيّات. ففي هذه الآيات الكريمة أخبر الله تعالى بأنّ حادثة يوم القيامة آتية وإنّها عظيمة ومهولة جدّاً.

ثمّ أراد الله أن يذكر ماجرى على أمم سابقة من الهلاك والدّمار نتيجة تكذيبهم بهذه الحادثة وعدم خوفهم منها، ليكون قصّتهم عبرة للنّاس، فلا يكذبوا بهذا اليوم، وليستعدّوا لها بالإيمان بالله ورسوله والسّلوك وفق شريعته ونظامه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾

(كذّبت ثمود) أي كذّبت قبيلة ثمود **(وعاد بالقارعة)** وهي اسم ليوم القيامة، لأنّ الصّيحة الّتى تقع بها ذلك اليوم شديدة تقرع الاسماع وتفزع القلوب والأفئدة والضّمائر، وتأنيث كذّبت باعتبار القبيلة أي كذّبت قبيلة ثمود وعاد ... إلخ. ثمّ ذكر الله تعالى ماجرى على هتين القبيلتين نتيجة تكذيبهم هذا فقال: **(فأمّا ثمود فأهلكوا)** عذّبوا ودمّروا **(بالطّاغية)** أي بالصّيحة الطّاغية. قيل صاح عليهم ملك صيحةً شديدةً فهلكوا كلّهم، أو بالصّاعقة الطّاغية، نزلت عليهم صاعقة شديدة. هذا وقد مرّ أن ذكرنا قصّة ثمود في تفسير سورة الشّمس في رسالة (تفهيم الأمّة تفسير جزء عمّ).

(وأمّا عاد فأهلكوا) أي عذّبوا ودمّروا **(بريح صرصر)** باردةٍ جدّاً **(عاتية)** جاوزت الحدّ في البرودة وشدّة القرّ **(سخّرها)** أي سخّر الله تعالى وسلّط تلك الرّيح الباردة **(عليهم)** على قوم عاد مدّة وهي **(سبع ليال وثمانية أيّام)** ابتدأت المدّة من صباح يوم الأربعاء وانتهت مساء الأربعاء التّالي، وهي كانت أيّام برد العجوز، سمّيت بالعجوز لأنّها تقع في عجز الشّتاء أي آخره **(حسوماً)** أي متتابعات تلك الأيّام دون فصل بينها **(فترى القوم)** أي لو كنت موجوداً في ذلك الوقت ونظرت إليهم فترى القوم **(فيها)** في تلك الأيّام **(صرعى)** أي هلكى يقعون على الأرض كما يقع المصروع **(كأنّهم أعجاز نخل)** لكبر أبدانهم وطول قامتهم **(خاوية)** منقلعة من أصلها ساقطة على الأرض فلم يبق منهم أحد **(فهل ترى لهم من باقية)** أي فانظر هل ترى من هؤلاء القوم نفساً باقيةً أو عقبةً باقيةً تنتمي إليهم، كلّا بل انقطع ذرّيّتهم ولم يبق منهم أحد. هذا وقد ذكرنا قصّة عاد في تفسير سورة الفجر.

ثمّ أشار الله تعالى إلى أقوام آخرين أهلكوا بسبب تكذيبهم بيوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾

(وجاء فرعون ومن قبله) من الأمم **(والمؤتفكات)** أي وأهل قرى المؤتفكات وهي قرى قوم لوط، سمّيت مؤتفكات لأنّها ائتفكت أي انقلبت بأهلها، جاء هؤلاء الأقوام كلّهم **(بالخاطئة)** أي بنفس الخاطئة الّتى ارتكبها قوم عاد وثمود من التّكذيب بيوم القيامة وتكذيب رسلهم كما قال: **(فعصوا رسول ربّهم)** أي فعصى كلّ قوم رسول ربّهم الّذى أرسل اليهم **(فأخذهم)** أي عذّبهم الله نتيجة عصيانهم هذا وتكذيبهم للرّسل **(أخذةً رابيةً)** أي عذاباً شديداً، لأنّ رابية مشتقّ من ربا، يربو، وربى، جاء بمعنى زاد وبمعنى علا، وكلّ ما زاد على مقداره أو علا عليه فقد اشتدّ. وقد ذكرنا نبذة من قصّة فرعون في تفسير سورة النّازعات، وسيأتى قصّة قوم لوط عند وقتها إنشاء الله تعالى. ثمّ أشار الله تعالى إلى ماجرى على قوم نوح نتيجة كفرهم وتكذيبهم لنوح، وما جاء به من الدّين والإنذار بيوم القيامة فقال: **(انّا لمّا طغى الماء حملناكم في الجارية)** أي إنّا لمّا جرى الماء بكثرةٍ وأصبح الطّوفان نجّيناكم بأن حملناكم في السّفينة الجارية على الماء **(لنجعلها لكم)** أي فعلنا هذه الحادثة، وهي حادثة الطّوفان وإغراق الكافرين به وإنجاء المؤمنين لنجعلها لكم **(تذكرة)** موعظةً يتّعظ بهاالنّاس الموجودون وقت الطّوفان وعبرة يعتبرون بها، فلا يخالفوا أمر الله تعالى ولا ينحرفوا عن دينه **(وتعيها)** أي وتحفظها **(أذن واعية)** حافظة خبرها فتذكرها للّذين لم يشاهدوها ليتّعظوا ويعتبروا بها. وستأتي قصّة نوح في سورة نوح إنشاء الله تعالى.

بعد أن عظّم الله تعالى أمر القيامة وخوّف النّاس المكذّبين بها أراد أن يذكر بعض مايحدث في ذلك اليوم من الأهوال، فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾

(فإذا نفخ في الصّور نفخة واحدة) قد تكلّمنا على معنى النّفخ في الصّور في تفسير سورة (النّبأ)[١] عند قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصّور فتأتون أفواجاً﴾ وحقّقنا أنّ النّفخات ثلاث: بالأولى ينهدم هذا الكون ويموت كلّ حي، وبالثّانية تبعث الأموات، وبالثّالثة يساق النّاس إلى ساحة المحشر والحساب، فالمراد بقوله هنا: **(فإذا نفخ في الصّور نفخة واحدة)** هي النّفخة الأولى. وقال بعض المفسّرين: المراد به الثّانية، ويردّ ذلك قوله تعالى: **(وحملت الأرض.. إلخ)** لأنّ النّفخ الثّاني بعد خراب الأرض والجبال وتبدّلهم **(وحملت الأرض والجبال)** أي رفعتا **(فدكّتا)** فدقّتا وحرّكتا **(دكّة واحدة)** أي تحريكةً واحدةً. وتبقى دكّة ثانية تأتي عند أحياء الموتى بدليل قوله تعالى: ﴿يوم ترجف الرّاجفة﴾ سورة النازعات الآية/٦. أي يوم تتحرّك الأرض فتسمّى تلك الرّجفة راجفة ﴿تتبعها﴾ أي تلي هذه الرّاجفة ﴿الرّادفة﴾ أي الرّجفة الثّانية ﴿يقولون أإنّا لمردودون في الحافرة﴾ فثبت أنّ للأرض دكّتين، دكّة عند تبديل هذا النّظام عند النّفخة الأولى ودكّة عند إحياء الموتى، وذلك موافق لقوله تعالى: ﴿كلّا إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً﴾ سورة الفجر الآية/ ١٢ ـ أي دكّاً بعد دكّ ﴿وجاء ربّك والملك صفّاً صفّاً﴾ أي صفّاً بعد صفّ ﴿وجيء يومئذ بجهنّم... الخ﴾. **(فيومئذ)** أي فيوم إذ نفخ في الصّور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة **(وقعت الواقعة)** أي قامت القيامة سمّيت بالواقعة لأنّها لشدّتها كأنّها هي الحادثة الّتي تقع، ولا تليق أيّة حادثة أخرى بأنّ يقال لها الواقعة. أو يقال اللّام في الواقعة للعهد، أي الواقعة الّتي يدور البحث عنها بين المؤمنين والكافرين وهي القيامة **(وانشقّت السّماء)** أي تفطّرت فأصبحت فيها شقوق وأبواب **(فهي)** أي السّماء يومئذ **(يومئذ واهية)** ضعيفة لا تمنع العروج والنّزول منها **(والملك)** أي والملائكة الّذين كانوا على السّماء يتفرّقون بعد وهنها وضعفها **(على أرجائها)** أي على أطرافها الّتي لم تنشقّ ينتظرون صدور الأمر بنزولهم إلى الأرض بعد سقوط السّماء لتقيده بأمور الحشر والحساب وفق ما يأمرهم الله تعالى **(ويحمل عرش ربّك فوقهم)** أي فوق رؤوسهم **(يومئذ ثمانية)** أي ثمانية أشخاص من الملائكة، أو ثمانية أصناف منهم، أو ثمانية صفوف، كلّ ذلك محتمل وبكلّ قال بعض. وجاء في الحديث: إنّهم اليوم أربعة. فإذا جاء يوم القيامة أيّدهم الله بأربعة آخرين. وهذا الحديث أيضاً يحتمل أنّهم أربعة أشخاص. فيؤيّدون بأربعة أشخاص آخرين، أو أربعة أصناف؛ فيؤيدون بأربعة

---

(١) لأنه كتب تفسير جزء عم وطبعها ودرسها قبل هذه السورة.

أصناف آخرين، أو أربعة صفوف؛ فيؤيدون بأربعة صفوف. فإذن لا نصّ يعين أحد الاحتمالات الثّلاثة. فالعلم عند الله تعالى، إلّا أنّ الظّاهر أنّهم أربعة أشخاص فيصيرون ثمانية.

سؤال مهمّ: إنّ هذا الكون، الموجود الآن، عبارة عن العرش والكرسيّ والسّماوات السّبع والنّجوم والكواكب والشّمس والقمر والأرض والجبال والبحار. فهل هذه الأشياء تزول كلّها وينعدم يوم القيامة، أو كلّها تبقى إلّا أنّه يجري عليها تبديل وتغيّر، أو أنّ بعضها يزول وينعدم وبعضها يبقى ويجري عليه التّغيّر وبعضها يبقى ولا يجري عليه أيّ تغيّر وتبديل ؟

الجواب: إنّ هذه الأمور غيبيّة تحدث في المستقبل ولا يمكن التّكلّم فيها إلّا حسبما يفهم ويستنبط من الآيات الكريمة والأحاديث الشّريفة الّتي وردت وأخبرت عمّا يجري على هذه الأشياء يوم القيامة. فلذا نستعرض الآيات المتعلّقة بهذه الأشياء، ونذكر ما يتبادر إلى الذّهن حسب دلالة منطوق تلك الآيات أو إشاراتها.

وإليك البحث عن هذه الأشياء حسب التّرتيب:

١. **العرش**: إنّ العرش يبقى ولا يزول ولا يحدث عليه أي تبديل وتغير، وذلك بدليل ما يأتي:

قال تعالى: ﴿وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبّحون بحمد ربّهم وقضى بينهم بالحقّ وقيل الحمد لله ربّ العالمين﴾ سورة الزمر الآية/ ٧٥. فإنّ هذه الآية تنصّ على أنّ العرش موجود حينما يقضي الله بين النّاس، وبعد أن سيق أهل النّار إلى النّار وأهل الجنّة إلى الجنّة.

قال تعالى: ﴿ويحمل عرش ربّك فوقهم يومئذٍ ثمانية﴾ سورة الحاقة الآية/ ١٧. أي يحمل عرش ربّك يوم أن قامت القيامة ثمانية من الملائكة.

ذكر التّاج في البحث الخاصّ بيوم القيامة حديثاً طويلاً رواه مسلم والتّرمذي، وورد في ذلك ما هذا نصّه: (فيأتوني ـ أي يوم القيامة ـ فيقولون يا محمّد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، إشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما بلغنا. فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربّي عزّ وجلّ ثمّ يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثّناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي. ثمّ قال: يا محمّد، إرفع رأسك سل تعط واشفع تشفّع، فأرفع رأسي فأقول: يا

ربّ أمّتي أمّتي) فقوله (ﷺ): فآتي تحت العرش فأقع ساجداً [١] ... الخ. دليل صريح على أنّ العرش يوم القيامة باق.

٢. الكرسي:

لم يرد في القرآن الكريم ذكر الكرسي إلّا في آية واحدة من حيث يقول تعالى فيها: ﴿وسع كرسيّه السّماوات والأرض﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٥. ووقع الخلاف بين المفسّرين في أنّ المراد بالكرسيّ هو علم الله تعالى أو عرشه أو سماء أخرى برأسها. ولكنّ ابن كثير والقرطبيّ (رضي الله تعالى عنا وعنهما)[٢] ذكرا في تفسيرهما أحاديث كثيرة تصرّح بأنّ الكرسيّ سماء برأسها وأنّها تقع تحت العرش ويحيط بما تحته من السّماوات والنّجوم والأرض. وأيّد كلّ من الإمامين هذه الأحاديث. وقال الإمام الرّازي في تفسيره لآية الكرسي: واعلم أنّ لفظ الكرسيّ ورد في الآية، وجاء في الأخبار الصّحيحة أنّه جسم عظيم تحت العرش وفوق السّماء السّابعة. ولا امتناع في القول به، فالقول به واجب. فالقول الأصحّ أنّ الكرسيّ سماء برأسها وهي السّماء الثّامنة. أمّا بالنّسبة لبقائها يوم القيامة أو زوالها فالّذي يظهر أنّها تبقى، بدليل قوله تعالى: ﴿ولقد رآه) أي ولقد رأى محمّد جبريل (نزلةً) أي مرّةً ﴿أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنّة المأوى *﴾ سورة النجم الآيات/ ١٣ ـ ١٥. فهذه الآيات تدلّ بوضوح على أنّ جنّة المأوى هي عند سدرة المنتهى. ويدلّ حديث المعراج على أنّ السّدرة فوق السّماء السّابعة، وذلك لأنّه يقول في حديث المعراج الّذي اتّفق عليه الصّحيحان: (ثمّ صعد بي) أي جبريل (الى السّماء السّابعة) فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمّد، قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء. فلمّا خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه، فسلّمت عليه فرد السّلام ثمّ قال: مرحباً بالإبن الصالح والنّبيّ الصّالح. ثمّ رفعت رأسي إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة)[٣]. فبحكم هذا الحديث إنّ سدرة

---

(١) صحيح مسلم ١/ ١٨٥ الحديث رقم ١٩٥.

(٢) كان الشيخ رحمه الله تعالى يقول: ينبغي تعميم الدعاء لأن من دعا لغيره دون نفسه يعد عُجبا ومن دعا لنفسه دون غيره يعد بخلا. لذلك قال رضي الله عنا وعنهما. وفي أماكن أخرى يقول وعن المسلمين ...!

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٤١١ الحديث رقم ٣٦٧٦.

المنتهى فوق السّماء السّابعة. وبحكم أن جنّة المأوى عند سدرة المنتهى، يستنتج أنّ جنّة المأوى فوق السّماء السّابعة، فتكون الجنّة في السّماء الثّامنة وهي الكرسيّ. ويؤيّد هذا أنّ الله تعالى قال: ﴿وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربّكم وجنّةٍ عرضها السّماوات والأرض أعدّت للمتّقين﴾ سورة آل عمران الآية/ ٣٣. وقال تعالى: ﴿وسع كرسيّه السّماوات والأرض)سورة البقرة الآية/ ٢٢٥ ـ فيستنتج من الآيتين أنّ الجنّة تسع السّماوات والأرض وأنّ الكرسيّ يسع السّماوات والأرض. فيفيد أنّ الجنّة على الكرسيّ ويبقى يوم القيامة ولا يزول، وعليه جنّة المأوى، والله تعالى أعلم.

٣. الأرض:

الأرض تبقى ولا تزول إلّا أنّها تتبدّل وتتغيّر عن الحال الموجودة الآن وذلك بدلالة الآيات التّالية:

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ سورة مريم الآية/ ٤٠ ـ فهذه الآية تدلّ على أنّ الأرض باقية يوم القيامة لأنّها جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ المعنى أنّه بعدما قضي الأمر وهو الأمر بتبديل هذا النّظام للكون ومجيء يوم القيامة أنّ الأرض ومن عليها تبقى تحت تصرّف الله وحده، ولا يبقى يومئذٍ مالك مجازي ولا مالك ظاهري يملك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار﴾ سورة غافر الآية/ ١٦.

قال تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربّها ووضع الكتاب وجيء بالنّبيّين والشّهداء وقضي بينهم بالحقّ وهم لايظلمون﴾ سورة الزمر الآية/ ٦٧.

وهذه الآية صريحة بأنّ الأرض تبقى يوم القيامة وعليها يجري الحساب والقضاء بين العباد، وإنّها تشرق بنور خاصّ من الله تعالى لا بنور الشّمس ولا بضوء القمر.

٣. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ سورة (ق) الآية/ ٤٤ ـ تفيد هذه الآية أيضاً أنّ الأرض بعد النّفخ الثّاني وهو النّفخ الّذي يبعث به الأموات باقية وأنّها تنشق عن الموتى فيخرجون منها أحياء.

٤. قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ سورة الإنشقاق الآية/ ٣. وهذه أيضاً صريحة في أن الأرض يوم القيامة لا تفنى وأنّها تمتدّ وتصبح أكبر من اليوم، وتخرج ما فيها من الكنوز والأموات.

فهذه الآيات كلّها تدلّ دلالة لا خفاء فيها على أنّ هذه الأرض لا تزول وأنّها تبقى، ويكون عليها الحشر والحساب والقضاء بين العباد إلّا أنّها تتغيّر وتتبدّل عمّا هي الآن، حيث لا تبقى عليها جبال ولا تلول، وأنّها تزيد وتكبر بكثير ممّا هي الآن، لأنّ الجبال والتّلول والسّماوات كلّها تسوّى معها وتنضمّ إليها كما يأتي تحقيق ذلك إن شاء الله تعالى. فالّذى ظهر من هذا التّحقيق ومن عرض هذه الآيات والأحاديث أنّ العرش والكرسيّ والأرض لا تفنى وأنّها باقية يوم القيامة.

* * *

سؤال: إنّ القول ببقاء هذه الأشياء الثّلاثة تنافي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) لأنّ معنى الآية هو أنّ كلّ شيء غير الله تعالى يفنى ويزول ولا يبقى، فكيف التّوفيق؟

الجواب: لم يتّفق العلماء على أنّ معنى الآية كما قلت وأنّ كلّ شيء يفنى إلّا الله تعالى، قال الامام الرّازي رحمه الله: منهم من فسّر قوله تعالى: (هالك) بمعنى قابل للهلاك في ذاته إلّا الله، فإنّ كلّ ماعداه ممكن الوجود لذاته، وكلّ ما كان ممكناً كان قابلاً للعدم؛ فكان قابلاً للهلاك، نظراً إلى هذا الوجه لا هالكاً بالفعل. ثمّ قال: ما يفيد بأنّه لو كان المراد أنّه هالك بالفعل وأنّ كلّ شيء مهلك غير الله تعالى، فالمراد به أكثر الموجودات لا كلّها، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ سورة النمل الآية/ ٢٣، فإنّ بلقيس لم تؤت كلّ شيء على العموم والإستغراق الحقيقيّ بل على العموم والاستغراق العرفي والإضافي. أقول: وأمثال هذا الإستغراق في القرآن كثير مثل:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ سورة طه الآية/ ٥٧. أي ولقد أرينا فرعون معجزاتنا كلّها مع أنّه لم ير فرعون إلّا كلّ معجزات الله الّتي أعطيت لموسى فقط، لا كلّ معجزات الله تعالى على العموم والإستغراق الحقيقيّ، وهذا واضح لاخفاء فيه.

قال تعالى: ﴿ما كان (أي القرآن) حديثاً يفترى ولكن تصديق الّذى بين يديه وتفصيل كلّ شيء﴾ مع أنّه لا يخفى أنّ القرآن لم يفصّل كلّ شيء على الإستغراق الحقيقيّ، بل المراد أنّه تفصيل لكلّ شيء أراده تعالى من الأحكام والعبر والمواعظ وغير ذلك من دلائل وجوده وقدرته ووحدته.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ سورة الأحقاف الآية/ ٢٤. فقوله تعالى: ﴿تدمّر كلّ شيء) معناه تهلك كلّ شيء مرّت عليه. وأراد الله تعالى إهلاكه، فإنّ تلك الرّيح لم تهلك كلّ شيء. وأمثال هذه الآيات كثيرة، فيجب أن يحمل قوله: كلّ شيء هالك أي كلّ شيء أراد الله هلاكه فهو هالك، وإلّا لتعارضت الآية مع الآيات الّتى تنصّ على عدم هلاك العرش والأرض كما ذكرنا. وقال القرطبيّ: إنّ بعض العلماء قالوا: (كلّ شيء) أي كلّ عمل (هالك) أي لا يستفاد منه (إلّا وجهه) أي ما كان لوجه الله تعالى وحده دون أن يدخل فيه غرض آخر. وأمّا ما يزول ويفنى ممّا هو موجود في نظام هذا الكون فهو مايلي:

١. السّماوات السّبع:

إنّ السّماوات السّبع تزول عن وضعها وتفنى، وذلك بدلالة الآيات الآتية: قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ سورة الأنبياء الآية/ ١٠٤. والطيّ معناه إزالة الشّيء عن وضعه ومكانه. فإنّ الفرش إذا أريد إزالته طوي ولفّ.

٢. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ سورة الفرقان الآية/ ٢٥. وهذه الآية دالّة على أنّ السّماء تزول عن وضعها وتصير قطعاً قطعاً.

٣. قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ سورة الزّمر الآية/ ٦٧، تفيد الآية هذه بأنّ السّماوات تطوى وتزال عن مكانها.

٤. قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ سورة الرّحمن الآية/ ٣٧، أي تنشقّ السّماء فتكون أحمر كالورد وسائلة كالدّهان أي كدهن الزّيت.

٥. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ)سورة المعارج الآية/ ٨. (أي كالفضّة المذابة).

٦. قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ سورة المزمّل الآية/ ١٨ ـ أي تنفطر السّماء في ذلك اليوم وهو يوم القيامة.

٧. قال تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ سورة التكوير الآية/١١. أي أزيلت ونزعت عن أماكنها.

٨. قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ سورة الإنفطار الآية/١. أي انشقت.

٩. قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ سورة الإنشقاق الآية/١.

فهذه الآيات بمجموعها تدلّ على أنّ السّماوات تنفطر وتنشقّ وتذوب وتزول عن أماكنها، إلّا أنّها لا تدلّ على أنّها إلى أين تصير وأين تقع، والّذي يظهر أنّها تقع على الأرض وتنضمّ إليها بدلالة الآيات الآتية:

أ. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ سورة الأنبياء الآية/١٠٤. فهذه الآية تدلّ على أنّ السّماوات تعود إلى ما كانت عليه أوّل الخلق.

ب. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ سورة الأنبياء الآية/٣٠. تدلّ على أنّ أوّل الخلق كانت السّماوات والأرض كتلة واحدة. فبحكم هتين الآيتين يظهر أنّ السّماوات تنضمّ إلى الأرض وتقع عليها وتعود معها كتلة واحدة كما كانت قبل.

٢. النّجوم والكواكب:

إنّ الآيات الواردة فيها تدلّ على أنّها تزول عن وضعها، وإليك تلك الآيات:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ سورة المرسلات الآية/٨. أي أزيلت أنوارها، فتفيد هذه الآية أنّ النّجوم لا يبقى نورها، وأمّا ذواتها فلا تصرّح الآية بزوالها عن أماكنها ولكنّها تشير إلى ذلك لأنّه لا فائدة في بقاء النّجوم بعد زوال أنوارها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ سورةالتّكوير الآية/٢. أي زال أنوارها. فتصرّح الآية بزوال أنوار النّجوم وتشير إلى زوالها عن أماكنها أيضاً كما سبق في الآية السّابقة. وقد قال بعض المفسّرين (انكدرت) أي انقضت وسقطت، هذا وممّا يجب أن ندري أنّها حينما انقضت وسقطت عن أماكنها أنّها تتبخّر وتتلاشى أم هي تقع على الأرض وتنضمّ إليها، فالّذي يظهر لي أنّها تقع على الأرض وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا

الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَت﴾ سورة الإنفطار الآية/ ٢. أي تفرقت وتساقطت فإن هذه الآية تدلّ على أنّ النّجوم تتساقط على الأرض حينما قضى الله تعالى على الجاذبيّة الّتي أمسكت كلّ واحد في مكانه المقرّر، وذلك مثل العقد تتساقط حبّاته حينما انقطع خيطه، ويدلّ على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّت﴾ أي بسطت وكبر جسمها؛ وذلك بسبب إنضمام الكواكب إليها، ويدلّ على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ سورة الأنبياء الآية/ ١٠٤. فإنّ الطيّ معناه جمع ما نشر وضمّ بعضها إلى بعض، والسّماء عبارة عن كلّ ما هو فوق؟ فكلّ ما فوق الأرض يطوى ويجمع مع الأرض ويعاد كما بدأ خلقه أوّلاً. فإنّه قد كانت السّماوات والأرض كلّها كرّةً واحدةً ففرّقت وجعلت سماواتٍ وشموساً ونجوماً وكواكب وأرضاً، وذلك بدلالة قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ سورة الأنبياء الآية/ ١٠٤. أي كانتا واحدةً ففرّقناهما، فظهر من هذه الآيات أنّ النّجوم والكواكب تزول عن أماكنها وتسقط على الأرض، وتنضمّ إليها وتعود هي والأرض كتلةً واحدةً. وقال في القرطبيّ: روى أبو صالح عن أبن عبّاس قال: قال رسول الله (ﷺ): (لا يبقى في السّماء نجم يومئذٍ إلّا سقط في الأرض)[1] فظهر ممّا حررنا أنّ الكواكب والنّجوم تساقطت على الأرض كالسّماوات، وبذلك تبدّل الأرض غير الأرض وتكبر وتمتدّ مثل ما قال تعالى: ﴿وإذا الأرض مدت﴾ سورة الانشقاق الآية/ ٣.

٣.الشّمس والقمر:

إنّ الشّمس والقمر يزول ضوؤهما ويزول ذاتهما عن مكانهما أيضاً وذلك بدلالة الآيات التّالية:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ سورة القيامة الآيات/ ٧ ـ ٩. تدلّ هذه الآيات على أنّ القمر يزول نوره وإنّه يجمع مع الشّمس في مكان واحد، أمّا المكان الّذي يجمعان فيه، فهو إمّا على الأرض فيقعان على الأرض وينضمّان إليه كالسّموات والنّجوم بحكم الآية ﴿يوم نطوي السّماء ... إلخ﴾ سورة الأنبياء الآية/ ١٠٤. أو يقعان في البحر كما ذكر في الخازن عن ابن عبّاس

(١) لم أجده هذا.

أنّه قال (ﷺ): (يكوّر الله الشّمس والقمر والنّجوم يوم القيامة في البحر ثمّ يبعث الله ريحاً دبوراً، فتضربها فتصير ناراً[١].

قال تعالى: ﴿لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ سورة الإنسان الآية/١٣. أي في الجنّة شمسٌ ولا قمراً، كما فسّر بعض المفسّرين الزّمهرير بالقمر مستدلّاً بقول الشّاعر:

وليلة ظلامها قد إعتكر قطعتها والزّمهرير ما ظهر

فظهر من ذلك أنّ الشّمس والقمر يزولان ولا يبقيان، وأنّهما يقعان في البحر أو على الأرض.

٤. الجبال:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ أي نزيلها ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ سورة الكهف الآية/٤٨ ـ أي ظاهرة لا يسترها الجبال. فهذه الآية كما فسّرها علماء تدلّ على أنّ الجبال تزول وتنعدم.

قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ سورة طه الآية/١٠٥ ـ وهذه الآية صريحة في أنّ الجبال تسوّى مع الأرض فلا يبقى إرتفاع ولا نتوء على الأرض.

قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ سورة الواقعة الآية/٥. أي فتّت الجبال تفتيتا.

قال تعالى: (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ سورة المعارج الآية/٨. والعهن هو الصوف المندوف المختلفة ألوانه.

قال تعالى: (وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ سورة المرسلات الآية/ ١٠ ـ والنّسف بمعنى القلع.

قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ سورة القارعة الآية/ ٥.

أي كالصّوف المندوف. فهذه الآيات كلّها صريحة في أنّ الجبال تزول وتسوّى بالأرض.

٥.البحار:

أمّا البحار فإنّها تصير بحراً واحداً لقوله تعالى: ﴿وإذا البحار فجّرت﴾ أي أزيلت الحواجز بينها فتصير بحراً واحداً ثمّ تمتلىء ناراً فتصير جهنّم بدليل قوله تعالى: ﴿وإذا

(١) الدر المنثور ٨/ ٤٢٨.

البحار سجّرت﴾ سورة التكوير الآية/٦ ـ أي أوقدت ناراً، ولخبر ابن عبّاس المارّ ذكره أنّ الشّمس والقمر يطرحان في البحر فيصير ناراً، وذلك نار الله الكبرى.

* * *

فائدة: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ سورة الأنبياء الآية/ ١٠٥. أنّ الأرض تبقى تحت انتفاع الصّالحين بها. وإذا ضمّت هذه الآية إلى قوله تعالى حكاية عن قول المؤمنين في الجنّة: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ سورة الزمر الآية/ ٧٤. يظهر أنّ الجنّة تنشأ على الأرض ويسكنها المؤمنون ولا ينافي ذلك ماسبق أنّ الجنّة على الكرسيّ، فإنّه لا مانع من أن تكون جنّة فوق الكرسي وجنّة أخرى على الأرض وقد قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ سورة الرّحمن الآية/٤٦ ـ وفي الخبر أو الأثر أن أكثر أهل الجنّة البلهاء[1] وأنّ الأبرار لفي علّيين، فالجنّة في الأرض والعلّيون فوق الكرسيّ. هذا ما استفدناه من إستعراض الآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة، والعلم عند الله.

* * *

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي

(١) مسند الشهاب ٢/ ١١٠ الحديث رقم ٦٤١ بلفظ : (أكثر أهل الجنة البله)،قال الهيثمي فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان وضعفه أحمد بن صالح وغيره / انظر مجمع الزوائد ٨/ ٧٩. والبله قال النووي هم سواد الناس وعوامهم من أهل الإيمان الذين لا يفطنون للسنة فيدخل عليهم الفتنة أو يدخلهم في البدعة أو غيرها فهم ثابتوا الإيمان وصحيحوا العقائد وهم أكثر المؤمنين وهم أكثر أهل الجنة أما العارفون والعلماء العاملون والصالحون المتعبدون فهم قليلون وهم أصحاب الدرجات./ انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٧ / ١٨١. وذكر أن البله هم الغافلون عن الشر المطبوعون على الخير، أو الذين خلوا عن الدهاء والمكر وغلبت عليهم سلامة الصدر وهم عقلاء./ انظر فيض القدير ٢/ ٧٩.

ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

(**يومئذ**) أي يوم إذ نفخ في الصّور فدكّت الأرض والجبال وانشقّت السّماء فيومئذ كان كذا (**تعرضون**) على ربّكم للحساب (**لا تخفى منكم**) خصلة (**خافية**) عملتموها في السّر، فإذا لم تخف ما عمل في السّر لا يخفى ما عمل بالعلانية بالطّريق الأولى. فكلّ الخصال تظهر عند الحساب وتكون نتيجة هذا العرض ما قال تعالى: (**فأمّا من أوتي**) أي من سلّم (**كتابه**) أي سجّل أعماله (**بيمينه**) في اليد اليمنى (**فيقول**) لشدّة الفرح والسّرور لأحبّته وأصدقائه ومعارفه (**هاؤم**) اسم فعل معناه خذوا واقرؤوا كتابيه. وذلك مثل ما يأخذ الطّالب بطاقة نجاحه من المدرسة يقول لأصدقائه وزملائه فرحاً هذه بطاقة نجاحي وهذه درجاتي (**اقرؤوا كتابيه**) إقرؤوها إقرؤوها. ثمّ يبيّن الّذي أوتي كتابه بيمينه سبب نجاحه وسعادته فيقول: (**إنّي ظننت**) أي اعتقدت وآمنت في الدّنيا (**أنّي ملاقٍ حسابيه**) في هذا اليوم وصدّقت بيوم القيامة فتركت المحرّمات وأتيت بالواجبات حسب الاستطاعة، فلذلك أخذت كتابي بيميني (**فهو**) أي الآخذ كتابه بيمينه (**في عيشةٍ راضيةٍ**) تلك العيشة منه، وهذا التّعبير مجاز لأنّ صاحب العيشة يكون راضياً منها، فنسب الرّضا إلى العيشة لأنّ المؤمن لا يبالي بالعيشة، وإنّما يهمّه رضا الله تعالى ومغفرته. فالعيشة تفتخر بالمؤمن لا المؤمن بالعيشة. وذلك مثل ما يقال: الإمارة تفتخر بفلان وليس فلان يفتخر بالإمارة (**في جنّةٍ عالية**) أي هو في جنّةٍ مرتفعةٍ من حيث الرّتبة أو المكان أو كليهما (**قطوفها دانية**) القطوف جمع القطف بكسر القاف، مصدر بمعنى المفعول أي المقطوع، فالمعنى أن ما يقطف أي يجنى من ثمار الجنّة (دانية) قريبة يتناولها القائم والقاعد والمضطجع دون تعب ومشقّة ويقال لهم من قبل الملائكة أو من قبل الله على لسان الملائكة أو بدون واسطة (**كلوا**) أي

من هذه الثّمار **(واشربوا)** من هذه العيون والأنهار **(هنيئاً)** أي أكلاً وشرباً طيّباً لاغصّة فيه ولا أذى وقد رزقتم هذا الأكل والشّرب **(بما أسلفتم)** أي بسبب ما قدّمتم من الأعمال الصّالحة **(فى الأيّام الخالية)** أي الأيّام الّتى خلت أي مضت في الدّنيا **(وأمّا من أوتى)** أي أعطي **(كتابه)** أي سجّل أعماله **(بشماله)** بيده اليسرى **(فيقول)** تحسّراً وحزناً **(يا ليتنى لم أوت كتابيه)** هذا الكتاب الّذى ينبىء عن شقائى **(ولم أدر ماحسابيه)** الّذى فيه إفتضاحي وخجالتي **(يا)** أي ياقوم **(ليتها)** ضمير ليتها قيل يرجع إلى الموتة الأولى، والمعنى ليت الموتة الأولى **(كانت القاضية)** عليّ بفنائي الأبدي فلم أبعث، وهذا بعيد لأنّ الموتة الأولى لم يسبق لها ذكر، فالحقّ إنّها ضمير قصّة يفسّرها مابعدها، فالمعنى ليت القصّة أو الحالة أنّها حصلت لي الحادثة القاضية بموتي، فالمعنى أنّه يتمنّى الموت ولا يموت. والهاء في كتابيه حسابيه هاء السّكتة تثبت وقفاً ووصلاً. وجاءت السّكتة نتيجة التّحسر، فإنّ المتحسّر يقع في كلامه السّكتات الدّالة على التّأوّه **(ما أغنى عنّي)** أي مادفع عنّي **(ماليه)** شيئاً من العذاب **(هلك عنّي)** أي فنى عني **(سلطانيه)** أي قوّتي الّتى كانت تحميني من الأذى، فلا تبقى هذه القوّة والسّلطة يوم القيامة لأحد. وفي هذه الحالة التّعسة ينادي ملائكة العذاب وخزنة النّار ويقال لهم **(خذوه فغلّوه)** أي اجعلوا الغلّ في يديه **(ثمّ الجحيم)** أي جهنّم **(صلّوه)** أدخلوه **(ثمّ في سلسلة ذرعها)** أي طولها **(سبعون ذراعاً فاسلكوه)** فقيّدوه. ثمّ بيّن تعالى سبب استحقاقه لهذا العذاب فقال: **(إنّه)** أي إنّه **(كان)** فى الدّنيا **(لا يؤمن بالله العظيم)** لا يؤمن إيماناً صحيحا بالله العظيم، بل إنّه كان لا يؤمن به بتاتاً، أو يؤمن به إيماناً غير صحيح وغير موافق للواقع وغير لائق بذاته المقدسّة **(ولا يحضّ)** أي ولا يحثّ غيره **(على طعام المسكين)** أي على مواساة المساكين والفقراء، فهو لا يواسيهم بالطّريق الأولى **(فـ)** أي فبسبب عدم إيمانه هذا وعدم مواساته للنّاس **(ليس)** لا يوجد **(له اليوم)** يوم القيامة **(ههنا)** في ساحة العرصات **(حميم)** أى صديق يشفع له أو يقبل شفاعته، وهذا كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ سورة غافر الآية/١٨. **(ولا طعام)** أي ليس لأصحاب الشّمال بسبب عدم إيمانهم الصّحيح وعدم مواساتهم للمحتاجين، ليس لهم طعام **(إلّا من غسلين)** إلّا من صديد أهل النّار وما يسيل من أبدانهم **(لا يأكله إلّا الخاطئون)** أي لا يأكل ذلك الطّعام إلّا المذنبون.

قاعدة: الخاطئ من خطأ بمعنى أذنب عن عمد، فهو مسؤول ومعاقب، والمخطئ

من أخطأ وهو المذنب سهواً ونسياناً، فهو ليس بمسؤول ولا معاقب كما قال (ﷺ): (رفع عن أمّتي الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه)[1] أي رفع المؤاخذة عليها.

وهنا تنشأ أسئلة:

١. **السّؤال الأوّل**: إنّ الله تعالى عرّف أصحاب الشّمال بأنّهم لا يؤمنون بالله العظيم وإنّهم لا يحضّون على طعام المسكين، فيفيد ذلك أنّ الّذين يؤمنون بالله العظيم ليسوا من أصحاب الشّمال، فيكون من أصحاب اليمين لأنّه لا واسطة بين أصحاب الشّمال وأصحاب اليمين إلّا السّابقون وهم المقرّبون الّذين هم أعلى درجة من أصحاب اليمين وهم الّذين يدخلون الجنّة بدون حساب. فهل إنّ هذا مفاد صحيح؟

الجواب: نعم وإنّ كلّ من يؤمن بالله العظيم ويواسي الفقراء والمساكين فهو من أصحاب اليمين، فالمؤمنون كلّهم من أصحاب اليمين.

٢. **السّؤال الثّاني**: إذا صحّ أنّ المؤمنين كلّهم من أصحاب اليمين وقد أخبر الله تعالى أنّ أصحاب اليمين في عيشة راضية في جنّة عالية قطوفها دانية، فيفيد ذلك أنّ المؤمنين لا يرون العذاب وإن كانوا عصاة، وذلك خلاف ما نطقت به آيات كثيرة وأحاديث صحيحة من عذاب العصاة من المؤمنين والمسلمين ودخولهم جهنّم.

الجواب: إنّ قوله تعالى في حقّ أصحاب اليمين: (فهو في عيشةٍ راضيةٍ في جنّةٍ عاليةٍ)... إلخ. ليس معناه أنّهم لا يرون العذاب بتاتاً بل معناه أنّهم في عيشةٍ راضيةٍ.. إلخ، دون أن يروا عذاباً إن زادت حسناتهم على السّيئات أو ساوتها أو بعد أن يتطهّروا من السّيئات الزائدة على الحسّنات بالعذاب إن زادت سيئاتهم على الحسنات بالعذاب أو بالعفو، فالمعنى أنّ أصحاب اليمين في عيشةٍ راضيةٍ وجنّةٍ عاليةٍ عاجلاً أو آجلاً والله تبارك وتعالى أعلم.

٣. **السّؤال الثّالث**: إنّ القول بأنّ من يؤمن بالله العظيم ويحضّ على طعام المسكين، هو من أصحاب اليمين وإنّه يدخل الجنّة عاجلاً أو آجلاً، يفيد أنّ غير الملحدين هم أصحاب اليمين وأنّهم يدخلون الجنّة، فيفيد أنّ المشركين وأهل الكتاب يدخلون الجنّة مثل المسلمين لأنّ هؤلاء كلّهم يؤمنون بالله ويواسون المحتاجين ولهم

---

(١) كنز العمال ٩٨/٤ الحديث رقم ١٠٣٠٧.

بعض مكارم الأخلاق، وهذا خلاف مانطقت به الآيات الكريمة والأحاديث من أنّهم لا يدخلون الجنّة وإنّهم مخلّدون في جهنّم وبئس المصير، فكيف التّوفيق؟

الجواب: هو أنّ المراد بالإيمان بالله العظيم هو الإيمان الصّحيح بالله، وأنّ المراد بمواساة الفقراء هي المواساة المبنيّة على الإيمان الصّحيح بالله وعلى الخوف من الحساب يوم القيامة، وأنّ هؤلاء كلّهم لا يؤمنون هذا الإيمان الصّحيح، وأنّ مواساتهم ليست مبنيّة على الإيمان الصّحيح والمستقيم، ولمعرفة ذلك نذكر تلك الآيات الّتى تنطق بأنّ هؤلاء ليس لهم إيمانٌ صحيح بالله تعالى فنقول:

أمّا المشركون فليس لهم إيمان صحيح بالله تعالى وذلك لأمور:

الأمر الأوّل: أنّهم اتّخذوا مع الله تعالى آلهة أخرى يعبدونهم ويلجؤون إليهم في طلب دفع المضرّات وجلب المنافع، ويعتقدون أنّهم مثل الله تعالى في الألوهيّة والإيجاد والتّأثير واستحقاقهم للعبادة، وإنّ الآيات الّتى تخبر عن عقيدتهم هذه كثيرة يطول سرد كلّها فنذكر بعضاً منها:

١. قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ سورة مريم الآيتان/ ٨١، ٨٢.

٢. قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ سورة يس الآيتان/ ٧٤، ٧٥.

٣. قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٢٢ ـ . وفى هذا القدر كفاية لمن ألقى السّمع وهو شهيد.

الأمر الثّاني: إنّهم اعتقدوا أنّ لله تعالى شركاء في الألوهيّة واستحقاق العبادة، ونطقت آيات كثيرة بعقيدتهم هذه في القرآن الكريم منها:

١. قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٠٠.

٢. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ سورة الرعد الآية/ ٣٢.

٣. قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ سورة يونس الآية/ ٦٦. والآيات في مثل هذا القبيل كثيرة أيضاً.

الأمر الثّالث: إنّهم كانوا ينسبون إلى الله تعالى ما لا يليق به وهو منزّه عنه، وذلك من أنّ له بنين وبنات، وإليك بعض هذه الآيات الّتي تخبر عن عقيدتهم هذه:

١. قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة يونس الآية/ ٦٨.

٢. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ سورة مريم الآية/ ٨٨.

٣. قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ سورة الأنعام/ ١٠٠.

٤. قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ سورة النّحل الآية/ ٧٥.

٥. قال تعالى: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ سورة الكهف الآية/ ٤.

قال تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)﴾ سورة الصّافات الآيات/ ١٤٩-١٥٤.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الّتي تخبر عن إفكهم، هذا وفي ما ذكرناه كفاية لأولي الألباب، فبعقيدة المشركين بالله هذه العقائد الفاسدة والباطلة أصبح إيمانهم باطلاً وفاسداً. فأصبحوا لا يؤمنون بالله العظيم وأنّ كلّ مايفعلون من مواساة المساكين مبني على هذه العقيدة الفاسدة، والمبنيّ على الفاسد فاسد، فلا يقبل منهم كلّ مايعملون من خير، ولذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣)﴾ سورة الفرقان الآية/ ٢٣ ـ . وأمّا أهل الكتاب وهم اليهود والنّصارى، فإيمانهم أيضاً ليس إيماناً صحيحاً، فلذلك لم يعتبروا من الّذين يؤمنون بالله العظيم، ونثبت لك عدم صحّة إيمانهم حسب ما نطق به القرآن الكريم إن شاء الله تعالى.

أمّا اليهود فإيمانهم باطلٌ لأمرين:

الأمر الأوّل: إنّهم ينسبون إلى الله تعالى الولد ووردت في ذلك الآيات الآتية:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ﴾ سورة التوبة الآية/ ٣٠.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ سورة المائدة الآية/ ١٨.

الأمر الثّاني: إنّهم ينسبون إلى الله تعالى مايقدح في الألوهيّة ويوجب النّقص والعجز لله تعالى وذلك كما يلي:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ سورة المائدة الآية/ ٦٤.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٨١.

وبهذين الأمرين أصبح إيمانهم باطلاً وكانوا من الّذين لا يؤمنون بالله العظيم.

وأمّا النّصارى فإيمانهم بالله باطل أيضاً لأمرين:

الأمر الأوّل: إنّهم يشركون بالله تعالى ويجعلون له الولد حسب ما أخبر القرآن عنهم في هذه الآيات:

قال تعالى: ﴿لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً ولله السّماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كلّ شيء قدير﴾ سورة المائدة الآية/ ١٧.

قال تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للنّاس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنّك أنت علّام الغيوب﴾ سورة المائدة الآية/ ١١٦.

ألأمر الثّاني: إنّهم ينسبون إلى الله تعالى الولد ويجعلون المسيح ابن الله. قال تعالى: ﴿وقالت النّصارى المسيح ابن الله﴾ سورة التوبة الآية/ ٣٠.

هذا ومن أوضح ما يعبّر عن فساد عقيدة اليهود والنّصارى ما قاله تعالى: ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النّصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الّذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلّا هو سبحانه عمّا يشركون﴾ سورة التوبة/ ٣٠.

وإلى غير ذلك من الآيات الّتى تخبر عن عدم صحّة إيمان اليهود والنّصارى بالله تعالى، ولذلك أصبحوا ممّن لا يؤمنون بالله تعالى وصاروا من أصحاب الشّمال.

الأمر الثّاني: إنّ منهم من بقي على عقيدة التّوحيد ويعتقدون بأنّ عيسى رسول من الله تعالى، ويؤمنون بالله إيماناً صحيحاً ويواسي الفقراء والمساكين، وعندهم مكارم الأخلاق، فيلزم أن يكون هؤلاء من أصحاب اليمين، فما الجواب؟

الجواب: إنّه بعد بعثة محمّد (ﷺ) قدّر الله تعالى أنّ كلّ من بلغه دعوة الإسلام دعوة صحيحة ولم يدخل في الإسلام فلا يقبل منه إيمانه ويكون إيمانه غير صحيح، لأنّ من شرط الإيمان المقبول أن يقترن الإيمان بالله بالإيمان بمحمّد والدّخول في دينه واتّباعه، وصرّح بذلك آيات من القرآن الكريم نذكر منها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٩.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٨٥.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة الأعراف الآيتان/ ١٥٦-١٥٧.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ سورة محمد الآيتان/ ١، ٢.

والحاصل أنّ الآيات الّتى تحكم بالكفر على الّذين لم يعتنقوا الإسلام كثيرة جدّاً، ولذلك يجب الحكم على أهل الكتاب بالكفر، وأنّهم أصحاب الشّمال. وإنّ من لم يحكم بهذا فقد خالف الكتاب والسنّة والإجماع فيكون كافراً وخارجاً عن الإسلام.

* * *

تنبيه: هذا كلّه فيمن بلغته دعوة الإسلام الصّحيحة فلم يقبلها ولم يعتنقها، وأمّا من لم تبلغه دعوة الإسلام أو بلغته الدّعوة غير صحيحة أو مشوّهة، فهؤلاء ليسوا بمسؤولين حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥. بل إنّ هؤلاء يحاسبون وفق دينهم الّذى بقوا عليه. وهنا أحبّ أن اذكر أنّ الأمّة الإسلامية مسؤولة جدّاً في عدم إيصال دعوة الإسلام إلى النّاس أمماً وافراداً، وإنّها لآثمة لإهمالها هذه الفريضة العظيمة، بل وإنّها لخاسرة في الدّنيا والآخرة نتيجة تركها هذا الواجب العظيم قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ سورة العصر. وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٠٤.

فانظر يا أخي كيف ربط الله تبارك وتعالى الفلاح بالدّعوة إلى الإسلام وأفاد بأنّ الأمّة حينما ترك ذلك فقدت الفلاح والفوز بالسّعادة في الدّنيا والآخرة، وقد ذقنا مرارة ترك هذا الواجب، حيث إنّ دعاة الشّر أفسدوا المسلمين واستولوا عليهم، كلّ ذلك بسبب تكاسل المسلمين عن نشر دينهم والتّمسك به والدّفاع عنه ودعوة النّاس إلى هذا المبدأ العظيم، دين الله الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد أخبر الرّسول (ﷺ) حيث يقول: (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلّطنّ الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم)[١]. وهذا ما وقعنا فيه. حيث دخل العدوّ

(١) مسند البزار ١/ ٢٩٣ الحديث رقم ١٨٨.

واستولى على أكثر بلاد المسلمين الأجنبي المستعمر وأفسد علينا ديننا ودنيانا. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فعلى المسلمين التّنبه لهذا الأمر والتّيقظ عن هذه الغفلة والرّجوع إلى الدّين ونصره، فإنّ الله تعالى وعدنا بالنّصر حينذاك، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ سورة محمد الآية/ ٧ ـ وقال أيضاً: (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ سورة الروم الآية/ ٤٧ ـ وفي هذا القدر كفاية لكلّ مسلم ذكيّ (وأمّا الّذين كفروا فمثلهم كمثل الّذى ينعق بما لا يسمع إلّا دعاءً ونداءً صمّ وبكم عمي فهم لا يعقلون﴾ سورة البقرة الآية/ ١٧١. أللّهم لاتجعلنا من أصحاب الشّمال فإنّك أهل للإحسان والإفضال والإنعام وأرحم الرّاحمين وربّ العالمين.

* * *

خاتمة: فانظر يا أخي إلى الإسلام كيف إهتم بالمساكين ومواساتهم، وبالأخذ بأيديهم هذا الإهتمام العظيم؛ فإنّه قرن بين الإيمان بالله العظيم ومواساة المساكين معلناً بذلك بأنّ من لم يواس الفقير والمسكين ولم يقم بدفع حاجاتهم فلا فائدة تامّة في إيمانه بالله، ولا يقبل منه ذلك الإيمان منجياً. قال العلماء: قد قرن الله تعالى بين أشياء في القرآن الكريم إشارة إلى أنّه لا يتمّ واحد منها بدون الآخر. فقرن بين الصّلاة والزّكاة إشارة إلى أنّ إحداهما لا تنجي بدون الأخرى، وقرن بين الإيمان بالله والإيمان بالرّسول لذلك، وقرن بين عبادة الله تعالى وبرّ الوالدين لنفس المعنى، وقرن ههنا بين الإيمان بالله العظيم والمواساة للمحتاجين لذلك، هذا من حيث التّشريع، وأمّا من حيث التّطبيق فقد خصّص الإسلام عشر أموال الأغنياء من الحبوب والثّمار وربع العشر من النقود ومواد التّجارة للمحتاجين وفرض من الكفّارات والهدايا والفدايا ما يواسي به المحتاجين، وأوجب زيادة على ذلك أن يحصل من الأغنياء ما يسدّ به حاجة المحتاجين. والحاصل إنّ كلاً من المسكن والمأكل والملبس والعمل الّذى يعيش به المرء يجب تأمينه على الدّولة لكلّ إنسان من بيت المال وخزينة الدّولة، فإن لم تف بذلك خزينة الدّولة يجب عليها أن تحصل من الأغنياء ما يؤمّن به ذلك، فبعد ما علمت أخي ذلك فليخسأ الّذين يقولون أنّ الإسلام لا يفي بحاجة المجتمع وإنّه لا يؤمّن حياة الأفراد؛ ويعشق مبادىء أخرى مستوردة ضالّة لا تؤمن حياة المجتمع والأفراد معيشتهم بقدر عشر مايؤمّن الإسلام، وإذا وقع الإهمال من المسلمين من تطبيق الإسلام، فالذّنب ذنبهم وليس هناك ذنب للإسلام، ومن الحماقة أن ينسب ذنب المسلمين إلى الإسلام

تلبية لنداء أعداء المسلمين والإسلام دون أن يطّلعوا على نزاهة الإسلام وعدم قصوره في التّشريع، بل القصور كلّ القصور في التّطبيق وإنّ الله سيعاقب الّذين أهملوا تطبيق الإسلام والّذين ينسبون القصور إلى الإسلام ﴿وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون﴾ سورة الشعراء الآية/٢٢٧ـهذا، وإنّ هذا البحث يحتاج إلى تآليف ورسالات، إلّا أنّ العاقل تكفيه الإشارة، وهذا القدر كاف لمن ألقى السّمع وهو شهيد.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾

أقسم الله تعالى بما يبصره وما لا يبصره من الموجودات من مخلوقاته، أي أقسم تعالى بالموجودات كلّها فإنّ الموجود لا يخلو من أن يبصر أو لا يبصر، فأقسم الله تبارك وتعالى بكلّ الموجودات على أنّه أي أنّ هذا القرآن الّذى يخبر بأنّ هذا الكون سيفنى، وأنّ يوم القيامة يأتي، وأنّ النّاس ينقسمون في ذلك اليوم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشّمال، وأنّ مصير أصحاب اليمين إلى الجنّة والتّكريم، ومصير أصحاب الشّمال هو عذاب الجحيم. إنّ هذا القرآن لقول رسول من الله تعالى كريم أي ذي قدرٍ ومنزلةٍ معصومٍ من الكذب والافتراء على الله تعالى، ومحفوظ من خيالات الشّعراء وخلط الكهنة والمشعوذين، **(وماهو بقول شاعر)** نشأ عن الخيالات والوهميّات والمقدّمات المشوّقة والمهيّجة للعواطف، بل هو رسالة من الله تعالى منبئة عن الحقّ **(قليلاً ما تؤمنون)** أي ومع ذلك ماتؤمنون به ولو إيماناً قليلاً **(ولا بقول كاهن)** أى وليس ما أتى به محمّد بقول كاهن اختلط فيه الصّدق بالكذب والحقّ بالباطل **(قليلاً ما تذكّرون) أي** وما تتذكّرون وتتفكّرون فيه ولو قليلاً، فإنّه لو تفكّرتم فيه بعض التّفكير لعرفتم أنّه حقّ وآمنتم به **(تنزيل)** أى أنّ هذا القرآن منزّل **(من ربّ العالمين)** على محمّد ليربّي النّاس على وفقه تربية إلهيّة ربانيّة لا تربية أحسن منها، بل إنّ كلّ تربية سواها باطلة وصاحبها ومن يتّبعها في النّار.

تنبيه: إنّ قوله تعالى **(فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون)** وإن كان في الظّاهر قسماً إلّا أنّه في الحقيقة برهان واستدلال بما يبصر وما لا يبصر على أنّ هذا القرآن من

الله تعالى وليس بقول شاعر ولا كاهن، وصورة الاستدلال هكذا، إنّ هذه الموجودات ممّا تبصرونه وما لا تبصرونه تدلّ على أنّها لابد من أن يكون لها خالق عليم وصانع حكيم وهو الله. وإنّ من خلق هذا النّظام البديع وصنع هذا الكون العجيب ليس من الحكمة أن يهمل النّاس دون نظام وشريعة يعملون بها، وإن كلّ شريعة تضع ثواباً لمن عمل بها وطبّقها، وعقاباً على من خالفها وانحرف عنها، وحيث إنّ هذا الثّواب والعقاب لا يجريان كليّاً في الدّنيا فإنّ كثيراً من الصّالحين يموتون دون ثواب، وكثيراً من المجرمين يموتون دون عقاب فلو لم يكن يوم يحيا فيه النّاس ويحاسبون فيه وينال الصّالح الثّواب صلاحه والمجرم عقاب جريمته فلا يتحقّق عدالة الله تعالى، وذلك محال، فيجب أن يأتي هذا اليوم وبهذه الصّورة تدلّ هذه الموجودات من المحسوسات وغيرها على أنّ هذا اليوم حقّ وإنّ الثّواب والعقاب حقّ وإنّ ما أخبر بهذا وهو القرآن هو من عند الله تعالى وليس بقول شاعر ولا كاهن والله تعالى أعلم.

* * *

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

تشير هذه الآيات الكريمة إلى أنّ الله تعالى يصبر على كلّ جريمة ويمهل صاحبه فلا يستعجل بعقابه فوراً إلّا جريمة الكذب على الله تعالى بالرّسالة فإنّه لا يصبر على هذه الجريمة ولا يمهل صاحبها، بل يعاقبه فوراً ويأخذه أخذ عزيز مقتدر، حيث لو لم يفعل ذلك لاختلّت الرّسالة وادّعى كلّ فاسد رسالة أو نبوّة من عند الله، فيختلط الحقّ بالباطل. وهكذا يخبرنا التّاريخ، فإنّ كلّ من ادّعى النّبوة كذباً افتضح أمره وعاقبه الله عزّ وجل في الدّنيا قبل أن يعاقبه في الآخرة؛ ولذلك قال تعالى: **(ولو تقوّل)** أي ولو إفترى محمّد علينا بعض الأقاويل أي بعض الأمور ممّا لم نأمره بقوله وتبليغه **(لأخذنا منه باليمين)** أي لأخذنا بيمينه **(ثمّ لقطعنا منه الوتين)** أي ثمّ بعد الأخذ بيمينه ومنعه من الحركة لقطعنا منه الوتين أي لقطعنا العرق الّذى يربط به القلب، فإذا انقطع مات صاحبه من فوره. وهذا تمثيل، فإنّ النّاس كانوا حينما يريدون قطع عنق أحد يوقفونه ويأخذون بيده اليمنى كي لا يستطيع أن يتحرّك ثمّ يضربون بالسّيف عنقه، فالمعنى لو إفترى محمّد علينا بعض الشّيء من الأقوال لقتلناه وأهلكناه **(فما منكم من أحد)** أي فما منكم

أحد **(عنه حاجزين)** أي دافعين عنه، بمعنى: لا يستطيع أحد أن يدافع عنه ويمنعنا من إهلاكه، فحينما يبثّ محمّد رسالته وينشر دعوته وينتشر ويزيد أتباعه يوماً بعد يوم ويوفقه الله تعالى في دعوته هذه، فمعنى ذلك أنّه رسول من الله تعالى، وإلّا لأُهلك ولافتضح كما أهلك من قبله ممّن كان يدّعي الرّسالة كذباً وافتراءً، فيكون هذا دليلاً ثانياً على أنّ محمّداً (ﷺ) رسول وأنّ ماجاء به هو من الله تعالى. هذا، وقد حقّقنا وفصّلنا الكلام على أنّ القرآن ليس بشعر ولا كهانة في تفسير قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشّعر وما ينبغى له﴾ في تفسير سورة يس وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إن هو إلّا ذكر للعالمين﴾ في تفسير سورة التّكوير بما تقرّ به العيون فراجعهما.

(وإنّه) أى وإنّ القرآن الّذى جاء به محمّد **(لتذكرة)** للإيقاظ من الغفلة الّتى وقع فيها النّاس من حقائق الّدين وأمور العقيدة وتنبيه **(للمتّقين)** منهم أي للّذين يريدون التّجنّب عن الباطل والوصول إلى الحقّ والقرآن، وإنّه جاء ليتذكّر كلّ أحد إلّا أنّه خصّ هنا بالمتّقين لأنّهم المنتفعون به دون غيرهم.

تنبيه: إنّ التّذكرة والذّكر كلاهما بمعنى واحد، وهو كما ذكر الإيقاظ من الغفلة والتّنبيه على الحقّ. وقد وصف الله تعالى القرآن في بعض الآيات بالذّكر، وفي بعضها بالتّذكرة والمآل واحد، وأيضاً قد عمّ في بعض الآيات لكلّ النّاس باعتبار أنّه جاء ليذكّر كلّ النّاس، وإنّ دعوة الإسلام عامّة وقد خصّ في بعض الآيات بالمتّقين أو بمن يخشى لأنّهم هم المنتفعون به دون غيرهم، فكأنّه نزل إليهم فقط، فإنّ من لم ينتفع بشيء فوجود ذلك الشّيء بالنّسبة إليه كالعدم، وهذا تعبير في القرآن كثير.

* * *

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

(وإنّا لنعلم أنّ منكم مكذّبين) هذه الآية وعيد للكافرين بأنّ الله تعالى يعلم تكذيبهم بالقرآن وبمحمّد (ﷺ) وأنّه سينتقم منهم؛ لأنّ فائدة الخبر إعلام المخاطب بمضمونه، وهذا منتفٍ هنا، لأنّ الرّسول (ﷺ) كان يعلم أنّ الله عالم بالمكذّبين به، ولازم فائدة الخبر وهو أنّ يعلم المخاطب أنّ المتكلّم يعلم مضمون الخبر كما تكون

لمن حفظ القرآن قد حفظت القرآن. فالمراد بمثل هذا الخبر أن يخبر المتكلّم بما يعلم مضمونه وهو أيضاً منتفٍ هنا، فلم يبق لهذا الخبر فائدة إلّا حمله على الوعيد للكافرين والتّسلية للرّسول (ﷺ) بأنّ الله ينتقم من المكذّبين له ووعد للمؤمنين بقهر أعدائهم من الكافرين والانتقام منهم، وهكذا يحمل كثير من الآيات الّتى تخبر بأنّ الله تعالى عالم أو عليم أو خبير بأحوال الكافرين **(وإنّه لحسرة على الكافرين)** كان النّاس من أهل الكتاب والمشركين يعرفون أنّ هذا القرآن من الله تعالى، وأنّ محمّداً هو رسول الله، وأنّه يصير له الكلمة العليا والقوّة والسّلطان في الأرض، فكانوا يحسدونه على ذلك ويتحسّرون، ولحسدهم هذا كان البعض لايؤمنون به ويقفون أمام دعوته، وقد أخبر تعالى عن ذلك في آياتٍ:

قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٠٥.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ سورة النساء الآية/٥٣.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة الآية/١٤٦.

إلى غير ذلك من الآيات الّتى تدلّ على أنّ الكافرين كانوا يعرفون أنّ هذا القرآن من الله تعالى وأنّ محمّداً (ﷺ) رسوله، إلا أنّهم كانوا لا يؤمنون حسداً وتحسّراً من أن يكون لمحمّدٍ (ﷺ) هذه النّعمة وأن ينعم الله عليه بهذا الفضل العظيم، وقوله تعالى صريح في ذلك حيث يقول: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ سورة البقرة الآيتان/٨٩-٩٠ ـ فبناء على ماحرّرنا يكون معنى قوله تعالى: **(وإنّه)** أي وإنّ القرآن **(لحسرة)** لسبب تحسّرٍ **(على الكافرين)** لأنّه نزل على محمّد دونهم، وإنّ هذا الفضل العظيم نزل من الله تعالى على محمّد (ﷺ) **(وإنّه)** أي وإنّ القرآن **(لحقّ اليقين)** ليقين حقّ لا شكّ فيه ولا يدانيه البطلان **(فـ)** أى فبعد أن عرفت أنّ هذا القرآن من الله تعالى وأنّ ما أخبر به من مجيء يوم القيامة حقّ وأنّ المجرم ينال عقابه والمؤمن يجنى ثمرة وثواب إيمانه **(سبّح باسم ربّك)** أى اعترف بنزاهة قدرة

ربّك عن أن يعجز عن إحياء الموتى، وجزاء كلّ شخص وفق عمله، فالمراد بالاسم هنا القدرة (**العظيم**) هذا الرّب المتّصف بالعظمة الّتى يقتدر صاحبها على كلّ شيء، وإنّ أمثال هذا الأمر بالنّسبة للمؤمنين أمر بالثّبات على هذا الاعتراف، وأن لا يزحزحه عن هذه العقيدة دسائس الملحدين ووساوس الكافرين، وبالنّسبة لغير المؤمنين أمر بالاعتراف بأنّ قدرة الله نزيهة عن العجز عن أن يبدّل هذا الكون بكون آخر، وأن يحيي الموتى ويحاسبهم حسب أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأنّ بيد الله البدء والختام. والحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وآله اجمعين.

سورة المعارج

(مكيّة، سمّيت بالمعارج لما فيها من قوله تعالى: ﴿من الله ذي المعارج﴾، نزلت بعد الحاقّة وآياتها أربع وأربعون).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾

كان الرّسول (ﷺ) يخوّف أهل مكّة وجميع الكافرين بعذاب يوم القيامة، فكانوا يسألونه تهكّماً واستهزاءً ويقولون: متى يأتي ذلك اليوم الّذي تخوّفوننا به؟ فلم لا يأتي؟ وقال نضر بن حارث يوماً: اللّهم إن كان ما يقول محمّد حقّاً فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذاب أليم؛ فسلّى الله تعالى رسوله وأنزل هذه السّورة فقال: **(سأل سائل بعذابٍ واقع)** أي سأل سائل عن عذابٍ واقع لا محالة، أو دعا داعٍ استهزاءً أن يأتي عذاب واقع حسبما يقول محمّد وينذرهم، به فأجاب الله تعالى عن هذا السؤال فقال: **(للكافرين)** أي سيقع ذلك العذاب للكافرين حتماً وبدون شكّ **(ليس له)** أي ليس لذلك العذاب **(دافع)** يدفعه ممّن يستحقّه أو يمنعه أن يصيبه. **(من الله)** أي يقع ذلك العذاب ويأتي **(من الله ذي المعارج)** أي من الله صاحب الدّرجات الرّفيعة والمنزلة العالية الّذى بلغت معارج درجاته إلى حدّ بحيث **(تعرج الملائكة والرّوح إليه في يوم)** أي إلى محلّ حكمه في تلك المعارج ويقطعونها في يوم **(كان مقداره)** أي مقدار ذلك اليوم الّذي يقطع الملائكة فيه تلك المعارج **(خمسين ألف سنة)** وهذا كناية عن عظمة الله تعالى هذه العظمة فلا يستطيع

أحد أن يدفع عذابه إذا أراد أن يقع بقوم أو شخص. هذا والمراد بالرّوح جبريل عليه السّلام أو أرواح المؤمنين **(فاصبر صبراً جميلاً)** أي إنّ هذا العذاب يأتي يا محمد ويا كلّ داع إلى الإسلام ولا شك فاصبر على دعوتك والمضي فيها صبراً جميلاً، وهو ما لا فزع فيه ولا جزع **(إنّهم يرونه)** أي إنّ الكافرين يرون ذلك اليوم **(بعيداً)** أي بعيداً عن العقل والوقوع والإمكان حيث ماكانوا يؤمنون به حتّى يرونه بعيداً من حيث الزّمان **(ونراه قريباً)** قريباً من الإمكان والوقوع ومن حيث الزّمان فإنّ كلّ آتٍ قريب، وقد قيل قديماً (ما أبعد مافات وما أقرب ما هو آت) ولأنّ قيامة كلّ أحد تقوم بموته كما قال الرّسول (ﷺ): (من مات فقد قامت قيامته)[1] أي القيامة الصّغرى وهي الدّخول في النّعمة أو العذاب، فإنّ القبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّيران، وإنّ الموت قريب فقد كان أبو بكر الصّديق (رضي الله عنه) إذا مرض ينشد هذا البيت ويقول:

كـلّ امـرىء مـصـبـح فـي أهـلـه والـمـوت أدنـى مـن شـراك نـعـلـه

خاطرة: إنّ من عادة كلّ ملك أنّه إذا أراد تدمير مكان فإنّه يسحب موظّفيه والمنتمين إليه من ذلك المكان ثمّ يدمّره، وعلى هذا يحتمل أن يكون معنى الآية (تعرج الملائكة) أي ترجع الملائكة الّذين فوّض إليهم تدبير أمور الأرض وما فيها (إليه) إلى محلّ حكم الله، وينتهي رجوعهم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فيكون عمر الدّنيا من يوم نزول هذه الآية إلى خراب الكون خمسين ألف سنة، وهذا يناسب قوله تعالى (إنّهم) أي أنّ النّاس يرون هذا الزّمن بعيداً، لأنّ خمسين ألف سنة بعيد في نظرهم (ونراه قريباً) لأنّ خمسين ألف سنة قليلة بالنّسبة إلى الله تعالى جدّاً، وهذه خاطرة خطرت بالبال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض ما يقع في يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾

(١) كنز العمال ١٥/٢٣٣ الحديث رقم ٤٢١٢٣ بلفظ: إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته.

(يوم) أي يقع ذلك العذاب فى يوم **(تكون السّماء كالمهل)** أي كالزّيت المذاب **(وتكون الجبال)** فى ذلك اليوم **(كالعهن)** أي كالصّوف المندوف **(ولا يسأل)** أي لايسأل في ذلك اليوم **(حميم)** أي صديق قريب قويّ في الصّداقة **(حميماً)** صديقاً حارّاً في صداقته، وكأنّ قائلاً يقول: إنّ الحميم لا يسأل حميماً لأنّه لا يدري به ولا يطّلع عليه، فقال تعالى: **(يبصّرونهم)** أي يبصر الحميم الحميم ويراه ولا يسأله، لأنّه غافل عن غيره لشدّة حاله وبلوغه في الشّدة الى حدّ أنّه **(يودّ المجرم)** أي يتمنّى العصاة **(لو يفتدي)** يتمنّى أن يفتدي **(من عذاب يومئذٍ ببنيه)** بكلّ أبنائه بل **(وصاحبته وأخيه وفصيلته)** أي عشيرته **(الّتي تؤويه)** أي تضمّه إلى نفسها بل **(ومن في الأرض جميعاً ثمّ ينجيه)** ذلك الفداء من ذلك العذاب، ولكن هل يقبل منه كلّ فداء فقال جلّ وعلا:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

(كلّا) أي أنّه لا يقبل منه الفداء بكلّ هذه الأمور ولا بكلّ شيء بل **(إنّها)** أي إنّ جهنّم **(لظى)** تتلهّب **(نزّاعة)** أي قطّاعة **(للشّوى)** لأطراف المجرمين فتقطعها **(تدعو)** تطلب **(من أدبر وتولى)** من أعرض عن شريعة الله لتلتهمه وتتقطّع أطرافه **(وجمع)** المال دون أن يفرّق بين الحلال والحرام فيجمعه بكلّ وسيلة مشروعة وغير مشروعة **(فأوعى)** أي حفظه وكنزه دون أن ينفقه في سبيل الله، وفيما أباح الله تعالى وأمر به، وفي هذه الآيات ذمّ لكلّ من جمع المال وحرص عليه دون أن يفرّق بين الحلال والحرام، ولمن كنز المال فلم ينفقه فيما أمر الله تعالى به. وإلّا فجمع المال من الحلال وصرفه في الحلال مأمور به وعبادة لا يؤثم ولا يلام المرء عليه، فنعم المال مال المسلم يكسبه من حلال ويصرفه في الحلال وفي وجوه البرّ. وبئس المال مال الفاسق يجمعه كيفما اتّفق وينفقه في الحرام أو لا يؤدي حقّ الله تعالى وحقّ العباد منه. وما أصدق قول الشّاعر حينما يقول:

ما أحسن الدّين والدّنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرّجل

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾

ثمّ إنّ الله تعالى بعد ما ذكر حال الإنسان من إنكاره واستبعاده يوم الحساب، ومن إفتدائه من العذاب حينما أصيب به يوم المعاد، وجمعه للمال بكلّ الوسائل، ومنعه من الصّرف كنزه دون صرفه في وجوه البرّ والفضائل، ذكر من طبيعة الإنسان وجبلته ما يحمله على هذه الأمور فقال: **(إنّ الإنسان خلق هلوعاً)** أي شديد الحرص والحبّ للدّنيا والحياة ولذالك تراه **(إذا مسّه الشرّ جزوعاً)** أي إذا مسّه الشّر يجزع كثيراً ولا يصبر **(وإذا مسّه الخير)** أي إذا أصابه النّعمة من المال أو القوّة أو الجاه يكون **(منوعاً)** أي لا يشكر الله ويمنع حقّ الله وحقّ النّاس فلا يؤدّي ما وجب عليه من ذلك.

ثمّ بيّن الله تعالى أنّه ليس كلّ إنسان كذلك بل من الإنسان من إذا أصابه الشّرّ صبر وشكر وتوكّل على الله ولم يجزع، وإذا أصابه الخير شكر وأدّى ما فرض الله تعالى عليه، فاستثنى الله تعالى هذا النّوع من الإنسان فقال جلّ وعلا:

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(إلّا المصلين) أي إلّا الّذين يؤمنون بالصّلاة فيؤدّونها **(الّذين هم على)** أداء **(صلاتهم دائمون)** مستمرّون فلا يتركونها **(والّذين)** يعتقدون أنّ **(فى أموالهم)** الّتى يملكونها **(حقّ)** أي مقدار **(معلوم)** من عند الله تعالى يجب أن يعطى **(للسّائل)** أي للفقير والمحتاج **(والمحروم)** أي الّذي أصابته حادثة فحرم من ماله؛ فيؤدّي ذلك المقدار المعيّن إلى مستحقّيه. والمراد من هاتين الآيتين أنّه يؤدّي عباداته البدنيّة كلّها والّتي جعلت الصّلاة شعاراً ورمزاً لها، ويؤدي أيضاً عباداته الماليّة الّتي جعلت الزّكاة شعاراً ورمزاً لها **(والّذين يصدّقون)** أي يؤمنون **(بيوم الدّين)** بيوم الجزاء والحساب

فيؤدّون هذه العبادات للإيمان بأنّهم سيحاسبون عليها يوم الجزاء **(والّذين هم من عذاب ربّهم)** أي الّذين هم من عذاب ربّهم في يوم الّدين **(مشفقون)** أي خائفون إذا لم يقوموا بواجباتهم هذه **(إنّ عذاب ربّهم غير مأمون) أي** يعملون هذه الأعمال لأنّهم يعتقدون أنّ عذاب ربّهم غير مأمون لمن لم يقم بتلك الواجبات وهذه العبادات. وفي هاتين الآيتين إشارة إلى أنّ كلّ عمل لم يقم على أساس الإيمان بالحساب والخوف من العذاب ومجيء يوم العقاب فلا قيمة له ولا يقبل عند الله، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ سورة الكهف الآية/ ١٠٥. فيكون ذلك ردّاً على بعض القائلين: أنّ من إنتفع النّاس به وأفادهم بالعلوم والاختراعات، وغير ذلك من المصالح البشريّة فهم من أهل الجنّة وإن كانوا من كانوا، يقولون هذا دون إطلاع على أسس الدّين وعلى ما حكم به ربّ العالمين فأصبحوا كما قال تعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربّك﴾ سورة الزخرف الآية/ ٣٢. وأصبحوا يحكمون على الله حسب هواهم وعقولهم القاصرة فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. لقد ذكر الله تعالى أنّ من صفات الإنسان التّقي أنّه يحسن صلته مع الله تعالى بأداء العبادات البدنيّة وأنّه يحسن صلته مع النّاس بأداء العبادات الماليّة وإيصال ما وجب من المعونة والإحسان إليهم، وإنّه يفعل ذلك لإيمانه بيوم الجزاء وخشيته من العذاب فيه، ثمّ شرع فيما يجب أن يحسن صلته مع النّاس من جهة العرض فقال: **(والّذين هم لفروجهم حافظون)** أي الّذين يحفظون فروجهم فلا يستعملونها **(إلّا على أزواجهم)** إلّا من حلّت لهم بالنّكاح **(أو ما ملكت أيمانهم)** وهن اللّاتي حلّت لهم بالملك من الجواري **(فإنّهم غير ملومين)** فإنّهم أي الّذين يستعملون فروجهم على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم غير مذمومين عند الله تعالى ولا مسؤولين، بل إنّهم مثابون على ذلك كما قال الرّسول (ﷺ): (وفي بضع أحدكم صدقة)[1] (فمن ابتغى) ابتغى أي طلب **(وراء ذلك)** غير ذلك أي غير المذكورات من الأزواج وجواريه، وأراد أن يقضي شهوته في غير هؤلاء **(فأولئك هم العادون)** أي متجاوزون حدود الله وما أباح لهم. ثمّ شرع الله تعالى في بيان مايجب على الإنسان من حفظ حقوق النّاس وعدم ضياعها فقال: **(والّذين هم لأماناتهم)** الّتي ائتمنوا من قبل النّاس عليها **(وعهدهم)** الّتي عاهدوا بها النّاس **(راعون)** فلا يضيعونها ولا يخونون

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ٨٣ الحديث رقم ٢٣٧٦.

فيها **(والّذين هم بشهاداتهم)** أي والّذين هم بشهاداتهم الّتي فيها حفظ حقوق أو أموال أو أنفس أو أعراض النّاس **(قائمون)** فيؤدّونها ولا يكتمونها **(والّذين هم على)** شروط وآداب وأركان **(صلاتهم يحافظون)** فيؤدّونها وفق ما قرّره الشّرع من الشّروط والفرائض والآداب. وإلّا فالصّلاة غير الموافقة لآداب الشّرع باطلة وغير مجزية ولا قيمة لها عند الله تعالى، فنفهم من هذا أنّ الآية الأولى **(الّذين هم على صلاتهم دائمون)** معناها أداء الصّلاة وعدم تركها، ومعنى هذه **(والّذين هم على صلاتهم يحافظون)** مراعاة شروطها وفرائضها وفهم أيضاً إهتمام الله تعالى بالصّلاة فإنّها الصّلة بينه وبين العبد، وإنّ أوّل مايسأل عنه العبد يوم القيامة هو الصّلاة وإنّ الصّلاة عماد الدّين، فمن أقامها فقد أقام الدّين ومن تركها فقد هدم الدّين **(أولئك)** أولئك أي هؤلاء المتّصفون بالصّفات والأخلاق المذكورة هم **(في جنّات)** يوم القيامة مكرمون في تلك الجنّات عند الله تعالى لا غيرهم، فعلم من ذلك أنّ دخول الجنّة والتّكريم عند الله تعالى منوط بالإيمان والأخلاق والأعمال الصّالحات لا بالنّسب والأجداد والآباء والأمهات، فمن آمن وعمل صالحاً فإنّه يكرم عند الله ويدخل الجنّة وإن كان من أولاد رعاة الشّاة، ومن لا فهو في النّار وإن كان من أولاد سيّد السّادات بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ سورة المؤمنون الآيات/ ١٠١-١٠٤. فهذا هو كلام الله، وهذه سنّة الله تعالى، فإذا كان الأمر كذلك:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾

أي فإذا كانت العبرة بالعمل لا بالنّسب **(فما للّذين كفروا)** أي فأيّ دليل للّذين كفروا ولأيّ سبب **(قبلك)** أي إلى جانبك وكلامك **(مهطعين)** ممدّين أعناقهم دون أن يؤمنوا ويعملوا **(أيطمع) أي** أيطمع ويطلب **(كلّ امرىء منهم أن يدخل جنّة نعيم)** بسبب نسبه، ويقولون لو دخل هؤلاء الجنّة، أي المؤمنون، لنحن ندخل قبلهم لأنّنا من أشراف قريش. فردّ الله تعالى عليهم وزجرهم على هذا القول فقال جلّ وعلا:

﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾

عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(**كلّا**) أي فلينتهوا عن هذا القول وهذا الظّن حيث (**إنّا خلقناهم**) هم وغيرهم (**ممّا يعلمون**) وهو التّراب أو النّطفة الّتي يقذفها الرّجل في رحم المرأة، فكلّهم بالنّسبة لأصل خلقتهم سواء، لا تفاضل بين هذا وذاك، وإنّما التّفاضل يكون بالإيمان بالأخلاق والأعمال، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ سورة الحجرات الآية/ ١٣ ـ . وفي وسط هذا الحوار الشّديد اشتدّ غضب الرّسول (ﷺ) فأحبّ أن يهلك الله تعالى هؤلاء القوم ويستعجل بعذابهم، فسلّاه الله تعالى وهدّأ من غضبه فقال تعالى: (**فلا أقسم**) أي أقسم (**بربّ المشارق والمغارب**) أقسم تعالى بنفسه إلّا أنّه ذكر نفسه بصفته للإخبار بأنّ من هذا وصفه وهو ربّ المشارق والمغارب (**إنّا لقادرون على أن**) لقادر على أن يهلك هذا القوم (**نبدّل خيرا منهم**) ويبدّلهم بقوم يكونون خيراً منهم (**ومانحن بمسبوقين**) أي مغلوبين وعاجزين عن هذا التّبديل إلّا أنّا صبرنا عليهم وأمهلناهم إلى أن يأتي يومهم الموعود لعذابهم، فإذا كان الأمر كذلك (**فذرهم**) أي فاتركهم ولا تستعجل بعذابهم (**يخوضوا**) فليخوضوا (**ويلعبوا**) كيف شاؤوا (**حتّى يلاقوا يومهم الّذي يوعدون**) بأنّهم سيلقون عذابهم في ذلك اليوم وإنّ عذابهم سيأتي (**يوم**) أي يعذب ـ ون يوم (**يخرجون من الأجداث**) أي من قبورهم (**سراعاً**) حال كونهم يسرعون في مشيهم إلى الحشر (**كأنّهم إلى نصبٍ**) أي راياتهم وخيمهم الّتي نصبت لهم (**يوفضون**) أي يرجعون (**خاشعة**) خافضة (**أبصارهم**) عيونهم لا يرفعونها خجلاً وندامة (**ترهقهم**) تغشاهم (**ذلة**) مهانة وحقارة (**ذلك اليوم الّذي كانوا**) في الدّنيا (**يوعدون**) يوعدون من قبل الله تعالى وعلى لسان الرّسل، فذرهم لذلك اليوم ولا تستعجل بعذابهم فإنّ عذابهم في ذلك أشدّ وأبقى.

حفظنا الله من شرّ ذلك اليوم فالله هو أرحم الرّاحمين وآخر دعوانا أنّ الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

سـورة نوح

(مكيّة، سمّيت بسورة نوح لما فيها من ذكر أحوال نوح (عليه السلام) وآياتها ثمان وعشرون).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كانت سورة الملك تدور حول بيان عظمة الله وقدرته، وسورة القلم تبيّن وتثبت نبوّة الرّسولﷺ ورسالته، وسورة الحاقّة والمعارج تبحثان عن يوم القيامة وأهواله ومجيئه، وهذه السّورة جاءت لتسلّي رسول اللهﷺ وتثبّته على الدّعوة والمضي فيها، ولتخبره عن حال رسول من أولي العزم وهو نوحعليه السلام، وأنّه لاقى من قومه أشدّ العنت والتّكذيب والإصرار على الكفر والاستكبار، وأنّهم لاقوا نتيجة هذا الاستكبار ما لاقوا من الهلاك والدّمار ليعلم الرّسول (ﷺ) أنّ هذه سنّة الله في رسله، وأنّهم يلاقون المشقّة والأذى والتّكذيب من القوم إلّا أنّ العاقبة لهم والخزي والدّمار لأعدائهم الّذين يستكبرون عن الإيمان بهم وعن اتّباع شريعة الله تعالى، وليثبت الرّسول (ﷺ) على الدّعوة وليصمد أمام الباطل، وليصبر إلى أن ينصره الله تعالى عليهم وينجز له وعده وهو ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الرّوم/ الآية/٤٧ - وليعلم كلّ داعية أنّ الأمر نفس الأمر، وأنّ الطّريق نفس الطّريق، وأنّ المآل نفس المآل، وهو نصر المؤمنين ودحر الكافرين أعداء الله إن ثبتوا واستمرّوا على الدّعوة إلى الحقّ والصّمود أمام الباطل، فأشار الله تعالى إلى ذلك في هذه السّورة فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

(إنّا أرسلنا نوحاً) دلّت هذه الآية على أنّ نوحاً كان رسولاً ونبيّاً لا نبيّاً فقط، وقد ذكرنا معنى الرّسول والنّبيّ والفرق بينهما، وإنّ كلّ رسول نبيّ وليس كلّ نبيّ رسولاً، وفصّلنا الكلام على ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ سورة يس الآية/ ٣. فأرسل تعالى نوحاً **(إلى قومه وأمرناه أن أنذر قومك)** أي خوّف قومك من العذاب إن استمروا على ما هم عليه من عبادة غير الله والانحراف عن شريعة الله فأنذرهم **(من قبل)** أي من دون **(أن يأتيهم)** عذاب أليم أي مؤلم وموجع ومهلك، فالمعنى: أنذرهم قبل مجيء العذاب لكي يتوبوا ويؤمنوا فيرتفع عنهم العذاب ولا يأتيهم وإلّا فحينما جاء العذاب لا تفيد التّوبة والنّدامة والإيمان شيئاً.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾

أي فجاء نوح قومه و **(قال)** لهم **(ياقوم)** ياقومي حذف الياء للتّخفيف **(إنّي لكم نذير)** جئتكم لأنذركم بعذاب الله إن لم تؤمنوا ولم ترجعوا إلى شريعة الله تعالى فتطبّقوها **(مبين)** موضّح لكم ذلك الإنذار بعبارة لا خفاء فيها ولا غموض، أو معناه أنّ كوني منذراً ورسولاً لكم مبين واضح لا خفاء فيه؛ بسبب ما أظهرته لكم من المعجزات الدّالة على رسالتي، أو المراد كلا المعنيين فإنّه لا تضادّ بينهما **(أن اعبدوا الله واتّقوه)** قد تقدّم أنّ نوحاً قال لقومه: إنّي لكم نذير مبين، وأنّ النّذير يجب أن يأمر المنذرين بشيء فالتّقدير: وآمركم أن اعبدوا الله واتّقوه. العبادة بمعنى الطّاعة وهي تشمل الإطاعة في أداء الأوامر والاجتناب عن المناهي إلّا أنّها إذا اجتمعت مع التّقوى كما هنا، فتختصّ بأداء الأوامر فالمعنى هنا **(أن اعبدوا الله)** أي امتثلوا أوامره ولا تتركوها **(واتّقوه)** اجتنبوا ما نهى عنه فلا ترتكبوها **(وأطيعون)** في بيان كيفيّة القيام بأوامر الله والاجتناب عن مناهيه، فإنّه لا يدري النّاس ماذا يأمر الله به وماذا ينهى عنه إلّا بواسطة الرّسل فقال: **(وأطيعون)** فإنّي أعرف ما أمر الله به، فآمركم به وأعرف ما نهى عنه فأنهاكم عنه. فإطاعة الرّسول هو إطاعة الله تعالى لأنّه مبلّغ عنه تعالى، وفي هذه الآية دلالة على أنّ كلّ عبادة الله تعالى وتقوى منه إذا لم يكن وفق مايرسم رسول الوقت فهي باطلة وليست بمقبولة، فإنّ الرّسول هو الّذي يعلم كيفيّة عبادة الله وكيفيّة تقواه،

ولذلك قال الرّسول (ﷺ): (كلّ من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو ردّ)[١] أي فذلك الشّيء ردّ أي مردود عليه ولا يقبل، أو معناه فهو أي فزيادة ذلك الشّيء (ردّ) أي ردّة وخروج عن الإسلام لأنّ تلك الزّيادة تكون تشريعاً والتّشريع خاصّ بالله، والرّسول مبلّغ عنه، فكلّ من شرع شيئاً فقد ارتدّ لأنّه إن ادّعى التّبليغ عن الله فقد ادّعى الرّسالة، وذلك كفر، وإن ادّعى التّشريع من نفسه فهو كفر لأنّ التّشريع من خواصّ الله، فمن ادّعاه فقد ادّعى الألوهيّة وذلك كفر أيضاً، أعاذنا الله من هذين الكفرين ومن كلّ أنواعه آمين **(يغفر لكم)** يغفر مجزوم على أنّه جزاء شرط مقدّر يدلّ عليه ما قبله وتقديره: إن تعبدوا الله وتتّقوه يغفر لكم.... الخ، وهذا الأسلوب في القرآن كثير **(من ذنوبكم)** كلّها على أن من زائدة أو بعضها وهو غير حقوق النّاس إن كانت من للتّبعيض، فهناك قولان للمفسّرين **(ويؤخّركم إلى أجل مسمّى)** أي لا ينزل عليكم العذاب ويؤخّركم إلى أجلكم الطّبيعي وإلا فينزل عليكم العذاب ويستأصلكم قبل مجيء الأجل الطّبيعي وفق العادة **(إنّ أجل الله)** الّذي قدّره الله لكلّ أمّة ولكلّ فرد **(إذا جاء)** وقته **(لا يؤخّر)** بأيّ وسيلة **(لو كنتم تعلمون)** أنّ الذّنوب يعجّل بالأجل ويأتي بغضب الله تعالى لما ارتكبتموها، والمراد بالعلم هنا الإيمان، أي لو كان لكم الإيمان بسوء عاقبة الذّنوب لتركتموها، ثمّ استمرّ نوح في دعوة قومه إلى عبادة الله دون عبادة الأصنام وإلى العمل بشريعة الله، ولم يقف ليلاً ولا نهاراً وفي السّرّ والعلن عن الوعظ والإرشاد والإنذار والتّبشير إلى أن أصابه السّأم واليأس من إيمان القوم، وأصابه من الاستهزاء والسّخرية والأذى أكثر ممّا يتحمّل، فحينئذ توجّه إلى الله تعالى وشكا إليه كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

---

(١) صحيح مسلم ٣/١٣٤٣ الحديث رقم ١٧١٨.

(قال) نوح **(ربّ إنّي دعوت قومي)** إلى الإيمان بك واتّباع شريعتك ونبذ عبادة الأصنام وعملت ذلك **(ليلاً ونهاراً)** فلم أقف لحظة عن دعوة ولم أترك فرصة إلّا إغتنمتها للوعظ والإرشاد **(فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً)** عن الحقّ وابتعاداً عمّا كنت أدعوهم إليه **(وإنّي كلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم)** لكي لا يسمعوا كلامي ولا يدركوا مواعظي وإرشادي **(واستغشوا ثيابهم)** لكي لا يرونني **(وأصرّوا)** على الكفر والشّرك **(واستكبروا)** عن قبول الحقّ واعتناقه **(استكباراً)** شديدا. وهكذا يجب أن يكون الدّاعية، يجب عليه أن يستمرّ في دعوته ليلاً ونهاراً، وأن يغتنم كلّ فرصة للموعظة والإرشاد، وأن لا يترك دعوته مهما قست الظّروف ولاقى من عنت القوم واستكبارهم. ثمّ ذكر سيّدنا نوح (ﷺ) أنّه كما استغرق الزّمان واشتغل اللّيل والنّهار في الدّعوة فكذلك استعمل كلّ الوسائل في الدّعوة حيث دعاهم جهراً وسرّاً وعلناً فلم يترك نوعاً من الدّعوة إلّا دعاهم به، كما قال تعالى: **(ثمّ إنّي دعوتهم جهاراً)** ليلاً ونهاراً وان يغتنم كل فرصة للموعظة والإرشاد وأن لايترك دعوته مهما قست الهذا يدلّ على أنّه دعاهم قبل سرّاً وهكذا كلّ دعوة يبدأ صاحبها بالسرّ وذلك لخطورة الموقف **(ثمّ إنّي أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً)** أي ثمّ جمعت بين السّرّ والعلن فأدعو بعضهم سرّاً وأدعو بعضهم علناً، أو أدعو وقتاً سرّاً ووقتاً علناً، وهكذا الدّعوة تبدأ أولاً سرّاً ثمّ تصير جهراً ثمّ تكون جامعة بين السّرّ والعلن. ثمّ ذكر نوح وبيّن بعضاً من نوعيّة دعوته وقال: إنّه بشّرهم بمنافع الآخرة ومنافع الدّنيا إن قبلوا دعوته فإنّه بشّرهم بمنافع الآخرة بقوله: **(فقلت)** للقوم **(استغفروا ربّكم)** وتوبوا إليه وإلى طاعته، فإنّكم إن تستغفروا يغفر لكم ويدخلكم الجنّة حيث **(إنّه)** أي إنّ ربّكم **(كان غفّاراً)** كثير المغفرة، وكثرة مغفرة الله باعتبار كثرة المذنبين وكثرة ذنوبهم، وبشّرهم بمنافع الدّنيا بقوله: **(يرسل السّماء عليكم)** أي إن تستغفروا وتؤمنوا به يرسل المطر عليكم **(مدراراً)** أي منصبّاً **(ويمددكم)** أي ويقوّيكم **(بأموالٍ)** أي أموالٍ كثيرةٍ **(وبنين)** وأبناء كثيرين **(ويجعل لكم جنّات)** ويخلق لكم بساتين كثيرة بسبب كثرة المطر **(ويجعل لكم أنهاراً)** أي ويخلق لكم عيوناً وأنهاراً تسقون بها بساتينكم ومزارعكم، ويفهم من هذه الآيات أنّهم كانوا قلت أمطارهم وجفّت أنهارهم ويبست مزارعهم وأشجارهم بسبب ما كانوا عليه من الكفر والفسق والفجور. ثمّ شرع سيّدنا نوح في بيان عظمة الله ووجوده ووحدته واستدلّ لهم على ذلك بدلائل توجد في أنفسهم فقال: **(ما لكم)** أي سبب لكم **(لا ترجون)** أي لا تعتقدون لله عظمته فتعبدوه وتوحدّوه بالعبادة **(وقد خلقكم أطواراً)** أي وقد خلقكم في أنواع مختلفة، فمنكم

القوّي ومنكم الضّعيف ومنكم الذّكي ومنكم الغبيّ، وفيكم الجميل وغيرهم الطّويل والقصير والسّمين والنّحيل والأسود والأحمر والأبيض والأسمر، فخلقكم هكذا يدلّ على أنّه خلقكم خالق عظيم لأنّ أفراد الإنسان داخلة في حقيقة واحدة فالتّمييز بين الأفراد وتخصيص كلّ فرد بخصوصيّة غير الآخر لا يكون إلّا من فاعل خارج عن ذات الإنسان وهو الله، وكذلك خلقكم أطواراً أي في أطوارٍ مختلفة؛ فإنّ الإنسان يوجد من التّراب والتّراب يصير نباتاً والنّبات يصير حبوباً، والحبوب تصير غذاءً والغذاء يصير نطفةً والنّطفة تصير في الرّحم علقةً ثمّ تصير مضغةً غير مخلّقة ثمّ تصير مخلّقة أي مصوّرة ثمّ ينفخ فيها الرّوح ثمّ يخرج من بطن الأمّ طفلاً ضعيفاً ثمّ شابّاً قوياً ثمّ يعود إلى الضّعف ثمّ يموت، فهذا الخلق بهذه الأطوار لا يكون إلّا من عليم قدير ومبدع حكيم يستحقّ العبادة وهو الله.

ثمّ ألفت سيّدنا نوح أنظارهم إلى الآفاق، فبدأ يستدلّ لهم على عظمة الله بما في العلوّ فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

(ألم تروا) أي ألم تنظروا لتعلموا **(كيف خلق الله سبع سماواتٍ طباقاً)** أي كيف خلق الله هذه السّماوات السّبع بعضها فوق بعض، والمراد بكيف التّعظيم فالمعنى: ألم تعلموا عظمة خلق هذا النّظام فتعلموا بذلك عظمة الخالق فتوحّدوه بالعبادة ولا تشركوا به شيئاً **(وجعل القمر فيهنّ نوراً)** أي في السّموات نوراً يأخذ الضّوء من الشّمس ويعكسه إلى الأرض **(وجعل الشّمس سراجاً)** تضيء بنفسها.

معجزة: قد ثبت في اللّغة العربيّة أنّ النّور يقال لما لا يكون إشراقه من نفسه وإنّما يأخذه من غيره ويعكسه كالمرآة، والسّراج يقال لما كان إشراقه من نفسه، فمن أين عرف محمّد (ﷺ) أنّ القمر ليس له إشراق وإنّما يأخذ من الشّمس وأخبر بهذا قبل ١٤٠٥ سنة ولم يعلم ذلك إلّا بعد كشف السّماء في زمان الدّولة العباسيّة، فدلّ هذا على أنّ محمّداً (ﷺ) عرف ذلك بالوحي، فالقرآن وحي من الله تعالى. ثمّ نزل سيّدنا

نوح بأنظارهم وأمرهم أن ينظروا إلى هذه الأرض الّتى يخرج منها الأعاجيب من الأنفس والثّمرات فقال تعالى: **(والله أنبتكم)** أي خلقكم **(من الأرض نباتاً)** أي إنباتاً فإنّ الإنسان يكون نشأته من الأرض كما ذكرنا من أنّ التّراب يصير نباتاً والنّبات غذاءً والغذاء نطفةً ... الخ، **(ثمّ يعيدكم فيها)** بعدما تموتون وتقبرون في الأرض فتصيرون تراباً. ثمّ أشار نوح طيّ الدّليل على عظمة الله تعالى إلى الدّليل على البعث والإحياء بعد الموت فقال: **(ويخرجكم إخراجاً)**أي ويخرجكم إخراجاً من الأرض مرّةً ثانيةً، فإنّه ليس الأوّل بأسهل من الثّاني ولا الثّاني بأعجب من الأوّل، فالإنسان من تراب وإلى التّراب وإلى الإنسان مرّةً أخرى، وليس ذلك بعجيب وليس على الله تعالى بعزيز **(والله جعل لكم الأرض)** أي والله خلق لكم الأرض لتكون **(بساطاً)** أي كفرش تسكنون عليها ولتستطيعوا أن **(تسلكوا)** تتّخذوا **(منها سبلاً)** طرقاً إلى المقاصد والمنازل لكسب الرّزق والتّجارة **(فجاجاً)** واسعةً تلك السّبل بحيث تستطيعون الذّهاب والإياب فيها.

ثمّ بعد هذه الدّعوة المتواصلة من نوح (عليه السلام) والإرشاد الدّؤوب منه وبعد هذه الاستدلالات القويّة على عظمة الله واستحقاقه بالعبادة وتوحيده في الألوهيّة وفي التّمسك بدينه وشريعته، بعد كلّ هذا، أصرّ القوم على كفرهم وشركهم والعمل حسب هواهم والخوض في المناهي من الملّذات والشّهوات؛ فشكا سيّدنا نوح إلى ربّه مرّة أخرى كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

(قال نوح ربّ إنّهم) أي إنّ قومي **(عصوني)** أي خالفوني ولم يتّبعوا نصحي

وإرشادي **(واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلّا خساراً)** أي اتّبعوا رؤساءهم الّذين اغتروا بالمال والولد وغرّوا النّاس بمالهم وأولادهم وبدل أن يشكروا الله على نعمة هذا المال والولد ويتّبعوا رسوله ويحكموا بشريعته طغوا وتكبّروا عن الله ودينه ولم يزدهم مالهم وولدهم إلّا خساراً، وهو الطّغيان والاستكبار على النّاس والإباء عن تلبية نداء الله وعن اتّباع رسوله والعمل حسب ما حكم وأمرهم به **(ومكروا)** أي مكر الرّؤساء لإغواء النّاس وصرفهم عن دعوة نوح واتّباعه **(مكراً كبّاراً)** أي كبيراً جدّاً ومن ذلك أنّهم هيّجوا عواطفهم وحثّوهم على التّمسك بتقاليد آبائهم والعكوف على آلهتهم **(وقالوا)** للقوم **(لا تذرنّ)** لا تتركنّ **(آلهتكم)** وعبادتها وبالخاصّة **(ولا تذرنّ)** لا تتركنّ **(ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً)** وهذه اسماء لخمسة آلهة كانوا يعبدونها ويعظّمونها أكثر من باقي الآلهة الأخرى الّتى كانوا يعظّمونها[1]. ثمّ أخبر نوح أنّ هؤلاء الآلهة الخمسة أصبحوا سبباً لإضلال كثير من النّاس فقال تعالى: **(وقد أضلّوا)** أي وقد أصبح تلك الآلهة الخمسة سبب ضلال النّاس فأضلّوا **(كثيراً)** من النّاس **(ولا تزد الظّالمين إلّا ضلالاً)** وبعداً عن طريق الحقّ والهداية.

سؤال: كيف جاز لرسول وهو من أولي العزم وجاء لهداية النّاس وحبّ الخير لهم، كيف جاز له أن يدعو على قومه بضلال؟ أليس ذلك رضا بالكفر؟ وأليس من القواعد العامّة أنّ الرّضا بالكفر كفر؟.

الجواب: إنّه لم يدع هذا الدّعاء إلّا بعد اليأس منهم، وبعد أن أخبره الله تعالى بقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ سورة هود الآية/ ٣٦. وهذا الجواب ضعيف لأنّه لا فائدة حينئذٍ في الدّعاء إلّا أن يقال: إنّه دعاء صورةً ولكنّه خبر في المعنى، كما جاء ما هو خبر صورة وهو دعاء

---

(١) عن ابن عباس ﷺ صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أمّا ودّ كانت لكلب بدومة الجندل وأمّا سواع كانت لهذيل وأمّا يغوث فكانت لمراد ثمّ لبني غطيف بالجوف عند سبأ، وأمّا يعوق فكانت لهمدان وأمّا نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلمّا هلكوا أوحى الشّيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسمّوها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتّى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت./ صحيح البخاري ج٤/ ص١٨٧٣ الحديث رقم ٤٦٣٦. ومن يكمن خطر الإفراط في زيارة قبور الصالحين بصورة غير شرعية ربما تؤدي في النهاية إلى عبادتها بدل زيارتها كما حصل سابقا ...!

في المعنى مثل: رحمه الله أو رضي الله عنه، وأمثال ذلك كثير، وورد في القرآن أيضاً مثل ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ سورة التوبة الآية/ ٣٠. ويمكن أن يجاب بأنّ الدّعاء بالضّلال والكفر جائز، وإنّ هذه الآية نفسها تكون دليلاً على ذلك، وإنّ ما يقال: من أنّ الرّضا بالكفر كفر ليس معناه الرّضا بكفر الغير كفر، بل معناه الرّضا بكفر نفسك أو الإتّصف به أو الحبّ له كفر؛ وإلّا لما جاز أن يقبل من الكفّار البقاء على كفره مقابل الجزية، فإنّ ذلك رضا بكفرهم وليس كفراً، والقول بأنّ المراد الضّلال في أمور الدّنيا يضعّفه قوله: (**ولا تزد الظّالمين إلّا تباراً**) لأنّه يكون تكراراً يصان كلام الله عنه.

* * *

فائدة: قال الشّيخ عبد القادر المغربى (رضي الله تعالى عنّا وعنه) ما هذا نصّه: ولعبادة الأوثان والأصنام في الأمم القديمة طريقتان أي سببان:

الطّريقة الأولى: مذهب الصّابئة، وأساس هذا المذهب الإعتقاد بأنّ في الأجرام السّماوية أرواحاً متّصلة بعالمنا الدّنيوي إتصال عناية وتدبير، وتبديل وتغيير. ولمّا كانت الأجرام السّماوية مختلفة في أحوالها وأشكالها متباينة في أطوارها وأقدارها، وهي غائبة عنهم بعيدة عن مواقع أنظارهم، وهم في كلّ وقت في حاجة إلى التّبرّك بها، واستعداد المعونة من روحانيّاتها، فرأوا أن يصنعوا لكلّ منها جسماً يمثّله ويدينه من متناول الفكر والتّصوّر فاتّخذوا الأصنام، ونحتوا الأوثان وعبدوها من دون الله، ويقال إنّ هذا الدّين دين الصّابئة وهو أقدم الأديان البشريّة الباطلة على الإطلاق، وبقي حتّى زمن إبراهيم الخليل (عليه السلام) فقضى عليه شرّ قضاء، وعمل بدين آبائه: آدم وإدريس ونوح، وهو عبادة الله وحده، ثمّ انتقل دين التّوحيد من نوح إلى أولاده، وبواسطتهم انتشر بين الأمم، من عرب وعجم ولعلّ ودّاً وسواعاً وبقيّة الخمسة الّتى عبدها قوم نوح كانت أصناماً منحوتةً على اسم بعض الكواكب، فإنّ منها (نسراً) وهو اسم لكوكبين سماويّين يقال لأحدهما (النّسر الواقع) وللآخر (النّسر الطّائر) وللآشوريّين خلفاء قوم نوح إله يسمّونه (نسروخ) أي النّسر العظيم، وكان له هيكل في عاصمتهم (نينوى) وإنّك ترى في آثارهم اليوم صورة إنسان برأس نسر وجناحيه فلعلّه رمز إلى ذلك الإله.

والطّريقة الثّانية: لعبادة الأوثان هي قيام أفراد من البشر ينبغون في نبوّةٍ أو كهانةٍ أو حكمةٍ أو بطولةٍ أو خلقٍ من الأخلاق العالية بصورة غير معهودة في النّاس الآخرين، فيفتتن بهم أقوامهم، ويرون أنّ هذا التّفوّق والنّبوغ لم يكن إلّا لحلول روح إلهي فيهم،

فيعبدونهم في حياتهم، وفي الأغلب بعد مماتهم، ثمّ يتّخذون على مثالهم صوراً أو أصناماً أو مواثل أخرى يذكرونهم بها، ويتقرّبون بالنّذور والبخور والصّلوات وضروب العبادات إليها على نحو ما يفعل الصّابئة في عبادة الكواكب. وقد ضربت عبادة التّوابع بجريانها في جنبات الأرض، فلم يعد يقوى على محوها الدّين السّماوي نفسه، وقد لا يقوى إلّا بمعونة العلم، وإنفكاك العقل من قيود الوهم. ولعلّ وثنيّة قوم نوح وعبادتهم لودّ وسواع كانت من هذا القبيل. وقد بقي لعبادة هذه الأصنام أثر في جزيرة العرب أو في بلاد اليمن خاصّة حتّى زمن البعثة المحمديّة، فكان (ودّ) لبني كلب بدومة الجندل، وهو على صورة رجل و(سواع) لهمدان أو هذيل، وكان على صورة امرأة و(يغوث) لمذجح أو غطيف من مراد في سبأ، وكان على صورة امرأة و(يعوق) لمراد أو لهمدان، وهو على صورة فرس و(النّسر) لحمير أو لذي كلاع من حمير، وهو على صورة نسر. وكان العرب يسمّون أولادهم بعبد ودّ وبعبد يغوث وغير ذلك كعبد العزّى وأمثاله. ومن تأمّل فيما قلناه في مناشيء ظهور الوثنيّة في البشر فهم السرّ في كون الدّين الإسلامي يحرّم إقامة الصّور، ونصب التّماثيل وتشييد القبور وتجصيصها على رمم العظماء، وفي حديث عليّ (ﷺ): أرسلني رسول الله (ﷺ) أن لا أدع تمثالا إلّا طمسته، ولا قبراً إلّا سويّته)[1]، فإنّ الوثنين كانوا يتّخذون من مواثل القبور والأصنام ذكرى لرجالهم الصّالحين. وليست ذكراهم لهم ذكرى عظة واعتبار وإنّما هي ذكرى استمداد، واسترزاق واستمطار والتماس منافع واستكفاء إضرار، فسدّ دين الإسلام الذّريعة بتحريم هذه المواثل؛ خشية أن تسترهب ضعفاء العقول وتستهويهم، ومن مزالق الوثنيّة تقرّبهم وتدنيهم فللّه درّ الإسلام ما أعدّ له فيما شرع وحكم أو ما أوضح نهيه فيما خطّ لنا من الهداية ورسم. انتهى مانصّ عليه الشّيخ عبدالقادر المغربي (رحمه الله تعالى). **(ممّا خطيئاتهم)** قال المفسّرون **(ما)** زائدة والأصل من خطيئاتهم أغرقوا... إلخ، ولكنّ القول بوجود الزّيادة في القرآن لا يليق بعظمة القرآن وبلاغته، فالحقّ أنّ **(ما)** بمعنى شيء وإبهامه للتعظيم، فالمعنى من شيء عظيم أي من أجل شيء عظيم أي بسبب شيء عظيم أغرقوا ... إلخ، وفسّر ذلك الشّيء العظيم بقوله: **(خطيئاتهم)** والتّقدير بسبب شيء عظيم وهو خطيئاتهم أغرقوا كلّهم بالطّوفان في الدّنيا **(فادخلوا)** يوم القيامة **(ناراً)** والتّنكير للتّعظيم أي ناراً عظيمةً. **(فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً)** هذا بيان

---

(١) مسند أبي يعلى ١/ ٤٥٥ الحديث رقم٦١٤.

لخطيئتهم فإنّهم كانوا يعتقدون أنّ مايعبدونهم من الأصنام والأوثان ينصرونهم من عذاب الله وينقذونهم من بطشه وأخذه، إلّا أنّه خاب ظنّهم فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ينصرونهم وينقذونهم من الإغراق والإحراق، وإنّ الله لا ينصرهم لأنّه هو الّذي أراد بهم هذا، وأنزل بهم هذا العذاب لاستحقاقهم للعذاب فلم ينصرهم **(وقال نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً)** الواو للعطف يعطف جملة قال نوح ... إلخ، على ما في ممّا خطيئاتهم، فالمعنى: من خطيئاتهم ومن قول نوح ودعائه بقوله: ربّ لا تذر ... إلخ، فالمعنى: إنّ هلاكهم كان لسببين:

الأوّل: خطيئاتهم. **الثّاني:** أنّ نوحاً دعا عليهم فقال: (ربّ لا تذر) أي لا تبق على الأرض (من الكافرين ديّاراً) أي أحداً، وأهلكهم كلّهم.

ثمّ علّل نوح طلب إهلاكهم كلّهم بقوله: **(إنّك إن تذرهم)** أي أهلكهم لأنّك إن تذرهم كلّهم أو بعضهم **(يضلّوا)** يخرجوا عبادك الحاضرين عن الطّريق والسّبيل المستقيم إلى الكفر **(ولا يلدوا)** في المستقبل **(إلّا فاجراً)** مرتكباً الذّنوب والمعاصي **(كفّاراً)** كثير الكفر، وعلم نوح ذلك منهم بالتّجربة أو لأنّ الله تعالى أخبره بذلك حيث أوحي إليه ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَوَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ـ سورة هود الآية/ ٣٦. ثمّ توجّه نوح إلى الله ودعا لنفسه ولوالديه: **(ربّ اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظّالمين إلّا تباراً)** أي هلاكاً في الدّنيا والآخرة أو فيهما، ومعنى الآية واضح، إلّا أنّه يفهم من الآية أمور نذكرها إنشاء الله تعالى فيما يلي:

الأوّل: أنّه على المسلم أن يدعو ربّه ويطلب منه المغفرة مهما بلغ من الزّهد والعبادة والصّلاح ولايغترّ بعبادته، فإنّ نوحاً وهو من أولي العزم دعا لنفسه بالمغفرة وطلبها من الله تعالى.

الثّاني: أنّه حينما يدعو لنفسه فليدع لغيره من المؤمنين أيضاً، فإنّ من دعا لنفسه وترك غيره فقد بخل، ومن دعا لغيره وترك نفسه فقد أعجب بنفسه، وإنّ الشّيطان لعن لأنّه أعجب بنفسه، فكان يدعو للملائكة وينسى أن يدعو لنفسه.

الثّالث: أنّه يدعو للأقرب فالأقرب كما فعل سيّدنا نوح، حيث دعا لنفسه ولوالديه، ثمّ لأهل بيته، ثمّ للمؤمنين والمؤمنات جميعاً.

الرّابع: أنّه لا يجوز الدّعاء بالمغفرة لغير المؤمنين لأنّ نوحاً (عليه السلام) حينما دعا بالمغفرة لمن دخل بيته قيده كان (مؤمناً) فإنّه كان يدخل بيته المؤمن والكافر، مثل إبنه الّذي مات كافراً وأغرق مع الكافرين.

الخامس: أنّه يجوز الدّعاء على الكافرين حيث دعا نوح عليهم وكان الرّسول محمّد (ﷺ) يدعو على بعض الكافرين.

السّادس: يفهم من الآية أنّ والدي نوح (عليه السلام) كانا مؤمنين بدليل دعاء نوح بالمغفرة لهما.

أللّهم اغفر لنا ولوالدينا ولمن دخل بيتنا مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظّالمين إلّا تباراً آمين يا أرحم الرّحمين. والحمد لله ربّ العالمين وسلام على المرسلين واتّباعهم أجمعين.

❊ ❊ ❊

سورة الجنّ

(مكيّه، نزلت بعد الأعراف، وآياتها ثمان وعشرون، سمّيت سورة الجنّ لما فيها من خبر الجنّ وإيمانهم).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾

جاءت هذه السّورة كالّتي قبلها لتسلّي رسول الله ﷺ ولتخبره بأنّه حينما يكفر به قومه ولايؤمنون به فإنّ الجنّ آمنوا به وبما أنزل عليه وأنّهم علموا بأنّ القرآن معجزة وإنّه من الله عزّ وجلّ.

سؤال: هل رأى الرّسول (ﷺ) الجنّ أم لا ؟

الجواب: ذكر القرطبي والخازن والنّسفي والسّيوطي (رحمهم الله تعالى) عن البخاري ومسلم والتّرمذي عن ابن عبّاس (رضي الله عنه) أنه قال: ماقرأ رسول الله (ﷺ) على الجنّ ولا رآهم، ولكنّه انطلق في طائفةٍ من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشّياطين وبين خبر السّماء وأرسلت عليهم الشّهب فرجعوا إلى قومهم فقالوا: ما هذا إلّا لشيء قد حدّث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا هذا الّذي حدث، فانطلقوا فانصرف النّفر الّذين توجّهوا نحو تهامة الى رسول الله (ﷺ) وهو بنخلة وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلمّا سمعوا القرآن استمعوا إليه فقالوا: هذا والله الّذي حال بينكم وبين خبر السّماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ياقومنا إنّا سمعنا قرآناً عجباً. فأنزل الله تعالى على نبيّه **(قل أوحي إليّ)**. واخرج مسلم في صحيحه عن علقمة قال: قلت لإبن مسعود: هل صحب النّبيّ (ﷺ) ليلة الجنّ منكم أحد؟ قال: ماصاحبه منّا

أحد ولكنّا كنّا مع الرّسول (ﷺ) ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشّعاب فقلنا: أستطير أو أغتيل، فبتنا شرّ ليلة بات بها قوم فلمّا أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فقلنا: يارسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا شرّ ليلة بات بها قوم، قال: أتاني داعي الجنّ فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. ذكر ذلك الخازن في تفسير سورة الأحقاف عن مسلم فتبيّن من هاتين الرّوايتين أنّ رسول الله (ﷺ) لم يقرأ على الجنّ ولا رآهم اللّيلة الّتي صلّى بنخلة، ويؤيّده ذلك ظاهر آية **(قل أوحي إليّ) وأنّه** (ﷺ) رآهم وقرأ عليهم ليلةً أخرى، فلم تبق منافاة بين الرّوايات الّتى تثبت رؤيته (ﷺ) لهم وقراءته عليهم والّتي تنفي ذلك، ومن البعيد أن يكون الرّسول (ﷺ) مبعوثاً إلى الجنّ كما هو مبعوث إلى الإنس، وأن لا يرى الجنّ ويقرأ عليهم، فالحقّ أنّه كان يراهم كلّما دعت الحاجة لتبليغهم وإرشادهم.

ما هى حقيقة الجنّ؟:

إعلم أنّ الجنّ لا يعترف بوجوده الماديّون الّذين لا يعترفون بالوجود لأيّ شيء لا يدرك بإحدى الحواسّ الخمس، ولم يعترف به الفلاسفة الأقدمون إلّا بعضاً منهم، وإنّ الّذين يعترفون بوجود الجنّ هم أهل الأديان وأتباع الرّسل والأنبياء، فإنّهم أجمعوا على وجود الجنّ وأنّ المخالف المنكر لوجود الجنّ يعتبر كافراً، فلذا يجب أن نتكلّم عن الجنّ حسبما يفهم من القرآن الكريم وعلى ضوء ماينطق به هذا الكتاب العزيز.

فنقول: إنّ الجنّ كائن موجود وحيّ متّصف بصفات السّمع والبصر والعقل والكلام، وإنّهم مكلّفون بالعبادات والطّاعات، ومبلّغون من قبل الرّسل بالشّرائع الإلهيّة والأحكام، وإنّهم يعذّبون بالنّار على الكفر والمعاصي، وإنّ فيهم الذّكر والأنثى ولهم الذّرية والتّناسل والتّقرب بين ذكورهم وإناثهم، وإنّهم خلقوا قبل الإنس من النّار، وإنّهم أجسام لطيفة لا يرون في صورتهم، وإنّهم يتشكّلون بأشكال غيرهم، فيرون في تلك الأشكال والصّور، وإنّهم يعملون أعمالاً شاقّةً، وأنّ منهم الصّالحون والفاسقون والمؤمنون والكافرون. هذا مانطق به القرآن في حقيقة وصفات الجنّ وإليك الآيات الّتى تدلّ على ماقلناه:

أما كونه كائناً موجوداً فلما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذّاريات الآية/٥٦.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٠٠. أي وخلق الله الجنّ، فكيف يكونون شركاء له تعالى؟ فهاتان الآيتان صريحتان في الدّلالة على أنّ الجنّ كائن مخلوق وموجود.

وأمّا أنّه حيّ متّصف بالسّمع والبصر والكلام والعقل، فيفهم من هذه الآيات الكريمة التّالية:

قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ سورة الجنّ الآية/ ١.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سورة الأحقاف الآيات/ ٢٩ ـ ٣٠.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٧٨.

فهذه الآية تصرّح بأنّ الجنّ كالبشر لهم السّمع والبصر والقلوب، وإنّ بعضهم لا يستفيدون من هذه المدركات لأنّهم لا يستعملونها لإدراك الحقّ والوصول إليه؛ فتبيّن من هذه الآيات الثّلاث أنّ الجنّ لهم السّمع والبصر والقلوب أي العقول والكلام، وإنّ هذه الصّفات لا تكون إلّا للحيّ. فثبت أنّ الجنّ كائن حيّ موجود له السّمع والبصر والعقل والكلام بدون خفاء.

أمّا كون الجنّ مكلّفين بالعبادات والطّاعات وأنّهم مبلّغون من قبل الرّسل وأنّهم يعذّبون على الكفر والمعاصي، فمعلوم من هذه الآيات الكريمة:

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ سورة الذاريات الآية/ ٥٦.

قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٣٠.

قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة الاعراف الآية/ ٣٧.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٧٨.

فدلّت هذه الآيات الأربع على أنّ الجنّ مكلّفون بالعبادات ومبلّغون من قبل الرّسل بالشّرائع، وأنّهم يعذّبون على الكفر والمعاصي، وهذه الأدلّة من هذه الآيات واضحة لا خفاء فيها، إلّا أنّه لا توجد في هذه الآيات ولا في غيرها ما يصرّح بأنّ الرّسل من الجنّ أو هم من الإنس، كما ولا يوجد نصّ على أنّهم كما يعذّبون على الكفر والمعاصي هل يثابون على الطّاعات أيضاً أم لا فنقول:

أمّا بالنّسبة إلى الأمر الأوّل فظاهر قوله تعالى: ﴿يا معشر الجنّ والإنس﴾ إلى ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٣٠. أنّه جاء رسل من الإنس إلى الإنس ورسل من الجنّ إلى الجنّ وذلك إذا حملنا كلمة (منكم) على معنى: من كلّ منهم، كما هو ظاهر الآية، ويؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه﴾ سورة إبراهيم الآية/ ٤. وأمّا إذا حملنا قوله تعالى: ﴿منكم﴾ على معنى: مجموعكم، فيكون الرّسل من الإنس مبعوثاً إلى مجموع الجنّ والإنس ويؤيد ذلك قوله تعالى: (قل أوحي إليّ أنّه استمع نفر من الجنّ ... إلخ) فإنّه يفيد أنّ الرّسول (ﷺ) بعث إلى مجموع الجنّ والإنس، فإن قلنا: الرّسول رحمة للعالمين وخاتم الانبياء، فلذلك كانت بعثته للجنّ والإنس جميعاً فنقول: إنّ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سورة الأحقاف الآيات/ ٢٩، ٣٠. يفيد أنّ الجنّ كانوا مؤمنين بموسى وبكتابه، فيدلّ على أنّ الجنّ كانوا تبعاً للإنس وأنّهم يتّبعون الرّسول الّذي أرسل إلى الإنس، ويؤيد ذلك أنّهم كانوا من أتباع سيّدنا سليمان وسخروا له، ولكن يشكّل ذلك أنّ الجنّ كانوا موجودين قبل الإنس، كما يأتي ذلك، فهل كانوا بدون شريعة وبدون رسول منهم؟ هذا بعيد، فهم مكلّفون قبل وجود الإنس، إلّا أنّنا نقول: أنّهم كانوا قبل وجود الإنس

يأتيهم الرّسل منهم وبعد خلق الإنس أصبحوا تبعاً لرسل الإنس وأنبيائهم، والحاصل أنّ الأمر لا نصّ فيه، والله أعلم بحقيقة الحال، إلّا أنّ النّصوص تفيد بأنّ بعثة الرّسول (ﷺ) كانت للجنّ والإنس جميعاً وإنّ الجنّ كانوا مكلّفين بالشّرائع.

وأمّا بالنّسبة للأمر الثّاني: وهو أنّ الجنّ كما ثبت أنّهم يعذّبون على الكفر والمعاصي فهل يثابون على الطّاعات أم لا؟

فنقول في تفسير قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ سورة الرّحمن الآية/ ٧٢ ـ قال الجمل في حاشيته على الجلالين: الجمهور على أنّهم يثابون بالحور والنّعيم في الجنان على الطّاعات، كما يعذّبون على المعاصي بالنّار، وخالف الجمهور أبوحنيفة فقال: إنّ جزاء مؤمن الجنّ على طاعاتهم عدم دخولهم النّار، فبعد حضورهم موقف يوم القيامة يصيرون تراباً كالبهائم. ولكنّ الحقّ هو ما قاله الجمهور وذلك لما يلي:

إنّ التكليف يقتضي الثّواب والعقاب، فحيث ثبت أنّ الجنّ مكلّف يجب أن يكون لهم ثواب على الطّاعات كما أنّ لهم عقاباً على المعاصي.

إنّ العدل الإلهي منزّه عن أن يضع عقاباً على قوم على المعاصي ثمّ يحرمهم من الثواب على الطّاعات.

إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سورة الرّحمن الآية/ ٤٦،٤٧ ـ فقوله: لمن خاف عام في الجنّ والإنس بقرينة أنّ الخطاب في السّورة كلّها يتوجّه إليهما معاً، فيفيد أنّ من خاف مقام ربّه من الجنّ له جنّتان كالإنس، ثمّ إذا لم يكن كذلك فكيف يمتنّ الله تعالى على الجنّ كالإنس بقوله: (فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)، فإذا لم يثب الجنّ فكيف يمتنّ الله عليه بالآلاء في ضمن قوله: (فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)، فإنّ الخطاب للجنّ والانس والإمتنان عليهما.

يقول الله تعالى: ﴿حورٌ مقصوراتٌ في الخِيامِ لم يطمثهنّ إنسٌ قبلهم ولا جانّ﴾ معناه حور من الجنّ وحور من الإنس مقصورات في الخيام، الجنيّة للجنّ وللإنسيّة للإنس لم يطمثهنّ أي لم يقرب الجنيّة قبل زوجها من الجنّ أحد من الجنّ، ولم يقرب الإنسيّة قبل صاحبها أحد من الإنس، فإنّ الإنس لايطمث إلّا الإنسيّة والجنّ لايطمث إلّا الجنيّة، فالكلام على التّقسيم كما شرحنا، وبهذا ثبت ثواب الجنّ في الجنّة بالحور، وأمّا أنّ فيهم الذّكر والأنثى فيدلّ على ذلك قوله تعالى في هذه السّورة الآية/٦: ﴿وأنّه

كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقاً﴾ فثبت بهذه الآية أنّ في الجنّ رجالاً، ولا يوجد من الأحياء ما يوجد فيه الذّكر بدون أنثى سيّما وأنّ لهم ذريّة ولا توجد الذّرية إلّا بين الذّكر والأنثى، والدّليل على أنّ لهم ذريّة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ سورة الكهف الآية/ ٥١، فدلّت هذه الآية على أنّ إبليس له ذريّة وإنّ ابليس من الجنّ فثبت أنّ الجنّ لهم ذريّة وتناسل. وأمّا الدّليل على أنّ الجنّ يوجد فيهم التّقرّب بين رجالهم ونسائهم فشيئان:

الأوّل: ثبت أنّ لهم ذريّة والذّريّة لاتوجد إلّا بتقرّب الذّكر من الأنثى.

الثّاني: قال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ سورة الرّحمن الآية/ ٧٤، فدلّت الآية على أنّ لهم الطّمث وهو الجماع والتّقرّب بين الذّكر والأنثى.

وأمّا الدّليل على أنّ الجنّ خلقوا قبل الإنس وأنّهم مخلوقون من النّار ففيما يلي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٠ ـ ١١. دلّت هذه الآية على أنّ الشّيطان مخلوق من النّار، وثبت في آية سورة الكهف المارّ أنّ الشّيطان كان من الجنّ، فثبت أنّ الجنّ مخلوق من النّار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ سورة الحجر الآية/ ٢٦، ٢٧. وهذه الآية واضحة في أنّ الجانّ مخلوق قبل آدم وأنّه من النّار، والجانّ والجنّ واحد.

أمور أخرى:

١: أجسام الجنّ لطيفة: وأمّا أنّهم أجسام لطيفة لايدركون بالعين والأبصار فالدّليل قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ...﴾ سورة الأعراف الآية/ ٢٦.

٢: يتشكّل الجنّ بأشكال مختلفة: وأمّا أنّهم يتشكّلون بأشكال غيرهم فيرون في تلك الأشكال، فلمّا قال الرّسول (ﷺ): (من رآني في المنام فقد رآني حقّاً فإنّ الشّيطان لا يتمثّل بي)[1] فبمفهوم المخالفة يفيد الحديث أنّ الشّيطان يتمثل بغيره (ﷺ)، والأحاديث من هذا الموضوع كثيرة.

٣: يعمل الجنّ أعمالاً شاقّة: وأمّا أنّهم يعملون أعمالاً شاقّة فلما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي بين يدى سليمان (ﷺ) ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ﴾ سورة سبأ الآية/ ١٢ ـ ١٣. أي من أبنية مرتفعة يصعدون إليها بالدّرج (وَتَماثِيْلَ) أي صور وهياكل (وَجِف ـ انٍ كَالجَوابِ) أي وقدور كالجواب، والجواب جمع جابية وهي الحوض الكبير، فكان يجتمع على قدر واحد ألف شخص يأكلون منه (وَقُدورٍ راسِياتٍ) أي ثابتات ﴿إعْمَلوُا آلَ داودَ شُكْراً وَقَليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكور*﴾ سورة سبأ الآية/ ١٢ ـ ١٣ ـ . قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ أَيْ عَلى سُلَيْمانَ المَوْتُ (مادَلَّهُمْ) أي ما دلّ النّاس ﴿عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ سورة سبأ الآية/ ١٤. أي في العمل الشّاق الّذي كانوا يعملونه لسليمان (ﷺ) من بناء المسجد الأقصى. قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ أي بعرش بلقيس ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ سورة النمل الآية/ ٣٩.

٤: الجنّ منهم الصّالحون: وأمّا أنّ منهم الصّالحون والفاسقون فلما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ سورة الجنّ الآية/ ١٢.

٥: الجنّ فيهم المؤمنون: وأمّا أنّ منهم المؤمنون ومنهم الفاسقون فلدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ سورة الجنّ الآية/ ١٤.

هذا ما نطق به القرآن الكريم من حقيقة وأوصاف الجنّ ممّا يدلّ على أنّ الجنّ موجود وكائن حيّ موصوف بهذه الصّفات، وأمّا قول الماديّين أنّ ما لا يدرك بالحس ليس بموجود فمردود؛ لأنّ عدم الرّؤية للشّيء وعدم العلم به لا يدلّ على عدم وجوده،

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٧٧٥ الحديث رقم ٢٢٦٦.

فكثير من الأشياء لا يدرك بالحسّ وهي موجودة، وهم يعترفون بها كالرّوح والعقل والجاذبيّة وغير ذلك من القوى الموجودة في الكون ممّا اكتشفت أو لم تكتشف إلى الآن، وتلك ليست داخلة تحت إدراكات الحواسّ، قال الشّاعر:

قل للّذي يدّعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

وهذا الموضوع طويل يحتاج إلى حوار كثير، وفيه رسالات وتآليف كبيرة، ولا يسع المجال هنا أكثر ممّا ذكرته، فلنرجع إلى تفسير آيات السّورة الكريمة.

* * *

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾

(قل) يا محمّد **(أوحي إليّ)** من الله تعالى **(أنّه استمع نفر)** أي جماعة **(من الجنّ)** استمعوا القرآن **(فقالوا)** لقومهم حينما رجعوا إليهم **(إنّا سمعنا قرآناً)** أي كتاباً يقرأ، وإنّه يعجب كلّ من سمعه **(عجباً)** في البلاغة وفي رونقه وجماله في التّعبير، ولما فيه من المعاني السّامية والأخلاق الرّفيعة والأحكام العادلة والقصص والعبر المفيدة والنّافعة، واتّفق القرّاء على كسر همزة (إن) في (إنا سمعنا قرآناً ... إلخ) لأنّه مقول القول وإن تكسّر إذا وقعت مقولاً للقول **(يهدي)** يدل كلّ من سمعه **(إلى الرّشد)** الرّشد ضدّ الضّلال **(فآمنا به)** من أنّه من الله تعالى **(ولن نشرك)** فيما بعد **(بربّنا)** وهو الله تعالى **(أحداً)** غيره اتّباعاً لهذا القرآن الّذي ينهى عن كلّ نوع من أنواع الشّرك ويأمر بتوحيد الله تعالى في العبادة والتّحكيم والتّقديس والخلق والإيجاد.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾

(وأنّه) أن بفتح الهمزة هنا وفي كلّ ما يأتي بعدها إلى قوله تعالى: ﴿وأنّا منّا المسلمون ... إلخ﴾ في قراءة علقمة ويحيى والأعمش والكسائي وابن عامر وحفص وخلف وأسلمي، عطفاً على قوله تعالى: ﴿أنّه استمع نفر من الجنّ﴾ فيكون ما بعد (أنّ) في الكلّ نائب الفاعل لـ (أوحي) وهذا الوجه ضعيف لأنّه لا يستقيم المعنى في الكثير

من هذه الجمل مثل قوله تعالى: (وأنّه كان يقول سفيهنا على الله شططاً) لأنّ ذلك قول من الجنّ وليس ممّا أوحي، وفي قوله: (وأنّا ظننّا..... وأنّا لمسنا..... وغيرها) ولذلك قال بعضهم أنّها في قراءة الفتح معطوفة على الهاء في آمنّا به، وهذا أيضاً غير مستقيم لأنّ العطف على الضمير المجرور يوجب إعادة الجار، كما أنّه الأحسن في أن يقال: (آمنّا بأنّا ظننّا أن لن ...إلخ) (وآمنّا بأنّا لمسنا السّماء) فالحقّ أنّها على قراءة الفتح معطوفه على قوله: إنّا سمعنا قرآناً عجباً فتكون الآيات كلّها من مقول قول الجنّ كما في قراءة الكسرة، وأمّا الفتح مع أنّها من مقولات القول، ومقول القول يكسر فيها فباعتبار أن قالوا تضمّن معنى الاعتراف، فالتّقدير: واعترفنا بأنّه كان يقول سفيهنا ... إلخ، وعلى هذا فقس، وقرأ غير مذكورين إنّ بالكسر في كلّ الآيات على أنّها معطوفة على إنّا سمعنا، وباعتبار أنّها من مقولات الجنّ، فالفتح باعتبار تضمّن قالوا: معنى اعترفوا، والكسر باعتبار بقاء قالوا على أصل المعنى، قال القرطبيّ: والكسر الصّواب، وهذا كلام لا يليق بهذا العالم الجليل، لأنّ القراءات كلّها متواترة عن الرّسول (ﷺ) فكيف يقال: هذا صواب؟ فإنّ معنى ذلك أنّ غيره غلط، ونسبة الغلط إلى الرّسول (ﷺ) عظيم **(وأنّه)** أي وإنّ الشّأن **(تعالى)** أي تنزّه **(جدّ ربّنا)** أي عظمة ربّنا ممّا لا يليق به، ولذلك **(ما اتّخذ صاحبةً)** أي ما اختار زوجةً لنفسه **(ولا ولداً)** لأنّ كلّ ذلك إنّما يتّخذ للحاجة إليه، وأنّه تعالى غنيّ مطلق لا يحتاج إلى شيء ممّا يحتاج إليه غيره، بل ولا يحتاج إلى شيء مطلقاً. ثمّ بعد أن آمنوا ونبذوا الشّرك ونسبة الصّاحبة والولد إلى الله تعالى، اعتذروا عمّا كانوا عليه من عقيدة الشّرك ونسبة ما لا يليق بالله تعالى إليه بأمرين:

الأمر الأوّل: (إنّه كان يقول سفيهنا) وهو الشّيطان **(على الله شططاً)** أي ما هو بعيد عن الله تعالى وإنّ نسبته إليه كذب.

الأمر الثّاني: أنّه كانوا لصفاء نيتهم أو لجهلهم كانوا يعتقدون أنّه لا يكذب على الله تعالى أحد ولا ينسب إليه شيئاً لا يليق به، كما قال تعالى: **(وأنّا ظننّا)** أي اعتقدنا **(أنّ)** أي أنّه **(لن تقول الإنس والجنّ على الله كذباً)** أي لا ينسب إليه مالا يليق به ولا يكذبون فيما ينسبون إليه تعالى من الشّريك والولد والصّاحبة، فلعقليّتنا هذه ولما كان يقول السّفيه من أنّ لله شريكاً أو ولداً أصبحنا على هذه العقيدة، وبعد أن ظهر الحقّ لدينا ونزّه القرآن إلهنا عن هذه الأمور تركنا ما كنّا عليه، وعلمنا أنّ من علّمنا هذا سفيه يريد السّفه ونشره بيننا.

ثمّ لما ذكروا من فساد عقيدتهم قبل سماع القرآن ذكروا فساد عقيدة الإنس أيضاً، فقالوا كما يرويه لنا جلّ وعلا:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾

(وأنّه) أي واعترفوا أنّه **(كان رجال من الجنّ يعوذون)** أي يلتجئون ويستعيذون **(برجال من الجنّ)** فكانوا حينما ينزلون بمكان في السّفر يقولون أعوذ بسّيد هذا الوادي من شرّ سفهائه، فلم ينفعهم ذلك بل **(فزادوهم)** أي زاد الإنس الجنّ بهذه الإستعاذة **(رهقاً)** أي طغياناً وكفراً؛ لأنّهم كانوا يقولون: سدنا الإنس والجنّ، وهذا كان سبباً آخر لبقاء الجنّ على فساد عقيدتهم. واعترف الجنّ وقالوا لقومهم **(وأنّهم)** أي أنّ الإنس **(ظنّوا)** اعتقدوا **(كما ظننتم)** كما اعتقدتم **(أن)** أي أنّ الشّأن **(لن يبعث الله)** لن يحيي الله تعالى **(أحداً)** من الأموات فلا حشر ولا حساب بعد الممات.

تنبيهان: الأوّل: ذكر في الآيات السّابقة أنّ سبب فساد الجنّ هو سوء تعليم رئيسهم الرّوحي الّذي بعد ما تبيّن لهم الحقّ سمّوه سفيهاً، وتقليدهم الأعمى له واتّباعه في كلّ ما يقول دون تفكير وطلبِ دليل منه وثقتهم التّامة به؛ فهذا يدلّ على أنّ التّقليد الأعمى وإعطاء الثّقة التّامة والتّقديس لأي شخص سوى الله ورسوله سيؤدّي إلى الضّلال، ولعمري لقد ضلّت طوائف كثيرة بسبب قوّة ثقتهم ببعض النّاس وتقديسهم لهم والأخذ بقولهم دون تردّد وتفكير، فإنّه لا عصمة إلّا لله ولرسوله، فالقول الشّائع: (من قال لشيخه لم فقد كفر) خطأ عظيم وأضلّ أناساً كثيرين، وأنّ الحقّ هو القول الشّائع أيضاً الّذي يقول: (ما أفلح من لم يقل لشيخه لم) فإنّ تصديق شخص في كلّ ما يقول يضرّ الشّخص ويوقعه في أغلاطه وفي عدم التّروي في الأمور أيضاً.

الثّاني: إنّ الإستعاذة بغير الله تعالى لا يجوز ولا يفيد إلّا الضّرر وسوق المستعاذ به إلى الغرور والطّغيان والضّلال، ولذلك كان الرّسول (ﷺ) ينهى عن ذلك بشدّة، ونزلت سورتا المعوذّتين تفهمان النّاس أنّ يتعوذّوا في كلّ شيء بالله لا بغيره، وإنّ من تعوّذ بغيره فقد خالف قواعد الإسلام.

* * *

ثمّ إنّ الجنّ بعد أن آمنوا بالقرآن ونزّهوا الله تعالى عن الشّريك والصّاحبة والولد، وبعد أن بيّنوا فساد عقيدتهم قبل، وإنّ السّبب في فساد عقيدتهم هو الجهل وسوء تعلّم سفيههم لهم، وبعد أن ذكروا فساد عقيدة الإنس أيضاً في الإستعاذة بغير الله تعالى وظنّهم عدم البعث والحشر والحساب، بعد كلّ ذلك ذكروا ما أصابهم من منعهم من الصّعود إلى السّماء واستراقهم للسّمع فيها فقالوا:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾

(وأنّا لمسنا) قصدنا **(السّماء)** فصعدنا إليها **(فوجدناها ملئت حرساً شديداً)** من الملائكة يمنعون الجنّ من الصّعود **(وشهباً)** يُرمى بها الجنّ الّذين يريدون الصّعود فلا نستطيع أن نصعد إلى المكان الّذي نسمع فيه الأخبار **(وأنّا كنّا)** قبل هذه الأيام **(نقعد)** من السّماء **(مقاعد)** قريبة من الأخبار **(للسّمع)** لنسمع تلك الأخبار فنسمعها ونأتي بها إلى الأرض فنعلّمها الكهنة، ولكنّنا منعنا الآن من الاستماع والوصول إلى مكانه **(فمن يستمع)** أي فمن وصل لمكان الاستماع واستمع **(يجد له شهاباً)** قبساً من النّار **(رصداً)** يرصده ويرمى به فيقتله.

مسائل: الأولى: هل كانت الشّهب موجودة قبل بعثة رسول الله (ﷺ) في السّماء أم لا؟ فإن كانت موجودة فلماذا كانت لا تصيب الجنّ؟.

الجواب: كانت الشّهب موجودة قبل البعثة إلّا أنّها لم تكن مستغرقة لجميع جوانب السّماء؛ فكانت الجنّ يصعدون ويستمعون في الأمكنة الفارغة، ويدلّ على ذلك قوله تعالى **(ملئت)** حيث يفيد أنّ السّماء لم تكن مملوءة قبل بالحرس والشّهب.

الثّانية: ما هي تلك الشّهب؟.

الجواب: أنّها شرارة تنفصل من الكواكب كشرارة النّار فتصيب الشّياطين وغيرهم فتحرق ما أصابته، وأنّ هذه الشّهب هي الصّواعق في القرآن الكريم وأنّها أهلكت أمماً وتهلك ما أصابته.

الثّالثة: إنّ رجم الشّياطين بالشّهب ورد في مواضع من القرآن الكريم بحيث لايمكن تأويله؛ لصراحته ونصّيته في هذا المعنى فكيف التّعليل؟

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨)﴾ سورة الحجر الآيات/ ١٦ ـ ١٨.

قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ سورة الصّافات الآيات/٦ ـ ١٠.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ سورة الملك الآية/ ٥.

وما ورد في هذه السورة من قوله: (وإنا لمسنا السماء ... إلخ) أكثر صراحةً من كلّ الآيات المتقدمّة في هذا المعنى.

وقد وردت أحاديث صحيحة بأنّ الجنّ كانوا يصعدون إلى السّماء فيسمعون الأخبار ويأتون بها إلى الكهنة ويخلطون فيها أكاذيب، فما كان صدقاً فمن أخبار السّماء وما كان كذباً فمن خلط الجنّ.

* * *

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾

(وأنّا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض) من تحصين السّماء هذا التّحصين الرّصين **(أم أراد بهم ربّهم رشداً)** أي خيراً ومنفعةً.

تنبيهان: الأوّل: حينما نتفحّص آيات القرآن الكريم نجد أنّه كلّما اجتمعت الهمزة وأم في آية فما بعد أم هو الواقع والحقّ؛ فتفيد هذه الآية أنّ الله تعالى أراد الرّشد بمن في الأرض في تحصين السّماء وحفظها من الشّياطين والجنّ حيث أبطل بهذا الكهانة، وحفظ النّاس من أكاذيبهم وتوهّماتهم واستغلالهم النّاس وأكل أموالهم بالباطل.

ألثّاني: إنّ الجنّ نسبوا إرادة الشّرّ إلى فاعل مجهول ولم ينسبوه إلى الله تعالى فقالوا: **(أشرّ أريد بمن في الأرض)** ولكن نسبوا إرادة الرّشد إلى الله تعالى فقالوا: **(أم أراد بهم ربّهم رشداً)** وهكذا يجب أن يكون أدب المسلم مع الله تعالى فينسب إليه

الخير ولا ينسب إليه الشّرّ، وإن كان كلّ ذلك من خلقه وذلك لأنّ الشّرّ وإن كان من خلق الله تعالى فهو بالنّسبة إلى خلقه خير، حيث لا يخلق الله تعالى شيئاً إلّا لمصلحة وحكمة، فيكون خيراً بالنّسبة إلى تلك المصلحة والحكمة وإن كان شرّاً بالنّسبة إلى متعلّقه من الغير. وقد حافظ الأنبياء والصّالحون على هذا الأدب، ألا يرى أنّ إبراهيم ﷺ يقول: ﴿وإذا مرضت فهو يشفيني﴾ سورة الشعراء الآية/ ٨٠، ولم يقل وإذا أمرضني، فنسبة المرض إلى نفسه والشّفاء إلى ربّه، ولكنّ النّاس اليوم نراهم إذا وجدوا خيراً نسبوه إلى أنفسهم ويقولون: فعلت كذا وكذا... وإن وجدوا شرّاً نسبوه إلى الله تعالى فيقولون: هذا من قدر الله تعالى علينا ...

* * *

لطيفة: كان الحاجّ عبدالله الجلي العالم المشهور بكويسنجق في شمال العراق مسافراً مع أحد خلفاء أحد شيوخ الطّريقة. فقال الخليفة: والله قد نزل أمس من همّة الشّيخ مطر نافع جدّاً، ثمّ جعله الله تعالى بَرَداً فأفسد الزّرع. فقال الشّيخ: يا خليفة لا تظلم الله تعالى، فإمّا أن تجعل الكلّ من الله تعالى وإمّا أن تجعل الكلّ من الشّيخ، لماذا تجعل المطر النّافع من همّة الشّيخ والبَرَد الضّار الّذي أفسد الزّرع من الله تعالى أليس هذا ظلماً.

* * *

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾

ثمّ بعد أن قال الجنّ: (وأنّا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربّهم رشداً) قالوا: **(وأنّا منّا الصّالحون)** فالله تعالى أراد بنا رشداً بسبب صلاحهم **(ومنّا دون ذلك)** أي ومنّا غير الصّالحين، فأريد بنا الشّرّ بسبب عدم صلاحهم **(كنّا طرائق)** أي أفراداً وجماعات **(قدداً)** مختلفين في الأخلاق والأعمال والعقيدة.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴿١٢﴾﴾

(وأنّا ظننا) الظّنّ جاء بمعنى اليقين والعلم، فالمعنى: وأنّا بعد أن منعنا من السّماء علمنا وأيقنا **(أن لن نعجز الله في الأرض)** نستطيع أن ندفع عذاب الله عن أنفسنا في

الأرض بقوّة، كأن نمنع الله ممّا يريد بنا في الأرض بقدرنا **(ولن نعجزه)** ولن نستطيع أن نمنعه وندفع عذابه عنّا **(هرباً)** بالهرب من هذه الأرض والفرار منها.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

بعد أن استدلّ الجنّ بالآية الكونيّة وهو ماجرى في السّماء من تغيّر وتبديل على قدرة الله تعالى، استدلّوا بالآيات القوليّة من القرآن على ذلك فأيقنوا وآمنوا وقالوا: **(وإنّا لمّا سمعنا الهدى)** وهو القرآن وما فيه من الهداية والإرشاد **(آمنّا به)** أنّه من الله تعالى، ورجونا في هذا الإيمان الجزاء الجزيل من الله تعالى حيث **(فمن يؤمن بربّه)** وقدرته على كلّ شيء **(فلا يخاف بخساً)** أي أن يبخس وينقص من أعماله الصّالحة والثّواب عليها **(ولا رهقاً)** ولا يخاف أن يحمل عليه ما لم يعاقب على مالم يعمله من المعاصي والآثام. ثمّ بعد ما أعلن هؤلاء النّفر من الجنّ إيمانهم وإنقسم باقيهم إلى من آمن وأسلم معهم، وإلى من كفر وتولّى عنهم أخبروا عن إنقسامهم هذا وبيّنوا مسير كلّ قسم منها فقالوا: **(وإنّا منّا المسلمون)** أي وإنّا إنقسمنا إلى قسمين: فمنّا المسلمون **(ومنّا القاسطون)** أي الكافرين **(فمن أسلم)** وآمن وانقاد لشريعة الله وحكمه **(فأولئك تحرّوا)** أي قصدوا ووصلوا **(رشداً)** حقّاً وهدايةً **(وأمّا القاسطون)** أي وأمّا الّذي قسطوا أي جاروا وعدلوا عن طريق الحقّ **(فكانوا لجهنّم حطباً)** أي وقوداً لنّار جهنّم كالحطب، والتّعبير فكانوا حطباً وهو للماضي لتحقيق وقوع ذلك لأنّ ما تحقّق وقوعه فكأنّه كان ومضى، وهذا التّعبير كثير في القرآن الكريم، وهو أسلوب بديع في البلاغة. ومن هنا ينتهي أقوال الجنّ وكلامهم مع قومهم وتبليغاتهم لهم.

تنبيه: قيل: إنّ ما قرأ رسول الله (ﷺ) في الصّلاة بنخلة واستمع إليه الجنّ كان سورة الرّحمن، وقيل: كان سورة إقرأ باسم ربّك الّذي خلق، والقولان لا ينسجمان مع ما أخبر به الجنّ قومهم والّذي أرى أنّه قرأ سورة أو آيات تخبر بأنّه لا شريك لله، وأنّه ما اختار صاحبةً له ولا ولداً وإنّه لا إستعاذة جائزة بغير الله تعالى، فالأشبه أنّه قرأ سورة الإخلاص والمعوذّتين أو غيرها ممّا فيه هذه الأمور.

* * *

﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾﴾

(وأن لو استقاموا) عطف على قوله تعالى: (إنّه استمع نفر من الجنّ) فالتّقدير (قل أوحي إليّ أن لو استقاموا) أي أنّ الشّأن لو استقام العباد **(على الطّريقة)** من توحيد الله بالعبادة وتحكيم شريعته **(لأسقيناهم ماءً غدقاً)** أي ماءً كثيراً ومطراً غزيراً نازلاً من السّماء، وهذا كناية عن سعة الرّزق، فالمعنى: لرزقناهم رزقاً واسعاً **(لنفتنهم)** لنمتحنهم **(فيه)** أي سبب ذلك الرّزق فيظهر الشّاكر منهم والكفور **(ومن يعرض عن ذكر ربّه)** أي ومن يترك شريعة ربّه فلم يعمل بها في حقّ نفسه وفي حقّ من تحت رعايته **(نسلكه)** أي ندخله **(عذاباً صعداً)** أي عذاباً شاقّاً في الدّنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً، والله على كلّ شيء قدير.

﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴿١٨﴾﴾

(وأنّ المساجد لله) أي وأوحي إليّ أنّ المساجد لله فقط وليس لغيره، وفي معنى المساجد أقوال:

الأوّل: هو أنّها البيوت المبنيّة للعبادة لله فلا تدعوا فيها مع الله أحداً، وهذا المعنى ضعيف لأنّ دعاء غير الله تعالى ممنوع في المساجد وغيرها وفي كلّ مكان، فتخصيصه بالمساجد غير صحيح.

الثّاني: المراد بالمساجد كلّ بقاع الأرض لأنّ كلّها مساجد، قال الرّسول (ﷺ): (وجعلت الأرض لي مسجداً وطهوراً)[1] فلا يجوز أن تدعو غير الله أينما كنت وهذا المعنى حسن جدّاً.

الثّالث: إنّ المساجد في معنى آخر هي أعضاء الإنسان يسجد عليها، وهي الجبهة

---

(١) صحيح البخاري ١/١٢٨ الحديث رقم ٣٢٨ ضمن حديث طويل هو: أخبرنا جابر بن عبد الله أن النبي (ﷺ) قال أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة.

واليدان والرّكبتان والقدمان، أي فلا تسجد على هذه الأعضاء لغير الله تعالى.

الرّابع: إنّ المساجد جمع مسجد والمسجد مصدر ميمي فهو بمعنى السّجود فالمعنى أنّ السّجود لله فلا يجوز أن تسجد لغيره فالسّجود لغيره كفر.

والّذي أراه أنّ المسجد مصدر ميمي بمعنى السّجود، والسّجود هو بمعنى الخضوع والانقياد، فالمعنى أنّ الخضوع والانقياد والإطاعة كلّه لله تعالى، فكلّ انقياد للغير إذا لم يكن مأموراً به من قبل الله تعالى أو لم يكن فيما أباح الله تعالى يكون شركاً بالله، ونذكر لك مثالاً للتّوضيح: وهو أنّ إطاعة الوالدين مثلاً والانقياد لهما مأمور به من عند الله تعالى، فإن أطعتهما للأمر الإلهي فتكون تلك الإطاعة عبادة الله وإطاعة له، وإن أطعتهما لذاتهما لا لأمر الله فهو شرك، أو إذا أطعتهما في غير ما أباح الله فيكون شركاً أيضاً بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ سورة لقمان الآية/ ١٥، وهكذا فكلّ إطاعة للغير يجب أن يكون في حدود الشّرع لقوله تعالى: ﴿أرأيت من اتّخذ إلهه هواه﴾ سورة الفرقان الآية/ ٤٣. أي أطاع هواه وترك أمر الله، وبذلك جعل هواه إلهاً له، وكذلك حينما نزل قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سورة التّوبة الآية/ ٣١، سألوا الرّسول كيف اتّخذوا أرباباً قال (ﷺ): حرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم وأحلّوا لهم الحرام فأطاعوهم أو كما قال[1]. فكلّ إطاعة وانقياد يجب أن يكون لله، وكلّ انقياد لغير الله أو فيما خالف أمر الله تعالى فهو شرك إن زعم المطيع أنّ إطاعته كإطاعته، أو كفر إذا زعم أنّ إطاعته هي الواجبة، أو فسق ومعصية إن أطاع لطمعٍ أوشهوةٍ أو منفعةٍ أو مصلحةٍ دنيويّة، واعتقد أنّ ذلك معصية يرتكبها وإنّه آثم، وإن أطاع لإكراه لا يمكن التّخلص منه فلا إثم فيه، وقد فصّلت القول في ذلك الموضوع في تفسير سورة يوسف عند قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ سورة يوسف الآية/ ٧٩.

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ١٠/ ١١٦ الحديث رقم ٢/ ١٣٧ ونصه: عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال أتيت النبي (ﷺ) وفي عنقي صليب من ذهب قال فسمعته يقول اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال قلت يا رسول الله إنهم لم يكونوا يعبدونهم قال أجل ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه فتلك عبادتهم لهم.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾

أي وقل أوحي إليّ (**أنه لمّا قام عبد الله**) وهو الرّسول (ﷺ) (**يدعوه**) أي يدعو الله وحده (**كادوا**) أي كاد العباد (**يكونون عليه**) يجتمعون عليه (**لبداً**) أي كاللّبد فيقع بعضهم على بعض لشدّة الإزدحام، وذلك لأنّ دعاء الله وحده والدّعوة إلى توحيده كان شيئاً غريباً في ذلك الوقت، وكان النّاس المجتمعون على الرّسول صنفين: صنف يكره ذلك ويطلب منه أن يدعو مع الله آلهتهم وآصنامهم أيضاً، وصنف يحبّ الرّسول ويعظّمه ويرتجي منه دفع الضّرر وجلب الخير، فأمره الله تعالى أن يبيّن موقفه ويعلن صلاحيّته للطّرفين، أمّا بالنّسبة لمن كان يريد أن يدعو مع الله غيره فقال له:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾

(**قل**) يا أيها النّبيّ (**إنما أدعو**) أي أعبد وأستغيث (**ربّي**) وحده (**ولا أشرك به أحداً**) فلا أعبد غيره ولا أستغيث بغيره فإنّ ذلك شرك.

أمّا بالنّسبة للطّرف الثّاني فقال له:

(**قل**) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ من يعتقد فيه النّاس أنّه ينفع أو يضرّ (**إنّي لا أملك لكم**) أي لا أستطيع لكم (**ضرّاً ولا رشداً**) لأنّ الضّرّ والنّفع كلّه بيد الله تعالى وإنّي عبد من عباده مثلكم وإنّما خصّ الله تعالى وأنعم عليّ بالنّبوّة والوحي والرّسالة.

تنبيه: إنّ إيصال الضّرر والنّفع إلى الغير بطريق الخلق والإيجاد والتّأثير والاستقلاليّة خاصّ بالله تعالى فمن اعتقد بذلك في غيره مهما كان ذلك الغير سواء من الملائكة أو الرّسول أو سيّد الأنبياء، فقد أشرك بالله تعالى وكفر، والعياذ بالله، فكيف بغيرهم.

وأمّا إيصال النّفع والضّرّ إلى الغير بطريق السّببية والأسباب الّتي خلقها الله تعالى للتّوصيل بها الى مسبّبات فنوعان:

الأوّل: طريق الأسباب المادّيّة: فقد جعل الله تعالى من وسع العبد أن ينفع غيره من طريق الأسباب المادّيّة كأن ينفق عليه مالاً أو ينقذه من الغرق أو من الحريق أو من يد ظالم، فإذا صرف العبد الأسباب جعل الله من عادته أن يخلق المسبّب ولا يخرق ذلك العادة إلّا نادراً.

وكذلك جعل للعبد أن يضرّ غيره كسبب وبطريق الأسباب المادّيّة، كأن يضرّ به أو يرميه بما يقتله أو يحرق ماله إلى غير ذلك من الأسباب المادّيّة، فإنّ الله تعالى جعل من عادته أن يخلق الضّرر عند وجود أسبابه ولايخرق هذه العادة إلّا نادراً، إلّا أنّه يستطيع الله أن لا يخلق النّفع أو الضّرر وإن اجتمعت جميع أسبابها، فمن اعتقد أن الأسباب موجودة ومؤثرة بذاتها فقد كفر، وكذا من اعتقد أنّ الأسباب تجبر الله تعالى على خلق المسبّب فقد كفر أيضاً.

الثّاني: الأسباب المعنويّة: أي إيصال الضّرر والنّفع إلى الغير بالأسباب الرّوحية والمعنويّة وذلك منحصر في الدّعاء فليس في وسع العبد إيصال الضّرر أو النّفع إلى غيره خارج الأسباب المادّيّة إلّا الدّعاء؛ فطلب الدّعاء مشروع من الصّالحين الأمثل فالأمثل، ومأمور به وإنّ الله مخير في استجابة الدّعوات إن شاء استجاب وإلّا فلا، فمن اعتقد في غير الله أنّه ينفع غيره أو يضرّه خارج الأسباب المادّيّة بغير الدّعاء، أو أنّ الدّعاء يجبر الله تعالى على الاستجابة فقد كفر وأشرك. وإنّ سيّدنا عيسى (عليه السلام) حينما كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى يقول: ﴿وابرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله﴾[1] أي أدعو من الله تعالى ذلك فيستجيب لي، فالّذين يطلبون من الصّالحين دفع المكاره وجلب المصالح إن كانوا يعتقدون أنّهم يعملون ذلك لهم بقوّتهم الرّوحية وبقدرتهم الذاتيّة فهو شرك وان كانوا يعتقدون ويريدون أنّهم يدعون له من الله تعالى فيستجيب الله دعاءهم إن شاء؛ فذلك لا بأس به فإنّه مشروع ومندوب، ولذلك أمر الله تعالى رسوله أن يعلن موقفه ويقول: (إنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً) ويجب على كلّ عالم ومسلم أن يعلن هذا الموقف بالنّسبة لكلّ الصّالحين والأولياء والمرسلين.

* * *

(١) آل عمران ـ ٤٩ ـ

(قل) يا أيّها النّبيّ **(إنّي لن يجيرني)** أي لن يحفظني **(من الله أحد)** أي من عذاب الله إن أراد ذلك بي **(ولن أجد من دونه)** أي من دون الله تعالى **(ملتحداً)** أي ملجأً الجأ إليه في دفع الضّرر وجلب الخير، فليس في يدي شيء **(إلّا بلاغاً من الله ورسالاته)** أي ليس في يدي شيء ولا أستطيع ولا أملك لكم شيئاً **(إلّا بلاغاً من الله ورسالاته)** أي إلّا أن أبلّغكم **(من الله)** فأملك أن أؤدي **(رسالاته)** أي ما أرسلت به من أحكام الإيمان والأعمال والإخبار عمّا هو خير وشرّ ونفع وضرّ **(ومن يعص الله ورسوله)** ومن يخالف أمر الله الّذي يأت به رسوله ويبلّغه، فمخالفة الرّسول مخالفة الله تعالى. فمن فعل ذلك **(فإنّ له نار جهنّم)** فإنّ نار جهنّم أعدّت له **(خالدين فيها أبداً)** أي إلى الأبد، إن كانت المخالفة بالكفر، أو إلى المدّة الّتي يستحقّها إن كانت المخالفة بالفسق، فإن أبداً يستعمل فيما لا نهاية له ويستعمل فيما له نهاية أيضاً، فيقول لا أعمل ذلك في هذه السّنة أبداً أي إلى انتهاء السّنة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ﴿٢٤﴾﴾

(حتّى إذا رأوا ما يوعدون) أي قل لهم هذه الأمور وأبلغهم هذه البلاغات وأدّ إليهم هذه الرّسالات **(حتّى إذا رأوا ما يوعدون)** أي إلى أن يروا مايوعدون من العذاب في الدّنيا أو الآخرة أو فيهما **(فسيعلمون)** حينما رأوا العذاب ويعترفون **(من أضعف ناصراً وأقل عدداً)** وقد اعترفوا بذلك حينما رأوا العذاب يوم بدر ويوم حنين وفتح مكّة، وسيرى ويعترف كلّ منحرف عن شريعة رسول الله حينما يرى العذاب في الدّنيا والآخرة وسيعترف كلّ من اعتزّ بقوّته وهو على الضّلالة أنّ الحقّ أقوى منه حينما يوقف بين يدي الله ولا يجد ناصراً ولا قوّة تنقذه من عذاب الله وبطشه. هذا وكان الرّسول يعدهم ويخوّفهم بعذاب الله في الدّنيا أو في الآخرة، فيسألونه متى ذلك اليوم الّذي يعذّبنا الله فيه، ومتى يأتي ذلك العذاب، ويقصدون بهذا السّؤال الاستهزاء والإنكار، فقال جلّ وعلا:

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ داعية يخوّف المجرمين بعذاب الله تعالى في الدّنيا أو الآخرة **(إن أدري)** أي ما أدري وما أعلم **(أقريب ما توعدون)** من العذاب **(أم يجعل له ربّي أمداً)** أي أجلاً بعيداً، فإنّ ذلك غيب وإنّما يعلمه الله تعالى ولا غيره كما قال تعالى: **(عالم الغيب)** أي ربّي عالم بكلّ ما غاب عن العباد لا بما غاب عليه، فإنّه لا يغيب عليه شيء **(فلا يظهر)** أي فلا يطّلع **(على غيبه)** أي على الغيب الّذي آثر به نفسه واختصّ بعلمه **(أحداً)** من الخلق **(إلّا من ارتضى)** أي إلّا من اختاره من رسول للرّسالة فإنّه يظهره على بعض المغيبات كالإخبار عن المستقبل أو الإخبار عن الماضي أو غير ذلك ليكون معجزة له. وحينما يعلم رسوله بهذه الأمور إنّما يعلمه بالوحي **(فيسلك)** أي يرسل **(بين يديه ومن خلفه رصداً)** رصداً بمعنى راصد أو جمع راصد، أي مراقبين وحفظة يحفظون ذلك من الشّياطين والجنّ لكي لا يعلموا به **(ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم)** أي ليتمكّن الرّسل من أن يبلغوا رسالات ربّهم دون خلط وتدليس من الشّياطين فيقع إبلاغهم معلوماً لله معلوماً وجوديّاً ومنجزاً كما كان من قبل معلوماً لله علماً معنويّاً لم يتعلق بالمعلوم الموجود بعد **(واحاط)** أي أحاط الله **(بما لديهم)** بما لدى الرّسل والحفظة **(وأحصى كلّ شيء عدداً)** وأحصى عدد كلّ شيء والإحصاء هو الإنهاء بالعدد وإتمام التّعداد.

هذا مافهمنا من هذا الكلام. والمقال والله أعلم بحقيقة الحال ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. ولهذه الآية تفسيرات كثيرة تركناها لقلّة الجدوى، ولما رأينا أنّ ما كتبناه أصحّ وأقوى والله تعالى أعلم.

سورة المزّمّل

(مكيّة، نزلت بعد القلم، وآياتها عشرون، سمّيت بالمزّمل لإبتدائها بقوله تعالى: ﴿يا أيّها المزّمّل﴾).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾

(يا أيّها المزّمّل) المزّمّل أصله المتزمّل، أدغمت التّاء بعد قلبها زاءً في الزّاء لأنّ القاعدة الصّرفية أنّه إذا كان فاء إفتعل أو تفعل إحدى حروف (أ ت ث د ذ ز س ش ص ض ط ظ وى) جاز الإدغام بقلب التّاء إليه، والمزّمّل لقب الرّسول (ﷺ) لقبّه الله تعالى به تلطيفاً له وتكريماً وتشريفاً، وفي سبب ذلك اللّقب أقوال:

الأوّل: وهو الصّحيح، ورد في البخاري ومسلم: أنّ رسول الله (ﷺ) لما جاءه الملك وهو في غار حراء في ابتداء الوحي رجع إلى خديجة ترتعد فرائصه فقال: (زمّلوني زمّلوني) أي غطّوني بثوب، أراد أن ينام ليستريح فيذهب ما أصابه من الرّعب، فناداه الله تعالى يا أيّها المزّمّل بالثّياب أرفض الثّياب وقم اللّيل إلّا قليلاً.

الثّاني: أنّ المزّمّل معناه المتزمّل بالنّبوّة والرّسالة، فالمعنى يا أيّها المتزمّل أي المتصف بالرّسالة قم اللّيل إلّا قليلاً، لأنّ ذلك يقوّي قلبك على تأدية الرّسالة.

الثّالث: يا أيّها المتحمّل للقرآن قم اللّيل لأنّ ذلك يقوّيك على حفظه وتبليغه.

وفي نداء الله تعالى للرّسول بهذا اللّقب ملاطفة، فإنّ من عادة العرب أنّهم إذا أرادوا ملاطفة أحد ينادونه بالاسم الّذي يعبّر عن حالته. روي: أنّ النّبيّ (ﷺ) جاء إلى بيت فاطمة (رضي الله عنها) فسأل عن عليّ (كرم الله وجهه) فقالت: لقد صار بيننا نزاع،

فغضب فذهب الى المسجد، فجاء الرّسول(ﷺ) المسجد فرآه نائماً على التّراب، فقال له: قم يا أبا تراب، ومن ذلك أصبح هذا الاسم كنية لعليّ (رضي الله عنه).

تنبيه: لم يناد الله تعالى الرّسول ولا ذكر اسمه في القرآن الكريم إلّا بالألقاب والأوصاف مثل: ﴿يا أيّها الرّسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك﴾ سورة المائدة الآية/٦٧. و﴿يا أيّها النّبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ سورة التّحريم الآية/١، و﴿يا أيّها المزّمّل﴾ سورة المزّمّل الآية/١. و﴿يا أيّها المدّثّر﴾ سورة المدّثّر الآية/١، ولم يأت باسمه الصّريح إلّا فيما دعت الحاجة إلى التّنصيص على اسمه لدفع الإشتباه مثل قوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التّوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ سورة الصّف الآية/٦، ومثل قوله تعالى: ﴿محمّد رسول الله والّذين معه أشداء على الكفّار رحماء بينهم﴾ سورة الفتح الآية/٢٩. ومثل قوله تعالى: ﴿والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات وآمنوا بما نزّل على محمّد وهو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم وأصلح بالهم﴾ سورة محمد الآية/٢.

فلم يأت الله تعالى بالاسم الصّريح للرّسول إلّا في هذه المواضع الثّلاثة، وذلك للتّنصيص على اسمه ودفع الإشتباه، بل ناداه أو ذكره بالألقاب والأوصاف بخلاف باقي الرّسل، فإنّه ذكرهم وناداهم باسمهم الصّريح مثل قوله تعالى: ﴿يا زكريّا إنّا نبشّرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميّاً﴾ سورة مريم الآية/٧، ومثل ﴿يايحيى خذ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبيّاً﴾ سورة مريم الآية/١٢. ومثل ﴿يا نوح إهبط بسلام منّا﴾ سورة هود الآية/٤٨. ومثل ﴿ياعيسى إنّي متوفّيك ورافعك إليّ﴾ سورة آل عمران الآية/٥٥. ومثل ﴿وما تلك بيمينك ياموسى﴾ سورة طه الآية/١٧. وغير ذلك ممّا نجد في القرآن الكريم من أنّ الله تعالى خاطب جميع الأنبياء وناداهم باسمائهم الصّريحة، ولكنّه لم يخاطب ولم يناد الرّسول (ﷺ) إلّا بالألقاب والأوصاف الدّالة على التّكريم والملاطفة، ويستنتج من ذلك أنّ الله تعالى كرّم وشرّف رسول الله (ﷺ) ولاطفه أكثر من كلّ رسول ونبيّ، فيدلّ ذلك على أنّه أكرم الرّسل وأشرف الأنبياء عند الله تعالى.

* * *

فائدة: في نداء الرّسول بـ (يا أيّها المزّمّل قم اللّيل إلّا قليلاً) تنبيه لكلّ متزمّل ونائم في اللّيل أن يقوم قسماً من اللّيل ويعبد الله تعالى فيه، لأنّ قيام اللّيل يصفّي

القلوب ويزكّيها ويقوّيها على القيام بواجبات الإسلام وأدائها، ولأنّها بعيد عن الرّياء فيكون أقرب إلى الإجابة عند الله تعالى.

* * *

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾

إنّ معنى هذه الآية حسب التّركيب العربي مشكل جدّاً، ولذلك كثرت الأقوال والتّفسيرات فيها، وهنا نذكر لك تلك الأقوال إن شاء الله تعالى:

الأوّل: إنّ (**إلا قليلاً**) إستثناء من اللّيل أي صلّ اللّيل كلّه إلّا يسيراً؛ لأنّ قيام جميعه على الدّوام غير ممكن، وهذا القول غير مستقيم لأنّ المطلوب قيامه، وعلى هذا المعنى يكون أكثر اللّيل فلا يمكن بيانه بقوله: (**نصفه أو انقص منه قليلاً**) لأنّ النّصف من اللّيل ليس أكثر اللّيل فالنّاقص من النّصف ليس بالأكثر بالطّريق الأولى، وإن جعل نصفه بياناً لقوله: (**قليلاً**) أي بيناً لمدّة الرّاحة وعدم القيام فلا يستقيم في قوله: (**أو زد عليه قليلاً**) لأنّ الزّائد على النّصف يكون كثيراً لا قليلاً، سيّما وقد فسّر ذلك بالثّلثين، والثّلثان أكثر اللّيل وليس بقليل منه.

الثّاني: إنّ قوله تعالى: (**نصفه**) حذف منه حرف العطف والتّقدير: قم اللّيل إلّا قليلاً أو نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه، كما يقال: أعطه درهماً درهمين ثلاثة، وهذا أيضاً لا يستقيم، وذلك لأنّ المدد المطلوبة قيامها على هذا المعنى تكون أربعة: اللّيل إلّا قليلاً أي أكثره أو النّصف أو النّاقص منه قليلاً أو الزّائد عليه. وليس كذلك لأنّ المدد ثلاث فقط، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى في آخر السّورة: (**إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي اللّيل ونصفه وثلثه وطائفة من الّذين معك**).

الثّالث: إنّ (**نصفه**) بدل من اللّيل، و (**إلّا قليلاً**) استثناء من نصفه، قدّم عليه لرعاية الفواصل. فالتّقدير قم نصف اللّيل (**إلّا قليلاً أو انقص منه قليلاً أو زد عليه**) وهذا بعيد جدّاً لأنّه لا يعرف الفرق بين النّصف إلّا قليل وبين النّاقص من النّصف قليلاً بل إنّهما بمعنى واحدٍ.

ألرّابع: إنّ قوله تعالى: (**إلّا قليلاً**) ليس استثناء من اللّيل بل استثناء من الزّمان،

فالمعنى: قم اللّيل في كلّ زمان وحال إلّا نادراً، أي دم على قيام اللّيل ولا تتركه إلّا نادراً. ثمّ فسّروا بين مدّة القيام بقوله نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه، وهذا هو المعنى الصّحيح الّذي لا إعوجاج فيه. ونقل الغرناطيّ هذا المعنى عن عطيّة (ﷺ).

مسألة: إنّ الأمر بقيام اللّيل للوجوب أو للنّدب فيه قولان: فإن كان للنّدب فندبيّة القيام في اللّيل ثابتة في حقّ المسلمين جميعاً وليست منسوخة. قال القرطبيّ: وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله (ﷺ) قال: (ينزل الله عزّ وجلّ إلى السّماء الدّنيا كلّ ليلة حين يمضي ثلث اللّيل الأوّل فيقول: أنا الملك أنا الملك من ذا الّذي يدعوني؟ فاستجب له، من ذا الّذي يسألني؟ فأعطيه، من ذا الّذي يستغفرني؟ فأغفر له، فلا يزال كذلك حتّى يضيء الفجر)[1] هذا والأحاديث في التّرغيب والأمر بقيام اللّيل كثيرة وصحيحة. وإن كان الأمر بالقيام للوجوب ففيه ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: إنّه كان واجباً عليه وعلى أمّته ثمّ نسخ وجوبه حينما شقّ عليهم.

القول الثّاني: إنّه كان واجباً على النّبيّ (ﷺ) فقط ولم يزل واجباً عليه حتّى توفّي (ﷺ).

القول الثّالث: إنّه كان واجباً عليه ومندوباً لأمّته ولا يزال باقياً غير منسوخ.

والقول الأوّل هو الأرجح عندي، لأنّ الله تعالى يقول في آخر هذه السّورة **(إنّ ربّك يعلم أنّك تقوم أدنى من ثلثي اللّيل ونصفه وثلثه وطائفة من الّذين معك)** فيدلّ هذا على انّه كان يقوم الرّسول (ﷺ) وأصحابه باللّيل، وإن قيل: كان يقوم هو (ﷺ) للوجوب ويقوم أصحابه للندب كما هو القول الثّالث يجاب بأنّه تعالى يقول فيما بعد **(والله يقدر اللّيل والنّهار علم ان لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤوا ما تيسر من القرآن)** فكلمة: **(فتاب عليكم)** يفيد أنّ القيام كان واجباً لا مندوباً، لأنّ التّوبة والعفو يستعملان للواجب أو فعل المحرّم لا المندوب.

(ورتّل القرآن ترتيلاً) أي واتل القرآن بترتيل، ومعنى التّرتيل أداء حروفه من مخارجها والفصل بين كلماته بحيث لا يختلط بعضها ببعض، والتّدبّر في المعاني والدّعاء بعد آية العذاب بالحفظ منه، وبعد آية الرّحمة أن يحقّك تعالى بها.

* * *

(١) سنن الترمذي ٢/٣٠٧ الحديث رقم ٤٤٦.

ثمّ علّل الله تعالى الأمر بالتّرتيل للقرآن بقوله جلّ وعلا:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾

(**إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً**) أي لأنّا سنلقي إليك (**قولاً**) أي أمراً (**ثقيلاً**) وهو الدّعوة إلى الله تعالى وإرشاد الخلق إلى الطّريق المستقيم وإلى اعتناق الإسلام، فلو لم تواظب على تلاوة القرآن وترتيله لا تستطيع أن تحفظه وتفهمه وتبلّغه على وجه المطلوب. ثمّ علّل الأمر بالتّرتيل في اللّيل بأمرين:

الأوّل: وهو (**إنّ ناشئة اللّيل**) أي إنّ العبادات والتّلاوات الّتي تنشأ في اللّيل هي (**أشدّ وطئاً**) أي أشدّ ثبوتاً ورسوخاً في القلب وتأثيراً فيه، وذلك لعدم وجود الأصوات، وخلوّ القلب عن الأشغال والأفكار الأخرى (**وأقوم قيلاً**) أي أكثر استقراراً واستقامةً، وذلك لفراغ البال وهدوء اللّيل وخلوّه من الأصوات والضّوضاء.

الثّاني: هو ما قال تعالى: (**إنّ لك في النّهار سبحاً**) أي حركةً وأعمالاً (**طويلاً**) كثيرةً من التّبليغ وقضاء حوائج البيت والنّاس فلا تستطيع التّلاوة في النّهار فأجبر ذلك في اللّيل.

(**واذكر اسم ربّك وتبتّل إليه تبتيلاً**) بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ هذه الأوامر فكّر الرّسول ﷺ في أعباء الرّسالة وكيف يؤديها؟ وعلى من وأي شيء يعتمد في هذه الدّعوة؟ وليس له عُدّة ولا عِدّة؛ فخاطبه الله تعالى بقوله: (**واذكر اسم ربّك**) والاسم جاء بمعنى القدرة فإنّ المسلم حينما يقول: (بسم الله) معناه بقدرة الله أعمل هذا العمل، فهنا الاسم بمعنى القدرة، أي اذكر قدرة ربّك (**وتبتّل إليه**) إي انقطع إليه في الاعتماد والإستعانة (**تبتيلاً**) انقطاعاً تامّاً ثمّ بيّن عظمة قدرته بقوله تعالى: (**ربّ المشرق والمغرب**) من هذا صفته وقدرته فهو أكبر من كلّ شيء (**لا إله إلّا هو**) أي لا مؤثّر

ولا ناصر إلّا هو، فإذا كان الأمر كذلك **(فاتّخذه)** اجعله **(وكيلاً)** وكيلاً لك في كلّ الأمور ووكّل إليه أمورك جميعها، فإنّه يكفيك **(واصبر على ما يقولون)** هؤلاء المشركون من الاستهزاء والسّخرية **(واهجرهم)** أي اتركهم **(هجراً جميلاً)** أي لا تقابل المثل بالمثل ولا تتعرّض للانتقام منهم بنفسك بل **(وذرني والمكذّبين أولي النّعمة)** أي أتركني والمكذّبين أصحاب التّرف والغنى وفوّض إليّ الانتقام منهم ولا تستعجل، بل **(ومهّلهم)** أي اتركهم **(قليلاً)** من الزّمان. وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ التّرف والغنى من أكبر الأسباب الّتي تؤدي بصاحبه إلى إنكار الحقّ وعدم الإستسلام له، وإشارة إلى أنّه لم يفرض الجهاد في ذلك الوقت **(إنّ لدينا أنكالاً)** أي فوض انتقامهم إلينا حيث (إنّ لدينا أنكالاً) أي قيوداً وسلاسل نقيّدهم بها **(وجحيماً)** أي ناراً نطرحهم فيها **(وطعاماً ذا غصّةٍ)** أي ذا وقوف في الحلق لا ينزل ولا يخرج، وهو الغسلين والزّقوم والضّريع نطعمهم منه **(وعذاباً أليماً)** أي مؤلماً موجعاً جدّاً، وهنا كأنّ قائلاً يقول؟ فمتى يعذّبون هذا العذاب فقال تعالى:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾

(يوم ترجف) أي يعذبون هذا العذاب يوم تتحرّك **(الأرض والجبال)** حينما ينفخ في الصّور **(وكانت)** أي أصبحت **(الجبال كثيباً)** أي رملاً **(مهيلاً)** أي سائلاً يسيل ويجري جريان الماء فتزول.

ثمّ بعد أن سلّى الله تعالى رسوله وأمره بالصّبر على ما يلاقي من المشركين من الأذى والسّخرية إلتفت إلى المشركين وخاطبهم خطاب إنذار بإنزال العذاب عليهم في الدّنيا قبل الآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾

(إنّا أرسلنا إليكم) إيّها النّاس **(رسولاً)** وهو محمّد (ﷺ) **(شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً)** وهو موسى (عليه السلام) **(فعصى فرعون الرّسول)** فخالف فرعون موسى **(فأخذناه)** أي عذبنا فرعون عقاباً على معصيته للرّسول عذاباً **(وبيلاً)** أي عذاباً ثقيلاً وشديداً وهو إغراقه مع جنوده في البحر، فالمعنى هنا: يا أهل مكّة ويا كلّ من

يدعوهم الرّسول (ﷺ) إلى الإسلام إن لم تؤمنوا به وبقيتم على كفركم وشرككم وابتعادكم عن شريعته فنعذّبكم في الدّنيا عذاباً شديداً كما فعلنا ذلك بفرعون حيث لم يتّبع موسى بل وعاداه، وقد أنجز الله تعالى هذا الإنذار ففعل ما فعل بقريش في حرب بدر وحنين وفتح مكّة.

ثمّ لمّا خوّفهم بعذاب الدّنيا أراد أن يخوّفهم بعذاب الآخرة، وقدّم عذاب الدّنيا على الآخرة وإن كان عذاب الآخرة أشدّ وأبقى لأنّ الكافر يخاف من عذاب الدّنيا أكثر، لأنّه عاشق للدّنيا ولا يبالي بالآخرة بل ولا يؤمن بها، فقال جلّ وعلا:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

في الآية تقديم وتأخير والأصل (**إن كفرتم فكيف تتقون يوماً**) أي عذاب يوم وشدّته وقد بلغ من شدّته (**بجعل الولدان**) الأطفال (**شيباً**) أي شيوخاً كبار السّن. وإنّ من شدّة ذلك اليوم أنّ (**السّماء منفطر**) منشقّ (**به**) أي في ذلك اليوم، وقال: **منفطر**، دون منفطرة مع أنّ السّماء مؤنث، لأنّها هنا بمعنى السّقف، والسّقف مذكّر بدليل قوله تعالى: ﴿وجعلنا السّماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٣٢، وإنّ هذا اليوم يأتي لا محالة لأنّ الله تعالى وعد به ولا شكّ أنّه (**كان وعده**) أي وعد الله (**مفعولاً**) أي منجزاً.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

(**إنّ هذه**) الآيات الّتي تليت عليكم (**تذكرة**) موعظة وعظناكم بها (**فمن شاء**) **أن** ينجو من ما في هذه الآيات من العذاب الموعود به في الدّنيا والآخرة (**اتّخذ إلى ربّه**) أي سلك (**إلى ربّه**) أي إلى رحمة ربّه وعفوه ومغفرته (**سبيلاً**) يوصله إلى الرّحمة والمغفرة والرّضوان، وذلك السّبيل هو الإيمان بالرّسول والإلتزام بما جاء به من عندالله تعالى من العقائد والأحكام والتّمسك بها وتنفيذها على نفسه وعلى من تحت رعايته.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ

ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾

(إنّ ربّك يعلم أنّك) يارسول الله **(تقوم)** أي تعبد **(أدنى)** أي أقلّ بقليل **(من ثلثي اللّيل ونصفه)** أي أو نصف اللّيل **(وثلثه)** أي أو ثلث اللّيل ولا ينقص مقدار قيامك في اللّيل عن أحد هذه المقادير **(وطائفة من الّذين معك)** وهم الأصحاب يقومون أحد هذه المقادير. والمراد بالأخبار عن أنّ الله يعلم قيامهم هذا هو الإخبار بأنّه قبل منهم هذا القيام وأثابهم عليه، وإلّا فكلّ النّاس يعلم أنّه عالم بكلّ شيء، فلا يبقى فائدة في إخباره بعلمه بهذا إن لم يكن المراد كما ذكرنا **(والله يقدّر اللّيل والنّهار)** أي والله يعلم مقادير اللّيل والنّهار بالتّحقيق لاغيره، فإنّ غيره إنّما يعلمون ذلك بالتّخمين والظّنّ والاجتهاد. وفائدة هذا الخبر قبول عذرهم والعفو عنهم إن كانوا نقصوا عن المدّة الحقيقيّة المطلوبة منهم، فإنّ العبد عليه أن يؤدّي ماعليه ويكمله حسب اجتهاده وظنّه، وبذلك يخرج عن المسؤوليّة والطّلب **(علم)** أي علم الله **(أنّه)** أي أنّ الشّأن هو أنّكم **(لن تحصوه)** أي لن تحصوا ذلك المذكور أي لن تستطيعوا معرفة هذه المقادير بالضّبط فلذلك شقّ عليكم فمنكم من يقوم كلّ اللّيل ليفي بما أريد منه **(فتاب عليكم)** أي فعفى عنكم، أي عن من قام أقلّ ممّا طلب منه وخفّف عليكم الأمر **(فاقرؤوا)** في اللّيل بدل قيام الثّلث أو النّصف أو الثّلثين **(ما تيسّر)** أي ما سهل عليكم قراءته **(من القرآن)** فإنّه يكفيكم، هذا وفي مقدار القراءة أقوال: قال السّدي: مائة آية. وعن الحسن: من قرأ مائة آية في ليلة لم يحاجّه القرآن. وقال كعب: من قرأ مائة آية كتب من القانتين. قال سعيد: خمسون آية. قال القرطبيّ: قول كعب أصحّ لقوله (ﷺ): (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين)[1]، وقال قوم: المراد بالقراءة الصّلاة أي فصلّوا ما تيسر، والأوّل أرجح عند القرطبيّ لأنّ حمل اللّفظ على الحقيقة أولى، ورجّح ابن العربى الثّاني. ثمّ علّل تعالى التّخفيف والعفو عن

(١) سنن أبي داود ٢/٥٧ الحديث رقم ١٣٩٨.

قيام الثّلث أو النّصف أو الثّلثين من اللّيل وجوباً بوجود المشقّة بالمرض والسّفر والجهاد فقال تعالى: **(علم أن سيكون منكم مرضى ... إلخ)** فشقّ عليهم.

فائدة: إنّ علم الله تعالى نوعان:

الأوّل: علم في الأزل بوجود كلّ شيء في الوقت الّذي يوجد وبالكيفيّة الّتي يوجد عليها، فإنّه تعالى عالم في الأزل بكلّ شيء هذا العلم ويسمّى علماً معنويّاً أي علماً لم يتعلّق بالموجود فعلاً، بل تعلّق به وهو معدوم.

الثّاني: العلم بالشّيء حين وجوده، ويسمّى هذا العلم علماً منجزاً.

فالعلم الأوّل قديم والثّاني عبارة عن تعلّق ذلك العلم القديم بالموجود بالفعل حين وجوده، فهو حادث وهذا هو العلم الّذي يثبت وينفي فما أثبت، مثل ما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الّذيْنَ آمَنوا﴾ سورة آل عمران في الآية/ ١٤٠، والله تعالى قد علم الّذين آمنوا في الأزل، فالمعنى: ليعلم المؤمنين علماً وجوديّاً متعلّقاً بهم بالفعل، وهم موجودون كما تعلّق بهم وكان عالماً بهم وهم مفقودون، فالمراد ليثبت تعلّق العلم القديم بالمؤمنين في الخارج. وما نفي مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٤٢. فمعنى ولمّا يعلم الله أي لم يتعلّق علم الله بالمجاهدين الموجودين في الخارج كما تعلّق بهم قبل وجودهم، فالنّفي يتوجّه إلى التّعليق الخارجي فينفي هذا التّعليق لعلم الله تعالى، ولا ينفي نفس العلم ليلزم إثبات الجهل لله تعالى فإنّه كفر، فاحفظ هذه الفائدة فإنّها تحلّ لك الإشكال في كثير من الآيات في القرآن الكريم وقد مرّ مثل هذا القول مراراً وفي الإعادة إفادة.

* * *

(وآخرون يضربون في الأرض) أي وسيكون أناس يمشون ويتحرّكون في الأرض **(يبتغون)** يطلبون ويحصلون بهذه الحركة **(من فضل الله)** أي الرّزق من الله تعالى فيشقّ عليهم القيام أيضاً. وهذا يشمل كلّ كسب كالتّجارة والفلاحة والزّراعة **(وآخرون يقاتلون في سبيل الله)** فيشقّ عليهم القيام أيضاً، ولذلك خفّف عنكم ورفع عنكم طلب القيام **(فاقرؤوا ما تيسّر منه)** أي من القرآن الكريم.

فائدة: قال القرطبيّ: سوّى الله تعالى بين درجة المجاهدين والمكسبين للمال الحلال للإنفاق على النّفس والعيال والصّرف في وجوه البرّ والأفضال، فيفيد ذلك أنّ الكسب الحلال بمنزلة الجهاد في الأجر والثّواب عند الله تعالى، وروى إبراهيم عن علقمه قال: قال رسول الله (ﷺ): (ما من جالب يجلب طعاماً إلى بلد فيبيعه بسعر يومه إلّا كانت منزلته عند الله منزلة الشّهيد)[1]. هذا والأحاديث في فضل الكسب والعمل في سبيل تحصيل الرّزق كثيرة، وخير الكسب عمل الرّجل بيده ثمّ كلّ بيع مبرور، انتهى ما قاله القرطبيّ مع زيادة وتبديل في بعض عباراته.

* * *

(وأقيموا الصّلاة) أي أدّوا الصّلوات الخمس المكتوبة **(وآتوا الزّكاة)** وأعطوا الزّكاة مستحقّيها **(وأقرضوا الله)** أي وأعطوا المال زيادة على الزّكاة للمستحقّين فيكون ذلك **(قرضاً حسناً)** عند الله تعالى يوفّيكم بأحسن منه والقرض الحسن ما لا يقصد به إلّا وجه الله تعالى، ويصدق القرض الحسن على كلّ إنفاق في سبيل الله تعالى من النّفقة على الأهل والعيال. ثمّ رغّب الله تعالى وحثّ المسلم على الإنفاق في سبيل الله تعالى فقال: **(وما تقدّموا لأنفسكم)** أي وما تنفقونه فتقدّمونه إلى الآخرة قبل موتكم **(من خير)** أي من مال أو كلّ ماهو خير كالسّعي في تمشية أمور الضّعفاء أو النّصح للنّاس أو الكلام الطّيب أو إبتسامة في وجه ضعيف أو ضيف (فالكلمة الطّيّبة صدقة). **(تجدوه عند الله)** يوم القيامة **(هو خيراً)** ممّا خلفتم في الدّنيا وأكثر ممّا أنفقتم الواحد بعشرة أمثالها إلى سبعمائة أو أكثر، والله واسع عليم **(وأعظم أجراً)** أي وإنّ أجره وثوابه أعظم يوم القيامة (واستغفروا الله) أي سلوا الله تعالى المغفرة عمّا وجد منكم من التّقصير في أداء الواجب أو عدم الإخلاص في العمل **(إنّ الله غفور)** كثير المغفرة لكلّ مذنب بدون توبة إن شاء ولمن تاب تحقيقاً وبدون استثناء **(رحيم)** أي أنّ مغفرته ناشئة عن رحمته فيغفر لرحمته بالنّاس لا لحاجته إليهم ولا إلى المغفرة ولا لوجوب المغفرة عليه كما زعم البعض.

فأستغفر الله العظيم لي ولوالدي ولجميع المؤمنين والمؤمنات إنّه كان غفاراً وستاراً، وهو أرحم الرّاحمين، وصلّى الله على المولى محمّد وعلى آله وأصحابه ومن اقتدى بهم أجمعين إلى يوم الدّين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، آمين.

---

(١) المغني عن حمل الأسفار ١/ ٤٢٢ الحديث رقم ١٦٠١ وقل ضعيف.

سورة المدّثر

(مكيّة، نزلت بعد المزّمل، وآياتها ستّ وخمسون، سمّيت بالمدثّر لما فيها من قوله تعالى: ﴿يا أيّها المدثر﴾).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾

(يا أيّها المدّثّر) أصله المتدثّر قلبت التّاء دالاً لما مرّ في المزّمّل وأدغمت الدّال في الدّال فصارت **(المدّثّر)** والدّثار ما يلبسه أو يلفّه الإنسان فوق الثّياب، ذكر القرطبيّ وغيره أنّ في صحيح مسلم عن جابر بن عبدالله وكان من أصحاب رسول الله (ﷺ) وهو يحدّث عن فترة الوحي قال في حديثه: (فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السّماء فرفعت رأسي فإذا الملك الّذي جاءني بحرّاء جالساً على الكرسيّ بين السّماء والأرض فرعبت منه فرقاً، فرجعت فقلت زمّلوني، زمّلوني، فدثّروني، فأنزل الله تعالى **(يا أيّها المدّثّر)**[1] بدثار النّوم للرّاحة والمتمدّد للإستراحة لم يبق وقت النّوم والرّاحة بل **(قم)** كالبطل المجاهد **(فأنذر)** أي فخوّف كلّ فرد معاند بعذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا **(وربّك)** مفعول لقوله: **(فكبّر)** أي فأكبر ربّك، وحيث إنّ الله تعالى كبير في ذاته ولا يحتاج إلى تكبير أحد له فالمعنى: اعتقد بكبرياء الله تعالى وأنّه أكبر من كلّ شيء، وحيث إنّ الرّسول (ﷺ) كان يعتقد ذلك، فالمعنى دم على عقيدة أنّ الله أكبر من كلّ

(١) صحيح البخاري ١/٥١ الحديث رقم ٤.

شيء؛ فلا تخف من أحد غيره، واعتمد عليه وامض فيما أمرت به من الإنذار والدّعوة والإرشاد إلى سبيل الله، فإنّه تعالى يصونك، فالاعتماد والتّوكل على الله وتسليم النّفس إلى قضائه وقدره من أكبر الأسباب لنجاح المرء في دعوته وإنّ الله تعالى لا يخيب من توكّل عليه ودعا إلى عبادته وجاهد في سبيل إعلاء كلمته فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ سورة محمد الآية/ ٧. وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الرّوم الآية/ ٤٧، **(وثيابك)** مفعول لقوله فطهّر، وفي معنى هذه الآية أقوال ثمانية:

الأوّل: وعملك فأصلح. **الثاني**: فقلبك فطهّر من الصّفات الذّميمة. **الثّالث**: ونفسك فطهّر من الذّنوب والآثام. **الرّابع**: وجسمك فطهّر من الذّنوب الظّاهرة. **الخامس**: وأهلك فطهّر من الخطايا. **السّادس**: وخلقك فحسّن. **السّابع**: ودينك فطهّر من الخلط والتّبديل. **الثّامن**: على ماهو الظّاهر أي ولباسك فطهّر من الانجاس والأوساخ.

وعندي أنّ معناه: ومحيطك فطهّر من عبادة الأصنام والأوثان، ويجوز أن يراد هذه المعاني كلّها حيث لا تنافي بينها، بل كلّ هذه الأمور مطلوب من كلّ داعية أن يتّصف بها، فيكون المعنى حينئذ: فكلّ ما يطلق عليه الثّياب حقيقة أو مجازاً فطهّر.

(والرّجز) مفعول لقوله: **(فاهجر)** أي والرّجز فاهجره، والرّجز بضم الرّاء وكسرها قيل: المراد به العذاب، فالمعنى: كلّ مايسبّب العذاب فاتركه، وقيل: هو الرّجز أي النّجاسة وقيل الصّنم، وعندي: أنّ المراد به كلّ هذه المعاني، فالمعنى: كلّ ما يطلق عليه لفظ الرّجز فاتركه **(ولا تمنن تستكثر)** أي ولا تعمل عملاً فتراه كثيراً بل اعتبر ما تعمله قليلاً **(ولربّك)** أي ولرضاء ربّك وإطاعة أمره فاصبر على تحمّل المشاق والأذى في سبيل تبليغ الرّسالة ونشر دعوة الإسلام.

تنبيه: إنّ هذه الأوامر من قوله تعالى: (وربّك فكبر .... إلى قوله تعالى: ولربّك فاصبر) كلّها ليست على حقيقتها لأنّ هذه الصّفات كلّها كانت موجودة في الرّسول (ﷺ) وقتما نزلت هذه السّورة، وذلك لأمرين:

الأوّل: إنّ هذه السّورة نزلت بعد المزّمّل، وهي نزلت بعد القلم، وقد أخبر الله تعالى عن في سورة القلم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ سورة القلم الآية/ ٤. وذلك يفيد بأنّ هذه الصّفات كلّها كانت موجودة فيه.

الثّاني: إنّ الرّسول يجب أن يكون معصوماً وكلّ ما في هذه الأوامر خلافها معصية، فيجب أن يكون الرّسول بعيداً عنها ومتّصفاً بما أمر به في هذه الأوامر، فيكون الأمر به تحصيلاً للحاصل أو لغواً، مثل ماتقول للقائم: قم، ولذلك نقول: إنّ المراد بهذه الأوامر كلّها دم واستمرّ على هذه الصّفات الّتى اتّصفت بها، فمثلاً قوله تعالى: **(وربّك فكبّر)** معناه دم على عقيدة الإيمان بكبرياء الله تعالى، وإنّ كلّ شيء بأمره وتقديره، ودم على تطهير ثيابك وهكذا. إلى آخر ماورد في هذه الأوامر. أو نقول: إنّ هذه الأوامر وردت للمؤمنين والمسلمين سيّما الدّعاة منهم إلّا أنّها وجّهت إلى الرّسول (ﷺ) لأنّ المبلّغ من الله تعالى، ولأنّه رئيس المؤمنين والمسلمين وكأنّ الله تعالى يقول: إنّ هذه الأوامر وجّهت إلى الرّسول وهو معصوم فكيف بكم وأنتم مشرفون على المناهي بل ومتّصفون بها.

فائدة: إنّ هذه الأوامر وجّهت إلى الرّسول (ﷺ) لأنّه بعث داعياً إلى الله وإلى نشر العقيدة الرّبّانيّة بين بني الإنسان، فيفيد ذلك أنّ هذه الصّفات هي صفات الدّعاة، ويجب عليهم أن يتّصفوا بها وإلّا فدعوتهم غير ناجحة، كما وإنّهم لا يعتبرون دعاة في الحقيقة والواقع وإن اغترّوا أو أغروا من اغترّ بهم، والله يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصّدور.

* * *

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى رسوله بالإنذار والتّبشير ودعوة النّاس إلى الله وإلى التّمسك بأوامره ونواهيه، بدأ الرّسول بالدّعوة ودأب عليها كما أمره الله تعالى، فواجه السّخرية والاستهزاء والأذى والكفر والاستكبار من النّاس فشقّ ذلك عليه فحزن؛ فسلّاه الله تعالى وأنذر وخوّف من عاداه وكفر به بعذاب شديد فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾
عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾

(فإذا نقر) النقر: الصّوت، فالمعنى فإذا صوّت **(فى النّاقور)** أي فيما ينقر فيه وهو الصّور، أي فإذا نفخ في الصّور **(فذلك)** أي فذلك النّقر **(يومئذٍ)** أي يوم إذ نقر في النّاقور، بدل عن. فذلك **(يوم عسير)** يوم شديد **(على الكافرين)** غير يسير أي لا سهولة فيه.

ثمّ خصّص من بين الكافرين أشقاهم، وهو الوليد بن المغيرة، فهدّده بأشدّ العذاب فقال جلّ وعلا:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧)﴾

(ذرني) أي أتركني **(و)** فوّض إلى أمر **(من خلقت وحيداً)** أي خلقته وحدي وليس له خالق سواي، أو خلقته وهو متوحّد لا مال له ولا أولاد.

(وجعلت له) أي وهبته **(مالاً مدوداً)** أي مالاً كثيراً **(وبنين)** أي ووهبته أبناء كثيرين فكان له عشرة أبناء **(شهوداً)** جمع شاهد بمعنى حاضرين كانوا كلّهم حاضرين عنده، لم يغب عنه ولم ينفصل عنه واحد منهم، وشهود الأبناء من النّعم الجليلة **(ومهّدت)** أي بسطت له في الدّنيا بالمال والقوّة وطيب العيش **(تمهيداً)** بسطاً مؤكّداً وكثيراً **(ثمّ)** أي وبعد هذه النّعم الكثيرة **(يطمع)** أي يطلب ويدعوني أن أزيد له وأعطيه أكثر ممّا أعطيته **(كلّا)** أي فليرتدع ولا يطمع في إنعامي بعد، وعلّل تعالى ذلك فقال: **(إنّه)** أي لا أزيد له شيئاً لأنّه **(كان لآياتنا)** أي لأحكامنا وشريعتنا **(عنيداً)** معانداً ومعادياً، وعقاباً على عناده لآياتنا ومعاداته لها **(سأرهقه)** سأغشيه **(صعوداً)** عقبةً شاقّةً أي عذاباً شاقّاً. وقد حمل المفسّرون ذلك على عذاب الآخرة. وعندي أنّ المراد منه عذاب الدّنيا وذلك لوجوه:

الأوّل: إنّ السّين من سأرهقه للمستقبل القريب.

الثّاني: إنّه سيذكر عذابه في الآخرة في قوله تعالى: (سأصليه سقر) فإذا لم يحمل ما هنا على ما في الدّنيا يكون ما يأتي تكراراً لا داعي إليه.

الثّالث: إنّ الله تعالى ابتلاه في الدّنيا بذلك العذاب، فقد ذكر ابن هشام في سيرته قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ سورة الحجر الآيتان/ ٩٤ ـ ٩٥، أنّ ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان عن عروة ابن الزّبير أو غيره من العلماء أنّ جبريل أتى رسول الله (ﷺ) (وهم) أي المستهزئون يطوفون بالبيت، فقام وقام رسول الله إلى جنبه فمرّ به الأسود بن المطلب فرمى في

وجهه بورقة خضراء فعمي، ومرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى (بطنه) فمات (حبناً) أي انتفاخاً، ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله فانتقض به فقتله، ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله وخرج على حمار له يريد الطّائف فربض به على شبارقة فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتله، ومرّ به الحارث بن الطّلاطلة فاشار إلى رأسه فامتخض قيحاً فقتله ابن هشام (ج/ ١/ ٤١٠).

ثمّ بين تعالى أنّه كيف كان الوليد لآياته عنيداً فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾

(إنّه) أي أنّ الّذي خلقت وحيداً وهو الوليد **(فكر)** في نفسه ماذا يقول في حقّ القرآن؟ **(وقدّر)** أي وبعد التّفكير قدّر، أي هيّأ كلاماً في نفسه ووصفاً يصف به القرآن ويلومه به وينقص من قدره **(فقتل)** أي فلعن **(كيف قدر)** أي كيف هيّأ ذلك الكلام وكيف اجترأ على هذا الكذب والافتراء **(ثمّ قتل كيف قدّر)** في إعادة هذه الجملة أقوال، فقيل: معناه لعن لعناً بعد لعن. والثّاني أشدّ من الأوّل لأنّ ثمّ للتّراخي فيراد منه التّراخي في رتبة اللّعن هنا، وقيل: معناه قتل بضرب من العقوبة ثمّ قتل بضرب آخر، وقيل أعيدت للتّأكيد.

وعندي: أنّ الوليد قال قولين في حقّ القرآن: **الأوّل**: هي قوله: **(إن هذا إلّا سحر يؤثر)**.

الثّاني: قوله: **(إن هذا إلّا قول البشر)** فلعن مقابل كلّ قول لعناً ليكون ذلك إشارة إلى أنّ كلا قوليه كذب وافتراء وجريمة يستحقّ اللّعن عليها.

(ثمّ نظر) إلى من حوله من القوم ليلقي إليهم رأيه فيما سئل عنه **(ثمّ عبس)** أي ثمّ تغيّر وجهه وتقطّب لأنّه كان يعلم أنّ ما يقوله خلاف الحقّ والواقع، وإنّما لجأ إليه مداراة لقومه، وما أشدّ قولاً على المرء ما لا يوافق ما في قلبه وعقيدته **(وبسر)** أي تغيّر لونه **(ثمّ أدبر)** أي أعرض عن الحقّ **(واستكبر)** أن يتّبع القرآن ومن أتى به وهو

محمّد (ﷺ) **(فقال)** استكباراً وترضيةً لقومه **(إن هذا)** أي ماهذا وهو القرآن أي ليس هو **(إلّا سحر يؤثر)** ينقل عن السّحرة ويتعلّم منهم **(إن هذا)** ما هذا **(إلّا قول البشر)** وليس بقول الله ولا هو وحي أوحي إلى محمّد. ذكر الخازن والقرطبيّ وإبن هشام والإمام الرّازي في سبب نزول هذه الآيات من قوله تعالى: (ذرني) إلى (إنْ هذا إلّا قول البشر) أنّه لما نزل ﴿حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم *.. الى قوله: إليه المصير *﴾ سورة غافر الآيتان/ ١، ٢. سمعه الوليد يقرؤها الرّسول (ﷺ) فقال: والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق وإنّه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر، فقالت قريش: صبأ الوليد والله لتصبونّ قريش كلّها، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فمضى إليه حزيناً؟ فقال: مالى أراك حزيناً؟ فقال له: ومالي لا أحزن، هذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنّك، ويزعمون أنّك زيّنت كلام محمّد، وتدخل على ابن أبي كبيشة وإبن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما، فغضب الوليد وتكبّر وقال: أنا أحتاج إلى كسر محمّد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالي، واللّات والعزّى مالي حاجة إلى ذلك، وإنّما أنتم تزعمون أنّ محمّداً مجنون فهل رأيتموه قطّ يخنق؟ قالوا: لا والله، قال: وتزعمون أنّه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قطّ؟ قالوا: لا والله، قال تزعمون أنّه كذّاب، فهل جرّبتم عليه كذباً قطّ ؟ قالوا: لا والله، قال: تزعمون أنّه كاهن، فهل رأيتموه تكهّن قطّ؟ ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله، وكان النّبيّ (ﷺ) ليسمّى الصّادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكّر فقال: ما هو إلّا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرّجل وأهله وولده ومواليه؟ فذلك قوله تعالى: (إنه فكر).

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الوليد وما افتراه على القرآن أوعده فقال جلّ وعلا:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾

(سأصليه) أي سأدخله **(سقر)** وهي جهنّم **(وما)** أيّ شيء **(أدراك)** أعلمك **(ما سقر)** أي ما أعلمك بهذا الشّيء ولا تعلم حقيقة السّقر حيث لا يدرك كنهها وشدّتها إلّا من دخل فيها، فلذلك نحن نعلمك ونخبرك عن بعض أوصافها فمن أوصافها أنّها **(لا**

تبقي) أي لا تترك درجة من العذاب إلا أذاقته من دخل فيها، ولا تذر أحداً ولا جزءا من أجزائه إلّا أصابته **(لواحة)** أي كاشفة للجلود فتزيلها عن الأبدان فتصل إلى اللّحم والعظم **(عليها)** أي جعلنا على جهنّم وعلى من دخل فيها من الملائكة تسعة عشر شخصاً يسمّون خزنة النّار ويرأسهم مالك، وقيل: تسعة عشر صنفاً، وقيل: تسعة عشر صفّاً، والعلم عند الله.

تنبيه: إنّ هذا الوعيد وإن نزل في حقّ الوليد إلّا أنّه عام بالنّسبة إلى كلّ من طعن في القرآن، ولذلك لم يذكر الوليد باسمه وإنّما ذكر بصلة الموصول حيث قال: (ذرني ومن خلقت وحيداً) ولم يقل ذرني ووليداً. ثمّ علّل قوله: (سأرهقة صعوداً) بقوله: (إنّه كان لآياتنا عنيداً). فالآيات سارية المفعول إلى يوم القيامة، وتفيد أنّ كلّ من عاند القرآن أو طعن فيه فإنّه يشمله هذه الإنذارات والتّهديدات المذكورة في هذه الآيات، لأنّ سبب النّزول لا يخصّص ما نزل بما أنزل فيه.

❊ ❊ ❊

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

(وما جعلنا أصحاب النّار) أي خزنة جهنّم **(إلّا ملائكةً)** لأنّهم أقوياء، فقد أهلك ملك واحد قوم عاد وآخر قوم ثمود. وإنّ ملكاً واحداً يستطيع أن يقلع جبلاً أو أن يدمّر قريةً ولأنّهم لا يرحمون أهل النّار لأنّهم ليسوا من جنسهم ولأنّهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ سورة التّحريم الآية/٦، **(وما جعلنا عدّتهم)** أي وما ذكرنا عدّتهم في القرآن، وقد فسّرنا جعلنا بذكرنا لأنّ الجعل لا يكون فتنةً، لأنّ النّاس لم يطّلعوا على الجعل بل اطّلعوا على الذّكر فقط، إلّا أنّه عبّر عن الذّكر بالجعل لأنّ الذّكر موافق للجعل في الأزل وفي الواقع **(إلّا فتنةً)** أي إلّا امتحاناً للّذين كفروا، وهنا شيء محذوف تقديره (إلّا فتنةً للّذين كفروا وغيرهم) ثمّ فصّل نتيجة هذا الامتحان بقوله **(ليستيقن الّذين أوتوا الكتاب)** أنّ هذا القرآن من الله تعالى لأنّ هذه العدّة موافقة لما

ذكر في كتبهم، فيؤمن بعضهم بسبب ذلك فينجح، ومنهم من يبقى على الكفر فيرسب **(ويزداد الّذين آمنوا)** بالقرآن من أهل الكتاب بذلك إيماناً، لأنّ الإنسان يقوّى إيمانه كلّما ازداد له البراهين والحجج، أو المراد بالمؤمنين أهل الكتاب وغيرهم، فمعنى الزّيادة حينئذ زيادة متعلقات الإيمان **(ولا يرتاب)** أي ولا يبقى شكّ عند **(الّذين أوتوا الكتاب)** بسبب ذكر هذه العدة لموافقتها لما في كتبهم، فيكون ذلك معجزة للرّسول لإخباره عمّا هو غيب ولم يعلمه إلّا المختصّون من الأحبار والرّهبان **(والمؤمنون)** أي ولا يرتاب المؤمنون من أهل الكتاب وغيرهم **(وليقول الّذين في قلوبهم مرض)** أي نفاق **(والكافرون ماذا)** أي إنّ نتيجة هذا الامتحان ما مرّ من عدم إرتياب أهل الكتاب والمؤمنين، وأنّه يقول المنافقون والكافرون استهزاءً وسخريّةً **(ماذا أراد الله بهذا)** أي بهذا العدد **(مثلاً)** أي ماذا أراد الله بهذا المثل وهو جعل عدّة أصحاب النّار تسعة عشر، سمّوه مثلاً لكونه عجيباً فإنّهم تعجّبوا وقالوا: كيف يقدّر تسعة عشر ملكاً على ملايين من البشر فيعذّبوهم؟ حتّى قال أبو جهل لقريش لمّا سمع بهذه الآية: ثكلتكم أمّهاتكم اسمع ابن أبي كبيشة (يعني الرّسول (ﷺ) فإنّه ابن زوج حليمة السّعدية من الرّضاع وكان يكنّى بأبى كبيشة) يخبركم أنّ خزنة جهنّم تسعة عشر وأنتم اللدهم، أي العدد الكثير والشجعان، أفيعجز كلّ عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟ قال السّدى: فقال أبو الأسود بن كلدة الجحمي: لا يهولنّكم التّسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة وبمنكبي الأيسر التّسعة، ثمّ تمرّون إلى الجنّة. وكان يقول ذلك مستهزئاً. وفي رواية أنّ الحرث بن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفونى أنتم اثنين، وقيل: أنّ أب ـ ا جهل قال: أفيعجز كلّ مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثمّ تخرجون من النّار؟ فنزل قوله تعالى: وما جعلنا أصحاب النّار... إلخ، ذكر ذلك القرطبيّ عن ابن عبّاس وقتادة والضّحاك (ﷺ). **(كذلك)** أي مثل ما رأيت من إستيقان أهل الكتاب وإيمان بعضهم وتيقّن المؤمنين إستسلامهم لما ورد من الله تعالى واستهزاء الكافرين بما يخبر عنه القرآن (يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء).

سؤال: إذا كان ضلال من ضلّ من الله تعالى وبخلقه وإرادته وهداية من اهتدى كذلك، فلماذا يعذّب الله تعالى أهل الضّلال أو يثيب أهل الهداية فليعذّب الكلّ أو يثب الكلّ ما دام كلّ ذلك من عنده ولم هذا الفرق بينهما؟

الجواب: إنّ علماء المسلمين ذهبوا في أعمال العباد وأخلاقهم إلى ثلاثة مذاهب:

الأوّل: مذهب الجبر: وهم يقولون: إنّ كلّ أعمال العبد وأوصافه مخلوقة لله تعالى ولا دخل للعبد فيه، وإنّما العبد كالقلم بين يدي الكاتب يحرّكه الله تعالى كيف يشاء، وإنّ الله تعالى ليس بظالم عبده إذا استعمله في الشرّ وعاقبه على ذلك، فإنّ الإنسان ملك لله تعالى يتصرّف فيه كيف يشاء ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ سورة الأنبياء الآية/٢٣. إذ لا يخلو فعله عن حكمة ومصلحة بالنّسبة إلى نظامه البديع العام وإدارة هذا الكون وما فيه من المخلوقات والأسرار، ولتوضيح ذلك نذكر مثالاً ولله المثل الأعلى فنقول: إذا رأيت إنساناً بيده عودان عود يدخله في النّجاسة لتحريكها وإزالتها مثلاً، وعود يدخله في ماء الورد لأمر ما، وحينما اخرج العودين تراه يشمّ ما أدخل في ماء الورد ويذهب بما أدخله في النّجاسة فيغسله بالماء الحارّ والصّابون أو غير ذلك، فكما أنّ عمله هذا يقدّر ويمدح لأنّه فعل كلّ ذلك لمصلحة ولحكمة، فكذلك الله تعالى يستعمل عبداً في الخير ويثيبه، وآخر في الشرّ ثمّ يطهّره بالعذاب، فيجب أن يشكر الله تعالى ويحمد ويمدح على ذلك لأنّه لم يفعل ذلك إلّا لحكمة ومصلحة والله عليم حكيم. فأصحاب هذا المذهب يفسرّون الآية على ظاهرها ويقولون: **(يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء)** أي يخلق الله تعالى الضّلالة أو الهداية لمن يشاء من عباده أراد ذلك العبد الهداية أو لم يشأ، وجعل لكلّ واحد منهما عاقبةً ومنزلةً وإرادته وعمله هذا عدل وحسن لأنّ كلّ إنسان ملكه وكلّ ما خلق له لا يخلو عن حكمة ومصلحة يقتضيها نظام هذا الكون وما فيه من الموجودات.

الثّاني: مذهب القدر: ويسمّى أهل هذا المذهب بالقدرية، وهم يقولون: إنّ العبد هو الّذي يخلق أعماله وأخلاقه الاختياريّة وبيده اختيار العمل الصّالح وخلقه وبيده اختيار العمل الفاسد وإيجاده، وإنّ الله تعالى لا علاقة له ولا دخل له في إيجاد أعماله هذه، إلّا أنّ القدرة الّتي يخلق العبد بها الأعمال هي من خلقه تعالى؛ فلكون العبد خالقاً لأفعاله يثاب على الخير ويعاقب على الشرّ، وأهل هذا المذهب يفسّرون هذه الآية ويقولون: **(ويضلّ الله من يشاء)** أي فبالأوامر والنّواهي والوحي يظهر الله تعالى ضلال من يشاء وهم الضّالون **(ويهدي)** ويظهر هداية **(من)** يشاء من عباده وهم المهتدون لأنّه لولا الشّريعة والأوامر والنّواهي والوحي لم يتميّز الضّال من المهتدي والمؤمن من الكافر والصّالح من الفاجر.

الثّالث: مذهب أهل السّنة والجماعة: وهم يقولون أنّ عمل العبد دائر بين إرادتين

إرادة العبد وميله وسعيه للعمل وإرادة الله تعالى لخلق ذلك العمل، فإذا أراد العبد الخير خلقه الله له، وإذا أراد الشّرّ خلقه له كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٤٥. فثواب العبد مربوط بإرادة العبد وميله وسعيه للخير، وعقابه مربوط بإرادته للشّر والمعصية، ولا ظلم لأنّ الله تعالى خلق العبد وأعطاه القدرة على الخير والشّرّ، وبيّن له الخير وجزاءه والشّرّ وعقابه وجعل الاختيار بيده، فإذا أراد الخير خلقه له في الدّنيا ثمّ يعاقبه عليه لاختياره ذلك، فمدار الثّواب والعقاب إرادة العبد للخير أو للشّرّ فهؤلاء يفسّرون هذه الآية ويقولون: **(يضلّ الله من يشاء)** أي يخلق الله تعالى الضّلال لمن يشاء من عباده وهم الّذين يختارون ويريدون الضّلال **(ويهدي)** ويخلق الهداية لـ **(من يشاء)** من عباده وهم الّذين يحبّون ويسعون لها. ولكلّ واحد من هذه المذاهب أدلّة عقليّة ونقليّة تتمسّك بها وتقوّي مذهبه بها، وكلّ منهم أراد الخير من جهة تنزيه الله تعالى. فالجبريّة أرادوا تنزيه الله تعالى عن أن يكون موجد ومؤثر سواه. والقدريّة أرادوا تنزيه الله تعالى عن أن يعذّب من أجبره على الضّلال وإنّهم اعتبروا ذلك ظلماً يجب تنزيه الله تعالى عنه. وأهل السّنّة والجماعة جعلوا عمل العبد بين إرادتين: إرادة العبد ليستحقّ بتلك الإرادة الثّواب والعقاب، ولئلّا يظنّ الجاهل أنّ الله تعالى ظالم، وإرادة الله تعالى للخلق وخلقه للعمل لئلّا يكون أحد غير الله تعالى خالقاً موجوداً، هذا، ولكلّ وجهة هو مولّيها فمن أخطأ فله أجر واحد، ومن أصاب فله أجران كسائر المجتهدين في الفروع والأحكام. إلّا أنّ قول أهل السّنة والجماعة هو الصّواب برأيي لأنّ فيه تنزيه الله تعالى عمّا يظنّه البعض ظلماً وتنزيهه عن أن يكون غيره خالقاً. ولموافقته للقرآن الكريم.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ خزنة النّار تسعة عشر كأن قائلاً يقول: أليس لله ملائكة غير هؤلاء؟ فلم خصّ هذا العدد؟ فقال تعالى: **(وما يعلم جنود ربّك)** أي إنّ جنود الله من الملائكة وغيرهم كثيرةَ جدّاً وما يعلم عددها **(إلّا هو)** إلّا أنّه إقتصر على هذا العدد لقوّتهم ولضعف أهل النّار عن مقاومتهم، ولو أراد الله تعالى لكفاهم واحد منهم إلّا أنّ الله تعالى يفعل ما يشاء **(وما هي)** أي ليست النّار **(إلّا ذكرى للبشر)** أي موعظةً ورادعةً للبشر عن ارتكاب المعاصي واقتراف الذّنوب والآثام.

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

(كلا) أي حقاً أنّ سقر هي ذكرى للبشر **(والقمر إذ أدبر)** أي بدأ بالذّهاب وذلك يكون بعد منتصف اللّيل، أقسم به في ذلك الوقت لأنّ جماله يظهر حينئذٍ لظهور النّجوم فيه بسبب بعد الشّمس وعدم ستر ضوئها لها. **(والصّبح إذا أسفر)** أي إذا ظهر واتّضح **(إنّها)** أي إنّ سقر **(لإحدى الكبر)** الكبر جمع كبرى فالمعنى: إن سقر لإحدى البلايا الكبرى الّتي تصيب الإنسان، وهي الموت وسؤال القبر وعذابه والبعث والحشر والحساب والميزان والصّراط وغير ذلك من حوادث السّاعة **(نذيراً)** حال من إحدى ولم يؤنّث لتضمّن الإحدى معنى العذاب **(للبشر)** عامّة. ثمّ بدّل عنه بقوله لمن شاء **(منكم)** أيّها البشر **(أن يتقدّم)** إلى العمل الصّالح **(أو يتأخّر)** عن المناهي، فخصّ بالّذين يتّعظون بالإنذار والتّبشير لأنّهم مستفيدون منه دون غيرهم.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾

(كلّ نفس بما كسبت) أي بسبب ما كسبت من المعاصي **(رهينة)** أي محبوسة في سقر **(إلّا أصحاب اليمين)** فإنّهم في جنّات **(يتساءلون)** أي يتساءلون **(عن المجرمين)** أي المجرمين الّذين هم في النّار فينادونهم وهم في الجنّة ويقولون لهم **(ما سلككم)** أي شيء أدخلكم في سقر؟.

﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾

(قالوا) أي قال المجرمون الّذين هم في النّار جواباً لسؤال أصحاب اليمين **(لم نك من المصلّين)** أي دخلنا جهنّم لأنّنا لم نك نصلّي في الدّنيا **(ولم نك نطعم المسكين)** أي ماكنّا نساعد المحتاجين **(وكنّا نخوض)** في المعاصي **(مع الخائضين)** فيها

(وكنّا نكذّب بيوم الدّين) أي كنّا لا نؤمن بيوم الجزاء، بل كنّا نكذّب به **(حتّى أتانا اليقين)** أي كنّا مستمرّين على ذلك حتّى أتانا الموت **(فما تنفعهم)** أي فما تنجيهم من جهنّم **(شفاعة الشّافعين)** في ذلك الوقت. وهنا ينشأ سؤال وهو: أنّ الواو في قوله لم نك من المصلّين إلى الأخير وهو قوله: **(وكنّا نكذّب بيوم الدّين)** إن كان للجمع فمعناه أنّ هؤلاء المجرمين اجتمعت فيهم هذه الصّفات كلّها وهم الكفّار فقط، فيفيد أن المؤمنين لايدخلون سقر وإن كان للتقسيم فيشمل المؤمنين.

سؤال: فكيف قال: فما تنفعهم شفاعة الشّافعين مع أنّ الشّفاعة للمؤمنين ثابتة ونافعة؟

الجواب: إنّ الواو للتّقسيم كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ سورة البقرة الآية/ ١٣٥، أي قالت اليهود: كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النّصارى: كونوا نصارى تهتدوا، وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ سورة البقرة الآية/ ١١١. أي قالت النّصارى: لن يدخل الجنّة إلّا من كان نصارى، وقالت اليهود: لن يدخلها إلّا اليهود، فالتّقدير: قال بعضهم: دخلنا النّار لأنّا لم نك من المصلّين، وقال البعض لأنّا لم نك نطعم المسكين، وقال البعض: لأنّا كنّا نخوض مع الخائضين، وقال البعض: لأنّا كنّا نكذّب بيوم الدّين، فشمل ذلك الكفار والمؤمنين الّذين دخلوا سقر بسبب ترك الصّلاة أو ترك الزّكاة أو الخوض في المناهي، وقوله: فما تنفعهم شفاعة الشّافعين: فبالنّسبة للكفّار، أي لا تنفعهم شيئاً وأبداً، وبالنّسبة للمؤمنين العصاة لا تنفعهم في ذلك الوقت، فإنّ باب الشّفاعة لمن دخل جهنّم لا يفتح إلّا بعد استقرارهم فيها، أو فلا تنفعهم خاصّ بمن كان يكذّب بالدّين لمجيئه بعده، وقوله تعالى: حتّى أتانا اليقين يفيد أنّ في التّوبة قبل تحقّق الموت فائدة ولكنّها حين مجيئه أو تحقّقه لا تفيد شيئاً.

* * *

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾

(فما لهم) أي إذا كان المصير هذا المصير يوم القيامة فأيّ حجّة لهم في أنّهم **(عن التّذكرة)** أي عن القرآن **(معرضين)** فالكافرون لايؤمنون به والمؤمنون به لا يطبّقونه **(كأنّهم)** في إعراضهم عن القرآن **(حمرٌ)** جمع حمار **(مستنفرة فرّت من قسورة)** شبّه القرآن بالأسد لشدّته وقوّته وشبّههم بالحمر لجهلهم وضلالهم ونفرتهم عن الحقّ، فلا يؤمنون بالقرآن **(بل يريد)** أي بل يطلب كلّ أمرىء منهم **(أن يؤتى)** من قبل الله تعالى صحفاً منشرة أي كتباً مفتوحةً فيؤمنوا حينئذٍ، يروى أنّ أبا جهل وجماعة من قريش كانوا يقولون: إن كان محمّد صادقاً فليصبح عند كلّ رجل منّا صحيفة فيها براءته من النّار، أو قالوا قولاً آخر غير هذا فالرّوايات كثيرة **(كلّا)** أي ليس كما يطلبون ولا يأتي لكلّ واحد كتاب، بل يختار الله تعالى من يشاء للرّسالة فيأتيه كتاب وعليهم أن يتّبعوه ويعملوا به قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٧٩، **(بل)** أي أنّ الكافرين ترقّوا عن هذا الطّلب وعن هذا السّبب لعدم إيمانهم إلى سبب آخر وهو أنّهم **(لا يخافون الآخرة)** أي يوم القيامة فلا حشر ولا حساب ولا عقاب ولا عذاب عندهم، فلذا لماذا يؤمنون وللأوامر ينقادون وعن الشّهوات يعرضون، فإنّ الّذي يؤمن ويأتمر وينتهي عن الشّهوات إنّما يفعل ذلك لخوف الآخرة ومن لم يخف فلا رادع له.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾

(كلّا) أي فلينتهوا عن كفرهم هذا وعن طلبهم أن يؤتى كلّ واحد كتاباً **(إنّه)** أي أنّ القرآن **(تذكرة)** للجميع ولكافة النّاس **(فمن شاء)** الهداية والنّجاة من عذاب السّعير **(ذكره)** أي آمن به وعمل به ليفوز بسعادة الدّنيا والآخرة **(وما يذكرون)** أي لا يتمسّكون بهذا القرآن وإن شاؤوا **(إلّا أن يشاء الله)** تذكّرهم وهدايتهم، فالمعنى إنّ مشيئة العبد للهداية أو الضّلالة لا توجدهما إلّا أن ينضمّ إلى ذلك مشيئة الله تعالى ذلك، وهذا دليل لأهل السّنة والجماعة في قولهم: إنّ عمل العبد دائر بين إرادتين إرادة العبد وإرادة الله تعالى، فإرادة العبد للعمل سبب لثوابه أو عقابه وبإرادة الله تعالى يكون إيجاد العمل وخلقه **(هو)** أي أنّ الله وحده **(أهل التّقوى)** أي أهل لأن يتقّى فيطاع أمره ويجتنب عمّا نهى عنه **(وأهل المغفرة)** وهو أهل لأن يغفر للعبد التّقيّ أو لم يتّق إذا

كان مؤمناً وبشرط أن يتّقي ويتوب عن الكفر والشّرك إن كان كافراً أو مشركاً. هذا ما استطعنا أن نكتب في تفسير هذه السّورة، ونرجو من الله تعالى الصّواب والثّواب وهو على كلّ شيء قدير ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

سورة القيامة

(مكيّة، نزلت بعد القارعة، آياتها أربعون، سمّيت بالقيامة لما فيها قوله تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١﴾

لا أقسم فيه أربعة أوجه:

الأوّل: أنّ لا زائدة جيئ بها لتأكيد القسم.

الثّاني: أنّ لا تنفي ما يقول الكافرون، فمعناه: ليس الأمر كما تقولون من أنّ الإنسان لا يبعث بعد الموت، أقسم بيوم القيامة أنّه يبعث.

الثالث: أنّ لا للنّفي، فمعناه: لا أقسم على هذا الأمر فإنّه أمر يعلمه كلّ عاقل، فلا يحتاج إلى القسم والحلف عليه.

الرّابع: أنّه قرأ (**لا أقسم**) فاللّام لجواب القسم المحذوف، تقديره فبعزّتي (**لا أقسم بيوم القيامة**) اليوم الّذي يقوم فيه النّاس من قبورهم ويذهبون إلى ساحة الحشر والحساب. فالقيام مصدر قام ألحقت به تاء التّأنيث لجعله اسماً لذلك القيام المخصوص، وإضافة اليوم إليه إضافة الظّرف إلى مظروفه، مثل غرفة الكتب أو صندوق النّقود، والقسم به للإشارة إلى أنّه موجود ويوم عظيم، وإنّ نفسه يشهد ويدلّ على وجوده، فإنّ كلّ عاقل إذا عرف معنى يوم القيامة بأنّه اليوم الّذي يحاسب فيه العباد في أعمالهم فيثاب المطيع على إطاعته، ويعاقب العاصي على عصيانه، آمن بذلك لأنّه لا تتحقّق عدالة الله تعالى ولا الفرق بين العمل الصّالح والعمل الفاسد لو لم يأت ذلك

اليوم، وهذا محال فيجب أن يأتي ذلك اليوم.

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾

وهي النّفس الّتي تلوم كثيراً نفسها وغيرها على بعض الأعمال، وجواب القسمين محذوف يدلّ عليه ما بعده وهو قوله تعالى: **(أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه)** أي أيحسب الإنسان أنّه لا يبعث ولا يحيا بعد الموت، فالتّقدير لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنّفس اللّوامة لتبعثنّ ولتحشرنّ للحساب **(أقسم بالنّفس اللّوامة)** لأنّ النّفس اللّوامة تثبت مجيء يوم القيامة، وذلك لأنّها لا تحسّن كلّ عمل ولا تقبّح كلّ فعل بل تحسّن بعضها وتقبّح بعضها، وتحكم بأنّ الحسن يجب أن يثاب المرء عليه والقبيح يجب أن يعاقب الفاعل عليه، وحيث إنّ الثّواب والعقاب لا يوجدان في الدّنيا فإنّ كثيراً من الصّالحين يموتون دون أن ينالوا أيّ ثواب على صلاحهم، وكثيراً من الجناة يموتون قبل أن يعاقبوا على جناياتهم، فلو ذهب الإثنان وماتا ولم يأت يوم ينال فيه الصّالح ثواب صلاحه والمجرم عقاب جريمته لم تتحقّق عدالة الله تعالى وهو محال، كما ولا يوجد فرق بين الأعمال صالحها وفاسدها، فلا بد من أن يأتي ذلك اليوم وهو يوم القيامة.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾

الاستفهام للتّقريع والتّكذير ومعناه: أيحسب ويظنّ الإنسان أنّا لا نحييه ولا نبعثه، وذكر بهذا العنوان لأنّ منشأ وسبب إنكار الإنسان للبعث والحياة بعد الموت هو أنّه يقول كيف تجمع هذه العظام المتفرّقة؟ وكيف تحيا وهي بالية لا يشمّ فيها أي رائحة للحياة؟ فكيف يسري فيها الحياة وذلك مثل ماقاله تعالى: **(أولم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم*)** سورة يس الآيتان/٧٧،٧٨. فتقدير الآية: يظنّ الإنسان أنّه لا يبعث لأنّ عظامه بليت وتفرّقت، فكيف تجمع وكيف تسري فيها الحياة وهي بالية؟، ثمّ ردّ الله تعالى على ظنّه هذا فقال جلّ وعلا: **(بلى)** أي بلى نجمع عظامه ونحييه حال كوننا **(قادرين)** على أصعب من جمع العظام فنقدر **(على أن نسوّي بنانه)** أي على أن نجمع بنانه من عظامها وأعصابها ونجعلها مستوية كما كانت أوّل خلقها، فإذا قدرنا على جمع هذه

الأشياء الدّقيقة فنحن على جمع العظام أقدر، وهذا بالنّسبة إلى ظنّ الإنسان وإلّا فقدرة الله تعالى بالنّسبة إلى كلّ شيء سواء، ولا صعب ولا سهل بالنّسبة إلى قدرته، بل كلّ شيء عنده سهل ليس بصعب **(بل) أي** الإنسان في إساءته لظنّه أنّ الله لا يجمع العظام ترقى إلى أسوأ من ذلك، وهو تصريحه وإعلانه عمّا في قلبه، فإنّه **(يريد أن يفجر)** أي أن يكذب **(أمامه)** أي ما يأتيه في المستقبل وهو يوم القيامة، فإنّه يقول استهزاءً **(ويسأل)** تعنّتاً **(أيّ ـ ان)** أي متى يأتي يوم القيامة؟ يريد أنّه لا يأتي والقول بمجيئه باطل، فأجاب الله تعالى عن سؤاله بما فيه من تهديد ووعيد شديد فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾

(فإذا برق البصر) أي خشع وابيض من الخوف والحيرة والدّهشة؛ وذلك حينما نفخ في الصّور **(وخسف القمر)** أي ذهب نوره **(وجمع الشّمس والقمر)** فأزيلا عن مكانهما فألقيا في البحر فجعلا ناراً **(يقول الإنسان)** من الدّهشة والحيرة **(يومئذٍ)** أي يوم إذ وقعت هذه الأمور **(أين المفرّ)** من هول ذلك اليوم وشدّته، ويطلب ملجأً يلتجيء إليه؛ فيجب في ذلك اليوم من قبل الملائكة فيقال له كما قال جلّ وعلا:

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾

(كلّا) أي فلينزجر الإنسان فإنّه **(لا وزر)** أي لا ملجأ ولا مفرّ للإنسان من شدّة ذلك اليوم وأهواله بل **(إلى ربّك يومئذٍ المستقرّ)** أي الرّجوع والوقوف بين يديه **(ينبّؤ الإنسان)** أي يخبر الإنسان **(يومئذٍ بما قدّم)** من أعمال فعملها من خير وشرّ **(وأخّر)** أي وترك أعمالاً فلم يعملها من الحسن أو القبح.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾

(بل) أي بل لا يحتاج الإنسان إلى أن يخبر بأعماله فإنّ **(الإنسان)** كلّ فرد منه **(على نفسه بصيرة)** أي شاهدة، والتّاء ليست للتّأنيث بل للمبالغة كتاء علامة **(ولو ألقى معاذيره)** ولو أنكر أعماله وأظهر الأعذار لا يفيده ذلك؛ لأنّه تشهد عليه أعضاؤه

وجوارحه بما فعل، فحينئذٍ يبدأ الإنسان بتلاوة كتابه فيسرع في الإحصاء والتّعداد حياءً وخجلاً، أو ليترك بعضاً منها فيقال له من قبل الملائكة:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

لا تحرّك به لسانك أي لا تحرّك بتلاوة سجلّ أعمالك أو تعداد أفعالك **(لتعجل به)** أي لتسرع بالتّلاوة والتّعداد حياءً وخجلاً، أو لإخفاء بعض منها فإنّه ليس من وظيفتك تلاوة كتابك بل **(إنّ علينا جمعه)** أي من وظيفتنا **(جمعه)** أي جمع ما في كتابك من الأعمال **(وقرآنه)** أي وقراءته عليك **(فإذا قرآناه)** عليك فاتّبع **(قرآنه)** بالإعتذار أو الإنكار إن استطعت **(ثمّ إنّ علينا)** أي من وظيفتنا **(بيانه)** أي إثباته ما في الكتاب بحيث لا تستطيع إنكاره أو إخفاءه. هذا ما سنح بالبال من تفسير هذه الآية، ثمّ وجدت بعد ما كتبته أنّ الشّيخ عبدالقادر المغربي يذكر هذا المعنى عن القفّال، والمشهور في التّفاسير أنّ رسول الله (ﷺ) حينما كان يقرأ جبريل (ﷺ) عليه القرآن يسرع في قراءته ويستعجل فنزل **(لا تحرّك به)** أي بالقرآن **(لسانك لتعجل به)** فإنّ ذلك ربّما يوقعك في الخطأ وعدم حفظه، بل إستمع إلى قراءتنا عليك **(إنّ علينا جمعه)** أي إنّ من وظيفتنا جمع القرآن **(وقرآنه)** وقراءته عليك **(فإذا قرأناه)** ووعيت وعياً تاماً **(فاتّبع قرآنه)** أي إقرأه كما قرأنا عليك **(ثمّ)** أي بعد أن وعيته وحفظته جيّداً **(إنّ علينا بيانه)** أي من وظيفتنا بيان معانيه لك بإلقائها في قلبك وإلهامك إيّاها، والمعنى الأوّل أرجح من هذا المعنى؛ لعدم مناسبة هذا المعنى لما قبله وما بعده، وعدم انسجامه معهما.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

(كلّا) نفي لاعتذار العباد، أي ليس لكم كلّ عذر للإقدام على المعاصي **(بل)** إنّما تقدمون عليها لأنّكم **(تحبّون العاجلة)** أي الدّنيا وشهواتها فتعملون لها **(وتذرون)** أي تتركون **(الآخرة)** فلا تعملون لها ولا تقدّمون لها ما ينجيكم ويفيدكم فيها، وإن هذا خطأ عظيم وخسارة لا تعوض.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

(وجوه يومئذٍ) أي يوم إذ نبّئ الإنسان بما قدم وأخر **(ناضرة)** أي وضيئة من الفرح والسّرور **(إلى ربّها)** أي لأنّها إلى رحمة ربّها وهي الجنّة ودار النّعيم **(ناظرة)** أي منتظرة لما وجد من أعماله الحسنة في الكتاب والّتي هي علامة السّعادة ودخول الجنّة **(ووجوه يومئذ باسرة)** أي كالحة وعبوسة لأنّها **(تظنّ)** أي تنتظر **(أن)** أي أنّه **(يفعل)** بها أي يصيبها بليّة **(فاقرة)** تكسر فقار الظّهر، وذلك لأنّه رأى من أعماله السّيئة في الكتاب والّتي هي علامة الشّقاء ودخول النّار.

تنبيه: استدلّ أهل السّنة والجماعة بقوله: (إلى ربّها ناظرة) على ثبوت رؤية الله تعالى، لأنّهم فسّروا (إلى ربّها ناظرة) بقولهم: إلى ذات ربّها ناظرة فتنظر إليه وتراه. ولكنّ المعتزلة الّذين أنكروا وجود رؤية الله تعالى ففسّروا هذه الآية كما فسّرنا، وقالوا: إلى رحمة ربّها وهي الجنّة المنتظرة، فلا تكون هذه الآية دليلاً على ثبوت الرّؤية وعندي أنّ الرّؤية حقّ وثابتة بدلائل أخرى عقليّة ونقليّة ولكنّ هذه الآية لاتدلّ عليها لأنّ قوله: **(يومئذٍ)** أي يوم أن أخبر الإنسان بما قدّم وأخّر هو يوم المحشر وهو ليس وقت الرّؤية لأنّها تكون في الجنّة وبدليل قوله: (ووجوه يومئذ باسرة تظنّ أن يفعل بها فاقرة) فإنّه لو كان ذلك الوقت بعد دخول الجنّة أو النّار لما قال: تظنّ أنّ يفعل .... إلخ. لأنّه بعد دخول النّار لا يبقى الظنّ وانتظار العذاب، بل كان يقول: وجوه يومئذ باسرة إذ أصابتها فاقرة. فالحقّ أنّ المعنى إلى رحمة ربّها منتظرة. فلا تدلّ الآية هذه على ثبوت الرّؤية بل تدلّ على ثبوت الرّؤية دلائل أخرى من النّقل والعقل ذكرت في مسألة الرّؤية في كتب العقائد فمنها قوله (ﷺ): (إنّكم سترون ربّكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر)[1] هذا ولا مجال لتفصيل الأدلّة العقليّة والنّقليّة كلّها هنا لأنّ هذا البحث له مقام آخر.

❊ ❊ ❊

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾

(كلّا) أي فلينتهوا عن حبّ الدّنيا والعمل لها وترك الآخرة وعدم السّعي لها فإنّه

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٧٠٣ الحديث رقم ٦٩٩٩.

(إذا بلغت) الرّوح **(التراقي)** جمع ترقوة وهي عظام في أعلى الصّدر وهذا كناية عن حال النّزع والموت **(وقيل من راق)** قيل من أهله وأقاربه: من ذا الّذي يرقيه فيشفيه، أو قيل من قبل الملائكة: من الّذي يعرج بروحه إلى السّماء ملائكة الرّحمة او ملائكة العذاب **(إلى ربّك)** أي إلى الوقوف بين يدي ربّك أيّها المخاطب **(المساق)** أي سوقه، فالمعنى: بعد الموت يساق العبد إلى ربّه فيحاسب فلا يليق به أن ينسى الآخرة ويسعى كلّ السّعي للدّنيا ولا يعمل شيئاً للآخرة.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

(فلا صدّق ولا صلّى) أي يساق ذلك الّذي اختار الدّنيا على الآخرة وحاله أنّه لم يصدّق ولم يؤمن بالله ورسوله **(ولا صلّى)** ولم يؤدّ الصّلوات **(ولكن كذّب)** بالدّين وشريعة الله **(وتولّى)** أي أعرض عن الانقياد لأمر الله تعالى **(ثمّ ذهب إلى إهله يتمطّى)** يتبختر ويفتخر ويفرح ويمشي بكبرياء وخيلاء، وهذه الآية نزلت في أبي جهل لأنّه كان فيه هذه الصّفات، فتعمّ كلّ من اتّصف بهذه الصّفات. ثمّ هدّد الله تعالى كلّ من كان متّصفاً بهذه الصّفات من عدم الإيمان وترك الصّلاة ومن التّكذيب بالدّين والإعراض عن إطاعة شريعة سيّد المرسلين هدّده الله تعالى بقوله: **(أولى لك)** أي ويل وعذاب لك **(فأولى)** فويل آخر لك **(ثمّ أولى)** أي ثمّ ويل آخر لك **(فأولى)** فويل آخر لك، قيل: تكرار الوعيد بأولى أي الويل للتّأكيد، وقيل: الويل الأوّل حين الموت، والثّاني في القبر، والثّالث في الحشر، والرّابع في جهنّم، وهذا أصحّ من الأوّل لأنّه التّأسيس خير من التّأكيد، وأقول: يمكن أن نقول: أنّ الله تعالى ذكر للّذين يعملون للدّنيا ولا يعملون للآخرة أربع صفات هي: عدم التّصديق وترك الصّلاة والتّكذيب والتّولي، فأعدّه مقابل كلّ صفة بويل خاصّ وعذاب مخصوص فالمعنى **(أولى لك)** لأنّك لم تصدّق **(فأولى)** حيث لم تصلّ **(ثمّ أولى لك)** لأنّك كذبت **(فأولى)** حيث تولّيت هذا ... والله تعالى أعلم.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

(أيحسب الإنسان) الاستفهام للتّقرير أي ظنّ هذا الإنسان الّذي لم يصدّق ولم يصلّ بل كذّب وتولّى **(أن يترك)** أنّه يموت ويترك **(سدى)** أي مهملاً دون بعث وحساب. ثمّ ذكر الله تعالى الدّليل على بطلان هذا الظّنّ فقال: **(ألم يك)** أي لم يكن الإنسان حذف النّون من يكن للتّخفيف **(نطفةً)** أوّل الأمر وفي ظهر الوالد وقد حصلت هذه النّطفة **(من منيّ يمنى)** أي يقذف في رحم الوالدة حين الجماع **(ثمّ كان)** أي أصبح المنيّ في رحم الأمّ **(علقة)** أي كدمٍ متجمّدٍ يعلق باليد إذا مسّته **(فخلق)** أي فصوّر الله من هذه العلقة صورة الإنسان **(فجعل منه)** أي فجعل بعضه **(الذّكر)** وجعل بعضه **(الأنثى)**، **(أليس ذلك)** الخالق الّذي خلق هذا الخلق **(بقادر على أن يحيي الموتى)** ويعيد إليهم الحياة بعد الموت، بلى فمن قدر على الخلق أولاً قدر على الخلق والإعادة ثانياً بالطّريق الأولى لأنّه ليس الثّاني بأصعب من الأوّل.

تنبيــه: هذه الآيات دليل على إمكان البعث من وجوه: أمّا الوجه الأوّل فكما ذكرنا أن من خلق الإنسان أولاً وبهذا النّوع العجيب لقادر ولا يصعب عليه أن يعيد إليه الحياة مرّة ثانية في القيامة. وأمّا الثّاني فإنّ من خلق هذا الخلق العجيب لا يعقل أن يتركه دون نظم. والنّظام يقتضي الثّواب والعقاب ولأنّ ذلك لا يوجد كليّاً في الدّنيا فيجب أن يأتي يوم يبعث فيه العباد وينال كلّ إنسان جزاء عمله فإن خيراً فبالنّعمة والإحسان وإن كان شرّ فبالعذاب والتّنكيل وإلّا فلا تتحقّق عدالة الله تعالى ويكون وضع النّظام دون جدوى. وذلك محال وتعالى عنه الله العزيز العليم فالله تعالى يبعث الأنام ويجب علينا أن نعمل ونسعى لحسن الختام.

❊ ❊ ❊

سورة الإنسان

(مكية، نزلت بعد الرّحمن وآياتها إحدى وثلاثون، سمّيت بالإنسان لما فيها قوله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان﴾).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾

(هل) للاستفهام، والاستفهام هنا للتّقرير فمعناه قد **(أتى على الإنسان)** أي على كلّ فرد من أفراد الإنسان **(حين من الدّهر)** أي برهة من الزّمان وهو **(لم يكن شيئاً مذكوراً)** أي شيئاً موجوداً يذكر ويخبر عنه، وذلك أنّ كلّ الإنسان معدوم ثمّ يوجد ويولد من الوالدين أو من والدة فقط كسّيدنا عيسى (ﷺ) أو من الوالد فقط كحواء أو بلا والد ووالدة كآدم **(إنّا خلقنا الإنسان)** غير آدم وحواء وعيسى **(من نطفة)** وهي المنيّ **(أمشاج)** أي مختلط من منيّ الرّجل والمرأة **(نبتليه)** أي نختبره ولذلك **(فجعلناه سميعاً)** ليسمع آياتنا القوليّة **(بصيراً)** ليرى آياتنا الكونيّة لننظر هل يسمع آياتنا القوليّة؟ فيعمل بها وهل يبصر آياتنا الكونيّة؟ فيتفكر فيها ويؤمن بخالقها، أو يعرض كالأصمّ والأعمى فلا يهتدي للآيات القوليّة ولا للآيات الكونيّة **(إنّا هديناه السّبيل)** أي إنّا أرشدناه وبيّنا له سبيل الخير والشّر ووهبناه القدرة على سلوك سبيل الخير وسلوك سبيل الشّر ثمّ جعلنا الاختيار بيده فبعد ذلك **(إمّا شاكراً)** أي إمّا يكون شاكراً لربّه فيسلك سبيل الخير وما أمر الله تعالى به **(وإمّا كفوراً)** أي وإمّا يكون كافراً بنعمة الله عليه فيسلك سبيل الشّرّ وما نهى الله تعالى عنه.

ثمّ بعد ذلك بين الله تعالى مصير كلّ منهما، وذكر لكلّ من الشّاكر والكفور عاقبةً وجزاءً على سلوكهما، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾

(إنّا أعتدنا) أي إنّا هيّأنا في يوم القيامة **(للكافرين سلاسل)** قيوداً يسحبون بها إلى جهنّم **(وأغلالاً)** قيوداً تشدّ بها أيديهم وتضمّ إلى أعناقهم **(وسعيراً)** أي ناراً موقدة يدخلونها.

ثمّ بعد أن ذكر حال الكافرين ذكر حال المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾

(إنّ الأبرار) جمع بر بفتح الباء وهو من يعمل البرّ، أمّا بكسر الباء وهو كلّ عمل صالح موفق للشرع ومأذون فيه من قبل الله تعالى **(يشربون كأساً)** أي من كأس وهي الخمر أو الزجاج الّذي فيه الخمر **(كان مزاجها)** أي ما يخلط بالخمر حين الشّرب لتكسير شدّتها **(كافوراً)** أي ماء كافوراً **(عيناً)** حال من كافوراً أي أنّ ذلك الكافور **(عيناً يشرب بها)** أي منها عباد الله **(يفجّرونها تفجيراً)** أي يخرجون منها الماء بدون صعوبة.

سؤال: إنّ الخمر نجس ومسكر فكيف يشربها المؤمنون في الجنّة؟

الجواب: إنّ الخمر نجس لأنّها مسكرة وخمر الجنّة لا تسكر فليست نجسة فيها لذّة الفرح والانتعاش وليس فيها السّكر وزوال العقل.

ثمّ بيّن الله تعالى سبب هذا التّكريم الّذي يكرم به الأبرار في الجنّة فقال جلّ وعلا:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾

(يوفون بالنّذر) أي يؤدون ما أوجبوا على أنفسهم بالنّذر، ومن أدّى ما أوجبه بنفسه يكون مؤدّياً لما أوجبه الله تعالى عليه بالطّريق الأولى فيفيد أنّهم يؤدّون الواجبات البدنيّة والماليّة والمركّبة منهما جميعاً **(ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً)** أي مكان عذابه وشدّته منتشرة، وهذه الجملة تفيد أنّهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، فإنّ الخوف من هذا اليوم لا يكون إلّا بعد الإيمان به والإيمان به يستلزم الإيمان بالله تعالى، وتفيد هذه الجملة أيضاً الكف عن المحرمات وعدم ارتكابها لأنّ ذلك من لوازم الخوف من عذاب ذلك اليوم. فجمعت هذه الآية أمور الإسلام كلّها من الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر ومن أداء الواجبات والاجتناب عن المحرّمات فأفادت إنّ الأبرار هم الّذين يقومون بهذه الأمور، ثمّ ذكر الله تعالى أنّهم زيادة على ذلك يعلمون فضائل أخرى فقال: **(ويطعمون الطّعام على حبّه)** قيد إطعام الطّعام بقوله: **(على حبّه)** أي وقت حبّ الطّعام وهو حينما يكون الطّعام قليلاً أو غالياً. فإنّ الإطعام في وقت الرّفاه والرّخص وإن كان من مكارم الأخلاق إلّا أنّه لا يساوي الإطعام وقت حبّه في الأجر والثّواب، وقيّده أيضاً بقوله: **(مسكيناً ويتيماً وأسيراً)** أي يطعمون المستحقّين والمحتاجين إلى الطّعام، فيفيد أنّ الّذين يبسطون الموائد للأغنياء وغير المحتاجين لا يعد ذلك من أعمال البرّ الّتي يستحقّ المرء به الثّناء والثّواب عليها. **(إنّما نطعمكم لوجه الله)** أي يقولون لمن أطعمهم **(إنّما نطعمكم لوجه الله)** أي لطلب الثّواب من الله تعالى **(لا نريد منكم جزاءً)** مقابل هذا الإطعام **(ولا شكوراً)** ولا نطلب ثناء على ذلك منكم، فتفيد الآية أنّ كلّ عمل يرجى منه الثّناء في الدّنيا أو المكافأة من النّاس لا يكون من أعمال البرّ الّتي تورث الثّواب عند الله تعالى. قالت السّيدة عائشة (رضي الله عنها): [كنّا] أي نحن أمّهات المؤمنين حينما نتصدّق على فقير نرسل وراءه من يدعو له كلّما دعا لنا لكي لا يكون دعاؤه عوضاً عن الصّدقة فيقلّ أجرها أو كما قالت، **(إنّا نخاف من ربّنا)** أن يعذّبنا **(يوماً)** في يوم يكون **(عبوساً)** أهله من خوف العذاب **(قمطريراً)** أي شديد العبس، فأفادت الآية أنّ الإطعام كان لسببين: طلب الثّواب من الله وخوف العذاب، وبهذين الأمرين يتمّ الإخلاص في الأعمال كلّها وبدون الإخلاص لا فائدة في كلّ عمل.

تنبيه: ليس المراد بالإطعام خصوص الإطعام بل المراد به مواساة الفقراء والمحتاجين سواء كان بالإطعام أو الإكساء أو الإسكان أو إعطائهم المال أو القوّة أو الجاه ومساعدتهم فيما يحتاجون إلى المساعدة، وكذلك ليس المراد بالإطعام لليتامى والمساكين والأسرى فقط، بل المراد كلّ من كان محتاجاً إلى المساعدة والمواساة وإنّما

ذكر هؤلاء لأنّ الغالب أنّ هؤلاء يحتاجون إلى مواساة النّاس فأصبحوا رمزاً للمحتاجين والمعوزين.

* * *

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾

(فوقاهم الله) أي فحفظهم الله تعالى بسبب هذه الأعمال والأخلاق **(شرّ)** أي شدائد **(ذلك اليوم)** يوم القيامة **(ولقاهم)** أي وأعطاهم بدل العبس **(نضرةً)** وضاءة في وجوههم **(وسروراً)** في قلوبهم وهما متلازمان فكلّ من سرّ نضر وجهه **(وجزاهم بما صبروا)** بسبب ما تحمّلوا المشقّة والأذى في سبيل أداء الواجبات والاجتناب عن المحرّمات، فإنّ هذه الأعمال ثقيلة على النّفس جدّاً فمن لم يتحمّل هذا الثّقل ولم يلجم جماح نفسه بلجام الشّريعة لا يستطيع الإتيان بها فبذلك ينال مشقّة شديدة **(جنّة وحريراً)** ذكر الجنّة والحرير للتّعظيم، فالمعنى: جنّة وحريراً لايدرك كنههما لأنّهما عظيمان جدّاً **(متكئين)** أي متمدّدين **(فيها)** أي في الجنّة **(على الأرائك)** جمع أريكة وهي السّرير **(لا يرون فيها)** في الجنّة **(شمساً)** أي حرّاً **(ولا زمهريراً)** أي ولا برداً فهواء الجنّة سجسج أي لا حارّ ولا بارد. وقيل معناه: لا يرون فيها شمساً ولا قمراً فإنّ الزّمهرير يقال للقمر، بل الإشراق في الجنّة بنور خاصّ يخلقه الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربّها﴾ سورة الزمر الآية/ ٦٦٩. والمعنى الأوّل أصحّ لأنّ المقام تعداد النّعم ومعنى النّعمة في عدم وجود الحرّ والقرّ واضح، لكنّه لا يفهم معنى النّعمة في عدم حصول الشّمس والقمر بل إنّهما نعمتان.

(دانية) ودانيةً أي قريبةً ومدلاة **(عليهم)** على الأبرار **(ظلالها)** أي غصون أشجارها (و) بسبب هذا القرب **(ذلّلت قطوفها)** أي سهلت جنى ثمارها **(تذليلاً)** تسهيلاً كاملاً بحيث لا يتعبون في تناول الثّمار وجنيها أبداً.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾

(ويطاف) أي وتدار عليهم المشروبات **(بآنيةٍ)** أي في آنيةٍ **(من فضّةٍ)** أحياناً. **(وأكواب)** أي وبعض الأحيان من أكواب **(كانت قواريرا)** جمع قارورة وهي ما يستقرّ فيها الشّراب، ولا يسمّى الشّيء بالقارورة إلّا إذا كان من الزّجاج **(قوارير من فضّةٍ)** معناه أنّها وإن كانت من فضّةٍ إلّا أنّها لصفائها وعدم منع ما وراءها من الرّؤية أصبحت زجاجاً أو كالزّجاج فصحّ تسميتها قوارير **(قدورها)** أى قدر تلك الأكواب الطّائفون وهم السّقاة قدورها بقدر ما يروي الشّارب **(تقديراً)** كاملاً لا زيادة فيها ولا نقصان.

سؤال: قد سبق أنّ الأبرار يشربون كأساً كان مزاجها كافوراً بأنفسهم بقرينة قوله: **(يفجرونها تفجيراً)** أي يجرون منبع هذا الكافور أينما شاؤوا، وهنا يفيد أنّهم يشربون الشّراب من أيدي السّقاة فكيف التّوافق بين هاتين الآيتين؟.

الجواب: إنّهم يشربون بأنفسهم من منابع يجرونها معهم في حالة الإنفراد، وأمّا إذا اجتمعوا فيشربونها من أيدي سقاة يطوفون عليهم كما ترى ذلك في الدّنيا أنّ المرء يشرب بنفسه إذا كان وحده، وإذا اجتمعوا يدار عليهم من قبل السّاقي.

* * *

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

(ويسقون فيها كأساً) أي خمراً **(كان مزاجها)** ما يمزج **(زنجبيلاً)** وفسّر الزّنجبيل بقوله: **(عيناً فيها تسمّى سلسبيلاً)** أي أن شرابها تنزل في الحلق بسلاسة وسهولة، فظهر في هذه الآيات أنّ الأبرار يشربون من كأس ممزوجة بالكافور أحياناً، وممزوجة بالزّنجبيل أحياناً، وأحياناً بدون مزج إن حمل ما في الآنية والأكواب على الخمر أيضاً، فتكون حالات شربها ثلاثاً، وإن حمل على غيرها من المشروبات فتنحصر حال شربها على حالتين فقط.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾

(ويطوف عليهم) للخدمة **(ولدان مخلّدون)** قيل: معناه لا يموتون، وقيل: لا يشيبون، وقيل: المخلّد بمعنى المقرط والمسوّر أي في آذانهم الأقراط وفي أيديهم الأسورة أي مزيّنون بالحلي، هذا. وعندي أنّ كلّ من في الجنّة مخلّد، فالإخبار بخلودهم لا فائدة فيه، وكذلك الإخبار بعدم المشيب لا يفيد، لأنّ أهل الجنّة لا

يشيبون، وأمّا أنّهم مزيّنون بالأقراط والأسورة فحسن إلّا أنّ الأحسن من هذه المعاني كلّها أن نقول المخلد مشتقّ من الخَلَد بفتحتين وهو القلب، ويعبّر بالقلب عن العقل. قال تعالى: ﴿لمن كان له قلب﴾ سورة ق الآية/٣٧. أي عقل وتفكير، فالمعنى مؤدّبون معقّلون أصحاب الفهم يعرفون كيفيّة الخدمة وتحسينها. هذا ما سنح بالبال ويؤيّد ما قلت أنّه تعالى يصفهم بالجمال بقوله: **(إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً)** أي أذا رأيتهم ضننتهم لحسنهم وجمالهم أنّهم لؤلؤ منثور، أي غير منظّم في العقد لأنّ اللّؤلؤ أفراداً أحسن من اللّؤلؤ المنتظم فيكون قوله: **(مخلّدون)** وصفاً بالكمال، حيث لا فضل في الجمال بدون كمال، كما لا فضل للكمال بدون جمال، فتمّ بما قلنا جمالهم وكمالهم والله أعلم.

تنبيه: إنّ هؤلاء الولدان خلقوا في الجنّة لخدمة أهلها فقط ولذّتهم في الخدمة فحسب، وهم ليسوا أولاد الدّنيا؛ فإنّ أولاد الدّنيا يدخلون الجنّة تكريماً والإستخدام ينافي التّكريم، وليس لهؤلاء الولدان طبيعة الجنس.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾

(وإذا رأيت ثمّ) أي ذلك المكان وهو الجنّة **(رأيت نعيماً)** أي نعيماً كثيراً بقرينة التّنوين فإنّ التّنوين للتكثير أو للتّكبير والمناسب للنّعيم التّكثير **(وملكاً كبيراً)** واسعاً **(عاليهم)** أي عالي أهل الجنّة وفوقهم **(ثياب سندس خضر)** ذلك السّندس **(وإستبرق وحلّوا)** أي ألبسوا الحلي وهو **(أساور من فضّة وسقاهم ربّهم)** قيل بواسطة الملائكة وقيل بدون واسطة **(شراباً طهوراً)** أي بالغاً في الطّهارة مرتبة عالية، فإن قيل: قال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ سورة الكهف الآية/٣١، وهنا يقول: (وحلّوا أساور من فضة) فكيف التّوفيق بين الآيتين؟ قلنا: الاختلاف إمّا بحسب الدّرجات فبعضهم حليتهم من ذهب وبعضهم من فضّة، وإمّا بحسب الاختيار، فبعضهم يلبسون ذهباً وبعضهم فضّةً، وإمّا بحسب الأوقات، فبعض الأوقات يلبسون ذهباً وبعضها فضّةً، وبكلّ هذه المعاني يتمّ التّوفيق **(إنّ هذا)** أي ويقال لهم من قبل الملائكة، إنّ هذا

النّعيم والملك الكبير **(كان لكم جزاءً)** كان جزاءً لكم على أعمالكم **(وكان سعيكم مشكوراً)** مقبولاً عند الله تعالى.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾

بعدما ذكر الله تعالى حال الكافرين من السّحب بالسّلاسل والغلّ بالأغلال، وحال الأبرار بما مرّ من النّعيم الكثير والملك الكبير والعيش الرّغيد أكّد وقوع هذا العقاب والثّواب بقوله: **(إنّا نحن نزّلنا عليك القرآن)** الّذي يخبر عن هذه الأمور **(تنزيلاً)** لا شكّ فيه، وإنّ هذا الأمر محكم لا يعتريه نسخ ولا تبديل، خوطب الرّسول (ﷺ) بهذا ليثبت قلبه ولإطمئنانه، أو المراد بالخطاب غير الرّسول إلّا أنّه وجّه إلى الرّسول (ﷺ) ليبلّغهم **(فاصبر لـ)** أي فاصبر على امتثال **(حكم ربّك)** وأوامر ربّك **(ولا تطع منهم)** أي من الكافرين **(آثماً)** أي الّذين يقعون في الإثم والمعاصي فيدعونك ويطلبون منك مشاركتهم فيها **(أو كفوراً)** أي الّذين يكفرون فيريدون أن تكون على عقيدتهم من الكفر والشّرك بالله تعالى.

تنبيه: إنّ الكافرين والفاسقين يحاولون بكلّ وسيلة أن يزحزحوا المؤمنين عمّا هم عليه من الإيمان والنّزاهة من الكفر والمعاصي، فخاطب الله تعالى رسوله، وأراد بذلك المؤمنين، خاطبهم وطلب منهم الثّبات على الإيمان والطّاعة، وأن لا يطيعوا غيرهم من الفسقة والكفرة فيقعوا فيما هم فيه من الفسق أو الكفر، وحيث لا يمكن الثّبات على العقيدة إلّا بقوّة القلب وشدّة العزم، وذلك يحصل بالذّكر والعبادة والشّعائر الدّينيّة أمر الله تعالى بذلك فقال تعالى: **(واذكر اسم ربّك بكرة وأصيلاً)** أي ودم على ذكر اسم ربّك في الصّباح والمساء وما بينهما في جميع الأوقات، فإنّ ذلك يقوّي قلبك ويقوى إيمانك ويحفظك من الزّلة والوقوع في الخطايا **(ومن اللّيل)** أي في اللّيل **(فاسجد له)** فصلّ لربّك **(وسبّحه)** وداوم على تسبيحه **(ليلاً طويلاً)** أي طول اللّيل وحسب الاستطاعة.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

كان رسول الله (ﷺ) يلاقي أذىً كثيراً من المشركين فيضيق صدره إلى حدّ كان

يدعو على بعضهم بالهلاك والفناء، فهدّأ الله تعالى من عصبيّته وأمره بالصّبر إلى أن يأتي ميعادهم فقال تعالى: **(إنّ هؤلاء)** أي الّذين يعادونك ويعادون الإسلام يحبّون **(العاجلة)** أي الحياة العاجلة وهي الحياة الدّنيا ويسعون لها سعيها **(ويذرون)** أي ويتركون **(وراءهم يوماً ثقيلاً)** وهو يوم القيامة فلا يعملون لها. **(نحن خلقناهم)** أي أوجدناهم **(وشددنا)** وقوّينا **(أسرهم)** أي خلقهم وبنيتهم **(وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم)** أي أهلكناهم وخلقنا أمثالهم في شدّة الخلق والبنية **(تبديلاً)** تأكيد أي تبديلاً تامّاً. وفي لفظ **(إذا)** وعد للرسول بإهلاكهم لأن **(إذا)** يدخل على ما هو محقّق وجوده بخلاف **(إنّ)** فإنّه يدخل على ما يشاك في وقوعه، وقد حقّق الله تعالى وعده فأهلك هؤلاء جميعاً.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾

(إنّ هذه) أي إنّ هذا القرآن وتأنيثه باعتبار قوله: **(تذكرة)** أي موعظة أو الإشارة إلى السّورة أي إنّ هذه السّورة **(تذكرة)** أي موعظة **(فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلاً)** أي فمن أراد الجنّة وما فيها من النّعيم **(اتّخذ)** أي سلك **(إلى ربّه)** إلى رحمة ربّه **(سبيلاً)** وهو سبيل الأبرار الّذي مرّ ذكرهم **(وما تشاؤون)** أي وليس مشيئتكم كافية للنّجاة والفوز والفلاح **(إلّا أن يشاء الله)** أي أن يشاء الله هدايتكم وفلاحكم وتنضمّ مشيئته تعالى إلى مشيئتكم، وهذا دليل على قول أهل السّنة والجماعة بأنّ عمل العبد دائر بين مشيئتين: مشيئة الله تعالى، ومشيئة العبد، فمشيئة العبد هي مدار الثّواب والعقاب ومشيئة الله هي مدار الخلق والإيجاد **(إنّ الله كان)** ولا يزال **(حكيماً)** لايعمل شيئاً بدون حكمة **(عليماً)** بكلّ شيء، وكما تحقّق فيه الحكمة والمصلحة وبهذه الحكمة ووفق المصلحة يعمل الله تعالى، أي ووفق الحكمة والمصلحة **(يدخل من يشاء في رحمته)** أي في جنّته **(والظّالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً)** أي مؤلماً، وفي كلّ ذلك حكمة ومصلحة يدركها من يدركها ويجهلها من يجهل ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شاء﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٥، فالحقّ التّسليم والانقياد لأمر الله والإيمان بما ورد من الله بدون تردّد وسؤال، وبذلك تحصل سعادة الدّنيا والآخرة، هذا وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

سورة المرسلات

(مكيّة، نزلت بعد الهمزة، وآياتها خمسون، سمّيت بالمرسلات لقوله تعالى: ﴿والمرسلات عرفاً﴾).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

(والمرسلات) أي والرّياح الّتي أرسلت **(عرفاً)** أي وتأتي متتابعة **(فالعاصفات)** أي فالرّياح الّتي تعصف أي تشتدّ **(عصفاً)** اشتداداً كثيراً يخاف النّاس من شدّتها **(والنّاشرات)** أي فالرّياح الّتي تنشر أمطاراً في الدّيار والبلاد حسب ما أراد الله تعالى **(فالفارقات)** أي فالرّياح الّتي تفرّق بين السّحب وتبدّدها **(فرقاً)** تفرّقاً وتبدّداً شديداً **(فالملقيات)** أي فالرّياح الّتي تلقى بعصفها ونشرها وفرقها **(ذكراً)** أي موعظةً، وذلك لأنّ النّاس يخافون من الرّياح ؛لأنّ أكثر عذاب الأمم وهلاكهم كان بالرّياح، وكذلك يرجون من الرّياح أن تأتي بالسّحب والمطر حين الحاجة إلى الأمطار **(عذراً)** أي يكون ذلك الذّكر والخوف من الرّياح والطّمع فيها **(عذراً)** سبباً لأن يتوب المؤمنون فيعذرهم الله تعالى عذراً **(أو نذراً)** أو سبباً لتخويف المجرمين بالعذاب **(إنّما توعدون)** من يوم القيامة **(لواقع)** أي ليقع ويأتي، عبّر عنه باسم الفاعل الّذي هو للحال لأنّ ما يتحقّق وقوعه فكأنّه واقع، أقسم الله تعالى بهذه الرّياح على أنّ القيامة تأتي وتقع، ولكنّ هذا القسم في الحقيقة دليل وبرهان عقليّ على مجيء هذا اليوم وحتميّته وصورة الدّليل هكذا: أنّ تلك الرّياح الّتي ترسل وتأتي متتابعة فتعصف وتشتدّ اشتداداً يخاف النّاس من شدّته والّتي تنشر

الأمطار في الدّيار والبلاد حسب ما أراد الله تعالى، والّتي تفرّق بين السّحب وتبدّدها والّتي تلقي بهذه الاعمال ذكر وموعظة إلى النّاس، ويكون ذلك الذّكر سبباً لتوبة المؤمنين وقبول توبتهم وعذرهم من قبل الله تعالى **(أو نذراً)** أو يكون سبباً لتخويف الكافرين بالهلاك، فهذه الرّياح وما يتبعها من التّبديل والتّغير والإزالة والتّصريف والإبداء والإعادة من انقلاب الأجزاء المائيّة بخاراً وصعودها إلى السّماء وتكوينها سحباً، ودفع الرّياح تلك السّحب إلى حيث شاء الله تعالى، ثمّ إعادة تلك الأجزاء مياهاً ونزولهما أمطاراً إلى الأرض، لتشهد وتدلّ على أنّ إعادة الحياة إلى الموتى أمر ممكن ليس بمستحيل، لأنّ كلّ ما يرى الإنسان من الرّياح والأمطار إبداء وإعادة، هذا من جهة ومن جهة أخرى حينما نظر الإنسان إلى هذا النّظام المتقن نظام الرّياح والسّحب والأمطار يعترف بأنّ هذا النّظام المتقن لا يوجد إلّا من صانع حكيم وقادر عليم، وبأنّ من قدر على خلق وإيجاد هذا النّظام لقادر على أن يحيي الإنسان بعد موته، وأنّ من وضع هذا النّظام التّكويني لابد وأن يضع نظاماً تكليفيّا للنّاس يحاسبون على وفقه، وحيث لا يوجد هذا الحساب في الدّنيا فيجب أن يأتي يوم لذلك وذلك هو اليوم الموعود، فثبت أنّ ما توعدون من مجيء ذلك اليوم **(لواقع)** بدون شكّ وارتياب.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض ما يقع في ذلك اليوم ويجري على هذا الكون فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾

(فإذا النّجوم طمست) أي فإذا أزيل نور النّجوم وهذا إشارة إلى زوال ذوات النّجوم لأنّها خلقت للإنارة، فإذا ذهبت إنارتها ذهبت ذواتها أيضاً حيث لم تبق فائدة في بقائها بدون إنارة **(وإذا السّماء فرجت)** أي انشقّت فصار فيها فرج وشقوق **(وإذا الجبال نسفت)** أي جعلت غباراً وهباءاً منثوراً **(وإذا الرّسل)** أي رسل البشر **(أقّتت)** أي جعل لجمعهم وقت معلوم للشّهادة على أممهم، أو المراد رسل الملائكة يؤجّلون إلى يوم الحشر فيرسلون لجمع النّاس للحساب ثمّ سوقهم إلى الجنّة أو النّار، و **(أقّتت)** أصله وقّتت من التّوقيت قلبت الواو همزة وقرىء بها أيضاً، وهنا مظنّة لأن يسأل سائل: إنّ

الرّسل لأيّ وقت أجّلت، فاظهر الله تعالى ذلك السّؤال فقال **(لأيّ يوم أجّلت)** أي لأيّ يوم **أجّلت** الرّسل فأجاب الله تعالى فقال: **(ليوم الفصل)** أي ليوم يفصل فيه بين النّاس. ثمّ استفهم الله تعالى عن ذلك اليوم لتهويله وتعظيمه فقال **(وما أدرك)** وما أعلمك ما يوم الفصل، ومعناه: لا تدري شدّة ذلك اليوم وهوله لأنّ شدّة هوله وكثرة عظمته فوق إدراك النّاس **(ويل)** أي عذاب شديد **(يومئذٍ)** يوم إذ جاء ذلك اليوم يقع **(للمكذّبين)** بالله وبذلك اليوم وبما جاء به الرّسول من عند الله تعالى. وهذه الجملة تعاد في هذه السّورة مراراً، فقيلك إنّ إعادتها للتّأكيد، وقيل: إنّ ذكرها في كلّ موضع للوعيد لمن كذّب بما ذكر قبلها، وهذا هو الأصحّ لأنّه ثبت في قواعد البلاغة أنّ التّأسيس أي إعادة الشّيء لمعنى جديد أحسن من التّأكيد.

ثمّ لمّا هدّد الله تعالى المكذّبين وخوّفهم بعذاب الآخرة أراد أن يهدّدهم بعذاب الدّنيا أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

(ألم نهلك الأوّلين) في الدّنيا نتيجة كفرهم وتكذيبهم للرّسل، وهم قوم نوح (عليه السلام) والاستفهام للتّقرير، فالمعنى إنّا أهلكنا الأوّلين **(ثمّ نتبعهم)** أي ثمّ أتبعناهم الأقوام **(الآخرين)** كقوم عاد وشداد وفرعون في الإهلاك؛ فأهلكناهم أيضاً نتيجة الامتناع عن اتّباع الرّسل **(كذلك)** أي مثل إهلاك هؤلاء الأقوام **(نفعل بالمجرمين)** فيما بعد، وهذه سنّة الله في عباده من إنزال العذاب بالمجرمين في الدّنيا قبل الآخرة **(ويل يومئذٍ)** أي عذاب شديد يوم إذ جاء وقت عذابهم في الدّنيا ويقع ذلك العذاب للمكذّبين برسل الله (صلى الله عليه وسلم) وكان هذا إنذاراً لأهل مكّة ولكلّ جماعة تكذّب بالإسلام، وقد نفّذ الله تعالى إنذاره هذا في قوم مكّة في معركة بدر، وبأمور أخرى كثيرة، وسينفّذ يوماً بعد يوم بالّذين ينحرفون عن دينه، فليصبر المؤمنون ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ سورة الشّعراء الآية/ ٢٢٧.

ثمّ ذكر الله تعالى الدّليل على مجيء يوم القيامة، دليل من الأنفس ودليل من الآفاق، وقدم دليل الأنفس فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

(ألم نخلقكم) الاستفهام للإنكار وإنكار النّفي إثبات، فالمعنى: إنّا خلقناكم **(من ماء مهين)** أي ضعيف وحقير وهو الماء الّذي يقذفه الرّجل في رحم المرأة إن كان الولد يولد من ماء الرّجل فقط، وقال بذلك البعض، أو المراد به الماء المركّب والمجتمع من ماء الرّجل والمرأة **(فجعلناه)** أي فجعلنا ذلك الماء **(في قرار)** أي في مقرّ وهو الرّحم **(مكين)** أي حصين ومحكم **(إلى قدر)** أي إلى أجل **(معلوم)** محدود وهو مدّة الولادة ستّة أشهر أو تسعة أو أكثر عند البعض **(فقدرنا)** يقرأ بتخفيف الدّال وتشديدها أي فصوّرناه حسب إراداتنا ذكراً أو أنثى جميلاً أو لا، إلى غير ذلك ممّا يقدر له تعالى **(فنعم القادرون)** أي فنحن نعم القادرون **(ويل)** أي عذاب شديد **(يومئذ)** أي يوم إذ جاء يوم القيامة **(للمكذّبين)** بخلقنا هذا وهم الّذين ينكرون الله أو خلقه ويعتقدون أنّ الطّبيعة تعمل هذا العمل. وتحرير الدّليل الّذي تشير إليه هذه الآية على مجيء يوم القيامة هكذا: إنّ الّذي يقدر على أن يخلق الإنسان من هذه النّطفة وفي هذا الرّحم المظلم الضّيق لقادر على أن يعيده من عظامه البالية النّتنة وفي ظلمة القبر، فإنّ هذه الإعادة ليست بأصعب من إبداء الخلق الأوّل، فبهذا يثبت إمكان إحياء الموتى. ثمّ نقول: إنّ الله تعالى هو الّذي خلق الإنسان بهذه الكيفيّة ونشره على الأرض لأنّ هذا الخلق الدّقيق لا يمكن أن يوجد إلّا بصانع حكيم وخالق عليم وقدير، ولا يخفى أنّ أفراد الإنسان متغايرون في الميول والنّزعات ويقع بينهم منافسة على الحياة، فيقع بينهم من الوقائع والخصومات فلا يتصوّر أن يترك هذا الخالق هذا المخلوق وأن لا يضع لهم نظاماً يعملون به، فلذلك وضع لهم النّظام وبلّغهم بواسطة الرّسل والأنبياء والعلماء، وإنّ النّظام يقتضي ثواب المطيع وعقاب العاصي، وحيث لا يوجد هذه المحاسبة في الدّنيا فيجب أن يأتي يوم يجري فيه ذلك الحساب ويذوق كلّ إنسان جزاء أعماله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، ليتحقّق عدل الله تعالى والفرق بين العاصي والمطيع، ولذلك سمّي ذلك اليوم يوم الفصل إذ الفصل بمعنى الفرق والتّمييز.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى دليلاً من الأنفس أراد أن يذكر دليلاً من الآفاق فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(ألم نجعل الأرض كفاتاً) مصدر بمعنى الفاعل، أي كافتةً أي ضامّةً تضمّ النّاس أحياءً وأمواتاً **(وجعلنا فيها رواسي)** أي جبالاً **(شامخات)** مرتفعات **(وأسقيناكم)** بسبب تلك الجبال الّتي تخزن الماء ثمّ تجري في الينابيع والأنهار **(ماءً فراتاً)** أي ماءً حلواً لا ملوحة فيه، وتحرير الدّليل من هذه الآيات على مجيء يوم القيامة أنّ هذه الأرض الّتي تلمّ الأحياء على ظهرنا والأموات في بطنها، والّتي تخدم الإنسان بما ينبت عليها من أنواع الفواكه والحبوب والأقوات، وهذه الجبال والرّاسيات الّتي تخزن المياه الّتي تجري في الينابيع والأنهار والآبار فيسقي منها الحيوان والإنسان والزّروع والأشجار، لا يمكن وجودها إلّا بإيجاد قادر عليم، فإنّ الإيجاد والصّنع لا يمكن بدون قدرة وعلم، فهنا يثبت وجود الموجد العليم القادر لهذا النّظام وهو الله تعالى، لأنّ المادّة الطّبيعة لا علم لها ولا قدرة، فلا توجدان شيئاً، وإنّ الله الّذي خلق هذه الأشياء العجيبة والنّظام البديع لقادر على أن يعيد الإنسان بعد الموت، لأنّ ذلك ليس بأصعب من خلق هذه الأشياء وهذا النّظام، فثبت إمكان الإحياء بعد الموت، ثمّ نقول: إنّ الله تعالى هو الّذي خلق هذا النّظام التّكويني والخلق العجيب وخلق كلّ ذلك لإمكان حياة الإنسان وبقائه على هذه الأرض، ولا يتصوّر أنّ من خلق هذا الخلق العجيب للإنسان أن يترك الإنسان ولا يضع له نظاماً ينظّم به حياته الإجتماعيّة وحياة إفراده ويفصل به ما يقع بين ابنائه من الخصومات، وأن يحسن به سلوكه الفردي والإجتماعي في هذه الدّنيا، فلا بدّ هناك من نظام إلهي يجب اتّباعه، وإنّ من مقتضى هذا النّظام ثواب من يطيعه وعقاب من يخالفه، وحيث لا يوجد ذلك كليّاً في الدّنيا فلا بد من أن يأتي يوم يحاسب فيه النّاس وفق هذا النّظام وينال كلّ أحد نتيجة أعماله، فإنّ كانت صالحة فبالأجر والثّواب وإلّا فبالعذاب المهين لتحقيق عدالة الله تعالى والفرق بين العاصي والمطيع **(ويل يومئذ للمكذّبين)** أي للمكذّبين بأنّ الأرض والجبال والمياه من صنع الله وجعله، ويعتقد بأنّها من نتائج المادّة وتأثير الطّبيعة، فإنّ المادة والطّبيعة العمياء والجهلاء كيف تستطيع أن تصنع هذا الصّنع العجيب، بل وأيّ صنع آخر من صغير وكبير كلّا ثمّ كلّا وما أجهل من اعتقد ذلك.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الدّلائل المثبتة والدّالة على مجيء يوم الآخرة هدّد الّذين يكذّبون به فقال جلّ وعلا:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾

(**انطلقوا**) أي يقال للّذين لايؤمنون بالآخرة يوم القيامة ولا يعتقدون أنّ هناك أيّ عقاب يقال لهم: انطلقوا (**إلى ما كنتم**) في الدّنيا (**به تكذّبون**) وهي جهنّم الّتي يعذّبون فيه (**انطلقوا**) أيّها المجرمون المكذّبون بعذاب جهنّم (**إلى ظلٍ**) وهو ظلّ دخان جهنّم (**ذي ثلاث شعب**) أي ذي ثلاثة فروع وذلك لأنّ الإنسان يعصي إمّا لشهوة البطن أو لشهوة الفرج أو لشهوة الحكم، فلكلّ قسم فرع من هذه الفروع، أو لأنّ كلّ إنسان يستحقّ العذاب إمّا لعدم الإعتقاد، أو لعدم أداء الواجبات، أو لارتكاب المحرّمات، فلكلّ قسم فرع (**لا ظليل**) أي لا يظلّهم ظلاً ينتفعون به بل ويعذّبون بل (**ولا يغني**) أي لا يمنع ذلك (**من اللّهب**) وصول لهب جهنّم إليهم وإحراقه لهم (**إنّها**) أي إنّ جهنّم (**ترمي**) إلى هؤلاء (**بشرر كالقصر**) في الكبر (**كأنّه جمالة صفر**) شبّهت شرارات جهنّم بالقصر في الكبر وبالجمالة الصّفر أي النّاقة في اللّون، وصفر جمع صفراء وجمعها وإن كانت الجمالة مفرداً إلّا أنّها للجنس (**ويل يومئذ للمكذّبين**) بهذا العذاب.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾

(**هذا**) أي هذا اليوم (**يوم لا ينطقون**) أي لا يستطيعون أن يتكلّموا ويدافعوا عن أنفسهم. ولا تنافي هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ سورة النّحل الآية/١١١، لأنّ هذه في وقت السّوق إلى النّار وتلك عند الحساب (**ولا يؤذن لهم**) في الكلام (**فيعتذرون**) لأنّه فات وقت الإعتذار (**ويل يومئذ للمكذّبين**) بهذا اليوم الّذي لا يستطيعون النّطق والإعتذار فيه.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

(هذا) أي هذا اليوم **(يوم الفصل)** أي فصل الخصومات بين النّاس ويوم فصل أي تمييز العصاة من المطيعين بسوقهم إلى جهنّم وسوق المؤمنين إلى الجنّة **(جمعناكم)** أيّها العصاة من المؤمنين وأيّها الكافرون مع الأمم السّابقة **(فإن كان لكم كيد)** أي حيلة للخلاص والنّجاة من العذاب **(فكيدون)** فافعلوا ذلك الكيد تجاه أمرنا. وهذا الأمر للتّعجيز والاستهزاء بهم **(ويل يومئذ للمكذّبين)** بهذا اليوم يوم الفصل ويوم عدم الاستطاعة لعمل أيّ كيد وحيلة للخلاص من العذاب.

ثم لما ذكر الله تعالى حال الكفار ووعيدهم وكيفية عذابهم في الآخرة أراد أن يذكر حال المؤمنين وثوابهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

(إنّ المتقين) من الكفر وجميع المعاصي هم **(في ظلال)** من أشجار الجنّة **(وعيون)** جارية في الجنّة ولا يمسّهم شيء من العذاب، وكذلك من زادت حسناتهم سيّئاتهم أو تساوياً، وأمّا من زادت سيّئاتهم حسناتهم فهم (في ظلال ... إلخ) بعد أن يتطهّروا من المعاصي بالنّار إلّا أن يحقّهم الله تعالى برحمته فيغفر لهم **(وفواكه ممّا يشتهون)** ويقال لهم للاحترام والتّقدير **(كلوا)** من هذه الفواكه **(واشربوا)** من هذه العيون **(هنيئاً)** لكم هذه النّعم **(بما كنتم)** في الدّنيا **(تعلمون)** من أعمال صالحة **(إنّا كذلك)** بمثل هذه النّعم **(نجزي المحسنين)** وهم الّذين يؤمنون بالله ويتمثلون شريعته **(ويل يومئذ للمكذّبين)** بهذا الثّواب والتّكريم.

ثمّ إنّ الكافرين يستهزئون بالمؤمنين حينما ينهونهم عن الشّهوات المحرّمة ويخوّفونهم بعذاب الآخرة ويقولون للمؤمنين: نحن في رفاه وعيش رغيد وإنطلاق، فنأكل ما نشتهي ونشرب ما نريد، ونفعل ما نشاء ولا نبيع الحاضر، وهي لذائذ الدّنيا بالقرض وهي لذائذ الآخرة الّتي تؤمنون بها. فالتفت الله تعالى إليهم بهذا الخطاب فقال جلّ وعلا:

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

(كلوا وتمتّعوا) في الدّنيا **(قليلاً)** لأنّ حياة الدّنيا وإن كثرت فهي قليلة لأنّها تفنى

وتزول، وإنّها بالنّسبة لحياة الآخرة كنسبة واحد إلى ملايين لا تنتهي، وهذا الخطاب للتّهديد فمعناه: كلوا واشربوا قليلاً فإنّكم ستعذّبون ولاحظّ لكم في الآخرة، وعلّل ذلك بقوله: **(إنّكم مجرمون)** منحرفون عن دين الله تعالى **(ويل يومئذ للمكذّبين)** بهذا اليوم وهذا العذاب للكافرين وذلك الثّواب للمؤمنين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(وإذا قيل لهم) في الدّنيا **(اركعوا)** أي صلّوا كانوا **(لا يركعون)** أي لايصلون إنكاراً لوجوبها **(ويل يومئذ للمكذّبين)** بوجوب الصّلاة وبسائر الشّعائر الدّينيّة والّذين يستهزئون بها. وبعدما ذكر الله تعالى الدّلائل السّابقة على مجيء يوم القيامة وأنذر الكافرين بعذابه وأصرّوا على الكفر، ذكر الله تعالى شدّة عنادهم وعتوّهم، وأنّه يتعجّب من حالهم فاستفهم استفهام تعجّب فقال تعالى: **(فبأيّ حديث بعده)** أي بعد القرآن وما ذكر من الدّلائل **(يؤمنون)** هؤلاء، أي لا يؤمنون بشيء ممّا يوعظون به، فحالهم عجيب وفكرهم غريب، وإنّهم لفي ضلال بعيد ولا يفيدهم كلّ إنذار، فعاقبتهم النّار وبئس المصير. حفظنا الله تعالى من هذا الحال والمآل ووفّقنا على الخير في الحال والمآل ورزقنا الخير وحسن الختام.

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على خير خلقه محمّد (ﷺ) وآله وأصحابه ومن اقتفى أثرهم واهتدى بهديهم أجمعين إلى يوم الدّين.

أمّا بعد ... فقد أنزل الله تعالى القرآن على عبده محمّد (ﷺ) ليكون للعالمين نذيراً، فقام به (ﷺ) مدّة حياته بشيراً ونذيراً. وقام بعده الصّحابة الكرام والتّابعون لهم والعلماء الأعلام يفهمونه للنّاس تأويلاً وتفسيراً، فنوّروا الدّنيا بنور هدايته تنويراً. وحيث إنّ معاني القرآن الكريم تتجدّد بتجدّد الأيام والأزمان، ويزداد معانيه كلّما ازدادت العلوم والعرفان، فلا يزال النّاس بحاجة إلى تطوير تفسيره في كلّ زمان، وتفهيمه حسب عقليّة الإنسان، الّتي تتطوّر بتطوّر الزّمان. وقد فتحت وزارة الأوقاف والشّؤون الدّينيّة في بغداد المحروسة في ١/ ١٠/ ١٩٨٣م دورة تطويريّة أمدها ستّة أشهر لأئمّة وخطباء بغداد الّذين هم لا يزالون في فترة الشّباب، ويتشوّقون إلى زيادة الفهم من ذلك الكتاب. وقد فزت بشرف الاختيار كمحاضر في تلك الدّورة الشّريفة، وزدت شرفاً بما أسند إليَّ تفسير هذا الكتاب المتين. وبعد التّداول والتّشاور قررنا تفسير جزء عمّ، لما فيه ما يرسّخ الإيمان والإعتقاد، ويذكر الإنسان بيوم المعاد، سيّما وإنّ في هذا الزّمان استولت فيه المادة على الأذهان حتّى كاد أن ينسى، بل نسي كثير من بني الإنسان كلّ ما وراء الطّبيعة والمحسوسات، وغفل عن التّفكير في الحياة قبل الممات. فبدأت ألقي عليهم محاضرات عن ظهر القلب، فكان يسنح بالبال ما يثلج الخواطر والحمد لله. فاقترح السّادة الأئمة أن أكتب لهم ما ألقي من المحاضرات في كتاب، ليبقى ذلك تذكرة وذكرى بين الأحباب، ولعلّ أن يستفيد منها غيرهم من الأصحاب. ولأنّه حيث صعب حفظه في

الصّدور فليبق محفوظاً في السّطور. ولقد قيل قديماً:

العلم صيد والكتابة قيده قيّد صيودك بالحبال الموثّقة

فوقع اقتراحهم منّا موقع الاحترام، وعزمت على ذلك وشدّدت الحزام، فكتبت بحمد الله تعالى ما إن جمع يكون رسالة قيّمة في التّفسير، ومقبولة عند أهل الإنصاف والتّقدير. فجمعته بإذن الله وتوفيقه، وسميته تفهيم الأمّة في تفسير جزء عمّ. فها هو ذلك الكتاب أقدمّه إلى أولي الألباب، رجاء أن يدعوا لي بخير كثير، وأن ينبهوني على الخطأ والزّلل والتّقصير، لأنّ هذا هو ما كان في وسعي ﴿لَا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٨٦. وسلام على المرسلين وعليكم وعلى جميع المسلمين والحمد لله ربّ العالمين.

أخوكم

محمد الباليساني

سورة النّبأ

(مكيّة، نزلت بعد سورة المعارج، وهي أربعون آية، سمّيت بالنّبأ لما ورد فيها من قوله تعالى: ﴿عمّ يتساءلون عن النّبأ العظيم﴾ ... إلخ).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾﴾

(**عمّ**) أصله (**عن ما**) ثمّ قلبت النّون ميماً فأدغم فيه فصار (**عمّا**) ثمّ حذفت الألف فصار (**عمّ**) أي عن أي شيء (**يتساءلون**) أي يسأل أهل مكّة بعضهم بعضاً.

تمهيد:

إنّ أوّل ما جاء به الرّسول (ﷺ) كان دعوته إلى أمور ثلاثة:

الأوّل: الإيمان بالله تعالى وتوحيده بالعبادة، وترك ما سواه من الأصنام والأوثان.

الثّاني: أنّه رسول من الله تعالى وأنّ القرآن الّذي يتلوه عليهم هو من الله تعالى فعليهم العمل به واتّباع ما فيه.

الثّالث: الإيمان بأنّ الإنسان بعد موته يحيى ويسأل، وأنّه سيأتي يوم يزول فيه هذا الكون ويبدل بغيره ويبعث كلّ النّاس في ذلك اليوم ويحاسبون على عقائدهم وأعمالهم، ثمّ يقضي الله بينهم ففريق في الجنّة وهم المؤمنون الصّالحون، وفريق يساقون إلى النّار وهم الكافرون المجرمون.

فأكثر ما أشغل بال القوم هو الإخبار عن يوم القيامة وعمّا يخبر عنه محمّد (ﷺ) ممّا تقع فيه وقائع عظيمة ومن الحياة بعد الموت والحساب بعده، فكان يسأل بعضهم

بعضاً إنكاراً واستهزاءً بما يقول محمّد (ﷺ) لا للعلم به وللوصول إلى ما يوجب الإيمان به، فأراد الله تعالى أن يثبت لهم ذلك اليوم، ويفنّد إنكارهم مفتتحاً الكلام بالاستفهام لأنّ الاستفهام يفتح الآذان وينبّه القلوب، فيصغون إلى ما يتلى عليهم بعد الاستفهام، فقال جلّ وعلا: **(عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ)** وهذا الاستفهام ليس على معناه، لأنّ الاستفهام من الله محال، حيث لا يخفى عليه شيء فيستفهم منه بل كلّ ما يرد من استفهام من الله تعالى فإمّا لإنكار ما بعده أو تقريره أو تثبيته أو للتّوبيخ والتّكدير، وغير ذلك ممّا يعلم بحسب المقام من الكلام، فهذا الاستفهام ورد لتوبيخهم عن هذا التّساؤل الرّامي إلى إنكار ما أخبر به الرّسول (ﷺ) والاستهزاء به من إنذارهم بيوم القيامة وإخبارهم بمجيئه.

ثمّ يجيب الله تعالى عن هذا الاستفهام ويبيّن ما يتساءلون عنه توطئةً للاستدلال عليه، وإقناع العقول السّليمة بإمكان مجيء ذلك، وأنّه يأتي[١] فقال جلّ وعلا:

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾

أي يسأل بعضهم بعضاً **(عن النّبأ العظيم)** عن الخبر العظيم وهو يوم القيامة، وصف هذا الخبر بالعظيم لأنّه عظيم بما يقع فيه من حوادث عظيمة جدّاً تندهش منها القلوب وتتحيّر منها العقول، كيف لا، وإنّ هذه السّماء العظيمة تنشقّ وتنفطر، وهذه الشّمس المضيئة يزول ضوؤها وتزول هي أيضاً، وإنّ هذه الكواكب يتساقط بعضها على بعض، وإنّ هذه النّجوم تنكدّر فيزول وميضها كما تزول ذواتها، وإنّ هذه الجبال تصير هباءً منثوراً، وإنّ البحار تنقلب بحاراً من نار بعد ما كانت بحاراً من ماء، وإنّه يموت في ذلك اليوم كلّ حيّ ثمّ يبعث كلّ ميّت ويحاسب كلّ امرئ على ما اكتسب في الدّنيا ويجازى عليها إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشراً. نعم .. نبأ عظيم، بل قد يتصوّر محالاً بالنّسبة للقلوب المريضة والعقول السّقيمة، ولكنّه بالنّسبة لمن يؤمن بالله وقدرته القاهرة فليس بعظيم محال يتعجّب منه، فإنّ القدرة الّتي أحدثت هذه الأشياء كلّها هي الّتي تقضي عليها وتبدلّها إلى غير ما هي عليه الآن.

---

(١) لعل صيغة الإستفهام هنا من فوائد تعليم الناس أن من طرق التعليم هو إثارة السؤال ثم الجواب عنه ليكون أدعى للقبول والثبات في النفس.

﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣﴾

(**الّذي**) النّبأ العظيم الّذي (**هم**) أهل مكّة (**فيه**) في مجيئه (**مختلفون**) بين مؤمن به ومنكر له ومتردّد فيه ثمّ قال جلّ وعلا:

﴿كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥﴾

(**كلّا**) ردع للمنكرين لهذا اليوم أي فلينتهوا عن إنكارهم لأنّهم (**سيعلمون**) حقيّة هذا اليوم ونتيجة إنكارهم له (**ثمّ كلّا**) فلينتهوا عن الإنكار لأنّهم سيعلمون حقّيّة هذا اليوم ويعلمون نتيجة إنكاره. هذا وفي تكرار جملة (**كلّا سيعلمون**) أقوال:

الأوّل: أنّها كرّرت للتّأكيد والتّقوية.

الثّاني: أنّ المراد بالأوّل سيعلمون حقّيّة هذا اليوم ونتيجة إنكاره بعد الموت، وبالثّاني سيعلمون ذلك عند الحشر والحساب، فيكون وعيداً بالعذاب لهم في المرحلتين.

الثّالث: أنّ الأوّل موجّه إلى المنكرين ووعيد لهم بالعذاب نتيجة إنكارهم هذا اليوم، والثّاني موجّه للمؤمنين وبشرى لهم بالثّواب في ذلك اليوم.

ويمكن أن نقول: أنّ المعنى (**كلّا**) فلينتهوا عن الإنكار لأنّهم سيعلمون حينما تفكّروا في الأدلّة الّتي تدلّ على مجيء هذا اليوم (**ثمّ**) إن لم يعلموا بهذه الأدلّة لعدم التّفكّر فيها أو للاستكبار والعناد سيعلمون حقّيّته عندما يموتون ويلاقون عذابهم على إنكارهم هذا.

ثمّ بعدما ذكر الله تعالى اختلافهم في يوم القيامة وردعهم على إنكار مجيئه واستبعادهم خراب هذا الكون وتبديله بكونٍ آخر وإحياء الموتى بعدما أصبحوا تراباً ذكر ما يدلّ على إمكان ما استبعدوا ويثبت مجيء يوم القيامة والمحشر والحساب فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ۝٦﴾

(**ألم**) استفهام تقرير، والمعنى: نحن جعلنا الأرض مهاداً أي فرشاً يسكن النّاس عليها فمن استطاع أن يصنع فرشاً يسكن النّاس عليه يستطيع أن ينقضه ويبدّله بما هو مثله أو خير منه:

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾

أي نحن جعلنا الجبال مثل الأوتاد ونصبناها على الأرض لئلا تتحرّك وتضطرب وتميل. فالّذي وضع هذه الأوتاد لقدير أن يزيلها ويجعلها هباءً منثوراً.

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾

أي نحن خلقناكم من العدم وجعلناكم أزواجاً من وجوه شتى حيث جعلناكم ذكراً وأنثى وقويّاً وضعيفاً وغنيّاً وفقيراً وأسود وأبيض وأحمر وأسمر وحسان الوجوه وغيرها، وطويلاً وقصيراً وبديناً ونحيلاً، إلى غير ذلك ممّا يختلف ويتميّز به إنسان عن إنسان، فالّذي استطاع أن يخلقكم هكذا من قطرة ماء في ظلمة البطن والرّحم لقدير أن يعيد إليكم من جزء باقٍ في ظلمة القبر وبعد الممات ويسمّى ذلك الجزء بعجب الذّنب.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾

أي ونحن جعلنا نومكم الّذي يعتريكم كلّ يوم مرّة أو مرّتين انقطاعاً عن الحركة والعمل. ثمّ تعودون إلى ما كنتم عليه من الحركة والعمل. فكذلك الموت انقطاع عن الحركة والعمل. فتعودون بعد ذلك إلى حركتكم وعملكم. فالنّوم هو الموت الصّغير خلقه الله تعالى ليستدلّ به الإنسان على تجدّد الحياة والحركة بعد الموت مثل ما تتجدّد الحركة بعد النّوم الّذي تنقطعون فيه عن العمل.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾

يستركم كما يستركم اللّباس.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾

زماناً لتحصيل النّفقة وللحركة والعمل فيه، فكما أنّ اللّيل والنّهار يتعاقبون وهما متضادّان لأنّهما ظلمة ونور وحركة وسكون وانقطاع من العمل والحركة، ثمّ الاشتغال بهما، فكذلك يتعاقب عليكم الموت والحياة فكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾

أي بنينا فوقكم سبع سماوات شداداً، قال محمّد عبده: (المراد بها الكواكب السّبع السّيارة وهي القمر ثمّ العطارد ثمّ الزّهرة ثمّ الشّمس ثمّ المريخ ثمّ المشتري ثمّ زحل، وقد خلق فوقها أكثر من هذا بكثير، وبحيث لا يحصى، إلّا أنّ هذه الكواكب كانت أظهر للنّاس فلذا خصّها بالذّكر، أ.هـ).

ولكنّ الحقّ أنّ المراد به سبع سماوات فوق الكواكب وتحت العرش والكرسيّ، وهي السّماوات السّبع الطّباق الّتي يخبر عنها الله تعالى بأنّها محفوظة، إلّا أنّ العلم لم يصل إلى كشفها إلى الآن، وسيصل إليها إن شاء الله تعالى، والاستدلال بها على قدرة الله تعالى كان لما كان النّاس يعرفون وجود هذه السّماوات السّبع من بقايا عقائد أخذوها من الكتب السّماوية السّابقة فاستدلّ بأنّ من خلق هذه السّماوات الشّديدة والعظيم خلقها لقديرٌ على أن يحييكم بعد الموت ويحاسبكم بعد الفوت وأنّ ذلك عليه يسير.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾

أي وخلقنا في السّماء سراجاً شديد الإضاءة وهي الشّمس، وهذا دليل على أن ليس المراد بالسّبع الشّداد الكواكب السّيارة لأنّه حينئذ يكون ذكر خلق الشّمس مرّة أخرى تكراراً، فالّذي خلق هذه الشّمس الوقّادة المضيئة وأوقفها في هذا الفضاء بدون عماد؛ لقديرٌ أن يزيلها ويخلق بدلها شيئاً آخر للإضاءة والتّنوير، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ سورة الزمر الآية/ ٦٩. أي بدلاً عن نور الشّمس والقمر واللّذين كنتم تستنرون بهما في الدّنيا.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾

أي أنزلنا من السّحب الّتي يعصر بعضها بعضاً فيخرج منه الماء فينزل بهذا النّظام **(ماء ثجّاجاً)** أي منصبّاً بكثرة وشدّة، ذكر الله تعالى خلق المطر وإنزال الماء من المعصرات بعد خلق الشّمس لأنّ للشّمس دخلاً في وجود المطر بأمر الله تعالى، وذلك لأنّ أشعّة الشّمس تضرب البحر فتحمى ماءها فيصعد منه البخار فيصبح سحاباً، ثمّ يبرد فيضغط بعضه بعضاً فيعصره فينزل منه الماء الّذي ينتج من البخار الّذي برد، فإنّ الماء حينما حمي يصير بخاراً وحينما يبرد يرجع ماءً، فالّذي خلق هذا النّظام وخلق هذه الإحالة والإعادة من ماء إلى بخار ثمّ إلى سحاب ثمّ إلى ماء ثمّ إلى بخار مرّة أخرى

وهلم جرّاً لقدير أن يعيد الحياة إلى الأموات، فإنّه إعادة بعد الإحالة أيضاً، فحينما تتيقّنون ذلك فلم لا تؤمنون بهذا أيضاً إن هذا إلّا ضلال مبين.

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾

أي انزلنا هذا الماء والمطر ليسقي الأرض فنخرج به حبّاً تقتاتون منه ونباتاً تأكلونه أنتم وأنعامكم، وجنّات كثيرة كثّة ملتفّة أغصانها بعضها مع بعض، وعملنا لذلك النّظام البديع والخلق العجيب يدلّ على قدرتنا على الإحياء بعد الموت والإعادة بعد الفوت.

تنبيه: إنّ في قوله جلّ وعلا: **(لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)** لدليل واضح على إمكان الحياة بعد الموت وعلى مجيء يوم القيامة فإنّ النّباتات والحبوب والأشجار والأثمار كلّها تتكرّر فيها الحياة بعد الموت، والموت بعد الحياة ثمّ الحياة مرّة أخرى في كلّ سنة، وهي ظاهرة أمام عيوننا وغير خافية علينا ولا ينكر ذلك أحد، فإنّ النّبات والشّجر كلّها ينبت من البذر والبذر يبلى تحت الارض، وفي ظلمتها ثمّ ينمو ويعيش ويزيد ويثمر ويعطي الثّمر والحبوب ثمّ تذبل وتيبس وتموت وتصير هشيماً تذروه الرّيح، ثمّ يعود وينبت مرّة أخرى ويثمر وينتج، وهكذا دواليك كلّ سنة وأصبحت من البديهيّات، فمن قدر على هذه الإماتة والإحياء الّذي يتكرّر أمام أعيننا كلّ سنة فلم يتعجّب المرء من إحياء الإنسان بعد الموت؟ إنّ هذا إلّا ضلال مبين ونقيصة في العقل والتّفكير. وأشار الله تعالى إلى ذلك بقوله فقال وعزّ من قائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ٥٧. وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة الحج الآيتان/ ٥، ٦.

* * *

خاتمة: أشار الله تعالى من أولّ السّورة إلى قوله: **(وجنّاتٍ ألفافاً)** إلى دلائل يثبت بها ثلاثة مقاصد عالية من الدّين وهي:

الأوّل: وجود الله تعالى.

الثّاني: إمكان الإحياء بعد الموت.

الثّالث: وقوع الإحياء بعد الموت ومجيء يوم القيامة.

فلنبدأ بتوضيح كيفيّة الاستدلال في هذه الآيات على تلك المقاصد:

الأوّل: إنّ الله تعالى يقول: إنّ هذه الأرض الكبيرة الّتي وقفت في الفضاء بدون أعمدة وأجهزة والّتي فيها هذه الرّكائز المفيدة والمعادن الكثيرة المختلفة، والّتي تسكنون وتعيشون عليها كما يسكن ويعيش المرء على الأفرشة والبساط، وهذه الجبال المختلفة في اللّون والحجم والطّول والقصر والإرتفاع الّتي نصبت على هذه الأرض فأصبحت كالأوتاد للأرض تمنعها من الاضطراب والحركة والميلان، وإنّ وجود هذا الإنسان الّذي لا يحصى أفراده في الجنس واللّون والشّكل والخصائص والصّفات، وإنّ منامكم الّذي يستولي عليكم فيجعلكم كالأموات معطّلين عن الحركة والأعمال، وخلق هذا اللّيل المظلم الّذي يضطرّ المرء فيه إلى السّكون وعدم العمل، وإنّ هذا النّهار المضيء الّذي ينطلق فيه كلّ حيّ لتحصيل رزقه وتحقيق مآربه وما يهوى إليه، وإنّ هذه السّماوات السّبع الشّداد الّتي بنيت فوقكم، ووجود هذه الشّمس الوقّادة المضيئة، وإنّ هذه السّحب الّتي تنزل منها المطر كلّما احتيج إليه، وإنّ هذا المطر الّذي ينزل فيحرك الأرض ويخرج منها الحبوب والنّباتات والأشجار فتأكلون وتتمتّعون به أنتم وأنعامكم، إنّ هذا الصنع العجيب الّذي يدهش كلّ متفكّر فيه ويحيّر كلّ عاقل ينظر إليه، وإنّ هذا النّظام البديع الّذي ليس في الإمكان أبدع ممّا كان يدل بوضوح على أنّه لم يأت إلى الوجود بنفسه ولا بالصّدفة ولا بالطّبيعة العمياء الجَهْلاء بل لابد وأن يكون هناك صانع حكيم وخالق قدير ومدبر عليم صنع هذا الصنع العجيب ووضع هذا النّظام البديع وهو الله. فإنّه لو قيل لأي انسان حتّى الأطفال ومن لا عقل له بأنّ هذه الإبرة وجدت بدون صانع أو أن هذا السرير صنع بدون نجار أو أنّ هذا الباب بدون حدّاد و.. و...، لنسب الجهل والجنون وعدم العقل إلى هذا القائل، فمن قال بوجود هذا الكون العظيم بدون صانع قدير عليم حكيم أولى بأن ينسب إلى عدم العقل والسّفه والجنون.

حكاية: كان مدرّس يدرّس الطّلاب في مدرسته، وكان في الغرفة الّتي يدرّس فيها رفّ ينظّم الأستاذ الأشياء ويضعها عليه. فألقى درساً على الطّلاب بأنّ هذه السّماوات والأرض والنّجوم والكواكب وهذا الكون إنّما وجد صدفة وحسب الطّبيعة وبدون صانع وهو الله، فبعدما انتهى الدّرس وخرج الأستاذ من الغرفة مع طلابه عمد أحد الطّلاب

إلى شيءٍ يعتني به الأستاذ جدّاً وقد حفظه على الرفّ فأخذه الطالب من فوق الرفّ ووضعه على المنضدة داخل الغرفة، فلمّا أصبح الصّباح ودخل الطّلاب الغرفة جاء الأستاذ فوجد ذلك الشّيء موضوعاً على المنضدة وبشكل لا يعتنى به، فسأل الأستاذ: من الّذي أنزل هذا ووضعه هنا على المنضدة؟ فنهض الطّالب فقال: يا أستاذ إنّه نزل بنفسه واستعلى على المنضدة، فقال الأستاذ: اسكت أيّها الأحمق كيف يأتي هذا بنفسه وينزل من الرّفّ ويعلو على هذه المنضدة؟ إنّ هذا القول قول جاهل مجنون. فقال الطّالب: فإذن جاء من هناك إلى هنا وبالصّدفة، فغضب الأستاذ فقال: إنّك مجنون، كيف تعمل الصّدفة هذا العمل؟ إنّما هذا من عمل واحد حيّ يعمل بإرادته. فقال الطّالب: فإذن يا أستاذ الطّبيعة أتت به هنا. فقال الأستاذ: لقد زدت حمقاً وجهلاً وجنوناً كيف تعمل الطّبيعة هذا العمل؟ إنّها لا إرادة لها. فقال الطّالب: إذن أيّها الأستاذ إنّك جاهل مجنون وليس لك عقل. فغضب الأستاذ وقال: لماذا؟!. قال الطّالب: إذا كان الأمر أنّ كلاً من الطّبيعة والصّدفة لم تستطع أن تأتي بهذا الشّيء الصّغير من فوق الرفّ إلى المنضدة فكيف يستطيع أن يوجد هذه السّماوات والكواكب والنّجوم والنّباتات والأشجار والجبال والأنهار والإنسان والأنواع غير المحصورة من الحيوانات، وأنت تعتقد ذلك فإذن أنت مجنون وليس لك عندك عقل. فبهت الأستاذ وندم من مقالته عندئذٍ واعترف الطّالب بأنّه هو الّذي جاء بالشّيء من الرفّ إلى المنضدة ليقنعه بهذه الطّريقة وبهذا الأسلوب، وقد وفّق، فشكره الأستاذ حيث أيقظه من غفلته ونبّهه على جهله.

* * *

حكاية أخرى: في زمن أبي حنيفة النّعمان جاء وفد من الملحدين يقال لهم الطّبيعيّون إلى خليفة الوقت وطلبوا منه أن يحضر لهم علماء دينيّين فيناقشوا معهم على أنّ هذا الكون وجد بدون صانع أو لا؟ فيقتنع جانب منهم الجانب الآخر برأيه ولا يبقى نزاع في ذلك. فكلّف الخليفة الإمام الاعظم أبا حنيفة النّعمان لأن يناقشهم، فعيّنوا لذلك مكاناً خاصّاً وموعداً مقرّراً، فتخلّف الإمام الأعظم عن الموعد المقرّر ساعة وهم ينتظرونه، فلمّا دخل عليهم عاتبوه على التّأخر والخلاف في الموعد عتاباً شديداً، فقال الإمام: ألا تسألونني لماذا تأخّرت؟ فإن كنت معذوراً فالعذر عند كرام النّاس مقبول، وإلّا فلكم الحقّ في العتاب واللّوم أكثر، قالوا: فما عذرك؟ قال: أتيت جانب النّهر لأعبر فلم أجد زورقاً، فانتظرت فرأيت خشباً جرفه الماء فركد بالقرب منّي ثمّ جاءت خشبة

أخرى فركدت بجنب الأوّل ثمّ جاءت أخرى فصار تحتها وجاءت المسامير تمشي على الماء فدخلت في الأخشاب وهكذا خشب من هنا وخشب من هناك وأتت المسامير فدخلت فيها إلى أن تكوّن زورق تامّ فركبته وعبرت به النّهر، فنظروا إلى الخليفة فقالوا: أهذا الّذي عيّنته للمناقشة؟ قال: نعم، قالوا: كيف تعيّن هذا لمناقشتنا؟ فإنّ هذا مجنون، والمناقش لابد أن يكون له عقل. فقال الإمام: فما هو جنوني؟ قالوا: كيف تقول أنّ زورقاً تكون بنفسه وأتت أخشاب ومسامير دخلت فيها حتّى أصبح زورقاً؟ أليس هذا بجنون؟ فلابدّ للزّورق أن يكون له صانع، فقال الإمام: إذن فمن يقول هذا القول فهو مجنون؟ قالوا: نعم، فقال الإمام: فمن قال بوجود زورق صغير بدون صانع يكون مجنوناً، فمن قال بأنّ هذا الكون العظيم والسّماوات والكواكب والنّجوم والجبال والإنسان والحيوان والنّباتات والمعادن كلّها وجد بدون صانع أولى بأن يتّهم بالجنون. فسكت الملحدون ولم يبق لديهم دليل وانتهت المناقشة بهذا ورجعوا. فيا أخي انظر إلى هذه الموجودات فإنّها تدلّ على خالق عليم وصانع حكيم، فمثلاً إنّ أفراد الانسان كلّهم من عنصر واحد ومن مادّة واحدة، وإنّ المادة الواحدة له طبيعة واحدة، فتخصيص كلّ فرد من الإنسان بشكل دون آخر ولون دون لون واختلافهم في الطّول والقصر والبدانة والنّحولة والذّكاء والبلادة والسّماحة والحقد والكرم والبخل وغير ذلك من الأوصاف لا يكون هذا التّخصيص من نفس مادّته وعنصره بل إنّما يكون بإرادة عالم قدير مختار، وإلّا فيكون الفرق بين هذا وذاك فرقاً بدون مبرر وترجيحاً بدون مرجّح وهذا باطل باتّفاق العقلاء.

* * *

الثّاني: إنّ هذه الكواكب والنّجوم كلّها من عنصر واحد ومادّة واحدة، فتخصيص كلّ واحد منها بحيز دون آخر وصفة دون أخرى لا يكون إلّا بإرادة خالق مختار عليم حكيم في خلقه وتدبيره وهو الله. وهذه الأرض كلّها عنصر واحد، مع أنّ قسماً منها ينبت وقسماً منها لا ينبت بذراً دون آخر، وقسم بعكسه وأنّ عندنا في محافظة أربيل توجد منطقة جبليّة ومنطقة سهليّة ففي المنطقة الجبليّة يزرع الشّعير فتنبت شعيراً أبيض ولو كان البذر أسود وفي المنطقة السّهلية تنبت أسوداً ولو كان البذر أبيض، فتخصيص بعض قطعات الأرض ببعض الزّراعات دون أخرى، وتخصيص بعض الأراضي بالإنبات دون أخرى لا يكون إلّا بتقدير الله العالم القدير المختار، وهكذا لو تفكّرت في

الموجودات ترى أنّ كلّ شيء يدلّ على وجود صانع قدير عالم حكيم مختار وصدق الشّاعر إذ يقول:

وفـــي كـــلّ شـــيء لـــه آيـــة تـــدلّ عـــلـــى أنّـــه الـــواحـــد

وأمّا بالنّسبة للمقصد الثّاني وهو: إمكان الإحياء بعد الموت فنقول: أنّ الّذي خلق هذه الأشياء العجيبة وهذا الكون العظيم الّذي يشتمل ويرى فيه دائماً الإعادة بعد الإحالة والوجود بعد الفناء والعود على البدء، لا يصعب على هذا الخالق أن يحيي الانسان بعد موته حيث إنّه أيضاً إعادة بعد الإحالة وعود بعد الفناء وأشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ﴾ أي يعيد بعد الممات ﴿مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ سورة يس الآية/ ٨١.

أمّا بالنّسبة إلى المقصد الثّالث وهو أن يوم القيامة يأتي فنقول: إنّ الله الّذي خلق هذا الكون العظيم، وأنشأ هذا الصّنع العجيب، وأبدع هذا النّظام التّكويني البديع، وخلق كلّ ذلك ليستطيع أن يمتّع الانسان بالحياة على هذه الأرض وأن يؤدّي خلافته فيها، وأن يظهر ويبدع ويخترع ما يدلّ على عظيم خلق الله تعالى وعظمة قدرته، فالله الّذي يعمل هذا ليس من الحكمة ولا يتصوّر أن يترك هذا الإنسان دون أن يضع له نظاماً تكليفيّاً ليعيش به على الأرض ويعمل به في الدّنيا ويعمّر الأرض على وفقه ويحلّ به ما يقع من الخلاف والنّزاع بين أفراده، فإنّ كلّ إنسان يضع نظاماً لبيته وكلّ صاحب قرية يضع نظاماً لأهل قريته، وكلّ حاكم وملك يضع نظاماً لأهل مملكته، فكيف بالله وهو ملك الملوك وسلطان السّلاطين يدع خلقه دون نظام؟ فالجواب: كلّا، بل وضع لهم نظاماً وشريعةً للعمل بها والحياة على وفقها وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ سورة التين الآيتان/ ٧، ٨. هذا وإنّ من شأن كلّ نظام إكرام من اتّبعه وطبّقه وعقاب من خالفه وانحرف عنه، وحيث لا نرى هذا الثّواب والعقاب كليّاً في الدّنيا لأنّه نرى كثيراً من النّاس بعداء عن الدّين منهمكين في أعمال المجرمين، يظلمون النّاس ويخوّنونهم ويخوّنون الله وبراء من أخلاق الدّين والقيم وصالح الأعمال، ويعيشون في الدّنيا سعداء دون أن يلقوا فيها أيّ عقاب وعذاب ثمّ يموتون، ونرى في الجانب الآخر كثيراً من النّاس متمسّكين بدين الله ويتّبعون شريعته ويتخلّقون باخلاق الله وقيمه، وينفعون النّاس ولا يضرّونهم فيموتون دون أن يلقوا في هذه الدّنيا ثواباً ولا عطاءً، فلو مات هذان وذهبا سويّاً ولم يأت يوم يعاقب

ذلك المجرم البعيد عن الدّين فيه، ويثاب فيه ذلك المطيع لشرع الله، فمعناه أنّ الله ظالم وهذا محال، فلا بد من أن يأتي يوم يحاسب فيه النّاس ويلقي الظّالم مرارة ظلمه والمطيع ثواب طاعته تحقيقاً لعدالة الله تعالى، وإلى هذا الدّليل يشير تعالى بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ سورة النّون الآيتان/ ٣٥، ٣٦.

* * *

هذا وبعد ما أثبت الله تعالى في الآيات السّابقة أن يوم القيامة يأتي صرّح به إنذاراً لمن كذّب به وتبشيراً لمن آمن به فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾

أي إنّ اليوم الّذي يفصل فيه بين الكافر فيعاقب فيه والمؤمن فيثاب ويتبيّن الفاجر فيعذّب والمطيع فينعم والصّالح فيفوز والطّالح فيخسر ويخيب، إنّ هذا اليوم كان موعداً معيّناً ووقتاً مخصوصاً لا يعلم حينه إلّا الله، وإنّه لآتٍ دون شكّ وريب ونزاع، ثمّ عرّف ذلك اليوم ببعض ما يقع فيه من الحوادث الجسام وبيان نوع من عذاب الكافرين والفاسقين وبعض من ثواب المؤمنين والصّالحين فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾

(**يَوْمَ يُنْفَخُ ... إلخ**) عطف بيان ليوم الفصل، أي يوم الفصل هو اليوم الّذي ينفخ في الصّور (**فَتَأْتُونَ**) يابني آدم كلّكم إلى ميدان المحشر (**أَفْوَاجًا**) جماعات متعدّدة حسب العقيدة والعمل والأخلاق، فكلّ صاحب عقيدة مع من يحمل تلك العقيدة، وكلّ صاحب عمل مع من يماثله في العمل، وكلّ صاحب خلق يأتي مع من يتخلّق بذلك الخلق. ذكر الإمام الرّازي والقرطبي والخازن في تفسيرهم أنّه روي من حديث معاذ بن جبل قال: قلت يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى: (**يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا**)؟ فقال النّبيّ (ﷺ): يا معاذ بن جبل لقد سألت عن أمر عظيم، ثمّ أرسل عينه باكياً، ثمّ قال: يحشر عشرة أصناف من أمّتي أشتاتاً قد ميّزهم الله تعالى من جماعات المسلمين وبدّل صورهم، فمنهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون أرجلهم أعلاهم ووجوههم يسحبون عليها، وبعضهم عميٌ يتردّدون وبعضهم صمٌ بكمٌ لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلاة على صدورهم

يسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقذّرهم أهل الجمع، وبعضهم مقطعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلّبون على جذوع من النّار، وبعضهم أشدّ نتناً من الجيف ملبسون جلابيب سابغة من القطران لاصقة بجلودهم. فأمّا الّذين على صورة القردة فالقتّات من النّاس يعني النّمام. وأمّا الّذين على صورة الخنازير فأهل السّحت والحرام والمكس. وأمّا المنكّسون رؤوسهم ووجوههم فأكلة الرّبا. والعمي من يجور في الحكم. والصمُّ البكم يعجبون بأعمالهم. والّذين يمضغون ألسنتهم، فالعلماء والقصّاصون الّذين يخالف قولهم فعلهم. والمقطعون أيديهم وأرجلهم فالّذين يؤذون الجيران. والمصلّبون على جذوع النّار، فالسّعاة بالنّاس إلى السّلطان. والّذين هم أشدّ نتناً من الجيف فالّذين يتمتّعون بالشّهوات واللّذات ويمنعون حقّ الله تعالى من أموالهم. والّذين يلبسون الجلابيب فأهل الكبر والخيلاء. أ.هـ.

مسألة: إنّ الإخبار بالنّفخ في الصّور وارد في القرآن الكريم وإنّ النّاس يتشوّقون إلى معرفة ما هو الصّور؟ وكيف النّفخ فيه؟ وكم مرّة ينفخ في الصّور؟ وتكلّم المفسّرون عليه وهم مختلفون، فمنهم من قال: إنّ الصّور قرن من نور بيد إسرافيل أحد الملائكة ينفخ فيه حينئذ بأمره الله تعالى بالنفخ. ومنهم من يقول: بأن الصور جمع صورة والمعنى ينفخ فيها ويردّ إليها روحها فيحيون بعد الممات. ومنهم من يذهب إلى: أنّه لا صور ولا نفخ هنا وإنّما النّفخ في الصّور كناية عن الإعلام بمجيء يوم القيامة. وكذلك اختلفوا في عدد النّفخات، ففي بعض التّفاسير أنّها اثنتان، نفخ يحيى به النّاس ويقومون من قبورهم ونفخ يساقون به إلى عرصة الحساب وميدان المحشر. ومنهم من يقول: أنّها ثلاثة فبالأوّل: يموت كلّ حيّ ويخرب هذا الكون. وبالثّاني: يحيى به الأموات ويخرجون من قبورهم، وبالثّالث: يساقون إلى المحشر والحساب. ونحن للوصول إلى الاقتناع بقول من هذه الأقوال الثّلاثة لابدّ أن نستعرض جميع الآيات الّتي فيها الإخبار بالنّفخ في الصّور ونقارن بينها ونستنبط منها أنّ النّفخ كم هو؟ وما هو؟ ثمّ نقول قولتنا الأخيرة ونجزم. فنقول: إعلم أنّه ورد في القرآن الكريم في ما يتعلّق بما يجري به حوادث الآخرة شيئان: النّفخة والصّيحة فينبغي أن نجمع كلّ الآيات الّتي تخبر عن النّفخ وعن الصّيحة لنعلم ما هي النّفخة وما الصّيحة وما عددهما، فنبدأ أوّلاً بآيات النّفخ:

١- ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ سورة الأنعام الآية/ ٧٣.

٢- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ سورة الكهف الآية/ ٩٩.

٣- ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ سورة طه الآية/١٠٢.

٤- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ سورة المؤمنون الآية/ ١٠١.

٥- ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ سورة النمل الآية/٨٧.

٦- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ سورة يس للآية/ ٥١.

٧- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ سورة ق الآية/ ٢٠.

٨- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ سورة الزمر الآية/٦٨.

٩- ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ سورة الحاقة الآيتان/(١٣-١٥).

١٠- (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ سورة نبأ الآية/١٨.

وعلينا أن نعلم أنّ هذه النّفخات المذكورة في هذه الآيات تقع في أيّ وقت؟ وهل كلّها واحدة أم لا؟ فنقول إنّ النّفخ الّذي ذكر في سورة الانعام هي النّفخة الّتي يجمع بها النّاس في ساحة المحشر والحساب بأنّ تمام الآية هو قول الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ سورة الأنعام الآية/٧. والإخبار بعلم الله تعالى بكلّ شيء يناسب الحساب، لأنّ المعنى: هو عالم بأعمالهم الجليّة والخفيّة ويحاسبهم حسب علمه، ولا يخفى عليه شيء. وكذلك في سورة الكهف هو نفخ الجمع لأنّه يقول: (فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ سورة الكهف الآية/٩٩. وما في سورة طه يحمل على ذلك أيضاً لأنّه يأتي بعده ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ وكذا في سورة المؤمنون لأنّه يأتي بعده مباشرة ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وإنّ الميزان يوضع يوم الجمع لا قبله، وكذا في سورة النّمل لأنّه يقول بعده: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أي أتوا إلى الله أذلّاء ضعفاء. فالنّفخ في هذه الآيات كلّها يراد به نفخ الجمع لا غيره، بقرينة ما ذكر بعده في الآيات الّتي ذكرنا. فوجدنا هنا نفخة هي النّفخة الّتي يجمع بها النّاس للحشر والحساب وهي متّحدة مع النّفخ المذكور هنا في قوله تعالى: **(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا)**

والّذي في سورة يس يراد به النّفخ الّذي يحيى به النّاس جميعاً بقرينة ما ذكر بعده في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ وحيث يقول تعالى بعده: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ سورة يس الآيتان/ ٥٢، ٥٣. فبالنّفخ يحيون وبالصّيحة يجمعون، وفي سورة الزّمر يذكر نفختين النّفخة الثّانية يحيى بها النّاس ويقفون على قبورهم ينتظرون المحشر والحساب. فظهر من هذا أنّه يوجد نفخة أخرى يحيى بها النّاس جميعاً، فحصل من هذا أنّ النّفخ اثنان: نفخ يحيى بها النّاس ويخرجون به من قبورهم، ونفخ يساقون به إلى ساحة المحشر والحساب. والنّفخ الأوّل الّذي ذكر في سورة الزّمر هو النّفخ الّذي يموت به النّاس كلّهم حيث يقول بعده: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ سورة الزمر الآية/ ٦٨. والصّعق يعني الموت، فالمعنى: بعد هذا النّفخ مات من في السّماوات ومن في الأرض إلّا من شاء الله، والدّليل على كون الصّعق بمعنى الموت قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٥٥. ثمّ يقول الله تعالى بعده: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وهذا النّفخ متّحد مع الّذي في سورة الحاقّة إذ يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ*﴾ سورة الواقعة الآيات/ ١٣ ـ ١٥. وهذه النّفخة هي الّتي تخرب به السّماوات والأرض ويموت به الأحياء كلّهم. والّذي في سورة (ق) فهو الّذي يجمع به النّاس لأنّه يكون بعده حيث يقول: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ سورة ق الآية/ ٢١. وذلك حين الجمع كما لا يخفى فتبيّن من هذا العرض أنّ النّفخ ثلاث:

فبالأوّل: يدمّر هذا الكون ويموت كلّ حيّ.

وبالثّاني: يحيى النّاس كلّهم.

وبالثّالث: يساقون إلى الحشر والحساب.

وأمّا الآيات الّتي ذكرت فيها الصّيحة فهي:

١- ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ سورة هود الآية/ ٦٧. وهذه ليست ممّا يتعلق بحوادث يوم القيامة بل هي كانت صيحةً أهلكت قوم ثمود.

٢- (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ سورة هود الآية/ ٩٤. وهذه أيضاً ليست ممّا نحن في بحثه لأنّها كانت صيحة أهلكت قوم مدين.

٣- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ*﴾ سورة الحجر الآيتان/ ٧٣-٧٤. وهذه أيضاً ليست ممّا يتعلق بالآخرة لأنّها كانت صيحةً أهلكت قوم لوط (عليه السلام).

٤- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سورة المؤمنين الآية/ ٤١. وهذه أيضاً كانت صيحةً أهلكت قوماً عتوا عن أمر ربّهم.

٥- ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ سورة يس الآية/ ٢٩. أيضاً كانت صيحةً أهلكت قوم حبيب النّجار وليس ممّا نحن فيه.

٦- ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ سورة (ص) الآية/ ١٥. وهذه كانت إنذاراً لأهل مكّة بأنّ أمامهم صيحةً تعذّبهم لا يستطيعون التّخلص منها، وقد جاءت هذه الصّيحة وهي صيحة حرب بدر الكبرى.

فهذه الصّيحات الّتي ذكرت في هذه الآيات كلّها كانت ممّا حصلت على الدّنيا وليس المراد منها الصّيحة الّتي تحدث قبل الآخرة أو فيها فلم تبق إلّا ثلاث آيات تخبر عن الصّيحات الّتي تتعلّق بيوم القيامة:

الأولى: قال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ سورة يس الآية/ ٤٩. وهذه صيحة يكون بها خراب الدّنيا ويموت فيها كلّ انسان بقرينة ما قبلها إذ يقول: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي وعد الآخرة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في مجيئها فيجيبهم الله تعالى بقوله: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً...إلخ﴾ وبقرينة ما بعدها في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ) وهذه الصّيحة توافق النّفخة الأولى الّتي يكون بها خراب الدّنيا وموت النّاس جميعاً والمذكورة في قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ سورة الزّمر الآية/ ٦٨. والمذكورة في سورة الحاقّة إذ يقول تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ*﴾ سورة الحاقة الآيات ١٣ ـ ١٥.

الثّانية: الآية الّتي فيها الصّيحة المربوطة بالآخرة هي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ سورة (ق) الآية/ ٤٢. وهذه الصّيحة توافق النّفخة

الثّانية الّتي يخرج بها النّاس من قبورهم والّتي ذكرت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ سورة الزمر الآية/ ٦٩. وذكرت في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُون﴾ سورة يس الآية/ ٥١.

الثالثة: الآية الّتي فيها ذكرت الصّيحة هي قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُون﴾ سورة يس الآية/ ٥٣. وهذه توافق النّفخة الثّالثة الّتي يكون بها سوق النّاس إلى المحشر وجمعهم في ساحته وهي النّفخة الّتي ذكرت في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ سورة طه الآية/ ١٠٢. والّتي ذكرت في هذه السّورة في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا) والّتي ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ سورة الكهف الآية/ ٩٩.

فظهر من هذا التحقيق أنّ النّفخ ثلاثة، يكون بالأوّل خراب الكون وموت الأحياء وبالثّاني إحياء الموتى وبالثّالث جمعهم للحساب. وكذلك الصّيحات ثلاث، بالأولى خراب الدّنيا وموت الاحياء وبالثّانية إحياء الأموات وبالثّالثة جمعهم للحساب. إذن فالمراد بالنّفخ والصّيحة شيء واحد، وفي بعض التّفاسير أنّ النّفخ ثلاثة كما ذكرنا إلّا أنّ في بعضها إثنان واعتمد هؤلاء على ظاهر الحديث الّذي يروى عن الرّسول (ﷺ) الّذي يقول: (ما بين النّفختين أربعون)[١] ولم يبيّن أربعون يوماً أو شهراً أو سنةً أو غير ذلك، إلّا أنّ القول بثلاث نفخات لا يعارض الحديث، فإنّ الحديث ورد في ذكر الله نفختا الآخرة أي الّتي بها إحياء الموتى والّتي بها السّوق إلى الحساب ولم يذكر النّفخة الّتي تأتي في الدّنيا فتقضي على الكون وحياة النّاس جميعاً. ولنا أن نقول: إنّ قوله (ﷺ): (ما بين النّفختين أربعون) هو قضيّة كليّة أي ما بين كلّ نفختين أربعون، فيكون المعنى بين النّفخة الّتي بها خراب الدّنيا والنّفخة الّتي بها إحياء الاموات أربعون وبين نفخة الاحياء ونفخة الجمع أربعون، فيكون الحديث ذاكراً النّفخات الثّلاث ولم يبق الإشكال في هذا الموضوع، وللتّيقّن من أنّ النّفخ ثلاثة انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ سورة النّازعات فهذه هي النّفخة الأولى، (تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) وهي النّفخة الثّانية، ثمّ يقول: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ سورة النّازعات

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٨٨١ الحديث رقم ٤٦٥١.

الآيات/ ٦-١٤. وهذه هي النّفخة الثّالثة. وانظر إلى قوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ سورة يس الآية/ ٤٩. فهذه هي النّفخة الأولى ثمّ يقول ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُون﴾ سورة يس الآية/ ٥١. وهذه الثّانية، ثمّ يقول: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُون﴾ سورة يس الآية/ ٥٢. وهذه هي الثّالثة. وإنّ ممّا يوضّح أنّ النفخ هو الصّيحة. إنّ الله تعالى يسمّي يوم القيامة بالقارعة فيقول تعالى ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾ سورة القارعة الآيتان/ ١،٢. والقارعة هي الصّيحة الشّديدة الّتي تقرع الآذان. ويسمّيه بالصّاخة أيضاً فيقول: (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ سورة عبس الآية/ ٣٣، والصّاخة هي الصّيحة الّتي تصخّ الآذان. فالآيات الدّالة على أنّ النّفخ نفس الصّيحة وبالعكس كثيرة، نكتفي في هذا المجال بهذا القدر من الذّكر، إلّا أنّه بقي أن نذكر أنّ الصّيحة ما هي ومن أي شيء يحدث؟ فنقول الصّيحة صوت شديد وقد أطلق في آيات كثيرة على الصّاعقة فإنّ الصّيحات الّتي وردت في الآيات الّتي تخبر عن إهلاك الأقوام بالصّيحة يفسّرها المفسّرون بالصّاعقة ويقولون أتتهم صاعقة من السّماء فأهلكتهم ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ*﴾ سورة الحجر الآيتان/ ٧٣، ٧٤. لأنّ المطر يكون قبل الصّاعقة أو معها أو بعدها. فبعد ما علمت ما ورد يجوز لك أن تقول: أنّ النّفخ في الصّور هي عبارة عن صاعقة تهدم الكون وتميت الأحياء، وأخرى تحييهم وأخرى تجمعهم، أو أنّ كلّها صيحة من ملائكة أو كلّها نفخ من الملك في شيء، أو بعضها صاعقة وبعضها صوت شديد، ولا ملامة عليك في ذلك لأنّ كلاً من هذه الأمور بأمر الله تعالى ربّ العالمين، ولم يرد نصّ صريح من القرآن الكريم، ولا من الحديث المتواتر عليه يعيّن ويبيّن أنّ النّفخ ما هو وإنّ الصّيحة ما هي هذا والله تعالى أعلم.

* * *

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾

أي ذات أبواب أو أنّها لكثرة أبوابها كأنّها كلّها أبواب.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

أي وأزيلت الجبال فكانت كالسّراب لا وجود لها.

مسألة: إنّ هذه النّفخة هي نفخة الجمع للحساب، وهي النّفخة الثّالثة، وإنّ انفتاح السّماء وانشقاقها وانفطارها وتسيير الجبال يكون بالنّفخة الأولى كما سبق بيانه، فكيف ذكر بعد هذه النّفخة؟

الجواب: إنّ الواو لمطلق الجمع ولا يفيد التّرتيب حتّى يستلزم كون فتح السّماء بعد هذه النّفخة بل يجوز أن يكون قبلها، أو نقول أنّ الواو في **(وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ)** و **(وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ)** للحال لا للعطف، فيكون المعنى يوم ينفخ في الصّور فتأتون أفواجاً، والحال أنّ السّماء كانت مفتوحةً أبوابها والجبال كانت مسيّرة سراباً قبل ذلك، وإنّما ذكر هنا لأنّ الانسان في ذلك الوقت يشعر بذلك حيث في النّفخة الأولى والثّانية يذهل الإنسان عن كلّ شيء فلا يعلم ولا يرى ما وقع وما حصل لشدّة الهول وعظمة الحادث والله تعالى أعلم بمراده.

* * *

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾

بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السّابقة أنّ هذه السّماء تفتح فيكون فيها أبواباً كثيرة جدّاً، وأنّ الجبال تسير وتزال فتكون كالسّراب، وينفخ في الصّور فيأتي كلّ النّاس إلى المحشر فوجاً فوجاً، أراد الله تعالى أن يذكر مصير الكافرين والمسلمين في ذلك اليوم، فقال وعزّ من قائل: **(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا)** أي كانت جهنّم في ذلك اليوم منتظرة من يدخلها ويستحقّها ومشتاقة لالتهامهم بلهيبها ولظاها.

﴿لِّلطَّاغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾

أي مرجعاً خبر ثانٍ لكانت وللطّاغين متعلّق به قُدِّم عليه لفوائد:

الأولى: الحصر في أن تكون مآباً للطّاغين فقط لا لغيرهم.

الثّانية: رعاية السّجع لأنّ آخر هذه الآيات التّنوين الّذي يوقف عليه بالألف.

الثّالثة: أنّه لو قيل أوّلاً مآباً لخاف المؤمنون وظنّوا أنّها تكون مآباً للجميع؛ فلكي لا يدخل الخوف قلب المؤمن قدّم للطّاغين ليعلم المؤمن أوّلاً أنّها مآبٌ للطّاغي لا

للمؤمن، والطّاغي هو الّذي جاوز الحدّ الّذي فرضه الله تعالى له في العقيدة أو الأعمال أو الأخلاق، فمن جاوز الحدّ في العقيدة كمن لم يؤمن بالله أو أشرك به غيره أو أنكر ما هو معلوم من الدّين بالضّرورة فهو كافر، وتكون جهنّم مآباً له أبداً دون خروج منها. ومن جاوز الحدّ في العمل أو الأخلاق فقط لا في الإيمان فهو مؤمن عاصٍ فيحاسب على أعماله، فإن زادت حسناته أو ساوت سيّئاته فهو ناجح ولا تكون جهنّم مآباً له، ومن زادت سيئاته فمآبه جهنّم يدخل فيها بقدر ما زادت سيّئاته وإلى أن يتطهّر منها، ثمّ ينجو ويدخل الجنّة بإذن الله تعالى فاللّبث المذكور في قوله تعالى:

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابًا ﴿٢٣﴾﴾

أي ماكثين في جهنّم **(أَحۡقَابًا)** جمع حقب وهم ثمانون سنة يكون بقدر ما يستحقّه الدّاخل من الأحقاب، فأمّا أحقاباً غير متناهية كما هو للكافر، أو أحقاباً معدودة تنتهي وذلك بالنّسبة للمؤمن الفاسق. فإن قيل الأحقاب جمع حقب بضمّ فسكون وهو ثمانون سنة، وإنّه من صيغ جمع القلّة فلا يتجاوز عشرة أحقاب، فتكون المدّة ثمانمائة سنة، فيفيد أنّهم يلبثون فيها ثمانمائة سنة، فبعد ذلك يخرجون كما يفيد ذلك المفهوم المخالف، وهذا يخالف تأبيد الكفار في جهنّم الّذي نطقت به آيات أخرى كثيرة.

فكيف التّوفيق بين هنا وما في الآيات الأخرى؟

فأقول: أجيب عن هذا السّؤال بوجوه:

الأوّل: إنّ المراد بالأحقاب ما لا ينتهي كما روي عن عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنّا وعنه أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (والله لا يخرج من دخلها حتّى يموت فيها أحقاباً، والحقب بضع وثمانون سنة، والسّنة ثلاثمائة وستّون يوماً، كلّ يوم ألف سنة لما تعدّون، فلا يتكلنّ أحدكم على أن يخرج من النّار)[1] ذكره الثّعلبي، وقال القرطبيّ: الأحقاب ثلاثة وأربعون حقباً كلّ حقب سبعون خريفاً، كلّ خريف سبعمائة سنة، كلّ سنة ثلاثمائة وستّون يوماً، كلّ يوم ألف سنة، وغير ذلك موجود من الرّوايات ذكرها القرطبيّ في تفسير الآية هذه، إلّا أنّ هذا الجواب لا يفيد إلّا طول المكث لأنّ الشّيء المحدود مهما كثر فإنّه ينتهي ولا يفيد التّأبيد.

(١) الكمال في ضعفاء الرجال٣/ ٢٨٦ الحديث رقم ٧٥٤.

الثّاني: إنّ المراد بالاحقاب أحقاب الآخرة وهي لا تنتهي وهذا أيضاً ضعيف. لأنّ القرآن يتكلّم بما كان يفهمه النّاس بأنّه جاء للإنذار والتّبشير وهما إذا لم يفهما لا فائدة فيها.

الثّالث: عن المراد أحقاباً بعد أحقاب لا نهاية ولا آخر لها، وهذا سديد إن كان هذا الإصطلاح متداولاً بين المخاطبين حين نزول القرآن، وإلّا فلا.

الرّابع: إنّ المعنى لابثين فيها أحقاباً يعذّبون بعدم ذوق البرد والشّراب ثمّ بعد ذلك تتبدّل نوعيّة العذاب وتزول ولا تزول الأحقاب، وذلك بدلالة التّقييد بقوله: **(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا)**

هذا ما ذكره المفسّرون.

وعندي: أنّ الجواب الصّحيح هو ما قلنا، وهو أنّ المعنى: لابثين فيها أحقاباً كلّ حسب استحقاقه، فالّذي يستحقّه الكافر هو الأحقاب غير المتناهية، والّذي يستحقّه المؤمن هو أحقاب متناهية حسب العمل والأخلاق، وذلك بدلالة الآيات والأحاديث الّتي تدلّ على خلود الكفرين وعدم خلود المؤمنين والله تعالى أعلم

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾﴾

إنّ طيّب حياة الإنسان ولذّته تحصل بتبريد البدن وتبريد الباطن والمعدّة وأهل النّار محرومون من الاثنين فلا يذوقون برداً يريح أبدانهم ولا شراباً يريح أحشاءهم.

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾

بعدما ذكر الله تعالى أنّ أهل جهنّم لا يذوقون برداً ولا شراباً، وأفاد أنّهم محرومون من التّنعّم، فلربّما يتسلّى بعض الكافرين ويظنّون أنّه ليس وراء ذلك شيء يؤذيهم، فكما أنّهم محرومون من التّنعم فهم محفوظون من التّأذّي، وفي ذلك بعض التّسلية فقال تعالى: **(إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا)** أي ولكنّهم علاوة على عدم تمتّعهم بالبرد والشّراب أنّهم يتأذّون بشرب الحميم وهو الماء الحارّ الّذي يقطع الأحشاء ويأكل الغساق وهو صديد أهل النّار.

﴿جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾

أي جوّزوا هذا الجزاء جزاءً موافقاً لخبث عقيدتهم وأعمالهم. ثمّ بيّن العقيدة الخبيثة الملائمة لهذا الجزاء، وهذا العذاب فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾

أي كانوا في الدّنيا لا يؤمنون بهذا الجزاء ولا بالحساب ولا بمجيء يوم القيامة؛ فجوّزوا هذا الجزاء. ثمّ إنّهم لم يقفوا على هذا الحدّ بل:

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾

أي كذّبوا بآياتنا القوليّة الّتي جاءت وكانت تنذرهم عذاب هذا اليوم والآيات الكونيّة الّتي تدلّ وتشهد على حتميّة مجيء هذا اليوم، فكذّبوا بتلك الآيات كلّها (**كِذَّابًا**) تكذيباً فاضحا قويّاً.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾

كتاباً مفعول مطلق لأحصيناه على غير لفظه لأنّ الاحصاء يكون بالتّعداد، ويكون أيضاً بالكتابة أو مصدر بمعنى المفعول، فالتّقدير أحصيناه مكتوباً، فيكون حالاً عن ضمير أحصيناه أو منصوب على الظّرفيّة، فالتّقدير أحصيناه في كتاب وهو سجلّ أعمال العبد، وإنّ هذه الآية تدلّ على أنّهم لم يكتفوا بعدم الإيمان وتكذيب الآيات، بل عملوا بكلّ وسيلة وبطرق متعدّدة للقضاء على هذه العقيدة وصدّ النّاس عنها، ومعاداة الّذين حملوا هذه العقيدة ونشروها، فالمعنى: كلّ شيء ممّا عملوا ضدّ هذه العقيدة وضدّ حامليها والمؤمنين بها سجّلناه في كتاب يحاسب النّاس وفق أعمالهم الّتي سجّلت وحفظت فيه هذا.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى كيفيّة العذاب الجسماني لأهل جهنّم ونوعيّته ومدّته أشار إلى أنّه لا يكتفي بذلك، بل يعذّبون فيها العذاب النّفساني أيضاً من التّكدير والتّنديم والتّضليل والتّجهيل فيقال لهم:

﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

فبدل أن يرحّب بهم يخاطبون هذا الخطاب بالتّكدير ولقطع طمعهم وأملهم في الانفراج والنّجاة من هذا العذاب، فإنّ في الأمل نوع راحة وفرح فحرموا من هذا النّعيم

النّفسي، كما حرموا من النّعيم الجسمي جميعاً، وذلك لأنّهم خالفوا دين الله جسميّاً بأعمالهم البدنيّة وعصوا ربّهم بها وبالأعمال النّفسية من عدم الإيمان بما أنزل والتّكذيب والإنكار له؛ فعوقبوا بمثل ما عملوا تحقيقاً لعدل الله وإنجازاً لوعيده. والله يفعل ما يشاء وهو على كلّ شيء قدير.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾

قد ذكرنا غير مرّة بأنّه من عادة القرآن الكريم أنّه كلّما ذكر حال الكافرين وعقابهم يعقب ذلك بذكر حال المؤمنين أو ثوابهم، أو حينما ذكر حال المؤمنين ونعيمهم يذكر بعد ذلك حال الكافرين وما لهم من العذاب، وهنا بعدما ذكر الله تعالى حال الكافرين وعذابهم بدأ بذكر حال المؤمنين وثوابهم جمعاً بين الوعد والوعيد والإنذار والتّبشير الّذي جاء القرآن لذلك. فقال تعالى: **(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا)** مصدر ميمي من الفوز وهو النّجاة من المكروه ونيل المحبوب (والمتّقين) جمع متّقي أصله (أوتقي) من وقى اجتمع الواو مع تاء الافتعال فقلب تاءً فأدغم فيه فصار (اتّقى) لأنّه من القاعدة الصّرفية أنّه إذا كان فاء فعل افتعل حرف من حروف (أتثدذز سشص ضطظوي) فإنّها تقلب تاءً فتدغم فيه. ووقى بمعنى حفظ واتّقى بمعنى تحفظ واجتنب من الشّيء المضرّ، ويردّ مقابلاً للكفر والعاصي. فإذا جاء مقابلاً للعاصي والمذنب فمعناه اجتنب الذّنب والعصيان، وهنا وقع مقابلاً للطّاغي. وقد ذكرنا أنّ الطّاغي يشتمل الكافر والفاسق كما سبق، فالمتّقي هنا من اجتنب الكفر وكذلك من اجتنب المعاصي كلّها من الكفر وغيرها، فالمجتنب من المعاصي كلّها يكون له مفاز بدون أن يرى عذاباً، وهو المؤمن الكامل، وأمّا المجتنب عن الكفر والخائض في المعاصي فإنّه يحاسب، فإن زادت حسناته على سيئاته أو ساوتها فله الفوز دون عذابٍ أيضاً، والّذي زادت سيّئاته على حسناته يكون له الفوز بعد التّطهر من الذّنوب بالعذاب، فمجرّد الإيمان سبب للفوز عاجلاً أو آجلاً. ثمّ بيّن الله تعالى المفاز بقوله جلّ وعلا:

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾

(حَدَائِقَ) أي بساتين يسكن ويتجوّل ويتنزّه فيها و **(وَأَعْنَابًا)** أنواعاً من العنب يأكلها.

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾

(وَكَوَاعِبَ) أي بنات ظهر ونبت ثديهنّ توّاً ليتمتّع بهنّ **(أَتْرَابًا)** أي متساوية لهم في العمر، فإنّ المعاشرة مع الاتراب ألذّ، فالأتراب جمع ترب، والتّرب من المسّ التّراب معك وقت الخروج من بطن الأم.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾

مملوءة من الخمر أو متتابعة دون الانقطاع، لأنّ الدّهاق جاء بالمعنيين ويجوز أن يراد المعنيان معاً أي مملوءة ومتتابعة أيضاً.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾

أي لا يسمعون في الجنّة **(لَغْوًا)** كلاماً فارغاً أي هزلاً وما لا فائدة فيه، ولا ما تشمئزّ منه القلوب **(وَلَا كِذَّابًا)** عطف على لغواً، أي لا يسمعون في الجنّة تكذيباً لما يقولون، وردّاً لما ينطقون به، لا من قبل الملائكة ولا من طرف النّاس، حيث لا منازعة ولا مناقشة في الجنّة، فلا يحتاج أحد إلى ردّ قول أحد أو تكذيبه، وإنّما كلّ كلامهم سلم وسلام وحبّ ووئام.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾

أي جوزوا هذا الجزاء، جزاءً من ربّك يا محمّد **(عَطَاءً حِسَابًا)** أي أعطوا هذا النّعيم عطاء كافياً.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾

أي هو **(ربّ)** كلّ **(السّماوات والأرض وما بينهما)** فيشمل ذلك العبد وعمله، فيفيد أنّه إذا جازاه خيراً فبمجرد فضله ورحمته ولذا قال بعده **(الرَّحْمَنِ)** أي إنّما أعطاه هذا العطاء الوافي لأنّه رحمن يحبّ الرّحم ولمجرّد رحمته لا لحاجته إلى أحد، أو لوجوب العطاء عليه كما يتوهّم ذلك بعض النّاس من أنّ ثواب المطيع واجب **(لا يملكون منه خطاباً)** فلا يستطيع أحد أن يطلب ثواباً لا لنفسه ولا لغيره.

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾

يوم منصوب بفعل يدل عليه ما قبله أي أعطوا هذا العطاء يوم يقوم الرّوح وهو جبريل والملائكة **(صفّاً)** أي مصطفين حال من الرّوح والملائكة أي يقومون مصطفين منتظرين ما يأمرهم الله تعالى من سوق النّاس إلى الجنّة أو إلى النّار **(لا يتكلّمون)** أي الملائكة وجبريل وكلّ من حضر في ذلك اليوم من الخلائق **(إلّا من)** أي شخصاً **(أذن له الرّحمن)** في أن يتكلّم فيتكلّم وبشرط أن يقول هو صواباً أي قولاً صواباً لا غلطاً بأنّ يشفع لمؤمن مات على الإيمان. أو المعنى لا يتكلّمون أي لا يشفعون لأحد إلّا لمن أذن له الرّحمن في أن يشفع له وبشرط أن يكون من يشفع له قال صواباً وهو [لا إله إلّا الله محمّد رسول الله] وعلى كلا المعنيين لا شفاعة لمن لم يمت على الإسلام كما نطقت بذلك آيات كثيرة لا مجال لسردها هنا، حيث لا يتحمّله المقام وله مقام آخر.

سؤال: سمّي هذا النّعيم الّذي فاز به المتّقون أوّلاً جزاءً، والجزاء ما كان مقابل عمل أو شيء ثمّ عبّر عنه بعد العطاء، والعطاء ما كان دون مقابل فكيف التّوفيق بين التّعبيرين؟

الجواب: حيث إنّ ما فازوا به كان في مقابل ما اتّصفوا به من العمل، فكان في ظاهر الحال جزاء ومقابل شيء، ولكن حيث إنّ الإيمان والعمل الصّالح من خلقه تعالى وبإرادته وتوفيقه كان ملكاً لله تعالى لا ملكاً للعبد، فكان ما يفوزون به دون مقابل في باطن الحال وحقيقته، ولذلك يقول الرّسول (ﷺ): (لن يدخل أحداً عمله الجنّة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال لا ولا أنا إلى أن يتغمّدني الله بفضل ورحمة، فسدّدوا وقاربوا، ولا يتمنّين أحدكم الموت، إمّا محسنا فلعلّه أن يزداد خيراً وإمّا مسيئاً فلعلّه أن يستعتب)[1].

* * *

حكاية: يروى أنّ شخصاً في الزّمان السّابق دخل منذ نشأته كهفاً واشتغل بعبادة الله تعالى، ولم يدخل في المجتمع فلم يعص الله في شيء، وكان لا يفتر عن عبادة الله تعالى طرفة عين، وقد خلق الله تعالى له عين ماء أمام الكهف فيشرب منه، وأنبت

(١) صحيح البخاري ج٥/ ص٢١٤٧ الحديث رقم ٥٣٤٩.

له رمّاناً على تلك العين وعاش بهذا الحال وفي تلك العبادة خمسمائة سنّة ثمّ مات. فسئل من قبل ربّه هل نعامله حسب عمله أو حسب فضلنا ورحمتنا؟ فلمّا فكّر الرّجل أنّه لم يصدر منه ذنب ولا معصية، بل صرف كلّ عمره في العبادة قال: بعملي، فسئل عنه: من الّذي خلق لك هذا الكهف وأسكنك فيه أنت أم الله تعالى؟ قال: خلقه الله تعالى، ثمّ قيل له: من الّذي خلق لك الرّمان والعين وكنت تشرب منها وتأكل الرّمان أنت أم الله؟ قال: خلقه الله، ثمّ قيل إنّ الأعمال الّتي كنت تعملها هل كان بتوفيق منك أم بتوفيق من الله تعالى؟ قال: بتوفيق من الله تعالى، فهل كانت تلك الأعمال بخلقك أم بخلق الله تعالى؟ قال: بخلق الله تعالى، ثمّ قيل: فهل كانت تلك الأعمال ملكاً لك أم لله تعالى؟ قال: لله، فقيل له: فأين عملك؟ فقال: لا شيء، فسيق إلى النّار، فالتفت في الطّريق التفاتةً، فسئل من قبل ربّه تعالى: لم التفتَّ؟ قال: انتظر رحمة الله تعالى، فأمر تعالى بإرجاعه إلى الجنّة، ثمّ إنّ أعمال الإنسان مهما بلغت لا تساوي النّعم الّتي أنعم الله تعالى بها عليه في الدّار الدّنيا من السّمع والبصر والكلام وغير ذلك من النّعم الظّاهرة والباطنة، فلو قوبلت أعماله بهذه النّعم فلا يبقى له عمل للآخرة، بل يبقى مطلوباً فلا يستحقّ شيئاً من الجنّة؛ ولذا فإن أدخله الله تعالى الجنّة فذلك لمجرّد فضله وإنعامه وكرمه وإحسانه، أفادنا الله تعالى بهذا التّكريم والإحسان إنّه أرحم الرّاحمين آمين.

* * *

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾

(ذلك اليوم الحقّ) أي ذلك اليوم الّذي يفوز فيه المتّقون ويخيب فيه الطّاغون **(الحقّ)** أي الثّابت والآتي لا محالة ولا ريب في مجيئه **(فمن شاء)** أي فمن شاء رجوعاً إلى ربّه ولقائه **(اتّخذ إلى ربّه مآباً)** أي سلك طريقاً يرجع فيه إلى ربّه ويعمل أعمالاً يرجع بها إلى ربّه.

تنبيه: إنّ الله تعالى وضع لعباده سبيلين: سبيل الخير وسبيل الشّر ولا ثالث لهما، وأعطاه القدرة على سلوك أيّ سبيل شاء منهما، ولا يجبر أحداً على الخير ولا على الشّر، بل إن اختار الخير يسّره له وإن اختار الشّر خلقه له وجعل حبله على غاربه امتحاناً له، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ سورة البلد الآية/ ٩. أي خلقنا له سبيل

الخير والشّر وأفهمناه بأنّ هذا خير وهذا شرّ وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيْلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ سورة الإنسان الآية/ ٣. هذا وجعل لكلّ سبيل منزلاً يؤدّيه ويوصله إليه، فمنزل من سلك سبيل الخير الجنّة والنّعيم فيها، ومنزل سبيل الشّر جهنّم ويعذّب فيها وإليك هذه الرّواية.

رواية: يروى أنّ سيّدنا أبا بكر (رضي الله عنه) قال:

الموت باب وكلّ النّاس داخله   يا ليت علمي بعد الباب ما الدّار

فقال سيّدنا عمر (رضي الله عنه):

الدّار دار نعيم إن عملت بما   يرضي الإله وإن خالفت فالنّار

فقال سيّدنا عثمان (رضي الله عنه):

هما محلّان ما للمرء غيرهما   فاختر لنفسك أيّ الدّارين تختار

فقال سيّدنا علي (رضي الله عنه):

ما للعباد سوى الفردوس منزلةً   وإن هفوا هفوةً فالرّب غفّار

وكان قصد عليّ (رضي الله عنه) العباد المؤمنين الصّالحين، فهما محلّان ولكلّ محلّ سبيله الخاصّ، فالمرء مخيّر بين سلوك سبيل جهنّم وبين سبيل الجنّة ولذا قال الله تعالى: **(فمن شاء اتّخذ إلى ربّه مآباً)** أي سلك سبيلاً يعيده إلى ربّه ويورثه لقاءه.

ثمّ بعد ما ذكر الله تعالى حال الطّاغين وحال المتّقين نبّههم بإنذار موجز فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾

(إنّا أنذرناكم عذاباً قريباً) وصف ذلك العذاب بالقرب لأنّ كلّ آتٍ قريب وإن بعد، ولقد قيل ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آتٍ، أو لأنّه يوجد قيامتان القيامة الكبرى وهي الّتي تأتي بعد خراب الدّنيا والقيامة الصّغرى وهي الّتي تأتي بعد الموت فالمرء إذا مات يلقى جزاء عمله، فإنّ الرّسول (ﷺ) يقول: (إنّما القبر روضة من رياض

الجنّة أو حفرة من حفر النّار)[١] وقال (ﷺ) أيضاً: (من مات فقد قامت قيامته)[٢] والموت قريب. ثمّ بيّن الله تعالى الوقت الّذي يكون فيه هذا العذاب فقال: **(يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه)** أي يوم الحساب كلّ امرئ يرى ما عمله باليدين أو بغيرهما، وإنّما خصّ اليدين لأنّ غالب الأعمال باليدين، وبعدما رأى الكافر ما عمله وأنّه يساق إلى جهنّم يتحسّر **(ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً)** أي كنت تراباً فلم أخلق ولم آت إلى الدّنيا، أو معناه أنّ الله تعالى يجمع الحيوانات ليقضي لها ممّن ظلمها من النّاس بالحمل الثّقيل أو الأوجاع أو الإيجاع أو الإعطاش، ثمّ بعد ذلك تموت وتعود تراباً دون ثواب ولا عقاب، فيتمنّى الكافر أن يكون واحداً منها.

نكتة: إنّ كثيراً من النّاس من يتكبّر أو يتجبّر ويعجب بنفسه وأنّه لو قيل له: يا حمار! لضرب القائل بقنبلة، ولكنّه يعمل أعمالاً في الدّنيا يساق بها يوم القيامة إلى النّار ويرى الحمير تحيى لتسأل عمّن ظلمها، فبعدما ثبت على صاحبها الظّلم منها تموت وتعود تراباً، فيتمنّى ذلك الشّخص المتكبّر والمعجب بنفسه ويقول: يا ليتني كنت حماراً فأموت وأعود تراباً بدلاً من أن أدخل جهنّم. فقل له يا أخي فإمّا أن لا تغضب حينما يقال لك: يا حمار! أو لا تعمل هذه الأعمال الّتي ستتمنّى من جرّائها يوم القيامة، أن تكون حماراً. حفظنا الله تعالى من مثل تلك الأعمال. آمين يا ربّ العالمين.

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٣٩ الحديث رقم٢٤٦٠ وقال حسن غريب.

(٢) كنز العمال ١/ ٢٣٣ الحديث رقم٤٢١٢٣.

سورة النّازعات

(مكيّة، نزلت بعد النّبأ، وآياتها ستّ وأربعون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تمهيد: قد ثبت أنّ الحلف بغير الله تعالى أو اسم من اسمائه أو صفة من صفاته غير جائز، وليس بمنعقد بل حرام في الدّين ومنكر يفسّق به الحالف أو يكفّر على اختلاف في ذلك بين العلماء، فكيف أقسم الله تعالى بغيره في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وكيف يعظّم الله غيره ممّا خلقه بيده واخرجه من العدم إلى الوجود كالشّمس والقمر والسّماء والأرض وغير ذلك ممّا أقسم به في كتابه الكريم؟ وكيف يعظّم عليه شيء من الأشياء فيحلف ويقسم به؟ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً. هذا من جهة ومن جهة أخرى قد يستدلّ بعض من لم يفهم المعنى من هذا الأيمان ويقول: أنّ الله تعالى أقسم بغيره في القرآن الكريم فيدلّ ذلك على أنّ الحلف بغير الله تعالى جائز كالحلف بالأب أو غيره من العظماء أو الزّعماء أو الصّالحين فنقول قد ذكر في التّفاسير أجوبة عديدة عن هذا:

الأوّل: أنّه يجوز لله تعالى ما لا يجوز لغيره فحلف الله تعالى بغيره لا يفيد جواز الحلف للعباد بغيره تعالى أو بغير اسم من اسمائه أو صفة من صفاته، فإنّ قياس المخلوق على الخالق باطل وإنّ الحكم عن الله تعالى للجواز وعدمه كفر وإلحاد.

الثّاني: إنّ بعض المفسّرين قدّروا مضافاً قبل ما أقسم الله به فقالوا: في ﴿والسّماء والطّارق﴾ مثلاً وربّ السّماء وربّ الطّارق، وهكذا فعلوا في جميع ما أقسم الله تعالى به في القرآن الكريم.

الثّالث: إنّ المراد بهذه الأيمان هو تذكير العبد بنعم الله الجليلة وخلق هذه الأشياء وتسخيرها له، وإلفات نظره إلى عظمة الله تعالى وقدرته لكي يشكر هذه النّعم بالأيمان بمن أنعم عليه وتوحيده بالعبادة، ويخاف من عظمته وقدرته فلا يعصي أمره ولا يعبد غيره.

إلّا أنّ هذه الأجوبة كلّها لم تثلج صدري ولم يطمئن بها قلبي، بل الّذي وقع في خلدي واطمأنّ إليه قلبي بعد النّظر والتّفتيش هو:

أنّ هذه الأيمان ليست أيماناً في الحقيقة والواقع. حيث أنّ تعريف اليمين لا يصدق عليها وذلك لأنّ اليمين: هي تأكيد القائل خبره بذكر اسم من يعظّم ويقدّس مقروناً بإحدى حروف القسم من الواو أو الباء أو التّاء معتقداً بأنّ صاحب الاسم سيعاقبه إذا كذب في خبره هذا ويثيبه إن صدق. ومن البديهي أنّ هذا التّعريف لا يصدّق على هذه الأيمان، فإنّ الله تعالى أجلّ من أن يخشى عقاب أحد أو أن يطمع في ثوابه. بل إنّ هذه الأيمان دلائل وبراهين وحجج على ما يأتي بعدها من الخبر المذكور أو المقدّر اخرجت في صورة اليمين لأنّها تشبه الدّليل من حيث أنّ المراد بكلّ منهما تأكيد الخبر وإثباته هذا. وبعدما اتّجهت هذا الاتجاه واطمأن القلب إليه رأيت أن الإمام الرّازي قال في تفسيره الكبير في تفسير سورة (الذّاريات) إنّ الأيمان الّتي حلف الله تعالى في القرآن الكريم كلّها دلائل اخرجها في صورة القسم لأنّ المتكلّم إذا شرع في أوّل كلامه بحلف فإنّ السّامع يعلم أنّه يريد أن يتكلّم بكلام عظيم فيصغي إليه أكثر وأحسن، بدأ الله تعالى بالحلف وأدرج الدّليل في صورة يمين حتّى أقبل النّاس على سماعه، فخرج لهم البرهان المبين، انتهى ما قاله الإمام الرّازي رحمه الله، فشكرت الله تعالى على تطابق رأيي مع رأي هذا الإمام الجليل. ولكنّ الّذي يتعجّب منه أنّ الإمام الرّازي بعد قوله ما سبق مشى في تفسيره لهذه الأحلاف كلّها على اليمين إلّا نادراً جدّاً وبالإشارة لا التّصريح، ولم يحوّل هذه الأيمان إلى البراهين والأدلّة ولم يذكر كيفيّة تحويلها إليها وكم تمّنيت أن يفعل لأنّه لو حوّلها لأثلج القلوب ولأفاد النّاس كثيراً. فلذلك بذلت جهدي وألّفت رسالة سمّيتها: (القول المتين فيما ورد من القسم بغير الله تعالى في القرآن المبين) وحوّلت فيها هذه الأيمان كلّها إلى براهين وحجج على ما يأتي بعدها، حسب ما آل إليه الفكر الفاتر وعلمي القاصر، هذا وإنّ ما ورد من هذه الأيمان في القرآن الكريم بلغ واحداً وعشرين موضعاً، وإنّ

ما في هذه السّورة هو الموضع الثّامن عشر من تلك المواضع، قال جلّ وعلا:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾

المعنى والله أعلم بمراده أنّ هذه الكواكب والنّجوم الّتي تسير وتخرج من مدار إلى مدار ومن برج إلى برج سيراً سريعاً فتغرق أي تسرع في سيرها غرقاً أي إسراعاً، وتلك الكواكب الّتي تنشط أي تسير في درجاتها نشطاً أي سيراً بطيئاً وهادئاً، وهذه الّتي تسبح في السّماء ومداراتها وفي البروج ومنازلها سبحاً فتسبق بهذا السّبح والسّير السّريع غيرها من بعض الكواكب الأخرى كالقمر مثلاً فإنّه يقطع البروج الإثني عشر كلّها في شهر واحد في حين أنّ الشّمس تقطعها في إثني عشر شهراً، وكذلك باقي النّجوم تختلف في حركاتها وسيرها في الفضاء فتدبّر كلّ من هذه الكواكب والنّجوم أمراً أو أموراً كالشّمس مثلاً فإنّها أنيطت بها الإنارة في النّهار وحدوث الفصول الأربعة وبثّ أشعّتها للقمر لينعكس عليه للنّاس في اللّيل المظلم وغير ذلك من أمور لا نحيط بها علماً، وكالقمر مثلاً أنيط به المدّ والجزر في البحار وانعكاس النّور في اللّيالي المظلمة وغير ذلك ممّا يعلمه الله وأطّلع عليه بعض عباده، وهكذا فكلّ كوكب أنيط به أمر أو أمور في الكون ومنافع العباد ومصالح الوجود، وذلك كسبب لا كمؤثّر، فإنّ الله تعالى هو المؤثّر بالذّات، وهو الّذي خلق الأسباب وربط بها المسبّبات. هذا الصّنع العجيب وهذا النّظام البديع المتقن لدليل واضح يدلّ ويشهد بأنّ يوم القيامة والإحياء بعد الموت والحساب بعد ذلك ممكن وإنّه لآتٍ. أمّا إمكانه فلأنّ من استطاع أن يخلق هذا الكون العظيم وأن يبدع هذا النّظام العجيب وأن يصنع هذا الصّنع المتقن لقادر على أن يعيد الإنسان بعد الموت ويحييه بعد الموت، وأن يحاسبه على ما فعله وما لم يفعل وما قدّم وما أخّر كما قال تعالى: ﴿أوليس الّذي خلق السّماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلّاق العليم﴾ سورة يس الآية/ ٨١. بل إنّ إعادة الإنسان أسهل من هذا الخلق العظيم بالنّسبة إلى تصوّرنا لا إلى خلق الله تعالى؛ فإنّ كلّ شيء بالنّسبة إليه سواء، فلا أصعب ولا أسهل عند قدرة الله تعالى. وأمّا دلالة هذا النّظام على أنّ يوم القيامة تأتي فلأن من خلق هذا الصّنع العجيب، وأوجد هذا النّظام التّكويني للخلق وفعل كلّ ذلك لأجل حياة الإنسان، ولأنّ

يعيش على هذه الكوكبة الأرضيّة ليس بمعقول أن يترك الإنسان سدىً وأن يهمله نسياً منسيّاً وأن لا يضع له نظاما تكليفيّاً يضبط به أعماله وأخلاقه وينظّم به وجوده وحياته ويحلّ به مشكلاته ومعضلاته ويفصل به نزاعه وخصامه، ويسيّر بموجبه في إجتماعه ومعاملاته وفي جداله ومحاكماته، فإنّ رئيس القرية يضع نظاماً لأهل قريته ورئيس الدّولة يسنّ قانوناً لمن تحت إمرته، فكيف بالله وهو أحكم الحاكمين، فقد وضع نظاماً للنّاس يعملون به ودستوراً يعيشون بهديه، وإنّ من شأن كلّ نظام أن يثاب من يطبّقه ويعمل به، وأن يعاقب المنحرف عنه والمخالف لبنوده. حيث نرى كثيراً من النّاس يطبّقون أوامر الله تعالى ولا يخالفون شريعته، يتّفقدون الخير ويبتعدون عن الشّر، يموتون دون أن يلقوا ثواباً على أعمالهم في الدّنيا وجزاءً على خيرهم في هذه الحياة، وعكسهم أناس منهمكون في الشّهوات ويعيشون حسب هواهم خارجين عن نظام الله منتهكين حرماته تاركين شريعته وراء ظهورهم جاعلين أوامره نسياً منسيّاً، مع أنّهم يعيشون في رغدٍ من العيش وسعادة في الدّنيا، ثمّ يموتون دون أن يلقوا عقاباً على أعمالهم وعذاباً على سيّئاتهم، فلو ذهب هذان الشّخصان دون عذاب وثواب فمعنى ذلك أنّ الله ظلم ولم يعدل في حكمه، وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فلا بد إذن أن يأتي يوم بعد الموت يحيا فيه النّاس ويحاسب فيه الصّالحون والمجرمون، فيثاب الصّالح على حسناته ثواباً جزيلاً ويعاقب الفاسق على سيّئاته عقاباً وبيلاً، وهذا هو الّذي أشار إليه سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾ سورة النّون الآيتان/ ٣٥، ٣٦. هذا وقد فسّر كثير من المفسّرين **(النّازعات)** بطائفة من الملائكة والّتي تنزع روح الكفار فتغرق أي تشتدّ في النّزع غرقاً **(والنّاشطات)** بالملائكة الّتي تنشط وتخرج أرواح المؤمنين من أجسادهم بسهولة ويسر حتّى لا تؤذيهم **(والسّابحات)** بالملائكة الّتي تسرع فتسبق إلى أداء أوامر الله تعالى فتدبّر أمراً ممّا أمر الله تعالى بها. إلّا أنّ هذا التّفسير لا يريح القلوب لأنّ هذه الآيات لو كانت أحلافاً وأيماناً فلابدّ أن يكون الحلف بما يعرفه المخاطبون، وإنّ أهل مكّة والحاضرين في ذلك الزّمان والمخاطبين بهذه الآيات من منكري يوم القيامة لم يكونوا ليعرفوا هذه الطّوائف من الملائكة حتّى يحلف لهم بها. وإن كانت دلائل كما اخترنا فلابدّ أيضاً من أن يعرف المخاطبون ما يستدلّ به على ما ينكرونه، وذلك واقع لأنّهم كانوا يعرفون الكواكب والنّجوم والصّفات الّتي أسندت إليها لا الملائكة بهذه الصّفات. هذا وإنّه يقف القارئ حسب

علم التّجويد عند قوله تعالى: **(أمراً)** ولا يوصله بقوله: **(يوم ترجف الرّاجفة)** لكي لا يتوهّم القارئ أنّ هذا التّدبير يكون يوم ترجف الراجفة أي عند لحظات الحياة المنتهية الآيلة إلى الزّوال، بل إنّ هذا التّدبير لهذه الكواكب في الحياة الدّنيا وقبل أن يؤمر بخرابها، وجواب هذه الأيمان أو الخبر الّذي يدلّ عليه هذه الكواكب، وهذا النّظام محذوف تقديره أنّ القيامة لآتية وكأنّ قائلاً يقول متى تأتي هذه القيامة فيقول تعالى جواباً لهم:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾

(يوم) مفعول فيه منصوب بفعل مقدر بقرينة المقام تقديره يأتي القيامة يوم **(ترجف)** تهتزّ وتضطرب الأرض اضطراباً شديداً تسمّى بسبب هذه الحركة والاضطراب الشّديد ويقال لها **(الرّاجفة)** لأنّها لشدّة حركتها واهتزازها كأنّها هي الرّاجفة ولا راجفة سواها، وهذه الرّجفة تكون عند النّفخة الأولى والّتي يكون بها خراب هذا النّظام الكوني الموجود وتساقط النّجوم والكواكب والشّمس والقمر وتبدّل الأرض غير الأرض والسّماء غير السّماوات ويموت كلّ من عليها. **(تتبعها)** تأتي بعد هذه الرّجفة رجفة ثانية تسمّى **(الرّادفة)** لأنّها تابعة وثانية للرّجفة الأولى والرّادفة بمعنى التّابعة، وهذه الرّجفة تكون عند النّفخة الثّانية والّتي يكون عندها قيام الأموات من القبور أحياء، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ سورة يس الآية/ ٥١.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

(قلوب) قلوب كثيرة وهي قلوب الكفّار **(يومئذٍ)** يوم إذ كان كذا وجاءت هذه الرّجفة فأحيت الأموات **(راجفة)** مضطربة تلك القلوب وخائفة من هذا اليوم وما يقع فيه من الحساب وعقاب الكافرين فيه وثواب من آمن بذلك اليوم **(أبصارها)** عيونها **(خاشعة)** ذليلة من هول ذلك اليوم **(يقولون)** أي يقول أصحاب هذه القلوب الخائفة المضطربة تحسّراً أو كراهيةً لما آلوا إليه **(أإنّا لمردودون)** أإنّا لراجعون **(في الحافرة)** في الطّريقة الّتي أتينا منها؟ أي هل إنّا لمردودون؟ فإنّهم علموا بأنّهم قد رجعوا إلى الحياة

ولكن حسرة على هذه الحياة يقولون ذلك حيث يعلمون ما يلاقونه في تلك الحياة من العذاب فكانوا يتمنّون أن يؤبّد عليهم الموت وأن لا يرجعوا للحياة **(قالوا)** ثمّ قالوا اعترافاً بقبح مصيرهم **(تلك)** أي هذه الرّجعة والحياة الثّانية بعد الموت **(كرّة خاسرة)** رجعة خاسر صاحبها يريدون بذلك أنفسهم وإلّا فبالنّسبة للمؤمنين هي رجعة رابحة وهي الحياة المحبوبة لهم والّتي تفوق حياة الدّنيا تفوّقاً لا يتصوّر كنهه إلّا من رزق هذه الحياة **(فإنّما هي زجرة واحدة)** أي لا توجد حادثة بعد ذلك تجمعهم في عرصة الحشر والحساب سوى أنّهم يسمعون صوتاً عظيماً وصيحةً شديدةً فيرون أنفسهم بأرض ساهر أهلها، ومن دخل فيها. لا نوم من خوف الحساب ولا راحة فيها من دهشة الوقوف بين يدي الله تعالى، وهذه الزّجرة تكون عند النّفخة الثّالثة والّتي يساق بها النّاس إلى المحشر كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ كما مرّ في تفسير سورة (عمّ) تحقيق أنّ النّفخات ثلاث يموت كلّ النّاس عند الأولى ويحيون عند الثّانية ويحشرون عند الثّالثة.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾

قد ورد قصّة موسى (عليه السلام) في القرآن الكريم مراراً فمرّة بتفصيل ومرّة باختصار ومرّة بإشارة قصيرة إليها، والسّبب في ذلك أنّها وردت القصّة أولاً مفصّلاً لأجل أمور:

١- أن يكون معجزة لرسول الله (ﷺ) ولتدلّ على أنّه رسول؛ فإنّ محمّداً الّذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يكن له أيّ اطلاع وممارسة للكتب السّماوية وتواريخ الأقدمين ولا إطلاع له على أخبار الأنبياء والمرسلين، والّذي نشأ في أمّةٍ أمّيّةٍ غافلةٍ وجاهلةٍ بهذه الأمور كلّها، إنّ محمّداً هذا الأمّيّ يقوم فجأة ويخبر عن الرّسل والأنبياء السّابقين، وعمّا جرى على أممهم كما هو المثبّت والمسطور في الكتب السّماوية الّتي لم تحرّف ولم تبدّل، ويخبر عن أمور لم يطّلع عليها إلّا أصحاب الاختصاصات من أحبار اليهود وأهل الكتاب، فتدلّ هذه الأمور والإخبارات الصّادرة من محمّد (ﷺ) على أنّه أوحي إليه هذه الاشياء وأنّه رسول وإلّا فليس من الإمكان أن يعرف محمّد هذه الأمور من طريق آخر غير الوحي وإعلامه من الله تعالى.

٢- أن يكون بشارةً بالنّصر للمؤمنين ورسولهم على أعدائهم الكفرة، كما نصر الله المؤمنين السّابقين على أعدائهم وذلك سنّة الله في العباد.

٣- أن يكون وعيداً للكافرين بنزول العذاب عليهم، كما أنزل على من سبقهم من

كلّ أمّة عادت رسولها ولم تتّبع ما أتى به الرّسول من الهداية والشّريعة والمنهج الحقّ القويم.

٤- أن يكون تسلية لرسول الله تعالى (ﷺ) وإعلامه بأنّ هذه الطّريقة قد مرّ بها الرّسل من قبله، وقد تحمّلوا الأذى والمشقّة في سبيل الدّعوة ولاقوا ما تلاقيه أنت من عداء القوم وإيذائهم واستكبارهم عن الحقّ، فتلك سنّة الله مع الرّسل إلّا أنّ العاقبة لهم والخسارة لمن عاداهم.

ثمّ بعد ذلك كلّما ضاق قلب الرّسول (ﷺ) وأصابه الحزن بسبب مشاقّة الكافرين وإصرارهم على الكفر وإيذائهم لأصحاب الرّسول والوقوف في طريق الدّعوة وصدّ النّاس عنها لكلّ أساليب أمكنوا منها، يذكّره الله تعالى بقصّة رسول من الرّسل ويذكر نبذة من حياته ليكون تسلية له ووعداً بنصره ووعيداً للكفار بالهزيمة أمام هذا الحقّ المبين والخسارة الّتي تنالهم على هذا الضّلال المشين. ففي هذه السّورة بعد ما أوضح الله تعالى دلائل تدلّ على مجيء يوم القيامة بحيث لم يبق مجال للتّردّد في الإيمان به، وازداد الكافرون كفراً وعنداً ولم يخضع للحقّ الواضح وللبرهان السّاطع، فحزن قلب محمّد (ﷺ) فذكر الله تعالى له نبذة قصيرة من حياة موسى (ﷺ) وذكّره بمأساة موسى مع قومه ومع فرعون خاصّة؛ ليسلّي الرّسول (ﷺ) ويذكّره بالنّصر الموعود، وليوعد أعداءه بالعاقبة المرّة الوخيمة إن لم يؤمنوا؛ فقال تعالى: **(هل أتاك حديث موسى)** أي أتاك قصّة موسى فاعتبر بها وتسلّ بها، فإنّ هذا هو حال الرّسل لا يخلون عن ملاقاة الصّعوبات عن طريق الدّعوة وعن شدّة المعاداة من أصحاب العتوّ والكبرياء، والمرتزقة من طريقة الضّلالة والغواية، فهذه حال كلّ رسول وكلّ داعية إلى الله تعالى، فيجب عليهم أن يصبروا ويتحمّلوا ما يلاقونه إلى أن يأتيهم النّصر الموعود، فإنّ الصّبر حليف الفرج، وإنّ بعد كلّ عسر يسراً، وتلك سنّة الله في العباد.

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

(إذْ) في وقت **(ناداه ربّه)** بالرّسالة وذلك النداء كان **(بالواد المقدّس)** والّذي كان يسمّى **(طوى)** فناداه الله تعالى في ذلك الوادي وقال له: **(إذهب إلى فرعون)** كرسول منّا حيث **(إنّه طغى)** جاوز الحدّ في الكفر؛ لأنّه ادّعى الألوهيّة، فنصب نفسه إلهاً للقوم، وجاوز الحدّ في الظّلم لأنّه يقتل أبناء بني إسرائيل ويترك نساءهم خوفاً من كثرة رجالهم فيسلبوا عنه ملكه، أو لأنّ الكهنة أخبروه بأنّه يولد من بني إسرائيل ولد يكون زوال ملكه على يده **(فقل هل لك)** رغبة إلى أن تزكّى أي تتطهّر من الكفر بالإيمان بأنّ لا إله إلّا الله وحده لا شريك له؟ ومن الظّلم بإخلاء سبيل بني إسرائيل، لأنّ نذهب بهم إلى فلسطين، فيسكن هناك فتستريح منهم ويستريحوا منك؟ **(وأهديك إلى ربّك)** وهل لك رغبة في أن أرشدك إلى ربّك وخالقك؟ **(فتخشى)** فتخاف منه ولا تقابله بالكفر والعصيان؟ وذهب موسى إلى فرعون وبلّغه رسالة ربّه ودعاه إلى عبادة الله والالتزام بدينه وشريعته، فلم يستجب فرعون لذلك، فأراد موسى أن يقنعه؛ فأظهر له المعجزات فلم يؤمن **(فأراه الآية الكبرى)** أي أظهر موسى لفرعون المعجزة الأكبر من كلّ المعجزات الّتي أعطاها الله تعالى له، لا الأكبر من كلّ المعجزات على العموم **(فكذّب)** فرعون بعد ما رأى هذه المعجزات، والمعجزة الأكبر منها كذّب موسى في دعواه الرّسالة **(وعصى)** فلم يؤمن به ولم يستسلم لأمر الله ودينه والعمل بشريعته **(ثمّ أدبر يسعى)** أي بعد أن رأى هذه المعجزات تولّى واجتهد في مقابلة تلك المعجزات وفي تبليغ قومه أن لا يتّبعوا موسى **(فحشر)** أي جمع قومه **(فنادى)** لهم وخطب فيهم قائلاً: لا تتّبعوا موسى حيث لا ربّ لكم غيري **(فقال أنا ربّكم الأعلى)** من كلّ ربٍّ فانتقم الله تعالى منه **(فأخذه)** أي عذّبه **(نكال الآخرة)** أي عذاب الآخرة بأن أدخله النّار بعد موته **(والأولى)** وعذاب الدّنيا بأن أغرقه وقومه في النّيل **(إنّ في ذلك)** أي في قصّة فرعون وما آل إليه أمره من العذاب في الدّنيا والآخرة **(لعبرة)** كبيرة **(لمن يخشى)** عاقبة الأمور، واعتبر بمن مضى وأهلك وخسر الدّنيا والآخرة بسبب طغيانه واستمراره على مخالفة الله تعالى وعصيانه، فيرجع ويتوب عن مثل أعمالهم لكي لا يبتلي بما ابتلوا به من العذاب والنّكال. هذا ومن أراد الاطّلاع على قصّة موسى وفرعون فليقرأ سورة الأعراف وطه والشّعراء والقصص، فإنّ في ذلك الغرض من المطلوب، اللّهم اجعلنا من المعتبرين ونجّنا من الظّلم والظّالمين آمين برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

أظهر الله تعالى للنّاس هذه الدّلائل الّتي تدلّ على مجيء يوم القيامة وخوفهم من سوء عاقبتهم بقصّة فرعون، وبعد كلّ ذلك تمادوا في غيّهم وطغيانهم وكفرهم

واستمرارهم على عدم الإيمان، فاستفهم الله تعالى منهم استفهام تسفيه وتوبيخ فقال جلّ وعلا:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢) مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ (٣٣)﴾

(أأنتم أشدّ خلقاً أم السّماء) أأنتم أشدّ خلقه وأصعب إعادته أم السّماء أشدّ وأصعب خلقها؟ والجواب هنا: أنّ السّماء أشدّ وأصعب خلقها من خلق الإنسان وإعادته بالنّسبة لنظرنا وعقولنا وتفكيرنا، وإلّا فلا شيء أصعب وأسهل بالنّسبة إلى قدرة الله تعالى، فالكلّ بالنّسبة إلى قدرته سهل حيث ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ سورة يس الآية/ ٨٣. فحينما ثبت أنّ خلق السّماء أصعب بالنّسبة إلى تصوّرنا قال تعالى: **(بناها)** أي أنّ الله تعالى بنى السّماء وأوجدها من العدم **(رفع سمكها فسوّاها وأغطش ليلها)** أي وجعل ليلها مظلماً **(واخرج ضحاها)** وجعل نهارها مضاءً **(والأرض بعد ذلك دحاها)** أي وعلاوة على خلق السّماء ونهارها خلق الأرض وجعلها فراشاً صالحاً للسّكن والحياة عليها بأن **(اخرج منها ماءها)** أوجد فيها مياهها وأنهارها وفجّر فيها عيونها وآبارها **(ومرعاها)** وأوجد فيها المراعي الموجودة فيها **(والجبال أرساها)** أي وأقام الجبال فيها ونصبها عليها لئلا تضطرب فتتحرّك وتميل. خلق كلّ ذلك من السّماوات واللّيل والنّهار والأرض والمياه والمراعي **(متاعاً لكم ولأنعامكم)** لأجل أن تتمتّعوا بها أنتم وأنعامكم. فالله الّذي خلق هذه السّماء الّتي خلقها أصعب من خلقكم وأشدّ، واللّيل والنّهار الّذي هو أعجب من إيجادكم، والّذي خلق هذه الأرض وما فيها من نبات وأشجار وجبال لقدير أن يخلقكم ويعيدكم بعد الموت، حيث إنّ خلقكم هذا أسهل بالنّسبة إلى تصوّركم من خلق هذه الموجودات العظيمة العجيبة والكثيرة وأسهل بالنّسبة إلى الواقع، إلّا أنّه لا أسهل ولا أصعب بالنّسبة إلى قدرة الله تعالى وخلقه.

سؤال مهمّ: إنّ هذه الآية الكريمة تفيد بأنّ الله تعالى خلق الأرض بعد السّماء وقوله تعالى في سورة البقرة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٩. يفيد بأنّ الأرض خلقت قبل السّماء فكيف التّوفيق بين الآيتين الكريمتين؟

الجواب: قد ذكر في تفسير القرطبي والتّفسير الكبير للإمام الرّازي وغيرهما من التّفاسير (رحمهم الله تعالى) أجوبة كثيرة أصحّهما اثنان:

الأوّل: إنّ الله تعالى خلق الأرض قبل السّماء غير مدحوة وصالحة للسّكنى ثمّ جعل الأرض مدحوة صالحة للسّكن بعد خلق السّماء، ولكنّ هذا الجواب يناقض قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ... الخ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٩. فإنّه يفيد أنّ خلق جميع ما في الأرض كان قبل خلق السّماء ولا يكون خلق جميع ما في الأرض إلّا بعد دحوها وجعلها صالحة للسّكنى وذلك أمر واضح.

الثّاني: إنّ قوله تعالى (بعد) في (بعد ذلك دحاها) ليس بمعنى بعديّة الزّمان بل هو بمعنى (بالإضافة إلى) أي مع وزيادة على. فالمعنى أنّ الله تعالى خلق السّماء واللّيل والنّهار وزيادة على خلق السّماء وليلها ونهارها. دحا الأرض أي خلقها وبسطها وذلك كما في قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ سورة القلم الآية/ ١٣. ويعني علاوة على هذه الصّفات القبيحة السّابقة أنّه اشتهر باللّؤم والدّناءة وصار ذلك علامة يعرف ويوصف بها، وبهذا لا تفيد الآية أنّ الأرض خلقت بعد السّماء فتبقى آية البقرة غير معارضة وهذا الرّأي أصحّ. وللوصول إلى الجزم بأنّ الأرض وما فيها خلقت قبل السّماوات أم لا؟ علينا أن نتتبّع كلّ الآيات الواردة في كيفيّة وترتيب خلق السّماوات والأرض، بعد ذلك نستطيع أن نستنبط منها ما يفيد الجزم أو الظّنّ الغالب في قبليّة أو بعديّة خلق إحديهما قبل الأخرى. ونودّ أن نبيّن أوّلاً أنّ السّماوات والأرض وما بينهما من نجوم وكواكب وشموس وأقمار خلقت في ستّة أيام، وذلك حسبما تنصّ على ذلك الآيات التّالية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ سورة الأعراف الآية/ ٥٤. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ سورة يونس الآية/ ٣. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ سورة هود الآية/ ٧. فنستنتج من هذه الآيات أنّ السّماوات والأرض خلقتا في ستّة أيام بحكم الآيات الثّلاث وأنّه لم يكن في الوجود قبل خلق السّموات والأرض من شيء سوى الماء، وأنّ عرش الله تعالى أي حكمه كان على الماء فقط بحكم الآية الثّالثة، ثمّ نقول: إنّ ما بين السّماوات والأرض من الكواكب والنّجوم والشّموس والأقمار كلّها خلقت في هذه الأيام السّتّة

أيضاً، وللعلم بذلك فاقرأ هذه الآيات: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ سورة الفرقان الآية/ ٥٩. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ سورة فصلت الآية/ ١٤. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ سورة ق الآية/ ٣٨. فيظهر من هذه الآيات أنّ كلّ ما بين السّماوات والأرض خلق في الأيّام السّتّة الّتي خلق فيها السّماوات والأرض، وذلك بحيث لا غبار عليه، لأنّ دلالة الآيات عليه واضحة كلّ الوضوح. إلّا أنّه لم نجد إشارة في هذه الآيات إلى أنّ السّماء خلقت قبل الأرض، أو بالعكس، ولا إلى أنّ ما بين السّماوات من الكواكب والنّجوم والشّموس والأقمار خلقت قبلها أو بعدها، وكذلك ليس في هذه الآيات ما يفيد أنّ السّماوات خلقت في كم يوم؟ والأرض في كم يوم؟ وما بينهما في كم يوم من هذه الأيّام السّتة؟ إلّا أنّ هذا مذكور بوضوح في الآيات من الثّامنة إلى الثّانية عشرة في سورة فصّلت. فإنّها تدلّ بوضوح على أنّ الأرض وما فيها خلقت في أربعة أيام، وأنّ السّماوات وما بينهما وبين الأرض من الكواكب والنّجوم والشّموس والأقمار خلقت كلّها في يومين، وأنّ خلق الأرض وما فيها كان قبل خلق السّماوات والكواكب والنّجوم والشّموس والأقمار. وللاطّلاع على ما نقول هاك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة فصلت الاية/ ٩. فهذه الآية نصّ على أنّ الارض خلقت في يومين ثمّ قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ سورة فصلت الآية/ ١٠. أي في تكملة اليومين الأوّلين بيومين آخرين فتكون أربعة أيّام، فظهر أنّ الأرض وما فيها من الجبال والنّبات والأشجار والأنهار والوديان وغير ذلك ممّا هو سبب لحياة الحيوان، خلق كلّ ذلك في أربعة أيام من هذه الأيام السّتة، فبقيت يومان فقط لخلق السّماوات كلّها والنّجوم والكواكب والشّموس والأقمار، خلق كلّ ذلك في يومين فقط، وإنّ خلق السّماوات وهذه الأشياء كلّها كان بعد خلق الأرض وما فيها، كما تنصّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة فصلت الآية/ ١١، ١٢. ففي هذه الآية تبيّن أنّ السّماوات وما يتّبعها من النّجوم والكواكب خلقت بعد الأرض وفي يومين فقط، كما يتبيّن من هذه الآيات أنّ السّماوات

والكواكب والنّجوم والشّموس والأقمار كانت دخاناً قبل، وأنّها خلقت من الدّخان. فظهر من هذه الآيات المذكورة كلّها سبعة أمور:

الأوّل: أنّ السّماوات والأرض وما بينهما خلقت كلّها في ستّة أيام.

الثّاني: أنّ الأرض خلقت في يومين.

الثّالث: أنّ ما في الأرض من الجبال والأقوات وبركات الله تعالى خلق في يومين فصار خلق الأرض وما يتبعها في أربعة أيام.

الرّابع: أنّ السّماوات وما فوق الأرض كلّه خلق في يومين فقط.

الخامس: أنّ السّماوات وكل ما فوق الأرض خلقت بعد خلق الأرض وخلق ما فيها من الجبال والأقوات وبعد دحوها أيضاً.

السّادس: إن السماوات والنجوم والكواكب والشّموس والأقمار خلقت من الدّخان.

السّابع: أنّه لم يكن قبل خلق السّماوات والأرض وما بينهما إلّا الماء.

وكان حكم الله تعالى وعرشه على الماء، فظهر من هذه الأمور السّبعة أنّ السّماوات والأرض والنّجوم والكواكب والشّموس والأقمار كلّها خلق من الماء، وإنّ الحقّ هو ما قيل في بعض التّفاسير: أنّه لم يكن شيء موجوداً سوى الماء، وكان عرش الله أي حكمه على الماء، ثمّ رمى الماء بالزّبد فخلق من الزّبد الأرض، وصعد منه دخان فخلق من الدّخان السّماوات، وكلّ ما فوق الأرض ولا يخالف ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٣٠. حيث يقول الإمام الرّازي في تفسير هذه الآية الكريمة: أنّه وجد في التّوراة أنّ الله تعالى خلق قبل كلّ شيء جوهرة فنظر إليها فأصبحت ماء ثمّ خلق الأرض والسّماوات من ذلك الماء.أ.هـ . لأنّ معنى فتق الرّتق تفريق عناصر مجتمعة وجعلها أشياء متفرّقة فكان في الماء عنصر الزّبد فصار كلّه أرضاً وعنصر الدّخان فصار سماوات وعنصر الماء فبقي ماء.

* * *

وهنا يتبادر إلى الذهن أسئلة ثلاثة:

الأوّل: من البديهي أنّه لم توجد اللّيالي والأيّام قبل خلق الأرض والسّماوات والشّمس والقمر، فما هي تلك الأيّام السّتّة الّتي خلق فيها السّماوات والأرض وما بينهما؟.

الجواب: إنّ هذه الأيّام هي أيام الله تعالى المقدّرة بمقدار يعلمه الله تعالى ألف سنة من أيامّنا هذه قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ سورة الحجّ الآية/ ٤٧. فإن كان المراد بالأيّام السّتّة من مثل هذا اليوم؛ فيكون خلق الأرض وما فيها في أربعة آلاف سنة من سنيننا، وخلق السّماوات وما بينهما وبين الأرض في ألفي سنة. وورد أيضاً أنّ مقدار اليوم هو خمسون ألف سنة، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤)﴾ سورة المعارج الآية/ ٥. فإن كان المراد بالأيّام السّتّة من مثل هذا اليوم، فيكون خلق الأرض وما فيها في مائتي ألفي سنة وخلق السّماوات وما فوق الأرض في مائة ألف سنة. والله أعلم بمراده في هذه الأيام السّتّة، هل اليوم منها ألف سنة أو خمسون ألف سنة أو أكثر أو أقل من ذلك، ولا نستطيع أن نجزم بشيء من ذلك بدون سند أو دليل.

الثّاني: إذا كان خلق الأرض قبل السّماوات كما قلتم فلماذا نقدّم السّماوات على الأرض في كلّ الآيات الّتي تبحث عن السّماوات والأرض؟.

الجواب: إنّ التّرتيب في ذكر الأشياء إمّا أن يكون من الأدنى إلى الأعلى وإمّا بالعكس. فإن أخذنا بالأوّل فقد قدّمت السّماوات على الأرض لأنّها أعلى بالنّظر إلى تصوّر الإنسان. وإن أخذنا بالاعتبار الثّاني فلأنّ الأرض أنفع للإنسان وأقرب إليه، بل لأنّه أهمّ من السّماوات وأشرف منها حيث إنّ هذه السّماوات والنّجوم والكواكب والشّموس والأقمار كلّها خلقت لأجل تأمين الحياة على الأرض، وإنّ الأرض خلقت لأجل أن يحيا عليها هذا النّوع الّذي هو أشرف كلّ مخلوق وهو الإنسان، وللإطّلاع على ذلك فاقرأ الآيات الّتي تنصّ على أنّ الله تعالى سخّر السّماوات والشّمس والقمر والنّجوم والكواكب كلّها لأجل الحياة على الأرض والإنسان الّذي يعيش عليها وتستطيع أن تجمع هذه الآيات كلّها من مادّة (سخّر) من مرشد القرآن الكريم أو المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، وتجد في ذلك ما يثلج قلبك.

الثّالث: ما القول في النّظرية الّتي تقول في أنّ الأرض انفصلت من الشّمس وأنّ القمر انفصل من الأرض؟ فهذا يدلّ على أنّ الأرض خلقت بعد السّماوات والأرض.

الجواب: أنّ هذه النّظرية مجرّد نظريّة ولم تستند إلى كتاب أو سنّة أو حجّة يقينيّة، ولا تزال في دور الشّك والتّفحص، ولم تصل إلى درجة العلم واليقين فلا يترك ظاهر

القرآن لها. وفي عقيدتي أنّ العلم يصل إلى درجة تّحقّق ما في القرآن من أنّ الأرض خلقت قبل السّماء والكواكب والنّجوم والشّمس والقمر فيخضعون لما في القرآن ويتحقّق قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ سورة فصّلت الآية/ ٥٣. هذا وقد كتبت في القول المنصف ما يوافق هذه النّظريّة تقليداً لا تحقيقاً، فتركت ما هناك لما هنا.

* * *

ثمّ بعد ما أظهر الله تعالى ما يدلّ على حدوث الحياة بعد الموت والحساب بعد الفوت قال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

(فإذا) العامل في إذا فعل محذوف تقديره وقت ما **(جاءت)** الطّامة يقع ما يقع **(الطّامة)** القيامة مشتقّة من طم، وفي مختار الصّحاح كلّ شيء علا وكثر وغلب فقد طمَّ، سمّيت القيامة بالطّامة لأنّها داهية غلبت الدّواهي كلّها ولذلك سمّاها الله تعالى: **(الكبرى)** أي الدّاهية الأكبر من كلّ داهية. ثمّ بين ما يقع في هذه الدّاهية فقال تعالى: **(يوم)** وهو مفعول فيه منصوب بما بعده وهو بتذكّر المذكور في قوله تعالى: **(يتذكّر الإنسان ما سعى)** من الأعمال في الدّنيا من خير وشرّ وكذا في قوله تعالى: **(وبرزت)** أي أظهرت **(الجحيم)** وهي جهنّم **(لمن يرى)** أي لمن يوجد منه الرّؤية فيراها كلّ راءٍ وكلّ إنسان في ذلك اليوم، وهذا كناية عن كثرة ظهورها. ثمّ ذكر نتيجة تذكّر وتعداد هذه الأعمال وبروز الجحيم لكلّ إنسان فقال تعالى: **(فأمّا من طغى)** أي تجاوز الحدّ في العقيدة بأن كفر أو في الاعمال بأنّ فجر **(وآثر)** أي اختار **(الحياة الدّنيا)** على الآخرة فإنّ المعاصي كلّها إنّما يرتكبها المرء لأداء شهوة أو لنيل منفعة أو لحصول لذّة في الدّنيا، حيث يخسر بذلك لذّة في الآخرة وشهوتها ومنفعتها، فقد اختار الحياة واللّذة في الدّنيا على لذّة الآخرة **(فإنّ الجحيم)** جهنّم **(هي المأوى)** لهذا الطّاغي يبقى

فيها أبداً إن كان الطّغيان في العقيدة وبسبب الكفر أو مدّة يستحقّها إن كان الطّغيان في العمل أو بسبب المعاصي **(وأمّا من خاف مقام ربّه)** أي الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب ودعاه هذا الخوف إلى ترك المعاصي والذّنوب **(ونهى النّفس)** أي زجرها ومنعها **(عن الهوى)** عمّا تهواه النّفس **(فإنّ الجنّة هي المأوى)** أي هي مأواه دون أن يرى شيئاً من العذاب إن تساوت حسناته مع سيئاته، أو بعد ما تطهّر إن زادت سيّئاته على حسناته إلّا أنّه حينما دخلها يكون فيها أبداً كما قال تعالى: ﴿إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات كانت لهم جنّات الفردوس نزلاً خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً﴾ سورة الكهف الآيتان/١٠٧، ١٠٨. فالألف واللّام في الموضعين عوضاً عن المضاف إليه والتّقدير مأواه كما قدرنا **(يسألونك عن السّاعة)** بعد ما أثبت الله تعالى إمكان ووقوع القيامة وأخبر عمّا يجري فيها من الثّواب والعقاب كان النّاس من المؤمنين والكافرين يسألون رسول الله (ﷺ) عن السّاعة؟ أي ساعة قيام النّاس وحشرهم وخراب الدّنيا، وكانوا يستمرّون في هذا السّؤال ويلحّون في طلب الجواب عن سؤالهم هذا، فكان الرّسول يحبّ أن يعرف ذلك الوقت ويبيّن لهم تطميناً لقلوب المؤمنين وضعف في إيمان الكافرين، نتيجة الجواب عن هذا السّؤال، وكان قلبه مشغولاً بذلك ومنتظراً الوحي الكاشف عنه، ولكنّ حيث أنّ هذا العلم سرّ من أسرار الله تعالى ومختصّ بذاته، وليس ممّا يكشف للعباد قطع الله تعالى طمع الرّسول (ﷺ) في العلم بذلك والاعلام بوقته، إراحةً لقلبه الشّريف وسدّاً لباب السّؤال عن هذا الموضوع فأنزل جلّ وعلا:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

(يسألونك عن السّاعة) ليس هنا ما يبيّن من هم السّائلون أو يوضّح نوعيّتهم أو شخصيّتهم، فلذلك يحمل على العموم، أي يسأل المؤمنون تطميناً لقلوبهم والكافرين إنكاراً أو إحراجاً للنّبيّ (ﷺ) أو منهم من يسأل إنكاراً وإحراجاً، ومنهم من يريد وضوح الحقّ ليؤمن فيسألون ويقولون **(أيّان مرساها)**؟ أي متى تقوم السّاعة؟ فالسّؤال كان عن بيان وقتها لا عن حقيتها، فإنّ المؤمنين كانوا يؤمنون بحقيتها فلا يسألون،

والكافرين منهم من ينكر حقيّتها فيسأل عن وقتها إنكاراً واستهزاءً، ومنهم من يتردّد فيسأل لزيادة الإيضاح ليظهر عنده ما يوجب إيمانه، إلّا أنّ العلم بذلك الوقت اختص الله تعالى بعلمه فقال: **(فيم أنت من ذكراها)** أي ما السّبب في ذكر القيامة والسّؤال عنها والرّغبة في العلم بها؟ وإنّ الله تعالى كان عالماً بالسّبب الّذي كان الرّسول (ﷺ) لأجله يحبّ العلم بذلك الوقت وذكره للنّاس وهو تطمين قلوب المؤمنين والطّمع في إيمان الكافرين، فاستفهم إنكاراً لهذا السّبب وأنّه ليس ممّا يوجب حبّك لها، كذا قالوا في التّفاسير ولكنّي اعتقد بأنّ المعنى **(فيم أنت)** أي في أيّ درجة من الاستعداد للعلم بذلك فإنّك لم تعط الاستعداد لهذا العلم ولذلك قال تعالى: **(إلى ربّك منتهاها)** إلى علم ربّك منتهى العلم بهذا، وإنّ هذا العلم مختصّ بالله تعالى، ولا يليق بالعبد أن يعلمه، وإن كان رسولاً، فإذا لم يعط هذا العلم للرّسول الأعظم فلا يمكن أن يعلم ذلك غيره من المخلوقين حتّى الملائكة المقرّبين، ولذلك حينما سأله جبريل (عليه السلام) قائلاً: متى السّاعة؟ قال ما المسؤول عنه بأعلم من السّائل، أي كلانا سواء في عدم العلم بذلك، ثمّ ذكر للرّسول (ﷺ) أنّه ليس عليه أن يذكر لهم وقت قيام السّاعة وليس من واجبه ذلك، بل إنّ واجبه التّبشير والإنذار لما في ذلك اليوم من ثواب المؤمن وعقاب الكافر فقط، فقال تعالى: **(إنّما أنت منذر)** أي واجبك الإنذار من هول ذلك اليوم فقط، وليس من واجبك الإعلام بوقته، فاقتصر على واجبك ولا تتعب نفسك في ما ليس من واجبك **(من يخشاها)** أي إنّك منذر من يخشى القيامة وعقابها، خصّ الإنذار بمن يخشاها وإن كان الإنذار عاماً لمن يخشى ولمن لا يخشى، لأنّ الانتفاع بالإنذار خاصّ بمن يخشى، أمّا من لا يخشى فلا ينتفع به فكأنّه لم ينذر وإن كان إنذاره واجباً، وقد أنذره الرّسول (ﷺ) حيث كان إنذاره للكلّ، ويظهر من هذه الآية أنّ الرّسول (ﷺ) كان يرى أنّ عليه أن يعلم وقت السّاعة وأنّ عليه أن يخبرهم به، فأعلمه تعالى أنّ ذلك ليس عليه وليس من وظيفته، ولذلك تقول السّيدة عائشة (رضي الله عنها): (لم يزل الرّسول يذكر السّاعة ويسأل عنها حتّى نزلت هذه الآية) فما أحرص محمّد (ﷺ) على إيمان النّاس كان يحبّ أن يظهر لهم كلّ شيء ليؤمنوا وينجو من العذاب فصدق الله العظيم إذ يقول ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ سورة التّوبة الآية/ ١٢٨. ثمّ ذكر الله تعالى طرفاً من هول ذلك اليوم والّذي يكون به الإنذار فقال تعالى: **(كأنّهم يوم يرونها)** هنا تقديم وتأخير وتقدير يوم يرونها أي يوم يرون

السّاعة يكون حالهم من شدّة ذلك اليوم (**كأنّهم لم يلبثوا**) في الدّنيا (**إلّا عشيّةً أو ضحاها**) أي عشيّة يوم أو ضحى تلك العشيّة فقط يستقلّون بقاءهم في الدّنيا من شدّة ذلك اليوم، وهكذا حال الإنسان حينما رأى الشّدّة ينسى كلّ الرّخاء وبالعكس. فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم ونرجو من الله تعالى حسن الختام.

سورة عبس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾

(عبس) أي تغيّر لون وجه الرّسول (ﷺ) من الكراهة. **(وتولّى)** أي أعرض عن الأعمى بقرينة قوله: **(أن جاءه الأعمى)** أي وقت مجيء الأعمى إليه.

سبب نزول هذه الآيات:

اجتمع عند رسول الله (ﷺ) مجموعة من صناديد قريش وأشرافها، فكان رسول الله (ﷺ) يعظهم ويدعوهم إلى الإسلام، وكان حريصاً على إسلامهم حرصاً شديداً؛ لأنّه كان يظنّ أنّ في إسلامهم خيراً كثيراً للإسلام حيث يسلم معهم أناس كثيرون ويعتنقون هذا الدّين، فجاءهم (عبد الله بن أمّ مكتوم) وهو أعمى لا يرى انشغال الرّسول (ﷺ) بهذا الجمع فنادى قائلاً: يا محمّد علّمني ممّا علّمك الله تعالى، فقطع بذلك كلام رسول الله (ﷺ) ما كان يلقيه على هذا الجمع الكبير سادة قريش وأشرافها؛ فكره الرّسول ذلك وتغيّر وجهه وأعرض عن الأعمى فلم يجبه، فعاتبه الله تعالى على ذلك فقال: **(عبس وتولّى * أن جاءه الأعمى)** وقد كان الرّسول (ﷺ) يرى أنّ إسلام هؤلاء أنفع من هذا الأعمى، فردّ الله تعالى على ظنّه هذا فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾

(وما يدريك) أي شيء أعلمك بأنّ هؤلاء أنفع، أي ليسوا هم بأنفع بل إنّ هذا الأعمى أنفع لأنّه **(لعله يتزكّى)** أي يترجّى منه ويتوقّع أن يتزكّى من الكفر والشّرك فإنّه جاء لذلك:

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾

(أو يذّكّر) أي بل يتوقّع منه أن يتّعظ ويسمع الموعظة منك **(فتنفعه الذّكرى)** أي موعظتك، فإنّه راغب فيها وطالب لها، وأمّا هؤلاء فليسوا ممّن يتوقّع منهم التّطهّر ولا الانتفاع بالذّكرى، لأنّهم يرون أنفسهم مستغنين عنك وعن موعظتك، فكان عليك أن تقبل على الأعمى فوراً وتعرض عن هؤلاء الّذين كانوا يسمّون بالأشراف، ولكنّك عكست الأمر حيث قال جلّ وعلا:

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥﴾

أي يرى نفسه غنيّاً عنك وعن موعظتك ويتكبّر عنها.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾

تتعرّض وتقبل عليه وتحرص على وعظه وكسبه، فلماذا هذا الحرص عليهم؟.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾

أيّ ضرر يلحقك حينما لا يتزكّى ولا يتطهّر من الشّرك والكفر هؤلاء المتكبّرون الّذين يرون أنفسهم أغنياء عن الإسلام، أي ليس عليك أيّ ضرر فلماذا تقبل عليهم؟

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾

ولكنّ من جاءك برغبته ويجتهد ويرغب في الإسلام.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾

الكافرين أن يؤذوه فإنّهم كانوا يؤذون الضّعفاء حينما أسلموا وكانوا يريدون أن يجبروه على الارتداد والخروج ممّا دخلوا فيه من هذا الدّين القويم والمنهج المستقيم. ومع رغبته هذه وفي حالة خوفه تلك.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾

أي تعرض عنه وتتغفّل عنه كأنّك لم تسمع صوته ونداءه، ومن هنا يؤخذ دروس

لكلّ داعية يدعو للإسلام ولكلّ عالم إسلامي حنيف:

الأوّل: أنّه لا يجوز الإعراض عمّن سألك سؤالاً دينيّاً ولا التّعبيس بوجهه مهما كان ظروفك، فإن كنت بحيث تستطيع أن تجيبه فأجب وإلّا فعليك أن تسوّفه بكلام لطيف، وإنّ الاعراض عنه منهيّ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ سورة الضحى الآية/ ١٠.

الثاني: أنّه لا يجوز في الدّعوة والتّبليغ وتعليم الإسلام التّفريق بين قويّ وضعيف وفقير وغنيّ ووضيع وشريف، ولا يجوز الإعراض عن أحد لأحد مهما كانت منزلته الرّفيعة في الدّنيا وعند النّاس، بل ينبغي أن تتوجّه لمن توجّه إليه وإن كان فقيراً، وأن تتولّى عن من استغنى عنك وإن كان غنيّاً وقويّاً كما أوضح تعالى في قوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ سورة الكهف الآية/ ٢٨.

الثالث: ليس نفع الإسلام منوطاً بالأغنياء أو الأقوياء أكثر من الفقراء أو الضّعفاء، بل إنّما ينتفع الإسلام بمن كان قلبه طاهراً نقيّاً راغباً في الإسلام وإن كان فقيراً أو ضعيفاً، ولا ينتفع الإسلام بمن كان له قلب خبيث وتكبّر يستغني عن الإسلام وإن كان قويّاً أو غنيّاً، فالانتفاع مربوط بالقلب العامر لا بأصحاب القوّة والمفاخر.

الرّابع: إنّ إعراض النّاس عن الإيمان والإسلام وعدم انقيادهم لا يضرّ الدّاعية شيئاً، فإنّ الّذي على الدّاعي هو الذّكرى فقط، فمن استجاب فلنفسه ومن أعرض فإنّما يضرّ نفسه، وإنّ الدّاعي قد أدّى واجبه ونال أجره وثوابه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ سورة النحل الآية/ ٨٢، ومن الخطأ الّذي وقع فيه بعض العلماء أنّه حينما يقال لهم لماذا لا تعظ النّاس؟ يقولون إنّ النّاس لا يستجيبون، فليقرأ هؤلاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٦٤. فعليك أيّها المسلم أن تذكّر، وأمّا التّذكر فلا تكلّف أنت نفسك به بل إن شاء الله تعالى خلق وإن لم يشأ لم يخلق، وإنّما كلّفت أنت بالذّكرى فقط، ﴿وذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الذاريات ٥٥.

الخامس: أنّه لا ينبغي للدّاعية إلى الإسلام أن ينظر إلى الأشخاص والأجناس ويفرح بالأغنياء والأقوياء حينما يستجيبون، أو يغتمّ حينما يعرضون ويتولّون، أو أن يهتمّ بأنّ هذا جاء، وذاك أبى وتولّى، وأقبل هذا وأدبر ذاك، بل عليه أن يلقي قوله الحقّ وينشر دعوته بين الخلق، فمن أخذ به فنعم ومن أعرض عنه فلا يضرّه إعراضه شيئاً قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ سورة الكهف الآية/ ٢٩[١]. وإنّ الله تعالى خصّص لكلّ منزلاً وعاقبة ومصيراً.

السّادس: إنّ هذه الدّعوة لا تختصّ بأناس دون أناس ولا بقوم دون آخر، بل هي دعوة لمن استجاب فقيراً كان أو غنيّاً، وسبيل لمن سلكه قويّاً كان أو ضعيفاً، وهداية لمن اهتدى بها شريفاً أو وضيعاً كما قال جلّ وعلا:

* * *

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾

أي لا ترجع لمثل هذا العمل فتفرّق بين الأقوياء والضّعفاء والفقراء والأغنياء، فإنّ هذه الدّعوة تذكرة عامّة، فمن شاء ذكره وأخذ بها، وهو الّذي ينتفع بها وينبغي أن تتوجّه إليه، ومن لم يشأ لا فائدة فيه وإن أتعبت نفسك من ورائه وأتيت به إلى الإسلام، فإنّ العبرة بحرارة القلب وحبّ الإسلام لا بالأشخاص ذوي المال أو الجاه أو السّلطان.

تنبيه: إنّ هذه الحادثة تدلّ على أنّ الرّسول (ﷺ) كان يعمل في ما لم ينزل فيه وحي حسب اجتهاده ووفق المصلحة الّتي يراها. فبعد ذلك كان الله تعالى يقرّ الحكم الّذي أدّى إليه اجتهاده أو يبدّل ويرشده إلى حكم آخر، فيقول بعض العلماء إنّ هذا يعتبر خطأً في الاجتهاد وإنّ الرّسول (ﷺ) يخطئ والخطأ في الاجتهاد ليس بذنب. وأنّه حينما يقال أنّ الرّسول (ﷺ) معصوم فمعناه بالنّسبة إلى المعاصي أنّه لا يصدر منه معصية قطعاً. وأمّا بالنّسبة إلى الخطأ فمعناه أنّه إمّا أن لا يصدر عنه خطأ أو إذا صدر

---

(١) هذه الآية جاءت للتهديد بدليل أن تكملة الآية هي: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩))

عنه فينبّه فوراً من قبل الله تعالى ولا يقرّر على الخطأ، بخلاف باقي المجتهدين وأنّهم لا ينبّهون على خطئهم ويستمرّون عليه. هذا ولكن لا يخفى أنّ نسبة الخطأ إلى الرّسول (ﷺ) شيء لا يليق بمقامه العزيز وجنابه الرّفيع، فالّذي أراه أنّ الحكم الّذي وصل إليه اجتهاده صحيح وليس بخطأ، لأنّه أجيز من قبل الله تعالى أن يجتهد، وحينما اجتهد فأدّى اجتهاده إلى حكم يكون ذلك الحكم صحيحاً حسب المصلحة الّتي أصدر حكمه لأجلها، فيكون تغيير الله تعالى لذلك الحكم نسخاً وتبديل حكم حسن بأحسن منه وليس تخطئةً للرّسول (ﷺ) أو تنبيهاً له على الخطأ. فهنا لم يكن حرص رسول الله (ﷺ) على إسلام هؤلاء الأشراف من قريش لأنّهم أغنياء أو شرفاء بل لأنّه كان يظنّ أنّ الإسلام يقوى بإسلامهم ولم يكن تولّيه عن ابن أم مكتوم لأنّه فقير أو أعمى، بل لأنّه اعتقد أنّه أضرّ الإسلام بقطعه كلامه مع هؤلاء والتّشويش عليه،حيث كان يعتقد أنّه لو أدام الكلام معهم مسترسلاً ومتسلسلاً لهداهم إلى الحقّ واعتنقوه، فبذلك يحصل قوّة للإسلام، ولكنّ ضيّعه ابن أم مكتوم. فعلى ذلك كان عبسته وتولّيه عنه لمصلحة الإسلام، وإقباله على الأشراف للمصلحة نفسها، فلم يكن ذنباً ولا خطأً بل حرصاً على الإسلام كما قال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ سورة التوبة الآية/ ١٢٨.

ثمّ بعد ما وصف الله تعالى ما يدعو إليه الرّسول من الإسلام أو ما أوحي إليه في القرآن الكريم بأنّها تذكرة، أخبر عن هذه التّذكرة لأنّها جاءت من الله تعالى، وأنّها نزيهة ورفيعة ومطهّرة من كلّ ما يورث التّغيير والتّبديل والخلط والاختلاط فقال جلّ وعلا:

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾

مكرّمة عند الله تعالى مرفوعة القدر مطهّرة من الخلط والاختلاط، وليس كالّذي يأتي به الكهنة فإنّهم كانوا يأخذون أشياء من الجنّ الّذين استرقوا السّمع وأخذوه من الملأ الأعلى، ولكنّهم خلطوا ذلك بأكاذيب حسب هواهم وأباطيل حسبما تدعو إليه رغبتهم ومصلحتهم، ولكنّ القرآن نزل وجاء محفوظاً من هذا الخلط.

بايدى ﴿سفرة ﴾ ملائكة سفراء بين الرّسل وربّ العالمين.

كرام ﴿بررة ﴾ أمناء من كلّ خلط وتبديل وتحريف.

سؤال: ما الحكمة في أنّ الله تعالى وصف القرآن بهذه الصّفات الجليلة وأخبر عنه بأنّه من الله تعالى بدون تأكيد ودون أن يبرهن عليه بدليل؟

الجواب: كثيراً ما يوصف الله تعالى القرآن بمثل هذه الأوصاف الجليلة دون تأكيد وبرهان، وذلك لأنّ القرآن نفسه دليل على جلالته وصحّته ونزاهته من كلّ نقص وعيب، وأنّه لا يمكن صدور هذا الكلام إلّا من الله تعالى، فإنّ كلاماً فاق كلام الشّعراء والبلغاء والخطباء كلّهم في الفصاحة والبلاغة، ولم يستطع أحد أن يعارضه ولو بأقصر سورة منه مع شدّة حرصهم على ذلك، وأصبح يخبر عن الماضي وقصص المرسلين كما هو في التّوراة والكتب السّماوية، ويخبر عن أمور المستقبل كما وقعت، ويخبر عن أمور كونيّة وطبيعيّة يكشفها العلم كما أخبر القرآن عنه، فكلام كهذا يأتي به محمّد (ﷺ) وهو إمّا بعيد عن كلّ دراسة وعلم وكتاب لا يمكن إلّا عن وحي من الله تعالى.

هذا وإنّ كلّ من تفكّر في القرآن وطبّقه مع العلوم الكونيّة والتّأريخيّة والنّظم وقوانين الحياة لا يبقى له مجال إلّا أن يذعن ويؤمن بأنّ ذلك حقّ وما سواه باطل، وأنّه من الله تعالى وأنّ محمّداً رسول (ﷺ)، فلذا جعل الله تعالى من ينكر هذا القرآن ولا يتّبعه بأنّه حريّ بأن يتعجّب منه، ومن كفره ويلعن فقال جلّ وعلا:

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾﴾

حيث نسمع هذا القرآن الّذي وصل إلى حدّ من الكمال والجمال لا يكفر به إلّا من بلغ أقصى حدّ من الكفر والإنكار للحقّ والتّولي عن النّهج القويم والمنهج الواضح المستقيم.

فائدة: إنّ الإنسان حينما يقرأ هذه الحادثة من القرآن الكريم يوقن إيقاناً لا غبار عليه بأنّ هذا القرآن هو من الله تعالى وليس لمحمّد (ﷺ) دخل فيه، وأنّه رسول أمين فإنّه من البعيد جدّاً أن يأتي رجل بكتاب من عند نفسه فيسجّل فيه ملامة على نفسه، وتبقى هذه الملامة تتلى على مرّ السّنين، فلو لم يكن القرآن من الله تعالى لما سجّل محمّد (ﷺ) هذه القصّة ولو لم يكن رسولاً أميناً لحذف هذه القصّة أو على الأقل غيرها بعض التّغيير فما أصدق محمّداً (ﷺ) في رسالته وأعجب به أميناً في تبليغه، فعليه آلاف الصّلاة والسّلام من الله تعالى ذي الجلال والإكرام، ونرجو شفاعته لنا في حسن الختام.

* * *

معجزتان: **الأولى**: إنّ قوله تعالى في الأعمى: (لعلّه يزّكّى أو يذّكّر فتنفعه الذّكرى)

يخبر بأنّ هذا الأعمى يتزكّى ويتطهّر من الكفر والشّرك، وأنّه يسمع لدعوتك فتنفعه وتجلبه للإسلام فيكون مسلماً صادقاً ومؤمناً كاملاً، فإنّ لعلّ في كلامه تعالى ليس للتّرجّي بل للتّحقيق. وقد حصل ذلك مثل ما أخبر، فإنّ هذا الأعمى وهو عبد الله بن أم مكتوم أسلم وأصبح من صحابة رسول الله (ﷺ) وقد استخلفه الرّسول (ﷺ) على المدينة وللإمامة مكانه في مسجده الشّريف مرّتين حينما ذهب إلى الجهاد، وهذا إخبار عن المستقبل كما يقع فيكون معجزةً.

الثّانية: قوله تعالى: (وما عليك إلّا يزّكّى) يشعر بأنّ هؤلاء الّذين كان الرّسول يعظهم آنذاك من صناديد قريش لا يتزكّون من الكفر ولا يتطهّرون بالإيمان، وقد وقع كذلك لأنّ كلّهم ماتوا على الكفر وهم: أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وأبيّ بن خلف، وأميّة بن خلف، وعباس بن عبد المطلب، فهؤلاء كلّهم ماتوا على الكفر سوى عبّاس، وإنّ عباساً لم يكن مقصوداً بالمناجاة والموعظة وإنّما حضر لأجل الرّسول (ﷺ) حيث كان يحضر أكثر مجالس النّبيّ مع النّاس بغية أن يدافع عنه إذا حدث شيء. وهذا أيضاً إخبار عن المستقبل كما وقع فيكون معجزة. هذا والله أعلم.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾

يحيط بالإنسان ثلاثة أشياء، كلّ واحد منها لو تفكّر فيه لكفاه للإيقان والإيمان بالله ووحدته واليوم الآخر:

أحدهما: القرآن. وقد ذكره الله وأشاد به ولام الإنسان على عدم الانتفاع به قائلاً: (قتل الإنسان ما أكفره).

الثّاني: هو وجود الإنسان نفسه فألفت الله تعالى نظر الإنسان إليه فقال جلّ وعلا: (من أيّ شيء خلقه) أي فليتفكّر الإنسان إلى خلقته وليعلم من أيّ شيء خلقه الله تعالى، ثمّ ذكر الشّيء الّذي خلقه به منه، فقال جلّ وعلا:

﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾

فالّذي خلقه من هذه النّطفة لقدير على إعادته، فبعد ما خلقه تعالى من هذه النّطفة قدّره أي جعل له قدراً معيّناً من الحسن والجمال والعقل والكمال وغير ذلك.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾

أي ثمّ سهّل له طريق الحياة في هذه الدّنيا وسلوك سبيل الخير والشر.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾

ولم يترك جثّته لنهش السّباع احتراماً وتقديراً له، فكان من الواجب عليه أن يتفكّر في خلقته هذه ويؤمن بخالقه، ويشكر نعمته هذه، إلّا أنّه ترك هذا كلّه واتّبع وغفل عن مولاه ولم يؤدّ ما وجب عليه، فلذلك ردعه الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾

أي ثمّ في الوقت الّذي يشاء مولاه أنشره وأحياه لغرض الحساب والجزاء والجنّة والنّار. وقال جلّ وعلا:

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾

(كلّا) أي فليرتدع الإنسان لأنّه **(لمّا)** أي إلى الآن **(لمّا يقض)** لم يؤدّ **(ما أمره)** الله تعالى به من توحيده في ربوبيّته واتّباع شريعته والاستقامة على طريقته.

الثّالث: ما يعيش الإنسان معه طول حياته ويتمتّع به ويجتني منه ما يحتاج إليه من طعامه وأقواته، وذلك كالنّبات والحبوب والأشجار فقال جلّ وعلا:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾

والمعنى أنّ الإنسان حينما لم يتفكّر في القرآن أو يتفكّر فيه فلم يخضع له ولم يسقه ذلك إلى الإيمان الكامل والعمل الصّالح، ولم يتفكّر في وجوده فيعرف بذلك خالقه ويشكره باتّباع أوامره والانتهاء عن ما نهى عنه، فحينما لم يتفكّر في ذلك كلّه **(فلينظر الإنسان)** أي فليتفكّر وليمعن نظره **(إلى طعامه)** كيف وجد ذلك وليعلم.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾

أي أنزلناه من السّماء بكثرة تكفي لإحياء الأرض وظهور النّبات فيها.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾

(ثمّ) أي بعد نزول المطر **(شققنا الأرض شقّا)** فبعد شقّ الأرض.

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾

أي أنبتنا في الأرض حبّاً يقتات منه الإنسان.

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾

(وعنباً) يتفكّه به في حالة كونه **عنباً** ويقتات منه حينما صار زبيباً ويشرب من عصيره ودبسه.

(وقضباً) أي أنبتنا في الأرض ما يقضب ويقطع ويجني شيئاً فشيئاً وهو الرّطب وهو ما لا يتجفّف ولا يصير تمراً.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾

المراد به ما يجفّف ويصير تمراً.

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾

(وحدائق) أي بساتين **(غلباً)** أي كثيرة وخلق من هذه البساتين.

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾

(فاكهةً) يتفكّه به الإنسان **(وأبّاً)** أي ما يقطع ويكون مرعى للأنعام خلق الله كلّ ذلك.

﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

فمن تفكّر في هذه الأشياء تفكيراً صحيحاً وتدبّر بعقل مستقيم وصل إلى مقاصد ثلاثة وهي:

الأوّل: إنّ وجود هذا النّظام البديع والخلق العجيب من هذه البحار الواسعة

وتصاعد البخار منها، فيشكل السّحب الحاملة للماء من ذلك البخار ونزول المطر منها على الأرض وانشقاق الأرض بعد دخول الماء فيها وخروج النّبات من ذلك الشّق، وظهور الحبوب والثّمار المختلفة الأنواع والفواكه المتنوّعة والبساتين الكثيرة والمراعي الوسيعة لا يمكن وجود هذا الصّنع بدون صانع حكيم وخالق قادر عليم ومبدع قويّ عزيز وهو الله تعالى. فيصل بذلك التّفكير إلى معرفة الله تعالى الّتي هي من أشرف المقاصد وإلى أنّ من خلق هذا بقدير على أن يحيي الموتى وأن يحاسبهم.

الثّاني: إنّ من صنع هذا الصّنع العجيب وخلق هذه الأشياء كلّها ليتمتّع الإنسان بها لمنعم كبير يجب أن يشكر وأن يعبد ويطاع، وأن لا يعصى أمره ولا يرتكب ما هو نهى عنه.

الثّالث: إنّ من خلق هذا الخلق العجيب وأنشأ هذه النّعم للإنسان لا يعقل أن لا يضع له نظاماً يسير عليه ودستوراً يعمل به وشريعةً يطبّقها في شؤونه، وأنّ كلّ نظام يوجب ثوابا لمن أطاع وعقاباً لمن أضاعه، فلا بدّ من أن يأتي يوم يحاسب فيه الإنسان وينال المطيع لشريعة الله ثوابه والمعرض عنها عقابه وذلك يوم القيامة، وبهذا التّفكير يؤمن بهذا اليوم ويسلك السّبيل المستقيم، حيث يعلم أنّ ذلك اليوم لشديد، وقد وصف الله تعالى شدّته فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾

أي الصّيحة الّتي تصخّ أي تصمّ الآذان لشدّتها، ثمّ قال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾

(يوم) منصوب بفعل مفهوم من قوله جاءت الصّاخة، كأنّه قيل متى تجيء هذه الصّاخة. فقال تعالى تجيء **(يوم يفرّ المرء من أخيه * وأمّه وأبيه)** التّرقّي هنا من الأدنى إلى الأعلى، فكأنّه قال يفر المرء من أخيه بل وأمّه بل وأبيه بل وصاحبته أي زوجه بل وبنيه؛ لأنّ الإنسان عادة يهتمّ بالولد أكثر من زوجه ثمّ بزوجه أكثر من الأب وبالأب أكثر من الأمّ وبالأم أكثر من الأخ، هذه عادة الإنسان، وقد يشذّ بعض النّاس عن هذه الحالة حسب ظروف خاصّة والشّاذ لا يعبأ به ولا تبنى عليه الأمور.

ثمّ ذكر الله تعالى سبب الفرار منهم بقوله جلّ وعلا:

﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ ﴾

أي يوم إذا جاءت الصّاخة لكلّ امرئ شأن أي حال يكفيه للإنشغال به دون غيره فيصدّه مشغلته بنفسه عن المبالاة بأعزّ شخص عليه حينما يلتجئ إليه في ذلك اليوم، فيقول نفسي نفسي سوى محمّد رسول الله تعالى (ﷺ) فإنّه يقول أمّتي.

ثمّ بعد ما ذكر الله تعالى شدّة هذا اليوم ذكر عاقبته ونتيجته فقال جلّ وعلا:

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨﴾

أي بشوشة تظهر عليها آثار الفرح.

ثمّ قال جلّ وعلا:

﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩﴾

(**ضاحكة**) لفرحها (**مستبشرة**) أي يظهر أثر الفرح في بشرتها.

﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠﴾

أي يعلو عليها لون كالغبار.

﴿تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١﴾

(**ترهقها**) أي يسترها (**قترة**) أي سواد. ثمّ بين أصحاب هذه الوجوه بقوله جلّ وعلا:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢﴾

هم الّذين كفروا أي لم يؤمنوا بالحقّ، والّذين فجروا أي خرجوا عن الحقّ وعدلوا عن الصّراط المستقيم، وهنا يتبادر إلى الذّهن سؤالان:

الأوّل: إنّ الله تعالى ذكر أنّ في ذلك اليوم ينشغل كلّ امرئ بنفسه ويفرُّ من أعزّ شخص عليه، وذلك يفيد أنّ كلّ إنسان هناك مهموم ومغموم لا فرح منه ولا سرور، ثمّ ذكر أنّه في ذلك اليوم وجوه مسفرة ضاحكة مستبشرة فكيف التّوفيق؟

الجواب: أنّ في هذا اليوم مراحل: ففي المرحلة الأولى يغتمّ ويهتمّ كلّ إنسان ويفرّ من كلّ أحد لانشغاله بنفسه وذلك قبل الحساب. أمّا في المرحلة الثّانية بعدما علم النّاس حسابهم وتبيّن من يساق إلى الجنّة ومن يساق إلى النّار فتستبشر وجوه من يساق إلى الجنّة وتغبرّ وجوه من يساق إلى النّار.

الثّاني: أنّ الله تعالى بيّن أصحاب الوجوه المغبرّة والمسودة وذكر أنّهم هم الكفرة الفجرة، ولم يبيّن أصحاب الوجوه المستبشرة من هؤلاء؟

الجواب: أنّ الضّد بالضّد يعرف، فأصحاب الوجوه المستبشرة هم المؤمنون الصّالحون إذن.

الثّالث: قسّم الله تعالى الوجوه إلى مستبشرة ومغبرّة وفسّر المغبرّة بالكافرين والمستبشرة بالمؤمنين ولم يذكر هنا حال الفاسقين هل هم من المستبشرين أم هم من المغبرّين؟

الجواب على هذا السّؤال بنوعين هما:

الأوّل: أنّ هذه السّورة مكيّة وأنّ الإنقسام في مكّة لم يكن إلّا بين المؤمنين والكافرين، لأنّه لم يكن الفسق موجوداً في مكّة، حيث لم تنزل الأحكام في مكّة، حيث يوجد الفاسق فلذلك انحصر التّقسيم في كلّ السّور المكيّة بين المؤمن والكافر، ولم يذكر فيها حال الفاسق وإنّما حال الفاسق في السّور المدنيّة وبعد ما أُنزلت الأحكام وفرضت الفرائض على المسلمين.

* * *

الثّاني: قال تعالى: **(أولئك هم الكفرة)** وهم الكافرون، وقال أيضاً: **(الفجرة)** وهم الفاسقون، فذكر أنّ الكافر والفاسق كلّ منهما يغبرّ وجهه لأنّهما يساقان إلى النّار إلّا أنّ الكافر يساق إليها ليخلد فيها، والفاسق ليبقى فيها بقدر فسقه وعصيانه. فنستطيع أن نقول: قد فرّق بينهما في أوّل الكلام وذلك لأنّ قوله تعالى: **(وجوه يومئذٍ عليها غبرة)** المراد به وجوه الفاسقين. والمراد بقوله: **(ترهقها قترة)** وجوه الكافرين لأنّ عاقبتهم أفظع من الفاسقين، كما أنّ السّواد أفظع من الغبار، والله تعالى أعلم.

سورة التّكوير

(مكيّة، نزلت بعد المسد، و آياتها تسع وعشرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

(إذا الشّمس كوّرت) من كوّرت الثّوب إذا لففتها كناية عن الإزالة، لأنّ الثّوب إذا لفّ يذهب به إلى مكان آخر، غير مكانه الأصليّ، فالمعنى وقت ما أزيلت **الشّمس** فلم تبق **(وإذا النّجوم انكدرت)** يقال انكدر الماء إذا ذهب صفاؤه، فانكدار النّجوم يراد به ذهاب ضوئها و هو كناية عن زوالها أي وقتما أزيلت النّجوم **(وإذا الجبال سيّرت)** أي وقت ما سيّرت الجبال و أزيلت عن أماكنها **(وإذا العشار عطّلت)** العشار جمع عشراء، وهي النّاقة الّتي مضى على حملها عشرة أشهر، وهي في هذا الوقت أعزّ مال على صاحبها ويعتنى بها عناية كثيرة، فالمعنى وقتما العشار عطّلت وتركت ولم يعتن بها صاحبها لشدّة هول ذلك الوقت **(وإذا الوحوش حشرت)** أي وقت ما جمعت الوحوش للاقتصاص من بعضها البعض أو اجتمعت الوحوش قويّها وضعيفها في ذلك الوقت معا من شدّة الهول ولم يخش بعضها من بعض رغم كثرة العداء بينهما **(وإذا البحار**

سجّرت) أي وقتما أوقدت البحار فجعلت مملوءة بالنّار بعدما كانت مملوءة بالماء **(وإذا النّفوس زوّجت)** أي وقت ما أعيدت الأرواح إلى أبدانها فزوّجت بها أو اجتمعت النّفوس الشّريرة مع أقرانها والخيرة مع أمثالها **(وإذا الموؤدة سئلت)** أي وقت ما سئلت البنت الّتي دفنت حيّة فسئلت **(بأيّ ذنب قتلت)** ودفنت وهي حيّة **(وإذا الصّحف نشرت)** أي وقت ما وزّعت دفاتر الأعمال بين أصحابها وسلّم لكلّ شخص دفتره **(وإذا السّماء كشطت)** أي وقت ما أزيلت السّماء كما يزال الجلد عن الشّاة المذبوحة **(وإذا الجحيم سعّرت)** أي وقت ما أوقدت الجحيم وهي جهنّم **(وإذا الجنّة أزلفت)** أي وقت ما قربت الجنّة من المؤمنين. والعامل في إذا الواقعة في أوائل هذه الجمل كلّها هو **(علمت)** في قوله: **(علمت نفس ما أحضرت)** أي وقت حدوث هذه الحوادث علمت كلّ نفس ما أحضرته من عمل خير أو شرّ أو خلط بين هذا وذاك، وحوسبت على وفق ما أحضرته ونالت الثّواب أو العقاب حسب ذلك المحضر و ذلك الدفتر.

تنبيه: إنّ هذه الحوادث اثنتا عشرة حادثة، ستّ منها قبل مجيء القيامة وهي تكوير الشّمس وانكدار النّجوم وتسيير الجبال وتعطيل العشار وجمع الوحوش وتسجير البحار. وستّ عند مجيء القيامة، وهي جمع النّفوس مع الأبدان وإحياؤها وسؤال الموؤودة ونشر الصّحف وكشط السّماء وتسعير الجحيم وتقريب الجنّة من المؤمنين.

هذا وإنّ واو العطف لمطلق الجمع، فلا يلزم أن يكون بين حدوث هذه الاشياء ترتيب، فإنّ كشط السّماء قبل نشر الصّحف، وكذلك قبل سؤال الموؤودة وقبل جمع الأرواح مع الأبدان، بل إنّ كشط السّماء قبل مجيء يوم القيامة. فتكون الحوادث الّتي قبلها سبعاً لا ستّاً، كما قيل في بعض التّفاسير، هذا ثمّ بعدما ذكر هذه الحوادث العظيمة وتعجّب من هذه الحوادث بعض القول البسيطة، بل وأنكرتها بعض النّفوس المريضة وقالت: كيف تزال هذه الشّمس ملكة الكواكب والنّجوم؟ وكيف تذهب بهذه النّجوم الرّاسخة في السّماء؟ وكيف تسير هذه الجبال الثّابتة في الأرض؟ وكيف تعطّل هذه العشار؟ وكيف تحيا هذه الأبدان بعدما بليت وأصبحت تراباً؟ ومن أين تجمع الوحوش وهي فانية؟ وكيف يمتلئ البحار نيراناً بعدما كانت مياهاً؟ وكيف؟ وكيف؟. نعم بعيدة هذه الأمور عن العقول الضّعيفة والقليلة الإدراك والشّعور؛ فأراد الله تعالى أن يثبت هذه الأمور وينوّر الأذهان بحيث لا تستبعد هذه الحوادث ولا تراها مستحيلة فقال جلّ وعلا:

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ ﴾

(**الخنس**) الكواكب الّتي ترجع من مدار الى مدار (**الكنّس**) الكواكب الّتي تختفي مدّة ثمّ تظهر بعد ذلك و(**الجواري**) هي الكواكب الّتي تجري وتسبح في الفضاء (**واللّيل إذا عسعس**) أي أقبل وأدبر فيأتي ويذهب في كلّ أربع وعشرين ساعة (**والصّبح إذا تنفّس**) أي ظهر وأضاء الكون بعدما كان ظلاماً (**إنّه**) إنّ هذا القران الّذي فيه هذا الإخبار عن حدوث هذه الحوادث لحقّ وأنّه أتى به رسول أمين من عند ربّ العالمين، وأنّ هذه الحوادث لتقع وأنّ السّاعة لآتية لا محالة، أقسم بهذه الاشياء على صدقية الخبر بوقوع هذه الحوادث، ولكنه ليس بقسم في الحقيقة بل إنّه استدلال بهذه الأشياء على أنّ حدوث هذه الحوادث ليس بمستحيل بل هو ممكن وقريب من فهم أهل العقل والاعتبار. هذا وإنّ صورة الاستدلال هكذا. إنّ هذه الكواكب الّتي تسير وترجع في سيرها وتجري في الفضاء بحركاتها، وتختفي وقتاً وتظهر وقتاً آخر، وإنّ هذا اللّيل الّذي يقبل ويدبر ويسيطر على ضوء النّهار والصّبح الّذي يتبيّن ويتّضح ويثقب بنوره الظّلام الموحش، كلّ ذلك يشهد ويدلّ على امكان حدوث هذه الحوادث ومجيء يوم القيامة والحساب وذلك بوجوه:

الأوّل: إنّ هذا النّظام العجيب وهذا الصّنع البديع لايتصوّر وجوده بدون صانع حكيم وقادر عليم، وإنّ الّذي يستطيع أن يخلق هذا النّظام ويقدر على هذا الصّنع، لقادر على أن يأتي بهذه الحوادث ويبدّل هذا الصّنع بصنع آخر غير الّذي كان. وما ذلك عليه بعزيز، فإنّه هو يبدىء ويعيد.

الثّاني: إنّه من القواعد المتّفق عليها أنّ كلّ ما له بداية له نهاية، وأنّ هذا الكون حيث ثبتت بدايته وأحداثه من لدن حكيم عليم فلا بد وأن تكون له نهاية وفناء، ففناء هذه الكون لا بدّ وأن يقع.

الثّالث: كما ذكرنا سابقاً أنّ من خلق هذا النّظام التّكويني البديع لا يتصوّر منه أن لا يضع لمن يعيش في ظلّ هذا الكون نظاماً تكليفيّاً ودستوراً يفرض عليهم العمل به

والحياة على ضوئه. وإنّ من مقتضى كلّ نظام إثابة المطيع له وعقاب المنحرف عنه، وحيث لا يوجد هذا في الدّنيا كليّاً فلابد وان يأتي يوم ينال فيه المطيع ثوابه والعاصي عقابه تحقيقاً لعدل أحكم الحاكمين.

الرابع: إنّ ما يجري في هذا الكون كلّه عود على بدء، وإعادة بعد فناء، ورجوع بعد زوال، وإيجاد بعد انعدام، وما الحشر والحياة بعد الموت إلّا من هذا القبيل. فلا يليق بالعاقل استبعاد ذلك فإنّه واقع وأنّ الإخبار بهذه الأمور هو من الله تعالى جاء به جبريل الى محمّد (ﷺ) كما قال: **(إنّه)** أي القرآن الّذي أخبرك بحدوث هذه الكوارث **(لقول رسول)** بين الله و بين محمّد وهو جبريل جاء به من عند الله **(كريم)** صفة رسول وهو ومعناه المحترم الّذي له شرف من الله تعالى ثمّ وصفه بصفات أخرى، فقال وعزّ من قائل: **(ذي قوّة عند ذي العرش مكين)** أي ذو مكانة وشرف عند الله تعالى **(مطاع)** يطيعه الملائكة **(ثمّ)** أي في الملأ الأعلى **(أمين)** لا يخون في الرّسالة و يؤدّيها بكلّ أمانة. أراد بذلك أنّ القرآن جاء به جبريل الّذي كان معروفاً بتلك الصّفات في ذلك الوقت إلى محمّد، وليس مثلما يأتي به الكهنة ممّا كان يسترقّه الجنّ فيأتون به الى الكهّان ويخلطون به كثيراً من أكاذيبهم و أباطيلهم، بل أنّ جبريل صاحب قوّة لا يستطيع الجنّ أنّ فيم يأتي به شيئاً وأمين لا يغيّر ما يأتي به ولا يبدّل، فليس القرآن ككلام الكهنة من كلام الجنّ المخلوط بأكاذيب وأباطيل. ثمّ بعد أن بيّن الله أمانة جبريل أراد أن يذكر صفات محمّد (ﷺ) فقال جلّ وعلا: **(وما صاحبكم بمجنون)** أي وليس صاحبكم بمن استولى عليه الجنّ فيلقى إليه هذا الكلام، وليس من الجنّ كما تزعمون بل هو من جبريل (ﷺ) أتى به من الله تعالى الى محمّد (ﷺ).

* * *

ملاحظة: أخبر الله تعالى عن القرآن بأنّه من رسول كريم هو جبريل أمين أتى به من الله تعالى إلى محمّد دون أن يستدلّ على ذلك بدليل ويبرهن عليه ببرهان؛ وذلك لأنّ القرآن هو يدلّ بنفسه ويشهد على أنّه من الله تعالى، وأنّه ليس من قبيل أباطيل الكهنة ولا أكاذيب السّحرة، فإنّ من قرأ القرآن وتدبّر فيه أيقن بدون شكّ على أنّه من الله تعالى، لأنّه من المتّفق عليه أنّ محمّداً (ﷺ) لم يكن ممارساً لقراءة ولا كتابة ولا سحر ولا كهانة ولا شعر ولا خطابة، وإنّ هذا القرآن الّذي جاء به عجز بلغاء العرب وشعراؤها عن الإتيان ولو بمثل أقصر سورة منه بلاغة وفصاحة رغم حرصهم على

ذلك. هذا من جهة ومن جهة أخرى إنّ هذا القرآن يخبر عن أحوال الرّسل والأمم السّابقين كما هو مبيّن في الكتب السّماوية السّابقة وبما خفي إلّا على المختصّين من الأحبار والرّهبان دون إطلاع لمحمّد على أي كتاب من هذه الكتب، كما وأنّه يخبر عن أمور المستقبل ويكشفها فتقع كما أخبر، وعن أمور كونيّة طبيعيّة كشفها ويكشفها العلم كما أخبر عنه يوماً بعد يوم، وقد كان يدرك هذا أذكياء العرب؛ فمنهم من آمن واتّبع محمّداً (ﷺ) نتيجة إدراكه هذا، ومنهم من أدرك إلّا أنّه بقي على كفره عتوّاً وعناداً وعصبيّةً واستكباراً. يروى أنّ أبا جهل سمع هو وأحد أصحابه هذا القرآن من محمّد (ﷺ) فلمّا انطلقا قال له صاحبه: ماذا تقول يا أبا الحكم في هذا القرآن؟ فقال قد تسابقنا نحن وبنو هاشم، ضيّفوا فضيّفنا وسقوا فسقينا حتّى أصبحنا كفرسي رهان، والآن هم تنبّؤا أفتنبّأ؟ نحن لا نستطيع ذلك. فكان أبو جهل يعلم حقيّة القرآن إلّا أنّه لم يسلم من العصبيّة القبليّة الّتي كانت بين قبيلته وبني هاشم الّذي كان رسول الله منهم. ولكنّ عمر بن الخطاب حينما ذهب الى بيت أخته قال: سمعت منكم همهمة، فماذا؟ قالت: لم يكن شيء، فبعد مناقشة وضرب منه لها ولزوجها اعترفت بأنّها كانت تقرأ القران، فطلب أن تريه فناولته فلمّا قرأ: ﴿طه * ما أنزلنا عليك القران لتشقى * ... الخ﴾ سورة طه الآية/ ١،٢. قال والله لا يليق أن يكون هذا كلام البشر، فدلّوني على محمّد، فدلّوه عليه فدخل عليه في دار أبي الأرقم فآمن فوراً وأسلم.

* * *

وهكذا يشهد القران بنفسه على أنّه من الله تعالى، فلذا حين الإخبار عنه بأنّه من الله تعالى لم يستدلّ عليه بدليل ولا برهان، هذا وأشار إلى هذا بقوله جلّ وعلا:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾

(وما صاحبكم) أي تضلّل من يتّهم محمّدا بالجنون فكأنّه قال: إنّه صاحبكم وكنتم تعترفون برجاحة عقله وفطانة ذهنه، وكنتم تستشيرونه في أموركم فيرشدكم الى ما فيه نجاحكم وصلاحكم، فكيف تتّهمونه بالجنون بعدما اعترفتم به هذا الاعتراف وشهدتم له برجاحة عقله طول صحبتكم له، فإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على غوايتكم وضلالكم وعتوّكم وعنادكم للحقّ.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(ولقد رآه بالأفق المبين) اللّام جواب لقسم محذوف أي بعزّتي ولقد رأى محمّد جبريل على صورته الأصيلة بالأفق الواضح. ذكر ذلك لأنّ جبريل كان حينما يأتي إلى الرّسول (ﷺ) يأتي في غير صورته وكان الأكثر أنّه يأتي في صورة دحية الكلبي، فربّما يختلج بالبال أن يقال من أين يأتي به جبريل؟ وإنّما يأتي إليه رجل، فربّما هو ليس جبريل، فقال: ولقد رآه على صورته بالأفق المبين فيعرفه، فكان لا يشتبه عليه حينما يأتي في صورة أخرى **(وما هو على الغيب بضنين)** أي ليس محمّد على الوحي ببخيل فلا يكتم شيئاً منه ولا يأخذ عليه أجراً؛ وفي هذا دليل واضح في أنّه ليس كالكهنة لأنّهم كانوا لا يخبرون أحداً بما عندهم إلّا مقابل أجر يسمّى (حلوان الكاهن)، هذا إذا قرىء بالضّاد، وأمّا إذا قرىء بالظّاء فمعناه أنّ محمّداً (ﷺ) ليس **على** الوحي بمتهمّ بل هو ثقة في أنّه من الله تعالى، لأنّ ما كان يحيط بمحمّد من حالة وما كان عليه من الخلق الرّفيع والصّدق المعترف به ممّا يدفع عنه كلّ شبهة، ولذلك ترى (هرقل) حينما سأل وفد قريش عن محمّد (ﷺ): هل كان من آبائه ملك أو من يدّعي الملوكيّة؟ قالوا: لا، قال: فهل هو من أشرافكم؟ قالوا: نعم، قال: هل يتّبعه الفقراء أكثر أم الأغنياء؟ قالوا: الفقراء، قال: هل يرجع عن اتّباعه أحد ممّن اتّبعه؟ قالوا: لا، قال: هل يزيد أتباعه أو يقلّ؟ قالوا: يزيد، قال: هل جرّبتم عليه الكذب؟ قالوا: لا، قال: لو كان في آبائه ملك أو من يدّعي الملوكيّة لقلت: أنّه يريد إرث جدّه، وأمّا ما قلتم: أنّه من أشرافنا فكذلك الأنبياء يظهرون من البيوت الشّريفة، وأمّا ما قلتم: من أنّه يتّبعه الفقراء أكثر فكذلك الأنبياء يتّبعهم الفقراء أكثر من الأغنياء، وأمّا قولكم: أنّ أتباعه يزيدون، فكذلك الأنبياء يزيد أتباعهم يوماً فيوماً، وأمّا ما قلتم: لا يرجع عنه أحد من أتباعه فكذلك الأنبياء، وأمّا قولكم: أنّكم ما جرّبتم عليه الكذب إلى الآن، فلا أظنّ أنّ من لم يكذب النّاس طول أربعين سنة يكذب على الله بعد ذلك، وإنّه لنبيّ. ولهذه الدّلالات أخبر الله تعالى عنه بأنّه ليس بمتهمّ دون برهان وحجّة واتّبعه بقوله: **(وما هو بقول شيطان رجيم)**. ثمّ بعد ما ذكر أنّ هذا القران من الله تعالى وأنّ محمّداً ليس ممّن يتّهم في قوله أنّه أوحي إليّ

قال تعالى: **(فأين تذهبون)** أي أيّ طريق تسلكون سوى اتّباع محمّد، فإنّ كلّ طريق غير ذلك فهو طريق الضّلالة وسبيل الغواية، وهذه جملة تقال عند تخطئة المخاطب وبيان ضلاله والتّعجب من سلوكه هذا المسلك بعد وضوح الحقّ وظهوره، فإنّ كون القرآن من الله تعالى وأنّ محمّداً رسول كان غير خفيّ على أهل العقل والفطنة وأهل الحلّ والعقد.

ذكر القرطبيّ والخازن وغيرهما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ سورة المدثر الآيتان/١٨، ١٩. أنّه حينما نزل قوله تعالى: ﴿حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ سورة غافر الآيات/١ ـ ٣، سمعه الوليد بن المغيرة من رسول الله (ﷺ) فقال: والله سمعت من محمّد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر. فقالت قريش: صبأ الوليد والله ليصبونّ قريش كلّها. وكان يقال للوليد ريحانة قريش. فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فمضى إليه حزيناً فقال له: مالي أراك حزيناً، فقال: وما لي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينوك بها على كبر سنّك، ويزعمون أنّك زيّنت كلام محمّد، وتدخل على ابن أبي كبشه وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما. فغضب الوليد وتكبّر وقال: أنا أحتاج إلى كسر محمّد وصاحبه فأنتم تعرفون قدر مالي، واللّات والعزّى ما لي حاجة إلى ذلك، وإنّما أنتم تزعمون أنّ محمّداً مجنون فهل رأيتموه قط يخنق؟ قالوا: لا والله، قال: وتزعمون أنّه شاعر فهل رأيتموه نطق بالشّعر قطّ؟ قالوا: لا والله، قال: فتزعمون أنّه كذّاب فهل جرّبتم عليه كذباً قطّ؟ قالوا: لا والله، قال: فتزعمون أنّه كاهن فهل رأيتموه تكهّن قطّ؟ ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً وتخالجاً فهل رأيتموه كذلك قطّ؟ قالوا: لا والله، وكان الرّسول (ﷺ) بينهم يسمّى الصّادق الأمين، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكّر في نفسه ثمّ نظر فقال: ما هو إلّا ساحر أما رأيتموه يفرق بين المرء وزوجه وولده ومواليه؟ فأرضى بذلك أبا جهل. فلمّا نفى الله تعالى عن القرآن جميع ما يظنّونه وينسبون إليه قال وعزّ من قائل: **(إن هو إلّا ذكر للعالمين)** أي ذكر من الله تعالى ودين ونظام أنزله تعالى ليعمل به ويتّبعه النّاس كلّهم ويطبّقونه عقيدةً وأخلاقاً وعباداتٍ وأحكاماً وسياسةً وإدارةً وإقتصاداً، فإنّ في ذلك الخروج من الباطل إلى الحقّ ومن الضّلال إلى الهداية ومن الظّلم إلى العدل ومن الإعوجاج إلى الاستقامة؛ ولذا قال: **(لمن شاء منكم أن**

يستقيم) فإنّه لا استقامة إلّا بتبعيّة القرآن وتطبيقه على الفرد والمجتمع، وفي جميع نواحي الحياة وحوائجها ومشاريعها.

تنبيهات :

التّنبيه الأول: سمّى الله تعالى القرآن ذكراً والمعنى: أنّ كلّ ما فيه من العقائد والأحكام إنّما هو ذكر، والذّكر عبارة عن تنبيه الإنسان على شيء يعلمه إلّا أنّه غفل عنه لسبب ما، وأشير بذلك إلى أنّ كلّ ما في القرآن من عقائد وأحكام وأخلاق ونصائح ليس شيئاً غريباً عن الإنسان وفطرته، بل كلّ ذلك موافق للفطرة وللعقل السّليم يدركه العاقل بأدنى تنبّه والتفات إليه. فالقرآن جاء لإيقاظ الضّمير الحيّ وتحريك العقول السّليمة وتنبيهها على ما غفلت عنه بسبب غلبة التّقاليد والعادات أو الرّغبات والشّهوات، أو المصالح والمنافع الوقتيّة أو خوف أو طمع أو غير ذلك. فالسّبب في عدم إيمان الشّخص بالقرآن ليس لخفائه على العقول ولا لغموضه عند الأذهان ولا لإلتباسه وعدم ظهور حقّيته وصدقه ولا لمجانبته وبعده عن فطرة الإنسان أو عقله، بل إنّما ذلك لواحد من الأمور الآتية لا غيرها:

الأوّل: العادات والتّقاليد الّتي أستورثوها من الآباء والأجداد لا يستطيعون أن يتحرّروا منها أو يستنكفون أن يخرجوا منها، وهؤلاء ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٧٠.

الثّاني: الكبر والاستعلاء الّذي سيطر على بعض الأشخاص، فمنهم من استنكف من اتّباع صاحب الدّعوة محمّد (ﷺ) أو الدّاعية إلى الإسلام من بعده، وهؤلاء مثل أهل مكّة الّذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ سورة الزخرف الآية/ ٣١. أي على رجل عظيم من إحدى القريتين، أرادوا مكّة والطّائف، لأنّهم استنكفوا أن يتّبعوا محمّدا (ﷺ) لأنّه لم يكن من عظمائهم.

الثّالث: المنافسة القبليّة أو المنافرة العنصريّة، وذلك مثل أبي جهل حينما قال: تسابقنا مع بني هاشم حتّى أصبحنا كفرسي رهان ثمّ هم تنبّؤوا فهل نتنبّأ؟ والله لا أتّبعه، أي لا أتبع محمّداً.

الرّابع: الخوف من ضياع الرّياسة أو بعض المصالح الّتي يجدها بعض النّاس من

طريق الضّلالة والغواية والكفر والإلحاد، وهؤلاء مثل أحبار اليهود ورهبان النّصارى فإنّهم لم يؤمنوا بمحمّد وغيّروا ما في التّوراة والإنجيل من أوصاف محمّد والأمر بالإيمان به لما كانوا يجدون رياسة ومنافع في بقائهم على دينهم المنسوخ وعقيدتهم الباطلة.

الخامس: الجهل والغباوة الّتي سيطرت على عقولهم فلا تتنبه للحقّ ولا تستسيغه، وهؤلاء مثل من ذكرهم الله تعالى بقوله ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مثل دعوتهم إلى الحقّ ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٧١.

السّادس: سيطرة بعض السّادة والكبراء وإضلالهم النّاس لجلب مصالحهم ومصّ دمائهم وأموالهم وتسخيرهم في سبيل زعامتهم الدّينيّة أو الدّنيويّة، وهؤلاء مثل الّذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ سورة الأحزاب الآيات/ ٦٦ ـ ٦٨.

التّنبيه الثّاني: إنّما ينتفع بهذا القرآن وبهذا التّذكير من يشاء ويريد ويحبّ الاستقامة، ومن لا فإنّه هو الّذي حرم نفسه من الهداية والاستقامة وسلوك سبيل الخير والحقّ والرّشاد.

التّنبيه الثّالث: إنّ الله لا يجبر أحداً على خير أو شرّ ولا هداية أو ضلالة، بل إنّه خلق الإنسان وأعطاه حواسّاً يدرك بها المحسوسات وعقلاً يدرك به المعقولات، ونصب أمامه الأدلّة على الحقّ وأرسل إليه الرّسل وأنزل عليه الكتب، وذكر ما الحق والباطل وما هو الشرّ والخير، ونبّهه على الأدلّة والبراهين، وأعطاه القدرة على سلوك سبيل الخير وسلوك سبيل الشّرّ ثمّ أطلق عنانه امتحاناً له، فإذا أراد الخير يسّره له وإذا أراد الشّر خلقه له، وبذلك أبطل فكرة الجبر فقال تعالى: **(لمن شاء منكم أن يستقيم)** حيث ربط الانتفاع بالقرآن والهداية وسلوك سبيل الخير بمشيئة العبد وإرادته، وإنّه مختار في ذلك وليس مجبوراً.

التّنبيه الرّابع: إنّ إرادة العبد سلوك سبيل الخير وغيره من الأعمال لا تكفي في حصول ذلك، بل إنّما يحصل ذلك حينما انضمّ اليه مشيئة الله تعالى وإرادته وخلقه

لذلك الشّيء، وبذلك أبطل فكرة القدريّة الّذين يقولون: إنّ أعمال العبد مخلوقة له ولا دخل لله تعالى فيه إلّا خلق القدرة الّتي بها يخلق العبد عمله فقال تعالى: **(وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله)** أي لا تكفي مشيئتكم في حصول ما تشاؤون إلّا أن يشاء الله حصوله، فحصول العمل دائر بين مشيئة العبد له، وبذلك يكون مثاباً على الطّاعة ومعاقباً على العصيان. وبيّن مشيئة الله تعالى، وبذلك يكون محتاجاً إلى الله تعالى دائماً، ولا يجوز له أن يغترّ بعمله فإنّه لولا توفيق الله تعالى له لما استطاع شيئاً، بل يجب عليه أن يحمد الله تعالى ويقول: الحمد لله الّذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأن يدعو لغيره بالهداية والتّوفيق كما قال الرّسول (ﷺ): (اللّهم اهد قومي فإنّهم لا يعقلون)[1] فما أحلم هذا الرّسول ما أرحمه. اللّهم إهدنا وخلّقنا بأخلاق الرّسول ووفّقنا للعمل الصّالح المقبول. ثمّ علّل الله تعالى قوله أنّ مشيئة العبد لا تكفي إلّا بمشيئة الله وإرادته فقال: **(ربّ العالمين)** أي أن الله تعالى يربّي العالمين ماديّاً ومعنويّاً، فلا يحصل لهم شيء بدون تربيته وتقديره إلّا أنّه يجب على المرء القصد والأخذ بالأسباب، ثمّ يتّكل على الله في خلق المسبّبات، وذلك في كلّ الأمور أمور الدّنيا والآخرة والمبدأ والختام.

---

(١) الأحاديث المختارة ١٠/ ١٤ الحديث رقم ٢.

سورة الإنفطار

(مكيّة، نزلت بعد النّازعات، وهي تسع عشرة آية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

(إذا) في هذه الآيات كلّها بمعنى الوقت والعامل فيها **(علمت)** في قوله تعالى: **(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ)** فالمعنى وقت انفطار السّماوات وانتشار الكواكب وتفجير البحار وبعثرة القبور علمت كلّ ما قد عملت وقدّمت من عمل وما أخّرت أي ما تركته ولم يعمل، والمراد بانفطار السّموات انشقاقها وعدم بقاء تلاصقها، فلا تمنع الصّعود والدّخول فيها كما قال: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ سورة النبأ الآية/ ١٣. وانتثار الكواكب هو أنّ الجاذبيّة الّتي أمسكت كلّ كوكب في مكانه المعيّن في الفضاء تسقط؛ فيفنى بذلك انتظام الكواكب؛ فيقع كلّها على الأرض، والمراد بتفجير البحار أنّ الحواجز الموجودة بين البحار يزول فيختلط بعضها ببعض فتصير بحراً واحداً، والمراد ببعثرة القبور فتحها وإخراج الموتى منها، والمراد بهذه الأمور الاختلال الّذي يحصل في نظام هذا الكون وتبديل السّموات غير السّموات والأرض غير الأرض، وعند ذلك يأتي يوم القيامة فيؤول المعنى إلى قوله: إذا جاء يوم القيامة علمت كلّ نفس ما قدّمت من عمل وما أخّرت منه، أي تعلم عاقبة ذلك العمل ونتيجته وتأخذ ثوابه أو عقابه.

فائدة: يعلم من عطف الكوكب على السّماء والإثبات لكلّ منهما صفة غير **ما** للأخرى، كالانفطار للسّماء والإنتثار للكواكب أنّ الكواكب غير السّماء، كما وأنّ نسبة

الإنتثار إلى الكواكب هنا والإنكدار إلى النّجوم في سورة الإنشقاق لتسوق الذّهن إلى القول بأنّ الكواكب غير النّجوم، ويمكن أن نقول أنّ الجرم الّذي يضيء بذاته يسمّى نجماً والّذي لا يضيء أو يقتبس النّور من غيره كالقمر مثلاً يسمّى كوكباً، والله أعلم، وبهذا يعلم أنّ السّموات السّبع الطّباق المحفوظة المذكورة في القرآن غير النّجوم والكواكب كما وأنّ العرش والكرسيّ غير المذكورات جميعاً، إلّا أنّ العلم لم يصل إلى كشف السّماوات السّبع والعرش والكرسيّ، وعدم العلم بالشّيء ليس دليلاً على عدمه بل دليل على قصور العلم وعدم بلوغه الكمال ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سورة الإسراء الآية/ ٨٥.

* * *

سؤال: لقد توالت هذه السّور الخمس وفي كلّها إخبار عن يوم القيامة وتذكير له فما السّر في ذلك وربّما يقال أليس هذا إملالاً؟

الجواب: ليس توالي السّور في التّلاوة والمصحف دليل على تواليها كلّها في النّزول بل إنّها لم تنزل كلّها متوالية، بل كانت تنزل واحدة منها للتّذكير بالآخرة تذكرةً وإيقاظاً للقلوب وسوقاً لها إلى العمل الصّالح والإيمان بالإسلام، خوفاً من ذلك اليوم وشدّة أهواله. ثمّ بعد مدّة وحينما غفلت القلوب واشتدّ الصّراع بين الرّسول (ﷺ) ومعارضيه يجدّد التّذكير بالآخرة والوعيد بما فيها، فتنزل أخرى تخويفاً من العذاب للكافرين والوعد بالثّواب للمؤمنين، وذلك مثل المطر فإنّه كلّما جفّت الأرض أنزل الله تعالى عليها المطر فيحرّكها ويحييها ثمّ ينقطع المطر إلى أن تجفّ الأرض مرّة أخرى فيعود المطر لينزل ويحييها، إلّا أنّها جاءت متوالية في المصحف لمناسبة يطول ذكرها هنا ويدركها من تدبّر وتفكّر إن شاء الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

بعدما ذكر الله تعالى شدّة يوم القيامة وهذه الحوادث الجسام الّتي تقع فيها وأنّ كلّ إنسان ينال نتيجة عمله إن خيراً فخير وإنّ شرّاً فشرّ، كان الجدير بالإنسان أن

يصرف كلّ جهده لعمل الخير وأن يجتنب عن الشرّ كلّه، ولكنّ الإنسان عكس الآية كلّياً أو جزئياً، فحاله هذا يدلّ على أنّ شيئاً غرّه وخدعه، أي جرّأه على معصية ربّه ومخالفة أمره، فسأله الله تعالى سؤال إنكار وتوبيخ فقال: **(يا أيّها الإنسان)** العاصي ربّه والمنهمك في الغفلة عن هذا اليوم وحساب الله تعالى على كلّ ما حصل منك من العمل الّذي جرّأك على ارتكاب المناهي ومقابلة ربّك بالعصيان، هذا الرّب الكريم الّذي لا يليق بأن يعصى، والجدير بأن لا يخالف أمره ولا يرتكب نهيه، فإنّه ليس معنى الكريم السّخي أو الجوّاد حتّى يقول المرء غرّني كرمك وجودك، كما قال ذلك بعض من قال، بل المراد بالكريم العالي الشّأن والرّفيع القدر والعظيم السّلطان، فمن كان كذلك يجب أن يطاع ولا يجرؤ أحد على عصيانه، فعظمة ذاته وعلوّ شأنه ورفيع قدره يكفي لأن لا يعصي العبد أمره ويمتثل شرعه، وأن لا يتجاوز حدوده وأن لا يجرؤ على ما لا يحبّ ولا يقبل ولا يرضى به. بعدما ذكر الله تعالى أنّ علوّ قدره وعظمة شأنه يكفي لأن لا يجرؤ الإنسان على معصيته ذكر أموراً أخرى أوضح وأدعى في أن يمتثل الإنسان أمره ولا يرتكب ما ينهى عنه؛ فقال **(الّذي خلقك)** أي أوجدك من العدم إلى الوجود **(فسوّاك)** جعلك مستوي القامة لا كمثل البهائم وذوات القوائم الأربع تمشي وهي منكوسة **(فعدلك)** وجعلك معتدل الأعضاء والحواس **(في أيّ صورة)** أي في صورةٍ عظيمةٍ حسنةٍ جميلةٍ **(شاء)** تلك الصّورة **(ركّبك)** وذلك كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ سورة التّين الآية/ ٤. فكلّ هذه الأمور تدعوك وتحثّك وتفرض عليك أن لا تجرؤ على مخالفة ربّك هذا ومقابلة عظمته ونعمه هذه عليك بالذّنوب والآثام. ثمّ بعد ذلك نفى الله أن يكون هناك ما يدعو الى غروره وجرأته على الله تعالى فقال: **(كلّا)** أي لا داعي ولا سبب يحثّك ويعطيك الجرأة على معصية الله تعالى **(بل)** السّبب هو أنّكم **(تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ)** أي بالجزاء فلا تعتقدون وجوده ولا تؤمنون بيوم الحساب فلذلك ترتكبون ما ترون من الجرائم والآثام وما تعملون من الانحراف عن منهج الله القويم عن الصّراط المستقيم وأنّ أعمالكم هذه لا تنسى بل هي مسجلة عليكم كلّها صغيرها وكبيرها قليلها وكثيرها **(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ)** أي عيّنا مراقبين عليكم يحفظون ويسجلّون أعمالكم، وكان هؤلاء المراقبون **(كِرَامًا)** أصحاب قدر ومنزلة وشرف **(كَاتِبِينَ)** يكتبون ما تعملون فلا يتركون شيئاً منه ولا يزيدون عليه؛ فإنّ منزلتهم تأبى عن ذلك كلّه.

فائدة: في هذه الآيات ما يوجب الإيمان بأنّ كلّ إنسان عيّن عليه من يسجل

ويكتب أعماله ويحفظ ذلك إلى يوم القيامة فيبرزه يومئذٍ ويحاسب العبد وفق ما كتبه هؤلاء الكتبة الكرام، إلّا أنّ هؤلاء الكتبة أين يسكنون وكيف يكتبون فلا يجب علينا الإيمان به إلّا بقدر ما شرح في حديث متواتر حفظ من حضرة الرّسول (ﷺ)، والّذي يتعجّب منه أنّ النّاس سيّما من يسمّون أنفسهم المثقّفين أو المنوّرين لو قيل لهم أنّ أمريكا أو روسيا ابتكرت جهازاً يسجلّ كلّ ما يقول أفراد بلده في السّرّ والعلن في البيت والشّارع وفي... وفي... يصدّق فوراً وبدون تردّد ولكن حينما يقال له أنّ الله عيّن على كلّ إنسان ملكاً يسجّل عليه أعماله ويكتب أفعاله ويحفظ ذلك إلى يوم الحساب يتردّد ويستبعد ويقول: أين الملك؟ وأين الكتابة؟ وكيف؟ أو إذا قيل له أنّ على رأس الإبرة يمكن أن تجتمع آلاف الميكروبات والجراثيم، لا يتلكّأ ولا يتردّد بل يخضع له ويكبره، ولكن إذا قيل له: أنّ على كتفي الإنسان ملكان على اليمين ملك يكتب الحسنات وعلى اليسار ملك يكتب السّيئات فيعرض ألف سؤال وسؤال[1]، وليس قصدي في هذا إنكار العلم، بل إنّ العلم موجود وأنّه هو الّذي يثبت حقائق دينيّة وسيحقّق العلم قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ سورة فصّلت الآية/ ٥٣. إلّا أنّ القصد أنّه يجب على المسلم أن يؤمن بالله أكثر من إيمانه باختراعات وإبتكارات الدّول المتقدّمة، ويؤمن بقول الله كما يؤمن بقول العلماء والدّكاترة، فإنّ هؤلاء وعلمهم وقدرتهم من قدرة الله تعالى وخلقه، فكيف به عالماً وخالقاً ومقتدراً وهو أحكم الحاكمين. فللّه تعالى على عبده كراماً كاتبين يكتبون أعمالهم وهم **(يعلمون ما تفعلون)** فلا يخفى عليهم شيء ويسجّلون ذلك حسب علمهم دون تغيير وتبديل وزيادة ونقصان، وإنّ لهذه الكتابة نتيجة، وإنّ لهذا التّسجيل لعاقبة. وذكر الله تعالى تلك النّتيجة بقوله:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

إنّ الّذين يعملون البرّ في الحياة الدّنيا لفي نعمة الله ورحمته في يوم القيامة وهي

(١) فيما استحدث في هذا الزمان من أقراص السيديا والسمكات وأمثاله من القطع الصغيرة الت لا تتجاوز كف الإنسان بل بعضه بقدر الأصبع يحفظ فيا كتباً ومعلومات لا يسعها آلاف الكتب دليل على إثبات ما أخبر به تعالى من تسجيل الأعمال كلها خلا العمر على منطقة صغيرة .

الجنّة، والّذين أتّصفوا بالفسق والفجور وانحرفوا عن قيم الإسلام وأخلاقه لفي جحيم وهي النّار وجهنّم وبئس المصير.

تنبيه: حينما تتلى هذه الآية الكريمة يمكن أن يرفع كلّ إنسان رأسه ويقول: إنّي من الأبرار، ولا تجد أحداً يعدّ نفسه من الفجّار فيتوب إلى الله ويصحّح خطأه ويغيّر أعماله، فلذلك يجب أن تعلم أنّ الأبرار من هم؟ والفجّار من هم؟ لتعلم حقيقة نفسك ومن أيّ صنف أنت فتتدارك بذلك موقفك ولا يضلّك هواك أو الشّيطان وأعوانه. لذا نريد أن نبيّن لك الأبرار ومن هم الأبرار؟ وبذلك يعرف الفجّار أيضاً لأنّ الضّدّ بالضّدّ، يعرف فنقول ذكر الله تعالى تعريف الأبرار في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم وهذه المواضع هي كالآتي:

الأوّل: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٧٧.

الثّاني: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ سورة الدّهر الآيات/ ٧-١٠. فهنا ذكر بعبارة أقصر ما يحمل الأبرار من الصّفات كلّها، فإنّ قوله (يوفون بالنّذر) يحتوي على جميع الواجبات الدّينيّة العقيديّة والعمليّة الإيجابيّة والسّلبيّة.

الثّالث: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٩٢. وهنا ذكر بصورة مختصرة أكثر وتنصّ هذه الآية على أنّ البّار من صرف كلّ ما يحبّ ويعزّ عليه من نفس ومال في سبيل نشر دعوة الله وإعلاء كلمته ونصب راية لا إله إلّا الله محمّد رسول الله. هذا هو البّار يا أخي وقد عرفت صفاته وأوصافه، فالفاجر من أتّصف بعكس صفات البارّ جعلنا الله تعالى من الأبرار ولا يجعلنا من الفجّار.

* * *

(يصلونها يوم الدّين) أي يدخل الفجار الجحيم يوم الجزاء وهو يوم القيامة **(وما هم عنها بغائبين)** أي ليسوا بخارجين عنها. ثمّ سأل عن يوم الدّين وما هو تفخيماً وتهويلاً له فقال:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

(وما أدراك ما يوم الدّين) أيّ شيء أعلمك ما هو حقيقة يوم الدّين وشدّته ولا يعرف حقيقته وشدّته إلّا من وصله وسأل مرّة أخرى عنه لزيادة التّهويل فقال **(ثمّ ما أدراك ما يوم الدّين)** لا تعرف ذلك ولا يمكن إعلامك به لأنّه شيء من الوجدانيّات إلّا بحصولها عند المرء، ولكن نذكر لك حكم ذلك اليوم فوصفه بقوله: **(يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله)** أي في ذلك اليوم لا يستطيع أحد أن ينفع أحداً وأن يعمل لأحد شيئاً ممّا يستفيد منه، بل إنّ الأمر لله وحده في ذلك اليوم.

سؤال: إنّ الأمر كلّه لله في الدّنيا والقيامة وفي كلّ وقت، فلم خصّص ذلك اليوم بهذا الحكم؟.

الجواب: الإجابة عن هذا السّؤال بنوعين:

الأوّل: لأنّه في ذلك اليوم كلّ إنسان يؤمن بأنّ الأمر كلّه لله فلا يبقى من لا يعتقد ذلك، ولكنّ في الدّنيا من لا يعتقد بالله، فضلاً عن أن يكون الأمر له، وهم الملاحدة المادّيون. ومنهم من يرى أنّ الأمر لله ولغيره وهم المشركون الّذين يشركون مع الله تعالى أصناماً أو الأسباب أو غير ذلك.

الثّاني: أنّه في الدّنيا توجد الأسباب وتكون تلك الأسباب وسائط إعتياديّة في حصول المسبّبات، ولكن في الآخرة لا يوجد أيّ سبب وإنّما الأمر كلّه لله مباشرة وبدون سبب، بل بأمر كن فيكون من الله ربّ العالمين.

* * *

سورة المطفّفين

(مكيّة، وهي آخر ما نزل بمكّة بعد العنكبوت، وآياتها ستّ وثلاثون).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾

(ويل) مبتدأ وهي نكرة صحّ وقوعها مبتدأً لوصفه بالعظمة، الدّال عليها التّنوين، فالمعنى ويل أي عذاب عظيم أعدّ **(للمطفّفين)** جمع مطفّف والمطفّف من غشّ النّاس بواسطة الوزن أو الكيل، وقد فسّره الله تعالى بقوله: **(إذا اكتالوا على النّاس)** والمعنى: وزنوا عليهم، بقرينة ما يأتي: أي حينما أخذوا حقوقهم من النّاس كيلاً أو وزناً **(يستوفون)** أخذوه وافياً كاملاً دون نقص بل زائداً **(وإذا كالوهم)** وحينما أعطوهم حقوقهم كيلاً **(أو وزنوهم)** ذلك الحقّ **(يخسرون)** ينقصونه ويعطونهم ناقصاً. فالتّطفيف في الكيل والوزن من الكبائر ولو كان بحبّةٍ واحدةٍ وأنّ عاقبته وخيمة. يحكى عن مالك ابن دينار أنّه حضر وفاة شخص فقال المحتضر: كأنّ على كتفي جبلين من النّار. فسأل مالك عن حاله؟ فقال: كان لي كيلان كيل كبير أشتري به وكيل صغير أبيع به، فقال مالك: فهذا العذاب من ذلك الإثم.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

(ألا يظنّ) أي ألا يعتقد أولئك الّذين يطفّفون **(أنّهم مبعوثون)** يحيون **(ليوم عظيم)** هو يوم الحساب.

سؤال: إنّ الحكم بحرمة التّطفيف والتّخويف فيه بالويل الشّديد لمن فعل هذا العمل الشّنيع يتوجّه إلى المؤمنين أم إلى المؤمنين والكافرين معاً؟.

الجواب: يتوجّه إلى المؤمنين فقط لأنّ يكفّوا عن ذلك ويمنعوا النّاس عنه وذلك لأمرين:

الأمر الأوّل: أنه ورد أنّ هذه السّورة نزلت قبل الهجرة بقليل، حيث كان أهل المدينة يطفّفون، فبعدما أخبروا بهذا الإنذار تركوا التّطفيف.

الأمر الثّاني: إنّ الأحكام العمليّة إنّما يخاطب بها المؤمنون، فإنّ الكافرين لم يلتزموا الإسلام حتّى يخاطبوا به وبأحكامه، فالخطاب هنا للمؤمنين. فإذن ينشأ هذا السّؤال الآتي:

سؤال: ما معنى الاستفهام في قوله تعالى: (ألا يظنّ أولئك أنّهم مبعوثون ليوم عظيم)؟.

الجواب: من الأمور المقرّرة أنّ كلّ استفهام من الله تعالى ليس على معناه الحقيقي، فإنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء حتّى يستفهم عنه، بل يحمل الاستفهام من الله تعالى على الإنكار أو التّقرير أو التّوبيخ أو غير ذلك ممّا يناسب المقام، فهنا لا يمكن حمله على التّقرير لأنّ معنى التّقرير أنّهم لا يظنّون أنّهم مبعوثون، والمؤمنون كانوا يعتقدون ويؤمنون بهذا اليوم والحساب فيه. وأمّا حمله على الإنكار فلا فائدة فيه لأنّ المعنى أنّهم يظنّون فيكون إخباراً بما هو معلوم، والإخبار بالمعلوم لغو؛ فلذلك يجب حمله على التّوبيخ، فالمعنى أنّهم حينما يؤمنون بهذا اليوم كان من الواجب أن يحملهم هذا الإيمان على عدم ارتكاب هذا الغشّ والخيانة، فمن لم يحمله هذا الإيمان على ذلك فإيمانه باطل ولا فائدة فيه، لأنّ فائدة الإيمان هي العمل بمقتضاه وبخلافه، فهو وعدمه سواء. فصحّ حمل هذا الاستفهام على التّقرير توبيخاً لا حقيقةً

* * *

(ليوم عظيم) وذكر مبهماً للتّهويل والتّفخيم وفسّره بقوله: **(يوم يقوم النّاس لربّ**

العالمين) أي يوم يقوم النّاس بين يدي ربّ العالمين لحسابهم وجزائهم حسب أعمالهم، إن خيراً فثواب جزيل وإن شرّاً فبعذاب وبيل.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾

(كلّا) أي فلينته المطفّفون عن تطفيفهم حيث **(إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين)** صيغة مبالغة من السّجن، وحيث كانت العادة أنّ السّجن يكون في مكان أسفل من الأرض كالسّراديب والزّنزانات، جعل السّجن كناية عن السّفل، والسّفل كناية عن الخسّة والدّناءة، فالمعنى: إنّ كتاب الفجّار لسافل جدّاً، أي لا شرف له ولا احترام بقرينة ما يقابله من قوله تعالى: **(إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين)** وهذا كناية عن انحطاط حال الفجّار، ومقابله كناية عن رفعة حال الأبرار **(وما أدراك ما سجّين)** أيّ شيء أعلمك ما هو سجّين؟ وما الّذي عرّفك به؟ الجواب: لا شيء، فنحن نعرّفك به ونعلمك، فقال تعالى: **(كتاب مرقوم)** أي رقم وكتب فيه أعمال الفجّار واضحاً ومبيناً[١] (ويل يومئذ) أي عذاب عظيم يوم أن قام النّاس لربّ العالمين حاصل ومعدّ **(للمكذّبين)** وفسّر المكذبين بقوله: **(الّذين يكذّبون بيوم الدّين)** أي لا يؤمنون به ولا يصدّقون بمجيئه.

ثمّ شدّد الله تعالى الملامة على هؤلاء المكذّبين فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

(وما يكذّب به) أي لا يكذّب بيوم الحساب **(إلّا كلّ معتدٍ)** والمعتدي هو المتجاوز عن الحقّ والمنحرف عنه والضّال **(أثيم)** أي من أثم بانحرافه ومجاوزته عن الحقّ، فإنّ من لم يجد الحقّ وجاوزه نوعان:

النّوع الأول: لا يأثم بهذه المجاوزة، وهو الّذي لم تبلغه الدّعوة الإسلاميّة ولم يذكّر بالآيات ولم يدع إلى الحقّ والإيمان، فهؤلاء غير آثمين إذا لم يدركوا الحقّ

(١) أو أعلم بعلامة أو ختم بختم يدل على مصير صاحبه.

وضلّوا عنه وليسوا مكلفين، حيث قال تعالى: ﴿وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥.

النّوع الثّاني: هو الّذين يأثمون بالانحراف عن الحقّ والتّجاوز عنه، وهم الّذين ذكّروا بذلك وبلّغوا به، وتليت عليهم آيات الله الكونيّة والقوليّة الدّالة على الحقّ إلّا أنّهم أعرضوا عن الآيات كلّها كما قال تعالى: **(إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين)** أي إذا بلّغوا بالحقّ وتليت عليهم آيات الله تعالى، قالوا: هذه حكايات الأوّلين، ولا أساس لها من الصّحة. والآيات نوعان:

النّوع الأوّل: قوليّة: وهي آيات القرآن الكريم الّتي تتلى على النّاس.

النّوع الثّاني: كونيّة: وهي الآيات الّتي تتضمّن الأمور الكونيّة الّتي تدلّ على الحشر والحساب ويوم القيامة، والّتي يشير القرآن الكريم إليها في مواضع كثيرة وذكرت سابقاً.

فالّذي لم يبلغ ليس بآثم ولو كان معتدياً أو متجاوزاً عن الحقّ غير مهتد إليه، إلّا أنّ المبلَّغ اسم مفعول يجب عليه أن يبلّغ من لم يبلَّغ، فالأمّة الإسلاميّة هي المسؤولة عن تبليغ الأمم الأخرى هذه الحقائق الرّبانية، وهذا الدّين الإسلاميّ الحنيف، وإلّا فالأمّة آثمة بسبب ترك هذا الواجب المهم.

* * *

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

(كلّا) كلمة زجر وردع وتوبيخ، فالمعنى: فلينتهوا عن هذا القول، فإنّ هذه الآيات ليست بأساطير الأوّلين، بل إنّها تنطق بالحقّ وتخبرنا عمّا هو موافق للعقول السّليمة والفطرة الإنسانيّة، وإنّ عدم إيمانهم ليس لقصور تلك الآيات عن إثبات هذه الحقيقة **(بل)** إنّ السّبب هو أنّه **(ران)** أي ستر وحجب **(على قلوبهم ما كانوا يكسبون)** من الذّنوب والآثام، فإنّ القلوب خلقت مستعدّة لقبول الحقّ وإدراكه، وهي كالمرآة تنعكس فيها الصّور الواقعيّة والأمور الحقّة الثّابتة إلّا أنّها كلّما أذنب المرء ذنباً أصبح ذلك الذّنب نقطة سوداء يقلّل من صفاء القلب، وهكذا كلّما ازدادت الذّنوب ازدادت رقعة السّواد حتّى يعمّ القلب فيمنعه عن إدراك الحقّ والاهتداء إليه. كما أنّ المرآة إذا استولى

عليها الصّدأ واسودّت لا تنعكس فيها الصّور والأشكال، كما أخبر عن ذلك رسول الله (ﷺ) فيما ذكره القرطبيّ عن التّرمذيّ عن أبي هريرة أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (إنّ العبد إذا أذنب خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو فزع واستغفر الله وتاب صقل قلبه، فإن عاد زيد فيها حتّى تعلو على قلبه وهو الرّين الّذي ذكره الله تعالى في كتابه[1]: كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ولهذه الآية معنيان آخران:

المعنى الأوّل: بل إنّ ما انهمكوا فيه من الشّهوات واللّذائذ وما تميل إليه النّفس هو الّذي أصبح حاجباً بينهم وبين الإيمان بيوم الجزاء، والعمل بمقتضى هذا الإيمان من الكفّ عن المناهي والاجتناب عن المعاصي فلا يستطيعون تركها والتّوجه للعمل الصّالح.

المعنى الثّاني: إنّ ما يكسبونه ويستفيدونه من منافع الدّنيا والمصالح فيما هم عليه من طريق الضّلالة والغواية هو الّذي حجبهم عن الإيمان والخروج عن هذه الضّلالة.

(كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون) بعد أن زجرهم الله تعالى على أقوالهم هذا وخطئهم وبيّن ضلالهم فيما قالوا زجرهم مرّة أخرى وخوّفهم بسوء عاقبتهم إن استمرّوا على هذه الفكرة الباطلة والضّلالة التّامة فقال: **(كلّا)** أي فلينتهوا عن ضلالهم وكفرهم لأنّهم نتيجة هذه الضّلالة لممنوعون عن لقاء ربّهم وعن شرف الحضور لديه ونعيم الله تعالى يوم القيامة والجزاء **(ثمّ إنّهم لصالوا الجحيم)** ربّما يتسلّى الكافر بالحرمان عن اللّقاء والنّعيم ويرضى بأن يبقى غير منعم إذا لم يكن معذّباً، ولذا نبّههم الله تعالى بأنّ جزاءهم ليس هذا الحرمان فقط، بل علاوة على ذلك أنّهم لصالو أي لداخلو الجحيم ويعذّبون فيها بتحريق أجسامهم وتمزيق أبدانهم، ثمّ إنّهم يضمّ لهم إلى هذا العذاب الجسمي العذاب النّفسي، ذلك بأن يخاطبوا خطاب التّكدير والتّبكيت والتّنديم والإهانة كما قال تعالى: **(ثمّ يقال)** لهم وهم في النّار **(هذا الّذي كنتم به تكذّبون)** في الدّنيا وكنتم لا تؤمنون به وتستهزئون بالّذي آمن به وصدّقه واجتنب بذلك عمّا خضتم فيه من الشّهوات المحرّمة واللّذائذ المنكرة. وبهذا يجمع الله لهم بين العذاب الجسماني والعذاب النّفساني وما أشدّ ذلك على المرء وأقساه، وذلك لأنّهم جمعوا في الدّنيا بين الشّهوات المحرّمة الجسميّة والنّفسيّة فعوقبوا بمثل ما فعلوا، والله عزيز حكيم وعلى ما يشاء قدير.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ٤٥ الحديث رقم٦.

وفي الختام نذكر تصريف **(لصالوا الجحيم)** فأصله لصاليون الجحيم لصاليون جمع صال اسم فاعل من الصّلى بمعنى: الدّخول، فحينما أضيف إلى الجحيم سقط النّون بالإضافة فصار لصاليو الجحيم، إلتقى السّاكنان الواو ولام الجحيم فحذف الواو فصار لصالي الجحيم، حذف الياء لإلتقاء السّاكنين أيضاً فصار لصال، التبس بالمفرد فضمّ اللّام للدّلالة على واو الجمع فصار لصال الجحيم، وكتبت الواو لذلك أيضاً، وهذه قاعدة صرفيّة ذكرتها للعلم بمدى عمق اللّغة العربيّة في تصاريفها.

فائدة: قال بعض العلماء إنّ لكلّ شيء كيلاً وميزاناً، فمن غشّ فيه فهو مطفّف ويستحقّ هذا الوعيد، فاللّسان ميزان، فإذا ذكرت به مساوئ النّاس دون محاسنهم وتركت مساويك وذكرت محاسنك فقط، فقد طفّفت، والعين ميزان، فإذا رأيت بها عيوب النّاس دون عيوبك فقد طفّفت والقلب ميزان فإذا أحببت لنفسك الخير وكرهت الشّرّ ولم تحبّ به لغيرك من المسلمين ولم تكره الشّرّ لهم فقد طفّفت، ولذا قال الرّسول (ﷺ): (لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه المسلم ما يحبّ لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه)[1] وهكذا فقس كلّ شيء وطبّق تكن مسلماً كاملاً.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

إنّ سياق القرآن الكريم هو أنّه كلّما ذكر حال العصاة والكافرين وعذابهم يأتي بعد ذلك بذكر الصّالحين والمؤمنين ونعيمهم وثوابهم، والعكس بالعكس، فهنا بعدما ذكر الفجّار وحالهم أتبعه بذكر حال الأبرار وما أعدّ لهم من النّعم والتّكريم فقال: **(كلّا)** أي فلينته الكافرون عن زعمهم بأنّه لا ثواب للصّالحين كما أنّهم زعموا أن لا عقاب على الفاسقين، فلينتهوا عن هذه العقيدة الباطلة حيث **(إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين)** جمع عليّ بتشديد اللّام وكسر العين صيغة مبالغة من العلوّ، كما أنّ السّجين صيغة مبالغة في السّجن فالمعنى: إنّ كتاب الأبرار لفي مكان عالٍ جدّاً، والعلوّ كناية عن الشّرف والقدر والسّعادة، كما أنّ السّجن كان كناية عن السّفل والسّفل كناية عن الإهانة والخسّة والشّقاوة، أي أنّ كتاب الأبرار لفي مكان يسعد ويشرف به صاحبه ثمّ فسّر العلّيين

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٤ الحديث رقم١٣

بقوله: **(وما أدراك ما علّيّون)** فإنّه أعلى من فهم الإنسان له فأنّا أعلّمك به فإنّه: **(كتاب مرقوم)** أي كتاب سجّل فيه أعمال الأبرار **(يشهده)** الملائكة **(المقرّبون)** لفرحهم بما سطّر فيه من الأعمال الحسنة والخصال الحميدة.

ثمّ فصّل ما للأبرار من النّعم هنالك كما فصّل من قبل ما أعدّ للفجّار من النّقم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(إنّ الأبرار لفي نعيم) جاءت النّعيم نكرة للتّعظيم، أي لا يدرك كنهه إلّا من أدركه ووصل إليه، ثمّ عرف هذا النّعيم ببعض الأمور المعلومة عند الإنسان فقال: **(على الأرائك ينظرون)** أي ينظرون على الأسرّة الموضوعة لهم إلى المناظر الجميلة والوجوه الملحّة والجوّ الصّافي والعيون الجارية في البساتين الزّاهرة، فعلى الأرائك متعلّق بينظرون قدّم عليه لرعاية السّجع والإهتمام فإنّ النّظر على الأرائك ألّذ من النّظر جلوساً على الفراش أو الأرض **(تعرف)** أي تدرك أيّها المخاطب وتحسّ **(في وجوههم نضرة النّعيم)** أي البشاشة الّتي تظهر على وجه الإنسان حينما ينعم ويتلذّذ بالنّعم **(يسقون من رحيق)** شراب وخمر خالص **(مختوم)** حتّى لا تمسّه الأيدي ولا يخالطه ما ليس منه **(ختامه)** ما يختم به **(مسك)** وهو أعلى أنواع العطر ليطيب شمّه كما طاب ذوقه **(وفي ذلك)** أي وفي تحصيل ذلك النّعيم وهذا التّكريم **(فليتنافس)** فليتسابق **(المتنافسون)** أي الّذين يتسابقون في الأمور والأجور، فإنّ كلّ ما يتسابق فيه الإنسان بالنّسبة إلى هذا النّعيم كلا شيء، فإنّ هذا النّعيم محض لا يخالطه شيء من الكدورة، بخلاف نعيم الدّنيا فإنّه ملوّه الأذى والآلام، كما وأنّ هذا النّعيم دائم باق لا يزول ولكن نعيم الدّنيا مؤقّت يفنى ويزول **(ومزاجه من تسنيم)** من عادة الّذين يشربون الخمور أنّهم يخلطون ويمزجون بها الماء ليخفّف من شدّته، فمزاج خمور المؤمنين في الجنّة وما يخلطون بها هو ماء في نهاية العلوّ من الصّفاء والطّهارة والحلاوة **(عيناً)** مفعول به لفعل مقدّر تقديره أعني بالتّسنيم عيناً **(يشرب بها)** أي منها **(المقرّبون)** الرّجال الصّالحون المقرّبون من الله

تعالى، ولذلك سمّيت تسنيماً لأنّ التّسنيم من السّنام بمعنى العلوّ، وهذه العين عالية القدر في المنزلة من اللّذة والحلاوة الموجودة فيها.

سؤال: إنّ هذه الخمر إذا كانت مسكرة فكيف يسكر المؤمن في الجنّة وإن لم تكن مسكرة فما لذّتها؟

الجواب: إنّ لذّة الخمر وهي السّرور والفرح الّذي يجده الشّارب في الخمر عند السّكر موجود في الجنّة، إلّا أنّ الحال في الجنّة أنّ شارب الخمر يجد هذه اللّذة دون زوال للعقل أو أن يصيبه ما يصيب الشّارب في الدّنيا من اللّغو في الكلام وزوال الشّعور كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩)﴾ سورة الواقعة الآيات/١٨ ـ ٢٠.

* * *

ثمّ بعد ما ذكر الله تعالى حال الفجّار وعذابهم في الآخرة،وذكر حال الأبرار وثوابهم في الجنّة، ذكر حال الفاجرين مع المؤمنين في الدّارين الدّنيا والآخرة، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

(إنّ الّذين أجرموا كانوا) أي في الدّنيا **(من الّذين آمنوا يضحكون)** يستهزئون بهم **(وإذا مرّوا)** أي الكفّار **(بهم)** أي بالمؤمنين **(يتغامزون)** ينظر بعضهم إلى بعض بأطراف العيون والجفون سخريّةً واستهزاءً بهم **(وإذا انقلبوا)** أي رجعوا **(إلى أهلهم)** وبيوتهم **(انقلبوا فكهين)** متلذّذين بما فعلوا واستهزؤوا بالمؤمنين، فكأنّهم ربحوا شيئاً عظيماً وكسباً حسناً **(وإذا رأوا)** أي الكفّار **(هم)** أي المؤمنين من بعيد أو قريب **(قالوا)** فيما بينهم **(إنّ هؤلاء)** أي المؤمنين من بعيد أو قريب **(قالوا)** فيما بينهم **(إنّ هؤلاء)** أي المؤمنين **(لضالّون)** أي عادلون عن الطّريق الحقّ والسّبيل المستقيم **(وما أرسلوا)** أي وما

أرسل الله ولا غيره هؤلاء الكافرين **(عليهم)** على المؤمنين **(حافظين)** أي مراقبين يسجلّون أعمالهم ويحفظون عليهم ما هم فيه، بل إنّما يعملون ذلك دون حقّ لهم عليهم، ولجرد تعنّتهم وغلوّهم في الكفر والضّلال، فهكذا كان الحال بين الكافرين والمؤمنين في الدّنيا. وأمّا في الآخرة فينقلب الأمر وينعكس كما قال تعالى: **(فاليوم)** أي يوم أن نال الكفّار عقابهم والمؤمنون ثوابهم ففي ذلك اليوم ينقلب الأمر وتنعكس الآية حيث هنالك **(الّذين آمنوا من الكفّار يضحكون)** من سوء ما وقعوا فيه **(على الأرائك ينظرون)** إلى حالهم وهم في النّار يعذّبون. ثمّ بعدما ذكر جزاء الكفار على سخريّتهم بالمؤمنين استفهم استفهام استهزاء وتضليل فقال: **(هل ثوّب الكفار)** أي هل أخذ الكفار ثواباً على **(ما كانوا يفعلون)** ما كانوا يفعلونه في الدّنيا من السّخرية والاستهزاء بالمؤمنين؟ وجواب هذا الاستفهام هو: **(كلّا)** بل عذّبوا نتيجة ذلك وادخلوا جهنّم وبئس المصير، واستفهم هذا الاستفهام حيث كان الكافرون يرتقبون ثواباً نتيجة عملهم هذا وسخريّتهم من المؤمنين، فنالوا خلاف ما انتظروا وذلك هي النّدامة العظمى والحسرة الّتي لا حسرة فوقها حفظنا الله تعالى آمين وغفر لنا ورحمنا أنّه أرحم الرّاحمين.

تنبيه: إنّ هذه الآيات سارية المفعول وموجود معناها في زمان الرّسول الأكرم إلى يوم القيامة، فتجد في كلّ زمان شرذمةً ضالّةً وأناساً جهلة لا يرون من الحياة إلّا الأكل والشّرب ولا يعرفون للقيم قيمة ولا للاخلاق وزناً أضلّهم الشّيطان ووكلّهم في تنفيذ خطته، وهؤلاء هم شياطين الإنس يسخرون من المؤمنين ويستهزئون بهم ويتّهمونهم بالرّجعيّة والخرافة وغير ذلك من اصطلاحات تتغيّر ألفاظها بمرور الزّمان ولكنّ المعنى واحد والمفهوم نفس المفهوم، فعلى المؤمن أن لا يضيق صدره ولا يحزن قلبه وأن لا يتكاسل عن الدّعوة إلى الحقّ والارشاد إلى الخير، فإنّ أمامه المستقبل الزّاهر والنّعيم المقيم، كما وإنّ أمام الكافرين المستقبل المظلم والعذاب الأليم، وأنّه في الآخرة تنعكس الآية وتتبدّل الحالة حينما يدور المجرمون في جهنّم كحمار الرّحى ويعذّبون، ويقعد المؤمن على أسرةٍ موضوعةٍ على شرف الجنان المشرفة على أهل النّار فيضحكون من حال الكافرين ويشكرون الله تعالى على ما أوتوا من الفوز العظيم والنّعيم المقيم. جعلنا الله تعالى منهم أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

سورة الإنشقاق

(مكيّة، نزلت بعد الانفطار، وهي خمس وعشرون آية).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾

(إذا السّماء انشقّت) إذا بمعنى الوقت، وفي العامل فيها هنا أقوال والأصحّ منها: أنّ العامل فيه **(كادح)** في قوله تعالى: **(يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً)** قدّم عليه لأنّه إذا قيل: إذا السّماء انشقّت... الخ، يتيقّن السّامع أنّ وراء ذلك خبراً عظيماً وأمراً هامّاً، فيفتح كلّ أذنيه ويصغي إليه فيقع الجواب فيهما أحسن وقوع **(وأذنت لربّها)** أي أطاعت السّماء لأمر ربّها بانشقاقها **(وحقّت)** وجعلت مستحقّة ومستعدّة لذلك الانشقاق **(وإذا الأرض مدّت)** القول في العامل في إذا هذه كالقول في إذا السّابقة و**(مدّت)** معناه زيد في حجمها وأبعادها، وذلك بانضمام الكواكب إليها أو بتخلخلها أو بهما جميعاً **(وألقت ما فيها)** اخرجت ما فيها من الموتى والكنوز والذّخائر **(وتخلّت)** أصبحت خالية ممّا فيها من المذكورات **(وأذنت لربّها وحقّت)** وجعلت مستعدّة لذلك كلّه. فإذا تغيّرت السّماء هذا التّغير وتبدّلت الأرض هذا التبدّل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا

مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

(يا أيّها الإنسان إنّك كادح إلى ربّك كدحاً) أي إذا رجع الإنسان إلى ربّه فماذا يكون؟ فأجاب الله تعالى عن ذلك وفصّل حال الإنسان وقسّمه إلى قسمين: قسم يؤتى كتابه أي سجلّ أعماله بيمينه، وقسم يؤتى كتابه بشماله ومن ورائه، وذكر حال القسمين فقال تعالى: **(فأمّا من أوتي كتابه)** بيمينه ومن أمامه **(فسوف يحاسب)** ذلك الشّخص **(حساباً يسيراً)** سهلاً **(وينقلب إلى أهله مسروراً)** فرحاً من سهولة الحساب معه وما يؤول إليه حاله من دخول الجنّة والنّجاة من العذاب. والحساب السّهل هو مجرّد عرض أعماله دون مناقشة، حيث روي من حديث عائشة أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (من حوسب عذّب، قالت السّيدة عائشة (رضي الله عنها): قلت: يارسول الله أليس قد قال الله تعالى **(فأمّا من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً)** قال: (ليس ذلك الحساب إنّما ذلك العرض. من نوقش الحساب يوم القيامة عذب)[1] ذكره القرطبيّ وقاله اخرجه البخاريّ ومسلم والتّرمذي وقال: حديث حسن صحيح. ثمّ بدأ بذكر حال القسم الثّاني فقال: **(وأمّا من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً)** أي يقول يا ويلاه ويا ثبوراه ويتمنّى أن يموت فلا يحيا ولكن أنّى له ذلك بل **(ويصلى)** أي ويدخل **(سعيراً)** جهنّم.

سؤال: قد ذكر في الآيت الأخرى أنّ الكتاب يؤتى للسّعداء باليمين وللأشقياء بالشّمال فكيف التّوفيق بينهما وبين هذه الآية الّتي تفيد أنّ كتاب الأشقياء يؤتى من ورائهم؟.

الجواب: أنّ الملائكة حينما يأتون لتوزيع الكتب يأتون السّعداء من الأمام ويؤتونهم كتابهم بيمينهم ويفرحون برؤيتهم، أمّا الأشقياء فيأتون إليهم من الخلف حيث يكرهون أن ينظروا إلى وجوههم المسودّة القبيحة، فيمدّ الشّقيّ شماله إلى الوراء فيتسلّم كتابه بشماله من ورائه.

* * *

(١) صحيح البخاري ١/ ٥١ الحديث رقم ١٠٣، صحيح مسلم ٤/ ٢٢٠٤ الحديث رقم ٢٨٧٦.

ثمّ ذكر الله تعالى سبب دخول الشّقي إلى السّعير فقال: **(إنّه كان)** في الدّنيا **(في أهله مسروراً)** مبتهجاً ومتوغّلاً فيما يشتهيه غير خائف ولا محزون وذلك حيث **(أنّه ظنّ أن لن يحور)** أي كان لا يعتقد الحساب والجزاء، ويعتقد أنّه لا حياة بعد الموت وأنّه لن يحور. أي لن يرجع إلى الله تعالى للحساب في يوم الحساب. ثمّ ردّ الله تعالى على عقيدته هذه قائلاً: **(بلى)** تأكيداً على أنّه يرجع و**(إنّ ربّه كان به بصيراً)** عالماً بأعماله وعقائده فيعاقبه على ذلك وينتقم منه انتقاماً شديداً.

فائدة: إنّ المؤمنين كانوا في الدّنيا خائفين محزونين من خوف يوم الحساب كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧)﴾ سورة المعارج الآية/ ٢٧، فبدّل الله تعالى خوفهم أمناً وحزنهم سروراً، ولكنّ الفاسقين كانوا في الدّنيا مسرورين غير خائفين من عذاب الله تعالى، فبدّل الله أمنهم خوفاً وسرورهم حزناً، ولذا قيل إنّ الله تعالى لا يجمع عليه أمنين ولا خوفين، فمن أمنه في الدّنيا خافه في الآخرة، ومن خافه في الدّنيا أمنه في الآخرة.

* * *

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ (١٦) وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ (٢١)﴾

(فلا أقسم بالشّفق) وهي الحمرة الّتي تبقى بعد غروب الشّمس على الأفق مدّة **(واللّيل وما وسق)** أي ما جمعه اللّيل فضمّ كلّ حبيب إلى حبيبه وجنس إلى جنسه **(والقمر إذا اتّسق)** إذا امتلأ نوراً وصار بدراً وجواب القسم هو قوله: **(لتركبنّ طبقا عن طبق)** لتدخلنّ حالاً بعد حال شدّةً بعد رخاء ورخاءً بعد شدّة، طفلاً ثمّ صبيّاً ثمّ كهولةً ثمّ شيبٌ وضعفٌ وقوّةٌ، وهكذا تتغيّر عليكم أحوال الدّنيا وتتبدّل أحوال النّاس، وكلّ هذه الأمور تدلّ على قدرة الله وعلى مجيء يوم القيامة، فإذا تفكّر الإنسان في هذا الكون وفي هذه الأحوال يصدّق كلّ ما أخبر به القرآن ويؤمن به وينقاد لأوامره ونواهيه فلذا قال تعالى: **(فما لهم لا يؤمنون)** بالله وقدرته وبيوم القيامة ومجيئه **(وإذا قرئ القرآن لا يسجدون)** أي ومالهم إذا قرئ القرآن لا يسجدون؟ أي لا ينقادون لما يخبر به وما يأمر

به وينهى عنه، وهذا الاستفهام استفهام تعجّب وإنكار من عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن بعد وضوح الحجّة وقوّة البرهان. أشار الله تعالى في هذه الآيات إلى أنّ حال الإنسان ممّا يليق أن يتعجّب منه، وذلك لأنّه أمامه شيئان أو أمران كلّ واحد منهما يكفي لو تفكّر فيه لأن يؤمن بالله واليوم الآخر، أو لأن ينقاد لهذا الدّين وما جاء به الرّسول (ﷺ):

فالأمر الأوّل: هو غروب الشّمس وحدوث الحمرة الّتي تبقى فوق الأفق بعد غروبها وهجوم اللّيل والظّلمة بعد ذلك، وجمعه للأشياء فيجتمع فيه كلّ شيء إلى قرينه وينضمّ إلى عرينه، ثمّ ظهور القمر بهذا النّور الّذي يخفّف كثيراً من وحشة الإنسان والوجود بعد الفناء والفناء بعد الوجود، والتّطوّر والتّحوّل الّذي يحدث في الأشياء دائماً وباستمرار، فمن تفكّر في هذا النّظام وفي هذا الصّنع يؤمن بأنّ لهذا الصّنع البديع من خالق عليم وحكيم وقدير، وأنّ هذا الصّانع القدير الّذي خلق هذا الصّنع العجيب لا يصعب عليه أن يعيد الحياة بعد الموت. كما وأنّ من صنع هذا النّظام الكوني لا يتصوّر أن لا يضع نظاماً تكليفيّاً للنّاس ويحاسب النّاس على وفقه، وأنّ لذلك يوماً لابدّ وأن يأتي لينال كلّ صاحب خير ثواب خيره، وكلّ أهل شرّ عقاب شرّه، فالّذي لا يتفكّر في هذا الكون أو لا يسوقه هذا الخلق والتّعمير وذاك التّبديل والتّغيير إلى الإيمان بما ذكر لحريّ بأن يتعجّب منه وأن يلام على ذلك فلذلك قال تعالى: (فمالهم لا يؤمنون).

الأمر الثّاني: هو هذا القرآن الّذي أتى به أمّي بعيد عن كلّ قراءة ودراسة وخطابة وشعر وكتاب، وأعجز جميع البلغاء عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، والّذي يخبر عن الماضي والمستقبل كما هو، ويخبر عن أمور كونيّة وطبيعيّة، ويأتي العلم بعد ذلك فيكشف كلّ ما أخبر عنه القرآن ويصدّقه، فمن تفكّر في هذا القرآن وتدبّره علم وأيقن أنّه من الله تعالى، وأنّه ليس من صنع البشر، فالّذي لا يوصله التّفكر في هذا القرآن إلى الانقياد له والامتثال لأوامره ونواهيه وحكمه ومواعظه لحريّ، بأنّ يتعجّب منه وينكر عليه حاله، هذا ولذلك قال تعالى: (**وإذا قرئ القرآن لا يسجدون**).

حكم شرعي: من وصل في تلاوة القرآن إلى قوله لا يسجدون، يسنّ له عند الشّافعيّة ويجب عليه عند الأحناف أن يسجد سجدة التّلاوة، فإنّ لم يكن في الصّلاة فذاك، وإن كان في الصّلاة سجد هو ومن تبعه إذا كان إماماً ثمّ بعد السّجود يرجع إلى ما كان فيه من الصّلاة، هذا بالنّسبة للقارىء، وأمّا السّامع فيسجد إن لم يكن في الصّلاة

وإن كان في الصّلاة فيسجد لتلاوة نفسه وإمامه فقط ولا يسجد لتلاوة غير إمامه، وكيفيّة السّجود إذا لم يكن في الصّلاة أن يرفع يديه ويكبّر وينوي سجود التّلاوة ثمّ يسجد ثمّ يقوم من السّجدة فيسلم، وإن كان في الصّلاة يسجد ناوياً ويقوم إلى ما فيه من الصّلاة ولا يسلّم، ويشترط لهذه السّجدة ما يشترط للصّلاة من وضوء وطهارة بدن وثوب ومكان واستقبال للقبلة، وتوجد في القرآن ثلاثة عشر موضعاً آخر غير هذا الموضع، يسجد المرء عند تلاوته وقد كتبت عنده علامة السّجدة في كلّ واحد من هذه المواضع في القرآن الكريم، فتنبّه له عندما تتلو القرآن واسجد سجدة التّلاوة في كلّ موضع، فإنّ في ذلك لأجراً عظيماً. هذا وإنّ المأموم لا يسجد إن لم يسجد الإمام إلّا بعد الفراغ من الصّلاة.

* * *

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾

(بل الّذين كفروا يكذّبون) بكلّ ما يدلّ عليه هذه الأدلّة وهذا القرآن **(والله أعلم بما يوعون)** أي يكتمون في قلوبهم من عداوة لأهل الإيمان وإنكار الدّين الإسلامي ومحاولاتهم لإطفاء هذا النّور وصدّ النّاس عن العمل به، فعقاباً على كفرهم هذا وتكذيبهم وأعمالهم ضدّ المؤمنين **(فبشّرهم)** يا محمّد **(بعذاب أليم)** مؤلم موجع لا يدرك كنه إيلامه إلّا من ابتلى به، كما يفيد ذلك التّنكير الدّال على التّعظيم والتّضخيم والتّهويل.

سؤال: إنّ البشارة خبر يتضمّن ما ينفع ويفيد ويسرّ به من يخبر، فكيف أطلقت هنا على ما يحزن به الكافرون الّذين أخبروا بذلك في قوله: **(فبشّرهم بعذاب أليم)**؟

الجواب: إنّ هذا إنذار وليس ببشارة إلّا أنّه سمّي بشارة تهكّماً لهم وسخريّةً بهم لأنّهم كانوا ينتظرون بشارة أعمالهم وعقيدتهم، فكأنّه قال: هذه بشارتكم الّتي كنتم تنتظرونها في الدّنيا إلّا أنّها على عكس ما كنتم تنتظرون، وذكر الإنذار بلفظ البشارة لزيادة أحزانهم وإيلامهم فإنّه حينما تقول لأحد: أبشّرك يفرح كثيراً ويفتح قلبه وإذنه لما يأتي ويسمع بعد ذلك ويبشّر به، فإذا جاءت البشارة بما يسوؤه يحزن حزناً أكثر من أن

تقول له ابتداءً: أنذرك بهذا فإنّ في الأوّل إزالة لما طمع فيه وإقامة لما يسوؤه مكانه، وفي الثّاني إقامة لما يسوؤه فقط، فيكون أشدّ إيلاماً وتحزيناً، وهذا ما يسمّى عند علماء النّفس بالصّدمة النّفسية فما أبلغ هذا القرآن.

* * *

ثمّ بعد ما ذكر الله تعالى بأنّ للكافرين عذاباً أليماً وأمر رسوله بأن يبشّرهم بهذا أورث ذلك شيئين:

الأوّل: إنّ الكافرين الّذين كانوا يكذّبون ثمّ أسلموا وآمنوا وصدّقوا وانقادوا لهذا القرآن ربّما يظنّون أنّ هذا الوعيد لكلّ من كذب سواء تاب بعد ذلك وآمن أولا، فتطميناً لقلوبهم ودفعاً لوهمهم قال تعالى: (إلّا الّذين آمنوا... إلخ) فالمعنى إنّ من كان يكذب ثمّ آمن لا يصيبه هذا العذاب وهو منجى منه بهذا الإيمان بعد التّكذيب فإنّ الإسلام يجبّ ما قبله.

الثّاني: إنّ الكافر المكذّب حينما يسمع هذه البشارة الّتي تتضمّن الوعيد في أكبر صوره يستولي عليه اليأس ويعتقد أنّه حيث كذب لا ينجو من هذا العذاب الأليم، فلا يؤمن بل يزيد في التّكذيب والكفر، فتطميعاً لهم وجلباً لقلوبهم ووعداً بالعفو عمّا مضى إن آمنوا قال تعالى: **(إلّا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات)** أي فهؤلاء يغفر الله لهم ما سبق ويعفو عنهم ما مضى بل **(لهم أجر غير ممنون)** أي غير مقطوع على هذا الإيمان والعمل الصّالح.

سؤال: إنّ من الكافرين من يتوب ويؤمن ويموت بعد قليل ولا يمكنه الإتيان بأيّ عمل صالح، فهل له هذا الأجر حسب هذه الآية أم لا؟

الجواب: نعم، إنّ له هذا الأجر لأنّ الرّسول (ﷺ) أخبر أنّ الإسلام يجبّ أي يمحو ما قبله من كلّ ذنب، والّذي يموت بعد الإيمان بقليل كما أنّه لم يتمكّن من العمل الصّالح لم يتمكّن أيضاً من العمل القبيح، فيكون كالمعصوم فيستحقّ هذا الأجر، أو أنّ الآية فيمن عاش بعد الإيمان زماناً يسعه العمل الصّالح فيه.

* * *

سؤال آخر: إنّ الآية أفادت أنّ هذا الأجر لمن آمن وعمل الصّالحات والألف

واللّام الدّاخل على الجمع يفيد الإستغراق والعموم، ولا يستطيع أحد من المؤمنين أن يعمل كلّ الصّالحات، فمن الّذي يستحقّ هذا الأجر؟

الجواب: إنّ مجرّد الإيمان هو سبب للنّجاة والفوز بالجنّة، وإنّ الجنّة ونعيمها لا تفنى ولا تزول ولا تنقطع، فإذا دخلها المرء كان أبديّاً فيها، فكلّ من آمن كان له هذا الأجر غير المقطوع أي غير المنتهي وغير الزّائل، إلّا أنّه من عمل كلّ الصّالحات يلقى هذا الأجر دون عذاب، ومن أتى ببعض الصّالحات وترك بعضاً أو أتى بالسّيئات فيحسب، فإن زادت حسناته سيّئاته يعفى ويشمله الأجر، أمّا من زادت سيّئاته حسناته فيكون له هذا الأجر بعد أن يرى ما يستحقّ من العذاب حسب سيّئاته إن لم يعف عنه ربّه ولم يغفر له، فكلّ مؤمن له هذا الأجر إن عاجلاً أو آجلاً، فالآية محمولة على ما نال الأجر دون عذاب، وهو من عمل كلّ الصّالحات الّتي تمكن منها وما لا يمكن لا يكلّف بها وعلى من نال هذا الأجر بعد العذاب أو العفو، رزقنا الله تعالى الإيمان الصّادق الكامل والأعمال الصّالحة إنّه رحيم قدير.

سورة البروج

(مكيّة، نزلت بعد الشّمس، وآياتها اثنتان وعشرون آية).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(والسّماء ذات البروج) في السّماء اثنتا عشرة مجموعة من الكواكب، تبقى الشّمس في الدّورة السّنوية مقابل كلّ مجموعة ثلاثين يوماً، ويسمّى كلّ مجموعة برجاً، ويرى النّاظر كأنّ الشّمس تدخل في هذه البروج وتتحرّك فيها وتقطع كلّ برج في ثلاثين يوماً، فيقال: دخلت الشّمس في برج كذا، وخرجت من برج كذا، والبرج في اللّغة: القصر، فكأنّها قصور تسكنها الشّمس وهي ملكة النّجوم، وتسمّى كلّ برج باسم شيء لأنّ كلّ مجموعة تشكّل صورة مثل صورة ذلك الشّيء فالأوّل: يسمّى برج الحمل لأنّه وقع على صورة الحمل ولد النّعجة، والثّاني: يسمّى بالثّور لأنّه في شكل ذكر البقرة، والثّالث: بالجوزاء لأنّه في صورة بنت، والرّابع: بالسّرطان لأنّه في صورة ذلك الحيوان المائي المسمّى بالسّرطان، والخامس: بالأسد لأنّه في صورته، والسّادس: بالسّنبلة لأنّه كسنبلة الحنطة في الشّكل، والسّابع: بالميزان لأنّه في صورة الميزان، والثّامن: بالعقرب لأنّه في شكل عقرب رفعت ذنبها إلى ظهرها، والتّاسع: بالقوس لأنّه في صورة قوس السّهم، والعاشر: بالجدي لأنّه في صورة ولد المعزّ، والحادي عشر: بالدّلو لأنّه في صورة دلو الماء، والثّاني عشر: بالحوت لأنّه في صورة السّمك، وكلّ ثلاثة بروج تشكّل فصلاً من الفصول الأربعة، فبالنّسبة لديارنا مدّة مرور الشّمس بالحمل والثّور والجوزاء هو الرّبيع، وبالسّرطان والأسد والسّنبلة هو الصّيف، وبالميزان والعقرب والقوس هو الخريف، وبالجدي والدّلو والحوت هو الشّتاء، هذا وإنّ هذه البروج على هذه الأشكال واضحة

في السّماء يراها الإنسان في اللّيالي غير المقمرة وفي مكان لا ضوء فيه، إلّا أنّه لا يرى كلّها إلّا إذا راقب الإنسان السّماء سنة واحدة لأنّ ستّة منها باللّيل فوق الأفق وستّة منها تحته.

(واليوم الموعود) الأقوال في معنى اليوم الموعود كثيرة، والأصحّ أنّ المعنى: اليوم المعيّن لكلّ أمر، فإنّ كلّ أمر له يوم معيّن، يوجد هذا الأمر في ذلك اليوم ولا يوجد في غيره، فهذا الثّمر في يوم وذاك في آخر، وذاك الزّرع في يوم وذاك في آخر، ولكلّ من الصّيف والخريف والشّتاء والرّبيع يوم معين، وهكذا لكلّ ما ينبت ويولد ويوجد ويثمر ويزرع ويحصد و... و... وغير ذلك يوم معين **(وشاهد ومشهود)** في تفسيره أقوال والأصحّ أنّ المعنى: وكلّ راء ومرئيّ فيدخل فيه كلّ الموجودات، لأنّ كلاً منها إمّا راء أو مرئيّ، وجواب القسم محذوف هو أنّ كلّ معتدٍ ينال عقابه وكلّ عاصٍ يذوق عذابه، أقسم الله تعالى بهذه الأشياء ظاهراً ولكنّه في الحقيقة استدلّ بها على وجود الثّواب والعقاب ومجيء يوم الحساب، وصورة الدّليل هكذا. إنّ خلق هذه السّماء الرّفيعة بدون عمد ترونها، وخلق هذه الشّمس الكبيرة في الجرم والمضيئة للعالم وإيقافها في هذا الفضاء، وخلق هذه البروج الّتي تسير الشّمس بحذائها فتحدث بذلك الفصول الأربعة في كلّ عام، وإنّ وجود يوم معيّن لكلّ شيء وتخصيص ذلك الشّيء به، فيوجد فيه ولا يوجد في غيره، ووجود هذه الموجودات الكثيرة الّتي لا يحصى عددها، وكلّ منها إمّا مدرك أو مدرك وراءٍ أو يرى، أو يتّصف بكلا الأمرين، أي يري ويرى، فهذا الصّنع العجيب والنّظام لا بد وأن يكون له صانع حكيم ومبدع قدير وعليم، ومن يقدر على إيجاد هذا العالم العظيم لا يصعب عليه إحياء الموتى، وأن يحيى العظام وهي رميم. وإنّ من صنع هذا النّظام لا يتصوّر أن يترك النّاس سدىً ولا يضع لها نظاماً يعملون به وشريعة يدينون بها ودستوراً يعدلون به، وأنّ من شان النّظام أن يثاب من يضعه ويعاقب من يعصيه، وحيث لا يوجد هذا في الدّنيا كلّياً فلا بدّ من أن يأتي يوم يلقى فيه الصّالح ثواب صلاحه والطّالح عذاب سيّئاته وجرائمه تحقيقاً لعدل الله وذلك يوم الحسب ويوم القيامة. هذا وأنّ كثيراً ما ينتقم الله من بعض المجرمين في الدّنيا قبل أن يعاقبهم في الآخرة، وبرهن على ذلك بحال أمّة سابقة تسمّى بأصحاب الأخدود أهلكت لسوء عملها ودمرت لضلالها ولعنت بظلمها وتجاوزها عن الحقّ وعن دين الله والإيمان بالله ربّ العالمين.

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

(قتل أصحاب الأخدود) أي أهلك ولعن أصحاب الأخدود ونالوا عذابهم في الدّنيا قبل الآخرة، وإنّ عذابهم في الآخرة أشدّ وأبقى. فقبل أن نبدأ بتفسير الآيات نودّ أن نبيّن أنّه من هم أصحاب الأخدود؟ وكيف كانت قصّتهم؟.

(قصّة أصحاب الأخدود)

ورد في ذكر هذه القصّة ثلاث روايات أصحّها ما هو في صحيح مسلم عن صهيب (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (ﷺ) قال: كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر فلمّا كبر[1] قال للملك: إنّي قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلّمه السّحر، فبعث إليه غلاماً يعلّمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب فاجتمع به وسمع كلامه فأعجبه، فكان كلّما أتى الغلام السّاحر مرّ بالرّاهب وقعد إليه، فإذا أتى السّاحر ضربه على التّأخير، وإذا رجع مرّ بالرّاهب فقعد إليه، فإذا أتى إلى أهله ضربوه، فشكا ذلك إلى الرّاهب فقال له: إذا خشيت السّاحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني السّاحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حبست النّاس فقال الغلام: اليوم أعلم أنّ السّاحر أفضل أم الرّاهب؟ فأخذ حجراً وقال: اللّهم إنّ كان أمر الرّاهب أحبّ إليك من أمر السّاحر فاقتل هذه الدّابة حتّى يمضي النّاس، فرماها فقتلها فمضى النّاس فأتى الرّاهب فأخبره، فقال له الرّاهب: أي بنيّ أنت اليوم أفضل منّي قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنّك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ. وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ويداوي النّاس من سائر الأدواء، فسمع جليس الملك وكان أعمى، فأتاه بهدايا كثيرة فقال الغلام: ماهذا؟ فقال الجليس: هذا لك أجمع إن أنت شافيتني، فقال الغلام: إنّي لا أشفي أحداً إنّما يشفي الله، فإن آمنت به دعوته فشفاك، فآمن جليس الملك بالله تعالى فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس كلّ يوم، فسأله الملك: من ردّ عليك بصرك؟

---

(١) أي الساحر.

قال: ربّي، فقال له الملك: أو لك ربّ غيري؟ قال: ربّي وربك الله، فأخذه وعذبه ولم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك؟ أي بنيّ قد بلغ من سحرك تبرىء الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فأجابه الغلام: أنا لا أشفي أحداً إنّما يشفي الله، فأخذه ولم يزل يعذّبه حتّى دلّ على الرّاهب، فقيل له: إرجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقّه حتّى وقع شقّاه، ثمّ جيئ بالغلام فقيل له: إرجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال لهم: إذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلّا فاطرحوه، فذهبوا به وصعدوه الجبل فقال: اللّهم أكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله، فدفعه الملك إلى نفر من أصحابه فقال: إذهبوا به فاحملوه في قرقورة فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه فنعم بها وإلّا فاقذفوه، فذهبوا به فحملوه في قرقورة فقال: اللّهم أكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السّفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله إنّك لست بقاتلي حتّى تفعل ما آمرك به، فقال الملك: وما هو؟ قال الغلام: تجمع النّاس في صعيد واحد وتصلبني على جذع ثمّ خذ سهماً من كنانتي ثمّ ضع السّهم في كبد القوس ثمّ قل: باسم الله ربّ الغلام، ثمّ ارمني فإنّك إن فعلت ذلك قتلتني، فجمع الملك النّاس في صعيد واحد وصلب الغلام على جذع وأخذ سهماً من كنانة الغلام ووضعه في كبد القوس ثمّ قال: باسم الله ربّ الغلام ورماه فأصاب السّهم صدغه، فرفع يده إلى صدغه موضع السّهم فمات فردّد النّاس: آمنّا بربّ الغلام، آمنّا بربّ الغلام، آمنّا بربّ الغلام. فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ والله قد نزل بك حذرك قد آمن النّاس، فأمر بالأخدود في أفواه السّكك فخُدَّت وأُضرم فيها النّيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتّى جاءت امرأة ومعها صبيّ فتقاعست عن الاقتحام فقال لها الصّبيّ: يا أمّي اصبري فإنّك على الحقّ. انتهى.

ذكر ذلك القرطبيّ والخازن والإمام الرّازي مع اختلاف في عباراتهم هذا ولنبدأ بتفسير الآيات الكريمة بإذن الله تعالى.

* * *

(قتل أصحاب الأخدود) الأخدود الخندق **(النّار)** عطف بيان للأخدود أي أخدود

النّار وخندقها، حيث حفروا خندقاً وملؤوها بالنّار ليلقوا فيه من لم يرجع عن الإيمان بالله **(ذات الوقود)** صفة النّار أي جمعوا لها وقوداً كثيراً من الخشب والحطب والحشائش وغير ذلك **(إذ هم عليها قعود)** إذ ظرف لقتل أي قتل وأهلك أصحاب الأخدود في الوقت الّذي كانوا قاعدين على مكان مشرف على النّار **(وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود)** وفي الحال الّذي كانوا ينظرون إلى ما يفعلون بالمؤمنين من إلقائهم في خندق النّار وإحراقهم فيه، وكان هلاكهم في تلك الحالة بأن رجعت النّار عليهم فأحرقتهم ونجا المؤمنون من شرّهم، وذكر هنا معان أخرى، ولكن هذا هو الّذي يرتاح له البال لأنّ القصّة أوردت ليكون وعداً لمؤمني مكّة بالنّجاة ووعيداً لكفارها بالهلاك، فإن لم يكن المعنى كما اخترنا لا يكون وعداً ولا وعيداً. ثمّ ذكر الله تعالى سبب غضب أصحاب الأخدود على المؤمنين وأقدامهم على ما فعلوا بهم فقال **(وما نقموا منهم إلّا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)** أي وما كان سبب غضبهم عليهم إلّا لأن يؤمنوا بالله العزيز الغالب على أمره الحميد المستحق لأن يحمد ويؤمن به ويعبد وإن من غضب على ذلك ومنع النّاس منه يستحقّ اللّعن والقتل في الدّنيا والآخرة والإهلاك من الله تعالى فلذلك أهلكهم **(والله عزيز)** لا يغلبه أحد **(حميد)** جميل صفاته وفعاله، فكلّ ما يفعل من الثّواب والعقاب جميل **(الّذي له ملك السّموات والأرض)** فمن كان كذلك ويملك كلّ موجود وبيده كلّ شيء، فكيف ينقم النّاس على من آمن به وعبده، وكيف يعذّبهم ويحرقهم بالنّار، كما وأنّ من له هذه القدرة العظيمة وبيده ملكوت السّموات والأرض لا يعجز عن الانتقام وإهلاك من عادى المؤمنين به لأنّهم آمنوا به **(والله على كلّ شيء شهيد)** فلا يخفى عليه جرائم المجرمين وضلال الكافرين، فيعاقبهم على كفرهم وضلالهم وعلى عدائهم لمن آمن به وإيذائهم لهم لا محالة، وإنّ عقابه يكون في الدّنيا والآخرة معاً، أو في الآخرة فقط حسب ما يريد ويختار.

تذكرة: قال القرطبيّ في تفسيره قال علماؤنا: أعلم الله تعالى المؤمنين من هذه الأمّة في هذه الآية ما كان يلقاه من وجد قبلهم من الشّدائد، يؤنسهم بذلك، وذكر لهم الرّسول (ﷺ) قصّة الغلام ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقّات الّتي كانوا عليها، ليتأسّوا ويقتدوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلّبه في الحقّ وتمسّكه به، وبذله نفسه في سبيل إظهار دعوته ودخول النّاس في الدّين مع صغر سنه وعظم صبره، وكذلك الرّاهب صبر على التّمسك بالحقّ حتّى شقّ بالمنشار، وكذلك كثير من النّاس لمّا آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطّرح في النّار ولم يرجعوا

في دينهم. انتهى ما قاله القرطبيّ، وهكذا يجب أن يكون المؤمنون في إيمانهم وإسلامهم والتّمسك بدعوته فهل المؤمنون كذلك اليوم؟ كلّا، ومن المؤسف أنّنا غير ذلك فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

* * *

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

بعد أن ذكر الله تعالى عذاب المجرمين في الدّنيا وخوّف الّذين كفروا من إيذائهم للمسلمين بذكر ما جرى على أصحاب الأخدود من المصيبة الّتي أصابتهم فأهلكتهم، ذكر أنّه علاوة على عذابهم في الدّنيا قد أعدّ الله تعالى لكلّ من آذى المسلمين على إسلامهم والمؤمنين على إيمانهم عذاباً يوم القيامة، هو أشدّ من عذاب الدّنيا فقال وعزّ من قائل: (**إنّ الّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**) بمعنى الّذين عذّبوا المؤمنين والمؤمنات ليعيدوهم إلى الكفر وآذوهم بسبب أن آمنوا وتمسّكوا بالإسلام أعدّ (**لهم عذاب جهنّم وعذاب الحريق**) فيه إن لم يتوبوا عن كفرهم وعن إيذائهم للمؤمنين.

بعد أن ذكر الله تعالى وعده بالنّصر للمؤمنين الّذين صبروا على الإيمان وتحمّلوا الأذى في سبيل التّمسك بدينهم، كما نصر مؤمني أصحاب الأخدود بإهلاك أعدائهم، ذكر حالهم في الآخرة أيضاً من الثّواب الجزيل والنّعيم الأفضل، فقال جل وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

(**إنّ الّذين آمنوا**) بما جاء به الرّسول وقادهم هذا الإيمان إلى العمل (**وعملوا الصّالحات لهم جنّات**) أي أعدّت لهم يوم القيامة جنّات من صفتها أنّها (**تجري من تحتها**) أي من تحت أشجارها (**الأنهار**) أي السّواقي لسقيها لكي لا يتعبوا في سقيها (**ذلك**) دخولهم في هذه الجنّات (**الفوز الكبير**) الفلاح العظيم والسّعادة الّتي لا سعادة بعدها.

سؤالان:

الأوّل: ما هي الأعمال الصّالحات الّتي تدخل الجنّة؟

الجواب: إنّ طبائع النّاس مختلفة وعقولهم متباينة، كما وإنّها قاصرة عن إدراك ما هو صالح؟ وما هو حقّ؟ فالّذي يحسّنه بعض العقول يقبّحه الآخرون، والّذي يقبّحه البعض يحسّنه من عداهم، فلذلك لا يمكن للإنسان أن يعرف الصّالح من غيره ويضبط الحسن من القبيح، فلذلك احتاج النّاس إلى بيان ذلك من الله تعالى وتمييزه بين الصّالح والفاسد والحسن من القبيح، ومن هنا احتاج النّاس إلى شريعة من الله تعالى، فأرسل تعالى الرّسل ليبلغوا شريعته ويميّزوا بين الخير والشّرّ والحسن والقبيح والصّالح والفاسد حسب ما أمر الله تعالى به، فالأعمال الصّالحات ما اعتبرها الله تعالى صالحة وما تكون حسب شريعته وحسب ما أمر الله، وما عداها غير صالح وإن عدّه كلّ النّاس صالحاً، فميزان العلم بصلاح العمل وفساده هو الشّرع لا غير، وإنّ من يقول: إنّ العقل يدرك الحسن من القبيح والصّالح من الفاسد فلا أقف في ضدّه وإنّما أقول له: نعم إنّما يدرك ذلك العقل الكامل لا كلّ العقول، وهو عند الله تعالى إذ له العلم الكامل والشّامل لا لغيره، ثمّ لو فرضنا أنّ بعض عقول البشر يدرك ذلك ولكن ماذا يفعل عندما ذهب بعض العقول إلى خلافه؟ ومن الصّعوبة أن ينقاد عقل لعقل وناس لناس، فبقيت الحاجة إلى شرع من الله تعالى حيث ينقاد له النّاس كلّهم، ولا يستنكف من الانقياد له إلا من ضلّ إلى النّار.

الثّاني: قد ربط الله تعالى الفوز بالجنّة بالإيمان والأعمال الصّالحة، فإن قلنا إنّ الإيمان بما ذكر سهل لمن آمن، ولكنّ الّذي يستطيع أن يعمل الصّالحات كلّها، وقد ثبت أنّ العصمة للرّسل فقط؟

الجواب: إنّ الآية في حقّ من يفوز بالجنّة دون حساب، وهم الّذين يعملون الصّالحات كلّها واضحة، وأمّا بدون عذاب إن زادت حسناتهم سيّئاتهم أو بعد الحساب إن تساوت أو بعد ما تطهّروا من الذّنوب بالعذاب، إن زادت سيّئاتهم ولم يحفّهم الله تعالى برحمته فثبت أنّ مجرّد الإيمان أو مع بعض الصّالحات سبب لدخول الجنّة والفوز بها إن عاجلاً أو آجلاً بلا عذاب أو بعد العذاب؛ فيكون التّقدير إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات كلّها لهم جنّات بدون حساب، وتفيد أنّ غيرهم لهم الجنّات بعد الحساب.

* * *

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

(إنّ بطش ربّك لشديد) بعد أن ذكر الله تعالى عذابه في الدّنيا والآخرة لمن كفر به وآذى المؤمنين حذّر النّاس جميعاً من عذابه وعقوبته فقال: **(إنّ بطش ربّك)** أي إنّ أخذ الله تعالى لمن أخذه وعاقبه لشديد لا عقاب أشدّ من عقابه، فليحذر النّاس من أخذه وعقابه بالاجتناب عن المعاصي والبعد عمّا يوجب سخط الله تعالى وعن إيذاء المؤمنين، ثمّ أثبت شدّة أخذه بقوله: **(إنّه هو يبدئ ويعيد)** فمن كان كذلك فأخذه شديد جدّاً **(إنّه هو يبدئ)** أي هو الّذي ينشئ إيجاد كلّ موجود ويوجده **(ويعيد)** أي هو الّذي يعيد كلّ موجود يعود بعد فنائه، فمثلاً هو الّذي ينبت النّباتات ثمّ يجعلها حطاماً ثمّ يعيده بعد ذلك مرّةً أخرى، وهذا البدء والإعادة يتكرّر أمام عيوننا كلّ سنة أو في أقلّ منه، وكلّ شجر يورق ويثمر ثمّ يجفّ ويتيبّس ثمّ يعيده الله تعالى إلى الإيراق والإثمار، وهذه أيضاً نراها ونعيش معها إلى غير ذلك ممّا يجري في الكون، ولو تفكّر الإنسان في الكون يرى كلّ شيء كذلك إيجاداً وأفناءً وإعادةً بعد إفناء، ولكنّ الإنسان غفل عن هذا التّفكير ولا تليق به هذه الغفلة ولذلك ذمّ الله تعالى الغافلين عن التّفكير في ملكوت السّموات والأرض قائلاً: ﴿وكأيّن مِنْ آيةٍ في السمٰوات والأرْضِ يمرّونَ عَلَيْهَا وهُمْ عَنْها مُعْرِضون﴾ سورة يوسف الآية/ ١٠٥، ثمّ بعدما ذكر الله تعالى: **(إنّ بطش ربك لشديد)** وأثبت ذلك بقوله: **(إنّه هو يبديء ويعيد)** إهتزّ قلب المؤمن وخاف من مقته وعذابه فهدّأه الله تعالى من روعه وقلّل من خوفه فقال: **(وهو الغفور الودود)** غفور للمؤمنين وإنّ مغفرته لهم لودّه لهم وإحسانه إليهم فقط، وليس لشيء آخر من حاجته إلى مغفرتهم، أو كما يقول بعض النّاس: إنّ ثواب المطيع واجب على الله تعالى **(ذو العرش المجيد)** أي هو صاحب الحكم والمجد والعظمة، فيستطيع أن يعذّب الكافرين ويثيب المؤمنين، وذلك ليس جبراً عليه ولا واجباً بل هو **(فعّال لما يريد)** أي يفعل ذلك بإرادته واختياره ولا يوجد جبر أو قهر ولا وجوب عليه، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً، ثمّ لمّا ذكر الله تعالى الرّسول والمؤمنين بقصة أصحاب الأخدود وبين ما للكافرين من عذاب في الدّنيا والآخرة، وما للمؤمنين من نصر في الدّنيا وثواب يوم القيامة، وذكر ما يدلّ على قدرته على ذلك بما ذكره بعده من صفات القهر والرّحمة، ذكرهم أيضاً بما جرى

على فرعون وثمود نتيجة تمرّدهم على الله تعالى ورسوله، وذكر ذلك تسلية للرّسول والمؤمنين ووعداً لهم بالنّصر والثّواب ووعيداً للكافرين بالدّمار والعذاب في الدّارين فقال:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

(هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود) قد أتاك نبأ ما جرى على فرعون وثمود، فتسلّ بذلك فإنّه يصيب الكافرين من قومك مثل ما أصابهم، وكان عليهم أن ينتهوا عن كفرهم وتمرّدهم وأن يؤمنوا حينما سمعوا بهذه الأمم وأخبروا بما أصابهم، ولكنّهم لا يؤمنون **(بل الّذين كفروا)** مستمرّون **(في تكذيب)** لك ولكن لا تحزن على كفرهم ولا تأس على تمرّدهم فإنّهم ينالون عقابهم **(والله من ورائهم محيط)** أي أنّ مثل الله تعالى في قدرته عليهم كمثل جيش أحاط بقوم لا يفلتون من سطوته، فكذلك هؤلاء لا ينجون من سطوة الله تعالى، وسوف يأتيهم يومهم الّذي يحيط بهم ويعذّبهم فلا يكوننّ أحد في شكّ من هذه الإحاطة بهم، فإنّ هذا الخبر ليس من قبيل أخبار الكهنة وأهل العرافة والقيافة وغير ذلك ممّا يصدق مرّة ويختلف أخرى **(بل)** هذا الخبر **(هو قرآن مجيد في لوح محفوظ)** أي قرآن في لوح حفظ من الجنّ والشّياطين من محاولاتهم لإدخالهم الأكاذيب والأباطيل فيه كما كانوا يدخلونها في أخبار الكهنة والسّحرة والمشعوذين. هذا وإنّ قصّة فرعون قد أشير إليها في سورة النّازعات، وسنبيّن لك قصّة ثمود في سورة الشّمس إن شاء الله تعالى.

سورة الطّارق

(مكيّة، آياتها سبع عشرة، نزلت بعد سورة البلد).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾

(والسّماء والطّارق) الطّرق من يأتي ليلاً سمّي النّجم به لأنّه يظهر ليلاً **(وما أدراك)** ما الّذي أعلمك **(ما الطّارق)** إنّ الطّرق ما هو؟ والمعنى إنّك لا تعلم ذلك لأنّ العرب ما كانوا يسمّون النّجم بالطّرق قبل نزول القرآن، لأنّ هذا الاسم للنّجم حدث بعد نزول القرآن، لأنّ القرآن هو الّذي سمّاه به كما قال تعالى: **(النّجم الثّاقب)** أي أنّ الطّارق هو النّجم الّذي يثقب ظلام اللّيل بنوره **(إن كلّ نفس لمّا عليها حافظ)** إن قرىء (لمّا) بتشديد الميم فـ (إن) نافية، ولمّا بمعنى ألّا أي لا توجد نفس إلّا وعليها حافظ يحفظ ويسجّل أعمالها لتحاسب يوم القيامة حسب ما حفظه وسجلّه هذا الحافظ، وإن قرىء بتخفيف الميم فإن مخفّفة من الثّقيلة واسمها ضمير الشّأن المقدّر تقديره أنّ الشّأن أنّ كلّ نفس لعليها حافظ، والتّأنيث باعتبار أنّ الشّيء عبارة عن النّفس ومآل كلا التّقديرين واحد، وهو أنّ كلّ نفس من نفوس البشر عليها حافظ ومراقب يسجل ويحفظ أعمالها.

تنبيه: أقسم سبحانه وتعالى ظاهراً بالسّماء والطّارق على أنّ كلّ نفس لما عليها حافظ ولكنّه برهن تعالى واستدلّ بالسّماء والطّارق على هذا الخبر وصدقه وحقيّته، وصوره الدّليل أنّ هذه السّماء الرفيعة الواقفة في الفضاء وهذه النّجوم الّتي تسير وتسبح

في هذا البحر المتلاطم من الجوّ ووضع كلّ واحد من هذه النّجوم بخاصيّته وعمل وحركة وتدبير لأمر الكون وكونها مسخّرة ودائبة على عملها، فهذا النّظام يشهد ويدلّ على أنّه لابدّ وأن يكون لهذا الصّنع صانع حكيم وخالق قدير عليم وهو الله، وأنّ الله الّذي يقدر على خلق هذا النّظام ليسهل عليه جدّاً إحياء الإنسان بعد الموت ولا يصعب عليه، وإنّ الحكيم الّذي صنع هذا النّظام الكوني لا يليق بحكمته أن لا يضع نظاماً تكليفيّاً لمن سخّر له هذه السّموات وهذه النّجوم وهذا الكون وهو الإنسان، بل وضع له نظاماً تكليفيّاً وشريعة، وفرض عليه العمل بها والحياة على ضوئها وتعليماتها، ومن شأن كلّ شريعة أن يثاب الممتثل والمطبّق لها ويعاقب المنحرف والتّارك لها وللعمل بها، وحيث لا يوجد هذا الثّواب والعقاب كليّاً في الدّنيا فلا بدّ أن يأتي يوم يحيا فيه البشر كلّه وينال كلّ صاحب خير ثواب خيره وكلّ عامل شرّ عقاب شرّه؛ تحقيقاً لعدل الله تعالى وأنّ كلّ إنسان لابدّ وأن يكون عليه مراقب يسجّل عليه أعماله ويحفظها لذلك اليوم ليحاسب ويثاب أو يعاقب حسب ذلك المسجّل المحفوظ ليكون حجّة عليه.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾

(فلينظر الإنسان ممّ خلق) فليتفكّر الإنسان وليتذكّر أنّه من أيّ شيء خلق؟ **(خلق من ماء دافق)** أي وجد من ماء يخرج بتدفّق وحركة **(يخرج من بين الصّلب والتّرائب)** يخرج هذا الماء الّذي يتولّد منه الإنسان من ماء الرّجل الّذي يخرج من الصّلب، ومن ماء المرأة الّذي يخرج من ترائبها، أي أضلاع صدرها، فمجموع الماء الّذي يخلق منه الإنسان يخرج من بين صلب الرّجل وترائب المرأة، أو أنّ كلّاً من الماءين يخرج من بينهما، وهذا يعرفه الأطبّاء الأخصائيّون بالجنس. أمر الله تعالى الإنسان أن يتفكّر فيما خلق منه، وهو هذا الماء الرّقيق الضّعيف النّتن المهين لأمرين:

الأمر الأوّل: أنّه بعدما تفكّر الإنسان في خلق السّموات والنّجوم، فلم يهتد إلى معرفة الخالق وقدرته، وإلى أنّه حينما قدر على هذا الخلق فعلى إعادة الإنسان بعد الموت أقدر، فإذا لم يهتد بهذا فليتفكّر في ما **خلق** منه هذا الإنسان، الإنسان العجيب والّذي هو أعجب من كلّ مخلوق أنّه خلقه الله تعالى من هذا الماء الّذي ذكرناه ووصفناه، فمن قدر على خلق الإنسان من هذا الماء وتربيته في ظلمة الرّحم لقدير على

أن يخلقه مرّة أخرى، وفي ظلمة القبر من موادّه الأصليّة وإعادة الحياة إليه، وبذلك التّفكير يصل الإنسان إلى الاعتراف بأن يقول: **(إنّه)** أي الّذي خلقه من هذا النّوع من الماء **(على رجعه)** على خلقه مرّة أخرى وإعادته إلى الحياة بعد الموت **(لقادر)** لمستطيع. ويستفاد من هذه الآية أنّ الانسان إذا طغى وتكبّر واستبدّ وظلم النّاس وعصى ربّه فليتفكّر في أصل خلقته ممّ خلق ليعلم ضعفه وحقارته أمام الله تعالى وعدله، فبذلك يرجع عن كبريائه واستبداده وغطرسته لأنّه يعلم أنّ الّذي خلقه من هذا الماء لقادر أن يعيده ويحاسبه على هذا التّكبّر والظّلم والإستبداد والعصيان والخروج عن شريعة خالقه.

حكاية: يحكى أنّ أحد الأمراء مرّ بساحة كان يلعب فيها الصّبيان فلمّا رأوه تفرّقوا كلّهم خوفاً منه إلّا صبيّاً واحداً وقف في مكانه ولم يفرّ، فلمّا وصله الأمير قال: ألا تعرفني؟ ولماذا لم تفرّ مثل زملائك؟ قال: بلى أعرفك قال: من أنا؟ فأجابه: لقد كنت نطفة قذرة، وتمشي وفي بطنك عذرة، وتموت وتصير جيفة مذرة، فتعجّب من جرأته وذكائه ومشى حافظاً لنصيحته فلم يتكبّر بعد.

* * *

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾

(إنّه على رجعه لقادر) ذكرنا تفسيره **(يوم)** منصوب بفعل محذوف يدلّ عليه أنّه على رجعه لقادر فالتّقدير يرجعه **(يوم تبلى)** أي تكشف **(السّرائر)** المخفيّات من الأعمال والعقائد والنّيات **(فماله)** أي ليس للإنسان في ذلك اليوم **(من قوّة)** تنقذه من عذاب الله **(ولا ناصر)** تنصره وتنجيه إن استحقّ العقاب.

ثمّ ذكر الله تعالى دليلاً ثالثاً أنفى من الأولين لاستبعاد الإنسان وتعجّبه من الإحياء بعد الموت، فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ۝١٧﴾

(والسّماء ذات الرّجع) الرّجع: المطر، أي إنّ السّماء الّتي تأتي بالمطر وإنّ المطر يتكوّن من ماء البحر، فإنّ ماء البحر لينحمى فيصير بخاراً، فيصعد ويصير سحاباً، ثمّ يبرد فيعود ماءً، وينزل إلى الأرض، فهذا إعادة بعد الفناء، فإنّ الماء فنى وصار بخاراً ثمّ فنى البخار وصار ماءً، فكلّ ذلك إعادة إلى أصل الشّيء بعد فنائه، وما القيامة إلّا إعادة الإنسان إلى أصله بعد فنائه وموته **(والأرض ذات الصّدع)** المراد بالصّدع النّباتات، فإنّ الصّدع بمعنى الشّقّ والنّبات يشقّ الأرض فيخرج منها فسمّي صدعاً. استدلّ الله تعالى بالأرض الّتي تنبت النّباتات على عدم إستحالة الإحياء بعد الموت، لأنّ النّباتات كلّها تخرج من الأرض، فتعلو وتزيد وتثمر ثمّ تجفّ وتيبس وتصير حشيشاً وتموت وتضربه الرّياح فتذهب وتبلى، ثمّ يخرج ذلك النّبات في الرّبيع على بذره كما كان، أليس هذه حياةً بعد موت وإعادة بعد فناء، فكذلك الإنسان خرج من الأرض لأنّ الأقوات والأطعمة كلّها تخرج من الأرض والنّطفة من النّباتات ثمّ تصير إنساناً ثمّ يموت ويعود تراباً، فإذا أعيد على بذره وأصله من التّراب بعد الموت حيّاً فلا عجب فيه ولا حقّ للإنسان في أن يستبعد ذلك. فإذا تفكّر الإنسان في النّباتات وفي المطر وفي كلّ شيء، وعلم أنّ كلّ شيء عود على بدء وإعادة بعد فناء وتبديل وتغيير وتحوّل من حال إلى حال، ثمّ العود إلى أوّل الحال ليصدق بالحياة بعد الموت ويقول: **(إنّه)** القرآن الّذي يقول بالحياة بعد الموت **(لقول فصل)** فاصل بين الحقّ والباطل **(وما هو بالهزل)** بل هو حقّ وصدق. ثمّ بعدما ذكر الله تعالى هذه الدّلائل الّتي كلّ واحد منها يكفي لأن يؤمن به ويقتنع به الإنسان، إلّا أنّ كفار مكّة أصرّوا على كفرهم وتكذيبهم للرّسول في الإخبار عن الإحياء بعد الممات والحساب بعد الوفاة، وكانوا يريدون في كلّ المحاولات صدّ النّاس عن الإيمان بالرّسول (ﷺ) وبما جاء به، فبذلك حزن قلب الرّسول (ﷺ) وضاق صدره فسلّاه الله تعالى وصبّره ووعده بالنّصر عليهم فقال تعالى: **(إنّهم يكيدون كيداً)** لصدّ النّاس عن دعوتك ولإيذائك وإيذاء من تبعك، ولطمس عقيدتك وشريعتك ودينك الّذي أنزل الله تعالى **(وأكيد كيداً)** وإنّي أقدر تقديراً لنصرك عليهم ولخذلانهم ولإعلاء كلمتك ولسلطان عقيدتك ودينك، فلا تحزن واصبر فإنّ النّصر لك والهزيمة لهم **(فمهّل الكافرين)** فإذا كان الأمر كذلك أمهل الكافرين واصبر مدّة **(أمهلهم رويداً)** إمهالاً قليلاً فإنّه يقع بهم ما يخذلهم ويخزيهم، وقد وقع ذلك في حرب بدر وحنين وفتح مكّة، وقد أنجز الله وعده ونصر رسوله تنفيذاً لما قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾

سورة التوبةالآية/ ٣٣. وهكذا سجيّة الكافرين يعملون دائماً لطمس معالم الإسلام ولصدّ النّاس عن الإسلام، ولإذلال الإسلام والمسلمين. إلّا أنّ العاقبة للمسلمين إن عملوا بصدق واستقاموا وصبروا وما انحرفوا عن حقيقة الإسلام، حيث وعدهم الله بذلك فقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الروم الآية/ ٤٧. فاليوم حينما نرى الإسلام والمسلمين في ذلة فإنّما هو لإبتعادهم عن الإسلام وانحرافهم عنه، أو لامتحانهم كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢١٤. وقال أيضاً: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٤٢. وقال أيضاً: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتّى يميز الخبيث من الطّيب﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٧٩. فهذا امتحان فطوبى لمن نجح، ويا خسارة لمن رسب فخسر الدّنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٨.

سورة الأعلى

(مكيّة، نزلت بعد التّكوير، وآياتها تسع عشرة).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾

(سبّح) كثيراً ما يرد في القرآن الكريم هذه الألفاظ، وهو فعل أمر من التّسبيح، وسبّح فعل ماض منه ومضارعه يسبّح وسبحان، فما معنى هذه الألفاظ؟ فنقول: إنّ هذه الألفاظ مشتقّة من السّبح وهو المشي على الماء، ثمّ استعمل مجازاً في سرعة السّير لأنّ السّابح يسرع في مشيه على الماء، قال الشّاعر في مدح فرس له:

وتصعدني في غمرة بعد غمرة سبوح لها منها عليها شواهد

فسبوح بمعنى سريع المشي، وقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ سورة يس الآية/ ٤٠. إخباراً عن الشّمس والقمر بأنّهما يجريان جرياً سريعاً في فلكهما، ثمّ استعمل في البعد لأنّ المشي السّريع سبب للبعد والإبتعاد عن المكان الّذي مشى منه الماشي، ثمّ أُستعمل في النّزاهة لأنّ من ابتعد عن شيء تخلّص وتنزّه منه، فسّبح الله أي نزّهه وسبّحه، أي نزّهه، وسبحان الله أي التّنزاهة لله فـ **(سبّح اسم ربّك)** أي نزّه اسم ربّك، وليس المعنى على الحقيقة لأنّ اسم الله ليس غير منزّه فتنزّهه بل معناه: اعتقد بنزاهة اسم ربّك، هذا وقد تكلّم المفسّرون على كلمة الاسم هنا، وكلّ ذكر له معنى. ولكنّ الّذي يرتاح له البال هو: أنّ الاسم في الأصل بمعنى العلامة، وسمّي الاسم اسماً لأنّه علامة على مسمّاه، ويعرف به والّذي يعرف الله تعالى به هو العالم والموجودات، وإنّ

هذه الموجودات لا تكون إلّا بالقدرة القاهرة، فالقدرة الّتي من أثرها هذه الموجودات هو اسم الله أي علامة على وجوده وعظمته فالمعنى هنا: اعتقد بنزاهة قدرة الله تعالى عن أن تعجز عن أيّ شيء أراده. وحيث إنّ هذه السّورة نزلت بعد التّكوير، وإنّ الله تعالى أخبر في أولّها بأنّ الشّمس تكوّر وتزال، والكواكب تنتثر وتزول، والجبال تسير وتصير هباءً منثوراً، وإنّ العشار تعطّل، والوحوش تجمع والبحار تملأ ناراً بعدما إمتلأت ماءً، وإنّ الأرواح ترجع إلى أبدانها، والموؤودة تحيى وتسأل عن سبب قتلها وينتقم من قاتلها، وإنّ صحف الأعمال توزّع والسّماء تقلع والجحيم تسعر والجنّة تدنو من المؤمنين، وإنّ كلّ إنسان يجزى حسب عمله، فحينما يسمع الإنسان هذه الحوادث العظيمة وهذا الإنقلاب في هذا الكون؛ يتعجّب من ذلك ويحتار، سيّما وإنّ العقول المريضة والقاصرة تستبعد ذلك ولا تؤمن بهذا الإنقلاب الكوني وهذا التحوّل الوجودي، فلذا قال تعالى: **(سبّح اسم ربّك الأعلى)** أي اعتقد بنزاهة قدرة ربّك **الأعلى** عن أن تعجز عن أحداث هذه الحوادث العظيمة، وأن تقلب وتغيّر هذا الكون وتبدّل السّماوات بغير السّموات والأرض غير الأرض، فإنّ قدرة الله تعالى لا تعجز عن أيّ شيء أراده سبحانه وتعالى، ثمّ برهن على كمال هذه القدرة وأنّها لا تعجز عن مثل هذه الأمور فقال: **(الّذي خلق فسوّى)** أي خلق كلّ شيء فسوّاه **على** الحالة والصّورة الّتي أرادها والكميّة والكيفيّة الّتي خصّص له **(والّذي قدّر فهدى)** أي الّذي عيّن لكلّ شيء مقداراً وأموراً وأعمالاً، فبعد ذلك هدى كلّ شيء إلى ما هو من تخصّصه وما يقوم ويبقى ويعيش به، وما هو من عمله وما خلق من أجله **(والّذي اخرج المرعى)** أي الّذي أنبت هذه النّباتات المتعدّدة الّتي لا تحصى، فجعله مرعى للإنسان والحيوان والحشرات وكلّ ذي روح **(فجعله)** أي فبعد مدّة جعل هذه النّباتات كلّها **(غثاءً)** حشيشاً يابساً **(أحوى)** أسود فتضربه الرّياح وتزول وتصير تراباً، ثمّ بعد ذلك ترجع هذه النّباتات وتنبت مرّة أخرى وفي كلّ سنة يتكرّر هذا الخلق والفناء وهذا الموت والإحياء، فالّذي يقدر على خلق مثل هذه الأشياء وهي أمور بديهيّة معلومة للعيان ولا ينكرها أحد، لا يصعب عليه هذه الحوادث العظيمة وهذا الإنقلاب الكوني والإحياء بعد الموت والجمع والحساب بعد الفوت، فإنّ ما يجري في الدّنيا وتعيشون معه وترونه كلّه بدءاً وإعادةً وتغييراً وتبديلاً وإيجاداً وإفناءً ثمّ إعادةً وإبداءً مرّة أخرى، وما هذا التّبديل الكوني والحياة الأخرى إلّا نوع مثل ما ترونه يحدث ويجري دائماً وبصورة مستمرّة. ثمّ أخبر الله تعالى سابقاً في سورة التّكوير بأنّ هذا القرآن نزل به جبريل إلى محمّد (ﷺ) وأنّ الرّسول

بشر سيّما وأنّه أمّي اختلج بباله ورأى من الصّعوبة أن يحفظ هذا القرآن ويتعلّمه، فإنّ من لم يتعلّم في الصّبا كيف يتعلّم في الكبر، فقال جلّ وعلا:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾

(**سنقرئك فلا تنسى**) أي إنّا نحن نقرئك هذا القرآن فتتعلّمه وتحفظه في قلبك فلن تنساه أبداً (**إلّا ما شاء الله**) أن ينسيك ما يوحى إليك فتنسى ذلك الشّيء بإرادة من الله تعالى، وذلك لحكمة أرادها الله تعالى، وذلك مثل ما صلّى صلاة العصر مرّة ركعتين فسلّم، فقال له أحد الصّحابه: أقصرت الصّلاة يا رسول الله؟ أم نسيت؟ قال (ﷺ): كلّ ذلك لم يكن، أي لم تقصر وما نسيت، قال الصحابي: بل بعض ذلك كان، ثمّ سأل الرّسول (ﷺ) الحضور فقالوا: قد صلّيت ركعتين، فقام وصلّى ركعتين أخريتين ثمّ سلّم تتميماً للصّلاة ثمّ سجد سجدتين للسّهو[1]، فهنا أنساه الله تعالى ذلك لتشريع أنّ من نسي شيئاً من الصّلاة فتذكّره من قريب بنى على ما فعل ولا يستأنف، ولكن إذا طال الفصل فيستأنف الصّلاة ويؤدّيها كاملة، ولتشريع سجدتي السّهو لمن حصل منه خلل غير مبطل للصّلاة. وأمثال ذلك جرى ومذكور في كتب الحديث والسّيرة (**إنّه يعلم الجهر وما يخفى**) فلا يصعب عليه إقراؤك لما أوحى إليك وأن يقدرك على حفظه فلا تنساه إلّا ما أراد هو أن تنساه، ولا حرج في ذلك عليك، لأنّه إنّما يكون ذلك لحكمة وبإرادة من الله تعالى، وبذلك استعد الرّسول لقراءة القرآن وحفظه فحفظه ولم ينسه، ثمّ إنّ الله تعالى وصف القران في سورة التكوير بأنّه ذكر فعلم الرّسول (ﷺ) أنّ من واجبه أن يذكّر به النّاس ويبلّغه إليهم ويعظهم به، فصعب ذلك عليه، حيث فكّر في نفسه: كيف يعظ هذا القوم الجاهلين؟ وكيف يذكر هؤلاء الغافلين؟ وكيف يدعو هؤلاء المنكرين؟ إلى اتّباع القرآن واتّباعه؟ إنّ هذا الأمر صعب جدّاً ولا يتصوّر منهم التّذكّر ولا الانقياد لهذا القرآن، فلا فائدة له التّذكير ولا ينفعهم الوعظ والإرشاد، فقال تعالى تطميناً له وتبشيراً بنجاحه:

(١) عن أبي هُرَيْرَة ﷺ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَسَلَّمَ فِي رَكْعَتَيْنِ، فَقَامَ ذُو الْيَدَيْنِ فَقَالَ أَقُصِرَتِ الصَّلَاةُ يَا رَسُولَ اللّهِ أَمْ نَسِيتَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ». فَقَالَ: قَدْ كَانَ بَعْضُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللّهِ. فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ «أَصَدَقَ ذُو الْيَدَيْنِ». فَقَالُوا نَعَمْ يَا رَسُولَ اللّهِ. فَأَتَمَّ رَسُولُ اللّهِ ﷺ مَا بَقِيَ مِنَ الصَّلَاةِ ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَ التَّسْلِيمِ.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣)﴾

(ونيسّرك لليسرى) ونسهّل لك الطّريق السّهل لأداء هذا الواجب، فلا تيأس بل **(فذكّر إن نفعت الذّكرى)** إن مخفّف من الثّقيلة فتعمل في ضمير الشّأن المقدّر وتقديره **(فذكّر)** إنه أي إنّ الشّأن أنّه تنفع الذّكرى. ثمّ فصل كيفيّة نفع الذّكرى فقال **(سيذّكّر)** يتّعظ وينقاد لأمرك ويؤمن بك **(من يخشى)** أي من يخاف العقاب، وهو العاقبة السّيّئة من الكفر والفسق والفجور والآثام **(ويتجنّبها)** ويبتعد عن الذّكر **(الأشقى)** الّذي بلغ من الشّقاوة حدّاً لا تنفعه الموعظة حيث لا يخشى عاقبة ولا يستحي من فاحشة ولا يرعوي من الضّلالة، ثمّ أنذر من كان بهذه الصّفة فقال: **(الّذي يصلى)** يدخل **(النّار الكبرى)** الأكبر من كلّ نار **(ثمّ)** بعد الدّخول فيها **(لا يموت فيها)** ليستريح منها ولا يحيا حياةً طيّبةً يستفيد منها، بل يحيا حياةً الموت خير منها ويتمنّاه صاحبها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ سورة فطر الآية/ ٣٦.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥)﴾

قد فسّر بعض المفسّرين **(من تزكّى)** بمن أدى زكاة فطر رمضان، وفسّر **(ذكر اسم ربّه فصلّى)** بمن كبّر يوم العيد فصلّى صلاته، وهذا لا ينسجم مع حقيقة الدّين، فإنّ الدّين ليس زكاة الفطر وصلاة العيد فقط، وليس الفلاح مربوطاً بهما فقط كما لا يخفى. وفسّره بعضهم: **(من تزكى)** بمن أدّى الزّكاة وفسّر **(وذكر اسم ربّه)** بالأذان والإقامة فصلّى الصّلوات المفروضة، وهذا كالأوّل، فإنّ الدّين ليس عبارة عن الزّكاة والصّلاة فقط، وليس الفلاح مربوطاً بهما فحسب، بل إنّ الفلاح مربوط باجتناب المناهي كلّها وأداء الواجبات كلّها، وإلّا فمن النّاس من يؤدّي زكاة الفطر ويكبّر في العيد ويصلّي صلاته ثمّ يخوض فيما يريد ويقول: قد ضمنت لي الفلاح على القول الأوّل. ومن النّاس من يؤدّي زكاة ماله ويصلّي الفرائض الخمس ثمّ ينهمك في كلّ ما يريد ويقول: قد ضمنت لنفسي الفلاح على القول الثّاني. فالصّحيح أنّ **(من تزكّى)** معناه تطهّر من كلّ ما ينهى عنه الإسلام ويترك كلّ ذنب وإثم ومعصية، فبذلك يتخلّى عن الرّذائل كلّها. ومعنى **(ذكر اسم ربّه)** أي ذكر قدرة وعظمة ربّه **(فصلّى)** فخشع وتضرّع إليه وأدى كلّ

ما أمر به وأوجب عليه، وبذلك يتحلّى بالفضائل فيحصل له الفلاح الكامل وهو الفوز بالنّعيم دون عذاب وحساب، وأمّا من تخلّى عن بعض الرّذائل وتحلّى ببعض الفضائل فهو يحاسب ويعامل معه وفق الحساب، فإن زادت حسناته أو ساوت سيّئاته فهو في الجنّة دون عذاب، وإن نقصت فيعذّب بقدر ما زادت سيّئاته ليتطهّر فيدخل الجنّة، وهذا للمسلم، أمّا الكافر فيدخل في جهنّم دون حساب، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ سورة الكهف الآيات/ ١٠٥، ١٠٦.

ثمّ بعدما ذكر الله تعالى أنّ طريق الفلاح هو التّطهر عن مخالفة الشّرع المبين والإيمان بقدرة الله المتين والخشوع له بأداء ما وجب عليه في الدّين، ذكر حال المخاطبين، وهل سلكوا هذا السّبيل فنفى ذلك وذكر سبب عدم السّلوك لهذا السّبيل المستقيم فقال جلّ وعلا:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

(بل تؤثرون) تختارون **(الحياة الدّنيا)** فلذلك انحرفتم عن هذا السّبيل بسبب الخوض في شهوات الدّنيا، ونسيتم كمالات الآخرة واخترتم اللّذات الفانية فتركتم سبيل اللّذات الباقية، وقد أخطأتم في هذا الاختيار، فإنّ الحال هو **(والآخرة خيرٌ)** من الدّنيا لأنّها نعمة محضة لا كدورة فيها ولا تعب، بخلاف نعم الدّنيا فلا تحصل إلّا بتعب ولا تصفو عن الكدرات والغصص كما وإنّ نعم الآخرة **(أبقى)** فإنّها لا تزول ولا تفنى بخلاف نعم الدّنيا فإنّه مؤقّتة بوقت قصير مدّة بقاء الإنسان فيها، والّتي لا تتجاوز إلّا سنين معدودة كلّ حسب ما قدّر له من أمد الحياة فيفرق بينه وبين الدّنيا هادم اللّذات ومفرّق الجماعات وهو الموت **(إنّ هذا)** الوعظ والإرشاد السّابق من الفلاح بالتّخلي والتّحلي، وإنّ الآخرة خير وأبقى من الدّنيا موجود **(لفي الصّحف الأولى صحف ابراهيم وموسى)** ذكر الله تعالى هذا لأمرين:

الأوّل: أن يكون معجزةً لرسول الله (ﷺ) فإنّه على بعده من الكتب والقراءة والعلم بالتّوراة والإنجيل والصّحف وكونه أميّاً يخبر بما في صحف إبراهيم وموسى (على نبّينا وعليهما الصّلاة والسّلام) كما هو الموجود فيها، فلو لم يكن هذا وحياً من

الله تعالى كيف أمكن له الإخبار بذلك؟ فثبت بذلك أنّه وحي وأنّه رسول.

الثّاني: إنّ المشركين كانوا يعتزّون بإبراهيم (عليه السلام) واليهود كانوا يعتزّون بموسى (عليه السلام) وكان صراع الرّسول مع هاتين الطّائفتين، فيقول تعالى فهذا ما يقوله صحف إبراهيم أيّها المشركون، وما يقوله صحف موسى أيّها اليهود، وإنّ ما يدعو إليه محمّد هو ما كان يدعو إليه إبراهيم وموسى، فلو صدقتم في اعتزازكم بهما لآمنتم واتّبعتموه كما أمركم إبراهيم وموسى في كتابهما، ولكنّكم لا تصدّقون في اتّباعهما إلّا فيما تهوى إليه أنفسكم وفيما يجلب إليكم المنفعة في الدّنيا وما أظلم من كان كذلك كما قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٨٥. هكذا كان اليهود يعملون بالتّوراة فيما يوافق هواهم ويتركون العمل به فيما عدا ذلك، ولذلك لعنهم الله تعالى في القرآن، ونحن في حين أنّنا نلعنهم ونكرههم فقد عملنا ما عملوا واتّصفنا بما اتّصفوا به، حيث تركنا العمل بالقرآن في كلّ ما يخالف هوانا ونستعمله حسب مصالحنا، وقد تركناه وراءنا ظهريّاً، وجعلناه نسياً منسيّاً، وصدق فينا قول الرّسول (صلى الله عليه وسلم): (لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه قالوا: أو اليهود والنّصارى؟ قال: فمن؟)[1] فنقول: هل نستحقّ اللّعن كما لعنوا؟... الجواب: نعم إلّا قليلاً ممّن رحمه الله تعالى وقليل ما هم. فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب. ولا يخفى مناسبة هذه السّورة مع ما قبلها، فإنّها أيضاً ذكر فيها مجيء يوم القيامة والحياة بعد الموت، وإنّ هذا القرآن أنزل إلى الرّسول ليفصل به بين النّاس. فقابل مع كلّ فقرة من السّابقة المناسبة لها من اللّاحقة كالنّسبة للتكوير، والله تعالى أعلم.

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ٩٣ الحديث رقم ١٠٦.

سورة الغاشية

(مكيّة، نزلت بعد الذّاريات، وآياتها ستّ وعشرون).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾

(هل أتاك) الاستفهام ورد للتّقرير فيكون المعنى قد أتاك **(حديث الغاشية)** أي خبر الغاشية وهي: القيامة، سمّيت بها لأنّها تغشى النّاس بهولها جميعاً إلّا من شاء الله تعالى، وإنّ هذه السّورة نزلت بعد الذّاريات، وقد أخبر الله تعالى في الذّاريات بمجيء يوم القيامة إلّا أنّه لم يذكر هناك تفصيل حال النّاس في ذلك اليوم، كما وقد سبقت هذه السّورة سورة الأعلى، وقد ذكر فيها أنّ القيامة تأتي ولم يفصّل فيها أيضاً أنّ أحوال النّاس كيف تكون؟ فلذا قال تعالى: **(هل أتاك حديث الغاشية)** وفصّل فيما بعد بأنّ أحوال النّاس تكون فيها نوعين:

الأوّل: في بؤس وشقاء كما قال: **(وجوه يومئذٍ)** أي يوم أن جاءت الغاشية **(خاشعة)** ذليلةٌ **(عاملةٌ)** وعملها جرّ السّلاسل الّتي قيّدوا فيها **(ناصبةٌ)** متعبةٌ من ذلك العمل **(تصلى)** أي تدخل تلك الوجوه **(ناراً حاميةً)** شديدة الحرارة، فإنّ حرارة نار جهنّم تفوق حرارة نار الدّنيا بسبعين درجة **(تسقى)** إذا عطشت وطلبت الماء **(من عين آنيةٍ)** أي حارّة شديدة يغلى ماؤها فتقطع الأمعاء حين يشربونه **(ليس لهم طعام)** في جهنّم

(إلّا من ضريع) هو شوك تأكله الإبل ناعماً **(لا يسمن)** ذلك الطّعام **(ولا يغنى)** أي لا يدفع شيئاً **(من جوع)**.

الثّاني: في نعمة وسعادة كما ذكرهم الله تعالى بقوله:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾

(وجوه يومئذ ناعمة) بشوشة **(لسعيها)** جزاء سعيها الّذي وهبها الله تعالى لهم **(راضية)** مغتبطة بذلك الجزاء الّذي رضيت منه تلك الوجوه، فقال جلّ وعلا: **(في جنّة عالية)** في جنّة مرتفعة مكانها، أو مرتفعة منزلتها ورتبتها، أو مرتفعة في المكان والمنزلة والرّتبة معا **(لا تسمع)** تلك الوجوه أو أنت أيّها المخاطب **(فيها)** أي في هذه الجنّة **(لاغيةً)** نفساً لاغيةً تلغو أي تتكلّم بالكلام الّذي يكرهه السّامع، وهذا كناية عن عدم وجود اللّغو والكلام البذيء الجنّة كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ سورة الواقعة الآية/٢٦، ٢٧. **(فيها)** أي توجد في الجنّة **(عينٌ جاريةٌ)** والمراد بالعين الجنس فتشمل العيون الكثيرة الموجودة في الجنّة. ووصف العين بالجارية لأنّ من العيون ما لا تجري كعين زمزم والجارية أصفى من الرّاكدة وأجمل **(فيها سرر)** جمع سرير وهو التّخت للقعود عليها **(مرفوعة)** من رفعة السّمك أو الرّتبة أو كلتيهما **(وأكواب)** للماء **(موضوعة)** قريبة من المؤمن تنالها الأيدي بدون تعب **(ونمارق)** جمع نمرقة وهي الّتي يستند وتعتمد عليها الجالس من الوسائد **(مصفوفة)** على تلك الأسرة **(وزرابي)** فرش ثمينة **(مبثوثة)** مفروشة على الأسرة أو في الغرفة أو في الموضعين معاً.

ثمّ بعدما ذكر الله تعالى ما أعدّ للمجرمين في جهنّم وما يتمتّع به المؤمنون في الجنّة. تعجّب الكفار من ذلك وأنكروا وقالوا: من أين هذه الجنّة العالية والعيون الجارية؟ وكيف صنعت تلك السرّر المرفوعة والأكواب الموضوعة والنّمارق المصفوفة والزّرابى المبثوثة؟ فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) ليعلموا عظمة قدرة الله تعالى، وأنّ من له هذه القدرة الّتي خلق بها هذا الحيوان العجيب في الدّنيا لا يصعب عليه خلق هذه الأشياء في الآخرة **(وإلى السّماء كيف رفعت)** فمن خلق هذه السّماء الرّفيعة في الدّنيا لقدير على خلق هذه السّرر المرفوعة في الآخرة ولا يصعب عليه ذلك **(وإلى الجبال كيف نصبت)** فمن نصب هذه الجبال في الدّنيا هو الّذي ينصب هذه الأكواب الموضوعة ويخلق هذه الأشياء في الآخرة **(وإلى الأرض كيف سطحت)** فالّذي خلق هذه الأرض وخلق فيها أنواع النّبات والثّمار والعيون والحيوانات لا يصعب عليه أن يخلق ما ذكر من النّعم للمؤمنين والنّقم للكافرين في الآخرة.

ملاحظة: أراد أن من خلق هذه الحيوانات المتعدّدة والعجيبة في الدّنيا لقدير أن يخلق هذه الأشياء في الآخرة أيضاً، وأراد بالسّماء العالم العلويّ كلّه من الأفلاك والنّجوم والكواكب والشّموس والأقمار، فمن استطاع أن يخلق هذه الأشياء في الدّنيا لقدير أن يخلق هذه الأشياء في الآخرة أيضاً، وأراد بالجبال العالم المتوسّط بين العالم العلويّ والعالم السّفليّ. وأراد بالأرض هذه الكوكبة الّتي يعيش عليها الإنسان وما فيها من عيون وأنهار ونبات وأشجار وحبوب وثمار، ومن فرش وبسط ووسائد متنوّعة فلم لا يتفكّر المنكرون في هذه الأشياء كلّها، وإنّ من قدر على خلقها في الدّنيا لا يصعب عليه أن يخلق هذه الأشياء في الجنّة يوم القيامة، وبذلك يهتدون إلى الحقّ فيؤمنون ولا يتعجّبون منهم ولا ينكرونهم، وخصّ من عالم الحيوان الإبل بالذّكر لأنّ فائدة الحيوان إمّا الرّكوب عليها أو الحمل عليها أو الأكل من لحمها أو الشّرب من حليبها، والإبل فيها هذه الفوائد كلّها؛ فلذلك نابت منابة الحيوانات كلّها وليس غيرها مثلها في هذه الأمور كلّها.

* * *

تنبيه: ليس المراد بالنّظر في هذه الأشياء مجرّد النّظر والرّؤية بالعين، فإنّ ذلك يشترك فيه الإنسان والبهائم، بل للنّظر درجات فالنّظر بالعين ثمّ الكشف والتّحليل، فالأمر بالنّظر في كيفيّة خلق الإبل بالنّسبة للعامّي هو أن ينظر إليها وإلى جسمها وقوّتها في الحمل وغير ذلك، وبالنّسبة للخاصّة هو تشريح جسمها ليدرك ما فيها من عظم وعصب ورباط، وكيف ربط بعضها ببعض وما يجيء عليها من أمراض وما يفيدها من علاج، أمر بتعلم الإنسان علم تشريح الأبدان لتعلّم الطّب وعلاج الأمراض والوقاية

منها، والأمر بالنّظر في كيفيّة خلق السّماء هو كشفها والإطّلاع على ما فيها من العجائب الّتي تدلّ على عظمة قدرة الخالق، فيكون أمراً بتعلّم التّشريح للأفلاك والعروج إليها، والأمر بالنّظر إلى كيفيّة خلق الجبال هو نقبها وثقبها وحفرها للوصول إلى ما تحتها من المعادن وغيرها، وبالنّظر إلى الأرض والأمر بتعلّم علم الأرض وكشف طبقاتها وإخراج معادنها والتّطلع على ما فيها من نباتات وأشجار، وإدراك منافع تلك الأشجار والنّباتات، ومن جرّاء هذه الاكتشافات العظيمة يتحيّر المرء ولا يبقى له مجال إلّا الاعتراف بوجود خالق عظيم، وأنّ قدرته لقديرة على كلّ شيء؛ فيؤمن بكلّ ما أخبر به هذا القرآن الكريم ويتحقّق مضمون قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ سورة فصلت الآية/ ٥٣.

* * *

ثمّ بعدما أخبر الرّسول بمجيء يوم يحاسب فيه النّاس ويجزون فيه حسب أعمالهم، وأخبرهم بحال المجرمين والمؤمنين في ذلك اليوم، أصرّ الكافرون على كفرهم وعنادهم ولم يزدهم هذه المواعظ والتّذكير والإنذار والتّبشير إلّا عتوّاً ونفوراً، فصعب ذلك على رسول الله (ﷺ) وضاق صدره الشّريف، وكاد أن يترك الوعظ والتّذكير لما حصل عنده من شبه اليأس من النّاس، فلذلك سلّاه الله تعالى وحثّه على التّذكير والوعظ والإنذار والتّبشير فقال جلّ وعلا:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

(**فذكر**) أي فداوم على تذكير النّاس ووعظهم ولا تيأس منهم، فإنّ فيهم من يتّعظ ومنهم من لا يتّعظ ولا يضيق صدرك بعدم إيمان من لم يؤمن، فإنّه ليس من وظيفتك وواجبك أن يؤمن النّاس بل (**إنّما أنت مذكّر**) أي واجبك مقصور على التّذكير فقط، وبه تخرج من المسؤوليّة، وأمّا إيمانهم وعدم إيمانهم فلست مسؤولاً عنه كما و(**لست عليهم بمصيطر**) أي إنّما أرسلت لتذكيرهم بالايمان ولم تكلّف بأن تأتي بهم إلى الإيمان بالقوّة والسّيطرة والجبر. وإنّ هذه الآية تدلّ بوضوح على أنّ الإسلام لا يجبر أحداً على الإيمان والدّخول في الإسلام، فالإسلام دعوة يجب على كلّ مسلم أن يدعو إليها، فمن

أسلم فمرحباً به ومن لا فـ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٦. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ سورة يونس الآية/ ٩٩. ولو كان في الإسلام جبر على الإيمان لما رضي المسلمون الأوّلون حينما يفتحون البلاد أن يبقى أهلها على دينهم، ويعطوا الجزية أي مقداراً من المال للدّولة الإسلاميّة، وذلك مقابل ما تقوم به لهم من الخدمات والمشاريع العامّة، فهذا سماحة الإسلام ورحمته على النّاس لا يرغم النّاس على خلاف عقيدتهم ولا يجبرهم على ترك دينهم، بخلاف المبادئ الأخرى الّتي تسوق النّاس إلى الدّخول في مبدئهم جبراً وقهراً وإنذاراً بالقتل أو الحرمان من الحياة على خلاف ذلك.

سؤال: إذا كان الإسلام لا يجبر أحداً على الدّخول فيه والإيمان به والدّخول في هذه العقيدة، فلماذا تلك الحروب الّتي أقامها المسلمون ضدّ الشّعوب وأهل الملل الأخرى؟

الجواب: إنّ حروب الإسلام لم تقم لإكراه النّاس على الإسلام أو للإستيلاء على أوطانهم وبلادهم، بل إنّما كان المسلمون يثيرون نار الحرب على من كان يريد الهجوم عليهم أو القضاء على دعوتهم، فكانوا كلّما تريد فئة أن تهجم على المسلمين يقيم المسلمون حرباً ضدّ عدوانهم ولصدّ هجومهم، فالحروب الإسلاميّة كلّها دفاعيّة وليست عدوانيّة وهجوماً من عندهم إبتداءً لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ أي لا تقاتلوا من لا يقاتلكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٩٠، أي الّذين ينشئون الحرب ظلماً وعدواناً. قد يقال: إنّ هذه الآية منسوخة بآية القتال، قلنا: قد فات هذا القائل أنّ قوله تعالى: ﴿إنّ الله لا يحبّ المعتدين﴾ خبر والخبر لا يعتريه النّسخ بالإتّفاق. نعم قد وقعت حروب هجوميّة من جانب المسلمين إلّا أنّها ليست خطأ الإسلام بل إنّما هو خطأ من قام بتلك الحروب وعدم تطبيقه للإسلام أو انحرافه عنه، وذلك لتأويل وقع منه أو غير ذلك، هذا وقد قال بعض العلماء: إنّ الكفر داء يجب إزالته فأجازوا الحروب الهجوميّة لذلك الغرض، ولكن يناقض تأويلهم هذا قبول الجزية من المنقادين ومن الّذين سيطروا عليهم، فالقول بنسخ مثل هذه الآيات بآية القتال خطأ لأنّ آية القتال وردت في حقّ المقاتلين أيضاً، حيث يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ سورة التوبة الآية/ ٣٦. فكان هذا القتال دفاعياً أيضاً لا عدوانياً.

* * *

ثمّ بعد ما قال تعالى ليس لك أن تجبر النّاس على الإيمان ولست بمسيطر عليهم كأن قائلاً يقول: فالإنسان مخيّر بين الإيمان وعدمه، وليس وراء ذلك شيء، فإذن لماذا يؤمن؟ ولماذا يأتي إلى الإسلام؟ ولذا قال تعالى: **(إلّا من تولّى وكفر•فيعذّبه الله العذاب الأكبر)** فالمعنى: حكمنا بعدم الإكراه على الإيمان، وإنّما هنالك تذكير وإرشاد وإنذار وتبشير، فليس معناه: أنّ من لم يؤمن ليس عليه شيء وليس عليه عتاب ولا يلحقه ضرر. بل إنّ الّذي تولّى عن الإيمان وكفر بما تذكره به فيعذّبه الله العذاب الأكبر في الآخرة. وهو الإحراق بالنّار فإنّه لا عذاب أكبر من هذا، ثمّ كأنّ قائلاً يقول: فمتى؟ وأين؟ وكيف يعذّبهم هذا العذاب؟ فقال تعالى: **(إنّ إلينا إيابهم)** أي رجوعهم لا يستطيعون الخروج من قبضتنا **(وإنّ علينا حسابهم)** فنجازيهم وفق هذا الحساب ونعذّبهم ذلك العذاب.

خاتمة: قال محمّد عبده (رحمة الله عليه): (إنّ الفطرة سائقة بنفسها إلى الإعتقاد بصانع قادر على إنشائها في خلق آخر ترى فيه شقاءً أو نعيماً، وإنّما قد تتحكّم الغفلات وتتغلّب الأهواء فتحتاج النّفوس إلى مذكّر يردّها إلى مكان كان عساه أن تنساق إليه غرائزها، ولهذا سمّى الله هذا النّوع من الاستدلال تذكيراً، وقوله: إنّما أنت مذكّر تحديد للأمر الّذي بعث الله لأجله محمّدا (ﷺ) وهو تذكير النّاس بما نسوه من أمر ربّهم وليس في سلطانه (ﷺ) أن يخلق الإعتقاد فيهم ولا من المفروض عليه أن يقوم رقيباً على قلوبهم فقال: **(لست عليهم بمصيطر)** انتهى..

أقول: فما كان إنقباض الرّسول (ﷺ) من عدم إيمانه لما كان يحبّ أن يكون له الجبر على الإيمان وقهرهم على الإسلام، بل حرصاً عليهم وحبّاً في نجاتهم من الجهل والضّلالة في الدّنيا والعذاب في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾ سورة التوبة الآية/١٢٨. فما أرحم هذا الرّسول الأعظم (ﷺ) وحشرنا تحت رايته آمين والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

سورة الفجر

(مكيّة، نزلت بعد سورة اللّيل وهي ثلاثون آية)

﴿وَالْفَجْرِ ①﴾

(والفجر) المراد به بياض الصّبح الّذي ينتشر فوق الأفق فيزيد شيئاً فشيئاً حتّى يذهب بالظّلام كلّه، وقد فسّره بعضهم بفجر يوم الجمعة أو يوم عرفة أو اليوم الأوّل من ذي الحجّة أو اليوم الأوّل من محرّم وكلّ هذه التّفاسير لا يدخل في القلب لأنّ كلّ ما نرى ممّ أقسم الله تعالى به في القرآن هو من المظاهر الكونيّة ومن عجائب خلقه، فهو كما قلنا: هو الفجر مطلقاً وهو البياض المنتشر... إلخ.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ②﴾

(وليال عشر) فسّر أيضاً باللّيالي العشر من ذي الحجّة، أو باللّيالي العشر من شهر محرّم الحرام، أو باللّيالي العشر الأخير من شهر رمضان المبارك، ولكنّ ذلك أيضاً غير مقبول لأنّها ليست من المظاهر الكونيّة، والّذي يرى أنّ المراد بها عشر ليال مطلقاً دون التّقييد بشهر دون شهر، وهي إمّا اللّيالي العشر الأوسط من كلّ شهر، فإنّ القمر فيها يتمّ ويصير بدراً ويعطي من الجمال ما يدلّ على عظمة قدرة الله تعالى وعجيب صنعه، وأمّا المراد به كلّ عشر ليال من الشّهر، العشر الأوّل والعشر الأوسط والعشر الأخير، فإنّ حالة الهلال في كلّ عشر تختلف عن العشر الآخر، فإنّ الهلال في العشر الأوّل يزيد من المحاق إلى التّربيع، وفي العشر الأوسط، من التّربيع إلى البدر، ثمّ ينتقص من البدر إلى التّربيع، وفي العشر الأخير ينتقص من التّربيع إلى المحاق والإختفاء تحت ضوء الشّمس.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾

(والشّفع والوتر) فسّروهما أيضاً بما لا يدخل في المظاهر الكونيّة الّتي تدلّ على عظمة قدرة الله تعالى وعجيب صنعه، والّذي يرى من فسّره بكلّ ما هو شفع وما هو وتر من المخلوقات، فيدخل فيه كلّ موجود لأنّه إمّا شفع أو وتر أصاب، ولنا أن نقول: إنّ النّباتات والأشجار إمّا هو من فصيل بذرة ذات الفلقتين أو من فصيل ذات فلقة واحدة، فيكون القسم بالقسمين.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾

(واللّيل إذا يسر) قيّد اللّيل بإذا يسر لأنّ معناه إذا ذهب منه بعض، فإنّه في ذلك الوقت يقلّ فيه تأثير ضوء الشّمس من جانب المشرق أو المغرب، فيظهر كلّ نجومه وكواكبه فينكشف جماله التّام وكأنّه بساط أسود كبير جدّاً، نشر عليه الدّرر واللّئالي بتنظيم رشيق وميزان دقيق فيتعجّب منه الإنسان، ويرى فيه بديع صنعه تعالى. وعجيب خلقه وعظيم قدرته. هذه الأيمان في الحقيقة دلائل وبراهين على أنّ الله تعالى وإن أمهل فإنّه لا يهمل وإن كلّ ظالم ينال عقاب ظلمه وكلّ مسيء يجني مرارة إساءته في الدّنيا أو في الآخرة أو في كلتيهما معاً. وصورة الدّليل كما ذكرنا مراراً هي أن نقول: إنّ هذا الفجر الّذي يقضي على ظلام اللّيل الدّامس، وكلّ عشر ليال الّتي يظهر فيها الهلال بنوع دون النّوع الّذي ظهر في عشر آخر، وكلّ شفع من المخلوقات والوتر منها أو كلّ نبات ينبت من بذرة ذات فلقتين أو من ذات فلقة واحدة، وإنّ هذا اللّيل الّذي حينما ذهب بعضه يظهر فيه تلك النّجوم والكواكب كالدّرر المنتشرة على بساط أسود كالمسك الأذفر، إنّ هذه الأمور الّتي ذكرت وهذا الصّنع العجيب المدهش ليدلّ دلالة واضحة بأنّ كلّ ظالم ينال عاقبة ظلمه، وإنّ كلّ مسيء يجني مرارة إساءته، وذلك لأنّ هذا الصّنع العجيب والنّظام التّكويني البديع لا يمكن أن يوجد بدون صانع عليم وقادر حكيم وهو الله، وأنّ من صنع هذا النّظام لا يعقل أن يترك الإنسان سدى ولا يضع له نظاماً تكليفيّاً يعمل به، وإنّ صاحب كلّ نظام يثيب العامل بنظامه ويعاقب المنحرف عنه، فإذن لابد أن يأتي يوم ينال فيه الظّالم عقاب ظلمه والمسيء نتيجة إساءته تحقيقاً لعدل الله تعالى وهو يوم القيامة.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾

(هل في ذلك) والاستفهام للتّقرير أي إنّ في ذلك المذكورات **(قسم)** لبرهان واضح ودليل ساطع **(لذي حجر)** أي لذي عقل، سمّي العقل حجراً لأنّه يحجر أي يمنع صاحبه من سفاسف الأمور وقبائح الأعمال ومظانّ الضّرر والهلاك، ويمنعه من إنكار الحقائق وتصديق الأباطيل، ففي هذه الأشياء لدليل لكلّ ذي عقل على أنّ الظّالم يلقى مرارة ظلمه والمسيء يجني عاقبة إساءته، وإنّ كثيراً من النّاس يلقون عقابهم في الدّنيا قبل أن يلقوا عذابهم في الآخرة، وقد ذكر الله تعالى من هؤلاء النّاس أمماً أنزل الله تعالى عليهم العذاب في الدّنيا قبل الآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾

(ألم تر كيف فعل ربّك بعاد) أي ألم تعلم ما فعل ربّك بعاد علماً حاصلاً بالأخبار يساوي العلم الحاصل بالرّؤية والعيان في التّيقّن والثّبات.

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾

(إرم) اسم البلدة الّتي كان يسكنها قوم عاد، فالمعنى عاد سكّان إرم، كما تقول: عرب البصرة، وذلك لأنّه وجد قومان يسمّيان بعاد، العاد الأولى الّتي كانت تسكن إرم، والعاد الثّانية الّتي تسكن يمن **(ذات العماد)** أي ذات الأعمدة، والمراد بها الأبنية العالية الرّفيعة المتينة **(الّتي لم يخلق مثلها في البلاد)** أي لم يخلق مثل هذه البلدة الّتي كان يسكنها عاد الّتي كانت تسمّى إرم في أيّ أرجاء أخرى من الدّنيا في وقتها.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾

(وثمود) أي ألم تر كيف فعل ربّك بقوم كانوا يسمّون قوم ثمود؟ **(الّذين جابوا الصّخر بالواد)** أي نحتوا صخور الجبال وبنوا فيها البيوت والمساكن لهم.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾

(وفرعون) وكيف فعل ربّك بفرعون؟ **(ذي الأوتاد)** أي صاحب الخيم الكثيرة الّتي تنصب على الأوتاد أو كان له أوتاد يضرب بها النّاس.

(الّذين طغوا في البلاد) أي تجاوزوا الحدّ في البلاد حيث ظلموا كثيراً وكفروا بالله تعالى، وعادوا رسوله ولم يعملوا بدين الله، وانحرفوا عن شريعته **(فأكثروا فيها الفساد)** أي فبسبب طغيانهم وعدولهم عن أمر الله تعالى أكثروا الفساد في الأرض، وهكذا كلّ من يترك الحكم بشرع الله تعالى فإنّه يبثّ ويكثر الفساد في الأرض **(فصبّ عليهم ربّك)** يا محمّد **(سوط عذاب)** وأهلكهم، أضاف إلى العذاب النّازل عليهم الصبّ لكثرته، فكأنّه كالمطر الكثير الّذي ينزل بكثرة، وأضاف إليه السّوط لشدّته، فكان يؤلم كما يؤلم السّوط حينما يضرب به. وذكر الله تعالى أحوال هذه الأمم وعداً للمؤمنين بالنّصر، ووعيداً للمشركين بالخذلان، وتسليّاً للرّسول (ﷺ)، فالمعنى: لا تحزن يا محمّد فإنّ كلّ قوم عتت عن أمر الله وعادت الرّسول الّذي أرسل إليهم، فإنّ مصيرهم الهلاك والدّمار، وإنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء حيث: **(إنّ ربّك لبالمرصاد)** أي أنّ حال ربّك كحال الّذي يكون في المرصاد وينظر ويراقب النّاس فلا يخفى عليه شيء، فكذلك لا يخفى على الله تعالى شيء، وأنّ قومك سينالهم ما نال الأقوام الآخرين من العذاب، وقد نالهم ذلك في حرب بدر وحنين والأحزاب والفتح، وهذا وعيد لكلّ من انحرف عن دين الله وخالف شريعة الله، فإنّه لابدّ وأن ينال عقابه في الدّنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً والله على كلّ شيء قدير، هذا ولقد ذكرنا بعضاً من قصّة فرعون في سورة النّازعات، وسنذكر قصّة ثمود في تفسير سورة الشّمس إن شاء الله تعالى، فبقي أن نذكر هنا قصّة قوم عاد باذن الله تعالى.

قصّة قوم عاد:

إنّ عاداً هو اسم الرّجل الّذي تنسب إليه قبيلة عاد، وكانت هذه القبيلة تسكن أرض الأحقاف من بلاد العرب بين حضرموت والرّبع الخالي وعمان، قبل بعثة إبراهيم (ﷺ)، وهذه الأرض الآن كثبان من الرّمل ليس فيها حيوان ولا ماء ولا نبات، مع أنّها كانت في عهد عاد من جنّات الدّنيا كما وصف القرآن الكريم. وكان هؤلاء النّاس يعبدون الأوثان كما كان يفعل قوم نوح (ﷺ)، فأرسل الله تعالى إليهم رسولاً منهم اسمه هود، وكان له مالهم من بسطة الجسم وملاحة الوجه، وكان من أوسطهم نسباً وأكملهم عقلاً، فدعا قومه إلى عبادة الله تعالى وتوحيده والعمل بشريعته، فلم يستجيبوا

له وكذّبوه، وانتفخت أوداجهم وقالوا: من أشدّ منّا قوةً؟ فبدأ هو يخوّفهم ويحذّرهم ويهدّدهم ويتوعدّهم بعذاب من الله تعالى، ويضرب لهم المثل لقوم نوح (عليه السلام) وبما جرى عليهم من إغراقهم بالطّوفان بسبب تكذيبهم نبيّهم. وذكّرهم أيضاً بما أنعم الله تعالى عليهم من نعم الدّنيا، فقد أسكنهم أرضاً خصبة ذات أنهار وزرع وجنات وثمار، ودعاهم أيضاً إلى التّفكير والتّبصر في هذه الأصنام الّتي يعبدونها من دون الله تعالى، وإنّها لا تنفع شيئاً ولا تضرّ، وإنّها خلق من مخلوقات الله تعالى، فالّذي يستحقّ العبادة هو الله تعالى وحده الّذي هيّأ لهم ما هم فيه من نعيم ورغد من العيش، وإنّ الله تعالى هو الّذي يقدر على الإحياء والإماتة والنّفع والضرّ، وبيّن لهم أنّهم إذا تابوا واستغفروا ووحّدوا الله بالعبادة فإنّ الله يتوب عليهم وينزل عليهم من السّماء مطراً كبيراً متتابعاً يصلح أرضهم ويروي زرعهم ويكثر غلّتهم، فيزيد مالهم ويحسن حالهم وترتقي معيشتهم، فيعزّون ويقوون فوق عزّهم وقوّتهم. وبيّن هود وأكّد لهم أنّه لا يبغي من وراء هذه الدّعوة والموعظة أجراً منه، كما ولا يريد رياسة عليهم ولكنّه يفعل ذلك بأمر من الله تعالى، وإنّما أجره على الله تعالى وحده. فانقسم قوم عاد فريقين: فريق قليل العدد آمنوا بهود (عليه السلام) واتّبعوه، وفريق كثير العدد كذّبوا هوداً ولم يؤمنوا به ولم ينظروا فيما جاء به من البيّنات والمعجزات، وإنّ هذا الفريق أغلظ لهود (عليه السلام) وعاداه ورماه بالحمق والسّفاهة لأنّه يريد أن يصرفه عمّا كان يعبده آباؤهم من الأصنام إلى عبادة إله آخر لم يعبده آباؤهم. إلّا أنّ هوداً (عليه السلام) لم يغلظ لهم كما أغلظوا له، بل لاينهم ولاطفهم وتكلّم معهم بأسلوب حسن وأدب وإحترام وتقدير لعلّهم يرجعون إلى عقولهم، وأكّد لهم أنّه ليس إلّا رسولاً أرسله الله تعالى إليهم فبلّغهم رسالات ربّه ولا يبغي من وراء ذلك دنيا يصيبها من مال أو جاه أو سلطان، ولكنّ القوم بالغوا في معاندته ورموه بالجنون وفساد في العقل لكي يصرفوا عنه من اتّبعوه، فلم يطق هود (عليه السلام) على ذلك صبراً وضاق به الأمر، فانتقل من الملاينة والملاطفة وأنذرهم أنّهم إن أصرّوا على كفرهم وعنادهم واستمرّوا على عبادة أوثانهم فإنّ عذاب الله سيقع بهم. إلّا أنّ هذا الإنذار لم ينفع فيهم أيضاً، بل بقيت قلوبهم مغلقة لم تنفتح لدعوة نبيّهم، وازدادوا في التّحدي وطلبوا منه استهزاءً أن يدعوا ربّه أن ينزل عليهم العذاب الّذي يهدّدهم به ويتوعدّهم بنزوله، فأخبرهم هود (عليه السلام) بأنّ العذاب لقريب وأنّه سينزل بهم لا محال لانحرافهم عن الحقّ وعدم الإيمان برسول الله وعدم اتّباعهم لشريعة الله الواحد القهّار. فأصيبوا بعد ذلك بأن أمسك الله تعالى عنهم المطر؛ فأصابهم جهد شديد

فعاد إليهم هود (عليه السلام) ودعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده ونبذ عبادة الأصنام لعلّ الله أن يكشف عنهم ما وقعوا فيه من الكرب والجهد وأن يحييهم بالمطر، فما ازدادوا إلّا عتوّاً ونفوراً واستكباراً، ولم يفدهم هذا الإنذار ولا التّبشير، فأرسل الله تعالى عليهم الرّيح العقيم فاستمرّت سبع ليال وثمانية أيام متتابعة؛ فأهلكتهم وأبادتهم وأصبحت أجسادهم كأنّها أعجاز نخل خاوية وماتوا غير مأسوف عليهم ونجا هود (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين وانتقلوا إلى حضرموت وعاشوا فيها، وفي حضرموت مات هود (عليه السلام) ودفن فيها وليس مدفوناً في فلسطين كما يدّعي اليهود ذلك، وعاد هذه الّتي أهلكت ليست بالّتي كانت تسكن اليمن، انتهى. وإنّ هذه الرّواية موافقة لما في الخازن والقرطبيّ والرّازي رضى الله تعالى عنهم وعنّا أجمعين آمين.

* * *

ثمّ بعدما ذكر الله تعالى ما فعل بعاد وثمود وفرعون نتيجة طغيانهم وظلمهم وتكبّرهم وانحرافهم عن الحقّ وعدم اتّباعهم لرسول الله والتّمسك بشريعة الله تعالى ليعتبر بهم كلّ طاغ فيخرج عن طغيانه وكلّ ظالم فيترك ظلمه، وبعد أن ذكر أنّ الله لبالمرصاد يراقب أعمال عباده فلا يخفى عليه شيء فينتقم منهم على ما جنوا من كلّ ذنب وإثم وإجرام؛ ليخاف العصاة من هذا الرّب العليم بحالهم فيجتنبوا ممّا لا يرضى به ولا يحبّه، فكان الجدير بالإنسان أن يعتبر ويخاف ويجتنب طريق الإعتساف ويعتدل إلى سبيل الحقّ والإنصاف، إلّا أنّ الإنسان فعل بعكس ذلك فلم يعتبر ولم يخف، فأشار تعالى إلى هذا الحال المنكر في الانسان فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾

(فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه) أي امتحنه ربّه، **(فأكرمه ونعمه)** فوهب له الكرامة والقوّة والنّعمة في الدّنيا ليشكر ربّه ويعبد خالقه ويتواضع لله فيحسن إلى خلقه ويعدل بين عباده، وينهمك في عبادته وإطاعته، إلّا أنّه بعكس ذلك فعل، فكفر وبطر وتجبّر وتكبّر وخالف وعصى وفجر ونظر إلى النّاس نظرة استحقار وإستعباد **(فيقول ربّي أكرمن)** استكباراً بذلك على النّاس لا تحدثاً بنعمة الله تعالى، وكأنّ ما يفعل بالنّاس من الظّلم والجور والإستعباد هو من حقّه فإنّ الله أكرمه، فهذا حال الإنسان المنحرف حينما أنعم الله تعالى عليه، فبدلاً من أن يشكر ربّه ويطيع أمره ويتواضع لخلقه يكفر ويتجبّر ويرى ذلك من حقّه وحقّاً له.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

(وأمّا إذا ما ابتلاه) أي وأما إذا امتحنه خافه، **(فقدر)** أي فضيّق عليه وقلّل **(رزقه)** ليصبر على ما ابتلاه به ربّه إلى أن ينجح من الامتحان فيبدّل فقره بالغنى وضعفه بالقوّة إلّا أنّه لم يصبر، بل جزع وكفر واعترض على الله، **(فيقول ربّي أهانن)** هتكني ولم يحترمني، وهكذا ممّا تسمع من الفقراء والجهلاء من باطل الكلام، فهكذا الإنسان يرى إكرام الله تعالى في الغنى والقوّة والجاه والسّلطان، وإهانته في الفقر والضّعف، إلّا أنّ ذلك خطأ عظيم من الإنسان، فكثير من الأغنياء وذي القوّة والسّلطان ملعون عند الله تعالى، وكثير من الفقراء والضّعفاء هم أحبّة الله تعالى وأولياؤه، فليس الغنى والقوّة علامة الإكرام، ولا الفقر أو الضّعف دليلاً على إهانة الله تعالى له، بل كلّ ذلك امتحان فمن نجح في هذا الامتحان فهو محبوب عند الله تعالى من الطّرفين، ومن رسب فهو مهان عند الله تعالى من الفريقين، فالغنيّ الّذي يشكر نعمة الله تعالى فيصرف ماله وقوّته في الحقّ وللحقّ وفي سبيل الله تعالى ويكسبه من الحلال ويصرفه في الحلال ويعطي منه حقّ الله تعالى، ويخدم به الفقراء والمساكين وسبل الخير فهو من أولياء الله تعالى ومكرّم عند الله تعالى، وأمّا من جعل ماله وقوّته وسيلة للتّجبّر على النّاس والاستعلاء عليهم أو كسب ذلك من الحرام أو لم يؤدّ منه حقّ الله تعالى وحقوق النّاس فهو مهان عند الله ذليل عنده في الدّنيا والآخرة. والفقير الّذي يصبر على فقره ويرضى بقضاء ربّه ولا يجزع ولا يعترض على الله ولا يعاتب ربّه فهو مكرّم عند الله تعالى ومقبول، والّذي يجزع ويكفر ويعترض ويعاتب ربّه فهو مهان في الدّنيا والآخرة. فالعبرة ليست في الغنى والفقر ولا في القوّة والضعف بل العبرة بالاستقامة على طريقة الله واتّباع شريعته والإسترشاد برشده والاهتداء بهديه، ثمّ ردّ الله تعالى على هؤلاء الّذين يفتخرون بغناهم وقوّتهم ويرون أنّهم مكرّمون عند الله تعالى دون سواهم فقال جلّ وعلا:

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾

(كلا) ليس كما تقولون وأنّ الله لم يكرمكم ولم يحترمكم لأنّ أعمالكم ليست أعمال المكرمين عند الله وأخلاقكم ليست أخلاق المحبوبين إلى الله، **(بل)** أعمالكم بعكس ذلك فإنّكم **(لا تكرمون اليتيم)** فالمكرم لليتيم هو المكرم عند الله تعالى.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾

(ولا تحاضّون) أي لا تحثّون أنفسكم وغيركم **(على طعام المسكين)** ومن كان كذلك فليس بمكرم عند الله تعالى.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

(وتأكلون التّراث) أي تمنعون حصص ذوي قربانكم من الميراث فلا تعطونهم **(أكلاً لماً)** أي أكلا شديداً أو أكلاً لمّاً أي جمعاً بين الحلام والحرام ومن فعل ذلك فيس مكرّماً عند الله تعالى **(وتحبّون المال حبّاً جمّاً)** أي حبّاً كثيراً، ولذلك ترتكبون كلّ شيء وتسلكون كلّ سبيل بغية تحصيله دون الفرق بين السّبل الشّريفة وغيرها، والسّبل الحقّة وما سواها، فمن كان بهذه الصّفات فليس بمكرم عند الله تعالى بل مهان عنده، وإن بلغ من الغنى ما بلغه قارون، ومن القوّة ما بلغه فرعون وشداد، وإنّ ما أعطاه ربّه وأمدّه فيه فهو غضب من الله وليس رحمة منه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٧٨.

ثمّ بعد ذلك نهاهم عن هذه الفكرة الخاطئة وعن هذه الأعمال السّيّئة وأنذرهم بالعاقبة السّيئة فقال جلّ وعلا:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾

(كلّا) أي فلينتهوا من هذه الكبرياء بسبب المال وعن السيئة من هذه الأعمال **(إذا دكت الأرض دكاً دكاً)** أي زلزلت الأرض زلزالاً بعد زلزال.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾

(وجاء ربّك) أي وجاء أمر ربّك بالحساب **(والملك)** وجاء الملائكة **(صفّاً صفّاً)** أي صفّاً بعد صفّ ينتظرون الأمر ليأخذوا من حقّه الجنّة إلى الجنّة بتكريم وتقدير. ومن يستحقّ النّار إلى النّار بإهانةٍ وتحقير.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

(وجيء يومئذٍ بجهنّم) أي أظهرت جهنّم فيراها كلّ إنسان فكأنّها جيئ بها، ففي ذلك الوقت يتندّم الإنسان ولا تفيده النّدامة هذه، ويتحسّر ولا تفيده الحسرة تلك، كما قال تعالى: **(يومئذٍ)** أي فيوم إذ كان كذا وأصبح الحال كما ترى **(يتذكّر الإنسان)** بأنّ ما قاله الرّسل ودعاة الإسلام كان حقّاً، وإنّ ما كانوا عليه من مبادئ وأعمال وعقائد غير الإسلام كان باطلاً، ويتندّمون ولكن **(وأنّى لهم الذّكرى)** أي أنّى يفيدهم هذه الذّكرى وهذه النّدامة، ولأجل هذه الحسرة الشّديدة والنّدامة البالغة إلى النّهاية.

﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾

(يقول يا ليتني قدمت) من الأعمال الصّالحة ومن الإيمان الحقّ **(لحياتي)** لأنتفع في حياتي هذه في الآخرة، أو قدّمت في حياتي في الدّنيا ما يفيدني اليوم إلّا أنّ هذا التّمنّي لا يفيده شيئاً سوى الحسرة والنّدامة.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾﴾

(فيومئذٍ لا يعذّب عذابه) أي مثل عذاب الله **(أحد)** فاعل، أي لا يعذّب مثل عذاب الله أحدٌ، بل إنّ عذابه أشدّ من عذاب كلّ أحد.

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾﴾

(ولا يوثق وثاقه) أي لا يوثق مثل وثاق الله، **(أحد)** أي أنّ وثاق الله أشدّ من وثاق كلّ أحد، فلا يستطيع أحد الإنفلات ولا التّخلص منه، وهذا على قراءة **(لا يعذِّب ولا يوثِق)** بكسر الذّال والثّاء على صيغة المبني للمفعول، فالمعنى: لا يعذب مثل عذاب هذا الإنسان أحد ولا يوثق مثل وثاقه أحد من النّاس، بل لكلّ أحد عذابه الخّاص ووثاقه الخاص، أو لا يسري عذاب أحد إلى أحد ولا يؤخذ أحد بجريمة أحد ولا تزر وازرة وزر أخرى، أو المراد كلا المعنيين، فإنّه لا تضادّ بينهما، هذا ثمّ على عادة القرآن الكريم من أنّه يأتي بالوعد بعد الوعيد وبالعكس. ويأتي بحال المؤمنين بعد حال الفاسقين وبالعكس، لمّا انتهى هنا من ذكر حال الإنسان الفاجر المنحرف أتبعه بذكر المؤمن الممتثل لأمر الله، العامل وفق أمره والمجتنب عمّا نهى الله تعالى عنه فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾

بالإيمان والرّاضية بما قضى الله تعالى له من الفقر والغنى، والصّابرة عند الفقر، والشّاكرة عند الغنى والعاملة فيما وهبه الله تعالى حسب ما أمر.

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾

(إرجعي إلى ربّك) أي إلى لقاء ربّك **(راضيةً)** من جزائه الكريم وثوابه الجزيل **(مرضيّة)** من قبل لله تعالى لحسن إيمانك بالله وحسن تمسّكك بشريعته ورضاك بالقضاء وصبرك على البلاء والشّكر عند النّعماء.

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾

(فادخلي في) حظيرة وجماعة **(عبادي)** المكرمين بالإضافة إليّ والقرب منّي **(وادخلي)** جنّتي الّتي خلقتها بدون سبب وبدون أن يدخل في صنعها عمل أيّ عامل وشغل أي شاغل، بل بمجرّد أمري كن فيكون، والّتي خصّصناها بالمتّقين كما قال تعالى: ﴿تلك الجنّة الّتي نورث من عبادنا من كان تقيّاً﴾ اللّهم اجعلنا من المتّقين، وخاطبنا بهذا الخطاب الكريم، فإنّك أرحم الرّاحمين، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

سورة البلد

(مكيّة، نزلت بعد سورة ق وآياتها عشرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ①﴾

(لا أقسم) قالوا فيه وجوهاً:

الأوّل: أن لا زائدة.

الثّاني: أن لا لردّ ما قاله الكفار، أي ليس كما يقولون بل أقسم...إلخ.

الثّالث: أنّه يقرأ لأقسم (بهذا البلد) وهي مكّة المكرّمة وجواب، القسم محذوف تقديره لتنتصرنّ عليهم قوله.

﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ②﴾

(وأنت حلّ) أي مسيطر ومتسلّط **(بهذا البلد)** مكّة المكرّمة.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ③﴾

أي تتسلّط على رجالهم ونسائهم وذريّاتهم جميعاً، فتعمل فيهم ماشئت من قتل وأسرٍ وعفوٍ، وقد وقع ذلك يوم الفتح. أقسم الله تعالى وأخبر بذلك تسليّاً لرسول الله تعالى (ﷺ) ووعداً بنصره.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ④﴾

(لقد خلقنا الإنسان) أي جعلناه **(في كبد)** أي في مشقةٍ فلا بد للإنسان من أن

يرى المتاعب والمصاعب سيّما أصحاب الهمم العالية من المرسلين وحملة الدّعوة إلى الله تعالى، فلا تحزن يا محمّد بما تلاقيه من قومك من المتاعب والمصاعب، فإنّ النّصر حليفك وإنّ كلّ رسول لابدّ وأن يرى المتاعب بل وكلّ إنسان يلقى متاعب في حياته.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾

(أيحسب) أي أيظنّ الإنسان الطّاغي المعادي لك ولما تدعو إليه من الإسلام والتّوحيد، والمعنى يظنّ هذا الإنسان **(أن لن يقدر عليه أحد)** فلا تستولي ولا ينصرك إله عليه، بل ويفتخر ويتباهى بضلاله وعدائه لك ولدينك، فالاستفهام للتّقرير والتّوبيخ.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾

أي يقول صرفت مالاً كثيراً في سبيل عداوة محمّد وصدّ النّاس عن قبول دعوته والدّخول في دينه.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾

أي يظنّ أنّه لا يراه أحد ولا يراقبه أحد ولا يسجّل عليه أعماله أحد فيعمل حسب هواه، ويظنّ أعماله تذهب دون تسجيل لها وحساب، فالاستفهام للتّقرير أيضاً، والمعنى: يظنّ كذلك، ولذلك لا يرتدع عن أعماله الشّريرة وخصاله الدّنيئة.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾

فيبصر بهما.

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾

فيتكلم بهما.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾

أي طريق الخير والشر.

فمن خلق له هذه الأشياء فإنّه يرى ما يعمل ويسجّل عليه ما يكسب ويحاسبه على

وفق ذلك. ومن أنعم الله تعالى عليه هذه النّعم وخلق له هذه الجوارح النّافعة وهداه إلى الخير والشرّ ويسّر له سلوك سبيل كلّ واحد منهما، فالجدير به والواجب عليه أن يسلك سبيل الخير ويترك سبيل الشّرّ إلّا أنّه عكس الأمر حيث:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾

أي فلا قصد عمل ما يسمّى بالعقبة ثمّ فسّر العقبة فقال تعالى:

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾

أي تحرير عبد من الرّق.

﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾

أي ذي مجاعة.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾

والمراد بالإطعام سدّ حاجاتهم لا صنع الطّعام ودعوتهم إليه فقط **(ثمّ كان من الّذين آمنوا وتواصوا بالصّبر وتواصوا بالمرحمة)** أي وصّى بعضهم بعضاً بالصّبر وتحمّل الأذى والمتاعب في سبيل الإيمان ونشر راية الإسلام، وتواصوا أي وصّى بعضهم بعضاً بالمرحمة، والمراد بالمرحمة أن يرحم بعضهم بعضاً فيرحم الأغنياء الفقراء والأقوياء الضّعفاء والعلماء الجهلاء والأصحّاء المرضى وأصحاب الجاه والسّلطان من قلّ جاههم وسلطانهم، وذلك بأن يبذل كلّ من هؤلاء ما لديهم في إسعاف من يحتاج إلى ما لديهم من جاه أو مال.

تنبيه: إنّ الإقتحام هو الدّخول في شيء مع صعوبة وشدّة ينالها الدّاخل، والعقبة هي الطّريق الصّعب من الجبل فسمّيت هذه الأعمال عقبةً لأنّ عملها والدّخول فيها صعب على النّفس الأمّارة بالسّوء والّتي تشمئز من العمل الصّالح، هذا والإيمان وإن كان قبل كلّ عمل، حيث لا عبرة لأيّ عمل بدون الإيمان، إلّا أنّه ذكر مؤخّراً لأنّه أشرف الأعمال، وذكر بعد الإيمان التّواصي بالمرحمة لأنّها من دواعي الإيمان، فلا فائدة في إيمان من لم يدع النّاس إلى ما آمن به، ولم يتحمّل الصّبر في سبيل هذه

الدّعوة أو لم يسقه الإيمان إلى المرحمة بالنّاس والإحساس إليهم والعمل في سبيل إفشاء هذه الخصلة الحسنة الّتي عليها قوام المجتمع وحسن حياته. فثمّ في قوله تعالى: (ثمّ كان من الّذين آمنوا... إلخ)، للتّراخي في الرّتبة والمنزلة لا التّراخي في الزّمان، فإنّ الإيمان يجب أن يتقدّم على جميع الأعمال حيث لا فائدة في عمل بدون إيمان.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾﴾

(أولئك) أي أنّ هؤلاء الّذين يفكّون الرّقبة ويواسون اليتامى ويحسنون إلى المساكين والمؤمنين بالله والجزاء يوم الحساب، والّذين يصبرون ويأمرون بالصّبر ويرحمون النّاس ويوصون بالمرحمة؛ فيفشون بذلك التّوادد والتّراحم بين النّاس، فالمتّصفون بهذه الصّفات هم **(أصحاب الميمنة)** ولهم ما لأصحاب الميمنة من الثّواب الجزيل والنّعيم المقيم الّذي ذكره الله تعالى في سورة الواقعة فيقول عزّ من قائل: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ سورة الواقعة الآيات/ ٢٧-٤٠. **(والّذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة)** وهم أصحاب الشّمال الّذين ذكرهم الله تعالى وعقابهم مفصّلا في سورة الواقعة أيضاً فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ سورة الواقعة الآيات/ ٤١ ـ ٤٨. والتّخلّص منها كما قال تعالى **(عليهم نار)** أي يدخلون ناراً تعلو على أجسامهم وأبدانهم وتلك النّار **(مؤصدة)** أي مغلقة عليهم لا يستطيعون الخروج أو التّخلص منها.

تنبيهان:

الأوّل: إنّ هذه السّورة نزلت قبل سورة الواقعة فيكون ما في الواقعة تفصيلاً لما أجمل هنا، ولا يخفى في التّفصيل بعد الإجمال من البلاغة والفائدة، حيث إنّ السّامع

حينما يسمع شيئاً مجملاً يكون دائماً منتظراً إلى تفصيله وراغباً فيه ومتشوّقاً إليه، فإذا جاء التّفصيل وقع في قلبه أحسن وقوع ويكون بحيث يحفظ ولا ينسى ثمّ وضع في المصحف بعد الواقعة ليتذكّر بهذا الإجمال ما فصّل قبل.

الثاني: قد ذكرنا مراراً أنّ الأقسام الواردة في القرآن بغير الله تعالى كلّها دلائل في صورة القسم وليست أقساماً في الحقيقة، فكيف يتحوّل هذا القسم إلى دليل؟.

فنقول: المعنى والله تعالى أعلم إنّ هذه البلدة بلدة مكّة تشهد حالها وحال سكانها بسوء عاقبتهم الوخيمة وخذلانهم الذّريع وإنّ الله تعالى ينصرك عليهم يا محمّد فإنّ الباطل كلّما طغى فلا بدّ له من دافع وإنّ الحقّ كلّما ذلّ واختفى، فلابدّ له من ظهور وعزّة فإذاً لابد وأن تنتصر عليهم وتحلّ هذه البلدة فاتحاً لها وتسيطر على أنفسهم وآبائهم وذريّاتهم؛ فلا تحزن واصبر فإنّ الإنسان خلق في مشقّة، ولابدّ من أن ينال الصّعوبات والتّعب في حياته ولكنّ النّصر حليفك والعزّة لك في آخر الأمر.

❊ ❊ ❊

خاتمة: إنّ في هذه السّورة لمعجزة باهرة وهي الإخبار عن المستقبل قبل وقوعه بزمان، وقد وقع كما أخبر به فإنّ هذه السّورة نزلت في مكّة وفي وقت كان الرّسول (ﷺ) وأصحابه في ضعف وإضطهاد من المشركين لهم وإيذاء الضّعفاء منهم وأخبرت بأنّ الرّسول (ﷺ) سيستولي عليهم ويحلّ هذه البلدة منتصراً ومسيطراً فيعفو عن من يشاء ويقتل من يشاء ويأسر من يشاء ويطلق سراح من يشاء بأمر الله تعالى وإذنه، وقد وقع هذا الأمر بعد فتح مكّة. فتح الله تعالى قلوبنا للخير وألهمنا الرّشد والرّشاد وهدانا إلى سبيل النّصر والسّؤدد والسّداد آمين.

❊ ❊ ❊

سورة الشّمس

(مكيّة، نزلت بعد القدر وآياتها خمس عشرة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾

الضّحى هو مدّة إرتفاع الشّمس فوق الأفق إلى زوالها من خطّ وسط السّماء إلى جنب المغرب. إلّا أنّ المراد به هنا ضوء الشّمس أي وضوئها.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾

قالوا: معناه إذا تلا الشّمس في النّور والإضاءة، والأحسن أن يقال: **(والقمر إذا تلاها)** أي طلع بعد غروب الشّمس. فإنّ القمر في ذلك الوقت يكون بدراً ويكون له الجمال الباهر، فيحسن القسم به وذلك يكون في أيام البيض.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾

إذا جلى الشّمس أي إذا أظهرها واخرجها من الأفق، والنّهار مدّة كون الشّمس فوق الأفق إلى الغروب.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾

أي إذا يغشى ويستر الشّمس ويخفيها عن العيون، وهو مدّة كون الشّمس تحت الأفق.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾

أي والسّماء والّذي بناها وصنعها وأوقفها دون أعمدة ترى في هذا الفضاء الواسع.

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾

أي والأرض والّذي سوّاها وجعلها صالحة للسّكنى فأصبحت كالفراش الممهّد والبساط المفروش.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾

(ونفس) أي ونفس الإنسان **(وما سوّاها)** والّذي خلقها وهو الله تعالى. فكلمة ما في الآيات الثّلاث موصولة بمعنى الّذي، وليست مصدريّة كما قيل، لأنّ التّقدير على المصدريّة هو والسّماء وبنائها، والأرض وطحوها، ونفس وتسويتها، فيبقى الضّمير الفاعل بدون مرجع في قوله: **(فألهمها فجورها وتقواها)** أي خلق لها استعداد الخير والشّر ووهبها القدرة عليهما والميل إلى كلّ واحد منهما. فإذا غلبت عليها الميل إلى الخير فقد فاز صاحبها ونجا، وإن غلب عليها الميل إلى الشّرّ فقد خاب وخسر. وذلك جواب القسم الّذي صرّح به في قوله جلّ وعلا:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾

(قد أفلح) أي فاز ونجا **(من زكّاها)** أي طهّر النّفس من الميل إلى الشّرّ **(وقد خاب)** أي خسر وهلك **(من دسّاها)** أي دسّ النّفس وسترها تحت ميول الشّرّ والذّنوب والآثام.

فائدة: إنّ للنّفس سبع صفات رذيلة كلّ صفة تمثّل باباً من أبواب جهنّم السّبعة الّتي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ الحجر |٤٤ فكلّ إنسان يدخل جهنّم بسبب صفة من هذه الصّفات السّبع وهي: الكبر والعجب والطّمع والحسد والبخل والحقد والرّياء. فيجب على الإنسان التّزكّي والتّطهّر من جميع هذه الصّفات ويسمى التّطهّر منها التّخلّي عن الرّذائل. كما وللنّفس صفات سبع تضادّ هذه الصّفات، يجب على المرء الإتّصاف بها وكلّ واحد منها تمثّل باباً من أبواب الجنّة، إذ كلّ انسان يدخل الجنّة بسبب صفة من تلك الصّفات. وللجنّة باب آخر هو

مجرّد رحمة الله تعالى دون سبب، فبذلك أصبحت أبواب الجنّة ثمانية. وهذه الصّفات هي التّواضع ومحاسبة النّفس والقناعة وعدم الحسد والسّخاء والسّماح للنّاس والإخلاص. ويسمّى الإتّصاف بهذه الصّفات التّحلّي بالفضائل. فيكون معنى الآية: قد أفلح من تحلّى بالفضائل وتخلّى عن الرّذائل، وقد خاب من تخلّى عن الفضائل وتدنّس بالرّذائل.

* * *

هذا وإنّ المضرّة والخيبة بسبب الرّذائل ليست في الآخرة فقط، بل كثير من النّاس ينالون المضرّة والخيبة بسبب الأعمال القبيحة والصّفات الرّذيلة في الدّنيا أيضاً، وقد ذكر الله تعالى أمّة هلكت بسبب طغيانها وتكبّرها عن الحقّ وإصرارها على الباطل وعدم اتّباع الرّسول والخروج عمّا أمرهم الله تعالى به، فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾

(**كذّبت ثمود**) رسولهم وخالفت أمره (**بطغواها**) أي كذّبت وخالفت بسبب طغيانها وتكبّرها عن الحقّ.

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾

(إذ انبعث) أي نهض وركض لعقر النّاقة (أشقاها) أي أشقى القبيلة وأعظمها تكبراً وكفراً.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾﴾

(**فقال لهم رسول الله**) واسمه صالح: (**ناقة الله**) أي دعوا ناقة الله ولا تمسّوها بسوء (**وسقياها**) أي اتركوا حصّتها من السّقي ولا تظلموها فتمنعوها من السّقيا، فلم يتّعظوا ولم يمتثلوا قول رسولهم.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾

(**فعقروها**) أي ذبحوا النّاقة، وبسبب ذلك (**فدمدم عليهم ربّهم**) أي فأطبق الله عليهم العذاب (**بذنبهم**) بسبب ذنبهم وهو الكفر والتّكذيب والعقر للنّاقة (**فسوّاها**) أي

فعمّم العذاب على القبيلة كلّها فلم يفلت منه أحد، لأنّ كلّهم كانوا متّفقين على عقر النّاقة ومعصية الرّسول إلّا من آمن به وتبعه، فإنّهم نجوا ولم يصيبهم من ذلك العذاب شيء.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾

(ولا يخاف) أي ولا يخاف الله تعالى **(عقباها)** أي عقبي الدّمدمة من أن ينتقم منه أحد. فإنّ الله تعالى يثيب ولا يثاب ويعاقب ولا يعاقب، وهو القاهر فوق عباده، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا يسأل عمّا يفعل، فعّال لما يريد، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وهنا نودّ أن نذكر قصّة ثمود كما وعدنا سابقاً بإذن الله تعالى.

قصّة ثمود: ثمود قبيلة نبيّ الله تعالى صالح (ﷺ) وكانت هذه القبيلة تسكن الحجر بين الحجاز والشّام. وآثارهم باقية في بلادهم إلى الآن. وهي موضع بحث علماء الآثار. وكانت ثمود قد بلغت درجة عظيمة في الحضارة والتّقدم في الصّناعة. وكانت أصحاب خصب ورفاهيّة في العيش، وتوافرت لهم المياه وشجرها. واستمتعوا بغلّات زرعهم وبثمر أشجارهم. واقتنوا الماشية وتمتّعوا بأصوافها وأشعارها ولحومها وألبانها وبنوا بيوتاً تدلّ على ما هم عليه من عزّ ونعيم، وما زالت آثارهم تدلّ على أنّهم كانوا على جانب من المجد والسّؤدد والقوّة والسّلطان. وكان هؤلاء القوم يعبدون الأصنام واتّخذوها آلهةً من دون الله تعالى. فأرسل الله تعالى إليهم صالحاً يعظهم وينصحهم ويدلّهم على طريق الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له، وأثبت لهم صالح بأنّ الأصنام لا يجوز عبادتها وأنّ الّذي يستحقّ العبادة هو الله وحده لا شريك له. وأقام لهم الأدلّة على صدق ما يقول وخوّفهم من غضب الله تعالى وعذابه إن استمرّوا على ما هم عليه من عبادة الأصنام. وأكّد لهم صالح بأنّه لا يبغي وراء هذه الدّعوة مالاً ولا جاهاً ولا سلطاناً، وإنّه لا يسألهم على ذلك أجراً وانّما أجره على الله تعالى وحده. لم يتّبع صالحاً إلّا المستضعفون وكانوا قلّة، أمّا المستكبرون فإنّهم عاندوه وبالغوا في معاندته، وأخذوا يكذبونه ويسخرون منه وينكرون أن ينزل عليه الوحي من دونهم. وأخذوا يستهزئون بمن اتّبعه ويحتقرونهم ويحاولون أن يجعلونهم يرتابون في رسالة صالح، فلم يزدهم ذلك إلّا إيماناً به وزيادة في اتّباعه. فبلغ من مكابرتهم أن يطلبوا من صالح أن يأتيهم بآية تدلّ على أنّه رسول من عند الله تعالى، فأتاهم بالنّاقة الّتي اخرجها

الله لهم على غير المألوف والّذي يروي المفسّرون أنّ الله تعالى اخرجها من الصّخرة وأمرهم أن لا يمسّوها بسوء، ولا يساء إليها في أكلها ولا شربها ومائها ولا تذبح. وجعل الله لها شرباً في يوم معلوم وجعل لهم شرباً في يوم غيره. وكانت تعرف يوم شربها فلا ترد الماء إلّا فيه. فظلّ النّاس على ذلك عدّة سنين ثمّ سئموا صالحاً وناقته ومحاولته أن يصرفهم عن أصنامهم واستمراره على تهديدهم بالعذاب إن أساؤوا إلى النّاقة. وعزّ على كبرائهم أن يطيعوا صالحاً فيما يدعو إليه، فكانوا يبذلون جهداً كبيراً في صرف النّاس عنه وتنفيرهم منه، وثقل على النّاس وجود النّاقة بينهم لأنّهم قد أصابهم ضرر بسببها، ففكّر بعضهم في التّخلص منها وقتلوها؛ فأنذرهم صالح بأنّ عذاب الله واقع بهم بعد ثلاث. فسخروا منه وهزأوا به وقالوا له: عجّل بما تعدنا إن كنت من الصّادقين؟ وأقسم جماعة ليقتلنّ صالحاً وأهله قبل مضي الثّلاث الّتي توعّدهم بالهلاك بعدها. فلمّا ذهبوا إليه ليقتلوه أهلكهم الله تعالى كما أهلك بقية القوم بالصّيحة أي الصّاعقة العظيمة، ونجّى الله تعالى صالحاً والّذين آمنوا معه، فخرجوا من ديارهم قبل وقوع العذاب فنجوا بإذن الله تعالى ورعايته، والله على كلّ شيء قدير.

* * *

خاتمة: قد يلزمنا كما تعرف أن نحوّل كلّ قسم ورد في القرآن بغير الله تعالى إلى حجّة تثبت الخبر الّذي يقسم عليه. وهنا نذكر كيفيّة تحويل هذه الأيمان إلى حجّة. فنقول المعنى والله تعالى أعلم:

إنّ الله تعالى خلق الشّمس وضوءها الغلّاب، وخلق القمر الّذي يأتي بعد الشّمس للإضاءة والتّنوير، وخلق النّهار الّذي يظهر الشّمس للعالم ويبرزها وخلق اللّيل الّذي يستر الشّمس ويخفيها وخلق السّموات والأرض. خلق كلّ ذلك ليتمكّن الإنسان من أن يسكن هذه الأرض ويعيش فيها، ثمّ خلق الإنسان ووهبها القدرة على الخير والشّرّ. فخلقه هذه الأشياء العجيبة وهذه النّعم الجليلة كلّها لأجل الإنسان ليشهد ويدلّ على أنّ من خلق هذا لا يترك الإنسان دون شريعة، بل ويضع لهم نظاماً يبيّن لهم الخير ويأمرهم به ويبيّن لهم الشّرّ وينهاهم عنه. وإنّ من قام واستقام على الخير وما أمره به هذا المنعم الكبير فقد أفلح ونجا، ويثاب في دار البقاء ومن خالف أمره وارتكب ما نهى عنه فقد خاب وخسر وابتلي بالعذاب الشّديد يوم الفزع الأكبر. فإنّ من حقّ المنعم أن يثيب من شكره وأن يعاقب من كفر به، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ

شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ سورة إبراهيم الآية/ ٧. وإنّ من طمس قوّة الخير تحت ظلام قوّة الشّرّ لا يتصوّر أن يتساوى في العاقبة مع من رجّح قوّة الخير على قوّة الشّرّ، فستر شموس نتائجها بظلمات قوّة الشّرّ ومساوئها، بل إنّه لابد أن يكون لكلّ نتيجة غير ما للآخر والنّتيجة هي أنّه: (قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها) ثمّ بيّن تعالى أنّه قد ينزل العذاب في الدّنيا بالمنحرفين عن دين الله تعالى قبل أن ينزل بهم في الآخرة. وبرهن على ذلك بما جرى على أمّة سابقة فقال تعالى: (كذّبت ثمود بطغواها...إلخ) والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

وهذا ما وصل إليه الفكر الفاتر والذّهن القاصر، ونرجو الله تعالى العفو عن الزّلل والأجر على العمل، فإنّه عفوّ كريم وغفور رحيم.

سورة اللّيل

(نزلت بعد الأعلى وآياتها سبع وعشرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ١﴾

(واللّيل إذا) إذا بمعنى الوقت، والعامل فيها أقسم إن كان المراد بمثل هذه الأحلاف القسم. أو أبرهن وأستدلّ إذا كان المراد بها الاستدلال. أو أقسم على التقديرين. إلّا أنّه على التقدير الثاني يكون أقسم بمعنى: استدلّ مجازاً، والعلاقة أنّ كلّاً منهما لإثبات الخبر **(يغشى)** قيد القسم أو الاستدلال باللّيل بوقت أن يغشى النّهار ويستره، لأنّ جمال اللّيل إنّما يجلو في ذلك الوقت بظهور الكواكب والنّجوم الكثيرة فيه، وذلك بعدما يغيب الشّفق الأبيض. فإنّ ما قبله وبعد غروب الشّمس لا يزال بعض أثر الشّمس باقياً فلا يظهر كلّ النّجوم والكواكب بوضوح، فلا يكمل جمال اللّيل الّذي يدلّ على عظيم قدرة الله تعالى وعجيب صنعه.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾

(والنّهار إذا) الكلام في إذا كالسّابق، وقيد النّهار بقوله: **(إذا تجلّى)** أي ظهر ولاح، لأنّه حينئذ يظهر جماله وشدّة لمعانه وقوّة الشّمس في الاضاءة. ويكون ذلك من وقت الضّحى فما بعده.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ٣﴾

أي وخلق الذّكر والأنثى وأوجدهما من رحم واحد ونطفة واحدة.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾

إنّ عملكم لمتفرّق، فمنكم من يعمل السّوء فقط، ومن يعمل الخير فقط. ومنكم من يخلط بينهما، وكذلك إنّ عمل الإنسان الّذي يعيش به ويتّخذه مهنة له لمختلف أيضاً. فمن النّاس من يتّجر ومنهم من يزرع ومنهم النّجار والحدّاد والصّباغ إلى غير ذلك من المهن المتعدّدة الّتي اختصّ بكلّ منها جماعة من النّاس، وجواب القسم محذوف تقديره: إنّ الحساب لآت وإنّ يوم القيامة يأتي. واستدلّ بهذه الأشياء المذكورة على مجيء يوم القيامة بوجوه:

الوجه الأوّل: إنّ هذا اللّيل الّذي يهجمهم بظلامه ويستر النّهار وضوءه ويظهر فيه هذه النّجوم الّتي لا تحصى والكواكب الّتي لا تعدّ. وإنّ هذا النّهار الّذي يتجلّى ويظهر فيقضي على ظلام اللّيل ويكشف كلّ شيء، إنّ هذا الصّنع العجيب والنّظام البديع لا يكون إلّا من صانع حكيم وقادر مختار عليم، وإنّ من صنع هذا لا يصعب عليه إحياء الإنسان بعد أن مات وأصبح تراباً. وإنّ النّظام يوجب ثواب المطيع وعقاب المنحرف عنه، وحيث لا يوجد هذا في الدّنيا كلّياً فلابدّ من أن يأتي يوم ينال فيه المطيع ثوابه والعاصي عقابه، تحقيقاً لعدالة الله تعالى.

الوجه الثاني: إنّ جعل هذه النّطفة ذكراً وتلك أنثى في رحم واحد مع أنّهما من ماء رجل وإمراةٍ لا يكون إلّا بإرادة خالق مختار يخصّص ويجعل هذا ذكراً وتلك أنثى بمحض إرادته وهو الله تعالى. وإنّ هذا الخالق الّذي يخلق هذه الأعداد الكثيرة من الذّكور والإناث لا يتصوّر فيه أن يتركهم دون شريعة ونظام، وإنّ النّظام يثيب المطبّق له ويعاقب المخالف له. وحيث لا يوجد هذا في الدّنيا كلّياً فلابدّ أن يأتي يوم يحيا فيه النّاس جميعاً ويحاسبون على أعمالهم فينال المطيع ثوابه والعاصي عقابه، تحقيقاً لعدالة الله تعالى. وإنّ من قدر على خلق الإنسان من هذه النّطفة وفي هذه الظّلمة، ظلمة الرّحم والبطن وتقسيمها إلى الذّكر والأنثى حسب إرادته لا يصعب عليه أن يحيي الإنسان في ظلمة القبر فيعود إنساناً كما كان، وما ذلك على الله بعزيز.

الوجه الثّالث: إنّ أفراد الإنسان كلّهم من عنصر واحد ومن مادّة واحدة لا توجب تلك المادة غرائز مختلفة وطبائع متباينة. فتباين أفراد الإنسان في طبائعها وميولها وغرائزها وصفاتها ومهنها ونزعاتها لا يكون إلّا بتقسيم وتخصيص من خالق حكيم

يخصص كلّ إنسان بطبيعة وعمل ومهنة ولون وشكل ورغبة وسعي... و... و... إلخ. كما وإنّ اختلاف أعمال العباد وتشتّت أخلاقهم، فمن محسن ومسيء وظالم وعادل وفاسق وصالح وفاجر ومتّق وغير ذلك يشهد أنّ من خلقهم لا يعاملهم معاملةً واحدةً. فلا بدّ للظّالم من أن يعذّب على ظلمه. وللعادل أن يثاب على عدله. وللصّالح أن ينال ثواب صلاحه وللفاسق عقوبة فسقه. وإنّ يوماً يأتي لذلك الحساب ولذلك العذاب والثّواب. تحقيقاً لعدالة الله تعالى وهو يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ سورة (ن) الآيتان/ ٣٥، ٣٦. فقوله تعالى: (إنّ سعيكم لشتّى) أصبح كعلّة لجواب القسم المحذوف وهو أنّ يوم الحساب يأتي. فالمعنى: إنّ يوم الحساب يأتي لأنّ سعيكم لشتّى متفرّق، ففيه صلاح وفساد وعبادة وفسوق وظلم وعدل وتقوى وفجور. ولا يمكن أن يذهب كلّ ذي عمل ويموت دون أن يسأل عنه وينال عاقبته. فلذلك لابدّ أن يأتي يوم لحساب هؤلاء النّاس على هذه الأعمال والجزاء وفقها. فإنّ الله أحكم الحاكمين، فحينما يحاسب كلّ حاكم من تحت يده فلا يليق بالله أن لا يحاسب من في قبضته، وأن لا يجزيه حسب خصلته، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً. كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ سورة التين الآيتان/ ٨، ٩..

ثمّ بعد ذلك ذكر الله تعالى نتيجة هذا اليوم وعاقبة حسابه للنّاس. فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)﴾

أي انّ النّاس ينقسمون إلى قسمين حسب الأعمال والأخلاق والعقيدة:

الأوّل: (**فأمّا من أعطى**) حقوق الله تعالى وحقوق العباد (**وصدّق بالحسنى**) أي وآمن بالعاقبة الحسنى يوم العرصات أي آمن بيوم القيامة والثّواب فيه (**فسنيسّره لليسرى**) أي فسنسهّل له الطّريق إلى المنزلة اليسرى وهي الجنّة.

الثّاني: (**وأمّا من بخل**) فلم يعط حقّ الله تعالى وغصب حقّ النّاس ولم يعطيهم (**واستغنى**) ورأى نفسه غنيّاً عن عمل الخير وعن ترك عمل الشّرّ الّذي تهوى إليه نفسه حيث كفر (**وكذّب بالحسنى**) ولم يؤمن بالثّواب الجزيل والعطيّة الحسنى على عمل الخير (**فسنيسّره للعسرى**) نسهّل له الطّريق إلى المنزلة العسرى وهي جهنّم.

ملاحظة: إنّ هاتين الآيتين تشملان إجمالاً على جميع أحكام الإسلام فإنّ إعطاء حقوق الله وحقوق العباد يشمل كلّ ما أمر به الإسلام من العقائد والأعمال والواجبات الماليّة والبدنيّة والجامعة بينهما. وإنّ التّقوى أي اجتناب المحارم يشمل جميع ما نهى الله عنه من المحرّمات والعقيدة والعمل الفردي والجماعي والمالي والبدني والجامع بينهما. كما وإنّ في قوله تعالى: (وصدّق بالحسنى) إشارة إلى أنّ كلّ عمل لا ينتفع به ولا يثاب عليه مالم يقترن بالإيمان بالثّواب والعقاب ويوم القيامة. وإلى أنّ من عصى وأذنب لا يستحقّ المنزلة المنتهية في العسر والعذاب إلّا إذا اقترن بالإنكار وتكذيب الثّواب والعقاب ويوم الحساب. وأمّا من دونهم من المؤمنين فهم في درجات أهون وأخفّ من درجاتهم إن دخلوا فيها واستحقّوها بسبب ما صدر عنهم من المعاصي والذّنوب والآثام.

***

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾

(وما يغني عنه ماله) أي وما يدفع عنه ماله شيئاً من عذاب الله تعالى **(إذا تردّى)** أي إذا وقع في جهنّم. وهنا كأنّ سائلاً يقول: إنّ الله الّذي خلق الإنسان من هذه النّطفة المهينة وفي ظلمة البطن والرّحم، ثمّ إن شاء جعله ذكراً وإن شاء جعله أنثى. وإن شاء جعله لا ذكراً ولا أنثى لقدير أن يجعل الإنسان على الطّريقة المستقيمة، طريق الحقّ والخير وسلوك الصّراط المستقيم، فلم يفعل ذلك، فكيف الجواب؟

فأجاب الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾

الهدى بمعنى الهداية وهي جاءت بمعنيين:

الأوّل: إضاءة الطّريق المستقيم وبيان الخير والشّرّ وعاقبتهما، وبيان العمل الصّالح وغير الصّالح ونتجيتهما.

الثّاني: جاءت بمعنى جعل الإنسان على الخير والصّلاح والصّراط المستقيم جبراً دون اختياره.

فالمراد بالهدى هنا هو المعنى الأوّل. فالمعنى أنّا جعلنا من عاداتنا أن نرشد الإنسان ونبيّن له ما هو خير وما هو شرّ. وننذره بعاقبة الشّرّ السّيّئة، ونبشّره بعاقبة الخير الحسنة، ونرسل إليهم رسلاً يبلّغونهم لذلك ويدلّونهم على طريق الحقّ المبين. ويبيّنون لهم الحجج والبراهين العقليّة والنّقليّة الّتي يؤيدّون بها تبليغهم، وإنّهم مرسلون ويظهرون المعجزات لهم وخوارق العادات، وقد فعلنا ذلك وأعطيناهم عقلاً يميّزون به الحقّ من الباطل والخير من الشّرّ. ووهبنا لهم القدرة على سلوك سبيل الرّشاد والسّداد، وعلى سلوك طريق الضّلال والفساد، وذلك امتحاناً لهم وليميّز الخبيث من الطّيب. ولم نجعل من عاداتنا أن نهديهم من الهداية بالمعنى الثّاني أن نأتي بهم على الخير وعمله جبراً، أو إلى الشّرّ وكسبه جبراً دون اختيار منه.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾

(وإنّ لنا للآخرة) أي وإنّ الآخرة وهي القيامة **(والأولى)** وهي الدّنيا كلّ ذلك ملك لنا فنهب للنّاس من الاثنتين حسب كسبهم وسعيهم واتّخاذهم للأسباب المؤدّية إليهما. فكما أنّه لا يجد من لم يتزوّج ولا يحصد من لا يزرع ولا يصل إلى بلد من لم يمش إليه في طريقه. فكذلك الآخرة لا يحصل على سعادتها إلّا من سلك الطّريق الموصل إلى ذلك وهو تبع شريعة الله والتّأسي بمحمّد رسول الله (ﷺ). وأشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٤٥.

وحيث ليس علينا إلّا الهدى وإراءة الطّريق قال جلّ وعلا:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾

أي بلّغناكم بنار تلظّى وبيّنا لكم الأعمال الّتي تلقيكم في هذه الدّنيا النّار الّتي **(لا يصلاها إلّا الأشقى)** أي لا يدخلها إلّا الأشقى. وبين الأشقى بقوله: **(الّذي كذّب وتولى)** أي كذّب برسول الله وما أنزل الله تعالى إليه وتولّى وأعرض عن الإيمان به ولم يلتفت إليه.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾

(وسيجنّبها الأتقى) أي وسيبعد عن هذه النّار الأتقى. وفسّر الأتقى بقوله: **(الّذي**

يؤتي ماله يتزكّى) أي يعطي ماله للمحتاجين، ويقصد بذلك الإعطاء التّطهّر من البخل والتّطهّر من إثم مانع الزّكاة والتّطهّر ممّا في ماله من حقّ المحتاجين المحرّم عليه إمساكه ومنعه من أدائه إليهم.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠﴾

(وما لأحد عنده) أي ليس لأحد عنه هذا الأتقى الّذي يعطي الزّكاة أو ينفق ممّا آتاه الله تعالى ليس لأحد عليه **(من نعمةٍ)** أي حقّ أو إحسان يريد بإعطاء الزّكاة أو الصدّقة له، **(تجزى)** وفاءً لهذا الحقّ أو الإحسان.

وهنا يتوجّه سؤالان:

الأوّل: أنّه قال تعالى: **(لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى)** أي لا يدخل جهنّم إلّا الأشقى الّذي كذّب بالدّين وتولّى عن الإيمان به، وهذا هو الكافر كما لا يخفى. فهذا يدلّ على أنّه لا يدخل جهنّم إلّا الكافر. فيفيد ذلك عدم دخول عصاة المؤمنين النّار، وهذا خلاف مذهب أهل الحقّ، فكيف الجواب؟

الجواب بوجوه:

الأوّل: إنّ المراد بهذه النّار نار مخصوصة بلغت النّهاية في الحرّ بقرينة تقييدها بـ (تلظّى)، فهذه النّار لا يدخلها إلّا الكافرون. وأمّا العصاة المؤمنون إن دخلوا فيدخلون نارا أخرى أخفّ وأقلّ حرارةً من هذه النّار.

الوجه الثّاني: إنّه لا يصلاها ولا يدخلها دخولاً مؤبّداً إلّا الأشقى وهو الكافر، ولكنّ المؤمن العاصي فإنّه وإن دخلها فإنّما يبقى فيها مؤقّتاً وبقدر ما يتطهّر من الذّنوب والآثام، فيخرج إلى الجنّة بإذن الله تعالى.

الوجه الثّالث: هذا القصر قصر إضافي لأنّ الآية نزلت في الفرق بين أبي بكر الصّديق (رضي الله عنه) وأحد المشركين. فيكون المعنى لا يصلاها من بين هذين الإثنين إلّا هذا الأشقى الّذي كذّب وتولّى (وسيجنّبها الأتقى) وهو أبو بكر، وهذا الجواب ضعيف لأنّ الرّوايات في سبب النّزول مختلفة على أنّ المورد لا يخصّص الآية، فالآية عامّة وإن كان سبب نزولها خاصّة.

الوجه الرّابع: الأشقى صفة مشبّهة وليس افعل تفضيل. فيكون بمعنى الشّقي فيشمل

الكافر والفاسق، ولكن يردّ هذا الجواب قوله: (الّذي كذّب وتولّى) فإنّه يخصّه بالكافر.

السّؤال الثّاني: إنّ قوله: (سيجنّبها) أي يبعد عن جهنّم (الأتقى) يفيد أنّ التّقي لا يجنّبها بل يدخلها.

الجواب: إنّ المراد بالأتقى ليس افعل التّفضيل، بل هو صفة مشبّهة فيكون بمعنى تقيّ، فلا يبقى إشكال.

السّؤال الثّالث: إنّه لو فرضنا أنّ شخصاً كان غنيّاً فكان يحسن إلى آخر ثمّ افتقر الأوّل وأصبح الثّاني غنيّاً فأحسن إليه أو أعطى له زكاته مكافأة، فالعلماء متّفقون على أنّه يثاب ويجزئ عنه أداءه الزّكاة إليه، مع أنّ الآية تفيد أنّه لا يجزئ أداءه هذا عن الزّكاة ؟

الجواب بوجهين:

الوجه الأوّل: إنّ المراد بالنعمة ما هي حقّ ثابت عليه يطالب بأدائه كقرض أو أجرة أو غير ذلك، فالإحسان لذلك ولإسقاطه لا يقبل، والزّكاة لا تجزئ[1]، وأمّا إذا لم يكن ذلك حقّاً مطالباً به بل ما يمدح المكافأة عليه فهذا ليس داخلاً في مفهوم الآية، بل الإحسان إليه أولى. أو **نقول**: إنّ هذه مرتبة الأتقى وذلك مرتبة التّقي. فالأتقى حتّى لو أعطى لمن له عليه حقّ لا يطالب به لا يقصد بذلك المكافأة بل مجرّد ابتغاء وجه ربّه. وإنّما **الأعمال** بالنّيات.

الوجه الثّاني: أنّه فسّر بعض العلماء هذه الآية بأنّ ضمير(عنده) راجع إلى الله تعالى، والنّعمة بمعنى العمل. فيكون المعنى: وليس لأحد عند الله تعالى عمل يستحقّ أن يجزى به إلّا عملاً عمله ابتغاء وجه ربّه الأعلى بأن يكون خالصاً لله تعالى لا يشوبه شيء من الرّياء أو غرض من أغراض الدّنيا. فعلى هذا المعنى لا يتّجه السّؤال هذا.

---

(١) أي إذا كان الإحسان إليه للوفاء بالقرض وإسقاط الدين لا يقبل كإحسان لأنه أصبح أداء لحق واجب، فإن الثاني إذا كان مكافئاً للأوّل في دفعه الزكاة له والإحسان إليه، فلا يسقط عنه الزكاة. أمّا إذا كانت نيّته مجرد الإحسان لا يقصد المكافأة بدفع الزكاة له فيجوز ويسقط عنه الزّكاة على رأي الجمهور . .

﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾

من يعمل هذا العمل الخالص من الرّياء والّذي لم يقصد به إلّا وجه الله تعالى ورضاءه يرضى بالثّواب الّذي يثاب به عند الله تعالى والنّعيم الّذي دخله نتيجة الإيتاء للمال والإحسان إلى أهل الحاجة والإقلال. جعلنا الله تعالى منهم آمين فإنّه أرحم الرّاحمين.

سورة الضحى

(مكيّة، نزلت بعد الفجر وآياتها عشرة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢)﴾

(والضحى) إذا ذكر الضّحى مضافاً إلى الشّمس مثل: والشّمس وضحاها. فالمعنى شدّة ضوئها. وإذا ذكر وحده فالمراد به النّهار كلّه، فيكون المعنى والنّهار و**(واللّيل إذا سجى)** أي إذا غشي النّهار وستر ضوءه بظلامه، وذلك يكون بعد غروب الشّفقين الأحمر والأبيض جميعاً؛ لأنّ جماله الدّال على عظم قدرة الله تعالى يظهر كاملاً في ذلك الوقت، لأنّ النّجوم والكواكب لا يظهر كلّها إلّا بعد استقرار اللّيل وزوال آثار الشّمس من الشّفقين كليهما، وهكذا كلّ شيء إذا قيّد بوقت، فلأنّ جماله الكامل يظهر في ذلك الوقت. مثل: (والقمر إذا تلاها) أي إذا طلع بعد غروب الشّمس وذلك إنّما يكون حينما يتمّ بدراً فيكمل جماله وعلى هذا فقس. وجواب القسم قوله:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾

أي ما تركك ربّك وما قلاك أي وما أغضبك.

سبب النّزول: روي أنّ الوحي انقطع عن رسول الله (ﷺ) مدّة اختلف الرّواة في قدرها. فقال المشركون إنّ محمّداً قلاه ربّه وودّعه أي أغضبه وتركه. فحزن رسول الله (ﷺ) فأنزل الله تعالى: (والضّحى .. إلخ) وإنّ هذا الكلام وإن كان في صورة القسم إلّا أنّه استدلّ الله تعالى بالنّهار وضوئه الثّاقب. وهجوم اللّيل بظلامه الدّامس وستر ضوء

النّهار استدلّ بهذا على أنّه لم يترك محمّداً وما قلاه، فالمعنى: ألا ترى يا محمّد أنّ النّهار يأتي ويدوم مدّة ثمّ يجيء اللّيل فيقضي عليه ويستر ضوءه. وإنّ هذا شيء دائب ومستمرّ، ومن البديهي أنّه ليس مجيء اللّيل وستره للنّهار لأنّ الله تعالى قلا النّاس وتركهم. بل إنّما ذلك لمصلحة وحكمة، وكذلك الدّنيا كلّها نور فظلام وحزن فسرور. وضيق فبسط، وليس مجيء هذه الأحوال بعضها بعد بعض لأنّ الله تعالى قلا عباده وتركهم بل لمصلحة أنيطت بتلك التّبديلات وهذه التّغييرات. فكذلك الوحي يا محمّد حينما يأتيك وقتاً ثمّ ينقطع زماناً فليس انقطاعه لأنّ الله تعالى ودّعك وقلاك بل لمصلحة أراها ربّك من هذا الانقطاع فلا تحزن بما يقوله المشركون وما يفتريه المبطلون.

* * *

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾

(وللآخرة) اللّام في (وللآخرة) جواب القسم وهو عند المفسّرين قوله: (والضّحى واللّيل إذا سجى) ولكن حيث إنّ هذا القسم كان مؤولاً بالاستدلال. فالأولى أنّ القسم محذوف بقرينة اللّام. وذلك شائع في القرآن الكريم. وتقديره وبعزّتي **(للآخرة خير لك من الأولى)** أي أنّ ما هيّأه الله تعالى لك في الآخرة وهي يوم القيامة خير لك ممّا وهبه لك في الدّار الأولى وهي الدّنيا، هكذا قال المفسّرون. إلّا أنّ هذا الوحي جاءه ليطمئنه بأنّ الله تعالى لا يتركه ولا يقلاه في الدّنيا، ولم يأت ليخبره عن حاله في الآخرة. فالمعنى لا تحزن يا محمّد ولا تخف فإنّ كلّ حالة آخرة ولاحقة وآتية خير لك من الحالة السّابقة والأولى، فيدخل في ذلك الدّار الآخرة أيضاً. فيكون المعنى أعمّ وأشمل: وهكذا كان الرّسول (ﷺ) يترقى يوماً بعد يوم وعامّاً بعد عام إلى أن توفّاه الله تعالى والتحق بالرّفيق الأعلى.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾

(ولسوف) هنا اللّام أيضاً جواب لقسم محذوف تقديره وبعزّتي **(لسوف يعطيك ربّك)** من النّعم والمراتب العالية **(فترضى)** إلى أن ترضى بما وهب لك من النّعم والمزايا. ويروى أنّه حينما نزلت هذه الآية قال الرّسول: لا أرضى وواحد من أمّتي في

النّار. ولذلك قال بعض العلماء: إنّ هذه الآية هي أرجى آية في القرآن.

ثمّ برهن الله تعالى على أنّه لم يتركه ولم يقله وأنّه يريد له من النّعم في المستقبل حتّى يرضى. فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾

(ألم يجدك يتيماً فآوى) أي فآواك لوفاة أبيك إلى رعاية جدّك عبدالمطلب وإلى كفالة عمّك أبي طالب بعد وفاة جدّك، وألقى في قلبهما العطف والمحبّة إليك بحيث كانا يؤثرانك على أبنائهما. روي أنّه كان لعبد المطّلب تكرمة وفراش لا يجلس عليه أحد مهابة منه وتعظيماً له. وكان كلّ من أراد أن يجلس عليه من أولاده أو غيرهم يمنع من ذلك ولكنّ محمّداً (ﷺ) كان يذهب ويجلس عليه. وحينما يريد أحد أن يمنعه يقول عبد المطلب دعوه فإنّ لابني هذا لشأناً، وكذلك عمّه أبو طالب بعدما تكفّله كان يراعيه أكثر من أولاده ويؤثره عليهم. فالاستفهام هنا للإنكار وإنكار النّفي إثبات فالتّقدير: وجدك يتيماً فآواك، ولهذا صحّ عطف الإخبار بالماضي المثبت عليه في قوله جلّ وعلا:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾

أي وجدك ضالّاً لا تعلم شريعةً ولا نظاماً إلهيّاً ولا ديناً سماويّاً تدين به ولا كتاباً ولا علماً ولا قراءةً تستنير بها، فهداك الله تعالى إلى ذلك كلّه. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ سورة النّساء الآية/ ١١٣. ومثل ما قال: ﴿كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سورة الشّورى الآية/ ٥٢. فبعدما أوضح الله تعالى هذا الإيضاح من معنى الضّال لا حاجة إلى ما تكلّف المفسّرون من تأويل معنى الضّال في هذه الآية ظنّاً منهم أنّ هذا لا يليق بعظمة الرّسول (ﷺ) وقدره. وهذا الظّن ليس في مكانه فإنّ الرّسول (ﷺ) كان كفرد من أفراد قومه. وإنّما جلّ قدره بإجلال الله تعالى له باختياره رسولاً منه وتعليمه ما لم يعلم وغير ذلك ممّا أنعم عليه من جلائل النّعم ولا يضرّ عظمة قدره أنّه كان قبل ذلك أمّياً بعيداً عن الشّرائع وأحكام الله تعالى وغير ذلك ممّا أوحى إليه فصلّى الله تعالى عليه وعلى آله وسلّم تسليماً كثيراً.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

(ووجدك عائلاً) أي وكنت فقيراً لا مال ولا ملك لك **(فأغنى)** أي فأغناك بأن قدّر زواجك بخديجة (ﷺ) وتسليمها إليك أموالها تتصرّف فيها كيف تشاء. هذا والمفعول في (فآوى) و(فأغنى) و(فهدى) محذوف هو كاف الخطاب والتّقدير فآواك. فهداك. فأغناك كلّ منها لرعاية الفاصلة. وللاستغناء عن ذكره للعلم به. ومن البلاغة الإيجاز بشرط عدم الإخلال بالمعنى. وهكذا أكدّ الله تعالى تسلية رسوله بتذكيره بهذه النّعم، فكأنّه قال تعالى إنّ من راعاك هذه الرّعاية فيما مضى لا يدعك ولا يقلاك فيما يستقبل.

ثمّ أوجب الله تعالى عليه مقابل كلّ نعمة من هذه النّعم الثّلاث واجباً ملائماً لها ليكون شاكراً عليها، فمقابل إيوائه في حال اليتم قال جلّ وعلا:

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾

أي فلا تظلمه ولا تؤذه ولا تأكل ماله ولا تهضم حقّه. ومقابل تعليمه العلم بالشّريعة والأحكام وغير ذلك، قال جلّ وعلا:

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾

أي إذا سألك سائل عن علم أو مسألة فلا تزجره ولا تردّه بل علّمه كما علّمك الله تعالى. ومقابل إغنائه وإعطائه المال قال جلّ وعلا:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾

أي أظهر ما أنعم الله تعالى به عليك من المال وذلك بصرفه فيما يجب عليك من نفقة الأهل والعيال، وترفيههم في الحياة والإنفاق في سبيل الله تعالى والتّصدق به على الفقراء والمساكين والمحتاجين والمعوزين. هذا وإنّ هذه الواجبات ليست مختصّة بالرّسول (ﷺ) بل إنّ قهر اليتيم وظلمه حرام على كلّ إنسان. وإنّه من الكبائر المهلكات قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ سورة الماعون الآيتان/ ١، ٢. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ سورة النّساء الآية/ ١٠. وكذلك إنّ نشر العلم واجب على كلّ أحد

وإنّ كتمه من الكبائر، قال الرّسول (ﷺ): (من آتاه الله علماً فكتمه ألجمه الله بلجام من النّار)[١]. كما وإنّ صرف المال واجب على كلّ مسلم لنفسه وأهله ولمن احتاج إليه من الفقراء والمساكين. قال (ﷺ): (ليس بالمؤمن الّذي يبيت شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه)[٢] وقال (ﷺ) أيضاً: (إنّ الله جميل يحبّ الجمال)[٣] وقال (ﷺ) أيضاً: (إنّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده)[٤] والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدّاً.

فائدة: كان النّبيّ (ﷺ) إذا بلغ آخر (والضّحى) كبّر بين كلّ سورة وأخرى إلى أن يختم القرآن، فيسنّ لنا أن نكبّر بعد تلاوة (والضّحى) وأن نجعل سكتة بين القراءة والتكبير، وبين التّكبير والإبتداء بالسّورة الثّانية. فكان الرّسول (ﷺ) يكبّر شكراً على استئناف الوحي بعد الانقطاع وشكراً على هذه النّعمة. ونعمة الرّسول (ﷺ) نعمة لنا فعلينا شكرها، جعلنا الله تعالى من الشّاكرين وغفر لنا أجمعين.

* * *

خاتمة: اختار الله تعالى اليتم لمحمّد (ﷺ) لأمور:

الأوّل: ليعلم النّاس أنّ اليتم ليس منقصة؛ فقد كان خير خلق الله تعالى يتيماً.

الثّاني: ليعلم النّاس أنّ العزّ والشّرف والتّربية الحسنى بيد الله تعالى، فمن لم يربّه الوالدان ومن لم يعش في كنف أب ولا أمّ جعله قدوة للنّاس جميعاً ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ سورة الأحزاب الآية/ ٢١.

الثّالث: ليتدرّب الرّسول من الطّفولة على الاعتماد والتّوكل على الله تعالى وحده دون غيره من العباد والمخلوقين، ولهذا السّبب نفسه توفّي جدّه وزوجه الأولى وعمّه أبو طالب والّذين كان يعتمد عليهم، وبذلك تمّ له التّوكّل على الله تعالى وحده.

الرّابع: ليحترم النّاس اليتامى ويكرموهم حيث إنّهم يشاركون خير خلق الله تعالى في صفة اليتم. هذا والله تعالى أعلم.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ١٨٢ الحديث رقم ٣٤٥.
(٢) المستدرك على الصحيحين ٢/ ١٥ الحديث رقم ٢١٦٦.
(٣) صحيح مسلم ١/ ٩٣ الحديث رقم ٩١.
(٤) المستدرك على الصحيحين ٤/ ١٥٠ الحديث رقم ٧١٨٨.

سورة الشّرح

(مكيّة، نزلت بعد الضّحى وآياتها ثمان)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سبب النّزول:

ورد في سبب نزول هذه السّورة روايات يتخلّص منها أنّ الرّسول (ﷺ) أصابه وأصاب أصحابه عسر، فحزن رسول الله (ﷺ) بسبب ذلك فسلّاه الله تعالى ووعده بأنّ هذا العسر سيزول، فأنزل هذه السّورة فقال جلّ وعلا:

﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ ﴾

الإستفهام للإنكار وإنكار النّفي إثبات فالمعنى: قد شرحنا لك صدرك، ولذلك صحّ عطف الإخبار بالمضيّ المثبت عليه في قوله تعالى: ووضعنا عنك ....إلخ، في المراد بشرح الله تعالى صدر رسوله (ﷺ) قولان:

الأوّل: هو أنّ الله تعالى فتح قلبه الشّريف وجعله مستعدّاً لقبول الوحي الإلهي. وأفاض عليه أنواراً وملأه علوماً ومعارف وحكمةً. فأصبح كلّ ذلك سبباً لحيرة النّاس فيه ومعجزةً تتلى إلى يوم القيامة.

الثّاني: ما رواه مسلم عن أنس (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (ﷺ) أتاه جبريل (عليه السلام) وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فشقّ عن قلبه فاستخرجه، فاستخرج منه علقةً فقال: هذا حظّ الشّيطان منك، ثمّ غسله في طست من ذهب بماء من زمزم، ثمّ لأمه، ثمّ أعاد القلب إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى ظئره وهي حليمة السّعدية. فقالوا: إنّ محمّداً قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللّون، وحكى لهم ما جرى، قال أنس: وقد كنت أرى أثر

المخيط في صدره هذا. ويجوز أن يراد المعنيان معاً فإنّه لا تناقض بينهما، بل إنّ مفادهما واحد.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾

كان رسول الله (ﷺ) شديد الهمّ حيث كان حريصاً قبل النّبوّة على إخراج النّاس من الجهالة إلى العلم ومن الفوضى إلى النّظام. ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الله الواحد الأحد. فكان يترجّى دائماً أن يريه الله تعالى منهاجاً لإصلاح النّاس وتثقيف هذه الأمّة. فأورث ذلك ثقلاً عظيماً على نفسه، فلمّا أوحى الله تعالى إليه هذا القرآن الكريم زال همّه الّذي كان على نفسه كحمل ثقيل ينقض ظهر حامله ولذلك قال تعالى:

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾

أي الثّقل الّذي أنقض ظهرك، وتفسير بعض العلماء الوزر بالإثم لا يقبله ما ثبت من عصمة الأنبياء. وكلّ ما قالوا بعد ذلك في تأويل هذا الإثم تكلّف، فلا حاجة إلى إثبت الإثم ثمّ تأويله، فإنّ هذا شيء عجيب، فالمعنى الصّحيح ما قلنا.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾

حيث جعلناك رسولاً منّا إلى كافة الخلق بشيراً ونذيراً. وجعلنا طاعتك ومعصيتك معصيةً لنا. ثمّ بعدما ذكر الله تعالى هذه النّعم الّتي أنعم بها على رسوله من شرح صدره وملئه علوماً ومعارف. ومن إنقاذه من الحيرة. وإيتائه منهجاً مستقيماً يقيم به حياة الأمّة والنّاس جميعاً، وهدايته إلى صراط مستقيم يوحي هذا القرآن الكريم إليه. وجعله أشرف خلق الله تعالى وخاتم النّبيين بعد أن كان كواحد من أفراد أمّته. وأن جعل ذكره رفيعاً حيث يقرن اسمه باسم الله تعالى في الأذان والإقامة، وعلى المآذن والمنابر وفي المحافل والمؤتمرات. وغير ذلك ممّا يدلّ على عظيم قدره وعلوّ شأنه. فبعد أن ذكر تعالى هذه النّعم وأنّه لم يزل يخرجه من المراحل العسرة. أعلمه بأنّ عناية الله لم تتركه ورعايته لم تهمله، بل إنّه سينقذه من هذا العسر أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾

ثبت في قواعد اللّغة العربيّة. أنّ الشيء إذا أعيد معرّفاً فالمراد به عين الأوّل سواء

كان ذكر الأوّل منكّراً كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ سورة المائدة الآية/ ٧٠. فالمراد بالرّسول الثّاني عين الأوّل وهو سيّدنا موسى (عليه السلام) أو كان الأوّل معرّفاً أيضاً كالعسر في هذه الآية الكريمة، فالمراد بالعسر الثّاني عين الأوّل. وأمّا إذا أعيد الشّيء منكّراً، فالمراد به غير الأوّل سواء ذكر الأوّل معرّفاً مثل أن تقول: بعت داري واستاجرت داراً، فالمراد بالدّار الثّانية غير الأولى، أو ذكر الأوّل منكّراً أيضاً مثل: يسراً في هذه الآية، فالمراد باليسر الثّاني غير الأوّل، فعلى هذا يكون مع كلّ عسر يسران. ولذا قال الرّسول (ﷺ) حينما نزلت هذه الآية: لن يغلب عسر يسرين[1]. وهذا المعنى أولى من حمله على التّكرار للتّأكيد بدلالة الحديث المار، ولأنّ التّأسيس خير من التّأكيد.

ثمّ بعدما عدّد الله تعالى هذه النّعم وذكر الرّسول بها ووعده بالنّعم في المستقبل بالإتيان باليسر بعد العسر، أمره بالشّكر على ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾

(فإذا فرغت) أي إذا فرغت من موعظة النّاس وإرشادهم وتبليغهم ومشاغل أخرى **(فانصب)** أي فاتعب بعبادة الله تعالى **(وإلى ربّك فارغب)** أي وليكن رغبتك في كلّ شيء من الموعظة والإرشاد والعبادة وكلّ عمل إلى الله تعالى وابتغاء وجهه ورضائه. وبذلك يتمّ الإخلاص الّذي لا يقبل أي عمل بدونه، وبه يصير كلّ عمل مشروع طاعةً وعبادةً لله تعالى، ويثاب فاعله عليه. حتّى أنّ العامل في المعمل إذا قصد بعمله أداء واجب الإنفاق على نفسه وعلى أهله وصرفه ما ينتج في ما يرضى الله تعالى فيكون عمله كلّه عبادة، ويأخذ في مقابله الأجر من الله تعالى في الآخرة، كما يأخذ الأجرة عليه في هذه الدّنيا. وهكذا فكلّ عمل يقوم به الإنسان من الأعمال المشروعة ينقلب عبادة لله تعالى بالنّية الصّالحة وبالوجهة الموافقة للشّرع الشّريف شريعة الله تعالى. قال الرّسول (ﷺ): (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلّا كان له به صدقة)[2] أو كما قال، وهكذا كلّ عمل من الأعمال

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٥٧٥ الحديث رقم ٣٩٥٠.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٨١٧ الحديث رقم٢١٩٥.

المباحة الّتي تنفع الأمّة تكون عبادة مع النّيّة الصّادقة والوجه الصّحيح الموافق للشّرع.

خاتمة: في هاتين السّورتين الضّحى والشّرح يقف القارئ حائراً من عظمة الرّسول الكريم (ﷺ) ومنزلته عند الله تعالى، فإنّه يرى أنّه كلّما أصابه همّ أو حزن أو عسر يتداركه الله تعالى بالتّسلية ويذكّره بالنّعم السّابقة ويعده بالنّعم اللّاحقة، ويخبره بأنّ رعاية الله تعالى ليست بغافلة عنه ولا مهملة له، وإنّ الله تعالى لا يسلّمه إلى الضّيعة والخسارة والحرمان. بل لا يزال تعالى يرتقي به في المراتب العالية ويفيض عليه نعماً جليلة يجب الشكر عليها. كما وإنّ في سورة الشّرح معجزة حيث أخبرت بأنّ العسر يزول وإنّ من ورائه يسر كبير، وقد وقع كما أخبرت. هذا وإنّ الإخبار بأن اليسر مع العسر يحتمل أنّه كان خاصّاً بالرّسول (ﷺ) ويحتمل أن يكون عامّاً وإخباراً وبشارةً لكلّ من وقع في عسر بأنّه سيفرج عنه ويزول عسره ويأتي له اليسر من الله تعالى، ويؤيد ذلك ما قال الشّاعر:

إذا ضاقت بك الأمر ففكّر في ألم نشرح فعسر بين يسرين إذا أبصرته فافرح

اللّهم أزل عنّا كلّ عسر وآتنا باليسر وفرّج عنّا وأدركنا بلطفك وكرمك يا أرحم الرّاحمين. آمين وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على المولى محمّد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم وسلّم أجمعين آمين.

سورة التّين

(مكيّة، نزلت بعد البروج وهي ثماني آيات)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾

قال بعض المفسّرين: المراد بالتّين هو الفاكهة المعروفة، وبالزّيتون ما يعصر ويستخرج منه الزّيت. أقسم الله تعالى بهما لكثرة فوائدهما. إلّا أنّ هذا القول ليس بسديد؛ لأنّه لا توجد مناسبة في الجمع بين هاتين الفاكهتين وبين هذين المكانين، أعني طور سينين ومكّة المكرّمة. وإنّ القرآن لا يجمع بين الأشياء بدون مناسبة بينهما، فالأولى ما قال البعض الآخر من المراد بالتّين: طور تيناء وهو جبل في فلسطين سمّي بهذا الاسم لكثرة شجرة التّين (عليه السلام) بالزّيتون: طور زيتاء وهو أيضاً جبل في فلسطين سمّي بهذا الاسم لكثرة شجرة الزّيتون فيه، وهو أيضاً منبت الأنبياء ومهبط الوحي إليهم. والمراد بالطّور طور سيناء مهبط الوحي إلى سيّدنا موسى (عليه السلام) والبلد الأمين هو مكّة المكرّمة مهبط الوحي على خير خلق الله محمّد (ﷺ) أقسم الله تعالى بهذه الأمكنة لقدسيّتها بنزول الوحي فيها على الأنبياء والمرسلين وجواب القسم قوله جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾

هذا ولكنّه في الحقيقة إنّ الله تعالى برهن بما أوحي في هذه الأماكن كلّها على الأنبياء والمرسلين على أنّ الإنسان خلق في أحسن تقويم، ثمّ يردّه الله تعالى إلى أسفل سافلين إلّا الّذين آمنوا ... الخ.

فالمعنى: إنّ ما أوحى من الله تعالى في تلك الأماكن إلى الأنبياء يشهد وينصّ على أنّ الإنسان خلق في أحسن تقويم، أي في أحسن صورة، فصورة الإنسان أحسن من كلّ مخلوق من مخلوقات الله تعالى، لأنّه خلق مستوياً ومعتدلاً، وإنّ غيره من الحيوانات خلق مكبّاً على وجهه. وقد أعطاه الله تعالى نبذةً من صفاته كالعلم والقدرة والإرادة والسّمع والبصر والكلام والرّضا والغضب وغير ذلك. وإنّ له مزايا واستعدادات لا توجد في الجنّ ولا في الملائكة، ولذلك أمر الملائكة أن يسجدوا للإنسان، فالإنسان أحسن من كلّ مخلوق. روي أنّ رجلاً حلف بالطّلاق الثّلاث أنّ زوجه أحسن من البدر، فاحتار العلماء في الفتوى بوقوع طلاقه أو عدم وقوعه. إلّا أنّ أحد العلماء أفتى بعدم وقوع طلاقه محتجّاً بأنّ الإنسان أحسن من كلّ شيء ومن القمر والشّمس أيضاً، واستدلّ بهذه الآية الّتي تقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فوافق العلماء على فتواه هذه.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾

أي رددنا الإنسان بسبب سلوكه السّيّئ وأعماله المنكرة إلى مكان أسفل وأحطّ من كلّ سافل وهو جهنّم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾

أي لكنّ الّذين آمنوا إيماناً صحيحاً وعملوا الأعمال الصّالحات أي المحبوبة إلى الله تعالى والمستحسنة حسب شريعته، فإنّهم لا يردّون إلى أسفل سافلين ولا يدخلون جهنّم بل لهم مقابل أعمالهم أجر غير مقطوع، وثواب لا ينتهي ولا يزول، وذلك بدخولهم دار الخلد ودار السّلام وهي الجنّة. هذا وأمّا من فسّر أسفل سافلين بالشّيب والهرم فغير مصيب حيث لا يصل كلّ إنسان إلى الشّيب والهرم، بل كثير منهم يموت قبل ذلك. هذا وقد مرّ تفسير هذه الآية مفصّلاً في سورة الإنشقاق إلّا أنّه من اللّازم أن نشرح الإيمان الصّحيح ونبيّن أنّ الأعمال الصّالحة ما هي، وسيأتي ذلك في سورة (العصر) إن شاء الله تعالى.

ثمّ بعدما ذكر الله تعالى الدّليل النّقلي الصّادق على أنّ الإنسان خلق في أحسن تقويم، ثمّ يردّ إلى جهنّم دار العقاب، وإنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فإنّهم يدخلون

الجنّة ويكرمون فيها. خاطب بصيغة الاستفهام الوارد للتّوبيخ والتّكدير والتّضليل فقال جلّ وعلا:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧﴾

أي بعد أن ذكرنا لك هذه الدّلائل على ثبوت الجزاء والثّواب والعقاب، وإنّ ما أوحي في هذه الأماكن على هؤلاء الأنبياء ينصّ ويشهد ويدلّ على ذلك، فما الّذي حملك أيّها الإنسان بعد كلّ ذلك على أن تكذّب (بالدّين) أي بالجزاء من الثّواب والعقاب، أي ليس لديك أي حجّة تحملك على هذا سوى الضّلال والتّعنّت والاستكبار.

ثمّ بعد ذلك انتقل الله تعالى من الدّليل النّقلي إلى الدّليل العقلي المثبت للثّواب والعقاب فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾

الاستفهام للإنكار، وإنكار النّفي إثبات فيكون المعنى: إنّ الله تعالى أحكم الحاكمين وأعلاهم وأرفعهم، وإنّ من البداهة أنّ كلّ حاكم يضع نظاماً لمن هو تحت حكمه فيكرمهم على إطاعتهم لنظامه ويعاقبهم على مخالفته والانحراف عنه، فإذا كان هذا شأن كلّ حاكم فكيف بالله تعالى وهو أحكم الحاكمين وملك الملوك، فهل يدع النّاس دون نظام وشريعة؟ كلّا، بل إنّه وضع نظاماً ويثيب المطيع له ويعاقب المنحرف والمخالف له. وحيث لا يوجد هذا الثّواب والعقاب في الدّنيا لكلّ أحد، فلابدّ من أن يأتي يوم ينفّذ فيه هذا الثّواب والعقاب بالنّسبة لكلّ أحد تحقيقاً لعدالة الله، وبهذه الطّريقة يثبت وجود يوم الجزاء ومجيئه وإنجاز الجزاء فيه. هذا ويسنّ للقارئ حينما قرأ هذه الآية أن يقول بعد سكتة: بلى ونحن على ذلك من الشّاهدين[١]، تصديقاً لما قال تعالى وإيماناً لما أخبر به والله تعالى أعلم.

---

(١) اعتمد على ما روي عن إسماعيل بن أمية قال سمعت رجلا بدويا أعرابيا يقول سمعت أبا هريرة يرويه يقول: من قرأ والتين والزيتون فقرأ أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين قال أبو عيسى هذا حديث إنما يروى بهذا الإسناد عن هذا الأعرابي عن أبي هريرة ولا يسمى. سنن الترمذي ج٥/ ص٤٤٣ الحديث رقم ٣٣٤٧.

سورة العلق

(مكيّة، وهي أوّل سورة نزلت من القرآن الكريم، وآياتها تسع عشرة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في الصّحيحين عن السيّدة عائشة (رضي الله عنها) قالت: أوّل ما بدئ به رسول الله (ﷺ) من الوحي الرّؤيا الصّادقة في النّوم. فكان لا يرى رؤياً إلّا جاءت مثل فلق الصّبح، ثمّ حبّب إليه الخلاء؛ فكان يخلو بغار حراء يتحنّث فيه اللّيالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزوّد لذلك، ثمّ يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتّى فاجأه الحقّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: إقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّني حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثّانية حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني فقال[1]:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾

أي إقرأ بقدرة ومعونة ربّك الّذي أوجد الخلق وخلق كلّ شيء، فالّذي قدّر على أن يخلق الخلق كلّه ويخلق هذه المصنوعات كلّها لقدير على أن يقرئك ويعلّمك القراءة.

ثمّ ذكر من بين المخلوقات كلّها ما هو أعجب وأشرف الموجودات وهو الإنسان فقال جلّ وعلا:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٢٠٢ الحديث رقم ٤٨٤٣.

العلق جمع علقة، وهي الدّم المتجمّد في الرّحم، سمّي بذلك لأنّها لو مسستها لعلقت بيدك، هذا وإنّ خلق الانسان يبدأ من التّراب ثمّ من النّطفة ثمّ من العلقة كما قال تعالى: ﴿فإنّا خلقناكُمْ من تُرابٍ ثمّ من نُطفةٍ ثمّ مِن علقةٍ﴾ سورة الحج الآية/ ٥.

سؤال: فلم خصّص هنا هذا الدّور من خلق الإنسان بالذّكر؟

الجواب: لأنّ الله تعالى خصّص ذكر الإنسان هنا لشرفه وتميّزه عن سائر الحيوانات، وإنّ العلقة أوّل مبدأ تميّزه من الحيوانات، فإنّ كلّاً منها يكون من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من العلقة، فيتميّز الإنسان من سائر الحيوانات حينما تتحوّل العلقة إلى المضغة الصّالحة لتصوير الإنسان منها. فالّذي خلق هذا الإنسان العجيب لقدير على أن يعلّمك القراءة.

* * *

ثمّ بعد ما ذكر وأثبت أنّ الله لقدير على أن يعلّمه القراءة، أراد أن يطمئنه على أنّه يعلّمه القراءة، فإنّ كون الله قديراً على تعليمه القراءة لا يلزم منه أن يعلّمه فلذا قال جلّ وعلا:

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾

(إقرأ وربّك الأكرم) أي إقرأ فإنّ ربّك أكرم وأكثر عطاءً من كلّ أحد، فبكرمه وجوده هذا يقرئك ويعلّمك القراءة **(الّذي علّم بالقلم)** فمن كان من كرمه أن يعلّم النّاس بهذا القلم الجامد، يعلّمك بهذا الكرم وبالملك المرسل إليك لتعليمك وهو جبريل، والملك أعلى من القلم في التّعليم. ومن كرمه أنّه:

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

(علّم الانسان مالم يعلم) فيعلّمك مالم تعلم من القراءة وغير ذلك ممّا يوحي إليك ويلقي في قلبك من العلوم والمعارف والفيوضات الإلهيّة الّتي تعجز بها النّاس وتشهد بأنّك رسول من الله تعالى، فإلى هنا أوّل ما نزل فقط.

ثمّ بعد ما ذكر الله تعالى أنّ كلّ شيء بيد الله تعالى، وأنّه هو الّذي خلق كلّ شيء وأنّ كلّ ما عند الإنسان من العلم أو المال أو القراءة أو غير ذلك كلّه من الله

تعالى، أشار تعالى إلى حال بعض من الإنسان فإنّه حينما حصل له ثروة من المال أو العلم أو القراءة أو أيّ متاع من أمتعة الدّنيا، ورأى نفسه غنيّاً ذا ثروة فإنّه يطغى ويعتقد بأنّ ذلك حصل له من عنده وبكسبه وسعيه وردّاً لزعمه هذا قال جلّ وعلا:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾

(كلّا) أي ليس كما يزعم الإنسان ولكنّ **(إنّ الإنسان ليطغى)** ويتجاوز حدّه **(أن رآه استغنى)** لأنّه علم بنفسه أنّه صار غنيّاً وذا ثروةٍ ومقدرةٍ من أيّ ناحية، فيعتقد أنّ ذلك من كسبه وسعيه، ويفتخر ويتباهى بذلك وينسى ويعصى ربّه الّذي أعطاه ما استغنى به **(إنّ إلى ربّك الرّجعى)** أي إنّ إلى ربّك الرّجعى، أي إنّ إلى ربّك يا محمّد رجوع هذا النّوع من الإنسان فينتقم منه على هذا الطّغيان، ونسيانه نعمة ربّه وشكره، ذلك المنعم الكبير **(جل جلاله)** وإنّ هذا النّوع من النّاس لكثير. وإنّ سبب نزول قوله تعالى: ﴿كلّا﴾.... إلخ السّورة، وإن كان في حقّ أبي جهل فلا يضرّ عمومه لكلّ من وجدت فيه هذه الصّفات من يومِ نزول القرآن إلى يوم القيامة، فإنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص المورد كما هو مقرّر في علم الأصول.

ثمّ أشار إلى مظهر من مظاهر طغيان الإنسان الّذي ظهر من أبي جهل حينما قال: إن رأيت محمّداً يصلّي لأطأنّ رأسه، فقال تعالى مشيراً إلى هذا الطّغيان فقال جلّ وعلا:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾

الاستفهام للتّقرير، أي قد رأيت وعلمت الّذي ينهى عبداً وهو محمّد إذا صلّى لله تعالى، ينهاه عن الصّلاة، فهذا مظهر من مظاهر الطّغيان والاستغناء بالثّروة والمال والعشيرة.

ثمّ أخبر الله تعالى بأنّ هذا الطّغيان بسبب ضلاله وعدم تقواه، فقال جلّ وعلا:

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾

أي قد علمت أنّه لو كان على الهداية والرّشد والأمر بالتّقوى لما طغى هذا الطّغيان، ولما نهى رسول الله (ﷺ) عن عبادة ربّه تعالى.

ثمّ بعد ما ذكر طغيان أبي جهل وتهديده رسول الله (ﷺ) بوطء رأسه إن رآه يصلّي، سلّى الله تعالى رسوله فقال جلّ وعلا:

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾

(أرأيت إن كذّب وتولى) أي قد علمت أنّه إن كذّب بك وتولّى عن الإيمان بك ألّا ينتقم الله تعالى منه وألّا يعاقبه، ثمّ هدّده بوعيد شديد فقال: **(ألم يعلم بأنّ الله يرى)** ما يفعل وما يقول وما يكيد ويدبّر ضدّ رسول الله وضدّ هذا الدّين، دين الله تعالى وصراطه المستقيم، ثمّ أكّد تعالى الوعيد بقوله جلّ وعلا:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾

(كلّا) أي فلينته من عمله هذا ومن كفره وكيده ضدّ الإسلام فبعزّتي **(لئن لم ينته)** عن هذه الأعمال **(لنسفعاً)** أي لنأخذنّه، **(بالنّاصية)** فنجرّه إلى نار جهنّم وبئس المصير.

ثمّ علّل جرّه بالنّاصية بقوله جلّ وعلا:

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾

أي لأنّ ناصيته كانت كاذبة مذنبة. ثمّ أعلن الله تعالى الحرب بينه وبينه فقال جلّ وعلا:

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾

أي فليناد أهل مجلسه ليدافعوا عنه فإنّهم لا يستطيعون من ذلك شيئاً لأنّا.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾

فيجرّونه ويسحبونه إلى النّار؛ فلا يستطيع أحد أن ينصره أو أن يدافع عنه أو يشفع له.

ثمّ نبّه الله تعالى رسوله على أن لا يطيعه في نهيه إيّاه عن الصّلاة فقال جلّ وعلا:

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

(**كلّا**) أي لا تهتم بنهيه ووعيده (**لا تطعه**) فيما ينهاك عنه من الصّلاة بل داوم على صلاتك (**واسجد**) لله تعالى وصلّ له (**واقترب**) منه بالصّلاة والسّجود له، فإنّه يحميك ومن كيد هؤلاء الكفرة ينجيك ولا يضرّك كيدهم شيئاً، وقد فعل ذلك حيث انتصر رسول الله (ﷺ)، وقتل أبو جهل في حرب بدر شرّ قتلة، وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ السّجود سبب للإقتراب من الله تعالى ورفعة منزلة العبد عنده، ولذا قال الرّسول (ﷺ): (أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد)[1] أو كما قال.

خاتمة: ليس أبو جهل رجلاً وجد في زمان فراح وقتل، بل إلى يوم القيامة وفي كلّ زمان يوجد آباء جهل من النّاس يمنعون المسلمين إن استطاعوا من إتّباع دين الله وتطبيق شريعة الله والعمل بكلامه والسّير وفق نظامه، إلّا أنّه يجب على المسلم أن يصمد ولا يطيعهم ويسجد لربّه ويعبده وينشر دعوته ونظامه، فبذلك يقرب من الله سبحانه وتعالى، وأنّ الله تعالى يحميه ومن شرّ هؤلاء الأشرار ينجيه. فليست هذه الآية خاصّة بما دار بين الرّسول (ﷺ) وأبي جهل ولا بزمانهما، بل هو يخبر عن ما بين الأخيار والأشرار إلى يوم القيمة من عداء سافر ووعد المؤمنين بالنّصر إن استقاموا، ووعيد للأشرار إن لم ينتهوا. فإنّ العبرة دائماً بعموم اللّفظ في الكتاب والسّنة لا بخصوص الواقعة. وسبب الورود. فبشرى لك أيّها المؤمن الصامد على عقيدة الله ويا ويلاً للمنحرف عن دين الله والتّابع لخطط الشّياطين، حفظنا الله تعالى منهم أجمعين آمين.

* * *

(١) مسند البزار ٤/ ٣٣١ الحديث رقم ١٥٢٥.

سورة القدر

(الأصحّ أنّها مكيّة، نزلت بعد سورة عبس، وهي خمس آيات)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾

(إنّا أنزلناه) أي إنّا أنزلنا القرآن في ليلة القدر، فالضّمير راجع إلى القرآن وإن لم يتقدّم ذكره وذلك للعلم به، فإنّه المنزّل على رسول الله (ﷺ)، وكذلك إنّ هذه السّورة نزلت بعد (سورة عبس) وقد ذكر فيها القرآن في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾.

ووقعت بعد سورة العلق في المصحف، وقد ذكر فيها القرآن ضمناً لأنّ المراد بالمقروء في قوله: إقرأ، هو القرآن، **(في ليلة القدر)** القدر بمعنى: التّقدير، سمّيت ليلة القدر لأنّه فيها يقدّر الله تعالى ما يجري في هذه السّنة إلى مثل هذه اللّيلة من السّنة القادمة، وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿إنّا أنزلناه في ليلةٍ مباركةٍ ...حكيم﴾ سورة الدخان الآيتان/ ٣، ٤. قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) في تفسير هذه الآية: أي يحكم الله تعالى أمر الدّنيا إلى قابل في ليلة القدر، ومعنى تقديره لذلك إعلامه الملائكة ليقوموا به، وإلّا فكلّ شيء مقدّر في الأزل في علمه تعالى. فاللّيلة المباركة هذه هي وليلة القدر سواء، ومن الباطل ما فسّر بعض المفسّرين اللّيلة المباركة بليلة النّصف من شعبان معتمداً على بعض الأحاديث الّتي تشعر بذلك، وإنّ هذه الأحاديث كلّها ضعيفة لا يجوز الاعتماد عليها، فإنّه لو كان كما يقولون لوقع التّناقض في القرآن، إذ يخبر في هذه السّورة بأنّ القرآن أنزل في ليلة القدر وليلة القدر يجب أن يكون في رمضان بدليل قوله تعالى في

سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٨٥. فلو حملنا اللّيلة المباركة على ليلة النّصف من شعبان للزم أن يكون إنزال القرآن في شعبان، فيكون متناقضاً مع ما في سورة البقرة، ومن العجيب أنّ بعض التّفاسير قد مشى على ما يوجب هذا التّناقض بدون تفكير وتحقيق في الأمر، وقد ذكر للقدر معان أخرى كثيرة كلّها في الحقيقة ترجع إلى هذا المعنى، فهذا المعنى هو الحقّ. هذا وإنّ ليلة القدر كما ذكرنا ليلة من رمضان بدليل آية البقرة السّابقة، وبدليل أحاديث كثيرة وردت في بيان وقتها وبيان فضلها نذكر بعضاً منها.

أمّا ما ورد في بيان وقتها: قال في كتاب (التّاج الجامع للأصول في أحاديث الرّسول) عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: كان النّبيّ (ﷺ) يجاور (أي يعتكف) في العشر الأواخر من رمضان، ويقول: تحرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان (رواه الشّيخان والتّرمذي)[١] وفي نفس المرجع، وقال ابن عمر(رضي الله عنهما): أنّ رجالاً من أصحاب النّبيّ أروا ليلة القدر في المنام في السّبع الأواخر فقال رسول الله (ﷺ): أرى رؤياكم قد تواطأت في السّبع الأواخر (رواه الخمسة إلّا التّرمذي)[٢] وأيضاً عن عائشة (رضي الله عنها) أنّ رسول الله (ﷺ) قال: تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان (رواه الشّيخان والتّرمذي)[٣].

وتوجد أحاديث كثيرة غير ما كتبنا، وفي ما كتبنا كفاية سيّما وإنّه لو لم يكن أيّ حديث من هذا الباب لكفى آية البقرة للعلم بأنّ ليلة القدر في رمضان وذلك بانضمامها إلى سورة القدر، وتكفي أيضاً للنّص على تفسير اللّيلة المباركة في آية الدّخان بليلة من ليالي رمضان وهي ليلة القدر، إلّا أنّ التّقليد الأعمى والاعتماد على كلّ ما روي أو كتب دون التّحقيق لمن أكبر المهالك والأسباب الموقّعة للنّاس في الخطأ المبين. وأمّا ما ورد من فضائل في ليلة القدر. قال في كتاب (التّاج) عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن

(١) صحيح البخاري ٢/ ٧١٠ الحديث رقم١٩١٦، صحيح مسلم ٢/ ٨٢٣ الحديث رقم١١٦٥،سنن الترمذي ٣/ ١٥٨ الحديث رقم ٧٩٢.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٧٠٩ الحديث رقم١٩١١، صحيح مسلم ٢/ ٨٢٢ الحديث رقم ١١٦٥، سنن النسائي ٢/ ٢٧٢ الحديث رقم ٣٣٩٨.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٧١٠ الحديث رقم١٩١٣. صحيح مسلم ٢/ ٨٢٨ الحديث رقم ١١٦٩ وليس فيه في الوتر. سنن الترمذي ٣/ ١٥٨ الحديث رقم ٧٩٢.وليس فيه في الوتر.

النّبيّ (ﷺ) قال: (من قام ليلة القدر إيماناً وإحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[١]، وروي في هذا الباب أيضاً أحاديث كثيرة إكتفينا بهذا الحديث خوف الإطالة. ولأنّه يكفي في فضل هذه اللّيلة ما قال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾﴾

الاستفهام للتّعظيم، وكأنّ ليلة القدر لعظم فضلها حتّى الرّسول (ﷺ) لا يدري مقدار عظمها حقيقةً. ثمّ بيّن الله تعالى فضلها فقال جلّ وعلا:

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾

أي العبادة في ليلة القدر خير من العبادة في ألف شهر ليس فيه ليلة القدر، فليلة القدر أفضل من ألف شهر وأعطيت هذه اللّيلة لأمّة محمّد (ﷺ) خاصّة كما صرّح بذلك ما رواه (التّاج) عن الإمام مالك عن النّبيّ (ﷺ) أنّه أري أعمار النّاس قبله أو ما شاء الله من ذلك، فكأنّه تقاصر أعمار أمّته ألّا يبلغوا من العمل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله أي له ولأمته ليلة القدر خير من ألف شهر[٢].

ثمّ وصف الله تعالى بركات هذه اللّيلة وفيوضاتها وما فتح تعالى لأمّة محمّد (ﷺ) في هذه اللّيلة من الخير، فقال جلّ وعلا:

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾

(تنزّل الملائكة والرّوح فيها) أي تتنزّل الملائكة وتأتي من السّماء إلى الأرض، ويأتي جبريل معهم في هذه اللّيلة ليعبدوا ويصلوا ويسجدوا مع المسلمين، وليؤمنوا على دعواتهم في هذه اللّيلة ونزولهم **(بإذن ربّهم)** فالله يأذن لهم في ذلك النّزول والإجتماع بالمسلمين في العبادة **(من كلّ أمر)** في معنى هذه الفقرة من الآية الكريمة ذهب المفسّرون مذاهب شتّى وتكلّموا فيها معاني كثيرة لم استطع أن اختار ممّا رأيت شيئاً. والّذي أرى أنّ المعنى هو: منقطعين من كلّ أمر وشغل سوى العبادة في هذه اللّيلة مع

(١) صحيح البخاري ٢/ ٦٧٢ الحديث رقم ١٨٠٢،

(٢) موطأ الإمام مالك ١/ ٣٢١ الحديث رقم ٦٩٨.

المسلمين كما يؤذن بذلك قوله: بإذن ربّهم، فإنّ الّذي يأخذ الإجازة لمدّة معيّنة يترك في تلك المدّة الأشغال المنابة إليه ويشتغل بأشغال يريده هو غير أشغاله الرّسمية.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾

(سلام) أي رحمة هذه اللّيلة وبركات من الله تعالى تنزل على من إشتغل بعبادته وأناب إليه ودعاه في خلوته أو جلوته، وعبده حسب طاقته وقوّته، وتدوم هذه الرّحمة حتّى مطلع الفجر. وإنّ رحمة الله تعالى وإن كانت موجودة في كلّ الأوقات إلّا أنّها في ليلة القدر رحمة خاصّة غير ما في سائر الأوقات والله تعالى أعلم.

تتمة: أخفيت ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان ليحيي المسلم اللّيالي العشر كلّها كما أخفى كثير من الأشياء لهذه الحكمة مثل:

الأوّل: أخفيت ساعة الإجابة في يوم الجمعة ليشتغل المسلم بالعبادة والدّعاء يوم الجمعة كلّه.

الثّاني: أخفى العمل الّذي ينجو به المسلم من الأعمال الصّالحات ليعمل المسلم الأعمال الصّالحة كلّها.

الثّالث: أخفى العمل الّذي يهلك به المسلم من بين الأعمال المحرّمة ليجتنب المسلم كلّ عمل محرّم.

* * *

رزقنا الله تعالى بركات ليلة القدر ونيل شرف ساعة الإجابة يوم الجمعة وأداء العمل المنجي والاجتناب عن الخصلة المهلكة وحفّنا برحمته وأدخلنا في جنّته آمين. والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على النّبيّ محمّد وآله أجمعين إلى يوم الدّين.

سورة البيّنة

(مدنيّة، نزلت بعد الطّلاق وآياتها ثمان)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾

إعلم أنّ أهل الكتاب وهم اليهود والنّصارى كانوا قبل بعثة رسول الله (ﷺ) يؤمنون بمجيء محمّد (ﷺ) وكانوا يؤمنون به حسب صفاته الموجودة في التّوراة والإنجيل، وحسب ما أخبر به كتبهم وأحبارهم ورهبانهم، كمال قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٤٦. والمعنى إنّ الّذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنّصارى يعرفون محمّداً بأنّه هو النّبيّ الموعود والموصوف في التّوراة والإنجيل، وإنّ جماعة منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون، فلا يؤمنون به بغياً وظلماً واستكباراً وعناداً. سئل عبدالله بن سلام (رضي الله عنه) عن هذه الآية وكان من كبار أحبار اليهود وأسلم. فقال: والله إنّي لأعرفه أكثر من إبني، لأنّ إبني يحتمل أنّ أمّه خانتني فليس هو إبني. ولكنّ الصّفات والعلامات الموجودة في رسول الله (ﷺ) لا تحتمل التّخلّف أبداً عمّا هو مكتوب في التّوراة. وكانت أمّ المؤمنين صفيّة بنت حيىء بن أخطب رئيس بنى النّضير من اليهود في المدينة تقول: كان أبي وعمّي يحبّاني كثيراً، فكانا لا يرياني أحد منهما إلّا أخذني وضمّني إلى صدره وقبّلني. فحينما سمعنا بقدوم رسول الله (ﷺ) إلى قبا وانتشر خبره بين النّاس. كان النّاس يذهبون إليه جماعات وفرادى، فرأيت أبي وعمّي انطلقا

صباحاً إلى قبا ولم يرجعا إلى أن جاء وقت العصر، فلمّا قدما ذهبت ووقفت أمامهما فلم يلتفت أحد منهما إليّ، ورأيتهما كأنّهما يميلان يميناً وشمالاً من التّعب، فسمعت عمّي يقول لأبي: أليس هو هو، أي أليس محمّد هو الموصوف في التّوراة؟ قال: بلى، قال له: فما رأيك؟ قال: والله أعاديه حتّى أموت. وأيضاً كان بين الأوس والخزرج ويهود المدينة أيّام وحروب فكانت اليهود تقول لأعدائهم المشركين وهم الأوس والخزرج: قد أظلّ زمان نبيّ يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. وفي رواية كانوا إذا داهمهم عدوّ يقولون: اللّهم انصرنا بالنّبيّ المبعوث آخر الزّمان الّذي نجد صفته في التّوراة. فكانوا ينصرون. وهذا ما أخبر الله تعالى به فقال وعزّ من قائل: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٨٩. وكذلك كان النّصارى يؤمنون به حسب ما رأوا من صفاته الموجودة في الإنجيل والتّوراة، وحسبما أخبرهم سيّدنا عيسى (ﷺ) كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سورة الصّف الآية/ ٦. وكذلك كان مشركو مكّة يعلمون ويؤمنون بمجيء هذا النّبيّ حسب ما بقي فيهم بقيّة من دين سيّدنا ابراهيم وسيّدنا اسماعيل (على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام) وأنّهما دعوا من الله تعالى وقالا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٢٩. وكانوا أيضاً يسمعون ذلك من أحبار اليهود حيث كان بينهم تزاور وصلة لأنّ طريق تجارتهم إلى الشّام كانت تمرّ بالمدينة وكانوا ينزلون عليهم. ولذلك حينما بدأ الرّسول بالوحي ورجع إلى السّيدة خديجة منتقعاً لونه خائفاً قالت له خديجة: أرجو أن تكون نبيّ هذه الأمّة. وكذلك قال له ورقة بن نوفل حينما قصّ عليه ما رأى في غار حراء. فتبيّن ممّا ذكرنا سابقاً أنّ أهل الكتاب من اليهود والنّصارى كانوا متّفقين مع المشركين ومؤمنين بهذا النّبيّ وبمجيئه وبصفاته الّتي كانت تشخّصه والّتي كانت موجودة في التّوراة والإنجيل، فلم يكونوا منفكّين عن هذا الإيمان حتّى جاءهم الرّسول (ﷺ) بالبيّنة الباهرة والصّفات الّتي كانت تطابق ما في التّوراة والإنجيل. فلمّا جاءهم كفروا به بغياً وحسداً واستكباراً وعتوّاً. فمعنى الآية لم يكن الّذين كفروا بمحمّد من أهل الكتاب والمشركين منفكّين عن الإيمان بمحمّد (ﷺ) **(حتّى تأتيهم البيّنة)** أي حتّى أتتهم الحجّة

الواضحة والبرهان السّاطع وهو محمّد (ﷺ) الّذي جاء بصفاته المثبتة في التّوراة والإنجيل، وبالمعجزات الباهرة وبالقرآن الّذي هو أكبر معجزة وأكبر بيّنة على نبوّته ورسالته.

ثمّ فسّر الله تعالى البيّنة الّتي أتتهم فقال جلّ وعلا:

﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾

فبيّن الله تعالى أنّ البيّنة الّتي أتتهم هي: **(رسول من الله)** وهو محمّد (ﷺ) **(يتلو)** عليهم **(صحفاً مطهّرة)** خالية من اللّغو والباطل ومن تدخل الشّياطين فيها مثل ما كانوا يتدخّلون في أخبار الكهنة والسّاحرين **(فيها)** أي في تلك الصّحف **(كتب قيّمة)** أي أحكام مستقيمة عادلة وأخبار صادقة ودلائل واضحة تدلّ كلّ ذلك على أنّها من الله تعالى وليست من البشر ولا من الجنّ.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾

(وما تفرق الّذين أوتوا الكتاب) فيما بينهم وهم اليهود والنّصارى، فآمن بعضهم بمحمّد وكفر بعضهم به، لم يتفرّقوا هذه التّفرقة **(إلّا من بعد ما جاءتهم البيّنة)** أي إلّا من بعد ما جاءتهم الحجّة الواضحة على أنّ محمّداً هو الّذي أخذ عليهم العهد في التّوراة والإنجيل على أن يؤمنوا به وينصروه ويعزّروه كما ذكر الله تعالى هذا العهد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٨١.

ذكر الله تعالى أوّلاً تفرّقهم مع المشركين، وذكر هنا أيضاً لبيان تفرّقهم فيما بينهم، فإنّ منهم من آمن بمحمّد (ﷺ) ومنهم من كفر به وليربط به قوله جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾

(وما أمروا إلّا ليعبدوا الله) أي وما أمروا في دين محمّد (ﷺ) بشيء غريب بل

أمروا بما هو من صميم دينهم وهو أن يعبدوا الله وحده **(مخلصين له الدّين)** فلا يشركوا به شيئاً في العبادات **(حنفاء)** أي مائلين عن الباطل إلى الحقّ وعن الشّرك إلى التّوحيد ومن الضّلال إلى الصّراط المستقيم، وأن يقيموا الصّلاة ويعطوا الزّكاة **(وذلك)** الّذي أمروا به هو **(دين القيّمة)** أي دين الملّة القيّمة المستقيمة على الحقّ والمجتنبة عن الباطل، أو المعنى هو دين الكتب القيّمة السّابقة، فكان من الواجب عليهم أن يتسابقوا إلى الإيمان به حيث إنّهم أهل كتاب وعلم. فكانوا يعلمون حقيّة ما يدعو إليه الرّسول (ﷺ) وحقيّة رسالته، وإنّ ما يدعو إليه ليس غريباً بل هو من صميم دينهم، وممّا يدعو إليه التّوراة والإنجيل، إلّا أنّ الحسد يعمي ويصمّ، فلم يؤمنوا؛ لذلك فباؤوا بغضب من الله تعالى كما قال فيهم ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٩٠.

أو نقول: أريد بتفرّقهم هنا تفرّقهم في دينهم وانحرافهم عنه بعد ما جاءتهم أنبياؤهم بالبيّنات وبيّنوا لهم كلّ شيء وأوضحوا لهم، فبعدما جاءتهم البيّنة هذه تفرّقوا واختلفوا وانحرفوا عمّا جاء به أنبياؤهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٠٥.

ثمّ بعدما ذكر الله تعالى حال أهل الكتاب والمشركين من الضّلال والكفر والإنفكاك عن الحقّ الّذي كانوا يعترفون به، ذكر الله تعالى ما أعدّ لهم مقابل ذلك من العذاب يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾

(إنّ الّذين كفروا) أي إنّ الّذين كفروا بمحمّد (ﷺ) وبما جاء به محمّد (ﷺ) من الإسلام سواء كانوا **(من أهل الكتاب)** أو من المشركين كلّهم في نار جهنّم يوم القيامة خالدين مؤبّدين فيها **(أولئك)** الّذين كفروا بالإسلام وبرسوله **(هم شرّ البريّة)** أي شرّ من كلّ المخلوقات، فهم شرّ من الأنعام قال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلا﴾ سورة الفرقان الآية/ ٤٤. لأنّ الأنعام لم تكلّف بدين ولا أحكام ولم يوهب لها العقل الّذي هو مدار التّكليف، ولكنّ هؤلاء وهبهم الله تعالى العقل وكلّفهم حسب عقولهم فانحرفوا وضلّوا وعملوا ما يخالف العقل والوجدان والضّمير. ونبّههم الله تعالى بإرسال الرّسل والشّرائع فلم ينتبهوا، أو انتبهوا إلّا أنّهم خالفوا ولم يؤمنوا بغياً وعتوّاً واستكباراً، فهم إذاً شرّ من الأنعام وأضلّ سبيلاً. وكذلك هم شرّ من كلّ دابةٍ تدبّ على الأرض لنفس العلّة والسّبب الّذي ذكر في شريتهم من الأنعام قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأنفال الآية/ ٥٥. ولا ينافي هذا ما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ سورة الاسراء الآية/ ٧٠. لأنّ المراد بالتّكريم والتّفضيل في هذه الآية هو تكريم الله تعالى وتفضيله بني آدم بإنعامه عليه هذه النّعم، فحينما لم يقابل الإنسان هذه النّعم وهذا التّكريم والتّفضيل بالشّكر لله تعالى والإيمان به وبرسله وباتّباع شريعته، فيكون شرّ خلق الله تعالى في الآخرة وعند الله تعالى، وأمّا من شكر الله تعالى على هذه النّعم وهذا التّفضيل والتّكريم فآمن به وبرسوله واتّبع شريعته ونفّذ أوامره، فيكون خير خلق الله تعالى كلّهم كما كما قال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧﴾

(إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات) فالمؤمن المستقيم على إيمانه والعامل بأمر الله تعالى والتّابع لشريعته هو **(خير البريّة)** أي خير من كلّ ما خلقه الله تعالى. لأنّ البريّة أصلها: بريئة، فعيلة بمعنى مفعولة، أي مبروءة مشتقّة من بريء، أي خلق، ومنه اشتقّ البارىء اسماً لله تعالى أي الخالق، فيدخل في البريّة كلّ ما خلقه الله تعالى، فتفيد الآية: أنّ المؤمن الصّالح أفضل من الملائكة لأنّ الملائكة داخلة فيما خلقه الله تعالى أيضاً، وهذا هو الحقّ، فإنّ مذهب أهل الحقّ والسّنة والجماعة أنّ رسل البشر أفضل من رسل الملائكة، ورسل الملائكة أفضل من عامّة البشر، وعامّة البشر أفضل من عامتهم، هذا وقد حقّقنا هذه المسألة بأدلّتها في رسالتنا (القول المنصف في تفسير سورة يوسف) عند قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ سورة يوسف الآية/ ٣١.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى خيريّة المؤمنين العاملين للصّالحات من كلّ المخلوقات، أراد أن يذكر ما أعدّ لهم من الثّواب يوم القيامة، فقال جلّ وعلا:

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

(جزاؤهم) أي جزاء هؤلاء المؤمنين **(عند ربّهم)** أي يوم القيامة **(جنّات)** أي بساتين **(عدنٍ)** والعدن بمعنى الإقامة، أضيفت الجنّات إليها لأنّ من دخلها أقام فيها ولا يخرج منها. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ سورة الكهف الآيتان/ ١٠٧، ١٠٨. فهناك إقامة دون ارتحال وبقاء دون إنزال وحياة دون موت **(تجري من تحتها)** أي من تحت أشجارها **(الأنهار)** الجداول لتستقي منها دون أن يتعب المؤمن في سقيها، أو المراد بالأنهار نهر العسل ونهر اللّبن، أو المراد المعنيين، حيث لا تضادّ بينهما ولا مانع من إرادتهما **(خالدين فيها)** أي مقدّراً خلودهم فيها أي في الجنّات، فخالدين: **حال** من هم في قوله تعالى: **(جزاؤهم عند ربّهم جنّات عدن ... إلخ)** لأنّه في المعنى نائب الفاعل إذاً التّقدير: يجزون عند ربّهم. وحيث إنّ زمان الجزاء غير زمان الخلود ويجب في الحال أن يتّحد زمان الفعل والحال، فلذا يقال المعنى: يجزون جنّات مقدّراً خلودهم فيها، فزمان الجزاء وتقدير الخلود واحد، وبذلك صحّ أن يكون خالدين: حالاً، ويقال لمثل هذا الحال: الحال المقدّرة. **(أبداً)** أي إلى الأبد، والأبد معناه لا نهاية له أي مؤبّدين فيها لا نهاية لخلودهم ومكثهم فيها. وعلّل الله تعالى هذا الجزاء فكأنّه قيل: ولماذا جزاهم الله تعالى هذا الجزاء؟ فقال تعالى: **(رضي الله عنهم)** أي لأنّ الله تعالى رضي عنهم بسبب إيمانهم الصّحيح الكامل والأعمال الصّالحات الّتي قاموا بهذا، فلذلك أنعم عليهم بهذا الثّواب الجزيل **(ورضوا عنه)** أي ورضي المؤمنون عن الله تعالى بسبب هذا الجزاء والتّكريم **(ذلك)** أي إنّ هذا الجزاء وهذه الدّرجة لمن؟ فقال تعالى: **(لمن خشي ربّه)** فأطاعه وما عصى، وإن أخطأ أو جهل تاب إليه وتضرّع واستغفر ودعا حيث آمن بكتابه وخاف من عقابه وترجّى جميل ثوابه.

جعلنا الله تعالى منهم أجمعين، برحمته وهو أرحم الرّاحمين، وصلّى الله تعالى على المولى محمّد وعلى آله وأصحابه وأمّته أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

سورة الزّلزلة

(مدنيّة، نزلت بعد النّساء، وآياتها ثمان)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾

أي إذا حرّكت الأرض الحركة الشّديدة الّتي تليق بها، وهي الإضطراب الّذي يحدث في الأرض عند النّفخة الثّانية الّتي يكون عندها إحياء الأموات وخروجهم من قبورهم كما قال جلّ وعلا:

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾

أي إذا اخرجت الأرض ولفظت الأثقال الّتي دفنت فيها من الأموات والكنوز.

﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾

(وقال الإنسان) أي وقال الإنسان من الدّهشة الّتي تصيبه والحيرة الّتي تستولي عليه **(مالها)** أيّ شيء حدث للأرض فإضطربت هذه الإضطرابة الشّديدة ولفظتنا من بطنها.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾

(يومئذٍ) بدل من إذا زلزلت أي يوم (إذا زلزلت الأرض زلزالها واخرجت...إلخ) فالعامل في إذا زلزلت وفي يومئذ قوله: تحدّث أي في ذلك الوقت أي وقت أن زلزلت الأرض زلزالها واخرجت أثقالها وسأل الإنسان مالها، تحدّث الأرض أي تتكلّم وتنطق

وتحكي أخبارها الّتي وقعت على ظهرها، فتشهد على كلّ إنسان بما عمل عليها من خير أو شرّ، وهنا كأنّ قائلاً يقول: كيف تتكلّم الأرض وهي جماد؟ فيقول جلّ وعلا:

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾

أي تتكلّم بسبب أنّ ربّك أنطقها وأمرها بالإخبار عن هذه الحوادث الّتي عملت عليها، وهذه من معجزة القرآن، فإنّه قد أخبر قبل أربعة عشر قرناً بأنّ الأرض تتكلّم وهي جماد، ويأتي العلم الحديث ويثبت في الآونة الأخيرة جدّاً بأنّ كلّ شيء يتكلّم، وقد صدق العلم القرآن الكريم حينما يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ سورة الكهف الآية/ ١٠٧، ١٠٨. فأثبت كلّ شيء له كلام يتكلّم بعضه مع بعض، هذا وإنّ لكلمة الوحي عشرة معان ذكرناها في تفسير سورة يوسف منها الإنطاق كما هنا.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾

(يومئذٍ يصدر النّاس أشتاتاً) أي في ذلك الوقت يخرج النّاس ويذهبون إلى الموقف جماعات متفرّقة حسب العقيدة والعمل، فمنهم راكب ومنهم ماش ومنهم أسود الوجه ومنهم أبيض ومنهم كافر ومنهم مؤمن ومنهم منافق ومنهم عاص ومنهم مطيع **(ليروا أعمالهم)** أي يذهبون إلى الموقف ليعرض عليهم أعمالهم.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾

(فمن يعمل مثقال ذرّة) أي فمن يعمل بقدر أصغر ما يكون الشّيء وقد كان يعبّر عنه بمثقال ذرّةٍ ويعبّر عنه أيضاً بالجزء الّذي لا يتجزّأ لصغره وهو الّذي لا ينقسم ولا يرى إلّا بالميكروسكوب **(خيراً)** أي من الخير **(يره)** ويطلع عليه مسجلاً له في دفتر أعماله ولا ينقص منه شيء. **(ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره)** فلا يترك من شرّه شيء بل يسجّل عليه كلّ ما عمل من شرّ ويراه ويطّلع عليه في ذلك اليوم في سجلّ أعماله دون زيادة أو نقصان، وهذه هي مرحلة عرض الأعمال وليست مرحلة الحساب والوزن والجزاء حتّى يقال: إنّ معناه يرى جزاءه إن خيراً فثواب جزيل وان شرّاً فعذاب وبيل،

ثمّ تأتي بعد هذه المرحلة الوزن والحساب، فأمّا الكافر فلا حساب له ولا يوضع ميزان، وإنّما يعرض عليه أعماله الخيريّة للتّحسّر فقط حيث إنّ له أعمالاً حسنة لو كان مؤمناً لاستفاد منها إلّا أنّه حرم من الاستفادة منها لكفره وعدم إيمانه، فيزيد بذلك حسرته ويزداد حزنه وندامته، وقد ثبت ما قلنا في آيات كثيرة لا خفاء فيها ولا غموض.

١- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ سورة الكهف الآية/ ١٠٥، ١٠٦.

٢- وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سورة آل عمران الآيتان/ ١١٦، ١١٧.

٣- قال تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ سورة الفرقان الآية/ ٢٣.

والآيات الّتي تصرّح بذلك كثيرة، ومن العجب أنّ بعض المفسّرين مثل الشّيخ محمّد عبده ومن سار على نهجه (رحمهم الله تعالى) أوّلوا هذه الآيات كلّها لبعض أخبار لا قطع بصحّتها، وإنّ صحّت فهي من خبر الآحاد ولا يمكن معارضة القرآن بها، فتؤوّل هذه الآيات القطعيّة لها، وما أدري ما الّذي حملهم على تأويل هذه الآيات وإثبات الثّواب للكافرين في الدّار الآخرة مخالفين لكلّ المفسّرين، فإن حملهم على هذا التّرحّم بالإنسان فالله أرحم، وإنّ حملهم العدل فالله اعدل، والعدل يقضي بحرمانهم حيث لم يعملوا لله ولا لذلك اليوم، فيجب الوقوف عندما نطق به القرآن الكريم وعندما يحكم الله الحكيم. وأمّا المؤمنون فبعد هذه المرحلة وعرض الأعمال يوضع لهم الميزان فإن زادت حسناتهم سيئاتهم أو ساوتها فلهم الجنّة دون عذاب، وإن نقصت حسناتهم سيئاتهم فيساقون إلى النّار إلى أن يتطهّروا من هذه السّيئات فيخرجون منها إلى الجنّة، فلا مؤمن يكون مخلّداً في النّار وإنّما الخلود للكافرين، وهذا مصداق قوله (ﷺ): (من قال لا إله إلّا الله دخل الجنّة)[1] أي إن آجلاً أو عاجلاً، وهذا حسب

---

(١) المستدرك على الصحيحين٤/ ٢٧٩ الحديث رقم٧٦٣٨.

قاعدة عدل الله تعالى، وأمّا العفو عن بعضٍ ومحو خطاياهم دون سبب أو بشفاعة نبيّ أو وليّ أو صالح فهو داخل في قاعدة الفضل، ولله أن يعمل بعدله أو بفضله وهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

سورة العاديات

(مكيّة، نزلت بعد العصر وآياتها إحدى عشرة)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾

أقسم الله تعالى بالمطايا من الخيل والبغال والحمير والإبل الّتي تعدو أي تسرع في مشيها فتضبح ضبحاً. والضّبح هو الصّوت الّذي يخرج من صدر المطيّة عند السّرعة في المشي.

﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢﴾

(فالموريات) أي الّتي توري أي تشعل النّار حينما تسرع في المشي فتقدح لما تضرب بحوافرها الأحجار والحصى **(قدحاً)** ضرباً شديداً فتخرج من بين الحوافر والأحجار نار من شدّة الاحتكاك.

﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣﴾

(فالمغيرات) أي الّتي تسرع في المشي **(صبحاً)** وقت الصّباح؛ لأنّ أكثر الأسفار تبدأ بها وتسرع في المشي فيها في وقت السّحر.

﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤﴾

(فأثرن به نقعاً) أي فتركن وراءهن بشدّة العدوّ **(نقعاً)** غباراً.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾

(فوسطن به جمعاً) أي فوقعن بهذا العدو السّريع وسط جمع من العدوّ عند الجهاد أو وسط جمع من الأقوام عند التّجارة والسّير وراء الكسب وتحصيل الأرزاق. أقسم الله تعالى بهذه الأشياء على قوله جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾

(إنّ الإنسان لربّه لكنود) أي إنّ الإنسان بنعم ربّه لكفور وجحود، أي غير شاكر لهذا، هذا في الظّاهر إلّا أنّه في الحقيقة استدل الله تعالى واحتج بهذه الأشياء على كفران الإنسان لنعم الله تعالى وعدم شكره عليها فكأنّه قال تعالى: إنّ خلق الله تعالى لهذه الدّواب الّتي تسير بالإنسان فتعدو في الصّباح المبكّر، حيث شاء ركبها فيتركن وراءهن من سرعة السّير غباراً فيدخلن بهذا العدو جمعاً من النّاس للجهاد أو للتّجارة أو غير ذلك من حوائج الإنسان، فخلق الله تعالى لتلك الدّواب وهي من النّعم الّتي أنعم بها على عباده مع انحراف النّاس عن دينه وابتعادهم عن شريعته وخوضهم في المعاصي، يشهد ويدلّ على أنّ الانسان لكنود أي لكفور غير شاكر لنعم الله تعالى، وإنّ الإنسان نفسه يشهد بذلك، فإنّ الشّكر عبارة عن استعمال نعم الله تعالى فيما أباح له أن يستعملها فيه، وإنّ الكفران هو استعمال النّعم فيما حرّم تعالى أن تستعمل فيه، وأكثر ما يستعمل الإنسان ما وهبه الله تعالى من المال والقوّة وغير ذلك ممّا لا يحصى من النّعم هو في غير ما أحلّ الله تعالى أن يستعملها فيه، وسبب ذلك كلّه هو حبّ الدّنيا والجاه والمال كما قال جلّ وعلا:

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾

أي إنّه لحبّ المال لشديد حرصه؛ فيرتكب المحرّمات ويصرف نعم الله تعالى في غير ما وهبت هي له، كلّ ذلك لأجل حبّ المال وحبّ الجاه، وكلّ ذلك من الدّنيا، فقد صدق من قال: (حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة).

ثمّ زجره الله تعالى على هذا الحبّ المفرط والّذي يسوقه إلى الشّرّ ووبّخه من عاقبة ذلك مستفهماً استفهام توبيخ وتنكيل وتضليل، فقال جلّ وعلا:

﴿۞أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ﴿١١﴾﴾

(أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور) أي ألا يعلم أنّه إذا بعث وأحيى من في القبور من الأموات **(وحصّل ما في الصّدور)** أي كشف ما في الصّدور من الأعمال والعقائد والنّيّات **(إنّ ربّهم بهم يومئذٍ لخبير)** أي إنّ ربّهم لخبير بأعمالهم وعقائدهم ونيّاتهم وسرّهم وعلانيّتهم، فيجازيهم على ذلك ويعاقبهم على كفرانهم لنعم الله وانحرافهم عن منهج الله تعالى، خصّص الله تعالى خبيريّته بهم في ذلك اليوم مع أنّه خبير بهم في كلّ وقت لأنّ الإخبار بالخبيريّة ليس معناه أنّه خبير، بل المراد يجازيهم ويعاقبهم حسب خبيريّته، وذلك الجزاء في ذلك اليوم لا في الدّنيا. فأمثال هذه الآيات وعد للمؤمنين بأنّ الله تعالى سيثيبهم حسب علمه بأعمالهم الّتي لا تخفى عليه شيء منها، أو لأنّه في ذلك اليوم يعترف كلّ إنسان بخبيريّته ولكن في الدّنيا ليس كذلك، فإنّه يوجد من النّاس من لا يؤمن به فضلاً عن أن يؤمن بخبيريّته. أو أريد المعنيان كلاهما حيث لا تنافي بينهما والله تعالى أعلم.

سورة القارعة

(مكيّة، نزلت بعد قريش وآياتها إحدى عشرة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ (١) مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ (٥)﴾

(القارعة ما القارعة) القرع: الصّوت الشّديد لأنّه يقرع أي يضرب الآذان ويؤلمها، فالقارعة هي الحادثة الّتي تقرع الآذان، وهي صوت حدوث القيامة، والتّاء إمّا للاسميّة أو لأنّها صفة الصّيحة الّتي ينهدم بها الكون ويموت بها كلّ ذي روح، فالقارعة مبتدأ وما مبتدأ ثان، والقارعة خبره والجملة خبر للقارعة فالمعنى: القارعة ما هي وضع المظهر موضع المضمر لشدّة الإهتمام، وهذا الاستفهام للتّهويل والتّعظيم، فالمعنى القارعة شيء عظيم وهائل جدّاً ثمّ قال: **(وما أدراك ما القارعة)** لزيادة التّهويل أي ما الّذي أعلمك أيّها المخاطب، ما هي القارعة إنّها ليس ممّا يدري كنهه إلّا من وجده ووقع فيه. ثمّ بيّنه الله لا بكنهه بل ببعض ما يقع فيه فقال: **(يوم يكون النّاس كالفراش المبثوث)** أي كالفراش المتفرّق المنتشر من الحيرة والدّهشة لا يدري أين يذهب؟ وأين يأوي؟ وأين مصيره؟ وأين مستقرّه؟ **(وتكون الجبال كالعهن المنفوش)** أي كالقطن أو الصّوف المندوف يذرّ بها الرّياح فتزول وتصير هباءً منثوراً.

ثمّ بعدما ذكر الله تعالى شدّة ذلك اليوم كأنّ سائلاً يسأل: فماذا يكون مصير النّاس وقتئذ؟ فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

أي يكون النّاس قسمين: قسم ميزانه ثقيل بالإيمان والأعمال الصّالحات، وقسم ميزانه خفيف منها **(فأمّا من ثقلت موازينه)** بالأعمال الصّالحات والإيمان **(فهو في عيشةٍ راضيةٍ)** أي في حياةٍ ومعيشةٍ راض منها صاحبها أسندت الرّضا إلى العيشة مع أنّه صفة صاحبها مجازاً، أو المعنى أنّ العيشة راضية منه لما كان له من حسن الأعمال ومحامد الخصال، فالعيشة تعتزّ به لا هو يعتزّ بالعيشة كما يقال: إنّ الإمارة تعتز بفلان وليس فلان يعتزّ بالإمارة، فإنّ المؤمن لا يعتزّ إلّا برضا الله تعالى، وأمّا العيشة فهي من الأمور الثّانوية، فلمّا ذكر الله تعالى حال القسم الأوّل أتبعه بذكر حال القسم الثّاني فقال: **(وأمّا من خفّت موازينه)** أي أمّا الّذين خفّت موازينهم من العمل الصّالح بأن رجحت سيّئاتهم حسناتهم **(فأمّه)** أي مرجعه والمكان الّذي يقصده ويرجع إليه هي **(هاوية)** فالأم بمعنى المرجع والمقصود وسمّيت الوالدة **أمّاً** لأنّ الولد يرجع إليها ويقصدها ويسكن إليها. ثمّ بيّن أنّ الهاوية ما هي فقال: **(وما أدرك ماهية)** أي ما الّذي أعلمك أيّها المخاطب ما هي الهاوية؟ أي إنّك لم تعلم ذلك، فنحن نخبرك بأنّ الهاوية هي **(نار حامية)** أي نار حارّة، وصفت هذه النّار بالحرارة وإن كانت كلّ نار حارّة للمبالغة وكأنّها لحرارتها بلغت إلى حدّ لا توصف غيرها من النّيران بالحرارة وإنّما توصف بها وهي وحدها فقط.

مسألة: قد كان النّاس الأوائل يجادلون المؤمنين حينما يقولون: سيوضع ميزان ويوزن به أعمال العباد ويثابون حسب الميزان أو يعاقبون، فيجادلونهم ويقولون: كيف توزن الأعمال وليس لها جسم ولا ثقل؟ فيجيب المسلم: بأنّ الأعمال تتجسّد فتوزن أو بأنّ دفاتر الأعمال توزن، وبعضهم يقولون: إنّ الميزان حقّ وإنّ الكيفيّة مجهولة، فنؤمن نحن بالميزان ولا ندري كيف هو؟ وهذا هو الحقّ. فإنّا نرى أنّ الموازين تطوّرت فصنع القبّان وليس له كفتان ووضع ميزان يوزن به الحرارة والبرودة وميزان يوزن به ضغط الإنسان وميزان يوزن به الطّقس، إلى غير ذلك من الموازين المختلفة والمتطوّرة، وما ندري **ما** يوجد فيما بعد إلى يوم القيامة من أنواع الموازين، وكيف يكون ميزان الأعمال

في ذلك اليوم؟ وليس كلّ شيء بحيث يعلمه الإنسان ولا يجبل عليه أن يعلم كلّ شيء، فالإيمان بالميزان واجب وأمّا بالكيفيّة فلا،حيث لم يبيّن الله تعالى ذلك ولم يكلّفنا به، وفي ذلك حكمة لا يعلمها إلّا الحكيم، وهكذا يجب علينا الإيمان بكلّ ما أخبر عنه الله تعالى وإن لم نعلم كيفيّته، فنفوض العلم بكيفيّته إلى الله، وهكذا يجب أن يكون المسلم، ثبّتنا الله تعالى على الإيمان وثقّل لنا الميزان آمين.

سورة التّكاثر

(مكيّة، نزلت بعد الكوثر وآياتها ثمان)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾

(ألهاكم التّكاثر) هذه السّورة نزلت بعد الكوثر ووقعت في المصحف بعد القارعة، والمعنى أشغلكم التّكاثر وحبّ جمع الأموال والأولاد والقوم والأفراد وغير ذلك من منافع الدّنيا، أشغلكم هذا عن تثقيل موازينكم بالخيرات والأعمال الصّالحات، كما وأشغلكم هذا عن تحصيل الاستحقاق لشرب ماء الكوثر الّذي وهب لمحمّد (ﷺ) وأمّته فأشغلكم ذلك عن هذا **(حتّى زرتم المقابر)** إلى أن متّم ودخلتم في المقابر؛ فحينئذٍ تنبّهتم وندمتم حيث لا ينفع التّنبّه ولا النّدامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ سورة الفجر الآية/ ٢٣.

ثمّ نهر الله تعالى وردع المخاطبين على هذه الغفلة والإنهماك في التّكاثر الّذي أشغلهم عن ما ينفعهم في الآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾

(كلّا سوف) أي انتهوا عن هذا التّكاثر الملهي لأنّكم سوف تعلمون أنّكم في خطأ وضلال، وحينما لا ينفعكم ذلك العلم **(ثمّ كلّا سوف تعلمون)** انتهوا فإنّكم سوف تعلمون عاقبة هذا التّكاثر الّذي ألهاكم عن تحصيل ما ينفعكم يوم القيامة من تثقيل

الموازين بالخير ومن الشّرب من حوض الكوثر الّذي أعطى للنّبيّ الأكبر محمّد (ﷺ) وأمّته، قال بعض المفسّرين أعيد هذه الجملة تأكيداً للأولى، ولكن لا يخفى أنّ التّأسيس خير من التّأكيد فالحقّ أنّ المراد بقوله: **(كلّا سوف تعلمون)** هو العلم الّذي يحصل للإنسان بعاقبته عند الموت وعندما ينال عذابه في القبر والبرزخ، فإنّ القبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّيران، والمراد من: **(ثمّ كلّا سوف تعلمون)** هو العلم الحاصل عند المرحلة الأخيرة، والّتي يساق فيها المجرمون إلى النّار ولا يخفى دلالة.

ثمّ على إنّ هذه المرحلة متراخيةٌ جدّاً عن الأولى، ثمّ نهرهم ولامهم على عدم التّفكر في الدّلائل الّتي ترشدهم إلى العلم بالثّواب والعقاب وبالقارعة والوزن فيها فقال: **(كلّا لو تعلمون علم اليقين)** أي لو تفكّرتم في الدّلائل الّتي توصلكم إلى علم اليقين بالقارعة والوزن والثّواب والعقاب لما التهيتم بهذا التّكاثر عن تحصيل الزّاد ليوم المعاد والذّخيرة لما بعد الموت. فإنّ الإنسان لا يلام على عدم العلم وإنّما يلام على عدم سلوك سبيل العلم، ثمّ أخبرهم بأنّهم سيعلمون القارعة وما فيها من عذاب فقال:

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾

(لترونّ الجحيم) اللّام جواب قسم محذوف فالتّقدير والله لترونّ الجحيم **(ثمّ لترونّها عين اليقين)** فالرّؤية الأولى: بمعنى العلم وذلك عند الموت وحينما يلقون في القبر، والثّانية: بمعنى المشاهدة بالعين، وذلك عند الوقوف في ساحة المحشر وحينما يظهر جهنّم فيراها كلّ راء، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ سورة النّازعات الآية/ ٣٦. وذلك بدليل تقييدها بثمّ وبعين اليقين، فإنّ عين اليقين ما حصل عن المشاهدة والعيان. ثمّ بيّن لهم حالهم حينما يرون الجحيم وفي ساحة الحساب فقال **(ثمّ لترونّها عين اليقين ثمّ لتسئلنّ يومئذٍ عن النّعيم)** ثمّ تحاسبون على ما أنعمتم به في الدّنيا من أين حصلتم عليه؟ وفيم صرفتم؟ وتثابون أو تعاقبون بعد ذلك، فإن كنتم أخذتم من حلال وصرفتم في حلال وأدّيتم منه حقوق الله وحقوق العباد فتثابون عليه ثواباً جزيلاً، وإن أخذتم من حرام أو صرفتم في حرام أو منعتم منه حقوق الله أو حقوق النّاس فتعاقبون عليه عقاباً وبيلاً. قال القرطبيّ: وهذا السّؤال يعمّ الكافر والمؤمن

إلّا أنّ سؤال المؤمن للتّبشير بأن يجمع له بين نعيم الدّنيا ونعيم الآخرة. وسؤال الكافر تقريع حيث قابل نعيم الدّنيا بالكفر والمعصية، ثمّ قال: كلّ نعيم يسأل عنه العبد سوى كنّ يؤويه وكسرة تقوّيه وكسوة تواريه، فإنّ هذا لا يسأل عنه من أين أخذ لأنّ الضّرورات تبيح المحظورات والله تعالى أعلم.

سورة العصر

(مكيّة، نزلت بعد الشّرح وآياتها ثلاث)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾

(والعصر) ذكروا في معنى العصر أقوالاً كثيرةً منها: أنّ المراد به صلاة العصر، أقسم به الله تعالى لأنّها أفضل الصّلوات، وهي الّتي سمّيت صلاة الوسطى كما فسّر الرّسول (ﷺ) فيما يروى عنه أنّه قال: (صلاة الوسطى صلاة العصر)[١]، والصّلاة الوسطى بمعنى الصّلاة الفضلى، وقد أمر الله تعالى بالمحافظة عليها خاصّة في قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ سورة البقرة الآية/٢٣٨. والحكمة في فضلها أنّها تقع في وقت يشتدّ فيه البيع والشّراء ويحرص المرء فيه على العمل، فتركه العمل وانشغاله بالصّلاة هذه يدلّ على كمال عنايته بأداء أمر الله تعالى وتنفيذ ما أوجب عليه. ومنها: أنّ المراد بالعصر هو وقت العصر وهو حينما تميل الشّمس إلى الغروب ولا يبقى بينها وبين الغروب إلّا ربع النّهار أو أقلّ، أقسم الله سبحنه وتعالى به لأنّه يذكّر الإنسان بالقيامة وقرب خراب الدّنيا؛ فيتدارك من العمل ما فات ويتوب عمّا فعل من السّيئات. ومنها: أنّ العصر هو اللّيل والنّهار كما قال حميد ابن ثور:

ولن يلبث العصران يوم وليلة ... إذا طلبا أن يدركا ما تيمّما

---

(١) سنن الترمذي ١/٣٣٩ الحديث رقم ١٨١ وقال حديث حسن صحيح.

أقسم الله تعالى بهما لأنّهما يدلّان على عظيم قدرة الله تعالى وجليل نعمته على العباد، حيث جعل اللّيل للرّاحة والنّهار للعمل والإرتزاق. ومنها: أنّ المراد به الغداة والعشيّة كما قال الشّاعر:

وأمطله العصرين حتّى يملّني ويرضى بنصف الدّين والأنف راغم

أقسم الله تعالى بهما لدلالتهما على عظمة قدرة الله تعالى. ومنها: أنّ المراد به عصر جبريل محمّداً (ﷺ) في غار حراء حينما جاءه فقال له: إقرأ، قال: فقلت: لست بقارئ، فغطّني حتّى بلغ منّي الجهد ثمّ أرسلني ثمّ قال: اقرأ باسم ربّك الّذي خلق ... إلخ. أقسم الله تعالى بهذا العصر والغطّ لأنّه حصل منه فتح قلبه وانشراح صدره واستعداده لقبول الوحي، فصار مبدأ لهداية النّاس من الضّلالة إلى الهدى ومن الباطل إلى الحقّ ومن الظّلام إلى النّور ومن الشّرّ إلى الخير ومن الظّلم إلى العدل ومن الجهل إلى العلم ومن الشّرك إلى التّوحيد ومن عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق الحقّ المبين. ومنها: أنّ المراد به الدّهر والزّمان، وأقسم تعالى به لأنّه يدلّ على وجود الله وقدرته وإرادته الّتي لا تفوقها أيّة إرادة، فإنّه يجري في زمان السّراء والضّراء والصّحة والسّقم والغنى والفقر والقوّة والضّعف وتغيّر الأحوال وتبدّل السّلطان وكرّ اللّيل والنّهار والفصول الأربعة والبرد والحرّ، ويظهر فيه الأعاجيب وما يدهش. ومنها: أنّ المراد به هو مقدار عمر الإنسان لأنّ الإنسان في هذا العمر يستطيع أن يعمل أعمالاً يكتب بها من السّعداء وأن يعمل أعمالاً يكتب بها من الأشقياء، كما قال النّبيّ (ﷺ): (كلّ النّاس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها)(١) فأقسم الله تعالى بالعصر على إحدى هذه المعاني، أو أراد به تلك المعاني كلّها فإنّه لا منافاة بينها، فأقسم بها على قوله جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

(**إنّ الإنسان لفي خسر**) المراد من الإنسان العموم لا الكافر فقط، وإلّا لم يصحّ الاستثناء بقوله: (**إلّا الّذين... إلخ**) فإنّ مدار الاستثناء العموم والإستغراق كما هو مقرّر

---

(١) صحيح مسلم ١/٢٠٣ الحديث رقم ٢٢٣. وهو جزء حديث طويل

في علم الأصول، فالمعنى: إنّ كلّ إنسان لفي خسر لأنّ الإنسان خلقه الله تعالى ووهبه مدّة معيّنة من الحياة، ووضع له منهجاً ليحيا هذه المدّة على هذا المنهج ويعمل به ولا ينحرف عنه فيفوز بالجنّة، فرأس مال الإنسان عمره ومدّة حياته، وتجارته هو صرف هذه المدّة فيما يعمل فيها، والإنسان يغلب عليه الهوى والنّفس والصّفات الرّذيلة فتصرفه هذه الأمور عن المنهج المستقيم، فيخسر الجنّة إلّا قليلاً منهم، وهم الّذين استثناهم الله تعالى بقوله: **(إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصّبر)** فإنّ هؤلاء لا يخسرون بل يربحون حيث يسعدون في الدّنيا والآخرة، وإنّ هذه الآية تشتمل على جميع أمور الإسلام مجملاً فإنّ قوله: **(إلّا الّذين آمنوا)** المراد من ثبت له الإيمان الصّحيح وهو عبارة عن الإيمان بالله تعالى وبالملائكة والكتب والرّسل واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه من الله تعالى، كما قال الرّسول (ﷺ) حينما سأله جبريل: ما الإيمان؟ فقال (ﷺ): الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه من الله تعالى، وهذه تسمّى أصول الإيمان ويتفرّع منها ما يسمّى بفروع الإيمان، فيتفرّع من الإيمان بالله تعالى الإيمان بصفاته الذّاتية والوجوديّة والمعنويّة والسّلبيّة والإيجابيّة كلّها، فإنّ الإيمان بالله لا يصحّ إلّا بعد تنزيهه عن كلّ ما يوجب النّقص ووصفه بكلّ ما يوجب الكمال، ويجمع ذلك كلّه إجمالاً: سبحان الله والحمد لله، لأنّ معنى الأوّل اعتراف بنزاهة الله تعالى من كلّ نقص. والمعنى الثّاني اعتراف باتّصاف الله تعالى بكلّ كمال، ولذا قال الرّسول (ﷺ): كلمتان خفيفتان على اللّسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرّحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)[1] ويتفرّع من الإيمان بالملائكة الإيمان بأنّهم عباد الله المكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وكلّ طائفة منهم خصّت بعمل تقوم به من أمور الله تعالى حسبما نطق به الله في القرآن الكريم، ويتفرّع على الإيمان بالرّسل أنّهم سفراء بين الله تعالى وبين العباد، وقد أتوا بشريعة من الله تعالى يجب على الأمّة اتّباعها والسّير عليها، وأنّهم معصومون عن الكذب والغلط والسّهو والخطأ والخيانة في التّبليغ، ومعصومون من الذّنوب والمعاصي والآثام صغائرها وكبائرها قبل النّبوة وبعدها على تفصيل في العصمة بين العلماء، وإنّ النّبوّة ختمت برسالة محمّد (ﷺ)، ويتفرّع من الإيمان بالكتب أنّها حقّ ونزلت من الله تعالى، وواجب الاتّباع والعمل بها في حينها، وأنّ العمل بها قد انتهى

---

(١)

بآخر الكتب المنزّلة على محمّد خاتم النّبيّين، فشريعة القرآن خاتمة الشّرائع كما أنّ من أرسل إليه القرآن خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد (ﷺ) ويتفرّع على الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالإحياء بعد الموت وبالحشر والنّشر والحساب والميزان والصّراط والجنّة والنّار وغير ذلك ممّا ثبت بالقرآن الكريم أو بالأحاديث الّتي بلغت حدّ التّواتر لفظاً ومعنىً، أو معنىً فقط عند البعض. ويتفرّع على الإيمان بالقدر إنّ التّأثير كلّه لله وأنّ لا خالق سواه، فلا يليق بالعبادة إلّا هو ولا بالإستعانة إلّا هو ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ سورة الفاتحة الآية/ ٥. ولا طاعة إلّا له ولا تشريع إلّا له، فيجب الحكم بما أنزله وإبطال ما أبطله وإيجاب ما أوجبه وتحريم ما حرّمه وإباحة ما أباحه، فليس لأحد أن يخالف حكمه أو أن يعصي أمره أو أن ينحرف عن منهجه ودينه وعن اتباع شريعته ونظامه، ومن ضلّ ضلّ إلى النّار وبئس المصير. والمراد بقوله تعالى: **(وعملوا الصّالحات)** هي أعمال الإسلام والّتي عبّر عنها الرّسول (ﷺ) بخمسة أشياء حينما سأله جبريل: ما الإسلام؟ فقال: الإسلام أن تشهد أن لا اله إلّا الله وأن تقيم الصّلاة وأن تؤتي الزّكاة وأن تصوم رمضان وأن تحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً، فهذه الخمسة تسمّى أصول الإسلام، ويتفرّع منها كلّ أعمال الإسلام سلبيّها وإيجابيّها بدنيّها وماليّها والجامع بينهما معاً، فإنّ الصّلاة رمز لأداء جميع الواجبات البدنيّة المحضة الإيجابيّة، كالجهاد وطاعة الوالدين ومن يجب عليك إطاعته، وتحصيل العلم وغير ذلك من كلّ عمل إسلاميّ يؤدّى بالبدن فقط. والزّكاة رمز لأداء جميع الواجبات الماليّة المحضة كالنّفقة وأداء الدّيون لأهلها والإرث لمستحقّيه وإعانة المحتاجين والمعوزّين وغير ذلك من كلّ عمل إسلامي يؤدّى بالمال وحده، والصّوم رمز لأداء جميع الواجبات البدنيّة المحضة السّلبية، وهي عبارة عن الكفّ عن المحرّمات فيدخل فيه الاجتناب عن المعاصي كلّها صغيرها وكبيرها، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سورة البقرة/ ١٨٣. أي استعدّوا بالصّوم على التّقوى والاجتناب عمّا نهى الله تعالى عنه كلّه، صغيره وكبيره سرّه وعلانيّته. والحجّ عبارة عن الواجبات الّتي تؤدّى بالمال والسّفر، فيدخل فيه كل واجب يحتاج في أدائه إلى صرف المال وتحمل مشقة السفر، كصلة الرّحم والجهاد والسّفر للعلم وغير ذلك من كلّ عمل إسلامي لا يتأتّى إلّا بالسّفر إليه وصرف المال في تسهيل أمور هذا السّفر، والمراد بقوله تعالى: **(وتواصو بالحقّ)** هو الدّعوة إلى الإسلام والنّصيحة للخواص والعوام والأمر بالمعروف والائتمار به والنّهي عن المنكر والانتهاء عنه، فهذان الأمران

من أساس الإسلام ومن واجب كلّ مسلم قال (ﷺ): (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع بقلبه وذلك أضعف الإيمان)[١] ولا شكّ بأنّه حينما ترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر فمال الإسلام إلى الزّوال ومصير الحقّ إلى الإختفاء ومال الباطل إلى القوّة والسّلطان، قال (ﷺ): (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم)[٢]. والمراد بقوله تعالى: **(وتواصوا بالصبر)** هو الأمر بالصّبر وهو تحمّل الأذى والمشقّة في سبيل الدّعوة إلى الإسلام والثّبات عليه، والأمر بالمعروف والائتمار به والنّهي عن المنكر والانتهاء عنه، والصّبر أربعة أقسام: تحمل المشقّة في سبيل أداء الواجبات، وتحمل المشقّة في التّجنب عن المنكرات، وتحمّل الأذى وعدم الجزع عند الإبتلاء بالمصائب والبليّات، وتحمّل المشقّة في سبيل الدّعوة إلى الله والتّمسك بدينه والإلتزام بشريعته، وهذا أفضل أقسام الصّبر ومن صفات المرسلين الكرام ومن صفات أولي العزم. قال تعالى حكاية عن وصية لقمان لإبنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ سورة لقمان الآية/ ١٧. أي ما أصابك في سبيل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر (إنّ ذلك من عزم الأمور) أي أنّ الصّبر على المشقّة الّتي تصيبك في سبيل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من عزائم الأمور، وما سمّي بعض المرسلين الكرام بأولي العزم إلّا لأنّهم صبروا وتحمّلوا الأذى على أداء الرّسالة والدّعوة إلى الله وتبليغ شريعة الله والدّفاع عن منهج الله تعالى. جعلنا الله تعالى من الصّابرين ووهب لنا أجرهم أجمعين آمين. هذا ولجلالة هذه السّورة واشتمالها على جميع مبادئ ومقاصد الإسلام كان الأصحاب (ﷺ) حينما يتزاورون لا يودّع أحدهم الآخر حتّى يقرأ هذه السّورة قبل الوداع تذكاراً لما يجب عليهم من أمور الإسلام. والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ليس خاصّاً بجهة بل يجب على كلّ مسلم أن يقوم بذلك حسب قدرته كما سبق في حديث من رأى منكم منكراً فليغيره ... الخ.

خاتمة: حصر بعض النّاس الأعمال الصّالحات في الطّقوس الدّينيّة وشعائرها

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٦٩ الحديث رقم ٤٩.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٢/ ٩٩ الحديث رقم ١٣٧٩.

والذّكر والتّهليل والتّسابيح فقط، وذلك غلط فاحش وبهتان على الإسلام، فإنّ الإسلام لم يأت للطّقوس والشّعائر فقط ولا للذّكر والتّسبيح فحسب، بل جاء لتنظيم حياة الأمّة في الدّنيا وفي الدّين، فكلّ عمل أباحه الله تعالى واحتاج إليه المجتمع من التّجارة والحدادة والصّناعة والتّجارة ووظائف الدّولة العسكريّة والمدنيّة والإداريّة والتّعليميّة والمهنيّة ومن الكناسة إلى الرّئاسة ومن الصّنائع من الإسكافيّة إلى صنع الذّرة والصّاروخ، كلّ ذلك مّن واجبات الإسلام، فكلّ من قام بعمل من هذه الأعمال بنيّة صحيحة وموافقاً لشرع الله تعالى مع أداء واجباته الطّقوسيّة يعتبر ذلك العمل عبادة له، ألا ترى أنّه يذكر الأمراء العادلون مع العلماء العاملين والأولياء الكاملين وأنّ الرّسول (ﷺ) رأى يد عامل قد خشنت من العمل فقبّلها وقال: (إنّ هذه اليد لا تمسّها النّار) وألا ترى إنّ كلّ حرفة هي من فروض الكفايات يجب أن يقوم بها جماعة لسدّ حاجات النّاس، وإنّ القيام بأداء فرض الكفاية أفضل من القيام بالسّنة والمندوبات، بل ومن فرض العين عند بعض العلماء. هذا وإنّ هذا الموضوع لطويل ولا مجال لذكر أكثر من هذا هنا، وإنّ العاقل تكفيه الإشارة.

هذا وفي عطف العمل على الإيمان إشارتان:

الأولى: أنّه لا ينجو المرء من الخسران بمجرّد الإيمان بل يجب أن ينضم إليه العمل.

الثّانية: إنّه رتّب العمل على الإيمان للدّلالة على أنّ العمل بدون الإيمان لا يقبل وليس له جزاء عند الله تعالى.

جعلنا الله تعالى من الفاهمين فهماً صحيحاً للإسلام ومن القائمين بواجباته بأكمل وجه، سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

سورة الهمزة

(مكيّة، نزلت بعد القيامة وآياتها تسع)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾

(ويل لكلّ همزة) ويل بمعنى الهلاك والعذاب وهو مبتدأ صحّ وقوعه مبتدأً مع كونه نكرة لأنّ التنوين للتعظيم فتكون نكرة موصوفة، فالتّقدير: ويل عظيم لكلّ همزة لمزة، الهمز واللّمز كلاهما مسّ أعراض النّاس، فالهمزة صيغة مبالغة في هامز، واللّمزة صيغة مبالغة في لامز، وكلاهما بمعنى العياب، فإذا كان للغائب فقد اغتابه وإن كان للحاضر فقد عابه، وإذا اجتمع يكون كلّ واحد بمعنى غير معنى الآخر، فالمعنى ويل عظيم وعذاب وهلاك عظيم لكلّ من عاب النّاس واغتابهم.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾

(الّذي جمع مالاً وعدّده) ذكر هذا عقبه لأنّ أكثر الهمزة واللّمزة من طبعهم أنّهم يجمعون المال ويعدّدونه ولا ينفقونه في الخير، فهم عشّاق المال وعبدة الدّنيا لا يرون فضيلة إلّا في المال فيحقّرون النّاس بسبب طغيانهم بالمال والثّراء ويعيبونهم.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾

(يحسب أنّ ماله أخلده) هذا علّة لحبّهم المال وجمعهم له وتعدادهم وعدم إنفاقهم له في سبيل الخير والإحسان، لأنّهم يحسبون أنّ مالهم يبقيهم في الدّنيا مخلّداً، فلا يروق لهم صرفه وإنفاقه. ثمّ ردعهم الله تعالى على هذا الحسبان فقال جلّ وعلا:

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤﴾

(كلّا) أي ليس الأمر كما ظنّوا، فلا المال يخلّدهم ولا الثّروة تبقيهم، بل الموت يدركهم ولو ملكوا الدّنيا كلّها، ثمّ بعد الموت جزاء على ظنّهم هذا وبخلهم بالمال وعيبهم للنّاس **(لينبذنّ في)** ليطرحنّ في **(الحطمة)** بمعنى الحاطمة وهي المهلكة، وحيث لم يبيّن شخصيّة المهلكة هذه قال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾

(وما أدراك ما الحطمة) أي ما الّذي أعلمك ما الحطمة هذه، أي ما أعلمك أحد فنحن نعلّمك ونخبرك بها فقال جلّ وعلا:

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾

(نار الله الموقدة) أي هي نار الله المشعلة الّتي لا تخمد أبداً، ولا يخفى ما في البيان بعد الإبهام من لذّة ووقع في الفهم والقلب، فلذا تجد هذه الصّنعة كثيرة في القرآن الكريم. كما وفي إضافة النّار إلى الله تعالى ثمّ وصفها بالإيقاد من التّهويل والتّفخيم لهذه النّار ما يجب أن يقشعرّ منها القلوب ويخاف منها كلّ ذي فهم سليم، ولذا وصفها بقوله جلّ وعلا:

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾

(الّتي تطّلع على الأفئدة) أي تنفذ إلى الباطن فتصل إلى القلوب والأفئدة فتحرقها وتشتعل بها. وكان الإنسان الكافر يختلج بباله أنّ كلّ حال يزول وأنّ كل أمر له نهاية؛ فيتسلّى بذلك بعض التّسلّي وينتظر الخروج منها، فقطعاً لهذا الأمل، إذ في الأمل بعض الرّاحة، قال جلّ وعلا:

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾

(إنّها عليهم موصدة) أي إنّها عليهم مغلقة بأبواب شدّت تحت **(عمد ممدّدة)** عليها لأنّ من عادة النّاس أنّهم حينما يريدون غلق الأبواب غلقاً لا ينفتح، فإنّهم يغلقونها ويجعلون فوقها أعمدة حتّى لا تزال ولا تفتح، فشبّه الله تعالى حالهم في النّار

بحال من في بيت أغلق عليه بابه ووضع أعمدة على الباب؛ فلا يستطيع أحد أن يفتحه. فالمعنى: إنّهم فيها بحيث لا أمل في خروجهم منها، وهذا بالنّسبة للكفّار إلى الأبد، وبالنّسبة إلى العصاة إلى أن ينتهي مدّة إيقافهم فيها، وقانا الله تعالى من الحالين آمين.

سورة الفيل

(مكيّة، نزلت بعد (الكافرون) وهي خمس آيات)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾

(ألم تر) الاستفهام للإنكار، وإنكار النّفي إثبات، فالمعنى: لقد رأيت يا محمّد **(كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل)**. ومن البداهة أنّ الرّسول (ﷺ) لم ير هذه الحادثة ولم يحضرها؛ لأنّها كانت قبل ولادته أو عام ولادته على اختلاف في الرّوايات، إلّا أنّه سمع سماعاً متواتراً يوجب العلم اليقين، فكان كأنّه رآها بعينه، أي ألم تعلم بسبب السّماع علماً يقيناً مثل العلم الحاصل من الرّؤية والمشاهدة؟ وهذا الاستعمال شائع في العربيّة وتعدّ نوعاً حسناً في البلاغة في الكلام.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾

(ألم يجعل كيدهم في تضليل) الاستفهام أيضاً للإنكار، وإنكار النّفي إثبات، أي لقد جعل كيدهم في إبطال؛ ولهذا صحّ عطف الماضي المثبت عليه في قوله: (وأرسل عليهم) والكيد كلّ فعل أو قول يراد منه إلحاق السّوء بالغير، ولم يقل: ألم يجعل كيدهم ضالّاً أي باطلاً للمبالغة، كأنّ كيدهم خاصّ في الإبطال بحيث لم يرج له الظّهور بعد أبداً. ثمّ بيّن كيف فعل ربّهم وكيف جعل كيدهم باطلاً وحال دون تنفيذهم له فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾

(وأرسل عليهم طيراً أبابيل) أرسل عليهم طيوراً متفرّقات جماعات وفرادى.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾

أي ترميهم بحجارةٍ من الطّين المتحجّر.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

(فجعلهم) أي فجعلهم الله تعالى بتلك الحجارة **(كعصف مأكول)** أي كعصف مأكول لبّه، أي سقط أحشاؤهم بهذه الحجارة فلم يبق إلّا الهيكل العظمي فماتوا كلّهم أو كعصف مأكول بعضه وباق بعضه، أي فتّتهم تلك الحجارة، نسب الجعل إلى الله تعالى بقرينة تذكير الفعل لأنّ الحجارة لم تصلح لينسب إليها هذا الجعل حتّى بالسّببيّة لأنّها لم تكن ممّا يقتل البعوضة لصغرها، فكيف بهؤلاء الأقوياء فإنّها كانت بقدر الحمّصة والعدسة، فكان قتلها لهم بمجرّد إرادة الله تعالى سبباً وخلقاً، وقد أخطأ من قال بأنّها كانت جراثيم مرض الجدري فأصيبوا بالجدري أثر رميها إليهم فماتوا، والتّعجب ممّن ذهب هذا المذهب فإنّه حينما نصدّق بأنّ موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ألا نصدّق بهذا؟ أهذا أبعد؟، أو حينما نؤمن بأنّ عيسى كان يضرب بعصاه الميت فيحيى ألا نصدّق بهذا؟ فلعمري لقد خبط هذا القائل خبطاً عظيماً فغفر الله له. قال الرّازي في تفسير ما نصه: واعلم أنّ قصّة الفيل واقعة على الملحدين جدّاً لأنّهم ذكروا في الزّلازل والرّياح والصّواعق وسائر الأشياء الّتي عذّب الله تعالى بها الأمم أعذاراً ضعيفة، أي عادوا بها إلى أمورٍ وتأثيرات ماديّة وبعّدوها عن الرّوحيات وخوارق العادات. أمّا هذه الواقعة فلا تجري فيها تلك الأعذار لأنّها ليست في شيء من الطّبائع والحيل أن يقبل طير معها حجارة فتقصد قوماً دون قوم فتقتلهم، هذا وأقول لو كانت تلك الأحجار جراثيم فلم أصيب جيش أبرهة بمرض الجدري فقط ولم يصب أحد غيرهم به حتّى إن كان معهم من أسرى العرب كانوا ينظرون إليهم حينما يموتون ويفرحون بذلك ولم يصبهم شيء من ذلك، هذا وإليك قصّة أصحاب الفيل كما يذكره القرطبيّ في تفسيره.

قصّة أصحاب الفيل:

إنّ أبرهة كان عاملاً للنّجاشي على اليمن، وكان محلّ عمله صنعاء، فبنى كنيسة

سمّاها (القليس) لم ير مثلها في زمنها بشيء من الأرض، وكان نصرانيّاً، ثمّ كتب للنّجاشي أنّي قد بنيت لك أيّها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتّى أصرف إليها حجّ العرب. فلمّا تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النّجاشي غضب رجل من بني فقيم بن عديّ فخرج حتّى أتى الكنيسة فقعد فيها أي أحدث، ثمّ خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة فقال: من صنع هذا؟ فقيل: صنعه رجل من أهل هذا البيت الّذي تحجّ إليه العرب بمكّة لما سمع قولك: أصرف إليها حجّ العرب، فغضب الرّجل فجاء فقعد فيها، أراد أنّها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتّى يهدمه، وبعث رجلاً إلى بني كنانة يدعوهم إلى حجّ تلك الكنيسة فقتلت بنو كنانة ذلك الرّجل، فزاد أبرهة ذلك غضباً. ثمّ أمر الحبشة فتهيّأت وتجهزت ثمّ سار وخرج معه بالفيل وسمعت بذلك العرب، فأعظموا الأمر وقطعوا به ورأوا جهاده حقّاً عليهم حينما سمعوا أنّه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام. فأجابه من أجابه إلى ذلك ثمّ عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ ذو نفر وأتى به أسيراً، فلمّا أراد قتله قال له ذو نفر: أيّها الملك لا تقتلني فإنّه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك، فتركه وحبسه عنده في وثاق، وكان أبرهة رجلاً حليماً. ثمّ مضى أبرهة حتّى إذا كان بأرض خثعم فعرض له نفيل ابن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم: شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ نفيل أسيراً فلمّا همَّ بقتله قال له نفيل: أيّها الملك لا تقتلني فإنّي دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي على قبيلتي خثعم بالسّمع والطّاعة فخلّى سبيله وخرج به معه يدلّه حتّى إذا مرّ بالطّائف خرج إليه مسعود ابن معتب في رجال ثقيف فقالوا: أيّها الملك إنّما نحن عبيدك سامعون مطيعون ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا البيت الّذي تريده عنوا بذلك بيت اللّات إنّما تريد البيت الّذي بمكّة، نحن نبعث معك من يدلّك عليه، فتجاوز عنهم وبعثوا معه أبا رغال حتّى أنزله (المغمس) موضع قرب مكّة، فلمّا أنزل به مات أبو رغال هناك فرجمت قبره العرب فهو القبر الّذي يرجمه النّاس بالمغمس وفيه يقول الشّاعر:

وأرجم قبره في كلّ عام كرجم النّاس قبر أبي رغال

فلما نزل أبرهة بالمغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على

خيل له حتّى انتهى إلى مكّة، فساق فيه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذٍ كبير قريش وسيّدها، فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان معهم بذلك الحرم بقتاله ثمّ عرفوا أنّهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك، وبعث أبرهة مناطة الحميري إلى مكّة وقال له سل عن سيّد هذا البلد وشريفهم ثمّ قل له: إنّ الملك يقول إنّي لم آت لحربكم إنّما جئت لهدم هذا البيت فإنّ لم تعرضوا إليّ بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأتني به، فلمّا دخل مناطة مكّة سأل عن سيّد قريش وشريفها فقيل له عبدالمطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمر به أبرهة فقال له عبدالمطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم (على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام) فإنّه يمنعه منه، فهو حرمه وبيته ولإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له مناطة: فانطلق إليه فإنّه قد أمرني أن آتيه بك. فانطلق معه عبدالمطلب ومعه بعض بنيه حتّى أتى العسكر، فسأل عن ذي نفر وكان صديقاً له حتّى دخل عليه وهو في محبسه، فقال: ياذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدوّاً وعشيّاً. ما عندي غناء فيما نزل بك إلّا أنّ أنيساً سائس الفيل صديق لي فسأرسله إليه وأوصيه بك وأعظم عليه حقّك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلّمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك، فقال: حسبي، فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبدالمطلب سيّد قريش وصاحب مكّة ويطعم النّاس بالسّهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فاستأذن له عليه وأنفعه عنده بما استطعت فقال: افعل، فكلّم أنيس أبرهة فقال له أيّها الملك هذا سيّد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكّة يطعم النّاس بالسّهل والوحوش في رؤوس الجبال، فأذن له عليك فيكلّمك في حاجة، فأذن له وكان عبدالمطلب أوسم النّاس وأعظمهم وأجملهم، فلمّا رآه أبرهة أجلّه وأعظمه عن أن يجلس تحته، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثمّ قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له التّرجمان فقال: حاجتي أن يردّ على الملك مائتي بعير أصابها لي، فلمّا قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثمّ قد زهدت فيك حين كلّمتني، أتكلّمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وقد جئت لهدمه لا تكلّمني فيه؟ فقال له عبدالمطلب: إنّي أنا ربّ الإبل وإنّ للبيت ربّاً سيمنعه منه، قال أبرهة: ما كان ليمنع منّي، قال عبدالمطلب: أنت وذاك، فردّ

عليه إبله وانصرف عبدالمطلب إلى قريش فأخبرهم وأمرهم بالخروج من مكّة والتّحرز في شغف الجبال والشّعاب تخوّفاً عليهم معرّة الجيش. ثمّ قام عبدالمطلب وقام معه نفر من قريش يدعون ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فأنشد عبدالمطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهمّ أن العبد يمنع رحله فامنع حلالك   لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوا محالك

إن يدخلوا البلد الحرام فأمر ما بدا لك

وقيل كان يقول:

يا ربّ لا أرجو لهم سواكا   يارب فامنع منهم حماكا

إنّ عدوّ البيت قد عاداكا   إنّهم لن يقهروا قواكا

قال ابن إسحاق: ثمّ أرسل عبدالمطلب حلقة باب الكعبة، ثمّ انطلق هو ومن معه من قريش إلى شغف الجبال فتحرّزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكّة إذا دخلها، فلمّا أصبح أبرهة تهيّأ لدخول مكّة وهيّأ فيله وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محموداً وأبرهة مجمع لهدم البيت، ثمّ الإنصراف إلى اليمن. فلمّا وجّهوا الفيل إلى مكّة أقبل نفيل بن حبيب حتّى إذا قام إلى جنب الفيل ثمّ أخذ بإذنه فقال له: يا محمود ارجع راشداً من حيث جئت فإنّك في بلد الله الحرام. ثمّ أرسل أذنه فبرك الفيل وخرج نفيل يشتدّ حتّى أصعد في الجبل وضربوا الفيل ليقوم فأبى. فضربوا رأسه بالطّبرزين ليقوم فأبى. فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجّهوه إلى الشّام ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى مكّة فبرك، وأرسل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل من البحر مثل الخطاطيف مع كلّ طائر منها ثلاثة أحجار، حجر في منقارة وحجران في رجليه، أمثال الحمّص والعدس لا يصيب منهم أحداً إلّا هلك، وخرجوا هاربين يبتدرون الطّريق الّتي جاؤوا منها، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلّهم على الطّريق إلى اليمن، فقال نفيل حينما رأى ما نزل بهم.

أين المفرّ والإله الطّالب   والأشرم المغلوب ليس الغالب

وقال أيضاً:

حمدت الله إذ أبصرت طيراً   وخفت حجارة تلقى علينا

فكلّ القوم يسأل عن نفيل   كأنّ عليّ للحبشان دينا

فخرجوا يتساقطون بكلّ طريق ويهلكون بكلّ مهلك على كلّ سهل، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتّى قدموا به صنعاء وهو مثل قزح الطّائرة، فما مات حتّى انصدع صدره عن قلبه. انتهت القصّة باختصار قليل جدّاً.

* * *

هذا وقد ذكر الله تعالى ذلك لأهل مكّة وذكّرهم بهذه الحادثة إمتناناً بها عليهم، حيث فعل ما فعل بأبرهة لأجلهم كما صرّح بذلك في السّورة الآتية بقوله: ﴿لإيلاف قريش... إلخ﴾، وسنفصّل ذلك إن شاء الله تعالى.

سورة قريش

(مكيّة، نزلت بعد الفيل، وهي أربع آيات)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١﴾

(لإيلاف قريش) اللّام متعلّق بجعلهم في السّورة السّابقة في قوله تعالى: ﴿فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ﴾ أي فعل الله تعالى ذلك لأجل بقاء إيلاف قريش، ثمّ بيّن ذلك الإيلاف فقال جلّ وعلا:

﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾

(إيلافهم رحلة الشّتاء والصّيف) إيلافهم بمعنى تعوّدهم على رحلتين، رحلة في الشّتاء إلى اليمن للتجرة ويذهبون بأمتعة الشّام إليها فيبيعونها فيها، ويجلبون أمتعة اليمن فيرحلون رحلة في الصّيف إلى الشّام يبيعون أمتعة اليمن فيها ويأتون بأمتعة الشّتاء لأجل أن يذهبوا بها إلى اليمن، وهكذا تعوّدوا على هاتين الرّحلتين، وكانت معظم تجارتهم في هاتين الرّحلتين، وعليهما كان المدار لمعيشتهم وثرائهم وغناهم، وكانوا في هاتين الرّحلتين آمنين على أنفسهم وأموالهم لا يتعرّض لهم النّاس ولا يقطعون الطّريق عليهم ولا يسلبونهم أموالهم، بل كانوا يحترمونهم ويقدّرونهم ويضيفونهم لأنّهم جيران بيت الله الحرام وسدنة كعبة الله الشّريفة وسكان حرم الله تعالى، فلو هدم هذا البيت لزال قدرهم ولم يبق احترامهم وقدسيّتهم عند النّاس، فلم يكونوا يستطيعون هذه الأسفار آمنين مطمئنّين، ولا تبقى لهم تجارة ولا الرّحلتان.

ثمّ أمرهم الله تعالى أن يشكروا هذه النّعمة ولا يكفروها فقال جلّ وعلا:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾

(فليعبدوا) أي فليعبدوا ربّ هذا البيت وحده ولا يشركوا به شيئاً، فإنّه هو **(الّذي أطعمهم من جوع)** بسبب التّجارة الآمنة بواسطة هذا البيت، ويجلب النّاس إليهم الطّعام والأرزاق والثّمار عند حجّ هذا البيت **(وآمنهم من خوف)**، أحاط بهم من قبل أبرهة كلّ ذلك ببركة هذا البيت فليعبدوا ربّه ولا يشركوا به أحداً شكراً لهذه النّعمة وغيرها من سائر النّعم. هذا، وإنّ في هذه القصّة إنذاراً وتخويفاً لكلّ من أراد بهذا البيت سوءاً أو أراد ببيت من بيوت الله تعالى ومساجده تخريباً أو تعطيلاً أو غير ذلك من كلّ سوء قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ١١٤.

فما أشدّ هذا الوعيد، فعجل اللّهم بالانتقام من كلّ جبار عنيد آمين، واحفظنا وارحمنا برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

سورة الماعون

(آياتها الثّلاث الأولى مكيّة والباقية مدنيّة، نزلت بعد التّكاثر، آياتها سبع)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ①﴾

(أرأيت الّذي يكذّب بالدّين) الرّؤية هنا بمعنى العلم، عبّر عنه بها للإشارة إلى أنّ الاستفهام عن علم يقين يكون كالرّؤية والمشاهدة، فالمعنى: أعلمت علماً يقينيّاً لا شكّ فيه، والاستفهام للإنكار، أي لم تعلم الّذي يكذّب بالدّين، أي بالحساب والجزاء ويوم القيامة من هو، فنحن نخبرك ونعلمك به:

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ② وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ③﴾

(فذلك الّذي يدعّ اليتيم ولا يحضّ على طعام المسكين) فذلك الّذي يكذّب بالدّين هو الذي يطرد اليتيم طرداً عنيفاً وينهره ولا يشجّع لا نفسه ولا غيره على طعام المسكين ومواساته وإعانته والأخذ بيده وسدّ حاجته. فمن كانت هذه صفاته فليس بمؤمن كامل وإن صلّى وصام، فلذا قال جلّ وعلا:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤﴾

(فويل) **فهلاك وعذاب عظيم للّذين (للمصلّين)** يصلّون ويؤدون شعائر دينهم **(الّذين هم عن صلاتهم ساهون)** وهم عن معنى الصّلاة وتلك الشّعائر غافلون وتاركون له، فإنّ معنى الصّلاة والشّعائر أن يتنوّر القلب ويتطهّر من الرّذائل، ومن رذيلة البخل خاصّة فتترحّم على اليتيم وتتصدّق على المساكين، فمن لم تحمله صلاته على هذا

البذل والجود فصلاته غير كافية لنجاته من المسؤوليّة ومن عذاب الله تعالى؛ فلذا قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾

الّذين يراؤون النّاس أنّهم يصلّون، ولكن في الحقيقة لا يصلّون لأنّ صلاتهم لم تؤثّر فيهم ولم تعمل فيهم ما وضعت الصّلاة لأجله من طهارة القلب والتّرحم على اليتمى والمساكين وبذل المال، وعلامة ذلك أنّهم:

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾

أي يمنعون المعونة عن النّاس فلا يقومون بها لهم.

خاتمة: تشير هذه السّورة إلى أنّ الإسلام ليس طقوساً وأداءً لشعائر فقط، بل إنّ الإسلام كمركّب كيميوي يتكوّن من مادّتين إذا لم يوجد إحداهما لا تنتج الأخرى مفعوله، فالإسلام مركّب من عنصرين أساسيّين: بذل النّفس والمال في سبيل ما أمر الله تعالى به، ويعبّر عن ذلك بالعبادة البدنيّة والعبادة الماليّة؛ فمن فعل واحدة منها دون الأخرى فليس بمؤمن، بل المؤمن من قام بأدائهما جميعاً دون نقص، وقد صرّح تعالى بذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ سورة الحجرات الآية/ ١٥. أي في إيمانهم، فتفيد الآية أنّ غيرهم كاذبون في ادعائهم الإيمان والإسلام، جعلنا الله تعالى من المؤمنين الصّادقين آمين.

* * *

سورة الكوثر

(مكيّة نزلت بعد العاديات وآياتها ثلاث)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾

كان لا يعيش لرسول الله (ﷺ) أولاده الذّكور، فتناقل جماعة من صناديد قريش فقالوا: إنّ محمّداً أبتر أي مقطوع النّسل فيموت دينه بموته، فبلغ ذلك رسول اللهﷺ فتألّم قلبه الشّريف، فسلّاه الله تعالى فقال: **(إنّا أعطيناك الكوثر)** الكوثر صيغة مبالغة من الكثير، فالمعنى الكثير جدّاً من المال أو القوّة أو العلم أو غير ذلك، وقد اختلف المفسّرون في المراد بالكوثر الّذي أعطى للرّسول (ﷺ)، فمنهم من قال: هو القرآن، ومنهم من قال: النّبوة، ومنهم من قال: الإسلام، وبعضهم قال: هو حوض الكوثر، ويروى في هذا المعنى أحاديث، منها: ما في القرطبيّ أنّه روى التّرمذيّ عن ابن عمر قال: قال رسول الله (ﷺ): (الكوثر نهر في الجنّة حافتاه من ذهب ومجراه على الدّر والياقوت، تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثّلج)[١] وقيل: حديث حسن صحيح وقال في القرطبيّ أيضاً من صحيح مسلم عن أنس قال: (بينما نحن عند رسول الله (ﷺ) إذ أغفى إغفاءة ثمّ رفع رأسه مبتسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله (ﷺ)؟ قال: نزل عليّ آنفاً سورة فقرأ: بسم الله الرّحمن الرّحيم. إنّا أعطيناك الكوثر. فصلّ لربّك وانحر. إنّ شانئك هو الأبتر)[٢]. ثمّ قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا:

---

(١) سنن الترمذي ٥/٤٤٩ الحديث رقم ٣٣٦١.وقال حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح مسلم ١/٣٠٠ الحديث رقم ٤٠٠.

الله ورسوله أعلم، قال (ﷺ) : فإنّه نهر وعدنيه ربّي عزّ وجلّ عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمّتي يوم القيامة، آنيته عدد النّجوم فيختلج العبد منهم فأقول: إنّه من أمّتي، فيقال: لا تدري ما أحدث بعدك[١] هذا وقد ذكر القرطبيّ (رحمه الله) ستّة عشر قولاً في الكوثر لا ينافي بعضها بعضاً، فالكوثر هو الحوض والنّبوّة والقرآن والإسلام، وغير ذلك كلّه من الخير الّذي أعطي للنّبيّ (ﷺ) ومن الجدير أن نقول هنا: إنّ الكوثر نوعان: معنويّ وحسيّ، فالمعنويّ هو ما أعطاه الله تعالى للرّسول في الدّنيا من النّبوّة وغير ذلك، ويجمع الكلّ الإسلام، والحسّيّ ما أعطاه الله تعالى له في الآخرة وهو الحوض، وهما متلازمان، بل إنّ ما في الدّنيا هو الّذي ينقلب إلى ما في الآخرة أو سببه؛ فمن شرب من الإسلام في الدّنيا شرب من الحوض في الآخرة، ومن لا فلا كما أفاده الحديث، إذ قال فيختلج أي يطرد منه العبد، فأقول إنّه من أمّتي فقال: إنّك لا تدري ما أحدث بعدك.

ثمّ أخبر الله تعالى نبيّه بأنّه أعطاه الخير الكثير فلا تحزن، فإنّه خير من الولد والأبناء، وأمره أن يشكره على نعمة هذا الكوثر بعبادة ربّه وإطاعة أمره فقال جلّ وعلا:

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾

اختلف المفسّرون في الصّلاة المأمور بها هنا، فبعضهم قال: هي الصّلوات المكتوبة الخمس، ومنهم من قال: صلاة عيد الأضحى بقرينة وانحر، أي إذبح الضّحايا. والحقّ إنّ الصّلاة رمز للعبادات البدنيّة كلّها والنّحر رمز للعبادات الماليّة جميعها فالمراد هنا: فأدّ كلّ واجب عليك من الواجبات البدنيّة والماليّة ولا تترك واحدة منها، فتكون هذه السّورة تأكيداً لما أشير إليه في السّورة السّابقة من أنّ الإسلام ليس الطّقوس والشّعائر فقط، بل هو عبارة عن الطّقوس والشّعائر جميعاً والعبادات البدنيّة والماليّة معاً، ولا يحصل الإسلام بواحد دون الآخر، وأشار بقوله: لربّك في **(فصل لربّك)** إلى أنّه يجب أن تكون العبادات كلّها البدنيّة والماليّة لله تعالى وحده لا لغرض آخر من أغراض الدّنيا وإلّا فلا يكون لها ثواب عند الله وجزاء في الآخرة، ثمّ أعاد التّسلية مرّة أخرى فقال:

(١) صحيح مسلم ١/ ٣٠٠ الحديث رقم ٤٠٠.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

(**إنّ شانئك**) أي الّذي يبغضك (**هو الأبتر**) ومقطوع النّسل لا أنت، فإنّ النّسل نسلان، نسل ذريّة ونسل عقيدة، والثّاني أفضل من الأوّل، وإنّ الأوّل لا يعدّ نسلاً ما لم يكن من أهل عقيدتك، ألا يرى أنّه تعالى قال لنوح في حقّ إبنه: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ سورة هود الآية/٤٦، وألا يرى أنّ الولد يحرم من إرث والده إذا لم يكن على عقيدته. وقد صدق الله تعالى إذ لا يزال إلى يوم القيامة من يدين بدين محمّد ويحمل عقيدته ويقدّس شريعته، ولكن لم يبق أحد على دين أبي جهل وأبي لهب وعاص بن وائل وغيرهم من صناديد قريش الّذين قالوا لمحمّد أبتر، وكذلك ترى ملايين النّاس يعتزّ بالإنتساب إلى الرّسول، ويقول أنا حسني أو حسيني فهل ترى من يدّعي الإنتساب اليوم إلى أبي جهل وغيره من هؤلاء الّذين أخفى الله نسلهم، سواء أكان من جهة النّسب أو من جهة العقيدة، فقد حقّق الله تعالى قوله: (إنّ شانئك هو الأبتر) فإنّهم هم الأبتر لا محمّد (ﷺ).

وفي هذه السّورة إشارة إلى أنّ من أدّى عباداته البدنيّة والماليّة وتوجّه إلى الله تعالى بكلّيته وتوكّل عليه يكون مبغضه أبتراً خاسراً لا بركة فيه، ويبقى هو غانماً وذا عاقبة حسنة.

سورة الكافرون

(مكيّة، نزلت بعد الماعون، وآياتها ستّ)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾

(قل يا أيّها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون) الإسلام صراحة لا يقبل كنايةً، واضح لا يقبل خفاءً، صلب لا يقبل ليناً، صفاء لا يقبل خلطاً. أراد بعض الكافرين من الرّسول (ﷺ) أن يميل إلى دينهم بعض الشّيء فيميلوا إلى دينه ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ سورة القلم الآية/٩. فأمره الله تعالى أن يصارحهم وينابذهم فقال **(قل يا أيّها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون)** أي قل يا محمّد للكافرين بك وبدينك وبما جئت به، قل للمشركين وأهل الكتاب وصارحهم ونابذهم وقل: يا أيّها الكافرون بي وبما جئت به **(لا أعبد ما تعبدون)** الّذي تعبدونه من أصنام وهياكل وإله له ولد أو له بنات **(ولا أنتم عابدون ما)** الّذي **(أعبد)** من إله منزّه عن الشّريك والولد والبنات، وكما أنّي تبرّأت من عبادة معبودكم، فقد تبرّأت من كيفيّة ونوعيّة عبادتكم فقل: **(ولا أنا عابد ما عبدتم)** عبادة مثل عبادتكم **(ولا أنتم عابدون ما أعبد)** مثل عبادتي فمعبودي غير معبودكم وعبدتي غير عبادتكم **(لكم دينكم ولي ديني)** وديني غير دينكم ودينكم غير ديني، فلا يمكن الجمع بيننا ولا يمكن أن أدخل في الإسلام ما ليس منه. وتسمّى هذه السّورة سورة المنابذة، كما تسمّى سورة الإخلاص بالإخلاص. روي أنّه كان أحد

الأصحاب يصلّي ركعتي المغرب فقال (ﷺ): له في الرّكعة الأولى: نابذ بمعنى: إقرأ سورة المنابذة فقرأها، وقال له في الرّكعة الثّانية: أخلص، فقرأ سورة الإخلاص، فسنّ للمسلم أن يقرأ هاتين السّورتين في سنّة الفجر وسنّة المغرب ليجدّد المنابذة والإخلاص.

وإذاً أنّه من واجب المسلمين أوّلاً منابذة الكافرين وعقيدتهم وشريعتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ثمّ التّوجّه إلى الإخلاص لله تعالى وأنّه لا يتمّ الإخلاص إلّا بالتّنزه عن جميع ما للكافرين من نظام وعقيدة وشريعة ودستور، فإنّه لا يمكن الجمع بين المتضادّين ولا يصحّ الميل إلى المتغايرين[١]. فتوجّه أيّها المسلم إلى الإسلام بكليّته وإلّا فلا يقبل منك هذا الإسلام، والله تعالى غنيّ عن كلّ كفر ونفاق، وهكذا وضوح الإسلام وصراحته وصلابته، فهو سبيل واحد مستقيم لا إلتواء فيه ولا إعوجاج فيه. اللّهم اهدنا فيمن هديت برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

سؤال: كيف نقول لأهل الكتاب (لا أعبد ما تعبدون) ومعبودهم هو الله تعالى؟

الجواب: إنّ معبودهم هو الله الّذي يوصف بأنّه أبو العزير أو أبو المسيح، ومعبود المسلمين هو الله الّذي تنزّه عن الولد والوالد، وكلّ ما يصفون به، فبهذا يكون معبوده غير معبودهم.

❊ ❊ ❊

(١) تجري في عصرنا هذا محاولات كثيرة لتضييع شخصية الإسلام عن طريق الدعوة إلى تقارب الأديان تارة والخلط بين الإسلام والعلمانية أو الديموقراطية تارة أخرى وهذه مؤامرة يجب أن ينتبه إليها المسلمون ويجب منا بذة الكفار ومبادئهم وعدم الخلط حتى لا يضيعوا..

سورة النّصر

(مدنيّة، نزلت بعد التّوبة، وآياتها ثلاث)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾

كان رسول الله (ﷺ) يسكن المدينة المنوّرة وينظر إلى تلك القبائل الّتي تحيط بالمدينة، والّتي نصبت راية العداء والتّنكّر لهذا الدّين. كما وينظر إلى مكّة المكرّمة بلدة آبائه وأجداده ومسقط رأسه وإلى البيت الّذي بناه جدّه إبراهيم ليعبد الله فيه وحده ولا يشرك به شيء، فها هو هذا البيت مغتصّ بالأصنام ويعبدها قريش. وإنّ قريشاً تكاد تميّز من الغيظ لهذا الرّسول الكريم، إذ جاء يناديهم إلى الرّجوع إلى الدّين الخالص دين أبيهم إبراهيم (عليه السلام)، وإلى نبذ عبادة الأصنام والإشراك بالله تعالى، وأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً. وإلى أن يعتنقوا هذا الدّين الّذي أنزل الله تعالى رحمة للعالمين. وقد كان الرّسول (ﷺ) كما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ سورة التوبة الآية/ ١٢٨. كان حريصاً على إيمان القوم ويعزّ عليه هلاكهم بسبب كفرهم. فلا شكّ أنّه كان يضيق صدره الشّريف ويحزن قلبه المبارك. حينما يرى إصرار الأمّة على الضّلالة وبعدهم عن الهدى وسلوك السّبيل المستقيم. فسلّاه الله تعالى وبشّره بقرب النّصر وفتح مكّة ودخول النّاس في دينه الشّريف دين الله تعالى ربّ العالمين فقال: **(إذا جاء نصر الله والفتح)** كلمة إذا تستعمل فيما يتحقّق وقوعه فالمعنى: أنّ النّصر يأتي دون شكّ

وتفتح مكّة **(ورأيت النّاس يدخلون في دين الله تعالى أفواجاً)** أي جماعات جماعات وقبيلة قبيلة بعد أن كان يدخلون فيه فرادى وأشخاص قليلون، فإذا جاء هذا النّصر يا محمّد وفتحت مكّة ودخل النّاس في دين الله أفواجاً **(فسبّح)** كثيراً ما يقال التّسبيح عند وقوع أمر عظيم وغير مترقّب. والمراد به تنزيه الله تعالى عن أن يعجز عن خلق مثل هذا الأمر العظيم. فالمعنى: فاعتقد أيّ داوم على عقيدتك بأنّ الله تعالى منزّه عن أن يعجز عن نصرك وفتح مكّة على يدك وجعل النّاس يدخلون في دين الله تعالى أفواجاً. والمعنى يظهر ذلك التّنزّه في ذلك الوقت ظهور الشّيء بوجوده وجوداً محسوساً وقوعيّاً كما كان قبل ذلك موجوداً في عقيدتك وجوداً اعتقاديّاً علميّاً **(بحمد ربّك)** أي مصاحباً ذلك التّنزيه بحمد ربّك أي بشكره على هذه النّعم العظيمة نعمة الفتح والنّصر ودخول النّاس في هذا الدّين، فإنّ الحمد لله إذا وقع مقابل النّعمة يكون شكراً.

فائدة: عطف الله تعالى الفتح على النّصر لأنّ النّصر كان سبباً للفتح. وعطف دخول النّاس في الدّين على الفتح، لأنّ فتح مكّة كان سبباً لإسلام النّاس. وذلك لأنّ مكّة كانت كعاصمة للجزيرة العربيّة وللقبائل المجاورة لها خاصّة. فإذا سقطت العاصمة سقط ما يتبعها عادة. وإنّ القبائل حينما رأت قريشاً دانت لرسول الله (ﷺ) لم يبق لها مجال إلّا الإسلام والدّخول فيه، فأسلموا.

(واستغفره إنّه كان تواباً) أي واستغفر الله يا محمّد إنّ الله كان توّاباً ولا يزال يقبل التّوبة عن عباده.

* * *

سؤال: كيف أمر الله تعالى رسوله بالاستغفار وهو معصوم؟

الجواب: قد ذهب كثير من المفسّرين للخروج عن هذه الورطة إلى ما وقعوا فيها أخيراً، فإنّ كلّهم أثبتوا للرّسول ذنباً ثمّ قالوا: إنّه ليس بذنب إلّا أنّ (حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين)[1] أو غير ذلك من التّأويل.

والّذي اعتقد: أنّ هذا غلط لأنّ عصمة الرّسول معناها العصمة من الذّنب كلّه،

(١) قيل هو من كلام الجنيد البغدادي وليس حديثا وقيل من كلام أبي سعيد الخراز / انظر تفسير القرطبي ١/ ٣٠٩، والأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة١/ ١٨٦ رقم ١٧٢.

سواء ما كان ذنباً بالنّسبة إليه خاصّة أو بالنّسبة للنّاس كلّهم. فالحقّ ما نقله الإمام الرّازي عن بعض العلماء من أنّ المعنى: (واستغفر) يا محمّد لهؤلاء الّذين يدخلون في دين الله أفواجاً، فإنّك إن تستغفر لهم يغفر الله تعالى لهم، فإنّ الله كان توّاباً.

أقول: وهذا التّفسير يوافق قوله تعالى ﴿ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهُم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرّسول لوجدوا الله توّاباً رحيماً﴾ سورة النّساء الآية/ ٦٤. وهكذا يجب أن يحمل كلّ ما ورد من الاستغفار والمغفرة الواردة في حقّ الأنبياء والمرسلين على غير معناه الحقيقي، جمعاً بينه وبين ما ثبت من عصمة الأنبياء سيّما من هو خير الأنبياء وإمام المرسلين.

* * *

خاتمة: إنّ في هذه السّورة لمعجزة باهرة لأنّها أخبرت بالنّصر والفتح وإسلام النّاس قبل وقوعها بزمان. وقد وقع كما أخبرت. فيكون إخباراً عن الغيب كما هو فيكون معجزة. ثمّ إنّ قصّة فتح مكّة ذكرت في تفسير القرطبيّ والإمام الرّازي والخازن بعبارات مختلفة متحدّة المعنى والمفاد، إلّا أنّه حيث كانت عبارة الخازن أضبط وأوضح فأنقل لكم القصّة كما هي في الخازن إن شاء الله تعالى.

* * *

قصّة الفتح: قال الخازن (رحمه الله) في تفسير هذه السّورة: كانت قصّة الفتح كما ذكره ابن إسحاق وأصحاب الأخبار أنّ رسول الله (ﷺ) لمّا صالح قريشاً عام الحديبيّة إصطلحوا على وضع الحرب بين النّاس عشرين سنة، وقيل: عشر سنين، يأمن فيهن النّاس ويكفّ بعضهم عن بعض، وأنّه من أحبّ أن يدخل في عقد محمّد (ﷺ) وعهده دخل فيه ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فدخلت بنو بكر في عهد قريش. ودخلت خزاعة في عهد النّبيّ (ﷺ) وكان بينهما عداء قديم، ثمّ إنّ بني بكر عدت على خزاعة وهم على ماء لهم أسفل مكّة يقال له: الوتير، فخرج نوفل بن معاوية الدّؤلي في بني الدّؤل من بني بكر حين بقيت خزاعة على الوتير، فأصابوا منهم رجلاً وتحاوروا واقتتلوا وردفت قريش بني بكر بالسّلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل باللّيل مستخفياً حتّى حزوا خزاعة إلى الحرم، وكان ممّن أعان بني بكر من قريش على خزاعة ليلتئذ بأنفسهم بكر بن صفوان بن أميّة وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو

مع عبيدهم، فلمّا انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر: يا نوفل أنّا قد دخلنا إلى إلهك، فقال: كلمة عظيمة إنّه لا إله له اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنّكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ قال: فلمّا تظاهر بنو بكر وقريش علي خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله (ﷺ) من العهد والميثاق بما استحلّوا من خزاعة، وكانوا في عقده خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتّى قدم على رسول الله (ﷺ) المدينة، وكان ذلك ممّا أهاج فتح مكّة فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظهراني النّاس فقال:

يـاربّ إنّـي نـاشـد مـحـمـدّاً ... حـلـف أبـيـنـا وأبـيـه الأتـلـدا

قـد كـنـتـمـو ولـداً وكـنّـا والـداً ... ثـمّـت أسـلـمـنـا فـلـم نـنـزع يـداً

فـانـصـر هـداك الـلـه نـصـراً أعـتـدا ... وادع عـبـاد الـلـه يـأتـوا مـددا

فـيـهـم رسـول الـلـه قـد تـجـرّدا ... إن سـيـم خـسـفـاً وجـهـه تـربّـدا

فـي فـيـلـق كـالـبحـر يـجـري مـزبـدا ... إنّ قـريـشـاً أخـلـفـوك الـمـوعـدا

ونـقـضـوا مـيـثـاقـك الـمـؤكّـدا ... وجـعـلـوا لـي فـي كـداء رصـدا

وزعـمـوا أن لـسـت أدعـوا أحـدا ... وهـم أذلّ وأقـلّ عـددا

هـم بـيـتـونـا بـالـوتـيـر هـجـدا ... قـتـلـونـا ركّـعـاً وسـجّـدا

فـانـصـر هـداك الـلـه نـصـرا أبـدا

فقال رسول الله (ﷺ): قد نصرت يا عمرو بن سالم، ثمّ عرض لرسول الله (ﷺ) عنان من السّماء فقال: إنّ هذه السّحابة لتشهد بنصر بني كعب وهم رهط عمرو بن سالم، ثمّ خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتّى قدموا على رسول الله (ﷺ) المدينة فأخبروه بما أيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثمّ إنصرفوا راجعين إلى مكّة. وقد كان رسول الله (ﷺ) قال للنّاس كأنّكم بأبي سفيان قد جاء يشدّد في العقد ويزيد في المدّة، ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه حتّى لقوا أبا سفيان بعسفان قد بعثه قريش إلى رسول الله (ﷺ) يشدّد في العقد ويزيد في المدّة وقد رهبوا من الّذي صنعوا، فلمّا لقي أبو سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل؟ وظنّ أنّه أتى رسول الله (ﷺ) قال: سرت في خزاعة في هذا السّاحل وفي بطن هذا الوادي، قال: وهل أتيت محمّداً؟ قال: لا، فلمّا راح بديل إلى مكّة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد

علف فيها النّوى، فعمدا إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففتّه فرأى فيه النّوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمّداً. ثمّ خرج أبو سفيان حتّى قدم على رسول الله (ﷺ) المدينة فدخل على إبنته أو حبيبة بنت أبي سفيان فلمّا ذهب ليجلس على فراش رسول الله (ﷺ) طوته عنه فقال: أي بنيّة أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عنّي؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله (ﷺ) وأنت رجل مشرك نجس لم أحبّ أن تجلس على فراش رسول الله (ﷺ)، فقال: والله لقد أصابك يا بنيّة بعدي شرّ. ثمّ خرج حتى أتى رسول الله (ﷺ) فكلّمه فلم يردّ عليه شيئاً، ثمّ ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فكلّمه أن يكلّم له رسول الله (ﷺ) فقال: ما أنا بفاعل، ثمّ أتى عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) فكلّمه فقال: أنا أشفع لك إلى النّبيّ (ﷺ)؟! فوالله لولم أجد إلّا الذّر لجاهدتكم به، ثمّ خرج فدخل على عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله (ﷺ) وعنده الحسن بن عليّ غلاماً يدبّ بين يديها فقال: يا عليّ إنّك أمسّ القوم بي رحماً وأقربهم منّي قرابةً، وقد جئت في حاجة فلا ارجعنّ كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله (ﷺ)، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد أرى عزم رسول الله (ﷺ) على أمر لا نستطيع أن نكلّمه فيه، فالتفت إلى فاطمة وقال: يا بنت محمّد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين النّاس فيكون سيّد العرب إلى آخر الدّهر؟ فقالت: والله ما بلغ إبني أن يجير النّاس وما يجير أحد على رسول الله (ﷺ)، فقال: يا أبا الحسن إنّي أرى الأمور قد اشتدّت عليّ فانصحني، قال: والله لا أعلم شيئاً يغني عنك ولكنك سيّد كنانة، فقم فأجر النّاس ثمّ الحق بأرضك، قال: وترى ذلك مغنياً عنّي شيئاً؟ قال: لا والله ما أظنّ ذلك ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيّها النّاس إنّي قد أجرت بين النّاس، ثمّ ركب بعيره فانطلق فلمّا قدم على قريش قالوا له: ما وراءك؟ قال: جئت محمّداً فكلّمته فوالله ما ردّ عليّ شيئاً، ثمّ جئت ابن أبي قحافة فلم أجد عنده خيراً، ثمّ جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثمّ أتيت عليّ ابن أبي طالب فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليّ بشيء صنعته فو الله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: أمرني أن أجير بين النّاس ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمّد؟ قال: لا، قالوا: ويلك والله ما زاد عليّ أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت، قال: لا والله ما وجدت غير ذلك، قال: وأمر رسول الله (ﷺ) النّاس بالجهاز وأمر أهله أن يجهّزوه، فدخل أبو بكر (رضي الله عنه) على ابنته عائشة وهي تصلح بعض جهاز رسول الله (ﷺ) فقال: أي بنيّة أمركم رسول الله (ﷺ) أن تجهّزه؟ قالت: نعم، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا

والله ما أدري. ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) أعلم النّاس أنّه سائر إلى مكّة وأمرهم بالجدّ والتّهيّؤ وقال: اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتّى نبغتها في بلادها. فتجهّز النّاس وكتب حاطب ابن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالّذي أجمع عليه رسول الله (ﷺ)، وقد تقدمت قصّته في تفسير سورة الممتحنة، ثمّ مضى رسول الله (ﷺ) لسفره واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري، وخرج رسول الله (ﷺ) عامداً إلى مكّة لعشر بقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة فصام النّبيّ (ﷺ) وصام النّاس معه حتّى إذا كان بالكديد بين عسفان وأمج أفطر، ثمّ مضى حتّى نزل بمر الظّهران وقد عميت الأخبار عن قريش ولم يأتهم خبر رسول الله (ﷺ) ولا يدرون ما هو فاعل، خرج في تلك اللّيالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسّسون الأخبار وينظرون هل يجدون خبراً؟ أو يسمعون به؟ وقد كان العباس بن عبد المطّلب لقي الرّسول (ﷺ) ببعض الطّريق، قال ابن هشام: لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكّة على سقايته ورسول الله (ﷺ) عنه راض، فلمّا نزل رسول الله (ﷺ) من الظّهران قال العبّاس بن عبدالمطلب: ليلتئذوا صباح قريش والله لئن دخل رسول (ﷺ) مكّة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنّه الهلاك لقريش إلى آخر الدّهر، قال: فجلست على بغلة رسول الله (ﷺ) البيضاء فخرجت عليها حتّى جئت الأراك لعلّي أجد حطّاباً أو صاحب لبن أو ذا حاجة يدخل مكّة فيخبرهم بمكان رسول الله (ﷺ) ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عنوة، قال العبّاس: فوالله إنّي لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذا سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول: ما رأيت كاللّيلة نيراناً قطّ! فقال بديل: هذه والله نيران خزاعة همشتها الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة أذلّ وأقلّ من أن تكون هذه نيرانها، فعرفت صوته فقلت يا أبا حنظلة: فعرف صوتي فقال: يا أبا الفضل، فقلت: نعم، قال مالك: فداك أبي وأمّي، قلت ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله قد جاء بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين، قال: وما الحيلة؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك فاركب عجز هذه البغلة حتّى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك، فردفني ورجع صاحباه فخرجت اركض به على بغلة رسول الله (ﷺ) كلمّا مررت بنار من نيران المسلمين ينظرون إليّ ويقولون: عمّ رسول الله (ﷺ) على بغلة رسول الله (ﷺ)، حتّى مررت بعمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ فقام إليّ فلمّا رأى أبا سفيان على عجز البغلة قال: أبو سفيان عدوّ الله، الحمد لله الّذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ثمّ خرج

يشتدّ نحو رسول الله (ﷺ)، وركضت البغلة فسبقته كما تسبق الدّابة البطيئة الرّجل البطيء، فاقتحمت عن البغلة سريعاً فدخلت على رسول الله (ﷺ) ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا عدوّ الله أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني أضرب عنقه، قال: فقلت: يا رسول الله إنّي قد أجرته ثمّ جلست إلى رسول الله (ﷺ) فأخذت برأسه وقلت: والله لا يناجيك اللّيلة أحد دوني، فلمّا أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر فوالله ما تصنع هذا إلّا أنّه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا، فقال: مهلاً يا عبّاس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحبّ إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله (ﷺ): إذهب يا عبّاس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به، قال: فذهبت به إلى رحلي فبات عندي، فلمّا أصبح غدوت به إلى رسول الله (ﷺ) فلمّا رآه قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلّا الله وإنّي رسول الله، قال: بأبي أنت وأمّي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، قال (ﷺ): ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله، قال: بأبي انت وأمّي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أمّا هذه فإنّ في النّفس منها حتّى الآن شيئاً، فقال العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فتشهد شهادة الحقّ وأسلم، قال العباس: فقلت يا رسول الله إنّ أبا سفيان هذا رجل يحبّ الفخر فاجعل له شيئاً، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فلمّا ذهب لينصرف قال رسول الله (ﷺ): يا عبّاس إحبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتّى تمرّ به جنود الله، قال: فخرجت به حيث أمرني رسول الله (ﷺ) أن أحبسه، قال: ومرّت به القبائل على راياتها كلّما مرّت به قبيلة قال: من هؤلاء يا عبّاس؟ فأقول: سليم فيقول: مالي ولسليم، ثمّ القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة فيقول: مالي ولمزينة؟ حتّى نفدت القبائل لا تمرّ قبيلة إلّا سألني عنها، فإذا أخبرته عنها فيقول مالي ولبني فلان؟ حتّى مر رسول الله (ﷺ) في كتيبته الخضراء وإنّما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها، وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منها إلّا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله من هؤلاء يا عبّاس؟ قلت: هذا رسول الله (ﷺ) في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، قلت: ويحك إنّها النّبوة قال: فنعم إذاً، فقلت: إلحق الآن بقومك فاحذرهم، فخرج سريعاً حتّى أتى

مكّة فصرخ في المسجد بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمّد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، قالوا: فمه؟ قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: ويحك وما تغني عنّا دارك؟ قال: من دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، فتفرّق النّاس إلى دورهم وإلى المسجد قال: وجاء حكيم ابن حزام وبديل بن ورقاء إلى رسول الله (ﷺ) فأسلما وبايعاه، فلمّا بايعاه بعثهما رسول الله (ﷺ) بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإسلام، ولمّا خرج حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء من عند رسول الله (ﷺ) عامدين إلى مكّة بعث في أثرهما الزّبير وأعطاه رايته وأمره على خيل المهاجرين والأنصار، وأمره أن يركّز رايته بأعلى مكّة بالحجون، وقال: لا تبرح حيث أمرتك أن تركّز رايتي حتّى آتيك، ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) كان ليضع رأسه تواضعاً لله عزّ وجلّ حين رأى ما أكرمه به من الفتح حتّى أنّ عثنونه ليكاد يمسّ واسطة الرّحل، ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) دخل مكّة وضرب قبّته بأعلى مكّة، وأمر خالد بن الوليد فيمن أسلم من قضاعة وبني سليم أن يدخلوا من أسفل مكّة وبها بنو بكر وقد استنفرتهم قريش وبنو الحرث بن عبد مناف ومن كان من الأحابيش، أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكّة، وأنّ صفوان بن أميّة وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا، وقال النّبي (ﷺ) لخالد والزبير حين بعثهما: لا تقاتلا إلّا من قاتلكما، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض النّاس من كدى، فقال سعد حين توجّه داخلاً: اليوم يوم فيه تستحلّ الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين قيل هو عمر بن الخطاب فقال لرسول الله (ﷺ): اسمع ما قال سعد بن عبادة وما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال النّبيّ (ﷺ) لعليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أدركه بهذه الرّاية فكن أنت الّذي تدخل بها، فلم يكن بأعلى مكّة من قبل الزبير قتال، وأمّا خالد بن الوليد فقدم على قريش وبني بكر والأحابيش بأسفل مكّة فقاتلوهم فهزمهم الله ولم يكن بمكّة قتال غير ذلك، وقتل من المشركين إثني عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً ولم يقتل من المسلمين إلّا رجل من جهينة يقال له: سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد ورجلان يقال لهما كرز بن جابر وخنيس بن خالد شذّا وسلكا طريقاً غير طريقهم وكان رسول الله (ﷺ) قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكّة أن لا يقاتلوا إلّا من قاتلهم إلّا نفراً منهم سمّاهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت ستار الكعبة، منهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وإنّما أمر بقتله لأنّه كان قد أسلم فارتدّ مشركاً ففرّ إلى عثمان وكان أخاه من الرّضاعة فغيّبه حتّى أتى رسول الله (ﷺ) بعد أن اطمأنّ أهل مكّة فاستأمنه له، وعبدالله

ابن خطل رجل من بني تميم بن غالب وإنّما أمر بقتله لأنّه كان مسلماً فبعثه رسول الله (ﷺ) مصدّقاً وكان له مولى يخدمه وكان مسلماً فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً ونام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله، ثمّ ارتدّ مشركاً، وكان له قينتان تغنّيان بهجاء رسول الله (ﷺ) فأمر بقتلهما معه، والحويرث بن نضير بن وهب وكان ممّن يؤذيه بمكّة، ومقيس بن صبابة وإنّما أمر بقتله لقتله الأنصاري الّذي قتل أخاه خطأً ورجوعه إلى قريش مرتدّاً، وسارة مولاة لبني عبدالمطلب وكانت ممّن يؤذيه بمكّة، وعكرمة بن أبي جهل، فأمّا عكرمة فهرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أمّ حكيم بنت الحرث بن هشام، فاستأمنت له رسول الله (ﷺ)، وأمّا عبدالله بن خطل فقتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي إشتركا في دمه، وأمّا مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبدالله رجل من قومه، وأمّا قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما وهربت الأخرى حتّى استؤمن لها رسول الله (ﷺ) فأمّنها، وأمّا سارة فتغيّبت حتّى استؤمن لها رسول الله (ﷺ) فأمّنها، فعاشت حتّى أوطأها رجل من النّاس فرساً له في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها، وأمّا الحويرث بن نضير فقتله عليّ ابن أبي طالب. قالت أمّ هانيء: لمّا نزل رسول الله (ﷺ) بأعلى مكّة فرّ إليّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي قالت: فدخل عليّ عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أخي فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثمّ جئت رسول الله (ﷺ) وهو بأعلى مكّة فوجدته يغتسل من جفنة وإنّ فيها أثر العجين وفاطمة إبنته تستره بثوبه، فلمّا اغتسل أخذ ثوبه فتوشّح به ثمّ صلّى ثماني ركعات الضّحى ثمّ انصرف إليّ فقال: مرحباً وأهلاً بأمّ هانيء، ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرّجلين وخبر عليّ بن أبي طالب، فقال: قد أجرنا من أجرت وأمنّا من أمنت فلا نقتلهما. ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) خرج لمّا اطمأنّ النّاس حتّى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الرّكن بمحجن في يده، فلمّا قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة وأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده، ثمّ طرحها ثمّ وقف على باب الكعبة وقد استكفّ له النّاس في المسجد فقال: لا اله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كلّ مأثرة أو دم أو مال يدعى فهي تحت قدميّ هاتين إلّا سدانة البيت وسقاية الحاج، إلا وقتل الخطأ شبه العمد بالسّوط والعصا ففيه الدّيّة مغلّظة مائة من الإبل وأربعون منها خلفة في بطونها أولادها، يا معشر قريش إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة وتعظيمها بالآباء، النّاس

من آدم وآدم من تراب، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ سورة الحجرات الآية/١٣. ثمّ قال: يا معشر قريش ما ترون أنّي فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وإبن أخ كريم. قال: إذهبوا فأنتم الطّلقاء، فأعتقهم رسول الله في المسجد وقد كان أمكنه منهم عنوة، فبذلك سمّوا أهل مكّة الطّلقاء. ثمّ جلس رسول الله (ﷺ) فقام إليه عليّ بن أبي طالب ومفتاح الكعبة بيده فقال: يا رسول الله اجمع لنا بين الحجابة والسّقاية. فقال رسول الله (ﷺ): أين عثمان بن طلحة؟ فدعى له فقال: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبرّ. قال: واجتمع النّاس للبيعة فجلس إليهم رسول الله (ﷺ) على الصّفا وعمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) أسفل منه يأخذ على النّاس فيبايعونه على السّمع والطّاعة فيما استطاعوا. فلمّا فرغ بين بيعة الرّجال بايع النّساء. قال عروة بن الزّبير: خرج صفوان بن أميّة يريد جدّة ليركب منها إلى اليمن، فقال ابن وهب الجمحي: يا رسول الله إنّ صفوان بن أميّة سيّد قومي قد خرج هارباً منك ليقذف بنفسه في البحر فأمّنه يا رسول، فقال (ﷺ): هو آمن. قال: يا رسول الله أعطني شيئاً يعرف به أمانك، فأعطاه رسول الله (ﷺ) عمامته الّتي دخل بها مكّة. فخرج بها عمرو بن وهب حتّى أدركه بجدّة وهو يريد أن يركب البحر. فقال: يا صفوان فداك أبي وأمّي اذكرك الله في نفسك أن تهلكها فهذا أمان رسول الله (ﷺ) جئتك به. فقال: ويلك أغرب عنّي لا تكلّمني، قال: فداك أبي وأمّي، أفضل النّاس وأبرّ النّاس وأحلم النّاس وخير النّاس ابن عمّك عزّه عزّك شرفه شرفك وملكه ملكك. قال: إنّي أخافه على نفسي. قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، فرجع به معه حتّى وقف به على رسول الله (ﷺ) فقال صفوان: إنّ هذا يزعم أنّك أمّنتني؟ قال: صدق، قال: فاجعلني في ذلك بالخيار شهرين. قال: أنت بالخيار أربعة أشهر. قال ابن هشام: وقد بلغني أنّ النّبيّ (ﷺ) حين افتتح مكّة ودخلها قام على الصّفا يدعو وقد أحدقت به الأنصار فقالوا فيما بينهم: أترون أنّ رسول الله (ﷺ) إذ فتح الله عليه مكّة أرضه وبلاده يقيم بها؟ فلمّا فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله. فلم يزل بهم حتّى أخبروه فقال النّبيّ (ﷺ): معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم. قال ابن إسحاق: وكان جميع من شهد فتح مكّة من المسلمين عشرة آلاف، وكان فتح مكّة لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان. وأقام رسول الله (ﷺ) بمكّة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصّلاة، ثمّ خرج إلى هوازن وثقيف. انتهت.

سورة المسد

(مكيّة، نزلت بعد الفاتحة وآياتها خمس)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾

في سبب نزول هذه السّورة أربع روايات ذكرها القرطبيّ.

الأولى: في صحيح البخاري وغيره عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما. قال لما نزلت. وأنذر عشيرتك الأقربين خرج رسول الله (ﷺ) حتّى صعد الصّفا فهتف يا صباحاه. فقالوا من هذا الّذي يهتف قالوا: محمّد؛ فاجتمعوا إليه فقال: يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبدالمطلب فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدّقيّ قالوا: ما جرّبنا عليك الكذب. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا ثمّ قام فنزلت هذه السّورة[1].

الثّانية: حكى عبدالرحمن بن زيد أنّ أبا لهب أتى النّبيّ (ﷺ) فقال: ماذا أعطى إن آمنت بك يا محمّد، فقال: كما يعطى المسلمون، قال: مالي عليهم فضل؟ قال: أيّ شيء تبغي، قال: تبّاً لهذا الدّين أن أكون أنا وهؤلاء سواء فأنزل الله (تبّت يدا أبي لهب)[2].

الثّالثة: حكى عبدالرّحمن بن كيسان أنّه كان إذا وفد على النّبيّ (ﷺ) وفد انطلق

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٩٠٢الحديث رقم ٤٦٨٧. صحيح مسلم ١/ ١٩٣ الحديث رقم ٢٠٨.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٣٢/ ١٥٣. لم أجد في كتب الحديث.

إليهم أبو لهب فيسألونه عن رسول الله (ﷺ) ويقولون له: أنت أعلم به منّا، فيقول لهم أبو لهب إنّه كذّاب، فيرجعون عنه ولا يلقونه، فأتى وفد ففعل معهم مثل ذلك فقالوا لا ننصرف حتّى نراه ونسمع كلامه، فقال لهم أبو لهب إنّا لم نزل نعالجه فتبّا له وتعسا. فأخبر النّبيّ (ﷺ) بذلك فاكتأب لذلك فأنزل الله تعالى (تبّت يدا أبى لهب وتب ... إلخ[1].

الرّابعة: أنّ أبا لهب أراد أن يرمي النّبيّ (ﷺ) بحجر فمنعه الله تعالى عنه. وأنزل (تبّت يدا أبي لهب وتب)[2].

هذا ويمكن أنّ هذه الأمور وقعت كلّها فأصبحت سبباً لنزول هذه السّورة، والّذي يظهر أنّ أبا لهب كان يعادي النّبيّ (ﷺ) عداوة شديدة يحاول ماديّاً ومعنويّاً لصدّ النّاس عن الإسلام والإيمان بالرّسول (ﷺ) فكان ذلك يؤذي رسول الله (ﷺ) ويحزنه فسلّاه الله تعالى، فقال: **(تبّت يدا أبي لهب)** التّباب الهلاك والخسارة، فالمعنى: خسرت وهلكت وذهبت بدون فائدة **(يدا أبي لهب)** أي مساعيه الماديّة والمعنويّة فلم يستطع أن يقف دون انتشار الإسلام وصدّ النّاس عنه **(وتب)** أي وهلك أبو لهب نفسه حيث أصرّ على الكفر وعدم الإيمان وليس هلاك فوق هذا الهلاك.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾

(ما أغنى عنه ماله) أي وما أفاده ولا دفع عنه العذاب ماله **(و)** لا **(ما كسب)** من الأعمال ضدّ الإسلام أو وما كسب ممّا يعتقد أنّه ينفعه ويدفع عنه العذاب والهلاك في الدّنيا والآخرة، فهلك هو وأعوانه وانتصر الإسلام والمسلمون. وهذا إخبار عن المستقبل فالمعنى: أنّه يهلك ويفنى ولا ينفعه ماله ولا كسبه وتنتصر أنت يا محمّد. وعبر عنه بالماضي لتحقّق وقوعه فكأنّه قد وقع ومضى. فهذا حال أبي لهب في الدّنيا. وفي الآخرة:

﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣﴾

أي يدخل قريباً نارا ذات لسان ولظى.

(١) تفسير القرطبي ٢٠ / ٢٣٥. لم أجده في كتب الحديث .

(٢) تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٣٥. لم أجده في كتب الحديث.

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾

(وامرأته) عطف على الضّمير المستتر في سيصلى العائد إلى أبي لهب، أي سيدخل أبو لهب هو وامرأته ناراً ذات لهب و **(حمّالة الحطب)** منصوب بتقدير أعني، ذكر للذّم أو لأنّ هذه الصّفة هي الّتي كانت سبباً لدخولها في النّار وفي معناها أقوال:

الأوّل: أنّها كانت تأتي بالحطب ذات الأشواك فتنشرها في طريق الرّسول الله (ﷺ) ليتأذّى به.

الثّاني: أنّها كانت تمشي بالنّميمة لأنّ النّميمة تشعل نار العداوة كما تشعل الحطب النّار.

الثّالث: أنّها كانت لبخلها تحتطب وتأتي بالحطب للبيع أو الوقود مع كونها مثرية وذات مال كثير.

وأقول: يجوز أنّ هذه الأمور كلّها وجدت فلذلك لقّبت بهذا اللّقب السّيئ.

﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾

أي أنّها ملازمة لحمل الحطب لا تفارقه؛ فإنّ من لازم ذلك يحمل على عنقه حبلاً دائماً. أو المعنى أنّها حينما تدخل النّار يكون في جيدها حبل من مّسد أي من ليف، للإشعار بأنّ هذه الصّفة كانت سبباً لدخولها في النّار أو لإهانتها بذلك في النّار وتحقيرها أو للأمرين معاً. هذا وأبو لهب اسمه عبدالعزّى وهو ابن عبدالمطلب وعم النّبيّ (ﷺ) وكني بأبي لهب لجماله وحسنه، حيث إنّ خدّيه ووجهه كان يضيء كالنّار ذات اللّهب.

خاتمة: يؤخذ من هذه السّورة دروس ثلاثة:

الأوّل: أنّ النّميمة من الكبائر وسبب للهلاك ودخول النّار. قال الفضيل بن عياض: ثلاث يهدمن العمل الصّالح ويفطّرن الصّائم وينقضن الوضوء: الغيبة والنّميمة والكذب. وقال عطاء بن رباح: ذكرت للشّعبي قول الرّسول (ﷺ): لا يدخل الجنّة سافك دم ولا مشّاء بنميمة ولا تاجر يرابي. فقلت: يا أبا عمرو، قرن النّمّام بالقاتل وآكل الرّبا فقال: وهل تسفك الدّماء وتنتهب الأموال وتهيّج الأمور العظام إلّا من أجل النّميمة؟.

الثّاني: إنّ أبا لهب لم يكن ليعادي محمّداً (ﷺ) لشخصه بل أنّه كان ابن أخيه الشّقيق، ومن أحبّ النّاس إليه، قيل: قد أعتق الجارية الّتي بشّرته بولادة محمّد حينما ولد. وإنّما كان يعاديه لما جاء به من الإسلام، فلو كان محمّد أعرض عن الإسلام كان أحبّ النّاس إلى أبى لهب. فكان عداء أبي لهب لهذه العقيدة عقيدة الإسلام والتّوحيد، ولذا استحقّ اللّعن والتّباب والنّار. فإذاً كلّ من وقف في طريق الإسلام وأراد صدّ النّاس عنه وإبعاده عن طريق الحياة والعمل به فهو أبو لهب ويستحقّ الوعيد الّذي أوعد به أبو لهب والعذاب الّذي أعدّ له، والتّباب واللّعن والهلاك. فهذا الحكم سار إلى يوم القيامة.

الثّالث: في هذه السّورة دليل واضح وبرهان ساطع على أنّ العبرة بالعقيدة والعمل، وأنّ الشّرف والكرامة فيهما فقط، وأنّ الافتخار بالنّسب جهل عظيم. فإنّ أبا لهب كان عمّ الرّسول (ﷺ)، وكان من أشراف قريش، إلّا أنّه حيث كان عمله سيّئاً لم ينفع له نسبه ولا قرابته من الرّسول (ﷺ) شيئاً، بل لعن ويدخل النّار مع فرعون وهامان وأمثالهما. ونزلت في ذمّه سورة تتلى ويتعبّد بتلاوتها إلى يوم القيامة. فويل للمفتخر بالإنساب ولمن يعتمد عليها يوم ينادي المنادى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ سورة المؤمنون الآية/ ١٠١.

* * *

معجزة: حينما نزلت هذه السّورة وسمع بها أبو لهب وامرأته أمّ جميل، أتت أمّ جميل رسول الله (ﷺ) وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر (رضي الله عنه) وفي يدها كفة من الحجارة، فلمّا وقفت على رسول الله (ﷺ) أخذ الله تعالى بصرها فكانت لا ترى إلّا أبا بكر فقالت له: إنّ صاحبك يهجوني والله لو وجدته لضربته بهذه الحجارة فاه. والله إنّي شاعرة، وقالت: مذمّماً عصيناه وأمره أبيناه ودينه قليناه، ثمّ انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله (ﷺ) ألا تراها رأتك؟ قال (ﷺ): ما رأتني لقد أخذ الله تعالى بصرها عنّي.

هذا ما تيسّر لنا ذكره في هذا المجال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة الإخلاص

(مكيّة، نزلت بعد النّاس، وأياتها أربع)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾

(قل) أي قل يا محمّد **(هو)** أنّ الشّأن الّذي أدعو إليه هو أنّ **(الله أحد)** لا شريك له لا في ذاته ولا في صفته ولا في أفعاله ولا في حكمه تكويناً وتكليفاً، هذا ودليل وحدانيّة الله تعالى أنّه لو وجد إلاهان أو أكثر، فإمّا أن يحدث الخلق بإرادة الكلّ، فحينئذٍ فإن كان كلّ واحد منهم علّة تامة في وجوده فيلزم تعدّد الفاعل على مفعول كلّ واحد منهم، وهو محال. وإن كان أحدهم تامّاً والباقي ناقصاً فالنّاقص ليس بإله، وإن وجد بإرادة واحد دون الباقي فالباقي إمّا عاجز فليس بإله، أو ليس بعاجز فننظر لم وجد من دون ذاك، فإن كان بموافقته فإن كان بإرادتهما معاً فيلزم تعدّد الفاعل إن كانا تامّين وإلّا فكلاهما ناقص ليس بإله، وإن كان بإرادة واحد دون الآخر فإمّا أن يكون لعجزه فليس بإله، وإمّا للاستغناء عنه فليس بإله أيضاً؛ لأنّ الإله من كان كلّ شيء محتاجاً إليه ولا يكون هو محتاجاً إلى شيء أبداً.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢﴾

أي الله هو الّذي يصمد أي يرفع إليه الحوائج لا غيره، إذ هو الّذي يقتدر على قضائها فقط.

﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣﴾

أي لم يوجد منه ولد ولم يجد هو من والد ولا والدة لأنّه:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

أي لم يكن شيء مماثلاً له لا في ذاته ولا في صفاته، فيمكن التّزاوج بينهما فيتوالد، ومن شرط التّزاوج والتّوالد التّماثل في بعض الصّفات. هذا وإن نفي الولد والولادة هنا ليس كسائر المنفيّات، بل إنّ النّفي هنا نفي لإمكان الولد والولادة، فالمعنى: أنّه ليس من شأنه ذلك، فالنّفي هنا متوجّه إلى النّسبة بين بين لا إلى النّسبة التّامة؛ لأنّه لا يتوجّه الحكم إلى النّسبة التّامة الخبريّة لا نفياً ولا إثباتاً إلّا بعد وجود النّسبة الّتي بين بين الّتي هي مدار النّسبة التّامة نفياً أو إثباتاً. والنّسبة بين بين عبارة عن استعداد الشيء لشيء نفياً أو إثباتاً.

سبب نزول السّورة: إنّ سبب نزول هذه السّورة كما ذكره القرطبيّ هو: أنّ المشركين قالوا لرسول الله: إنسب لنا ربّك؟ أو قالوا: صف لنا ربّك؟ أمن ذهب؟ أم من نحاس؟ أم من صفر؟ فأنزل الله تعالى (قل هو الله أحد) إلى آخره.

فالله أحد لا إله سواه. وهو الصّمد فلا يطلب قضاء الحوائج من غيره. وليس من شأنه أن يلد أو أن يولد، ومنزّه عن ذلك، كما وأنّه منزّه عن أن يكون له مثل لا في الذّات ولا في الأفعال ولا في الصّفات ولا في الحكم ولا في الأفعال، فهو يقضي ولا يقضى عليه، فعّال لما يريد يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا رادّ لما قضى بيده الأمر كلّه والخلق جميعاً تعالى عمّا يقول الظّالمون علوّاً كبيراً.

* * *

خاتمة: فيما ورد في فضل هذه السّورة: أولاً: ذكر القرطبيّ أنّه ثبت في صحيح البخاري أنّ رجلا سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد يردّدها فلمّا أصبح جاء إلى النّبيّ (ﷺ). فذكر ذلك له، وكان الرّجل يتقالّها أي يظنّها عملاً قليلاً. فقال رسول الله (ﷺ): والّذي نفسي بيده إنّها لتعدل ثلث القرآن[١]. هذا، والأحاديث الّتي تعدّ هذه السّورة ثلث

---

(١) صحيح البخاري ٤/١٩١٥ الحديث رقم ٤٧٢٦.

القرآن كثيرة، ووجه ذلك أنّ مقاصد القرآن ثلاثة: الأحكام، التّوحيد. والوعد والوعيد. وإنّ هذه السّورة تشتمل على التّوحيد. فلذلك عدّت ثلث القرآن.

ثانياً: قال أبو عمرو مولى جرير بن عبدالله البجلي عن جرير (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): من قرأ (قل هو الله أحد) حين يدخل منزله نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل وعن الجيران[١]. وقد ذكرت أحاديث كثيرة غير هذا تدلّ على أنّ قراءة هذه السّورة تورث سعة في الرّزق على القارئ.

ثالثاً: قال أنس (رضي الله عنه): كنّا مع رسول الله (ﷺ) بتبوك فطلعت الشّمس بيضاء لها شعاع ونور لم أرها فيما مضى طلعت قطّ كذلك. فأتى جبريل (عليه السلام) فقال له رسول الله (ﷺ): مالي أرى الشّمس طلعت بيضاء بشعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قطّ؟ فقال: ذلك لأنّ معاوية بن معاوية اللّيثي توفي بالمدينة اليوم فبعث الله تعالى سبعين ألف ملك يصلّون عليه. قال: وممّ ذلك؟ قال: كان يكثر قراءة قل هو الله أحد آناء اللّيل وآناء النّهار وفي ممشاه وقيامه وقعوده، فهل لك يا رسول الله (ﷺ) أن أقبض لك الأرض فتصلّي عليه؟ قال: نعم. فصلّى عليه ثمّ رجع[٢]. قال القرطبيّ: ذكر ذلك الثّعلبي والله تعالى أعلم.

* * *

فتدلّ هذه الأحاديث على أنّ قراءة هذه السّورة تنفع للدّنيا وللدّين ولحياة الدّنيا والآخرة كذلك، لأن فيها الإخلاص لله وتوحيده، وأنّ الإيمان والتّوحيد رأس كلّ عمل وأفضل من كلّ خصلة، فلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كلّ شيء قدير ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٢/ ٣٤٠ الحديث رقم ٢٤١٩. قال الهيثمي: فيه مروان بن سالم الغفاري وهو متروك.

(٢) سنن البيهقي الكبرى ٤/ ٥٠ الحديث رقم٦٨٢٣. وضعفه.

سورة الفلق

(مكيّة، نزلت بعد الفيل وآياتها خمس)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾

كان الجاهليّون والمشركون يستعيذون بأشياء لا قدرة لها على جلب خير ولا على دفع ضرر. كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ سورة الجنّ الآية/ ٦. وهكذا كانوا يستعيذون بالجنّ والرّقى وبالتّمائم وبالأوثان والأصنام. وحيث أنّه لا معيذ من الشرّ إلّا الله تعالى ولا مغيث إلّا هو وجاء الإسلام ليثبت هذه العقيدة ويرسّخها في القلوب. أمر الله تعالى رسوله وأمّته والنّاس جميعاً أن يستعيذوا به لا بغيره وأن يستغيثوا به لا بمن سواه، فقال: **(قل)** أي قل يا محمّد ويا كلّ من يسمع هذا الخطاب إذا أردت أن تستعيذ من أي شرّ كان قل: **(أعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق)** أي ألتجئ إلى ربّ الفلق لأن يحفظني من شرّ هذا أو من هذا الشرّ فإنّ العوذ هو الإلتجاء إلى الغير لأن يحفظك ممّا تحذره. كما أنّ اللّوذ هو الإلتجاء إلى الغير لتحصيل ما تؤمّله. قال الشّاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمّله كما أعوذ به فيما أحاذره

لا يجبر النّاس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

فالعوذ والإستعاذة من كلّ شرّ يجب أن يكون بالله تعالى لا بغيره. وعلّل ذلك بقوله: **(بربّ الفلق)** حيث لم يقل بالله أو باسم آخر من اسمائه الحسنى، فإنّ الرّب فيه معنى الإعاذة، فإنّ المربّي يعيذ ويصون من يربّيه عن ما يؤذيه ويضرّه. فالمعنى إستعذ

(بربّ الفلق) والفلق بمعنى الخلق والخلق بمعنى المخلوق، وحينما ذكر مطلقاً سيّما إذا كان معرّفاً باللّام يراد به كلّ المخلوقات عامّة. فالمعنى أعوذ بربّ المخلوق كلّه. فإنّه هو الّذي يستطيع أن يعيذني، فإنّه لا يحفظ من شرّ المخلوق إلّا من خلق المخلوق. وبيده زمامه والتّصرف فيه. فكلّ من استعاذ بمن سواه أو استغاث فقد رجع إلى الجاهليّة الأولى والإشراك بالله، شعر بذلك أو لم يشعر. هذا وقيل: إنّ الفلق هو الصّبح، فنقول: الفلق جاء بمعنى الصّبح وبمعنى الخلق إلّا أنّ تفسيره هنا بالخلق أولى ليوافق قوله: **(من شرّ ما خلق)** فإنّه إن كان ما في قوله ما خلق موصولة فالمعنى أعوذ بربّ المخلوق كلّه من شرّ الّذي خلقه كلّه ولا يستعاذ من شرّ الخلق كلّه إلّا بربّ الخلق كلّه لا بربّ الصّبح فقط، وإن كان المآل واحداً فإنّ ربّ الصّبح وربّ الخلق كلّه واحد. وإن كان ما مصدريّة فالمعنى من شرّ خلقه والخلق بمعنى المخلوق فيكون المؤدّى كما في حال الموصوليّة.

فائدة: أضاف الشرّ إلى المخلوق إشارة إلى أنّ الله تعالى لا يخلق الشرّ، فلا يضاف إليه الشرّ حيث إنّ الشرّ إنّما يأتي بالنّسبة وبالإضافة إلى المخلوق؛ وذلك لأنّ كلّ ما خلقه الله تعالى ويخلقه فهو خير للحكمة الّتي خلقه لأجلها، وإنّما يكون شرّاً بالنّسبة للمخلوق وبالإضافة إليه. فالله تعالى حينما خلق النّار خلقها للخير لتكون نعمة كما قال تعالى: ﴿تذكرةً ومتاعاً للمقوين﴾ سورة الواقعة/ ٧٣. وإن كانت شرّا بالنّسبة لمن وقع فيها واحترق. فهي في حقيقتها خير وخلقت للخير، وإنّما الشرّ وجد بتعلّق وإضافة المخلوق لا بالنّسبة لخلقه تعالى. وهكذا فكلّ ما خلقه الله تعالى إنّما خلقه لحكم أو مصالح أنيطت به فيكون خيراً، وإنّ صفة شرّيته ليس إلّا بالإضافة للمخلوق لا بالإضافة إلى الله تعالى وخلقه. ولذلك قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٢٦، ولم يقل بيدك الخير والشرّ، فإنّ كلّ ما يفعل الله تعالى من إيتاء الملك لمن يشاء أو نزعه ممّن يشاء وإعزازه من يشاء وإذلاله من يشاء كلّ ذلك خير للحكم والمصالح الّتي أرادها الله تعالى من ذلك وإن كان بالنّسبة للمنزوع منه وللمذلّ شرّاً.

* * *

بعد أن أمر الله تعالى أن يستعيذ المرء بربّه من شرّ كلّ شيء خصّص بعض الأشياء بالذّكر ممّا كان الإستعاذة من شرّها شائعة بين النّاس في ذلك الوقت بل في كلّ وقت فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾

(ومن شرّ غاسق) أي ومن شرّ اللّيل، سمّي اللّيل غاسقاً لأنّ الغسق بمعنى الظّلام واللّيل مظلم وقيّده بقوله: **(إذا وقب)** أي إذا أظلم واشتدّ ظلامه وذلك بعد غروب الشّفق الأحمر والأبيض، لأنّ الخوف في ذلك الوقت أكثر.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾

أي ومن شرّ النّفوس الشّريرة الّتي تنفث وتنفخ في العقد. ذهب المفسّرون في معنى ذلك إلى مذاهب شتّى، فمنهم من قال: المراد به نفث السّاحرات في عقد الخيط الذي يسحرن به النّاس. ومنهم من قال: هو نفث النّفوس تنفث بالنّميمة في عقد قلوب النّاس فيعقدها على العداوة والشّرّ والكراهيّة للغير. ومنهم من قال: المراد نفث النّفوس الشّريرة في عقد عزائم الخير فتحولّها وتصرف صاحبها عنها. فلنا إذاً أن نقول: إنّ الشّيء إذا ذكر مطلقاً يؤخذ منه العموم إلّا أن توجد قرينة تخصّصها ولا قرينة هنا، فالمعنى من شرّ النّفوس الشّريرة الّتي تنفث في عقد خيط السّحر أو في فكّ عقد عزائم الخير، أو في عقد القلب على الشّرّ والكراهيّة كلّها. إلّا أنّه حيث كان النّفث في عقد خيط السّحر شائعاً في ذلك الزّمان ذهب أكثر المفسّرين إلى تفسيره بذلك.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

الحسد: هو تمنّي زوال نعمة الغير، وهذا الحسد مذموم، ومن الصّفات الرّذيلة المهلكة للمرء، ويروى عن الإمام عليّ (عليه السلام): (لله درّ الحسد ما اعدله بدأ بصاحبه فقتله)[1] وأمّا بمعنى تمنّي حصول مثل ما للغير من النّعمة فيسمّى: غبطة وذلك ممدوح. وقال (ﷺ): لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلّط على هلكته في الحقّ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها[2]. أو كما قال، أي لا حسد ممدوحاً إلّا هذا، وقيّد شرّ الحاسد بقوله: **(إذا حسد)** أي إذا عمل وفق الحسد وسعى في زوال النّعمة لأنّ مجرّد الحسد الّذي هو صفة في النّفس لا يضرّ فيستعاذ منه إلّا إذا باشر صاحبه بالعمل وفقه وسعى في تحصيل ما يتمنّى من زوال نعمة المحسود،

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٨٤.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٣٩ الحديث رقم ٧٣.

والحاصل أنّ الاستعاذة من هذه الأمور كانت فاشية في ذلك الوقت، بل هو فاش دائماً، ولذلك ذكرت تلك الأمور بخصوصها لئلا يتوهّم الجهلة أنّ هذه الأشياء مستثناة، فيجوز الإستعاذة منها بغير الله تعالى لأنّ العادات والتّقاليد سادت وجرت بالإستعاذة منها بغيره تعالى كالجنّ والتّمائم والرّقي وغير ذلك ممّا اعتمدوا عليها. فكأنّه قال تعالى: استعيذوا بالله من كلّ شيء سيّما هذه الأشياء الّتي تعوّدتم الإستعاذة منها بغير الله تعالى.

خاتمة في فضل المعوذتين: قال في القرطبيّ: روى النّسائي عن عقبة بن عامر قال: أتيت رسول الله (ﷺ) فوضعت يدي على قدمه وهو راكب، فقلت: أقرأني سورة هود، أقرأني سورة يوسف؟ فقال لي (ﷺ): لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله تعالى من: (قل أعوذ بربّ الفلق)[١]، وعنه أيضا: بينا أسير مع النّبيّ بين الجحفة والأبواء إذ غشّتنا ريح مظلمة شديدة فجعل رسول الله يتعوّذ بأعوذ بربّ الفلق وأعوذ بربّ النّاس، ويقول: يا عقبة تعوّذ بهما فما تعوّذ متعوّذ بمثلهما[٢]. وفي صحيح البخاري ومسلم عن السّيدة عائشة (رضي الله عنها): أنّ النّبيّ (ﷺ) كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوّذتين وينفث، فلمّا اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها[٣] أقول: فيستفاد من هذا الحديث أنّ النّفث والنّفخ للدّاعي أي الراقي جائز. وذكر القرطبي: عن عائشة (رضي الله عنها) أنّ النّبيّ (ﷺ) كان ينفث في الرّقية. قال القرطبيّ: وأمّا ما روي عن عكرمة من قوله: لا ينبغي للرّاقي أي الدّاعي أن ينفث فكأنّه ذهب إلى أنّ الله تعالى جعل النّفث ممّا يستعاذ منه، وليس هذا هكذا لأنّ النّفث في العقد إن كان مذموماً لم يجب أن يكون النّفث بلا عقد مذموماً، ولأنّ النّفث في العقد إنّما أريد به السّحر المضر بالأرواح، وهذا النّفث لاستصلاح الأبدان فلا يقاس ما ينفع على ما يضرّ، فكراهة عكرمة النّفث والمسح خلاف السّنة. هذا وحيث انجرّ المقال إلى الرقية فمن المستحسن أن نذكر لك حكم الرّقى والتّمائم هنا.

* * *

حكم الرّقى والتّمائم:

الأوّل: وهو الرّقى جمع رقية وهي الأدعية الّتي يدعى بها للمريض، فهي جائزة بل

---

(١) سنن النسائي ٨/ ٢٥٤ الحديث رقم ٥٤٣٩.

(٢) سنن أبي داود ٢/ ٧٣ الحديث رقم ١٤٦٣.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٩١٦ الحديث رقم ٤٧٢٨، صحيح مسلم ٤/ ١٧٢٣ الحديث رقم٢١٩٢.

هي سنّة. روى البخاري ومسلم عن عائشة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا): أنّ النّبيّ كان يعوّذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: اللّهم ربّ النّاس أذهب الباس[١]، وروى مسلم عن عثمان بن أبي العاص (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): أنّه شكا إلى رسول الله (ﷺ) وجعاً يجده في جسده فقال له رسول الله (ﷺ): ضع يدك على الّذي يألم من جسدك وقل: بسم الله، وقل سبع مرات أعوذ بعزّة الله وقدرته من شرّ ما أجد وأحاذر[٢]. قال: ففعلت ذلك مراراً فأذهب الله تعالى ما كان بي، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم. فيشرع العلاج بالأدعية إذا كانت مشتملة على ذكر الله تعالى، وكانت باللّفظ المفهوم المعنى، لأنّ ما لا يفهم لا يأمن أن يكون فيه شيء من الشّرك. فعن عوف بن ملك (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قال: كنّا نرقي في الجاهلية فقلنا: يا رسول الله (ﷺ) كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا عليّ رقاكم لا بأس بالرّقى مالم يكن فيه شرك[٣]. وقال الرّبيع (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): سألت الشّافعيّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عن الرّقي؟ فقال: لا بأس أن ترقى بكتاب الله وبما تعرف من ذكر الله.

❊ ❊ ❊

هل يجوز تعليق الأدعية والتّمائم: تعليق الأدعية الواردة في الكتاب والسّنة وبشرط أن يفهم معناها، أجازته السّيدة عائشة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا) وعبدالله بن عمرو بن العاص ومالك وأكثر الشّافعية، وهو رواية عن أحمد.

وحرّمه ابن عبّاس وابن مسعود وحذيفة والأحناف (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ) للأحاديث الواردة في النّهي عن التّعليق مثل: (من علّق شيئاً وكّل إليه)[٤].

الثّانية: وهي التّمائم، والتّميمة هي الخرزة وغيرها من الأشياء الّتي تعلّق على الأولاد والمريض للحفظ أو الشّفاء فحرام بالإتّفاق، قال (ﷺ): (من علّق تميمة فلا أتمّ الله له، ومن علّق ودعة فلا أودع الله له)[٥]. والأحاديث في هذا الباب كثيرة، هذا ما تيسّر لنا ذكره وفيه كفاية، والله من وراء القصد وهو على كلّ شيء قدير.

---

(١) صحيح البخاري ٥/٢١٦٨ الحديث رقم٥٤١١

(٢) صحيح مسلم ٤/١٧٢٨ الحديث رقم ٢٢٠٢.

(٣) كنز العمال ١٠ ٢٤ الحديث رقم ٢٨٣٤٩.

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٢٢/ ٣٨٥ الحديث رقم ٩٦٠.

(٥) المستدرك على الصحيحين ٤/ ٢٤٠ الحديث رقم٧٥٠١.

سورة النّاس

(مكيّة، نزلت بعد الفلق وآياتها ستّ)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾

(قل أعوذ بربّ النّاس) أي قل يا محمّد ويا أيّها المسلم: ألتجئ إلى من هو ربّ النّاس كلّهم **(ملك النّاس)** وإلى من هو مليك النّاس جميعهم **(إله النّاس)** وإلى من هو معبود النّاس كافّة ليحفظني ويجيرني.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾

الوسواس بالفتح للواو اسم للموسوس الّذي يدخل الشّرّ في قلب الإنسان ويزيّنه فيه، وهو الّذي يسمّى بإبليس وبالشّيطان، وأمّا بكسر الواو فهي الوسوسة نفسها، فيكون مصدراً، ووصف الوسواس بقوله **(الخنّاس)** كصفة كاشفة ولازمة له. وليس للاحتراز لأنّ كلّ وسواس ودّاع إلى الشّرّ يتّصف بهذه الصّفة وهي الخنس أي الرّجوع والتّأخر والإعراض عن الوسوسة حينما ذكر العبد ربّه، ثمّ الرّجوع إلى الوسوسة حينما غفل العبد عن ذكر ربّه. كما ورد في الخبر: (إنّ الشّيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا غفل وسوس وإذا ذكر الله تعالى خنس)[1] أي رجع وأعرض. فكلّ شيطان سواء كان من الجنّ أو من الإنس ضعيف أمام من يذكر الله تعالى، كما قال تعالى في سورة النّساء: ﴿إنّ كيد الشّيطان كان ضعيفا﴾ سورة النّساء الآية/ ٧٥. وعبّر تعالى عن خنس الشّيطان

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٧/ ١٣٥ الحديث رقم ٣٤٧٧٤.

بصيغة المبالغة لكثرة تردّده على المسلم لإغوائه. فلابدّ إذاً للمسلم أن يكثر من ذكر ربّه ليقابل ما يكثر الشّيطان من الوسوسة إليه.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾

وهذا وصف آخر للوسواس ذكر لأمرين:

الأمر الأوّل: لبيان الموسوس إليه فإنّ الشّيطان يوسوس إلى الإنسان ويدخل الشّر في قلبه ويزيّنه فيه. وذكر الصّدر لأنّه محلّ للقلب، والتّعبير عن الحال باسم المحلّ من المجاز العقليّ الشّائع في الكلام البليغ.

الأمر الثّاني: أشار تعالى إلى أنّ الوسواس لا يزال يوسوس ومستمرّ في وسوسته كما يفيد ذلك المضارع الموضوع للإستمرار، وفي طيّ ذلك أمر تعالى العبد أن يداوم على ذكر ربّه فكأنّه تعالى قال إنّ الشّيطان مستمرّ على وسوسته ولا يغفل عنها لحظة، فداوم أنت على ذكر ربّك لتطرد الشّيطان عنك، فإنّ الشّيطان يفرّ من الذّكر لأنّه يحرقه كما تحرق النّار الحطب كما ثبت ذلك في الأحاديث.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

الجار والمجرور متعلّق بمحذوف تقديره الكائن ذلك الوسواس من الجنّة والنّاس، فأخبر الله تعالى بهذا أنّ الوسواس نوعان: نوع من الجنّ ونوع من الإنس وهو كلّ إنسان يدعوك إلى الشّرّ والذّنب والمعصية أو يأمرك بها أو يدعوك إلى الانحراف عن دينه وشريعته. فكلّ من دعاك إلى مخالفة دين الله والإبتعاد عن شريعته عملاً أو إعتقادا أو تنفيذاً فهو شيطان ووسواس خنّاس سواء كان من الجنّ أو من الإنس. ويجب الإبتعاد عنه والإستعاذة منه بالله، قال قتادة: إنّ من الجنّ شياطين ومن الإنس شياطين فتعوّذ بالله من شياطين الإنس، فقال الرّجل: أو من الإنس شياطين؟ قال: نعم لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١١٢. أقول: وإنّ شيطان الإنس أشدّ ضرراً من شيطان الجنّ لأنّ شيطان الجنّ يوسوس خفية ولكنّ شيطان الإنس يوسوس علناً، وكثيراً ما يهيىء لك أسباب المعصية أو يجبرك عليها.

فائدة: أمر الله تعالى أن نتعوّذ بثلاثة اسماء من اسماء الله الحسنى بالرّب وبالملك

والإله من الوسواس، فلماذا؟ قالوا: لأنّ الوسواس قويّ، ولذا أمر أن نتعوّذ منه بثلاثة اسماء، وهذا القول غير سديد لأنّ الله تعالى أمر أن نتعوّذ باسم واحد وهو بربّ الفلق من شرّ الخلق كلّه، ويدخل في الخلق الوسواس أيضاً، فالشّيطان ضعيف أمام الله تعالى جدّاً وأمامِ من يستعيذ بالله تعالى منه قال تعالى ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ سورة النساء الآية/ ٧٦. فالجواب: هو لأنّ الوسواس يأتي إلى الإنسان من ثلاثة جوانب ويريد إغواءه وإضلاله في تلك الجوانب كلّها. فلابدّ أن يتعوّذ الإنسان لكلّ جانب بصفة من صفات الله تعالى الّتي يعود ذلك الجانب إليها:

الجانب الأوّل: هو جانب الأعمال والأخلاق الّتي تعود إلى الإنسان نفسه والّتي تعود إلى التّربية والسّلوك والأخلاق، فيأتي الشّيطان ويوسوس لأنّ يخرجك من الأخلاق الإسلاميّة والّتي يحبّها الله تعالى وأمر بها في الكتاب والسّنة. وليدخلك في أخلاق سيّئة وأعمال قبيحة وصفات رذيلة. فيريد أن يخرج بك من التّواضع إلى الكبر ومن محاسبة النّفس إلى العجب ومن السّخاء إلى البخل ومن القناعة إلى الطّمع المذموم ومن الإخلاص إلى الرّياء ومن الحبّ إلى الحقد ومن حبّ الخير للنّاس إلى الحسد ومن العفّة إلى الفجور ومن الصّلاح إلى الفسق، وإلى غير ذلك من الأخلاق الفرديّة الّتي هي مذمومة عند الله تعالى. فيجب أن تتعوّذ بالرّب لأنّ يربّيك تربية تحفظك من أن يخرجك الشّيطان الوسواس إلى تربية وأخلاق غير تربية الله تعالى وغير أخلاق الإسلام والمسلمين.

الجانب الثّاني: الأمور الإجتماعيّة والإدارية. فيجب أن تتعوّذ بالله الّذي هو ملك النّاس وبيده كلّ الأمور وإدارتها من الوسواس الّذي يريد أن يخرجك من إدارة الأمور وفق شريعة الله تعالى ومطابقة لحكم الشّريعة إلى إدارتها بخلاف ما أنزل الله تعالى وحسب الهوى أو التّبعيّة.

الجانب الثّالث: هو الأمور التّعبديّة فيجب أن تتعوّذ بالإله المعبود والّذي سنّ طريق العبدة وكيفيّتها لأن يحفظك من أن تعبده بما لم يأمر به، وأن تخترع عبادات من قبلك أو تأخذها ممّن اخترعها من عنده، وذلك مثل ما ابتدع أناس أموراً يتعبّدون بها ولم ينزل الله تعالى به من سلطان مثل تلكم البدع الّتي اهتمّ بها النّاس أكثر من الفرائض والنّوافل الثّابتة، ويتناطحون عليها كما يجب أن تتعوّذ بالإله لأن يحفظك من عبادة غيره، وذلك بنسبة ما يخصّ الله تعالى إليه وطلب ما يخصّ الله تعالى منه، كالإستعانة

به ودعائه وهو غائب، وطلب قضاء الحوائج منه ممّا ابتلى به كثير من الأمّة اليوم مع الأسف الشّديد ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ القدير.

* * *

فائدة: التّعوذ بالله تعالى نوعان: قوليّ وعمليّ:

فالقولي: هو أنّه كلّما خطر ببالك أن تخالف تربية الله تعالى تربية الإسلام والمسلمين، أو أن تسوس ناساً أو تدير أمراً بخلاف ما أمر الله به تعالى، أو أن تعبد عبادة لم يأمر بها الله تعالى في كتابه ولا في سنّة رسوله، أن تقول عند كلّ خاطرة من هذه الخواطر: أعوذ بالله أو أعوذ بربّي أو أعوذ بملكي أو أعوذ بإلهي من هذه الخاطرة وممّن يوسوسها ويزيّنها إليّ وهو الوسواس الخنّاس.

والعمليّ: هو أن تتمسّك بشريعته تربية وأخلاقاً وأعمالاً فرديّة وإجتماعيّة وإداريّة وتعبديّة ولا تنحرف عن كتابه وسنّة رسوله قيد شعرة، فبذلك تكون معاذاً ومصوناً ومحفوظاً من الوسواس من الجنّة والنّاس. قال (ﷺ): (إنّي قد تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا أبداً كتاب الله وسنّتي)[١] فيفيد هذا الحديث الشّريف أنّ الضّلالة كلّ الضّلالة في الإبتعاد عن كتاب الله تعالى وسنّة محمّد رسول (ﷺ).

* * *

تنبيه: لقد أجمل الله تعالى خلاصة ما يدعو إليه القرآن الكريم وزبدة دين الإسلام في هذه السّور القصار من سورة الماعون إلى آخر سورة النّاس، فإنّ كلّ ما يدعو إليه القرآن الكريم ليرجع إلى هذه الأمور التّالية:

الأمر الأوّل: إنّ القرآن والإسلام يدعوان إلى عبادات الله تعالى ماليّة وبدنيّة وواجبات في البدن والمال، ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى، ومن فعل ذلك بأن أدّى الواجبات البدنيّة دون الماليّة أو بالعكس فهو مكذّب بالدّين وليس صادقاً في إسلامه. وأشار إلى ذلك في سورتي الماعون والكوثر كما مر شرحه هناك.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ٧٢ الحديث رقم ٣١٩.

الأمر الثّاني: يدعو القرآن والإسلام إلى منابذة ومتاركة الكافرين بالإسلام ورسوله جميعاً. في معبودهم وعباداتهم وعقائدهم ومبادئهم وأنظمتهم ودساتيرهم وعاداتهم وتقاليدهم. ومن لم يفعل ذلك فلا يعدّ مسلماً، وأشار تعالى إلى ذلك في سورة الكافرون وقد مرّ شرحه هناك أيضاً.

الأمر الثّالث: أنّ القرآن والإسلام يدعوان إلى العمل والجدّ والجهاد في سبيل نشر هذه الدّعوة وإدانة البلاد لها، وأنّ النّصر بيد الله تعالى يؤتيه لمن استقام على العمل وجدّ في الأمر. ويفتح الله تعالى عليه البلاد وينصره على العباد. وأشار إلى ذلك في سورة النّصر.

الأمر الرّابع: إنّ العبرة بالعقيدة والعمل والأخلاق والآداب وكلّ الشّرف والكرامة في ذلك، ولا ينظر الله تعالى ولا نظام الإسلام إلى الحسب والنّسب والآباء والأجداد، فعلى المسلم العمل والتّجنب عن الإفتخار بالنّسب وأشار إلى ذلك في سورة تبت فإنّه لو كان للنّسب أيّ قيمة لما وصم أبو لهب بهذا العار الّذي يتلى ويتعبّد بتلاوته إلى الأبد، وهو من أشراف قريش وعم الرّسول الأعظم (ﷺ).

الأمر الخامس: القرآن والإسلام يدعوان إلى الإعتقاد بأنّه لا حافظ إلّا الله وأنّه هو الّذي يرفع إليه الحوائج ويقضيها لا غيره، وإلى أنّه يجب توحيده في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله وفي عبادته وفي الإستعانة به والإستغاثة إليه وأشار إلى ذلك في سورة الإخلاص.

الأمر السّادس: إنّ الإسلام والقرآن يدعوان إلى أنّه لا معيذ إلّا الله ولا يستعاذ من كلّ شرّ إلّا به، فيجب على المسلم أن يتعوّذ به لا بغيره فإنّه المجير وحده ولا ينفع ولا يضرّ إلّا هو ولا يجوز الإستعاذة بغيره من الجنّ أو الإنس أو التّعاويذ أو التّمائم وغير ذلك ممّا يستعيذ به النّاس ويستغيثون إليه، وإلى أنّه لا تأثير ولا تكوين إلّا لله وأشار إلى ذلك في سورة الفلق.

الأمر السّابع: إنّ القرآن والإسلام يدعوان إلى توحيد الله في الحكم في كلّ جانب من جوانب الحياة. الجانب الأخلاقي والتّربوي والجانب الإجتماعي والإداري والجانب التّعبدي، وإنّ كلّ عمل فردي أو إجتماعي يخرج عن شريعة الله تعالى وحكمه، وكلّ عبادة لم يأمر به الله ولم يعمله أو لم يأمر به رسوله فهو من وساوس الوسواس

الخنّاس يجب على المسلم الإستعاذة منه والإبتعاد عنه، ويجب عليه أن يعتقد بأنّه ضلالة وأنّه صاحبه في النّار قال (ﷺ): إيّاكم ومحدثات الأمور فإنّ كلّ محدثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النّار)[١] وأشير إلى ذلك في سورة النّاس فأعوذ بربّ النّاس ملك النّاس إله النّاس من شرّ الوسواس الخنّاس الّذي يوسوس في صدور النّاس من الجنّة والنّاس.

أعاذنا الله تعالى منه آمين والحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على خير خلقه محمّد وآله وصحبه أو من اهتدى بهديهم أجمعين.

وهذا آخر ما وصل إليه الفكر الفاتر وأدركه الذّهن القاصر، فإن كان من الله تعالى فأحمده وأشكره وإلّا فأتوب إليه وأستغفره، وقد إجتنبت كثرة التّطويل[٢] ليسهل الفهم والحفظ على الطّالبين، وإن العاقل تكفيه الإشارة وليست العبرة بكثرة العبارة. وقد وقع الفراغ من تسويده ليلة الأربعاء المصادفة للسّابع من شهر جمادي الأولى سنة ١٤٠٤ المساوي لليوم الثّامن من شباط ١٩٨٤ في داري الواقعة في الأعظميّة في سبع أبكار ببغداد. والحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على خاتم الأنبياء محمّد وجميع النّبيين وآلهم وصحبهم أجمعين.

---

(١) هو دمج بين حديثين: الاول: ما رواه الحاكم عن العرباض صلى بنا رسول الله (ﷺ) الصبح ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فما تعهد إلينا؟ فقال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ومنهم يحيى بن أبي المطاع القرشي والثاني: عن جابر رضي الله تعالى عنه قال كان رسول الله (ﷺ) يقول في خطبته يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي له ان أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار المستدرك على الصحيحين١/ ١٧٦ الحديث رقم ٣٣٢.و سنن النسائي ١/ ٥٥٠ الحديث رقم ١٧٨٦.

(٢) يقصد تفسير جزء عم فقط إذ درّسه لطلبة العلم.

رسالة الشّيخ علي فتح الله
(رحمه الله تعالى)

(كتب لي فضيلة الشّيخ علي فتح الله الإمام والخطيب في جامع علي بيك في كركوك ومدرس المعهد الإسلامي سابقاً، والعضو في المجلس العلمي حالياً، رسالة فيها هذه الأبيات تقريظاً لما كتبته من رسائل في التّفسير باللّغتين العربيّة والكرديّة ، فندرج الأبيات المذكورة هنا لتذكرى ونرجو أن يجعلنا الله تعالى عند حسن ظنّه بنا ... آمين).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لشيخنا الفاضل البالساني وصاحب النّعمة والإحسان

العالم العامل ذي الجناحين وصاحب التّفسير والتّبيان

فحسن تفسيرك في البيان يشبه حسن صاحب الكنعان

(لطالما كنّا كغصني بان لكن نما وازددتُ في النّقصان)

يعترف بعلمه أناس ليسوا له صديقاً في الكيان

لأنّ علمه كضوء الشّمس لا ينكر بالسّهو والنّسيان

فيشهد بذلك رجال من صاحب العلوم والفرقان

يا ليتني كنت قريباً منك كحبّك في غرف الجنان

لكي أكون مستفيدا منك في الفقه والتّفسيروالمعان

ربّي بجاه سيّد الأنام وحرمة الرّجال ذي الإيمان

تحفظ العالم الفقيه من حسد الحاسد والشّيطان

قد برز واشتهر في النّاس وهو الّذي علا على الأقران
أعني به محمّداً ذا فضل محترماً يدعى بالباليساني
إنّي مصيب صائب في قولي فلست بالمرائي والمنّان

أخوكم المخلص: علي فتح الله
إمام وخطيب جامع علي بيك
بكركوك.

انتهيت بعون الله تعالى من مراجعة هذا التفسير وتصحيحه وتخريج أحاديثه مع بعض التعليقات المتواضعة عليه في ٢ذي القعدة سنة ١٤٣٢هـ الموافق ٢٠١١\١٠\٣٩م، وأنا العبد الفقير إلى اللّطف الرّباني الدّكتور أحمد بن الشّيخ محمد الباليساني، وقد قام بتخزينه في الحاسوب على حسابه ومراجعته قبلي شقيقي الأصغر منّي سنّاً الدّكتور حسين بن الشّيخ محمّد الباليساني، فقام بتصحيح وتوحيد بعض المصطلحات الّتي تتكرّر كثيراً في هذا التّفسير مثل (ﷺ) و(رضي الله عنه) و(عليه السلام) و ❊ (علامة الفصل بين الآيات) من حيث الحجم والشّكل، وكذلك تنظيم الفواصل واعطاء المسافات البينيّة وإبراز عناوين (التّنبيه والسّؤال والفائدة والحكاية)، ووضع علامة (❊) وذلك في ليلة الثّامن والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٣٣من هجرة سيّد المرسلين، الموافق ١٦/ ٨/ ٢٠١٢م، غفر الله لنا جميعاً وسترنا في الدّنيا والآخرة.

اللّهم اغفر لنا وارحمنا وعافنا واعف عنّا واجعل عملنا هذا خالصا لك يا ربّنا، واجعله منهجا لنا في حياتنا وذخرا لنا في آخرتنا، آمين.

❊ ❊ ❊